

الصِّبْرُ الْعَظِيمُ



إلن ج. هوايت

الصِّراعُ العَظِيمُ

بين الحق والباطل

بقلم: إلن ج. هوايت

ترجمة: إسحاق فرج الله

تنقيح: نبيل منصور / بَاسِم فارجو

المقدمة

لا ننشر هذا الكتاب، أيها القارئ، ليخبرنا أن في العالم خطيةً وويلًا وشقاء، فإننا نعلم هذا كله علم اليقين. ولا ننشره ليقول لنا أن هنالك عداءً مستحكما وصراعاً رهيباً لا هدنة فيه ولا هودة بين الظلمة والنور، بين الخطيئة والبر، بين الحق والباطل، بين الموت والحياة. إننا نعلم هذا في قرارة نفوسنا، ونعلم أيضاً أننا شركاء في هذا النضال نقوم بدورنا فيه.

ولكن في بعض الأحيان يداعب نفوسنا الشوق إلى معرفة المزيد عن هذا الصراع الهائل: هل بدأ في هذا الزمان أم هو أزلي؟ ما العناصر التي تدخل في مظاهره المعقدة جداً؟ ما صلتني به وما مسؤوليتي؟ لقد وجدتُ نفسي في هذا العالم من دون اختياري، فهل هذا يعني شراً أم خيراً بالنسبة إليّ؟

ما هي المبادئ العظيمة التي تدخل في هذا الصراع، وكم تطول مدته؟ وماذا تكون نهايته؟ هل ستغوص هذه الأرض، كما يقول لنا بعض العلماء، في أعماق ليل أبدي متجمد مظلم، أم أن أمامها مستقبلاً أفضل يشرق فيه نور الحياة وتنعشه محبة الله الأبدية؟

ثم إن هنالك سؤالاً يطرق أبواب قلوبنا قائلاً: كيف يمكن أن يؤول الصراع الذي في قلبي، والنضال بين الأنانية المتحكمة والمحبة الدافقة، إلى نصره كاملة حاسمة للخير والصلاح، نصره أبدية؟ ماذا يقول كتاب الله؟

وما الذي يعلمنا إياه الله عن هذه المشكلة التي لها أهمية أبدية لكل نفس؟ مثل هذه الأسئلة تواجهنا من كل ناحية وهي تأتينا بكل إصرار من أعماق قلوبنا وتطلب إجابة محددة حاسمة.

لا شك في أن الإله الذي خلق في قلوبنا هذا الحنين إلى ما هو أفضل، الحنين إلى الحق، لن يحرمنا من جواب عن كل ما نحتاج إلى معرفته، لأن « السَّيِّدَ الرَّبَّ لَا يَصْنَعُ أَمْرًا إِلَّا وَهُوَ يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الْأَنْبِيَاءِ » (عاموس ٣: ٧).

فَلِكِي نَدْرَكَ مبادئ هذا الصراع العظيم الأهمية والمتوقفة عليه حياة الكون بأسره، علينا أن نطلع عليه في هذا الكتاب لأن المؤلفة قد بسطته أمامنا في دروس متماسكة محسوسة ملموسة عظيمة الأثر، تغطي العشرين قرناً الأخيرة.

والكتاب يبدأ بالمشاهد الختامية المحزنة من تاريخ أورشليم، مدينة مختاري الله بعد رفضها رجل جلجثة الذي جاء ليخلص. ثم يسير الكتاب قُدماً على طول طريق الأمم، ويرينا الاضطهادات التي حلتْ بأولاد الله في القرون الأولى، والارتداد العظيم الذي تبع ذلك في كنيسته، ويقظة العالم التي حققها الإصلاح الذي فيه تتجلى بكل وضوح بعض المبادئ العظيمة لذلك الصراع، والدرس المخيف الذي نتعلمه من رفض فرنسا مبادئ الحق والصواب، وانتعاش الكتب المقدسة وتعظيمها، وتأثيرها الصالح المانح الحياة والخلاص، واليقظة الدينية في الأيام الأخيرة، وفك ختوم ينبوع كلمة الله

المتألقة نوراً بما فيها من إعلانات عجيبة للنور والمعرفة لمواجهة الطوفان المهلك لكل ضلالات
الظلام.

إنَّ هدف هذا الكتاب، أيها القارئ، هو أن يعين النفس المضطربة للحصول على الحل الصائب
لكل هذه المشاكل. لقد كتبته سيدة ذاقت الله ووجدته صالحاً، سيدة تعلمت من شركتها مع الله
ودرسها لكلمته أن سر الرب لخائفيه وعهده لتعليمهم.

وإن النضال الحالي الوشيك الوقوع، بما يتضمنه من مبادئ حيوية، والذي لا يمكن لإنسان أن يلتزم
جانب الحياد حياله، قد بُسّطت مبادئه الحيوية هنا بكل وضوح وقوة.

وفي الختام يخبرنا هذا الكتاب عن النصر الأبدية المجيدة، نصره الخير على الشر والحق على
الباطل والنور على الظلمة والفرح على الحزن والرجاء على اليأس والمجد على العار والحياة على
الموت والمحبة الأبدية الصبورة على كل حقد وكراهية.

ولقد كانت الطبعات السابقة لهذا الكتاب واسطة في الإتيان بنفوس كثيرة إلى الراعي الأمين.
والناشرون يسألون الله أن يجعل هذه الطبعة ذات ثمر وفير لخير النفوس الأبدية.

والمُعَرَّبُ يبتهل إليه تعالى حتى يجعل هذا الكتاب المنقول إلى العربية واسطة فعالة في يده
لاجتذاب كثيرين من أبناء شرقنا العربي إلى ملكوت النعمة والنور حتى ينالوا بالإيمان خلاص ابن الله.
الناشرون

كلمة تمهيدية

قبل دخول الخطيئة العالم كان آدم ينعم بوفاق تام مع باريه. ولكن منذ فصل الإنسان نفسه عن الله بالعصيان حُرِمَ الجنس البشري من هذا الامتياز السامي. ومع ذلك فعبر طريق تدبير الفداء انفتح لساكني الأرض طريق يمكنهم بواسطته أن يستعيدوا صلتهم بالسماء. لقد اتصل الله بالإنسان بروحه وأعطى العالم نورا الهيا بما أعلنه الله لمختاريه: « تَكَلَّمَ أَنَا اللهُ الْقَدِيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ » (٢ بطرس ١: ٢١).

وفي غضون الألفين والخمسمائة سنة الأولى من التاريخ البشري لم يظهر للناس وحي مكتوب. وأولئك الذين أوتوا علما من الله ابلغوه إلى غيرهم، فسلمه الآباء إلى بنهم مدى أجيال التاريخ المتعاقبة. وقد بدأ إعداد الكلمة المكتوبة في عهد موسى، وجمعت الإعلانات الموحى بها في كتاب واحد، واستمر إعلان الوحي ألفاً وستمائة سنة، من موسى مؤرخ الخلق والناموس إلى يوحنا كاتب أسمى حقائق الإنجيل.

والكتاب المقدس يشير إلى الله على أنه مبدعه ومؤلفه، ومع ذلك فقد سطرته أيد بشرية. ومن خلال الأسلوب الذي به كتب كل سفر من أسفار الكتاب تتبين لنا مميزات الكتب العديدين. وكل حق معلن فيه « مَوْحَى بِهِ مِنَ اللهِ » (٢ تيموثاوس ٣: ١٦)، ومع ذلك فإنه يعبر عنه بأقوال الناس. فلقد أفاض الاله السرمدى بروحه القدوس نوره في أذهان عبده وقلوبهم، فأعطوا تصورات ورؤى وآيات ورموزا. وقد عبر أولئك الذين أعلن لهم الحق بإحدى هذه الطرق عن أفكارهم بلغة بشرية.

لقد نطق الله نفسه بالوصايا العشر وكتبها بيده. فهي ليست من تأليف إنسان بل هي من الله. لكن الكتاب المقدس، بحقائقه الإلهية المعبر عنها بلغة الناس، يُبرز الاتحاد بين ما هو الهى وما هو بشرى. وقد ظهر مثل هذا الاتحاد في طبيعة المسيح الذي كان ابن الله وابن الإنسان. وهكذا يصدق على الكتاب المقدس كما يصدق على المسيح أن « الْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَ بَيْنَنَا » (يوحنا ١: ١٤).

إن أسفار الكتاب المقدس التي كتبت في عصور شتى على أيدي رجال يختلفون اختلافاً بيناً في المقام والعمل والمواهب العقلية والروحية تقدم إلينا تنوعاً بيناً في الأسلوب واختلافاً وتنوعاً في طبيعة المواضيع التي تعرض. والكتب المختلفة يستخدمون أشكالاً مختلفة للتعبير. وفي غالب الأحيان نرى الحقيقة الواحدة تُقدَّم بطريقة أخاذة بواسطة كاتب بحيث تختلف عما يقدمه كاتب آخر، وإذ يقدم كتاب عديدون موضوعاً ما من منظور مختلف يبدو للقارئ السطحي أو العديم الاكتراث أو المتعصب أن هناك تناقضاً أو تبايناً، في حين أن القارئ المفكر الوقور ذا البصيرة الصافية يرى توافقاً وانسجاماً.

إن الحق إذ يقدم بواسطة أفراد مختلفين يُعرض من وجهات نظر مختلفة. فأحد الكتاب يتأثر تأثيراً عظيماً بشكل من أشكال الموضوع، فيشدد على ما يتفق مع اختباره أو قوة إدراكه وتقديره، بينما

يسلّط كاتب آخر الضوء على ناحية أخرى. فكل كاتب يقدم تحت إرشاد الرُّوح القُدس ما انطبع بقوة في ذهنه، فتتلاقى مختلف جوانب الحق عندهم جميعاً في توافق وتناغم كاملين، وتتحد الحقائق الموحى بها في كتاب كامل هُيئ لسد حاجات الناس في كل ظروف الحياة وتجاربها.

ولقد سر الله بأن يعلن حقه للعالم بوسائط بشرية، وهو نفسه قد أهّل بروحه القدوس أناساً وجعلهم قادرين على الاضطلاع بهذا العمل. وهو الذي أرشد العقل إلى اختيار ما يُنطق به وما يُدوّن. لقد استؤمنت على هذا الكنز أوان خفية، ومع ذلك فهو من السماء. فالشهادة تُبلّغ بالتعبير الناقص للغة الإنسان، ومع ذلك فهي شهادة الله، وكل ابن مطيع مؤمن من أبناء الله يرى فيها مجد قوة إلهية مملوءاً نعمة وحقاً.

سلم الله الناس في كلمته المعرفة اللازمة للخلاص. وينبغي لهم قبول الكتاب المقدس بصفته إعلان إرادته المعصوم والمزود بسلطانه. إن أقوال الله هي مقياس الخلق، وهي معلنة للتعاليم ومحك الاختبار. «كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوْحَى بِهِ مِنَ اللَّهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبَرِّ، لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللَّهِ كاملاً، مُتَّاهِباً لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ» (٢ تيموثاوس ٣: ١٦، ١٧).

ومع ذلك فإن حقيقة كون الله قد أعلن مشيئته للناس بواسطة كلمته لا يعني أن حضور الرُّوح القُدس الدائم وإرشاده ما عدا لازمين. فالحقيقة هي على العكس من ذلك، لأن المخلص قد وعد عبده بأن الرُّوح القُدس سيوضح ويفسر لهم الكلمة الإلهية، ويفيض من نوره على تعاليمها حتى يسهل تطبيقها. وبما أن روح الله القدوس هو الذي أوحى الكتاب المقدس فمن المستحيل أن يكون تعليم الرُّوح القُدس مناقضاً لتعليم كلمة الله.

لم يُعطِ الرُّوح القُدس ولا يمكن أن يُمنح لكي يلغي الكتاب المقدس. فكلمة الله تقرر بكل صراحة أن الكتاب المقدس هو المقياس الذي به يُمتحن كل تعليم وكل اختبار. يقول يوحنا الرسول: «لَا تُصَدِّقُوا كُلَّ رُوحٍ، بَلْ امْتَحِنُوا الْأَرْوَاحَ: هَلْ هِيَ مِنَ اللَّهِ؟ لِأَنَّ أَنْبِيَاءَ كَذِبَةً كَثِيرِينَ قَدْ خَرَجُوا إِلَى الْعَالَمِ» (١ يوحنا ٤: ١). وإشعياء يعلن قائلاً: «إِلَى الشَّرِيعَةِ وَإِلَى الشَّهَادَةِ. إِنْ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ فَلَيْسَ لَهُمْ فَجْرٌ!» (فذلك لأنه ليس فيهم نور) — (إشعياء ٨: ٢٠).

لقد وقع تعبير عظيم على عمل الرُّوح القُدس بسبب أخطاء طائفة من الناس وضلالاتها، إذ ادّعت أن عندها المعرفة والنور، وصرح أفرادها أنهم ليسوا بحاجة إلى إرشاد كلمة الله. إنهم ينقادون بانفعالات وانطباعات يعتبرونها في مقام صوت الله في النفس. لكن الرُّوح الذي يسيطر عليهم ليس هو روح الله. فالانقياد وراء هذه الانفعالات، الذي يسوقهم إلى إهمال كلمة الله، يؤدي حتماً إلى البلبلة والاضطراب وخيبة الأمل والهلاك، وهذا يساعد على مناصرة الشرير في نواياه الخبيثة. ولأن خدمة الرُّوح القُدس ذات أهمية حيوية لكنيسة المسيح فإنه من بين مكايد الشيطان أن يحاول عبر ضلالات المتطرفين والمتعصبين إلحاق الاحتقار والازدراء بعمل الرُّوح القُدس وجعل شعب الله يهملون نبع القوة، الذي أعده ربنا بنفسه.

واصل الرُّوح القُدس عمله، على وفاق مع كلمة الله، طوال مدة زمن البشارة. ففي خلال العصور عندما كانت تعطى أسفار العهدين القديم والجديد لم يكف عن إيصال النور إلى أذهان بعض الأفراد

بمعزل من الإعلانات التي كانت ستجمع في أسفار الوحي الإلهي المقدس. والكتاب المقدس نفسه يخبرنا كيف قبل الناس بواسطة الروح القدس الإنذار والتوبيخ والمشورة والتعليم في مسائل لا صلة لها بإعطاء الكلمة المقدسة. ثم إن هنالك بعض الأنبياء من عصور مختلفة الذين ذكرت أسمائهم في الكتاب ولكن لا ذكر لأي كلام نطقوا به. وكذلك بعدما ختمت أسفار الكتاب المقدس كان الروح القدس لا يزال دائماً في عمله بإنارة أولاد الله وإنذارهم وتعزيتهم.

وعد يسوع تلاميذه قائلاً: « وَأَمَّا الْمُعْزِي، الروح القدس، الذي سَيُرْسِلُهُ الْآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ »، « وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ... وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ » (يوحنا ١٤: ٢٦؛ ١٦: ١٣). والكتاب يعلمنا بكل وضوح أن هذه المواعيد، التي ليست قاصرة على عصر الرسل وحده، تتناول كنيسة المسيح في كل العصور. فالمخلص يؤكد لتابعيه قائلاً لهم: « هَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الْأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ » (متى ٢٨: ٢٠). وبولس يعلن أن هبات الروح وإعلاناته أعطيت للكنيسة « لِأَجْلِ تَكْمِيلِ الْقَدِيسِينَ لِعَمَلِ الْخِدْمَةِ، لِبُنْيَانِ جَسَدِ الْمَسِيحِ، إِلَى أَنْ نُنْتَهِيَ جَمِيعُنَا إِلَى وَحْدَانِيَّةِ الْإِيمَانِ وَمَعْرِفَةِ ابْنِ اللَّهِ. إِلَى إِنْسَانٍ كَامِلٍ. إِلَى قِيَاسِ قَامَةِ مَلَأَ الْمَسِيحُ » (أفسس ٤: ١٢، ١٣).

ولقد صلى الرسول لأجل المؤمنين في أفسس قائلاً: « كَيْ يُعْطِيَكُمْ إِلَهُ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ الْحِكْمَةِ وَالْإِعْلَانِ فِي مَعْرِفَتِهِ، مُسْتَنِيرَةً عُيُونُ أَذْهَانِكُمْ، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ... وَمَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ الْفَائِقَةُ نَحْوًا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ » (أفسس ١: ١٧-١٩). إن خدمة روح الله في إنارة الأذهان وكشف أعماق كلمة الله المقدسة للعقول كانت هي البركة التي طلبها بولس لأجل كنيسة أفسس.

وبعد ظهور الروح القدس بصورة عجيبة في يوم الخمسين وعظ بطرس الشعب أن يتوبوا ويعتمدوا على اسم المسيح لغفران الخطايا، ثم قال: « فَتَقَبَّلُوا عَطِيَّةَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. لِأَنَّ الْمَوْعِدَ هُوَ لَكُمْ وَلِأَوْلَادِكُمْ وَلِكُلِّ الَّذِينَ عَلَى بُعْدٍ، كُلٌّ مَنِ يَدْعُوهُ الرَّبُّ إِلَهُنَا » (أعمال ٢: ٣٨، ٣٩).

وفي صلة مباشرة بمشاهد يوم الله العظيم وعد الرب بلسان يوثيل النبي أنه سيعلم الروح القدس على نحو خاص (يوثيل ٢: ٢٨). وقد تمت هذه النبوة جزئياً عند انسكاب الروح في يوم الخمسين، ولكنها ستتم بطريقة اشمل وأكمل عند إعلان نعمة الله التي ستلازم عمل الإنجيل النهائي.

سيزيد الصراع الهائل بين الخير والشر هولا واشتداداً حتى إلى انقضاء الدهر. ففي كل العصور احتدم غضب الشيطان ضد كنيسة المسيح. وقد منح الله شعبه فيضاً من نعمته وروحه لتقويتهم في نضالهم ضد قوة الشرير. فعندما كان على رسل المسيح أن يحملوا إنجيله إلى العالم ويكتبوه ليسلموه إلى كل الأجيال اللاحقة أعطوا إنارة خاصة من الروح. ولكن عندما تقترب أيام خلاص الكنيسة ونجاتها النهائية فالشيطان سيعمل بقوة مضاعفة. انه يأتي « وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ! عَالِماً أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلاً » (رؤيا ١٢: ١٢). وهو سيعمل « بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبٍ كَاذِبَةٍ » (٢ تسالونيكي ٢: ٩). فلمدى ستة آلاف سنة نرى ذلك العقل الجبار الذي كان يحتل أسمى مكانة بين ملائكة الله منصباً على أعمال الخداع والتضليل والإهلاك. وكل أعماق مهارة الشيطان ودهائه المكتسب، وكل ما طوره في قلبه من قسوة

في أثناء صراع الدهور هذا سُبْعاً كله ضد شعب الله في النضال الأخير. في وقت الخطر هذا على اتباع المسيح ان يقدموا إلى العالم الإنذار بقرب مجيء الرب ثانية، وسُيُعد شعباً للوقوف أمامه في مجيئه « بلا دَنَسٍ وَلَا عَيْبٍ » (٢ بطرس ٣: ١٤). ففي ذلك الوقت لن تكون هبة النعمة الإلهية والقوة الخاصة أقل لزوماً للكنيسة مما كانت في عصر الرسل.

تقول مؤلفة الكتاب: انكشفت أمامي بإنارة الرُّوح القُدُس مشاهد النضال الطويل الأمد بين الخير والشر. ومن وقت إلى آخر سمح لي أن أشاهد تقدم الصراع وتطوره، في أجيال وعصور مختلفة، بين المسيح رئيس الحياة ومُبدع خلاصنا، وبين الشيطان سلطان الشر ومبتدع الخطيئة وأول من عصى شريعة الله المقدسة. إن عداوة الشيطان للمسيح قد أثّرت ضد اتباع الفادي. ويستطيع المرء أن يتتبع عبر التاريخ العداوة نفسها ضد مبادئ شريعة الله ومبادئ الخداع والمخاتلة نفسها التي تجعل الضلالات تبدو كأنها حقيقة فيُستعاض عن شريعة الله بوصايا الناس، حتى لينقاد الناس إلى أن يتقوا ويعبدوا المخلوق من دون الخالق. فمن سياسات الشيطان الثابتة مدى العصور محاولاته الهادفة إلى تشويه صفات الله وجعل الناس يحتضنون تصورات كاذبة عن الخالق، وهكذا ينظرون إليه نظرة الخوف والكراهية بدل المحبة، واجتهاده في جعل الناس يلقون بشريعة الله جانباً إذ يجعلهم يعتبرون أنفسهم أحراراً من كل التزاماتها، واضطهاده من يتجرأون على مقاومة أكاذيبه ومخاتلاته. ويمكن تتبع هذه السياسة في عهود الآباء والأنبياء والرسل والشهداء ورجال الإصلاح.

وفي النضال الأخير العظيم سيسير الشيطان وفق هذه السياسة نفسها، مبدياً الروح نفسها وعاملاً للوصول إلى تلك الغاية نفسها كما في كل الأجيال السالفة. فالتاريخ يعيد نفسه باستثناء أن النضال المقبل سيكون قويا وعنيفا للغاية، لم يشهده العالم من قبل ولم يكن له به عهد. فمخاتلات الشيطان ستكون أشد خداعاً وهجمات أشد عنفاً وقوة، وهو لو استطاع لأَصَلَ المختارين (مرقس ١٣: ٢٢).

وإذ كشف روح الله لعقلي حقائق كلمته العظيمة ومشاهد الماضي والمستقبل فقد أمرت بأن أعرف الآخرين بما قد أعلن لي، وأن أتتبع تاريخ هذا الصراع في العصور الماضية، وعلى الخصوص لكي أقدمه بحيث يفيض نوراً على المعركة المقبلة الوشيكة الوقوع. وفي متابعة هذا الغرض حاولت أن أختار وأجمع معا أحداثاً في تاريخ الكنيسة بطريقة جعلتني أتتبع كشف الحقائق العظيمة الفاحصة التي أعطيت للعالم في فترات مختلفة والتي أهاجت غضب الشيطان وعداء الكنيسة المحبة للعالم، والتي قد حفظت بواسطة شهادة أولئك الذين: « لَمْ يُحْبُوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ ».

ويمكننا أن نرى في هذه البيانات رمزا للنضال الذي أمامنا. فإذا تنأمل فيها في نور كلمة الله وإنارة روحه نستطيع أن نرى مكايد الشرير وقد انكشفت، والمخاطر التي يجب أن يتحاشاها أولئك الذين يريدون أن يوجدوا « بلا لوم » أمام الرب في مجيئه.

إن الحوادث العظيمة التي امتاز بها تقدم الإصلاح في العصور الماضية هي من صميم التاريخ وهي معلومة جيداً ومعترف بها في العالم البروتستانتى، وهي حقائق لا يمكن لأحد أن يناقضاها. ولقد قدمت هذا التاريخ بإيجاز يلائم حجم الكتاب مراعاة للاختصار المرغوب فيه، فلو خُصصت حقائقه على نحو يتلاءم مع الإدراك السديد لتطبيقها. وفي بعض الحالات اقتبست أقوال المؤرخ الذي جمع

حقائق كثيرة معاً ليستخرج باختصار صورة شاملة للموضوع أو أوجز التفاصيل بطريقة ملائمة. ولكن في بعض الحالات لم نأت على وضع كلامه بين مزدوجين « » لأن تلك الاقتباسات لم تعط بقصد اعتبار الكاتب حجة بل لأن بيانه يقدم عرضاً معداً ومؤثراً للموضوع. وقد جرت العادة على إيراد اختبارات وآراء من يضطلعون بعمل الإصلاح في أيامنا على هذا النحو ذاته.

ليست الغاية من وضع هذا الكتاب إيراد حقائق جديدة عن الحروب والنضالات التي ثارت في العصور السالفة بقدر ما هي إظهار للحقائق والمبادئ التي لها علاقة بالأحداث المقبلة. ومع ذلك فإذ ننظر إلى كل هذه المستندات التاريخية الماضية على أنها جزء من الصراع القائم بين قوات النور وقوات الظلمة نراها تحوي مغزى خاصاً وعبرها يُسلط نور على المستقبل ينير طريق المدعوين، على غرار المصلحين القدامى، إلى الشهادة « مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ »، حتى ولو خاطروا بكل ما يملكونه من حطام هذه الدنيا.

إن غاية هذا الكتاب هي كشف الستار عن الصراع العظيم بين الحق والباطل، وفضح مكاييد الشيطان، وعرض وسائل مقاومته بنجاح، وتقديم حل مرض لمشكلة الشر العظيمة، وإفاضة نور على أصل الخطيئة وميلها النهائي بحيث تتضح عدالة الله ورحمته في معاملاته مع خلائقه، ويتوفر البرهان على شريعة الله المقدسة غير المتغيرة. وإني بكل حرارة وغيره أصلي حتى يكون هذا الكتاب واسطة تحرير النفوس من سلطان الظلمة حتى يصيروا أهلاً لأن يكون لهم نصيب في « شَرَكَةِ مِيرَاثِ الْقُدِّيسِينَ فِي النُّورِ » (كولوسي ١: ١٢) لمجد ذاك الذي قد أحبنا وبذل نفسه لأجلنا.

أ. ج. هـ

١ - خراب اورشليم

« إِنَّكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّكَ أَيُّضاً، حَتَّى فِي يَوْمِكَ هَذَا، مَا هُوَ لَسَلَامِكَ! وَلَكِنْ الْآنَ قَدْ أُخْفِيَ عَنْ عَيْنَيْكَ. فَإِنَّهُ سَتَأْتِي أَيَّامٌ وَيُحِيطُ بِكَ أَعْدَاؤُكَ بِمُتَرَسَّةٍ، وَيُحْدِقُونَ بِكَ وَيُحَاصِرُونَكَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَيَهْدِمُونَكَ وَبَنِيكَ فِيكَ، وَلَا يَتْرَكُونَ فِيكَ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، لِأَنَّكَ لَمْ تَعْرِفِي زَمَانَ افْتِقَادِكَ » (لوقا ١٩: ٤٢-٤٤).

نظر يسوع إلى اورشليم من على قمة جبل الزيتون. كان المنظر المنبسط أمامه جميلاً وساكناً. كان زمن عيد الفصح، وقد اجتمع هناك بنو يعقوب قادمين من كل البلدان لإحياء عيدهم القومي العظيم. ففي وسط الحدائق والكروم والمنحدرات السندسية الخضراء التي نصبت فيها خيام المعبد ارتفعت التلال المسطحة والقصور الفخمة وحصون عاصمة العبرانيين العظيمة، فبدت ابنة صهيون في عز كبريائها وكأنها تقول: « أَنَا جَالِسَةٌ مَلَكَةً وَلَنْ أَرَى حَزَنًا. » وإذ كانت تحس بجمالها كانت تحسب أنها آمنة وتتمتع برضى السماء، كما كانت عندما تغني الملك الشاعر قائلاً: « جَمِيلُ الارتفاع، فَرَحُ كُلِّ الأَرْضِ، جَبَلُ صِهْيُون. فَرَحُ أَقَاصِي الشَّامَالِ، مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ » (مزمو ٤٨: ٢). وقد بدت لعيون الناظرين مباني الهيكل الفخمة، وسطعت أشعة الشمس الغاربة على جدرانها المرمية البيضاء كما تألقت من البوابة الذهبية والقبة والبرج. وإذ كانت « كَمَالُ الْجَمَالِ » بدت كأنها فخر الأمة اليهودية. فَمَنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يشاهد ذلك المنظر ولا تسري في جسمه وقلبه هزة الإعجاب! ولكن يسوع كانت بقلبه أفكار تختلف عن ذلك اختلافاً عظيماً: « وَفِيمَا هُوَ يَقْتَرِبُ نَظَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبَكَى عَلَيْهَا » (لوقا ١٩: ٤١). ففي وسط فرح الجموع وهم يحيونه في دخوله الظافر وبلوحون بسَعَفِ النخل، وهتافات الفرحة تتعالى وتردد التلال صداها، وآلاف الأصوات تنادي به ملكاً، غمر نفس فادي العالم حزن مفاجئ غامض. فذاك الذي هو ابن الله ومنتظر إسرائيل، والذي بقدرته قهر الموت وأخرج الموتى من قبورهم، كان غارقاً في دموعه ليس بسبب حزن عادي بل بسبب ألم شديد لم يمكنه كبته.

ولم يكن السيد يبكي على نفسه مع أنه كان يعرف جيداً إلى أية نهاية مخيفة سينتهي طريقه. كان أمامه بستان جثسيماني، مشهد آلامه الشديدة القادمة. وكذلك كان يرى باب الضأن الذي لمدى قرون طويلة كانت تمر منه آلاف قطعان الغنم لتقدم ذبائح، والذي كان مزماً أن يفتح له عندما يكون « كَشَاةٌ تُسَاقُ إِلَى الذَّبْحِ » (إشعيا ٥٣: ٧). وكانت جلجثة، مكان الصليب، غير بعيدة من ذلك المكان. فعلى الطريق الذي كان المسيح مزماً أن يسير فيه لا بد أن يقع رعب ظلمة داجية إذ يجعل نفسه ذبيحة إثم. ولكن تأمله في هذه المشاهد لم يكن هو الذي القى عليه ظلام الحزن في تلك الساعة، ساعة الفرحة. فلم يكن تشاؤمه من عذابات، التي هي فوق طاقة البشر، هو الذي القى ظلاله على نفسه المنكرة لذاتها، بل لقد بكى على الآلاف من أهل اورشليم المقضي عليهم بالهلاك. بكى على عمى أولئك العصاة الذين أتى ليباركهم ويخلصهم.

محبة أب

إن تاريخ حقبة من الزمن تربو على ألف عام فيها أغدق الله على شعبه إحسانات عظيمة ورعاية ساهرة تمتعت بها تلك الأمة المختارة كان ماثلاً أمام عيني يسوع. فقد كان هناك جبل المُرِّيَّا حيث أوثق ابن الوعد ليوضع على المذبح ذبيحة طائعة خاضعة — كرمز لذبيحة ابن الله. وهناك تثبت لأبي المؤمنين عهد البركة والوعد المجيد بمجيء مسيا (تكوين ٢٢: ٩، ١٦-١٨). وهناك اشتعلت نار الذبيحة صاعدة إلى السماء من بيدَر أُرَنَّا فمُنعت سيف ملاك النعمة عن إهلاك المدينة (١ أخبار ٢١) — وهي رمز ينطبق على ذبيحة المخلص وتشفعه في الأئمة. لقد أكرم الله أورشليم من دون مدن الأرض كلها. والرب « قَدْ اخْتَارَ صِهْيَوْنَ. اشْتَهَاهَا مَسْكَنًا لَهُ » (مزمور ١٣٢: ١٣). ففيها نطق الأنبياء القديسون برسائل إنذارهم أجيالاً طويلة. وفيها كان الكهنة يلوِّحون بمباخرهم فكانت سحب البخور تصعد أمام الله مصحوبة بصلوات القديسين. وفيها كانت دماء الحملان المذبوحة تقدم كل يوم مستبقة مجيء حمل الله. وفيها أعلن الله حضوره في سحابة المجد فوق كرسي الرحمة (غطاء التابوت). وهناك ارتكزت قاعدة السلم السرية التي تصل الأرض بالسماء (تكوين ٢٨: ١٢؛ يوحنا ١: ٥١) — وهي تلك السلم التي كان ملائكة الله ينزلون ويصعدون عليها والتي فتحت للعالم الطريق إلى قدس الأقداس. فلو كان بنو إسرائيل كأمة قد ظلوا على ولائهم للسماء لكانت أورشليم قد ثبتت إلى الدهر كالمدينة المختارة من الله (إرميا ١٧: ٢١-٢٥). لكن تاريخ ذلك الشعب الذي قد أغدق الله عليه سيولاً من نعمه واحساناته كان سجلاً للردّة والعصيان. فلقد قاوموا نعمة السماء وانتهكوا امتيازاتهم وازدروا بالفرص السانحة المتاحة لهم.

ومع أن بني إسرائيل « كَانُوا يَهْزَأُونَ بِرُسُلِ اللَّهِ، وَرَذَلُوا كَلَامَهُ وَتَهَاوَنُوا بِأَنْبِيَائِهِ » (٢ أخبار ٣٦: ١٦) فقد ظل يعلن نفسه لهم قائلاً: « الرَّبُّ إِلَهُ رَحِيمٌ وَرَوُّوفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ » (خروج ٣٤: ٦). وعلى رغم رفضهم المتكرر فقد ظلت رحمته تدافع عنهم. فبمحبة شفوقة تفوق محبة الأب للابن الذي يراه « أَرْسَلَ الرَّبُّ إِلَهُ آبَائِهِمْ إِلَيْهِمْ عَنْ يَدِ رُسُلِهِ مُبَكِّراً وَمُرْسِلاً لِأَنَّهُ شَفَقَ عَلَى شَعْبِهِ وَعَلَى مَسْكَنِهِ » (٢ أخبار ٣٦: ١٥). فلما لم يجد الاحتجاج ولا التوسل ولا التوبيخ أرسل إليهم أعظم هبات السماء، لا بل سكب كل السماء في تلك الهبة الواحدة.

لقد أرسل ابن الله نفسه لكي يتوسل إلى تلك المدينة القاسية القلب. إن المسيح هو الذي أخرج أمة العبرانيين من مصر ككرمة جيدة (مزمور ٨٠: ٨) ويده هي التي طردت الأمم من أمامها. وقد غرسها « عَلَى أَكْمَةِ خَصْبَةٍ » وبرعايته الحارسة أحاطها بسياج وأرسل عبيده للعناية بها. وها هو يصرخ قائلاً: « مَاذَا يَصْنَعُ أَيْضاً لِكُرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْ لَهُ؟ » ومع أنه إذ انتظر من كرمه « أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا فَصْنَعَ عِنَبًا رَدِيئًا » (إشعيا ٥: ١-٤) ظل يرجو بلهفة أن يجد فيه ثمرًا فأتى بنفسه إليه لعله ينجو من الدمار والهدم. فنقب حول الكرمة وشذبها وبذل لأجلها كل ما في طوقه من اهتمام ورعاية. ولم يكل من بذل الجهود لينقذ هذه الكرمة التي هي غرس يمينه.

خلال ثلاث سنين ظل رب المجد والنور يدخل ويخرج بين شعبه. لقد « جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ »، « أَشْفَى الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ لِأَنَادِي لِلْمَأْسُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ وَلِلْعَمِيِّ بِالْبَصْرِ، وَالْعَرَجَ يَمْشُونَ وَالْبَرْصَ يَطْهَرُونَ وَالصَّمَّ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَقُومُونَ وَالْمَسَاكِينَ يَبْشُرُونَ »

(أعمال ١٠: ٣٨؛ لوقا ٤: ١٨؛ متى ١١: ٥). وقد شملت دعوته الرحمة كل الطبقات على السواء، وهي التي يقول فيها: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتَعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (متى ١١: ٢٨).

قلوب متحجرة

ومع أنهم وضعوا عليه شراً بدل خير وبغضاً بدل حبه (مزمور ١٠٩: ٥) فقد ظل دائماً في القيام برسالته، رسالة الرحمة. ولم يطرد أبداً إنساناً طلب نعمته. وإذا كان يجول من مكان إلى آخر لا يجد مبيتاً يأوي إليه، ولما كان نصيبه العار والفقر عاش لكي يخدم حاجات الناس ويخفف ويلاتهم متوسلاً إليهم أن يقبلوا هبة الحياة. فأمواج الرحمة التي صدتها تلك القلوب المتحجرة بعيداً عنها عادت إليهم بقوة إشفاق ومحبة لا يمكن التعبير عنهما. لكن أمة إسرائيل ارتدت عن أخلص صديق وأعظم معين. وقد ازدروا بتوسلات محبته ورفضوا مشوراته وسخروا من إنذاراته.

كانت ساعة الرجاء والغفران موشكة على الانقضاء، وكأس غضب الله المؤجل طويلاً كادت تمتلئ، والغيمة التي ظلت تتجمع مدى أجيال العصيان والتمرد، وقد صارت سوداء جداً تنذر بالويل والثبور، كانت توشك أن تنفجر على تلك الأمة الآثمة. وذلك الذي كان يستطيع وحده أن يخلصهم من المصير المرعب المحيق بهم احتقر وأهين ورُفض، ولسوف يُصلب بعد قليل. وحين يعلق المسيح على صليب جلجثة فإن يوم إسرائيل كأمة منعم عليها ومباركة من الله سيكون قد انقضى. إن هلاك نفس واحدة هو كارثة تصغر أمامها كل أرباح العالم وكنوزه. ولكن إذ نظر المسيح إلى أورشليم تمثل أمامه هلاك مدينة كبيرة واسعة وأمة برمتها — وهي المدينة نفسها والأمة نفسها التي كانت قبلاً مختارة من الله وكنزه الخاص.

بكى الأنبياء بسبب ردة إسرائيل والدمار المخيف الذي حل بهم. وتمني إرميا لو تكون عيناه ينبوع دموع لكي يبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبه حزناً على قطع الرب الذي أخذ أسيراً (إرميا ٩: ١؛ ١٣: ١٧). إذا فكم كان عظيماً حزن ذاك الذي شملت نظرته النبوية لا سنين فقط بل دهوراً! لقد رأى الملاك المهلك مجرداً سيفه على تلك المدينة التي ظلت مسكناً للرب حقبة طويلة من الزمن. ومن فوق قمة جبل الزيتون، وهي البقعة نفسها التي احتلها تيطس وجيشه بعد ذلك، نظر السيد عبر الوادي إلى ديار الهيكل وأروقه المقدسة فرأى بعينه المغرورقتين بالدموع منظراً مخيفاً سيحدث في المستقبل، رأى الأسوار محاطة بجيوش الغرباء وسمع وقع أقدام تلك الجيوش المصطفة للحرب، وسمع أصوات الأمهات والأولاد يصرخون في طلب الخبز في داخل أسوار المدينة المحاصرة، ورأى هيكلها المقدس الجميل وقصورها وأبراجها وقد اشتعلت فيها النار ولم يبق منها غير الأطلال المحترقة.

مشتتون في كل الأرض

وإذا تطلع عبر الأجيال رأى الشعب المختار مشتتين في كل البلدان « كحطام سفينة على شاطئ مهجور ». رأى في القصاص المؤقت الموشك أن يقع على أبناء تلك المدينة أول جرعة من جرعات كأس الغضب الذي لا بد أن يشربوه حتى الثمالة في الدينونة الأخيرة. وقد نطقت رأفته الإلهية

ومحبته المشتاقة بهذا القول النائح الحزين: « يَا أُورُشَلِيمُ، يَا أُورُشَلِيمُ! يَا قَاتِلَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا، كَمْ مَرَّةً أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلَادَكَ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فَرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا! » (متى ٢٣: ٣٧). أيتها الأمة المنعم عليها من دون جميع الأمم ليتك عرفت زمان افتقارك، وما هو لسلامك! لقد أبعدت عنك سيف ملاك العدل، ودعوتك إلى التوبة ولكن عبثاً. إنكم لم ترفضوا أو تزدلوا العبيد والأنبياء وحدهم بل قدوس إسرائيل فاديكم. فئن هلكتم فعليكم أنتم تقع تبعة هلاككم فلا تلوؤن إلا أنفسكم. « ولا تريدون أن تأتوا إلي لتكون لكم حياة » (يوحنا ٥: ٤٠).

لقد رأى المسيح في أورشليم رمزاً للعالم الذي تقسى في عدم الإيمان والتمرد والذي يسرع ليلقي بنفسه تحت طائلة دينونة الله وانتقامه. إن ويلات الجنس الساقط إذ ضغطت على روحه اغتصبت من بين شفثيه تلك الصرخة المرة. لقد رأى آثار الخطيئة في الشقاء الذي حل بالبشرية والدموع والدماء. جاشت في قلبه عواطف إشفاق عظيم على المحزونين والمتألمين في العالم وتاق إلى تخفيف آلام الجميع. ولكن حتى يده لم يمكنها أن تصد تيار ويلات البشرية، إذ قليلون من الناس هم الذين طلبوا العون من مخلصهم الوحيد. لقد كان على استعداد لأن يسلم للموت نفسه ليجعل الخلاص في متناول أيديهم، لكن قليلين هم الذين أتوا إليه لتكون لهم حياة.

جلال السماء يسكب الدموع

جلال السماء يسكب الدموع! ابن الله السرمدى تنزعج روحه وتنحني نفسه تحت ضغط العذاب والانسحاق! أدهش هذا المنظر ساكني السماء جميعاً، وهو يرينا مقدار هول الخطيئة وشناعتها، ويسلط الضوء على صعوبة إنقاذ المذنبين من عواقب تعديهم شريعة الله. فيسوع إذ تطلع عبر أجيال التاريخ اللاحقة إلى آخر جيل رأى العالم واقعاً تحت سلطان خداع شبيه بذلك الذي كان سبب خراب أورشليم. لقد كانت خطيئة إسرائيل العظيمة هي رفضهم للمسيح، وخطيئة العالم المسيحي العظمى هي رفضهم لشريعة الله التي هي أساس حكمه في السماء وعلى الأرض. فشريعة الرب ستُحتقر وتُرفض. وملايين من الناس المستعبدين للخطيئة والذين هم عبيد الشيطان المحكوم عليهم بالموت الثاني سيرفضون الإصغاء إلى كلام الحق في يوم افتقادهم. فيا للعمى الرهيب، ويا للجنون المحير الغريب!

قبل الفصح بيومين، عندما خرج المسيح من الهيكل آخر مرة بعدما شهرّ برباء رؤساء اليهود، خرج مع تلاميذه مرة أخرى إلى جبل الزيتون وجلس معهم على منحدر مكسو بالعشب الأخضر يشرف على المدينة. ومرة أخرى نظر إلى أسوارها وأبراجها وقصورها، ومرة أخرى اتجه ببصره إلى الهيكل المتألق بالمجد والبهاء الذي يخطف الأبصار، وكان إكليل جمال على هامة الجبل المقدس.

الهيكل الفخم

قبل ذلك بألف سنة تغنى صاحب المزامير بإحسانات الله على إسرائيل إذ جعل مقدسهم مسكناً له فقال: « كَانَتْ فِي سَالِيم مَظَلَّتُهُ، وَمَسْكَنُهُ فِي صِهْيُونَ »، « اخْتَارَ سِبْطَ يَهُودَا، جَبَلَ صِهْيُونَ الَّذِي أَحَبَّهُ. وَبَنَى مِثْلَ مُرْتَفَعَاتِ مَقْدِسِهِ » (مزمور ٧٦: ٢؛ ٧٨: ٦٨، ٦٩). لقد بُني الهيكل الأول في أوج

نجاح شعب إسرائيل. وقد جمع الملك داود كنوزاً كثيرة جداً ونفائس عظيمة لهذا الغرض، ووضعت رسوم البناء بالهام إلهي (١ أخبار ٢٨: ١٢، ١٩). ثم أكمل ذلك العمل سليمان، أحكم ملوك إسرائيل. وكان هذا الهيكل أفخم بناء شهده العالم. ومع ذلك فقد أعلن الرب على لسان حجي النبي قائلاً عن الهيكل الثاني: «مَجْدُ هَذَا الْبَيْتِ الْأَخِيرِ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ مَجْدِ الْأَوَّلِ»، «وَأَزْلَزْلُ كُلَّ الْأُمَمِ. وَيَأْتِي مُشْتَهَى كُلِّ الْأُمَمِ، فَأَمْلَأُ هَذَا الْبَيْتَ مَجْدًا، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (حجي ٢: ٩، ٧). بعدما أخرج بُوْخَدْنَصَّرَ الهيكل أعيد بناؤه قبل ميلاد المسيح بحوالي ٥٠٠ سنة، بناه شعب كانوا قد عادوا من سبيهم الطويل الأمد ليجدوا بلادهم خربة وتكاد تكون مهجورة. وكان بينهم حينئذ أشياخ طاعنون في السن كانوا قد رأوا مجد هيكل سليمان فراحوا ييكون عند وضع أساسات الهيكل الثاني إذ رأوه أحقر من البيت الأول وأقل شأنًا. وقد وصف النبي هذا الشعور الذي ساد الشعب بقوة قائلاً: «مَنْ الْبَاقِي فِيكُمْ الَّذِي رَأَى هَذَا الْبَيْتَ فِي مَجْدِهِ الْأَوَّلِ؟ وَكَيْفَ تَنْظُرُونَهُ الْآنَ؟ أَمَا هُوَ فِي أَعْيُنِكُمْ كَلًا شَيْءًا!» (حجي ٢: ٣؛ عزرا ٣: ١٢). ثم أعطاهم الوعد بأن مجد هذا البيت سيكون أعظم من مجد الأول.

لكن الهيكل الثاني لم يكن مساوياً للأول في فخامته، كلا ولا تَقَدَّسَ بعلامات الحضور الإلهي الظاهرة التي امتاز بها الهيكل الأول، ولم يكن هنالك مظهر للقوة الخارقة الفائقة الطبيعة يُمَيِّزُ به تكريس الهيكل الثاني. فما ملأتُ سحابة المجد ذلك المُقَدَّسَ المبني حديثاً، ولا نزلت نار من السماء لتأكل الذبيحة الموضوعة على المذبح، ولا عاد الشكيناء يحل بين الكرويين في قدس الأقداس. ثم إنه لا التابوت ولا كرسي الرحمة ولا لوح الشهادة وُجِدت في الهيكل. ولم يُسمع صوت آت من السماء معلناً للكهنة السائلين إرادة الرب.

يتمجد بحضور المسيح

حاول اليهود عبثاً مدى قرون طويلة أن يروا في أي شيء تم وعد الله إياهم على لسان حجي. لكن الكبرياء وعدم الإيمان أعميا أذهانهم حتى لا يفهموا معنى كلام النبي. إن الهيكل الثاني لم يُكرم بسحابة مجد الرب بل بالحضور الحي لذلك الذي فيه قد حل ملء اللاهوت جسدياً — الذي كان هو ذات الله ظاهراً في الجسد. لقد أتى «مشتهى كل الأمم» إلى هيكله حقاً عندما كان رجل الناصرة يعلم ويشفي في أروقته المقدسة. ففي حضور المسيح، وفي هذا وحده، فاق الهيكل الثاني الأول مجداً. لكن إسرائيل ألقى بعيداً منه عطية السماء المسداة إليه. فإذ خرج المعلم الوضع في ذلك اليوم من باب الهيكل الذهبي رحل المجد عن الهيكل إلى الأبد. ولقد تم من قبل كلام المخلص القائل: «هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا» (متى ٢٣: ٣٨).

امتلاً التلاميذ دهشة ورهبة عندما سمعوا المسيح يتنبأ بخراب الهيكل، وكانوا يرغبون في معرفة معنى كلامه كاملاً. ففي مدة تزيد على الأربعين عاماً بذل اليهود بكل سخاء كل ما لديهم من مال وجهد ومهارة في فن العمارة ليزيدوا من عظمة الهيكل وبهائه وفخامته. وأغدق هيرودس الكبير على الهيكل ثروة الرومان وكنوز اليهود، بل حتى الإمبراطور سيد العالم نفسه وهبه الكثير من عطاياه

الثمينة. لقد أتى بكتل هائلة من الرخام الأبيض ذي الحجم الكبير من روما للمساهمة في بناء الهيكل وتزيينه. ووجه التلاميذ نظر المسيح معلمهم إلى تلك الأحجار الضخمة قائلين له: « يَا مُعَلِّمُ، انْظُرْ! مَا هَذِهِ الْحِجَارَةُ! وَهَذِهِ الْأَبْنِيَّةُ! » (مرقس ١٣: ١).

« متى يكون هذا »

جواباً على هذا الكلام نطق يسوع بهذا القول المفزع الخطير قائلاً: « الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا يَتْرُكُ هَهُنَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْقَضُ! » (متى ٢٤: ٢).

خلط التلاميذ بين خراب أورشليم وحوادث مجيء المسيح الشخصي في مجد عالمي ليجلس على عرش إمبراطورية العالم كله، ويعاقب اليهود غير التائبين، ويخلع عن أعناق الأمة نير الرومان. كان الرب قد أخبرهم انه سيأتي ثانية، فلما ذكر أحكامه التي سيوقعها على أورشليم اتجهت أفكارهم إلى ذلك المجيء. فإذا التفوا حول المخلص فوق جبل الزيتون سألوهم قائلين: « قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا؟ وَمَا هِيَ عَلَامَةُ مَجِيئِكَ وَانْقِضَاءِ الدَّهْرِ؟ » (متى ٢٤: ٣).

لقد أخفى المستقبل عن التلاميذ رحمة بهم. فلو أدركوا إدراكاً شاملاً في ذلك الحين هاتين الحقيقتين المخيفتين — أي آلام الفادي وموته، وخراب أورشليم وهيكلهم — لكان قد غمرهم رعب عظيم. لقد استعرض المسيح أمامهم ملخصاً للأحداث العظيمة التي ستقع قبل انقضاء الدهر. ولم يفهموا كلامه فهماً كاملاً حينذاك، لكن معناه كان سيتضح إذ كان يجب ان يفهم شعب الرب التعليم والتوجيه المتضمنين في كلام المسيح لشدة حاجتهم اليه. وكانت النبوة التي نطق بها يسوع ذات معنى مزدوج، ففي حين كانت ترمز إلى خراب أورشليم كانت أيضاً رمزاً لأهوال اليوم الأخير العظيم.

أعلن يسوع لتلاميذه المصغين إلى حديثه الأحكام والضربات الموشكة أن تنصب على شعب إسرائيل المرتدين، وعلى الخصوص الانتقام الجزائي الذي سيحقق بهم بسبب رفضهم مسيياً وصلبهم إياه. وستسبق ذلك العمل المخيف والعظيم الأهمية علامات لا تخطئ. وقد تجيء الساعة الرهيبة فجأة وبسرعة عظيمة. وحذر المخلص تابعيه قائلاً: « فَمَتَى نَظَرْتُمْ رُجْسَةَ الْخَرَابِ الَّتِي قَالَتْ عَنْهَا دَانِيَالُ النَّبِيِّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ لِيَفْهَمِ الْقَارِئُ فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ » (متى ٢٤: ١٥، ١٦؛ لوقا ٢١: ٢٠، ٢١). فعندما تنصب أعلام الرومان الوثنيين في الأرض المقدسة التي كانت تمتد بضعة أميال خارج أسوار المدينة حينئذ كان على اتباع المسيح ان يهربوا لينجوا بأنفسهم. ومتى شوهدت علامة الإنذار كان يتحتم على طالبي النجاة ألا يتأخروا أو يتلكأوا في الهروب. وفي كل بلاد اليهودية كما في أورشليم نفسها كان يتعين إطاعة إنذار الهروب في الحال. فَمَنْ يَتَّفِقْ وَجُودُهُ عَلَى السَّطْحِ وَجِبَ الْأَنْزِلَ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئاً وَلَوْ كَانَ كَنْزاً مُشْتَهَى غَالِي الثَّمَنِ. والذين يعملون في الحقول أو الكروم لا يرجعون لاستعادة ثيابهم التي تركوها في بيوتهم ريثما ينتهون من عملهم في الحقول في حر النهار. يجب ألا يترددوا أو يتباطأوا لحظة واحدة لئلا يحيق بهم الهلاك الشامل.

في أثناء مُلْك هيرودس لم تكن أورشليم مزينة جداً فقط، بل بنيت فيها الأبراج والأسوار والحصون

التي زادت موقعها مناعة فبدت قوية ومنيعه لا تقهر. ومن كان ينبئ بخرابها في ذلك الحين كان يُعتبر، كما قد أُعتبر نوح من قبل، رجلاً مجنوناً مثيراً للفتن ومُختل العقل. لكن المسيح قال: « أَلَسَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَزُولَانِ وَلَكِنَّ كَلَامِي لَا يَزُولُ » (متى ٢٤: ٣٥). فلأجل خطايا أورشليم الكثيرة أرسلت إليها إنذارات الغضب، وبسبب أصرارها على عدم الإيمان خُتم على هلاكها فصار امراً محتوماً لا مفر منه.

لقد أعلن الرب على لسان ميخا النبي قائلاً: « اسْمَعُوا هَذَا يَا رُؤَسَاءَ بَيْتِ يَعْقُوبَ وَقُضَاءَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ يَكْرَهُونَ الْحَقَّ وَيُعَوِّجُونَ كُلَّ مُسْتَقِيمٍ. الَّذِينَ يَنْتُونُ صِهْيُونَ بِالدَّمَاءِ، وَأَوْرُشَلِيمَ بِالظُّلْمِ. رُؤَسَاؤُهَا يَقْضُونَ بِالرِّشْوَةِ، وَكَهَنَتُهَا يُعَلِّمُونَ بِالْأَجْرَةِ، وَأَنْبِيَآؤُهَا يَعْرِفُونَ بِالْفُضَّةِ، وَهُمْ يَتَوَكَّلُونَ عَلَى الرَّبِّ قَائِلِينَ: « أَلَيْسَ الرَّبُّ فِي وَسْطِنَا؟ لَا يَأْتِي عَلَيْنَا شَرٌّ! » (ميخا ٣: ٩-١١).

هذا الكلام يصف بكل أمانة ودقة سكان أورشليم الفاسدين والأبرار في أعين أنفسهم. ففي حين كانوا يدعون أنهم يحفظون وصايا الله وشريعته بكل تدقيق وصرامة كانوا في الحقيقة يتعدون كل مبادئها. لقد ابغضوا المسيح لأن طهارته وقداسته كشفتا عن إثمهم، واتهموه بأنه هو السبب في كل المتاعب والمصائب التي حاقت بهم جزاء لهم على خطاياهم. فمع علمهم واقتناعهم بأنه منزه عن الخطيئة أعلنوا أن موته كان أمراً لازماً لضمان سلامة الأمة. فقد قال رؤساء اليهود: « إِنْ تَرَكْنَاهُ هَكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ، فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَمَتَنَا » (يوحنا ١١: ٤٨). فلو ضحي بالمسيح لأمكنهم أن يصبحوا أمة قوية متحدة من جديد. وأخذوا يحتاجون ثم اجمعوا على العمل بقرار رئيس كهنتهم أنه خير لهم أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها.

وهكذا نجد أن رؤساء إسرائيل « يَنْتُونُ صِهْيُونَ بِالدَّمَاءِ، وَأَوْرُشَلِيمَ بِالظُّلْمِ » (ميخا ٣: ١٠). ومع ذلك ففي حين قتلوا مخلصهم لأنه وبخ خطاياهم فقد جعلهم برهم الذاتي يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار المنعم عليه وانتظروا أنه سينقذهم من أعدائهم. وهنا يستطرد النبي فيقول: « لِذَلِكَ بِسَبَبِكُمْ تُفْلَحُ صِهْيُونُ كَحَقْلٍ، وَتَصِيرُ أَوْرُشَلِيمُ خَرْبًا، وَجَبَلُ الْبَيْتِ شَوَامِخَ وَغَرٍ » (ميخا ٣: ١٢).

صبر الله

آخر الرب يوم حساب المدينة والأمة ما يقرب من أربعين سنة بعدما نطق المسيح بحكم الدينونة عليهما. وكان صبر الله على رافضي إنجيله وقاتلي ابنه عظيماً ومدهشاً جداً. إِنَّ مَثَلَ التِّينَةِ الْعَقِيمَةِ كَانَ يُمَثِّلُ مَعَامَلَةَ اللَّهِ لِلأمة اليهودية. لقد صدر الأمر قائلاً: « اقْطَعْهَا! لِمَاذَا تُبْطَلُ الْأَرْضُ أَيْضاً؟ » (لوقا ١٣: ٧). لكن رحمة الله أمهلتها وقتاً أطول. كان لا يزال يوجد بين اليهود جماعة جهلوا صفات المسيح وعمله. ولم تتح للأبناء الفرصة، ولا أعطي لهم النور الذي قد رفضه آباؤهم. وعن طريق كرازة الرسل ورفاقهم قصد الله أن يشرق بنوره عليهم، وأن يُسمح لهم بأن يروا كيف تمت النبوات ليس فقط في ميلاد المسيح وحياته بل أيضاً في موته وقيامته. ولم تلحق بالأبناء دينونة آباءهم، ولكن مع علمهم بكل النور المعطى لآبائهم فإذ رفضوا الممنوح لهم من جديد صاروا شركاء آباءهم في خطاياهم وملأوا مكبال إثمهم.

أمة استفحل شرها

إنَّ صبر الله على أورشليم جعل إصرار الشعب على قساوة قلوبهم يزداد، فببغضهم تلاميذ يسوع وقسوتهم عليهم رفضوا آخر هبات الرحمة. حينئذ رفع الله عنهم يده الحارسة الواقية، ورفع قوته الرادعة للشيطان وملائكته، وبذلك تُركت الأمة تحت سيطرة القائد الذي اختارته لنفسها. لقد ركل بنوها نعمة المسيح، التي كان يمكنها أن تعينهم على إخضاع أهواء قلوبهم الشريرة، أما الآن فقد انتصرت عليهم تلك الأهواء. وأثار الشيطان أقسى شهوات نفوسهم وأحطها. لم يعد الناس يركنون إلى التعقل، إذ لم تبق لهم عقول، بل تحكمت فيهم الأهواء والغضب الأعمى. لقد أمسوا كالشياطين في قسوتهم. ففي العائلة وفي الأمة وبين أعلى الطبقات وأدناها على السواء استشرى الشك والحسد والكراهية والخصام والتمرد وجرائم القتل. ولم يكن يوجد أمان في أي مكان. فالأصدقاء والأقرباء كانوا يسلمون بعضهم بعضاً. ولقد ذبح الوالدون أولادهم كما ذبح الأولاد والديهم، ولم يستطع رؤساء إسرائيل أن يضبطوا أنفسهم، فلقد جعلتهم انفعالات الغضب الجامحة قوماً طغاة. لقد رحب اليهود بالشهادات الكاذبة لإدانة ابن الله البار، والآن ها هي الاتهامات الكاذبة قد جعلت حياتهم تحت رحمة الأقدار وغير مضمونة. إنهم بأفعالهم كانوا يقولون: « اعزلوا من أمامنا قُدُوسَ إسرائيل » (إشعيا ٣٠: ١١). والآن ها هم يجابون إلى طلبهم. فما عاد خوف الله يزعجهم، وصار الشيطان على رأس تلك الأمة، وخضعت لسلطانه أعلى السلطات المدنية والدينية.

في بعض الأحيان كان رؤساء الأحزاب المتعادية يتفقون على نهب ضحاياهم التعساء وتعذيبهم، وبعد ذلك كانت قواتهم ترتد بعضها على بعض، فيذبح أحدهم الآخر من دون رحمة. بل حتى قدسية الهيكل لم تكن كافية لردعهم عن أعمالهم الوحشية الرهيبة. فقد كان العابدون يسقطون صرعى أمام المذبح، وهكذا تنجس المقدس بجثث القتلى. ومع ذلك فإن مرتكبي تلك الجرائم الجهنمية، في عماهم وتجديفهم وغطرستهم، أعلنوا على الملأ أنهم لا يخشون على أورشليم من الهلاك لأنها مدينة الله الخاصة. ولكي يثبتوا سلطانهم أعطوا بعض الأنبياء الكذبة رشوة ليعلنوا، حتى في الوقت الذي كانت فيه جيوش الرومان تحاصر الهيكل، أن الشعب يجب أن ينتظر خلاص الله. وإلى النهاية ظلت جماهير كثيرة من الشعب متمسكة بالاعتقاد أن الله العلي سيتدخل ويهزم خصومهم. لكنَّ شعب إسرائيل كانوا قد رفضوا حماية الله، والآن فلا يوجد ملجأ يعتصمون به. ما أشقاك يا أورشليم! إنها إذ مَرَقَتْهَا الفتن الداخلية جرت دماء بنيتها القتلى في الشوارع ناحراً أحدهم الآخر، في حين أسقطت جيوش الأعداء استحكاماتها وقتلت رجال الحرب فيها!

اقوال المسيح تتم

لقد تمت، حرفياً، كل النبوات التي تنبأ بها المسيح عن خراب أورشليم، وتحقق اليهود من صدق إنذاره القائل: « بِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ » (متى ٢٣: ٢). ولقد ظهرت آيات وعجائب منبئة بالكوارث والهلاك. ففي منتصف الليل أضاء نور غير طبيعي على الهيكل والمذبح. وفي السحاب عند الغروب كانت تُرى صور مركبات ورجال حرب مصطفين للقتال.

والكهنة الذين كانوا يخدمون ليلاً في الهيكل ارتعّبوا لدى سماع أصوات غامضة، كما ارتجت الأرض وسمعت أصوات كثيرة قائلة: « لنرحل من هنا »، والباب الشرقي الهائل الذي كان ثقيلاً جداً بحيث أن عشرين رجلاً كانوا يوصدونه بشق النفس والذي كان مثبتاً بمصاريح ومتاريس قوية مثبتة في الأرض الصخرية، انفتح في منتصف الليل بيد غير منظورة (١).

وطوال سبع سنين ظل رجل يذرع شوارع أورشليم صعوداً ونزولاً معلناً الولايات المزمعة أن تنقض على المدينة، ففي النهار والليل كان ينشد بصوت حزين هذه المراثاة قائلاً: « صوت من الشرق، صوت من الغرب، صوت من الرياح الأربع! صوت ضد أورشليم وضد الهيكل! صوت ضد العريس والعروس! صوت ضد الشعب كله! » وقد ألقى بذلك الرجل الغريب الأطوار في السجن وجُلد، ولكن لم تخرج من بين شفثيه كلمة تذر أو شكوى، ولم يرد على الشتائم والإهانات بغير هذا القول: « ويل ويل لأورشليم، ويل ويل لسكانها! » ولم يكف ذلك الرجل عن تقديم إنذاراته حتى قُتل في الحصار الذي كان قد أنبأ به.

نجاهة المسيحيين

ولكن لم يهلك أحد من المسيحيين عند خراب أورشليم. كان المسيح قد أنذر تلاميذه، فكل من آمنوا بكلامه جعلوا يترقبون العلامة الموعود بها. فلقد قال يسوع: « وَمَتَى رَأَيْتُمْ أُورُشَلِيمَ مُحَاطَةً بِجُيُوشٍ، فَحِينَئِذٍ اَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ خَرَابُهَا. حِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ، وَالَّذِينَ فِي وَسْطِهَا فَلْيَفْرُوا خَارِجًا » (لوقا ٢١: ٢٠، ٢١). فبعدما حاصر الرومان المدينة بقيادة سستيوُس فكوا الحصار على غير انتظار عندما كان كل شيء يبشر بهجوم ناجح. وإذ يئس المحاصرون من المقاومة الناجحة كانوا على وشك التسليم، فإذا بالقائد الروماني ينسحب على رأس جيشه من دون سبب ظاهر. لكنّ عناية الله الرحيمة كانت تسيّر الحوادث لخير شعبه. فقد أعطي المسيحيون المنتظرون العلامة الموعود بها، وأتيحت الفرصة الآن لكل من يريدون أن يطيعوا إنذار المخلص. وقد تسلط الله على الأحداث بحيث لم يمنع اليهود أو الرومان جماعة المسيحيين من الهروب. وإذ ارتد القائد سستيوُس خرج اليهود من أورشليم يطاردون الجيش الروماني. وعندما التحم الجيشان كانت لدى المسيحيين فرصة لترك المدينة. وفي هذا الوقت لم يكن في الأرياف أعداء يعترضون طريق أولئك الهاربين. وفي وقت الحصار اجتمع اليهود في أورشليم لإحياء عيد المظال، وهكذا استطاع المسيحيون، في طول البلاد وعرضها، أن يهربوا، من دون أن يزعجهم أحد، إلى مكان أمين — مدينة بيللا في أرض بيرية في عبر الأردن.

يواصلون المقاومة

إن قوات اليهود التي تطارد سستيوُس وجيشه هجمت على مؤخرة ذلك الجيش بوحشية عظيمة بحيث تهددوهم بالفناء التام. وبصعوبة عظيمة أمكن الرومان أن يتقهقروا. أما اليهود فقد نجوا بلا خسارة تذكر، ثم عادوا إلى أورشليم منتصرين وهم يحملون غنيمتهم. لكنّ هذا النجاح الظاهري لم يجلب لهم غير الشر، فقد ملأهم ذلك الفوز بروح الإصرار على المقاومة العنيفة للرومان، مما جلب

على تلك المدينة المقضي عليها ويلات مروعة وسريعة.

عندما استأنف تيطس الحصار حلت بأورشليم كوارث هائلة. وقد وقع الحصار على المدينة في أيام عيد الفصح عندما كان ملايين من الشعب مجتمعين داخل أسوارها. غير أن مخازن المؤونة التي كانت في حوزتهم والتي لو حرصوا عليها لكانت تكفيهم عدة سنين، كانت قد أُلقت بسبب حسد رجال الأحزاب المتنازعين وانتقاماتهم المتبادلة. والآن الناس يجوزون في كل أهوال المجاعة المخيفة، فقد بيع مكيال القمح بوزنة من المال. وكانت خزات الجوع على الناس شديدة بحيث أنهم كانوا يقضمون مناطقهم الجلدية ونعالهم وأغطية دروعهم. وكثيرون من الناس كانوا يتسللون إلى خارج الأسوار تحت ستار الظلام ليجمعوا النباتات البرية النامية خارج الأسوار، لكن كثيرين منهم قُبض عليهم وقتلوا بعد عذابات شديدة، والذين عادوا اغتُصب منهم في غالب الأحيان ما جمعه بعد تلك المخاطرة العظيمة. ثم إن ذوي السلطان كانوا يوقعون عذابات وحشية رهيبة بالناس الذين عضهم الفقر بنابه لكي يغتصبوا مؤونتهم القليلة التي أخفوها. وكانوا في غالب الأحيان يلجأون إلى ضروب القسوة هذه، مع أنهم كانوا قوماً شباغى، وكان همهم أن يختزنوا المؤونة للأيام اللاحقة.

هلكت آلاف الأنفس بالجوع والوباء. وقد بدا كأن المحبة الطبيعية قد انتزعت وتلاشت. فلقد سلب الأزواج زوجاتهم والزوجات أزواجهن. وكان الأولاد يختطفون الطعام من أفواه والديهم الطاعنين في السن. والسؤال الذي ألقاه النبي حين قال: « هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا » وجد له جواباً في داخل أسوار تلك المدينة المقضي عليها بالهلاك: « أَيَّادِي النِّسَاءِ الْحَنَائِنَ طَبَخَتْ أَوْلَادَهُنَّ. صَارُوا طَعَامًا لَهُنَّ فِي سَحَقِ بَنَتِ شَعْبِي » (إشعياء ٤٩: ١٥؛ مراثي ٤: ١٠). وكذلك تم إنذار النبوة المعطى قبل ذلك بأربعة عشر قرناً وهو الذي يقول: « الْمَرْأَةُ الْمُتَنَعِّمَةُ فِيكَ وَالْمُتَرْفِّهُةُ الَّتِي لَمْ تُجَرِّبْ أَنْ تَضَعَ أَسْفَلَ قَدَمِهَا عَلَى الْأَرْضِ لِلتَّنَعُّمِ وَالتَّرَفِّهِ، تَبْخُلُ عَيْنُهَا عَلَى رَجُلٍ حَضَنَهَا وَعَلَى ابْنِهَا وَبَنَتِهَا... وَبِأَوْلَادِهَا الَّذِينَ تَلْدُهُمْ، لِأَنَّهُمَا تَأْكُلُهُمْ سَرًّا فِي عَوَزِ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْحِصَارِ وَالضَّيْقَةِ الَّتِي يُضَايِقُكَ بِهَا عَدُوُّكَ فِي أَبْوَابِكَ » (تثنية ٢٨: ٥٦، ٥٧).

هلاك تام

لقد حاول قادة الرومان أن يوقعوا الرعب في قلوب اليهود، وهكذا يجعلونهم يستسلمون. والأسرى الذين قاوموا عندما أُسروا جُلِدوا وعذبوا وصلبوا أمام سور المدينة. وكان مئات من الشعب يقتلون على هذا النحو كل يوم، وظل ذلك العمل المخيف جارياً حتى لقد نصبت صلبان في كل وادي يهوذا وفي جلجثة بكثرة عظيمة بحيث غدا السير بين تلك الصلبان متعذراً. فاللعنة التي نطقوا بها أمام كرسي ولاية بيلاطس حين قالوا: « دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلَادِنَا » (متى ٢٧: ٢٥) حلت بهم بطريقة مرعبة جداً.

كان تيطس يرغب كل الرغبة في أن يضع حداً لتلك المشاهد المخيفة، وهكذا يجنب عن أورشليم كأس الهلاك فلا تشربه حتى الثمالة. وامتلاً قلبه رعباً عندما رأى أكواماً من الجثث في الأودية. وكمن هو ذاهل العقل تطلع من أعلى جبل الزيتون إلى الهيكل الفخم الجميل وامر بالأمر بآلا يمس حجر من

احجاره. وقبل أن يحاول امتلاك هذا الحصن التمس بحرارة من رؤساء اليهود ألا يجبروه على تدنيس ذلك المقدس بالدماء. فإذا خرجوا للحرب في أي مكان آخر فلن يمس روماني واحد ذلك الهيكل أو ينتهك حرمة. ثم إن يوسيفوس نفسه توسل إليهم بكل فصاحة وقوة إقناع أن يستسلموا، وبذلك ينقذون أنفسهم ومدينتهم ومعبدتهم. لكن جوابهم على كل ذلك كان اللعنات المرة. وفيما كان يوسيفوس، وسيطهم البشري الأخير، واقفاً يتوسل إليهم كانوا هم يصوبون إليه سهامهم. لقد رفض اليهود توسلات ابن الله، والآن فها كل الاعتراضات والتوسلات تزيدهم إصراراً على المقاومة إلى النهاية. وعبثاً بذل تيطس مساعيه وجهوده لإنقاذ الهيكل، فإن شخصاً أعظم منه قد أعلن أنه لن يُترك فيه حجر على حجر.

هذا، وإن عناد رؤساء اليهود الأعمى والجرائم الكريهة التي ارتكبت في داخل أسوار تلك المدينة المحاصرة أثارت رعب الرومان وغضبهم. وأخيراً قرر تيطس الاستيلاء على الهيكل بالهجوم عليه. ومع ذلك فقد عزم أنه بقدر الإمكان ينبغي أن يُحفظ الهيكل من الدمار. لكن أوامره أهملت. فبعدما أوى إلى خيمته ليلاً خرج اليهود من الهيكل وهاجموا الجنود في الخارج. وفي أثناء الهجوم ألقى أحد الجنود الرومان جمرة مشتعلة من النار في الهيكل من خلال فتحة، فاشتعلت النار في الحال في كل حجرات الهيكل المبينة بخشب الأرز. فاندفع تيطس إلى هناك يتبعه قواده وجنوده وأمر بأن يطفئوا لهيب النار، لكن أوامره أغفلت إذ أن أولئك الجنود في حُمُو غضبهم ألقوا بشعلات نار في الحجرات المجاورة للهيكل ثم قتلوا بحد السيف اليهود الذين جاءوا ليحتموا فيه. وقد جرت الدماء على درج الهيكل كالماء، وهلك من اليهود آلاف فوق آلاف. وفوق ضجيج المعركة سُمعت أصوات تصيح قائلة «إِيخَابُود» — زال المجد.

مشهد مرعب

يقول ملمان في كتابه المسمي تاريخ اليهود، المجلد السادس عشر: «لقد وجد تيطس أنه يستحيل عليه أن يوقف غضب جنوده عند حده، فدخل في صحبة ضباطه وعاین ذلك الهيكل المقدس من الداخل. وقد ملأهم جلاله وبهاؤه دهشة، وإذ لم تكن النيران قد نفذت إلى القدس بذل تيطس آخر جهد لإنقاذه، فوثب إلى الأمام وأمر جنوده مرة أخرى أن يوقفوا تقدم الحريق. وقد حاول ليبراليس قائد المئة أن يرغم الجنود على الطاعة إذ أبرز قضيب رتبته أمامهم، ولكن حتى احترام الإمبراطور سقط أمام حقد الرومان الشديد على اليهود، مما زاد من هول المعركة، ومن النهم إلى السلب والنهب. وقد رأى الجنود كل ما حولهم يتلأأ في بريق الذهب الذي كان يخطف الأبصار بلمعانه على ضوء اللهب المشتعل، فظنوا أن كنوزاً لا تحصى مخبوءة في المقدس. وإذ بجندي لم يلحظه أحد يدخل ويقذف بمشعل ملتهب من فتحة في الباب، فاشتعلت فوراً النار في كل البناء. واضطر الجنود أن يتراجعوا أمام وهج النار والدخان الذي كاد يعميهم، وهكذا ترك ذلك البناء الفخم إلى مصيره.

«كان منظراً مرعباً للرومان، فما عساه يكون لليهود! كل قمة التل المشرف على المدينة اشتعلت

كالبركان. وقد انهارت وتهدمت المباني واحد في أثر الآخر بصوت تحطيم هائل، فابتلعتها الهوة المشتعلة بالنار. والسقوف المصنوعة من خشب الأرز كانت تشبه ألواحاً من اللهب. والأبراج المطلية بالذهب أضاءت في هيئة حراب من النور الأحمر. والأبراج المقامة على الأبواب قذفت إلى أعلى أعمدة من اللهب والدخان، فأثار ذلك الحريق التلال المجاورة. وكانت توجد جماعات من الناس ملتحفة بالظلام ترقب في جزع عظيم تقدم النار والخراب. وامتلأت الأسوار والمرتفعات بوجوه بعضها شاحب من فرط اليأس، والبعض الآخر جهم لعدم جدوى الانتقام. هذا وإن صيحات جنود الرومان وهم يروحون ويجيئون، وزعقات الثوار الذين كانت تلتهمهم النيران اختلطت بأصوات الحريق وأزيز الأخشاب المحترقة المتساقطة كهدير الرعد. وقد رددت الجبال صدى صراخ الشعب من فوق المرتفعات. وعلى طول الأسوار كان يُسمع الصراخ والعيول والضوضاء. والناس الذين كانوا موشكين على الموت جوعاً استجمعوا ما تبقى في أجسامهم من قوة ليطلقوا صرخات حزن وعذاب.

« كانت المذبحة التي في الداخل أشد هولاً من المنظر في الخارج. فالرجال والنساء، والكبار والصغار، والثوار والكهنة، والذين كانوا يحاربون والذين كانوا يتوسلون ويسترحمون... الجميع قتلوا بحد السيف في مذبحة عامة بلا تمييز. وكان عدد القتلى يربو على عدد قاتليهم. وكان على جنود الرومان أن يتسلقوا فوق أكوام جثث القتلى ليقتلوا الأحياء الباقين » (٢).

وبعد خراب الهيكل سقطت المدينة كلها في أيدي الرومان. وقد هجر رؤساء اليهود الأبراج المنيعه فوجدتهم تيطس منفردين، فتفرس فيهم في ذهول وأعلن لهم أن الله قد أسلمهم إليه، لأن آلات الحصار، مهما بلغت فعاليتها، كانت عاجزة عن دك تلك التحصينات الهائلة. إن المدينة والهيكل قد قُوضا كلاهما حتى أساساتهما. والأرض التي كان ذلك البيت المقدس مقاماً عليها « تُفْلَحُ كَحَقْل » (إِزْمِيَا ٢٦: ١٨). وفي الحصار والمذبحة التي تلت ذلك هلك أكثر من مليون نفس من الشعب، والذين بقوا أحياء اقتيدوا أسرى أو بيعوا عبيداً أو سيقوا إلى روما ليزينوا موكب احتفال القائد الفاتح، أو طرحوا للوحوش في المدرجات الرومانية أو تشتتوا وهاموا على وجوههم كجوابين لا وطن لهم في كل بلدان العالم.

مدينون للمسيح

إن اليهود هم الذين صنعوا أغلالهم التي كُبلوا بها، وهم الذين ملأوا لأنفسهم كأس النعمة. ففي الهلاك الشامل الذي حل بهم كأمة، وفي كل الولايات التي لاحقتهم في شتاتهم، إنما كانوا يحصدون العاصفة بعد أن زرعوا الريح بأيديهم. يقول النبي: « هلاكك منك يا إِسْرَائِيل » (هوشع ١٣: ٩) — ترجمة سنة ١٨٧٨ — « لَأَنَّكَ قَدْ تَعَثَّرْتَ بِإِثْمِكَ » (هوشع ١٤: ١). إن الآمهم تصوّر في غالب الأحيان كقصاص وقع عليهم بقضاء الله المباشر. وعلى هذا النحو يحاول المخادع الأعظم أن يخفي عمله. فاليهود إذ رفضوا محبة الله ورحمته في إصرار خرجوا من تحت كنف حماية الله وحراسته، وسُمح للشيطان بأن يحكم عليهم كما يشاء. وأعمال القسوة والوحشية التي ارتكبت في خراب أورشليم هي مظهر من مظاهر قوة الشيطان الانتقامية ضد من يخضعون لسلطانه.

لا يمكننا أن نعرف كم نحن مدينون للمسيح لقاء السلام والحماية اللذين ننعم بهما. إن قوة الله الرادعة هي التي تحول بين الناس وخضوعهم التام لسلطان الشيطان. والعصاة وغير الشاكرين لديهم سبب عظيم لشكر الله على رحمته وصبره في حجز قوة الشرير القاسية الخبيثة وضبطها. ولكن عندما يتجاوز الناس حدود صبر الله واحتماله فإن ذلك الرادع يُزال. إن الله لا يقف من الخاطئ موقف منفذ الحكم ضد العصيان، ولكنه يترك رافضي رحمته لأنفسهم ليحصدوا ما قد زرعوه. فكل شعاع من أشعة النور الذي يُرفض، وكل إنذار يزدري به أو يهمل، وكل شهوة ينغمس فيها الإنسان، وكل مخالفة لشريعة الله إنما هي بذرة تُزرع ولا بد لها من حصاد مضمون وأكيد. والخاطئ إذ يقاوم روح الله بكل إصرار لا بد أن يفقده في النهاية، وحينئذ لن تكون هنالك قوة لتضبط أهواء النفس الشريرة، ولن يكون هنالك واق من مكاييد الشيطان وعداوته. وما خراب أورشليم سوى إنذار خطير مخيف لكل من يستخفون بهبات النعمة الإلهية وكل من يقاومون توسلات رحمة الله. ولم يُعرف من قبل شهادة حاسمة على كراهية الله للخطيئة وعلى القصاص الأكيد الذي لا بد أن يحل بالمذنب كتلك التي يوفرها خراب أورشليم.

إن نبوة المخلص عن افتقاد الله أورشليم بالدينونة سيكون لها إتمام آخر كان ذلك الخراب رمزاً باهتاً له وضئلاً. ففي القضاء العادل الذي حل بالمدينة المختارة يمكننا أن نرى الدينونة الهائلة التي ستحل بالعالم الذي رفض رحمة الله وداس شريعته. فأنباء الشقاء البشري الذي شهدته الأرض مدى عصور الجريمة الطويلة مظلمة قاتمة السواد. والقلب يشمئز ويسأم والعقل يخور لدى التأمل في ذلك. لقد كانت عواقب رفض سلطان السماء وخيمة جداً، لكنّ منظرًا أشد ظلاماً يُعرض أمامنا في إعلانات المستقبل الموحى بها. إن سجلات الماضي — ذلك الموكب الطويل، موكب الشغب والمعارك والثورات: «لأن كل سلاح المُتسلّح في الوُغى وكلّ رداء مُدحرج في الدّماء» (إشعياء ٩: ٥) — ليست شيئاً في مقابل أهوال ذلك اليوم عندما تنسحب قوة روح الله الرادعة بعيداً من الأشرار انسحاباً كاملاً ولا تعود توقف انفجار الشهوات البشرية والغضب الشيطاني! فسيرى العالم حينئذ، أكثر من أي وقت مضى، نتائج حكم الشيطان.

ولكن في ذلك اليوم، وكما كانت الحال عند خراب أورشليم، سينجو شعب الله، كل من يوجد مكتوباً في سفر الحياة وكل من كُتب للحياة (إشعياء ٤: ٣). لقد أعلن المسيح أنه سيأتي ثانية ليجمع عبيده الأمناء لنفسه: «وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض، ويُبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوة ومجد كثير فيُرسل ملائكته يَبوق عظيم الصوت، فيَجْمَعُونَ مُخْتَارِيهِ مِنَ الْأَرْبَعِ الرِّيَاحِ، مِنْ أَقْصَاءِ السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَائِهَا» (متى ٢٤: ٣٠، ٣١). وكل من لا يطيعون الإنجيل سيبيدهم الرب بنفخة فمه ويبطلهم بظهور مجيئه (٢ تسالونيكي ٢: ٨). فكما كانت الحال مع إسرائيل قديماً نرى أن الأشرار يهلكون أنفسهم ويتعشرون بإثمهم. فحياة الخطيئة التي عاشوها جعلتهم في حالة عدم توافق مع الله، وقد انحطت طبائعهم بالشر إلى حد أن إعلان مجده سيكون ناراً آكلة لهم.

الرب يحذّرنا

إذاً فليحترس الناس لئلا يهملوا الدرس الذي تحمله إليهم كلمات المسيح. فكما أنذر تلاميذه بخراب أورشليم معطياً إياهم علامة عن الخراب المقبل لكي يهربوا، هكذا هو قد أنذر العالم بيوم الهلاك الأخير وأعطى الناس علامة قدوم ذلك الهلاك، حتى يستطيع كل من يريد الهروب أن يهرب من الغضب الآتي. ويسوع يعلن قائلاً: « وَتَكُونُ عَلَامَاتٌ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَعَلَى الْأَرْضِ كَرْبٌ » (لوقا ٢١: ٢٥؛ متى ٢٤ : ٢٩؛ مرقس ١٣ : ٢٤-٢٦؛ رؤيا ٦ : ١٢-١٧). فأولئك الذين يرون نذر مجيئه يعلمون « أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى الْأَبْوَابِ » (متى ٢٤ : ٣٣). وهو يحذّرنا قائلاً: « اسْهَرُوا إِذَا » (مرقس ١٣ : ٣٥). فالذين ينتبهون إلى الإنذار لن يُتركوا في الظلام ليدركهم ذلك اليوم على حين غرة. أما لأولئك الذين لا يسهرون فإن « يَوْمَ الرَّبِّ كُلُّ صَاحِدٍ فِي اللَّيْلِ هَكَذَا يَجِيءُ » (١ تسالونيكي ٥ : ٢-٥).

ليس العالم في هذه الأيام أكثر استعداداً لتصديق هذه الرسالة مما كان اليهود مستعدين لقبول إنذار المسيح عن أورشليم. وفي أي وقت يجيء يومُ الله سيفاجئ الأئمة الفجار. فإذ تسير الحياة على وتيرة واحدة، وحين يكون الناس منغمسين في لذاتهم وأعمالهم وتجارتهم وجمع المال واكتناز الثروة، وحين يمجّد القادة الدينيون تقدم العالم وتنوّره ويهجع الناس في طمأنينة كاذبة — حينئذ ينسل الهلاك كلص نصف الليل الذي يسرق البيوت غير المحروسة ويفاجئ المهملين والأئمة « فَلَا يَنْجُونَ » (١ تسالونيكي ٥ : ٣).

٢ - الاضطهاد في القرون الوسطى

عندما أعلن يسوع لتلاميذه عن مصير أورشليم ومشاهد مجيئه الثاني أنبأهم أيضاً باختبار شعبه منذ اليوم الذي فيه يؤخذ من بينهم إلى يوم مجيئه ثانية بقوة ومجد كثير لإنقاذهم. ومن فوق جبل الزيتون شاهد المخلص العواصف المزمعة أن تهب على الكنيسة الرسولية، وإذ اخترق ببصره حجب المستقبل شاهد الأعاصير العنيفة المدمرة التي ستهاجم تابعيه في العصور المقبلة، عصور الظلام والاضطهاد. وفي كلمات مختصرة ذات معنى مخيف أنبأهم بالنصيب الذي سيكيله رؤساء هذا العالم لكنيسة الله (متى ٢٤: ٩، ٢١، ٢٢). فعلى أتباع المسيح أن يسلكوا طريق الاتضاع والعار والألم نفسه الذي سار فيه سيدهم. فالعداوة التي هوجم بها فادي العالم ستهاجم كل من يؤمنون باسمه.

شهد تاريخ الكنيسة الأولى على تأكيد أقوال المخلص وإتمامها وصدقها. فقوات الأرض والجحيم اصطفت ضد المسيح في شخص أتباعه وتلاميذه. لقد سبق للوثنية أن رأت أنه لو انتصر الإنجيل فستزول هياكلها ومذابحها، ولذلك استجمعت كل قواتها وحشدت جيوشها للقضاء على المسيحية، وأشعلت ضدها نيران الاضطهاد. فجرد المسيحيون من أملاكهم وسُلبت أموالهم وطُردوا من بيوتهم وأوطانهم. لقد صبروا « عَلَى مُجَاهَدَةِ آلامَ كَثِيرَةٍ » (عبرانيين ١٠: ٣٢). وقد « تَجَرَّبُوا فِي هُرَّةٍ وَجَلْدٍ، ثُمَّ فِي قُبُودٍ أَيْضاً وَحَبْسٍ » (عبرانيين ١١: ٣٦)، وكثيرون منهم ختموا شهادتهم بدمهم. فالسادة منهم والعبيد، الأغنياء والفقراء، العلماء والجهلاء قُتلوا جميعاً من دون رحمة.

هذه الاضطهادات التي بدأت في أثناء حكم نيرون قُبيل استشهد بولس ظلت راحا تدور أمدًا طويلًا، تشتد أحيانًا وتخف أخرى، وقد ظلت نارها مشتعلة قرونًا. لقد اتهم المسيحيون كذبًا بجرائم مخيفة، وأعلن أنهم السبب في كل الكوارث العظيمة، كالمجاعات والأوبئة والزلازل. وإذ صاروا هدفًا لكراهية الجماهير وارتياهم فقد وقف الوشاة مستعدين لتسليم أولئك الأبرياء للموت طمعاً في الربح القبيح والحصول على المال الملوث بالدماء الزكية. وقد حُكم عليهم بأنهم متمردون وثائرون على حكم الإمبراطورية وانهم أعداء الدين وآفات المجتمع. وقد طُرح عدد غفير منهم للوحوش الكاسرة أو أُحرقوا أحياء في مدرجات الألعاب العامة وساحاتها. وقد صُلب غيرهم، وآخرون ألبسوا جلود وحوش ضارية وطرحوا طرائد للكلاب الوحشية. وكان قصاصهم وتعذيبهم فرصة لتسلية الجماهير وإلهائهم كما لو كانوا يحتفلون بعيد من أعيادهم. ولقد اجتمعت جماهير غفيرة لكي يمتعوا أنظارهم بتلك المشاهد، وكانوا يستقبلون عذابات أولئك الشهداء بالضحك والتصفيق.

وحيثما ذهب أتباع المسيح بحثًا عن ملجأ يلوذون به كان أعداؤهم يتصيدونهم كما لو كانوا وحوشًا ضاربة. ولقد اضطروا إلى الاختباء في أماكن موحشة منعزلة « مُعْتَازِينَ مَكْرُوبِينَ مُذَلِّينَ، وَهُمْ لَمْ يَكُنْ الْعَالَمُ مُسْتَحَقًّا لَهُمْ. تَأْهِينَ فِي بَرَارِيٍّ وَجَبَالٍ وَمَعَايِرٍ وَشُقُوقِ الْأَرْضِ » (عبرانيين ١١: ٣٧، ٣٨). والتجأ إلى السرايب آلاف منهم. وقد حُفرت في قلب الأرض والصخر دهاليز طويلة تحت التلال خارج مدينة روما. وامتد هذا التيه المظلم المعقد من الممرات مسافة أميال طويلة خارج أسوار المدينة. وفي هذه المعتكفات التي تحت الأرض كان تلاميذ المسيح يدفنون موتاهم، وفيها كانوا يجدون مسكنًا لهم عندما كانت تحوم حولهم الشبهات ويُحكم عليهم بالنفي. وعندما يقيم المعطي الحياة

أولئك الذين قد جاهدوا الجهاد الحسن فسيخرج من تلك المقابر المظلمة كثيرون ممن قد استشهدوا لأجل المسيح.

إيمان شهود الرب

ظل أولئك الشهود محتفظين بإيمانهم طاهرا نقياً تحت أقسى الاضطهادات. ومع أنهم حُرِّموا من كل أسباب الراحة والعزاء ونُفوا بعيداً من نور الشمس وعاشوا في جوف الأرض المظلمة الحبيبة إليهم فإنهم لم ينطقوا بكلمة تذر أو شكوى، بل كانوا يشجعون بعضهم بعضاً بكلمات الإيمان والصبر والرجاء على احتمال العوز والضيق. إنَّ خسارة كل الخيرات الأرضية لم تجبرهم على أن يحدوا إيمانهم بالمسيح. فلقد كانت التجارب والاضطهادات خطوات قَرَّبَتْهم من راحتهم وثوابهم.

وكغيرهم من عبيد الله في القديم، كثيرون منهم «عَذَّبُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا النَّجَاةَ لِكَيْ يَنَالُوا قِيَامَةً أَفْضَلَ» (عبرانيين ١١: ٣٥). هؤلاء ذكروا أقوال سيدهم وهي أنهم حين يضطهد هم الآخرون لأجل المسيح فليفرحوا ويتهللوا لأن أجرهم عظيم في السماوات لأن أولئك هكذا طردوا واضطهدوا الأنبياء الذين قبلهم. لقد تهللوا وفرحوا لأنهم حُسِبوا مستأهلين لأن يتألموا من أجل الحق، ومن وسط لهب النيران التي كانت تكوي أجسامهم وتلتهمها كانوا ينشدون أناشيد الانتصار. وإذا كانوا يشخصون إلى السماء بإيمان كانوا يرون المسيح والملائكة يطلون من شرفات مسكن المجد وهم ينظرون إليهم باهتمام عظيم ويثنون على ثباتهم. وقد جاء من عرش الله صوت يقول لهم: «كُنْ أَمِيناً إِلَى الْمَوْتِ فَسَأُعْطِيكَ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ» (رؤيا ٢: ١٠).

ولكن عبثاً حاول الشيطان أن يهلك كنيسة المسيح أو يخربها بواسطة العنف. إن الصراع الهائل الذي فيه ضحى تلاميذ يسوع بحياتهم لم يتوقف عندما سقط حاملو الأعلام الأمناء أولئك في مواقعهم. بل انتصروا بهزيمتهم. لقد قُتل العاملون في كرم الرب لكنَّ عمله ظل سائراً إلى الأمام بثبات. وقد انتشر الإنجيل وزاد عدد معتنقي تعاليمه. وتغلغل في أقاليم لم يتسنَّ حتى لأعلام روما وجيوشها أن تدخلها. إنَّ أحد المسيحيين إذ كان يحاج الحكام الوثنيين الذين عزموا على مواصلة اضطهاد قطيع الرب قال: «يمكنكم أن تدينونا وتعذبونا وتقتلونا... إن ظلمكم لنا هو خير برهان على براءتنا. ولن تجديكم القسوة فتيلاً». لقد كانت تلك القسوة قوة أعظم لإقناع الآخرين بتعاليم المسيحيين. ثم عاد ذلك الرجل يقول: «وكلما جززتمونا زاد عددنا. إن دم المسيحيين هو البذار» (٣).

وقد ألقى ألوف منهم في السجون ثم قُتلوا، ولكن قام من رمادهم آخرون ليملأوا الفراغ الذي حدث بموتهم. والذين استشهدوا لأجل إيمانهم حُفظوا للمسيح، وقد حسبهم منتصرين. لقد جاهدوا الجهاد الحسن وسيعطون إكليل المجد عند مجيء المسيح. ومثالهم الحي واستشهادهم كانا شهادة دائمة للحق. وعلى غير انتظار ترك عبيد الشيطان خدمته وانضوا تحت لواء المسيح.

ولهذا دبر الشيطان خطته ليخوض حرباً أكثر نجاحاً من حربه السابقة ضد حكم الله، بأن نصب رايته في وسط كنيسة المسيح. فإذا أمكن التغرير بأتباع المسيح فانساقوا إلى إسقاط الله فحينئذ

ستخور قواهم ويخذلهم جلدهم وثباتهم وسيسقطون فرائس سهلة المنال. والآن فما هو الخصم العظيم يحاول أن يكسب بالحيلة ما أخفق في الحصول عليه بالعنف. فزال الاضطهاد وحلت في مكانه الإغراءات الخطرة، إغراءات النجاح المادي والمجد الباطل. وقد بدأ الوثنيون يقبلون جانبا من الإيمان المسيحي، رافضين في الوقت نفسه الحقائق الجوهرية الأخرى. لقد أقروا بأنهم يقبلون يسوع كابن الله ويؤمنون بموته وقيامته ولكن لم يكن في قلوبهم تبيكيت على الخطية ولم يحسوا بحاجتهم إلى التوبة أو تغيير قلوبهم. وإذا أبدوا بعض التنازلات من جانبهم اقترحوا أن يتنازل المسيحيون عن بعض مبادئهم حتى يقف الجميع متحدين على مستوى واحد هو الإيمان بالمسيح.

هنا وقعت المسيحية في خطر مخيف. إن السجن والتعذيب والنار والسيف كانت بركة عظيمة بالمقارنة مع هذا. لقد ظل بعض المسيحيين ثابتين، وأعلنوا أنهم لا يستطيعون أن يعقدوا صلحا، بينما انحاز آخرون إلى جانب التسليم وتحويل بعض مبادئ المسيحية، محتجين بأن هذا سيكون وسيلة لاهتدائهم الكامل. كان ذلك وقت كرب شديد لأتباع المسيح الأمناء. لقد بدأ الشيطان يتسلل إلى الكنيسة تحت ستار المسيحية الكاذبة، ليفسد إيمان المسيحيين ويحول أفكارهم عن كلمة الحق. أخيرا رضي معظم المسيحيين بأن يخفصوا مبادئهم فاتحدت المسيحية بالوثنية. ومع أن عبدة الأوثان أقروا بأنهم اهتدوا وانضموا إلى الكنيسة، فقد ظلوا متعلقين بوثنياتهم، مكتفين بتبديل موضوع عبادتهم بتمائيل للمسيح وحتى للعدراء والقديسين. وإذا أدخلت هذه الخميرة الفاسدة على هذا النحو إلى داخل الكنيسة استمرت تعمل عملها الويل. ولقد تغلغلت في إيمان الكنيسة وعباداتها العقائد الفاسدة والشعائر الخرافية والطقوس الوثنية. وإذا اختلط اتباع المسيح بعبدة الأوثان فسد الدين المسيحي وجردت الكنيسة من طهارتها وقوتها. ومع ذلك فقد بقي بعض ممن لم ينقادوا وراء تلك الضلالات، وظلوا محتفظين بولائهم لمبدع الحق، فكانوا يعبدون الله وحده.

فريقان في الكنيسة

كان يوجد دائما فريقان بين من أقروا بأنهم أتباع المسيح. ففي حين أن فريقا منهما كان يدرس حياة المخلص ويجهتد في إصلاح نقائصه والتشبه بمثال يسوع، فإن الفريق الثاني كان ينبذ الحقائق الواضحة العملية التي تفصح ضلالتهم. هذا، وأن الكنيسة حتى وهي في أحسن حالاتها لم يكن كل أعضائها من الأمناء والأطهار المخلصين. لقد علم المخلص أن من يتعمدون الانغماس في الخطية ينبغي ألا يقبلوا في الكنيسة، ومع ذلك فقد ضم إليه رجالا مخطئين ومنحهم فوائد تعاليمه ومثاله حتى تكون لديهم فرصة فيها يكتشفون أخطاءهم ويصلحونها. فقد كان يوجد خائن بين الاثني عشر. لقد قبل يهوذا ليس بسبب أخطائه بل على رغمها. انضم إلى التلاميذ حتى عن طريق تعاليم المسيح ومثاله يتعلم ما هي عناصر الخلق المسيحي، وهذا يقود إلى اكتشاف أخطائه والتوبة عنها وبمعونة النعمة الإلهية يطهر نفسه « في طاعة الحق ». لكن يهوذا لم يسلك في النور المتوفر له بسخاء مشرقا عليه برحمة الله. وإذا انغمس في الخطيئة عرّض نفسه لتجارب الشيطان، وهكذا أصبحت صفاته

الشريرة هي السائدة عليه. وقد أسلم عقله وأفكاره لسلطان قوات الظلمة، وغضب عندما وُجِّح، وهذا قاده إلى ارتكاب تلك الخطيئة المخيفة وهي تسليم سيده. وهكذا يفعل كل من يحتضنون الشر، والذين تحت ستار الاعتراف بالتقوى يبغضون من يعكرون سلامهم بإدانتهم حياة الخطيئة التي يعيشونها. ومتى سنحت لهم الفرصة فهم يتمثلون بيهودا فيسلمون أولئك الذين أرادوا أن يوبخوهم لخيرهم.

اصطدم الرسل ببعض من كانوا في الكنيسة يعترفون بالتقوى وفي الوقت نفسه يحتضنون الإثم سرا. لقد مثَّل حنانيا وامرأته سفيرة دور الخونة المخادعين إذ تظاهرا بأنهما يقدمان تقدمة كاملة لله بينما كانا قد أبقيا في حوزتهما بعض الثمن، بدافع الطمع. وقد كشف روح الحق للرسل عن حقيقة دينك الكاذبين، وأنقذت ضربات الله ودينوته الكنيسة من هذه اللطخة الخبيثة التي شوهدت طهارتها. هذا الدليل الشهير على روح المسيح المميز في الكنيسة كان مبعث رعب للمرائين وفاعلي الشر. فلم يستطيعوا البقاء مرتبطين بالذين في عاداتهم وميولهم كانوا ممثلين دائمين للمسيح. وإذا هجمت التجارب والاضطهادات على تابعيه فالذين كانوا يرغبون في ترك كل شيء لأجل الحق أحبوا أن يصيروا تلاميذ له. وهكذا طوال اشتداد الاضطهادات ظلت الكنيسة طاهرة نسبيا. ولكن عندما زال الاضطهاد انضم إلى الكنيسة مهتدون جدد ممن كانوا أقل إخلاصا وتقوى. وقد كان الطريق ممهدا والباب مفتوحا أمام الشيطان ليحصل على موضع لقدمه في الكنيسة.

ولكن لا يوجد اتفاق بين رئيس النور ورئيس الظلام، وكذلك لن يكون هنالك اتحاد بين أتباعهما. عندما رضي المسيحيون بأن يرتبطوا بمن كانوا نصف مهتدين من الوثنية بدأوا يسيرون في طريق جعل يتعد شيئا فشيئا عن الحق. وقد ابتهج الشيطان لكونه قد أفلح في التغرير بعدد كبير من تابعي المسيح. واستخدم قوته في التأثير على هؤلاء، وأوعز إليهم أن يضطهدوا من قد ظلوا على ولائهم لله. ولم يدرك أحد إدراكا كاملا كيف يقاوم الإيمان المسيحي الحقيقي إلا أولئك الذين كانوا قبلا حماة، وهؤلاء المسيحيون المرتدون اتحدوا مع رفاقهم الذين كانوا نصف وثنيين في محاربة تعاليم المسيح الجوهريّة.

كان على من بقوا أمناء أن يثيروا حربا يائسة لكي يثبتوا ضد المخادعات والرجاسات التي أدخلت إلى الكنيسة متخفية تحت الثياب الكهنوتية. والكتاب المقدس لم يُقبل على أنه مقياس الإيمان، وعقيدة الحرية الدينية أُطلق عليها اسم الهرطقة، وكان معتنقو هذه العقيدة مكروهين فنُفوا بعيدا.

ضرورة الانفصال

وبعد نضال طويل مرير قرر الأمناء القليلون أن يفصلوا أنفسهم تماما عن الكنيسة المرتدة إذا رفضت التحرر من البطل والكذب والوثنية. وقد رأوا أن الانفصال لازم لهم كل اللزوم إذا هم أرادوا إطاعة كلمة الله. ولم يجسروا على التساهل مع الضلالات المهلكة لنفوسهم إذ بذلك يصيرون قدوة تُعرض للخطر إيمان أولادهم وأحفادهم. وحتى يضمنوا السلام والاتحاد كانوا على استعداد لأن يذعنوا لكل ما لا يتعارض مع ولائهم لله. ولكنهم أحسوا أن السلام سيُشتري بثمن باهظ جدا إذا

التمزوا أن يضحو بمبادئهم. فإذا لم يكن ممكنا ضمان الوحدة بغير تعريض الحق والبر للخطر، إذاً فليكن هنالك اختلاف بل وحرب إذا لزم.

ومن الخير للكنيسة وللعالَم أن المبادئ التي قد ألهمت تلك النفوس الثابتة تنتعش في قلوب الذين كانوا يعترفون بأنهم شعب الله. هنالك عدم مبالاة مفزعة في ما يختص بالعقائد المعتبرة أعمدة يرتكز عليها الإيمان المسيحي. وهنالك فكرة تجد رواجاً وتأيداً تقول أن هذه الأمور ليست ذات أهمية حيوية. هذا الانحطاط يشدد أيدي أعوان الشيطان، بحيث أن النظريات الكاذبة والضلالات المهلكة، التي خاطر الأمناء في العصور السالفة بحياتهم لمقاومتها والتشهير بها، تنال استحساناً وقبولاً لدى آلاف من الناس الذين يدعون أنهم أتباع المسيح.

كان المسيحيون الأولون شعباً خاصاً حقاً، وكان تصرفهم الذي بلا لوم وإيمانهم الثابت الذي لا يتقلقل توبيخاً مستمراً أزج سلام الخطاة. ومع أنهم كانوا قليلي العدد ولم يكونوا أثرياء ولا احتلوا مراكز سامية أو منحوا ألقاب شرف، فقد كانوا مبعث رعب لفاعلي الشر أينما انتشرت تعاليمهم أو عرف الناس حقيقتهم. لهذا أبغضهم الأشرار كما أبغض قايين الشرير أخاه هابيل. والسبب نفسه الذي لأجله قتل قايين هابيل أخاه هو الذي حمل الذين حاولوا أن يلقوا بعيداً منهم روادع الروح القدس، على قتل شعب الله، ولهذا السبب رفض اليهود المخلص وصلبوه — لأن طهارته وقداسته صفاته كانت توبيخاً دائماً لأنانيتهم وفسادهم. ومنذ أيام المسيح إلى اليوم أثار تلاميذه الأمناء عداوة ومقاومة الذين يحبون طرق الخطيئة ويسيرون فيها.

ككيف يمكن إذا أن يدعى الإنجيل رسالة السلام؟ إن إشعياء عندما أنبأ بميلاد مسيا نسب إليه لقب « رئيس السلام ». وعندما أعلن الملائكة للرعاة أن المسيح قد وُلد غنوا من فوق سهول بيت لحم قائلين: « المَجْدُ لله في الأعالي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسْرَّةُ » (لوقا ٢: ١٤). يوجد تناقض ظاهري بين هذه الإعلانات النبوية وقول المسيح: « لَا تَتَنُوءُوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلَامًا عَلَى الْأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلَامًا بَلْ سَيْفًا » (متى ١٠: ٣٤). ولكن متى فهمنا القولين فهما صحيحا نجد بينهما توافقاً تاماً. فالإنجيل هو رسالة سلام، والمسيحية هي نظام متى قبله الناس وأطاعوه فهو ينشر السلام والانسجام والسعادة في كل ربوع الأرض. إن المسيحية تجعل كل من يقبلونها ويعتقدون تعاليمها يتحدون في أخوة وثيقة. لقد كانت مهمة يسوع أن يصلح الناس مع الله وكذلك كلا منهم مع الآخرين. لكن العالم هو في الغالب تحت سيطرة الشيطان ألد أعداء المسيح. فالإنجيل يقدم إلى الناس مبادئ الحياة التي تخالف عاداتهم ورغائبهم مخالفة تامة، فيتمردون عليه. وهم يبغضون الطهارة التي تكشف خطاياهم وتدينها، ويضطهدون ويقتلون الذين يلحون عليهم في قبول مطالب الإنجيل العادلة المقدسة، فهذا المعنى — ولأن الحقائق السامية التي يقدمها الإنجيل تسبب العداة والمنازعات — يقال عن الإنجيل أنه سيف.

إن أعمال العناية الغامضة التي تجعل الأبرار يتألمون ويلاقون الاضطهاد على يد الأشرار قد أحدثت كثيراً من الارتباكات لكثيرين من ضعاف الإيمان. حتى أن البعض يوشكون أن يطرحوا عنهم الثقة بالله لأنه يسمح لأخط الناس أن ينجحوا، بينما أفضل الناس وأطهرهم يتألمون ويلاقون العذابات من قسوة

الأشرار. وهذا السؤال يتردد على ألسنة البعض إذ يقولون: كيف يسمح الله العادل الرحيم الكلي القدرة بهذا الظلم وهذا الاضطهاد؟ سؤال لا شأن لنا به. وقد وفر الله لنا براهين كافية على محبته، فليس لنا أن نشك في صلاحه لكوننا لا ندرك أعمال عنايته. قال المخلص لتلاميذه، وكان قد سبق فرأى الشكوك التي ستراود نفوسهم في أيام التجارب والظلام: « اذْكُرُوا الْكَلَامَ الَّذِي قُلْتُمْ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدْ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهَدُونَكُمْ » (يوحنا ١٥: ٢٠). لقد عانى يسوع لأجلنا أكثر مما يستطيع أي من تابعيه أن يتحملة من قساوة الناس الأشرار. وأولئك الذين يُدعون لاحتمال العذابات وآلام الاستشهاد إنما يسيرون في أثر خطوات ابن الله الحبيب.

« لَا يَتَّبِطُّ الرَّبُّ عَنْ وَعْدِهِ » (٢ بطرس ٣: ٩). إنه لا ينسى أولاده ولا يهملهم، ولكنه يسمح للأشرار أن يُظهروا أخلاقهم على حقيقتها، حتى لا يندفع بهم كل من يرغب في إرادة الله. ثم إن الأبرار يُلقى بهم في كور الألم والمشقة ليتطهروا، ويُقنع مثالهم الآخرين بحقيقة الإيمان والتقوى، ويدين سلوكهم الثابت الأشرار وغير المؤمنين.

يسمح الله بأن ينجح الأشرار ويُظهروا عداؤهم له حتى إذا امتلأ مكيال إثمهم يرى الجميع عدالة الله ورحمته في إهلاكهم هلاكاً تاماً. على أن يوم انتقامه يأتي سريعاً، عندما يعاقب كل من قد تعدوا شريعته واضطهدوا شعبه جزاء أعمالهم ويُجازى كل عمل من أعمال القسوة والظلم ضد عبيد الله الأمناء كما لو كان موجهاً ضد المسيح نفسه.

وهناك سؤال آخر أهم من الأول ينبغي أن يثير اهتمام كنائس اليوم. قال بولس الرسول: « وَجَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهَدُونَ » (٢ تيموثاوس ٣: ١٢). فلماذا إذاً يبدو أن الاضطهاد قد خدّمت ناره؟ السبب الوحيد هو أن الكنيسة قد شاكت العالم في مثله، ولذلك لا يثار عليها أي اضطهاد. إن الديانة الشائعة في أيامنا هذه ليست طاهرة ولا مقدسة كالتي امتاز بها الإيمان المسيحي في أيام المسيح ورسله. إنما فقط بسبب روح التسامح مع الخطيئة، ولأن حقائق كلمة الله العظيمة تقابل بعدم الاكتراث، ولأن ما في الكنيسة من التقوى الحيوية العملية قدر ضئيل جداً، لهذه الأسباب يبدو وكأن المسيحية مألوفة لدى العالم ورائجة. ولكن متى انتعش إيمان الكنيسة الأولى وقوتها في كنيسة اليوم فسيتجدد روح الاضطهاد وتشتعل نيرانه مجدداً.

٣ - الارتداد

في الرسالة الثانية إلى تسالونيكي أنبأ بولس الرسول بالارتداد العظيم الذي كان سيأتي نتيجة لتوطيد السلطة البابوية. فقد أعلن أن يوم المسيح لن يأتي « إن لم يأتي الارتداد أولاً ويستعلن إنسان الخطيئة ابن الهلاك المقاوم والمترفع على كل ما يُدعى إلهاً أو معبوداً حتى أنه يجلس في هيكل الله كإله مظهراً نفسه أنه إله ». وفضلاً عن ذلك فالرسول يحذر إخوته قائلاً: « سرّ الإثم الآن يَعْمَلُ » (٢ تسالونيكي ٢: ٣، ٤، ٧). حتى في ذلك التاريخ القديم رأى الضلّالات التي ستعد الطريق لنشر البابوية وتطورها وهي تزحف إلى داخل الكنيسة.

وشيئاً فشيئاً نرى « سرّ الإثم » يتسلل في البداية في صمت وسكون، وبعد ذلك يتقدم علناً عندما حصل على سلطان وقوة وتسلط على عقول الناس وهو يقوم بعمله التجديفي الخادع. وبطريقة لم يكذب يحسب بها أحد شقت العادات الوثنية لنفسها طريقاً إلى داخل الكنيسة المسيحية. وكبح روح التساهل والخنوع بعض الوقت بواسطة الاضطهادات العنيفة التي شنتها الوثنية على المسيحية. ولكن بعد زوال الاضطهاد حين دخلت المسيحية بلاط الملوك وقصورهم ألقت عنها رداء البساطة التي في المسيح ورسله واستعاضت عنه بفخامة الكهنة والرؤساء الوثنيين وكبريائهم، كما استعاضت عن مطالب الله بمبادئ الناس وتقاليدهم. إن اهتداء قسطنطين الاسمي الظاهري في أوائل القرن الرابع سبب فرحاً عظيماً، فدخل العالم الكنيسة مرتدياً صورة البر. وفي ذلك الوقت تقدم عمل الفساد بسرعة. والوثنية التي بدا كأنها انهزمت صارت هي المنتصرة. فلقد سيطرت روحها على الكنيسة إذ اعترت بتعاليمها وطقوسها وخرافاتها إيمان المعترفين بأنهم أتباع المسيح.

وقد نتج من هذا التواطؤ بين الوثنية والمسيحية أن نضج « إنسان الخطيئة » الذي سبقت النبوات فأنبأت بأنه سيقاوم الله ويسعى ليرتفع عليه. فذلك النظام الهائل الجبار، نظام الديانة الكاذبة، هو ذروة قوة الشيطان وقمة محاولاته ليجلس على العرش ليحكم على الأرض حسب إرادته.

لقد حاول الشيطان مرة أن يعقد تحالفاً مع المسيح. جاء إلى ابن الله في برية التجربة، وإذا أراه كل ممالك العالم ومجدها عرض عليه أن يدفعها كلها إلى يديه إذا اعترف فقط بسيادة سلطان الظلمة. لكنّ المسيح انتهر ذلك المجرب الوقح وأرغمه على الانسحاب. غير أن الشيطان يصيب نجاحاً أعظم حين يغري الناس بالتجارب ذاتها. ففي سبيل الظفر بأرباح العالم وكراماته انساقت الكنيسة إلى أن تطلب رضى عظماء الأرض ومعاضدتهم، وإذا رفضت المسيح على هذا النحو فقد عُرب بها لكي تقدم ولاءها لنائب الشيطان، أسقف روما.

من بين العقائد الكاثوليكية الرئيسة أن البابا هو الرأس المنظور لكنيسة المسيح الجامعة، وهو مزود سلطانياً فائقاً على الأساقفة والقساوسة في كل أنحاء العالم. وأكثر من هذا فقد خلعت على البابا ألقاب الله نفسه. لقد لُقّب بـ « الرب الإله البابا » (انظر التذييل). وأعلن أنه معصوم. وهو يطالب كل الناس بالولاء. إن ما ألحّ الشيطان في طلبه في برية التجربة لا يزال هو نفسه يطلبه بالحاح عن طريق كنيسة روما، وجماعات كثيرة من الناس مستعدون لتقديم ولائهم له.

لكنّ أولئك الذين يخافون الله ويوقرونه يقابلون هذا الادعاء المنطوي على التحدي لسلطان السماء

مثلاً واجه المسيح إغراءات العدو المحتال إذ قال السيد: « لِلرَّبِّ إِلَهَكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ » (لوقا ٤: ٨)، إن الله لم يورد أبداً أي إشارة في كلمته إلى أنه قد أقام إنساناً ليكون رأس الكنيسة. فعقيدة سيادة البابا ضد تعاليم الكتب المقدسة مباشرة. ولا يمكن أن يسود البابا على كنيسة المسيح إلا بطريق الاغتصاب.

لقد أصر الكاثوليك على أن يلصقوا بالبروتستانتية تهمة الهرطقة وتعمد الانفصال عن الكنيسة الحقيقية. لكن هذه التهم تنطبق بالحري على الكاثوليك أنفسهم. فهم الذين القوا لواء المسيح بعيداً وارتدوا عن « الإيمان المُسَلَّم مَرَّةً لِلْقَدِيسِينَ » (يهوذا ٣).

قوة كلمة الله

عرف الشيطان جيد المعرفة أن الكتب المقدسة تساعد الناس على تمييز مخاتلاته والصمود أمام قوته. فحتى مخلص العالم نفسه صد هجماته بالمكتوب. ففي كل هجوم حمل المسيح ترس الحق الأبدي قائلاً: « مكتوب ». وأمام كل اقتراح من مقترحات الخصم قدم حكمة الكلمة وسلطانها. فلكي يظل الشيطان محتفظاً بسيادته على الناس ويثبت سلطان البابا المغتصب كان لا بد له من أن يبيهم في حالة الجهل بالكتب المقدسة. إن الكتاب المقدس يعظم الله ويمجده، ويضع الناس المحدودين في وضعهم الصحيح، ولذلك ينبغي إخفاء حقائقه المقدسة وكتبتها. هذا هو المنطق الذي اعتنقته الكنيسة الكاثوليكية. فلقد منع الناس من نشر الكتاب طوال مئات السنين، كما حرمت على الناس قراءته أو حيازته في بيوتهم، وقد فسر الكهنة والأساقفة، المجردون من المبادئ الخلقية، تعاليمه بما يدعم ادعاءاتهم. وهكذا اعترفت الغالبية العظمى في العالم المسيحي بأن البابا هو نائب الله على الأرض وله السلطان على الكنيسة والحكومة.

الاستخفاف بسلطة السماء

فإذا استبعد كاشف الضلالات أمكن الشيطان أن يعمل ما يشاء. وقد أعلنت النبوات عن البابوية قولها: « وَيَظُنُّ أَنَّهُ يُعَيِّرُ الْأَوْقَاتَ وَالسَّنَةَ » (دانيال ٧: ٢٥). ولم تتباطأ البابوية في محاولة القيام بهذا العمل. فلكي يعطوا المهتدين من الوثنية إلى المسيحية شيئاً ما كبديل من عبادة الأوثان، داعمين قبولهم المسيحية قبولاً اسمياً، أدخلت عبادة التماثيل وذخائر القديسين في المسيحية تدريجاً. وقد أقر أخيراً المجمع النيقاوي الثاني (٧٨٧ ب. م.) هذا النظام الوثني نهائياً. (أنظر التذييل) وحتى يكتمل عمل ذلك الرجس تجرأت روما على حذف الوصية الثانية من شريعة الله التي تنهي عن عبادة الصور، وتقسيم الوصية العاشرة إلى اثنتين ليظل عدد الوصايا كما كان.

هذه الروح الإذعانبة للوثنية أفسحت الطريق لمزيد من الاستخفاف بسلطة السماء. وإذا بدأ الشيطان يستخدم قادة الكنيسة غير المكرسين دنس الوصية الرابعة أيضاً وعمد إلى إغفال يوم السبت القديم الذي باركه الله وقده (تكوين ٢: ٢، ٣)، ومجد وعظم بدلاً منه عيد « يوم الشمس الموقر » الذي كان يحتفل به الوثنيون. ولم يحاولوا إجراء هذا التغيير علناً في بادئ الأمر. ففي القرون الأولى كان كل المسيحيين يحفظون يوم السبت الحقيقي، وكانوا يغارون على كرامة الله. ولأنهم

يؤمنون أن شريعة الله ثابتة لا تتغير صانوا قدسية وصاياه بكل غيرة. لكن الشيطان استخدم أعوانه بكل دهاء ليتمموا غرضه. ولكي يتجه التفات الناس إلى يوم الأحد، جعلوه عيداً إكراماً لقيامة المسيح. وفي ذلك اليوم كانت تقام الخدمات الدينية، إلا أنه كان معتبراً يوم اللهو والتسلية، وكان يوم السبت لا يزال يحفظ مقدساً.

ولكي يمهّد الشيطان الطريق للعمل الذي قصد أن ينجزه قاد اليهود قبل مجيء المسيح إلى أن يحيطوا السبت بأقصى القيود والنواهي الصارمة حتى لقد جعلوا حفظه عبئاً ثقيلاً. فانتهاز فرصة هذا المنظور الخاطئ ليلصق بالسبت الازدراء والاحتقار على اعتبار أنه تشريع يهودي. وفيما ظل المسيحيون عموماً يحفظون يوم الأحد كعيد مفرح قادهم الشيطان إلى جعل يوم السبت يوم صوم، يوم حزن ووجوم، لكي يبرهنوا على كراهيتهم للدين اليهودي.

منشور الإمبراطور قسطنطين

وفي أوائل القرن الرابع أصدر الإمبراطور قسطنطين منشوراً صار يوم الأحد بموجبه عيداً عاماً في كل اتحاد الإمبراطورية الرومانية (انظر التذييل)، فصار رعاياه الوثنيون يوقرون يوم الشمس هذا كما صار المسيحيون يكرمونه. كان الإمبراطور يقصد من وراء سياسته هذه أن يوحد بين مصالح الوثنية ومصالح المسيحية المتضاربة. ولقد ألح عليه في ذلك أساقفة الكنيسة الذين أدركوا بدافع الطمع والتعطش إلى السيادة والسلطان، أنه إذا كان المسيحيون الوثنيون يحفظون اليوم نفسه فهذا يساعد الوثنيين على قبول المسيحية ولو في الظاهر، وهكذا يزداد سلطان الكنيسة ومجدها. ولكن إذ كان كثيرون من المسيحيين الخائفين الله قد أخذوا بالتدريج يصفون على يوم الأحد بعض القدسية فقد ظلوا يعتبرون يوم السبت الحقيقي يوم الرب المقدس، فحفظوه إطاعة للوصية الرابعة.

لم يكن المضل الأكبر قد أكمل عمله، فلقد عزم على أن يحشد كل العالم المسيحي تحت لوائه، ويستخدم سلطانه عبر نائبه البابا المتكبر الذي كان يدعي أنه نائب المسيح. وقد أتم غرضه عن طريق الوثنيين الذين كانوا نصف مهتدين والأساقفة الطامعين والمسيحيين الذين بهرهم مجد العالم. ومن وقت إلى آخر كانت تنعقد مجامع مسكونية يلتقي فيها أحرار الكنيسة القادمون من كل ربوع العالم. وفي كل مجمع تقريباً كان يوم السبت الذي شرّعه الله تحط كرامته وتنخفض شيئاً فشيئاً، في حين أن يوم الأحد كان على العكس من ذلك يسمو ويتجمد. وهكذا آل الأمر نهائياً إلى اعتبار يوم العيد الوثني مكرماً كتشريع الهي، بينما اعتبر سبت الكتاب المقدس تشريعاً يهودياً بائداً وأعلن تحريم حفظه.

لقد أفلح المرتد العظيم في أن يرتفع « عَلَى كُلِّ مَا يُدْعَى إِلَهًا أَوْ مَعْبُودًا » (٢ تسالونيكي ٢: ٤). تجرأ على تغيير الوصية الوحيدة بين وصايا الشريعة الإلهية التي توجه الجنس البشري كله توجيهها صحيحاً إلى الإله الحي الحقيقي. فالوصية الرابعة تعلن لنا أن الله هو خالق السماوات والأرض، وبذلك يمتاز عن كل الآلهة الكاذبة. ولكي تذكرنا هذه الوصية بعمل الخلق علمتنا أن اليوم السابع قد قُدس كيوم راحة للإنسان. وكان القصد منها جعل الإله الحي نصب عيون الناس وعقولهم على الدوام كأصل الوجود وموضوع العبادة والسجود. إن الشيطان يحاول أن يحول الناس عن ولائهم لله

وتقديم الطاعة لشريعته، ولذلك فهو يحول كل جهوده لمحاربة تلك الوصية التي تشير إلى الله كالخالق.

يصر البروتستانت الآن على القول أن قيامة المسيح في يوم الأحد جعلته يوم الراحة المقدس للمسيحيين. ولكن يعوزهم الدليل الكتابي. فلا المسيح ولا رسله أعطوا هذا اليوم مثل هذه الكرامة. إن حفظ يوم الأحد كتشريع مسيحي يجد أصله في « سر الإثم » (٢ تسالونيكي ٢: ٧) الذي كان قد بدأ حتى منذ أيام بولس. فأين ومتى اعترف الرب بابن البابوية هذا؟ وأي سبب شرعي يمكن إعطاؤه لذلك التغيير الذي لم يقره الكتاب المقدس؟

في القرن السادس صارت البابوية ثابتة الأركان، وقد ثبت كرسي سلطانها في عاصمة الإمبراطورية، وأعلن أن أسقف روما هو رأس الكنيسة كلها، وأفسحت الوثنية المجال للبابوية. لقد أعطى التينُّ الوحش « قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا » (رؤيا ١٣: ٢) (انظر التذييل). أما الآن فقد بدأت الألف والمئتان والستون سنة من الظلم والاضطهاد البابوي المذكورة في نبوات دانيال وسفر الرؤيا (دانيال ٧: ٢٥، رؤيا ١٣: ٥-٧). وقد أرغم المسيحيون على اختيار أحد الشرين: إما أن يتنحوا عن نزاهتهم واستقامتهم ويقبلوا الطقوس والعبادة البابوية، وإما أن تذوي حياتهم في ظلمات السجون أو يقاسوا آلام الموت على آلات التعذيب أو حرقا بالنار أو قتلا بالسيف حينئذ تحقق كلام يسوع حين قال: « وَسَوْفَ تُسَلَّمُونَ مِنَ الْوَالِدِينَ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَقْرَبَاءِ وَالْأَصْدِقَاءِ، وَيَقْتُلُونَ مِنْكُمْ. وَتَكُونُونَ مُبْعَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي » (لوقا ٢١: ١٦، ١٧). وقد اشتد الاضطهاد على الأمناء على نحو لم يسبق له مثيل، فصار العالم ساحة قتال عظيمة. ولمدة مئات السنين وجدت كنيسة المسيح ملاذا لها في العزلة والاختفاء. وهكذا يقول الرائي: « وَالْمَرْأَةُ هَرَبَتْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، حَيْثُ لَهَا مَوْضِعٌ مُعَدٌّ مِنَ اللَّهِ لِكَيْ يَعْوِلُوهَا هُنَاكَ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا » (رؤيا ١٢: ٦).

حدد بلوغ كنيسة روما ذروة القوة والسلطان بدء العصور المظلمة. ومع تعاظم سلطانها زادت وطأة الظلمة. وقد انحرف إيمان الناس عن المسيح، النبع الحقيقي، إلى بابا روما. وبدلا من الاتكال على ابن الله لأجل غفران الخطايا والخلاص الأبدي اتجه الناس إلى البابا والكهنة والأساقفة الذين زودهم هو سلطاناً. وقد علموهم أن البابا هو وسيطهم الأرضي، وأنه لا يمكن لإنسان الدنو من الله إلا بوساطته، وأكثر من هذا فإنه بالنسبة إليهم في مكان الله وينبغي أن يُطاع طاعة كاملة. والانحراف عن أوامره ومطالبه سبب كاف لإيقاع المذنبين تحت أقسى العقوبات الجسدية والروحية. وهكذا انحرفت عقول الناس عن الله إلى الإنسان المعرض للخطأ والضلال والقسوة، بل انحرفوا بالحري إلى سلطان الظلمة نفسه الذي نفذ أغراضه واستخدم قوته من خلال الناس الأشرار. لقد تنكرت الخطيئة في ثياب القداسة، فمتى أغفلت الكتب المقدسة وأسدل عليها الظلام وصار الإنسان يعتبر نفسه السيد المتسلط فلنا أن نتظر تفشي الخيانة والخداع والإثم والفساد. وإذ سادت القوانين البشرية والتقاليد الباطلة ظهر الفساد الذي يستشري دائما عندما يطرح الإنسان شريعة الله جانبا.

أيام خطرة على الكنيسة

كانت تلك الأيام خطرة على كنيسة المسيح. وكان حاملو لواء الحق الأمناء قليلين حقاً. ومع أن الحق لم يُترك بلا شاهد فلقد بدأ في بعض الأحيان كأن الضلالت والخرافات سادت سيادة شاملة، وكأن الدين الحقيقي قد طرد من الأرض. لقد غاب الإنجيل عن الأنظار، أما طقوس الديانة فزادت وتكاثرت فأثقلت كواهل الناس بالأوامر الصارمة.

تعلم الناس ليس فقط أن ينظروا إلى البابا كوسيطهم بل أيضاً أن يعتمدوا على أعمالهم للتكفير عن خطاياهم. فالسفر الطويل لكي يحج الإنسان إلى الأراضي المقدسة، والأعمال التكفيرية، وعبادة الذخائر، وبناء الكنائس والمزارات والمذابح، وتقديم الأموال الطائلة بسخاء للكنيسة، هذه كلها وما شاكلها فُرضت على الناس لتسكين غضب الله أو جلب رضاه، كما لو كان الله شبيهاً بالناس يغضب من التوافه أو يصفح متى قُدمت إليه العطايا أو الأعمال التكفيرية.

وعلى رغم تفاقم الرذيلة وسيادتها حتى بين قادة كنيسة روما فلقد زاد نفوذ هذه وتعاضم. ففي أواخر القرن الثامن ادعى البابويون أنه في العصور الأولى كان لأساقفة كنيسة روما السلطان الروحي نفسه الذي هو لهم الآن. وبقصد تثبيت هذا الادعاء كان لا بد من استخدام بعض الوسائل لتضفي عليه طابع السلطان، وهذا ما أُسرع باقتراحه أبو الأكاذيب. فلقد زوّر الرهبان بعض الكتابات القديمة، كما اكتشفت بعض أحكام المجامع الكنسية التي لم يُسمع بها من قبل مثبتة سيادة البابا الشاملة منذ أقدم العصور. والكنيسة التي رفضت الحق قبلت هذه الأكاذيب بكل نهم وشغف. (انظر التذييل).

الثبات في وجه المقاومة

أما البناة الأمناء القليلون الذين كانوا يبنون على الأساس الحقيقي الراسخ (١ كورنثوس ٣: ١٠، ١١) فقد تحيروا وارتبكوا وتعطلوا إذ أعاقهم ركام التعاليم الكاذبة عن القيام بعملهم. وعلى غرار البناة الذين كانوا يرفعون أسوار أورشليم في عهد نحميا كان بعضهم موشكين أن يقولوا: « قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّةُ الْحَمَّالِينَ، وَالتُّرَابُ كَثِيرٌ، وَنَحْنُ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَبْنِيَ السُّورَ » (نحميا ٤: ١٠). لقد أنهكتهم المنازعات والكفاح ضد الاضطهاد والخداع والغش والاثم والخيانة وكل العوائق الأخرى التي استطاع الشيطان ابتكارها ليمنع ويعطل تقدمهم. وكثيرون من البنائين الأمناء خارت عزائمهم، ولأنهم كانوا يَنشُدون السلام ويحرصون على صيانة أملاكهم وأرواحهم ارتدوا عن الأساس الحقيقي. أما الآخرون الذين زادتهم مقاومة أعدائهم شجاعة فوق شجاعتهم فقد أعلنوا قائلين بلا خوف: « لَا تَخَافُوهُمْ بَلْ اذْكُرُوا السَّيِّدَ الْعَظِيمَ الْمَرْهُوبَ » (نحميا ٤: ١٤) فساروا في عملهم قُدمًا وكل منهم سيفه على فخذهِ (أفسس ٦: ١٧).

إن الروح نفسها، روح كراهية الحق ومقاومته، قد حثت أعداء الله في كل عصر، وكان مطلوباً من شعب الله أن يُظهروا اليقظة والولاء نفسيهما. وينطبق قول المسيح إلى تلاميذه الأولين « وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: اسْهَرُوا » (مرقس ١٣: ٣٧) على كل اتباعه إلى انقضاء الدهر. وقد بدأ كَأَن الظلمة تزداد حلوة وهولا، فعَمَّت عبادة الصور، وكان الناس يوقدون أمامها الشموع

ويتلون أمامها الصلوات، وتفشت أسخف العادات الخرافية كما تحكمت الخرافات في عقول الناس حتى بدا كأن العقل أضاع سلطانه. وإذ كان الكهنة والأساقفة أنفسهم محبين للهو والملذات وكانوا شهوانيين فاسدين، كان من المتوقع من الشعب الذي كان يقتدي بهم ويتبع إرشاداتهم أن ينحدر إلى عمق أعماق الجهل والرديلة.

ثم خطت البابوية خطوة أخرى في طريق الادعاء عندما أعلن البابا غريغوريوس السابع في القرن الحادي عشر عصمة كنيسة روما وكمالها، فمن بين المقترحات التي ارتآها وأذاعها قوله بأن الكنيسة لم ولن تخطئ طبقاً للكتب المقدسة. إلا أن البراهين الكتابية لم تدعم ذلك التصريح. وقد أعلن ذلك البابا المتكبر أيضاً أن له السلطان أن يخلع الأباطرة، وأن أحداً من الناس كائناً من يكون لا يحق له أن يلغي أحكامه أو يبطلها، أما هو فمن حقه أن يلغي أحكام الآخرين (انظر التذييل).

تذلل الإمبراطور هنري الرابع

وهناك مثال مذهش على طغيان هذا المدافع عن العصمة واستبداده في معاملته الشاذة لإمبراطور ألمانيا هنري الرابع. فإذ جاهر هذا الإمبراطور بعدم مبالاته بسلطان البابا حرمه هذا وخلعه عن العرش. وإذ ارتعب الإمبراطور عندما هجره أمراؤه وجعلوا يهددونه بعدما شجعهم حكم البابا على التمرد عليه أحس هنري بضرورة عقد صلح مع روما. فسار في صحبة زوجته الإمبراطورة وأحد خدامه الأمناء عبر جبال الألب في منتصف الشتاء ليتذلل أمام البابا، ولما وصل إلى القلعة التي كان غريغوريوس فيها اقتيد إلى فناء خارجي من دون أن يُسمح لحراسه بمرافقته، وهناك في زمهرير الشتاء القارس وهو عاري الرأس وحافي القدمين في لباس زري لبث ينتظر الأذن من البابا للمثول في حضرته. ولم يتنازل البابا بالعفو عنه إلا بعد ثلاثة أيام قضاها الإمبراطور صائماً معترفاً مسترحماً. ومع ذلك فإن العفو كان مشروطاً بتنفيذ العقوبة قبل أن تعاد إليه سمة الملك ويعود لمزاولة سلطته وحكمه. وإذ ازدهى غريغوريوس بهذا الانتصار افتخر بأن من واجبه أن ينزل الملوك عن عظمتهم وكبريائهم.

فما أعظم الفرق المدهش بين كبرياء البابا المتعجرف وغطرسته ووداعة المسيح ولطفه إذ يصور نفسه كمن هو واقف على باب القلب طالباً الإذن حتى يدخل ويمنح الإنسان الغفران والسلام، ويعلم تلاميذه قائلاً: "وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ أَوَّلًا فَلْيَكُنْ لَكُمْ عَبْدًا" (متى ٢٠: ٢٧).

وقد شهدت القرون التالية ازدياد الأخطاء والضلالات الخارجة من روما والتي لم ينقطع سيلها. بل حتى قبل رسوخ قدم البابوية لاقت تعاليم الفلاسفة الوثنيين قبولا من الناس، وكان لها تأثير على الكنيسة. وكثيرون ممن أقروا باهتدائهم إلى المسيحية ظلوا متمسكين بعقائد فلسفتهم الوثنية ولم يكتفوا بالاستمرار في دراستها بأنفسهم بل ألحوا على الآخرين بالسير على نهجهم قائلين أن تلك الفلسفة وسيلة لانتشار نفوذهم وبسطه على الوثنيين. وهكذا أدخلت على الإيمان المسيحي ضلالات جسيمة. ومن أشهر تلك الضلالات الاعتقاد بالخلود الطبيعي للإنسان وبوعيه في الموت. هذه العقيدة الخاطئة كانت هي الأساس الذي بنت عليه روما ضلالة الابتهاال إلى القديسين وتمجيد

مريم العذراء. ومن هذا نبتت أيضاً هرطقة العذاب الأبدي لمن يموتون في قساوة قلوبهم، تلك الهرطقة التي تسلت إلى العقيدة البابوية باكرا.

حينئذ أعد الطريق لإدخال اختراع جديد من إنتاج الوثنية، وقد دعتة روما « المطهر » واستخدمته في إرهاب الجماهير الساذجة المتمسكة بالخرافات. هذه البدعة ثبتت الاعتقاد بوجود مكان لعذاب من لا يستحقون الهلاك الأبدي، حتى إذا نالوا جزاءهم على خطاياهم وتطهروا من نجاستهم قبلوا في السماء (انظر التذييل).

وكانت الحال تدعو إلى اختلاق شيء آخر يمكن روما من الاستفادة من مخاوف تابعيها ورذائلهم. وقد وجدت ضالتها في بدعة صكوك الغفران. فكل من رغبوا في الانضواء تحت لواء البابا لشن الحروب بغية توسيع أملاكه الزمنية وتأديب أعدائه أو استئصال شأفة أولئك الذين تجرأوا على إنكار حقه في السيادة الروحية أعطوا وعدا بالغفران الكامل لخطاياهم في الماضي والحاضر والمستقبل، وبالعقوبات من كل الآلام والعقوبات. كما علموا الناس أيضاً أنهم إذ يبذلون من أموالهم للكنيسة يتحررون من الخطيئة وتعتق أرواح أصدقائهم الموتى المحبوسة في لهيب النار والعقاب. فهذه الوسائل وأمثالها ملأت روما خزائنها بالأموال الطائلة وساندت الفخامة والتنعيم والرذيلة التي اتصف بها أولئك الذين كانوا يدعون أنهم نواب عن ذاك الذي لم يكن له أين يسند رأسه. (أنظر التذييل).

واستعيض عن ممارسة فريضة العشاء الرباني، كما جاءت في الكتاب، بالذبيحة الوثنية المدعوة ذبيحة القديس. فلقد ادعى كهنة البابا أنهم قادرون بواسطة شعائهم ومراسمهم العديمة المعنى، على تحويل الخبز والخمر العاديين إلى « جسد المسيح ودمه الفعلي » (٤) نفسه. وبوقاحة تجديفية ادعوا جهاراً أنهم قادرون على أن يخلقوا الله خالق كل الأشياء. وقد طُلب من المسيحيين، مع التهديد بالموت، أن يجاهروا بهذه الهرطقة الرهيبة المهيبة للسماء. وكثيرون ممن رفضوا ذلك ذهبوا طعاماً للهييب النار. (أنظر التذييل).

في القرن الثالث عشر أقيمت أُرهب أنظمة البابوية: محاكم التفتيش. ولقد كان سلطان الظلمة يعمل مع السلطة البابوية ويساندها. ففي مجامعهم السرية سيطر الشيطان وملائكته على عقول الناس الأشرار، بينما وقف في الوسط احد ملائكة الله، وإن يكن غير منظور، ليسجل أحكامهم الجائرة في سفره المخيف وليكتب تاريخ تلك الأعمال التي كانت أُرهب من أن تقع عليها عيون الناس. إن « بابل العظيمة قد سكرت بدماء القديسين ». والأجسام الممزقة لملايين من الشهداء كانت تصرخ إلى الله لينتقم لهم من ذلك السلطان المرتد.

لقد أُمست البابوية طاغية العالم المستبد. فالملوك والاباطرة انحنوا خضوعاً أمام أحكام بابا روما. إذ بدا وكأنه يتحكم في مصائر الناس في الزمن الحاضر وفي الأبدية. ولمدى مئات السنين قبلت عقائد كنيسة روما على مدى وسيع بحذافيرها وبكل ثقة. وبكل وقار كان الناس يمارسون طقوسها بوجه عام، وكان الجميع يحفظون أعيادها. ورجال الكهنوت كانوا مكرمين، وكانت العطايا تُجزل لهم بسخاء لإعالتهم. ولم يحدث قبل ذلك التاريخ ولا بعده أن حصلت كنيسة روما على عظمة أو أبهة أو سلطان أكثر مما حصلت عليه آنئذ.

لكنّ "نور الظهيرة بالنسبة إلى البابوية كان ظلام نصف الليل بالنسبة إلى العالم" (ه). فالكتب المقدسة كادت تكون مجهولة تماما، ليس فقط من الشعب بل حتى من الكهنة أنفسهم. فكما كان الفريسيون قديما هكذا كان هؤلاء الرؤساء البابويون ييغضون النور الذي يفضح خطاياهم. وإذا أبعدت شريعة الله التي هي نموذج البر ومقياس الكمال كانوا يمارسون سلطانهم بكل حرية ويمارسون الرذيلة بلا رادع. كما تفشى الاحتيال والجشع والبخل وسادت الخلاعة ولم يعد الناس يتورعون عن ارتكاب كل جريمة في سبيل الوصول إلى المراكز العظيمة والحصول على الغنى الجزيل. ولقد مثلت في قصور الباباوات والأساقفة أحطّ مشاهد الفجور والنجاسة. كما أن بعض الباباوات المتريعين على الكرسي البابوي ارتكبوا جرائم مثيرة ومنفرة جدا بحيث أن رؤساء الحكومات حاولوا عزل أحبار الكنيسة إذ اعتبروهم وحوشا أحط مما يمكن احتمالهم أو التغاضي عن جرائمهم. ولقد ظلت أوروبا واقفة جامدة لم تتقدم في العلوم أو الفنون أو المدنية، وهكذا شمل العالم المسيحي شللٌ أدبي وأخلاقي وثقافي.

إن حالة العالم تحت الحكم البابوي أعطت صورة مخيفة ومدهشة لأقوال النبي هوشع إذ قال: « قَدْ هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ. لَأَنَّكَ أَنْتَ رَفَضْتَ الْمَعْرِفَةَ أَرْفُضُكَ أَنَا... وَلَأَنَّكَ نَسِيتَ شَرِيعَةَ إِلَهِكَ أَنْسَى أَنَا أَيْضاً بَنِيكَ »، « لَا أَمَانَةَ وَلَا إِحْسَانَ وَلَا مَعْرِفَةَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ لَعْنٌ وَكَذِبٌ وَقَتْلٌ وَسَرَقَةٌ وَفَسْقٌ. يَعْتَنِفُونَ، وَدِمَاءٌ تَلْحَقُ دِمَاءً » (هوشع ٤: ٦، ١، ٢). هذه كانت عواقب أقصاء الناس كلمة الله بعيدا منهم.

٤ - الولدنسيون

في وسط الظلام الدامس الذي جثم على الأرض في أثناء الفترة الطويلة التي كانت السيادة فيها للبابوات لم يكن ممكناً أن ينطفئ نور الحق تماماً. فلقد كان لله شهود في كل عصر — رجال اعتنقوا الإيمان بالمسيح كالوسيط الوحيد بين الله والناس. وتمسكوا بالكتاب المقدس كالقانون الوحيد للحياة، وكانوا يقدسون السبت الحقيقي. ولن تعرف شعوب الأجيال القادمة عظم الدين الكبير الذي في أعناقهم تجاه أسلافهم المجاهدين. لقد وُصموا بالهرطقة وكُذبت نواياهم وبواعثهم وصودرت كتاباتهم أو أحرقت وشوّه الأعداء أخلاقهم، ومع ذلك فقد ظلوا راسخين كالطود. ومن جيل إلى جيل ظلوا محتفظين بإيمانهم في نقاوته كميّرات مقدس للأجيال اللاحقة.

إن تاريخ شعب الله في العصور المظلمة التي بدأت منذ أن صارت السيادة لروما هو سجل حافل بالأحداث ومكتوب في السماء، وإن كان أهل العالم لا يعطونه المكانة اللائقة به. وقليلة هي الآثار الدالة على وجود شعب الله هذا، اللهم إلا في اتهامات مضطهديهم. فلقد كانت سياسة روما تهدف إلى محو كل آثار الانشقاق والخروج على عقائدها وقوانينها، فكل ما كانت تعتبره هرطقة عمدت إلى ملاشاته سواء أكان مؤلفات أو أناساً. فكلام الشك أو التساؤل في ما يختص بسلطة تعاليم البابا كان كفيلاً بأن يضيّع حق الإنسان في الحياة سواء كان من الأغنياء أو الفقراء، العظماء أو الأديناء. وعمدت روما أيضاً إلى إحراق كل الوثائق التي تثبت قسوتها على المنشقين عليها، فلقد أصدرت المجمع البابوية أوامرها بحرق مثل تلك السجلات. قبل اختراع المطابع كانت الكتب قليلة العدد ونادرة الوجود، وكانت ذات أحجام كبيرة بحيث لم يسهل حفظها، ولهذا فلم يكن ما يمنع رجال كنيسة روما من تنفيذ أغراضهم.

لم تُترك كنيسة ضمن حدود سيادة روما تنعم بحرية ضميرها من دون إزعاج. فما أن حصلت البابوية على السلطان حتى مدت يديها لتسحق كل من رفضوا الاعتراف بسيادتها، وهكذا خضعت الكنائس لسلطانها الواحدة في أثر الأخرى.

في بريطانيا العظمى كانت المسيحية البدائية قد جذّرت أصولها. فالإنجيل الذي قبله البريطانيون في القرون الأولى لم يكن الارتداد الروماني قد أفسده. وكانت الاضطهادات التي أثارها الأباطرة الوثنيون والتي امتدت حتى إلى هذه السواحل النائية هي الهدية الوحيدة التي حصلت عليها الكنائس من عاصمة الإمبراطورية. وكثيرون من المسيحيين الذين هربوا من الاضطهاد الواقع عليهم في إنكلترا وجدوا لأنفسهم ملاذاً في السكوتلاند، ومن هناك انتقل الحق إلى أيرلاند، وفي كل هذه الأقطار قبل الناس الحق بفرح.

عندما غزا السكسون بريطانيا كانت الوثنية سائدة على البلاد. وقد استنكف الغزاة وترفعوا عن أن يتلقوا التعليم من أيدي عبيدهم، فأرغم المسيحيون على التراجع إلى الجبال والقفار الموحشة، ومع ذلك فالنور الذي احتجب إلى حين ظل مشتعلًا. وبعد ذلك بقرن من الزمان كان ذلك النور يضيء في اسكوتلاند بلمعان عظيم امتد إلى بلدان بعيدة. ومن أيرلاند أتى كولومبا التقي ومعاونوه الذين جمعوا حولهم المؤمنين المشتتين في جزيرة أيونا الموحشة وجعلوها مركز خدماتهم الكرازية. ووجد

بين أولئك الكارزين رجل كان يحفظ السبت الكتابي، وهكذا قُدم هذا الحق إلى الناس، فأنشئت في أيونا مدرسة خرج منها المرسلون ليس إلى اسكوتلانده وإنكلترا وحدهما بل أيضاً إلى ألمانيا وسويسرا، وحتى إلى إيطاليا نفسها.

فرق مدهش

لكنّ روما صوّبت بنظرها إلى بريطانيا وعقدت العزم على إخضاعها لسيادتها. ففي القرن السادس أخذ مرسلوها على عاتقهم أمر هداية السكسون الوثنيين. وقد قبلوا بكل سرور وترحيب من البرابرة المتكبرين فاستمالوا آلافاً كثيرة منهم إلى العقيدة الرومانية. وإذا تقدم العمل اصطدم الرؤساء البابويون والمهتدون، بالمسيحيين الأصليين، وبدا الفرق مدهشا بين الفريقين: فقد كان المسيحيون قوماً بسطاء متواضعين ومتمسكين بمبادئ الكتاب المقدّس في أخلاقهم وتعاليمهم وعاداتهم، أما البابويون فقد عرضوا خرافات البابوية وعظمتها وغطرستها. وقد أمر مبعوث البابا هذه الكنائس المسيحية أن تعترف بسيادة البابا السامية. وبكل وداعة أجابه البريطانيون قائلين أنهم يريدون أن يحبوا جميع الناس، وأن البابا ليس مخولاً أمر السيادة في الكنيسة، وكذلك فهم لا يقدمون له إلا الخضوع الذي هو من حق كل تابع للمسيح. فبذلت عدة محاولات للظفر بولائهم لروما، لكنّ هؤلاء المسيحيين الوضعاء إذ أذهلتهم الكبرياء التي أظهرها مبعوثو روما أجابوا بكل ثبات قائلين أنهم لا يعرفون سيّداً آخر غير المسيح. وهنا ظهرت روح البابوية على حقيقتها. فلقد قال ذلك الرئيس البابوي: "إذا كنتم لا تقبلون الأخوة الذين يأتوكم بالسلام فسيأتيكم الأعداء الذين يحملون إليكم الحرب والدمار. وإذا لم تتحدوا معنا في إرشاد السكسون إلى طريق الحياة فستتلقون منهم ضربات الموت" (٦). ولم يكن هذا كلاماً عديم الجدوى، فلقد استُخدمت الحروب والمؤامرات والخداع والغدر ضد شهود إيمان الإنجيل هؤلاء إلى أن خربت كنائس بريطانيا أو أرغمت على الخضوع لسلطان البابا.

ولكن بعيداً من سلطان روما كانت توجد على امتداد القرون جماعات من المسيحيين ظلوا تقريباً أحراراً من الفساد البابوي. لقد كانوا محاطين بالوثنية وبمرور العصور تأثروا بأخطائها، إلا أنهم ظلوا يعتبرون الكتاب المقدّس كالقانون الوحيد للإيمان، وتمسكوا بكثير من حقائقه. هؤلاء المسيحيون كانوا يؤمنون بثبات شريعة الله ودوامها، وكانوا يحفظون السبت الذي نصت عليه الوصية الرابعة. والكنائس التي تمسكت بهذا الإيمان وهذا السلوك كانت في أواسط إفريقيا وبين أرمن آسيا الصغرى.

إيمان الولدنسيين

الولدنسيون كانوا في طليعة من قاوموا اعتداءات السلطة البابوية. ففي البلاد نفسها التي بُنيت فيها البابوية كرسيتها لاقت أباطيلها وأكاذيبها ومفاسدها أقسى مقاومة. وقد ظلت كنائس بيدمونت محتفظة باستقلالها عدة قرون، ولكن أخيراً جاء الوقت الذي فيه أصرت روما على إخضاع تلك الكنائس لسلطانها. وبعد حروب غير مجدية ضد طغيان روما اعترف رؤساء هذه الكنائس مكرهين بسيادة تلك القوة التي بدا كأن كل العالم يبدي لها ولاءه. ومع ذلك فقد وُجد بعض من رفض

الخضوع للبابا أو للأساقفة. أولئك أصروا على تقديم ولائهم لله وحده والاحتفاظ بنقاوة إيمانهم وبساطته. وقد حدث انفصال. فالذين ظلوا متمسكين بإيمانهم القديم انسحبوا بعيدا. بعض منهم هجروا وطنهم في جبال الألب ليرفعوا راية الحق في بلدان غريبة، بينما تراجع غيرهم إلى الوديان الصغيرة المنعزلة والمعازل الصخرية في الجبال حيث احتفظوا بحريتهم في عبادة الله.

إن الإيمان الذي اعتنقه المسيحيون الولدنسيون وعلموا به عدة قرون كان على نقيض التعاليم الكاذبة التي قدمتها روما. لقد كانت عقائدهم الدينية مؤسسة على كلمة الله المكتوبة، وهي دستور المسيحية الحقيقي. لكن أولئك الفلاحين الوضعاء الذين كانوا يعيشون في معتكفاتهم الخفية، وقد عزلوا عن العالم وهم دائبون على عملهم اليومي بين قطعانهم وكرومهم، لم يصلوا، من تلقاء أنفسهم، إلى معرفة الحق الذي هو على نقيض عقائد الكنيسة المرتدة وضلالاتها. إن إيمانهم لم يكن حديث العهد، لكن عقيدتهم الدينية كانت هي الإرث الذي أخذوه عن آبائهم. لقد حاربوا وناضلوا دفاعا عن إيمان الكنيسة الرسولية: « الإيمان المُسَلَّم مرَّةً للْقُدِّيسِينَ » (يهوذا ٣). إن كنيسة المسيح الحقيقية حارسة كنوز الحق المودع بين أيدي شعبه ليعطي للعالم كانت هي « الكنيسة في البرية »، لا السلطة الدينية المتكبرة المتربعة على عرشها في عاصمة العالم.

من بين أهم الأسباب التي أدت إلى انفصال الكنيسة الحقيقية عن روما هي الكراهية التي أبدتها هذه ليوم السبت المنصوص عنه في الكتاب. وكما سبق للأنبياء أن تنبأوا فقد طرحت السلطة البابوية الحق على الأرض، فديست شريعة الله في الثرى بينما عظم الناس التقاليد والعادات البشرية ومجدوها. والكنائس التي كانت خاضعة لحكم البابا أرغمت من البدء على إكرام يوم الأحد كيوم مقدس. وفي وسط الضلالات والخرافات السائدة ارتبك كثيرون حتى من شعب الله الأمناء إلى حد أنهم مع كونهم قد حفظوا السبت كفوا عن العمل في يوم الأحد أيضاً. لكن هذا لم يكن ليرضي الرؤساء البابويين. فقد أمروا الشعب لا أن يقدسوا يوم الأحد فقط بل أيضاً أن يدنسوا يوم السبت، وبأقسى الألفاظ وأشدّها توعّدوا من يكرمونه. ولم يتمكن أحد من حفظ شريعة الله في سلام إلا بالهروب من تحت سلطان روما.

كان الولدنسيون في طليعة شعوب أوروبا في الحصول على ترجمة الكتاب المقدس (انظر التذييل). فقبل أيام الإصلاح بمئات السنين كانت في حوزتهم نسخ منه مكتوبة بخط اليد وفي لغتهم الوطنية. لقد كان بين أيديهم الحق الإلهي النقي لا تشوبه شائبة، وهذا جعلهم هدفا للكراهية والاضطهاد. لقد أعلنوا أن كنيسة روما هي بابل المرتدة الوارد ذكرها في سفر الرؤيا، فتصدوا لمقاومتها ومحاربة مفاسدها مخاطرين في ذلك بحياتهم. وفي حين أن بعضا منهم عرضوا إيمانهم وعقيدتهم للهوان إذ تنازلوا شيئا فشيئا عن مبادئهم المميزة تحت ضغط الاضطهاد الطويل الأمد فإن آخرين ثبتوا متمسكين بالحق. وعلى مدى عصور الظلم والارتداد وُجد بعض الولدنسيين الذين أنكروا على روما سيادتها، ورفضوا عبادة الصور على أنها وثنية، وقد حفظوا السبت الحقيقي. وظلوا محتفظين بإيمانهم تحت أقسى عواصف المقاومة. فمع أنهم طعنوا بحراب آل سافوى ولسعتهم نيران البابوية وأحرقتهم فقد ظلوا ثابتين لم يتراجعوا قيد أنملة، بل دافعوا عن كلمة الله وكرامته بلا

خوف.

وخلف الحصون العالية في الجبال التي كانت ملاذا للمضطهدين على مر العصور وجد الولدنسيون مخبأ لهم. في تلك الأماكن ظل نور الحق متألقاً ومضيئاً في وسط ظلام العصور الوسطى، ولمدى ألف سنة حفظ شهود الحق الإيمان القديم نقياً هناك.

الله أمدهم بالقوة

لقد أعد الله لشعبه مقدساً ذا جلال مهيب يتناسب وعظمة الحقائق المسلمة اليهم أمانة بين أيديهم. وكانت الجبال في نظر أولئك المطرودين الأمناء رمزا لبر الرب وعدله الذي لا يتزعزع ولا يُنقض. وقد وجهوا أنظار أولادهم إلى المرتفعات الشاهقة من فوقهم في جلال ثابت، وحدثوهم عن ذلك الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران، الذي كلمته راسخة رسوخ الأكام الدهرية. لقد ثبتت الله الجبال ونطقها بالقوة، ولا يمكن لغير ذراع القدرة اللامتناهية أن ترحزها من أماكنها. وبذلك القوة نفسها ثبتت شريعته التي هي أساس حكمه في السماء وعلى الأرض. يمكن لذراع الإنسان أن تمتد إلى بني جنسه وتقضي على حياتهم، ولكن لو أمكن تلك الذراع أن تقتلع الجبال من أساساتها وتلقي بها في أعماق البحر لاستطاعت أن تغير وصية واحدة من شريعة الرب أو تمحو وعداً واحداً من مواعيده للعاملين بوصاياه والمتممين إرادته. فينبغي لعبيد الله أن يظلوا راسخين كالجبال الثابتة عند إظهار ولائهم لشريعته.

كانت الجبال المحيطة بأوديتهم المنخفضة شاهداً دائماً على قدرة الله الخالقة وضماناً لا يخيب أبداً لرعاية الله الحافظة. ولقد تعلم أولئك الغرباء أن يحبوا تلك الرموز الصامتة المنبئة بحضور الله. ولم يصدر عنهم تذمر أو تبرم من الحياة الشاقة التي كانت من نصيبهم، ولم يكونوا يحسون بالوحشة وهم معزلون وحدهم في تلك الجبال، بل شكروا الله الذي هياً لهم ملجأ يلوذون به هروباً من غضب الناس وقسوتهم، ولقد تهللت قلوبهم لأجل الحرية التي استطاعوا في ظلها أن يقدموا إليه عبادتهم. وفي غالب الأحيان عندما كان أعداؤهم يتعقبونهم كانوا يجدون في الجبال القوية الراسخة حصناً منيعاً. وبين الصخور العالية كانوا يتغنون بحمد الله، فما استطاعت جيوش روما أن تُسكت أغاني شكرهم.

اتَّسمت تقوى اتباع المسيح أولئك بالنقاوة والبساطة والغيرة. كانوا يعتبرون مبادئ الحق أجلاً قدرأً من البيوت والأراضي والأصدقاء والأقرباء وحتى الحياة نفسها. وبكل غيرة واهتمام حاولوا أن يطبعوا هذه المبادئ في قلوب الأحداث والشباب. فمنذ بكور الحداثة كان الصغار يتعلمون الكتب المقدسة ويقدسون مطالب شريعة الله. كانت نسخ الكتاب قليلة ونادرة الوجود، فلذلك كانوا يحفظون غيباً تلك الأقوال الثمينة. وكان كثيرون منهم قادرين على تلاوة فصول كبيرة من العهدين القديم والجديد عن ظهر قلب. وكانت أفكارهم عن الله مصحوبة دائماً بمنظر الطبيعة الجليل وبركات حياتهم اليومية البسيطة. وقد تعلم الصغار أن ينظروا بشكر إلى الله المعطي كل النعم والتعزيات.

هذا، وإن الآباء مع ما كانوا يضمرونه لأولادهم من رقة ومحبة لم يفرطوا في حبهم لهم إلى حد

السماح لهم بأن يتعودوا الانغماس في الملذات. ذلك أن الحياة التي أمامهم كانت حياة التجارب والمشقات، وقد تُختم بالاستشهاد، لذا دُرِّبُوهم منذ طفولتهم على الصبر والقسوة وضبط النفس، والاعتماد على أنفسهم في العمل والتفكير، فتعلم الأبناء منذ الصغر أن يتحملوا المسؤوليات ويتحفظوا في كلامهم، كما تعلموا حكمة الصمت: ذلك لأن كلمة واحدة طائشة تقع على مسامع أعدائهم كانت كفيلة بأن توقع في الخطر ليس قائلها وحده بل مئات من إخوته، لأن أعداء الحق كانوا يطاردون كل من يجرؤ على المجاهرة بأن له الحرية في اختيار العقيدة الدينية التي تروقه، كما تطارد الذئاب قطيعا من الخراف.

لقد ضحى الولدنسيون بالنجاح العالمي وكل أسباب الرفاهية لأجل الحق. وبكل مواظبة وصبر جعلوا يكدون لجمع قوتهم. فكل بقعة تصلح للزرع بين الجبال أصلحت بكل عناية، والوديان وجوانب التلال الأقل خصوبة أصلحت لتجود بثمار وفيرة. وكان الاقتصاد وإنكار الذات الصارم جزءا من التهذيب الذي أخذه الأبناء عن آبائهم. وقد تعلم الأبناء أن الله يقصد أن تكون حياتهم تدريبا دائما، وأنه يمكنهم الحصول على ما يحتاجون إليه بالكد والعمل الشخصي، بالحكمة والتبصر والحرص والإيمان. وكان نمط العيش هذا يتطلب الكد والمشقة، ولكنه كان مصدر صحة لهم قوى عزائمهم وعضلاتهم، وهذا هو ما يحتاج إليه الإنسان في حالته، حالة السقوط، وهو المدرسة التي أعدها الله لتدريبه وتنمية قواه. ومع تعود الشباب حياة الكد والعمل المضنى لم تُغفل تماما الثقافة العقلية. فلقد تعلموا أن كل قواهم هي ملك لله وأنه ينبغي لهم إصلاحها كلها وتحسينها وتنميتها لأجل خدمته.

كارزون غيرون ومضخون

كانت كنائس الولدنسيين أو الفودوا شبيهة بالكنيسة الرسولية الأولى في طهارتها وبساطتها. فإذ رفضوا سيادة البابا والأساقفة تمسكوا بالكتاب المقدس على أنه السلطة العليا الوحيدة المعصومة من الخطأ. ورعاتهم الذين كانوا يختلفون اختلافا بينا عن كهنة روما المتعجرفين اتبعوا مثال سيدهم الذي « لم يأت ليخدم بل ليخدم ». كانوا يرعون قطيع الله ويربضونهم في المراعي الخضر ويوردونهم ينابيع المياه الحية أي كلمته المقدسة. فهناك، بعيدا من تماثيل الفخامة البشرية والكبرياء، اجتمع الشعب ليس في كنائس فخمة أو كاتدرائيات مهيبة بل تحت ظلال الجبال في وديان الألب. وفي أوقات الخطر كانوا يلجأون إلى حصن بين الصخور ليصغوا إلى كلام الحق من أفواه خدام المسيح. ولم يكتف الرعاة بالمناداة بالإنجيل بل كانوا يزورون المرضى ويعلمون الأطفال ويُنذرون المخطئين ويدأبون في فض المنازعات وإنهاء الخصومات وإنماء روح الوفاق والمحبة الأخوية. وفي أوقات السلم كان الشعب يعولونهم بتقدماتهم الطوعية. ولكن كما كانت لبولس حرفة هي صناعة الخيام، كذلك تعلم كل منهم حرفة أو مهنة يعول بها نفسه عندما تدعو الضرورة.

ولقد تلقى الشباب تعليمهم على أيدي رعاتهم. فعندما كانوا يدرسون العلوم العامة كان الكتاب المقدس مادة دراستهم الرئيسة. فحفظوا ما ورد في إنجيلي متى ويوحنا عن ظهر قلب فضلا عن كثير

من الرسائل. ثم إنهم كانوا يقضون بعض وقتهم في نسخ الكتاب المقدس. وكانت بعض تلك المخطوطات تحتوي على الكتاب كله، لكن البعض الآخر كان يحتوي على مختارات منه فقط. وكان بعض القادرين منهم يضيفون إلى تلك المختارات شروحا بسيطة لبعض الآيات. وهكذا ظهرت للملا كنوز الحق التي كان من قد تعظموا على الله قد اخفوها عن الناس أمدا طويلا.

فبصبر عظيم وجهد لا يكل نُسخَت الكتب المقدسة أحيانا في مغاور الأرض السحيقة المظلمة على نور المشاعل، كتبت آية بعد آية وأصحاحا بعد أصحاب. وهكذا استمر العمل، وهكذا كانت إرادة الله المعلنة تلمع كالذهب الخالص، وقد زاد من لمعانها ووضوحها وقوتها التجارب التي احتملها أولئك الأبرار في سبيلها، ولم يتحقق من ذلك غير الذين قاموا بذلك العمل. وكان ملائكة السماء يعسكرون حول العاملين الأمناء.

لقد ألح الشيطان على الكهنة والأساقفة البابويين أن يدفنوا كلمة الحق تحت أكوام الضلالات والهرطقات والخرافات، ولكنها بطريقة عجيبة حُفظت في طهارتها ونقاوتها مدى عصور الظلام كلها. إنها لم تكن تحمل طابع إنسان بل طابع الله. لقد بذل الناس جهودا لا تكل في إخفاء معاني أقوال الكتاب المقدس الواضحة البسيطة وجعلها تناقض شهادتها. ولكن كما كان الفلك يسير على وجه المياه ذات الأمواج الصاخبة كذلك كلمة الله تنتصر على العواصف التي تتهددها بالهلاك، وتقهرها. وكما توجد في المنجم عروق الذهب والفضة مختبئة تحت سطح الأرض، وهكذا على من يريد أن يكتشف كنوزها الثمينة أن يحفر ويحفر إلى عمق كبير، كذلك أقوال الله المقدسة حوت كنوز الحق التي لا تُكشف إلا لمن يطلبها بروح الغيرة والتواضع والصلاة. لقد قصد الله أن يكون الكتاب المقدس هو الكتاب الذي ينبغي أن يتعلمه كل بني الإنسان في مراحل الطفولة والشباب والرجولة، وأن يدرسوها في كل وقت. ولقد أعطى الناس كلامه كإعلان عن نفسه، فكل حق جديد يُفهم ويُدرك هو كشف جديد لصفات مبدعه ومعطيه. إن درس الكلمة الإلهية هو الوسيلة التي رسمها الله لتقريب الناس إلى خالقهم، وإيجاد صلة وثيقة بينه وبينهم، وإعطائهم معرفة أوضح وأكمل لإرادته. فكلمة الله هي وسيلة التخاطب بين الله والإنسان.

الكنز الأعظم

وإذ كان الولدنسيون يعتبرون أن مخافة الرب هي رأس الحكمة لم يكونوا يجهلون أهمية الاتصال بالعالم ومعرفة الناس والحياة العملية لتوسيع المدارك وتنشيط الأحاسيس. فأرسل بعض الشباب من مدارسهم في الجبال إلى معاهد العلم في مدن فرنسا وإيطاليا حيث كان المجال أوسع للتفكير والدرس والملاحظة مما كان في وطنهم في جبال الألب. وقد تعرض أولئك الشباب الذين أرسلوا إلى تلك المعاهد للتجارب، إذ شاهدوا الرذيلة واصطدموا بأعوان الشيطان الماكرين الذين الحوا عليهم في قبول أخبث الهرطقات وأخطر المخاتلات. إلا أن تهذيبهم الذي كانوا قد تلقوه منذ طفولتهم كان حصنا قويا أعدهم لمواجهة كل تلك الأمور.

وفي المدارس التي ذهبوا إليها لم يستأنموا أحدا على أسرارهم. وقد أعدت ملابسهم بحيث تخفي

أعظم كنوزهم: مخطوطات الكتب المقدسة الثمينة. فهذه المخطوطات، التي كانت ثمرة تعب شهور وسنين، حملوها معهم. وكلما سنحت لهم الفرص من دون أن يثيروا شبهة أحد كانوا يضعون بكل حرص وحذر أجزاء منها في طريق أولئك الذين كان يبدو لهم أن قلوبهم مفتوحة لقبول الحق. إن هؤلاء الشبان الولدنيين تربوا منذ نعومة أظفارهم جاعلين هذه الغاية نصب عيونهم. وقد فهموا عملهم وقاموا به بكل أمانة، فاهتدى البعض إلى الإيمان الحقيقي في معاهد العلم هذه، وفي أحيان كثيرة وجد أن مبادئه قد تسربت إلى كل المدرسة، ومع ذلك فإن الرؤساء البابويين بكل استجواباتهم الملحة وأسئلتهم المخرجة لم يستطيعوا تتبع هذا التعليم، الذي قالوا عنه أنه هرطقة، إلى منبعه.

إن روح المسيح هي روح تبشيرية، وأول دافع يعتمل في نفس الإنسان المتجدد هو أن يأتي بالآخرين إلى المخلص. هذه كانت روح هؤلاء الولدنيين المسيحيين، فلقد أحسوا بأن الله يطلب منهم شيئاً أكثر من مجرد حفظ الحق في نقاوته في كنائسهم، وأن عليهم مسؤولية مقدسة هي أن يجعلوا نورهم يشرق على من هم في الظلمة، وبقوة كلمة الله العظيمة حاولوا أن يحطموا قيود العبودية التي فرضتها روما على الناس. وقد تربى خدام الولدنيين وتدربوا على أن يكونوا مبشرين، إذا كان يُطلب من كل من يدخل الخدمة أن يكون له أول كل شيء اختبار المبشر. وكان على كل منهم أن يخدم مدة ثلاث سنين في مركز تبشيري قبل أن يوكل إليه أمر رعاية كنيسة في وطنه. فهذه الخدمة التي كانت تتطلب إنكار الذات والتضحية حالما يدخلها الخادم كانت تمهيدا مناسباً لحياة الراعي في تلك الأوقات التي محصت نفوس الناس. والشبان الذين رُسموا لهذه الوظيفة المقدسة لم يروا أمامهم آمالاً مشرقة للثراء والمجد العالمي بل حياة الكد والمشقة والخطر، وربما الاستشهاد. وكان أولئك المبشرون يخرجون اثنين اثنين كما أرسل يسوع تلاميذه. وفي العادة، كان يصحب الشاب رجلٌ مسنٌ محنكٌ، وكان الشاب يسير بموجب إرشادات زميله الذي كان مسؤولاً عن تدريبه، كما كان يبالي بتعليماته. ولم يكن هذان الزميلان يسيران متلازمين دائماً بل كانا في غالب الأحيان يجتمعان معاً للصلاة والتشاور، وهكذا كان الواحد منهما يشدد زميله في الإيمان.

بيد أنهما لو باحا بغرض رسالتهما لكانت هزيمتهما أمراً مؤكداً، ولذلك كانا يحرصان على إخفاء شخصيتهما. فقد كان كل خادم يُتقن حرفة أو مهنة، وكان أولئك المبشرون يتابعون عملهم تحت ستار الحرفة الزمنية، وكانوا في العادة يختارون أن يكونوا باعة متجولين. « كانوا يحملون أصناف الحرير والجواهر وغيرها من السلع التي لم يكن من السهل شراؤها في تلك الأيام إلا في الأسواق البعيدة. وكان الناس يرحبون بهم كتجار في الأماكن التي لو عرف الناس فيها أنهم مبشرون لكانوا يطردونهم » (٧). وكانوا طوال الوقت يرفعون قلوبهم في الصلاة إلى الله في طلب الحكمة حتى يوفروا للناس كنزاً أئمن من الذهب واللائي، وكانوا يحملون معهم في السر نسخاً من الكتاب المقدس بين طيات ثيابهم، سواء أكان الكتاب كاملاً أو جزءاً منه، وكلما عرضت لهم فرصة كانوا يسترعون انتباه زبائنهم إلى هذه المخطوطات. وفي غالب الأحيان كانوا يوقظون في نفوس الناس شوقاً وحنيناً إلى قراءة كلمة الله. فكانوا بكل سرور يودعون بعض تلك النسخ بين أيدي من يرغبون في قبولها.

إلقاء البذار الثمين

بدأ عمل هؤلاء المبشرين في السهول والوديان الرابضة عند سفوح جبالهم، ولكنه امتد إلى أماكن بعيدة. وإذ كانوا يسرون حفاة في ملابسهم الخشنة التي علاها غبار السفر، كما كانت الحال مع سيدهم، دخلوا المدن العظيمة واخترقوا البلدان البعيدة. وفي كل مكان كانوا يلقيون البذار الثمين. وقد أقيمت كنائس في طريقهم، كما شهد دم الشهداء للحق. وسيكشف يوم الرب العظيم عن الحصاد الغني الوفير من النفوس التي جمعت إلى المخزن من طريق أتعاب هؤلاء الرجال الأمناء وخدماتهم. وإذ كانت كلمة الله محتجة وصامته راحت تشق لنفسها طريقا في العالم المسيحي وتلاقي قبولا وفرحا في بيوت الناس وقلوبهم.

لم يكن الولدنسيون يعتبرون كلام الله مجرد سجل لمعاملات الله مع الناس في الماضي وإعلانا لواجبات الحاضر وتبعاته وكفى، بل كانت تلك الأقوال الإلهية كشفا وإعلانا لمخاطر المستقبل وأمجادهم. كانوا يعتقدون أن نهاية كل شيء لم تكن بعيدة منهم جدا. ولما كانوا يدرسون الكتاب المقدس بالصلاة والدموع تأثروا تأثرا عميقا بأقواله الثمينة واقتنعوا بأن واجبهم يقتضيهم أن يعرفوا الآخرين بحقائقه المخلصة. لقد وجدوا تدير الخلاص معلنا في الكتاب بكل وضوح، كما وجدوا العزاء والسلام والرجاء في الإيمان بيسوع. ولأن النور أشرق على أفهامهم وأبهج قلوبهم تاقوا إلى أن يسلطوه على من كانوا جالسين في كورة الظلام، ظلام الضلالات البابوية.

لقد رأوا أن جماهير من الناس باتباعهم تعليمات البابا والكهنة كانوا يحاولون عبثا الحصول على الغفران بتعذيب أجسامهم لأجل خطايا نفوسهم. فإذ كانوا قد تعلموا أن يركنوا إلى أعمالهم الصالحة لتخلصهم كانوا دائما ينظرون إلى ذواتهم، وكانوا يفكرون في حالتهم الخاطئة ويرون أنفسهم مستهدفين لغضب الله وعذاب الروح والجسد، ومع ذلك لم يجدوا راحة أو عزاء. هكذا كان كل إنسان حي الضمير مكبلا بتعاليم روما. إن الوفا من الناس هجروا أقرباءهم وأصدقاءهم ليقضوا حياتهم في الأديرة. كانوا يفرضون على أنفسهم أصواما طويلة متكررة ويجلدون أنفسهم جلدا قاسيا ويتلون صلوات نصف الليل وقداساته وينطرحون على الأحجار الباردة الرطبة ساعات طويلة متعبة في مساكنهم الموحشة ويسافرون سفرا طويلا ليحجوا إلى الأماكن المقدسة، وبالإنزال والتكفيرات المختلفة والعذابات المخيفة — بهذه الوسائل وبكثير غيرها حاول ألوف الناس أن يحصلوا على السلام لضمائرهم. كان يسيطر على قلوبهم الشعور بالخطيئة ويلازمهم الخوف من غضب الله وانتقامه، فيتجلدون على احتمال آلامهم النفسية حتى تنهار أخيرا طبيعتهم المجهدة فيوارون الثرى من دون أن يبهج نفوسهم شعاع من نور ورجاء.

يوجهون الخطاة إلى المسيح

تاق الولدنسيون إلى أن يكسروا خبز الحياة ليناولوه لهذه الأنفس الجائعة، وأن يكشفوا لهم رسالة السلام في مواعيد الله، ويوجهوا أنظارهم وقلوبهم إلى المسيح الذي هو رجاؤهم الوحيد في الخلاص. إن العقيدة القائلة بأن الأعمال الصالحة يمكنها أن تكفر عن التعدي على شريعة الله

اعتبروها هم عقيدة كاذبة. فالاتكال على الاستحقاق البشري يتعارض مع فكرة محبة المسيح غير المحدودة. لقد مات يسوع كذبيحة عن الإنسان لأن جنسنا الساقط عاجز تماما عن عمل ما يمكن أن ينال به حظوة أو قبولاً أمام الله. واستحقاقات المخلص المصلوب والمقام هي أساس الإيمان المسيحي. فاعتماد النفس على المسيح هو أمر حقيقي، وارتباطها به ينبغي أن يكون وثيقا كارتباط العضو بالجسم والغصن بالكرمة.

جعلت تعاليم البابوات والكهنة الناس ينظرون إلى صفات الله وحتى صفات المسيح كما لو كانت صفات عابسة وكئيبة وكريهة. فلقد صوروا المخلص كمن خلا قلبه من العطف على الإنسان في حالته الساقطة بحيث أنه كان ينبغي للناس أن يتوسلوا طالبين وساطة الكهنة والقديسين. أما الذين استنارت عقولهم بكلمة الله فقد تاقوا إلى إرشاد هذه النفوس إلى يسوع كالمخلص المحب الرحيم الذي يقف باسطة ذراعيه داعيا الكل أن يأتوا إليه بأثقال خطاياهم وهمومهم ومتاعبهم. وكانوا يشترقون إلى إزالة كل العوائق والمعطّلات التي كدّسها الشيطان حتى لا يرى الناس المواعيد ويأتوا إلى الله مباشرة معترفين بخطاياهم ليحصلوا على الغفران والسلام.

مهاجمة مملكة الشيطان

وبكل شوق كان المبشر الولدنشي يكشف للعقول الطالبة المعرفة حقائق الإنجيل الثمينة. وبكل حذر كان يقدم بعض أجزاء من كلمة الله المقدسة المكتوبة بكل حرص وعناية. وكان مما يبهج قلبه أن يعطي الرجاء للنفس الطالبة الخلاص المضروبة بالخطيئة والتي تنظر إلى الله على أنه إله النعمة الموشك أن يجري عدله. وكثيراً ما كان يكشف للإخوة عن المواعيد الثمينة التي ترشد الخاطئ إلى رجائه الوحيد، وفيما هو يتكلم كانت شفاته ترتعشان من فرط التأثر وعيناه تدمعان وهو جاث على ركبتيه. وعلى هذا النحو أشرق نور الحق مبدا ظلمات العقول فانقضت سحب الكآبة حتى أشرقت في القلب شمس البر، وفي إشرقتها الشفاء. وفي غالب الأحيان كان يتلى فصل من الكتاب مرارا وتكرارا إذ كان السامعون يبدون رغبتهم في تكراره كأنما ليستوثقوا من صدق ما قد سمعوه. وكان الناس يرغبون بالأخص في تكرار مثل هذه الأقوال: « وَدَمُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِهِ يُطَهِّرُنَا مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ » (١ يوحنا ١: ٧). « وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْفَعَ ابْنُ الْإِنْسَانِ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ » (يوحنا ٣: ١٤، ١٥).

كثيرون من الناس ما كانوا لينخدعوا بادعاءات روما. فلقد رأوا بطل وساطة الناس أو الملائكة لأجل الخاطئ. وإذ أشرق النور الحقيقي على عقولهم كانوا يهتفون فرحا قائلين: « المسيح هو كاهننا ودمه ذبيحتنا ومذبحه كرسي اعترافنا ». وقد ألقوا أنفسهم بالتمام على استحقاقات يسوع مرددين هذه الأقوال: « بَدُونِ إِيمَانٍ لَا يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُ » (عبرانيين ١١: ٦)، « وَلَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِهِ الْخَلَاصُ. لِأَن لَيْسَ اسْمٌ آخَرُ تَحْتَ السَّمَاءِ، قَدْ أُعْطِيَ بَيْنَ النَّاسِ، بِهِ يَنْبَغِي أَنْ نَخْلُصَ » (أعمال ٤: ١٢).

كان يقين محبة المخلص شيئا اكبر من أن تستوعبه بعض تلك النفوس المسكينة التي كانت في مهب العاصفة. ولقد كانت الراحة التي حققها ذلك اليقين عظيمة جدا، والنور الذي شع منه باهرا

جدا حتى لقد بدا كأن أولئك

الناس قد أختطفوا إلى السماء. لقد وضعوا أيديهم بكل ثقة في يد المسيح وثبتوا أقدامهم على صخر الدهور. انتفى عنهم كل خوف من الموت، بل صاروا الآن يتحرّقون شوقا إلى أن يُطرحوا في أعماق السجون أو يحرقوا بالنار لو أمكنهم بذلك أن يكرموا اسم فاديهم. وهكذا أُخرجت كلمة الله وكانت تُقرأ في الأماكن الخفية. وأحيانا كان السامع شخصا واحدا. وأحيانا أخرى كانوا جماعة صغيرة من الناس المشتاقين إلى النور والحق. وفي غالب الأحيان كانوا يقضون الليل كله ساهرين يصغون إلى كلمة الله. وكانت الدهشة والإعجاب يستوليان على السامعين بحيث أن رسول الرحمة ذاك كان كثيرا ما يضطر إلى التوقف عن القراءة حتى تستوعب أفهام السامعين معاني بشارة الخلاص. وفي كثير من الأحيان كان بعض أولئك السامعين يسألون قائلين: « هل يقبل الله ذبيحتي حقا، وهل سيبتسم في وجهي؟ هل سيغفر لي؟ » فكان يأتيه الجواب من الكتاب قائلا: « تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتَعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ » (متى ١١: ٢٨).

طريق الحق والحياة

لقد تمسكوا بالوعد بإيمان، وسمعت الاستجابة المفرحة تقول: « لن اقوم بالحج الطويل بعد اليوم، ولن أسافر سفرا مضنيا إلى المعابد المقدسة، إذ يمكنني الإتيان إلى يسوع كما أنا بخطيئتي ونجاستي، وهو لن يرذل صلاة التوبة والاسترحام التي أقدمها إليه. 'مغفورة لك خطاياك'، حتى خطاياي أنا يمكن أن تغفر! »

حينئذ كان يغمر القلب فيض من الفرح المقدس ويتعظم اسم يسوع في الشكر والتسبيح. وكان أولئك السعداء المغبوطون يعودون إلى بيوتهم لينشروا النور، وعلى قدر استطاعتهم كانوا يسردون اختبارهم الجديد على الآخرين، وانهم قد وجدوا الطريق الحي الحقيقي. وكان يصحب كلام الله فيض من القوة المقدسة العجيبة فيصل إلى قلوب الناس المشتاقين إلى الحق. لقد كان هو صوت الله فكان يحمل معه قوة إقناع وتبكيّت وصلت إلى قلوب السامعين.

بعد ذلك كان رسول الحق يسير في طريقه، لكنّ مظهر الوداعة الذي بدا عليه وغيرته وإخلاصه وحماسه الشديدة، كل تلك الصفات كانت موضوع تعليقات الناس المتعددة، وفي حالات كثيرة لم يسأله سامعوه من أين أتى ولا إلى أين هو ذاهب. ففي البدء غمرتهم الدهشة، وبعد ذلك غمرهم الشكر والفرح إلى حد كبير حتى لم يفكروا في أن يسألوه. وعندما الحوا عليه في الذهاب معهم إلى بيوتهم كان يجيبهم قائلا أن عليه أن يزور الخراف الضالة عن القطيع. فكانوا يتساءلون قائلين: ألا يمكن أن يكون هذا الإنسان ملاكا آتيا من السماء؟

في حالات كثيرة لم يعد الناس يرون رسول الحق مرة أخرى. لقد سار في طريقه إلى بلدان أخرى، أو لعله كان يقضي أيامه في سجن مظلم، أو ربما استشهد ودفنت عظامه في الأرض التي كان يسير عليها شاهدا للناس. لكنّ الأقوال التي نطق بها لم تذهب هباء، كلا ولا تلاشت، بل كانت تعمل

عملها في قلوب السامعين، وسيكشف يوم الدين عن تلك النتائج المباركة كاملة. كان المبشرون الولدنسيون دائبين على غزو مملكة الشيطان، فثارت قوات الظلام ونشطت بمزيد من الحذر. وكان سلطان الشر يراقب كل محاولة تبذل لتقدم رسالة الحق ونجاحها فأثار مخاوف أعوانه. وقد رأى الرؤساء البابويون أن تلك الرسالة شؤم عليهم ونذير بالخطر على دعوتهم، وأن ذلك الخطر يجيئهم من أولئك المبشرين المتجولين الفقراء. فلو سُمح لنور الحق أن يضيء من دون عائق أو مانع فلا بد أن يكتسح أمامه سحب الضلال الكثيفة التي اكتنفت الناس، مرشدا عقولهم إلى الله وحده، ولا بد أن يؤول الأمر إلى هدم سيادة روما.

إن مجرد وجود هذا الشعب المتمسك بإيمان الكنيسة الأولى كان شهادة دائمة على ارتداد روما، ولذلك فقد أثاروا أقسى العداء والاضطهاد المرير. وإن رفضهم التنازل عن الكتب المقدسة والتفريط فيها كان أيضاً إساءة لم تستطع روما السكوت عليها. ولذلك عولت على أن تمحو اسمهم وذكرهم عن وجه الأرض. وحينئذ بدأت أرباب الحملات الصليبية ضد شعب الله في بيوتهم الجبلية. وتعقبهم المخبرون والمحققون، وتكررت مأساة هايل البار وهو يسقط بيد قايين القاتل، مرارا عديدة.

وقد خربت وأتلفت أراضيهم الخصبة مرارا وتكرارا كما اكتسحت مساكنهم وكنائسهم، حتى أنه في الأماكن التي ازدهرت فيها قبلا الحقول والبيوت التي كان يسكنها ذلك الشعب البريء المجدد الكدود لم يبق غير الخراب الياب في البرية القاحلة. فكما يزيد الوحش المفترس ضراوة عندما يلحق الدماء، كذلك زاد اضطرام غضب البابويين بعد الآلام والخسائر التي أوقعوها بأولئك الضحايا المساكين. وقد طورد كثيرون من أولئك الشهود للحق النقي عبر الجبال واقتنصهم مطاردوهم في الوديان حيث اختبأوا أو حُبسوا في الغابات العظيمة وقمم الجبال.

لم يكن من الممكن تقديم تهمة تمس أخلاق تلك الفئة المحرومة. فحتى أعداؤهم أعلنوا أنهم شعب مسالم هادئ تقي. لكن الجريمة العظمى كانت أنهم لم يريدوا أن يعبدوا الله حسبما يريد البابا. فلأجل هذه الجريمة الواحدة انهالت عليهم كل ألوان الإذلال والإهانات والعذابات التي قد تخطر على بال الناس أو الشياطين.

حملة على شهود الرب

وعندما عازمت روما في زمن ما أن تستأصل هذه الطائفة المكروهة أصدر البابا مرسوماً يقضي بإدانتهم كهراطقة وأسلمهم للذبح (انظر التذييل). لم تكن التهمة الموجهة إليهم هي الكسل أو الخيانة أو الإخلال بالأمن والنظام، بل أشيع عنهم بأنهم يتظاهرون بالتقوى والقداسة، وهذا المظهر يخدع « خراف الحظيرة الحقيقية ». لذلك أمر البابا قائلا: « تلك الطائفة الخبيثة الرجسة المطبوعة على الشر، إذا رفض أفرادها أن يجحدوا تعاليمهم فينبغي سحقهم كالحيات السامة » (٨). فهل كان هذا العاهل المتعجرف يعرف أنه سيواجه هذا الكلام مرة أخرى، وهل كان يعلم أنه قد سُجل ضده في أسفار السماء، وأنه سيجابه بهذا الكلام في يوم الدين؟ لقد قال يسوع: « بِمَا أَنْكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدٍ إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ » (متى ٢٥: ٤٠).

أوجب هذا المرسوم على كل عضو في الكنيسة أن يشترك في الحملة الصليبية ضد الهرطقة. والذي حفز الناس على هذا العمل القاسي هو أنهم « برئت ساحتهم من كل العقوبات الكنسية، العامة منها والخاصة. وكل من اشترك في تلك الحملة أعتق من كل النذور التي أوجبها على نفسه وصار له الحق الشرعي في ملكية أي شيء يكون قد استولى عليه بغير وجه حق، واعطي وعداً بغفران كل خطاياه متى قتل أيا من أولئك الهرطقة. وقد ألغي ذلك المنشور كل عقد لصالح الولدنسيين، وأمر خدمهم بهجرهم وترك خدمتهم، ونهى جميع الناس عن تقديم أي مساعدة لهم، وأعطى كل الناس سلطاناً بالاستيلاء على أملاك الولدنسيين » (٩). هذه الوثيقة تكشف عن الروح الكامنة خلف كل تلك المشاهد. والصوت الذي يُسمع فيها ليس هو صوت المسيح بل هو زئير التتبن.

إن الرؤساء البابويين رفضوا الامتثال لمقياس شريعة الله العظيم، بل لقد أقاموا ووضعوا قانوناً يناسبهم ويتفق ورغباتهم وعزموا على إرغام الناس على الامتثال له لأن هذه هي إرادة روما. وقد حدثت أُرهب المآسي. وكان الكهنة والبابوات الفاسدون المجدفون يقومون بالعمل الذي عينه الشيطان لهم، وما كان للرحمة أن تجد لنفسها سبيلاً إلى قلوبهم. فالروح نفسها التي صلبت المسيح وقتلت الرسل، والروح نفسها التي حركت نبيرون المتعطش إلى سفك الدماء الزكية ليقضي على الأمناء في عهده، كانت دأبة في عملها لتبيد من الأرض أولئك الذين كانوا أحبباء الله.

إن الاضطهادات التي حلت بهذا الشعب الخائف الله احتملوها قروناً عديدة بصبر وثبات، وتمجد بذلك فاديهم. وعلى رغم الحملات الصليبية التي جُندت عليهم والمذابح الوحشية التي حلت بهم فإنهم لم يكفوا عن إرسال مبشريهم ليبذروا بذار الحق الثمين. لقد طوردوا حتى الموت ومع ذلك أروت دماؤهم ذلك البذار المزروع فلم يكف عن الإتيان بثمر. وهكذا شهد الولدنسيون لله قبل ميلاد لوثر بعدة قرون. فإذ تشتتوا في بلدان كثيرة زرعوا بذار الإصلاح الذي بدأ في أيام ويكلف ونما وزاد وتأصل في أيام لوثر، وسيظل هذا العمل متقدماً إلى الأمام إلى انقضاء الدهر على أيدي من يرغبون أيضاً في احتمال كل شيء « مِنْ أَجْلِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ شَهَادَةِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ » (رؤيا ١ : ٩).

٥ - جون ويكلف

قبل أيام الإصلاح كانت توجد نسخ قليلة جدا من الكتاب المقدس في بعض الأحيان، ولكن لم يسمح الله أن تتلاشى كلمته كلياً من الوجود. ولم يكن لحقائق الكتاب أن تظل محجوبة إلى الأبد عن الأنظار. لقد كان يمكنه أن يطلق كلمته من قيودها بالسهولة نفسها التي يستطيع بها أن يفتح أبواب السجون والمصاريع الحديدية ليطلق عبيده إلى رحب الحرية. وفي ممالك أوروبا المختلفة كان روح الله يستطيع أن يحرك الناس للبحث عن الحق كمن ينقبون عن الكنوز. وإذا قادتهم العناية الإلهية إلى الكتب المقدسة جعلوا يدرسونها باهتمام وشغف عظيمين. لقد كانوا مستعدين لقبول النور مهما تكن الكلفة بالنسبة إليهم. ومع أنهم لم يروا كل شيء بوضوح فقد استطاعوا ملاحظة حقائق كثيرة كانت قد أخفيت عنهم طويلاً. وكرسل موفدين من قبل السماء خرجوا يحطمون أغلال الضلال والخرافات ويدعون أولئك الذين ظلوا مقيدين بقيود عبوديتهم طويلاً لينهضوا مطالبين بحريتهم.

وخارج جماعات الولدنسيين ظلت كلمة الله محصورة لقرون طويلة في نطاق لغات لم يكن متيسراً لغير العلماء أن يفهموها. ولكن حان الوقت الذي فيه تُرجمت الكتب المقدسة ووزعت على شعوب ممالك مختلفة في لغاتهم الوطنية. كان العالم قد جاز في ظلمة منتصف الليل، وكانت ساعات الظلمة موشكة على الانتهاء، وفي بلدان كثيرة ظهرت بواذر أنوار الفجر الآتي.

في القرن الرابع عشر أشرق « كوكب صبح الإصلاح » في إنكلترا. كان جون ويكلف هو بشير الإصلاح ليس لإنكلترا وحدها بل لكل العالم المسيحي. إن الاحتجاج العظيم الذي سُمح لويكلف أن يقدمه ضد روما لم يكن في الوسع إسكاته أبداً، فكان فاتحة الصراع الذي أدى إلى تحرير الأفراد والكنائس والأمم.

تلقى ويكلف تربية عقلية شاملة عميقة، وبالنسبة إليه كانت مخافة الله رأس الحكمة. واشتهر في الكلية بتقواه الحارة وغيخته كما بمواهبه العظيمة الممتازة وثقافته السليمة. وفي تعطشه إلى العلم طلب التعرف إلى كل فروع العلوم، فدرس الفلسفات العلمية وقانون الكنيسة والقانون المدني وعلى الخصوص قوانين بلاده. وظهرت باكراً قيمة هذه التربية وآثارها البعيدة المدى في مستقبل حياته وأعماله التي قام بها. وقد كان له إلمام كامل بفلسفة عصره النظرية، ما ساعده على الكشف عن أخطائها، كما أهله دراساته للقانون القومي والكنشي للاشتباك في الصراع العظيم في سبيل الحرية الدينية والمدنية. وعندما استطاع أن يحسن استخدام الأسلحة التي أمكنه الحصول عليها من كلمة الله اكتسب تدريباً عقلياً منضبطاً وفهم حيل رجال الفلسفة واللاهوت الجامعيين. وقد أكسبته قوة عبقريته واتساع دائرة معارفه وعلمه الكامل احترام أصدقائه وأعدائه على السواء. رأى أتباعه بكل رضى واطمئنان أن بطلمهم يقف في طليعة جبايرة العقول في أمته. فمُنِع أعداؤه من إلحاق الاحتقار بدعوة الإصلاح من خلال التشهير بجهل وضعف من يناصرها.

ويكلف يعرف الكتاب

وإذ كان ويكلف لا يزال في الكلية شرع في دراسة الكتاب المقدس. في تلك العصور القديمة عندما كان الكتاب متاحا باللغات القديمة وحدها كان نوابغ الطلبة فقط قادرين على أن يجدوا الطريق إلى نبع الحق الذي كان مغلقا في وجوه الطبقات غير المتعلمة. وهكذا كان الطريق مفتوحا أمام عمل ويكلف في المستقبل كرجل من رجال الإصلاح. لقد درس العلماء كلمة الله واكتشفوا تلك الحقيقة العظيمة، ألا وهي حقيقة النعمة المجانية، معلنة فيها. وفي تعليمهم نشروا معرفة هذا الحق وأرشدوا الآخرين ليلتفتوا إلى أقوال الله الحية.

وعندما اتجه انتباه ويكلف إلى الكتاب المقدس بدأ في فحصه بالدقة والتعمق نفسيهما اللذين جعلاه يستقي العلوم في المدارس. كان قبل ذلك يحس بتوق عظيم لم تستطع دراساته العلمية وتعاليم الكنيسة أن تشبعه. لقد وجد في كلمة الله ضالته التي عبثا بحث عنها طويلا. وجد فيها إعلانا لتدبير الخلاص، ورأى المسيح مقدما فيها كالشفيع والوسيط الوحيد عن الإنسان. فنذر نفسه لخدمة المسيح وعول على إعلان الحقائق التي اكتشفها.

وكغيره من المصلحين الذين أتوا بعده لم يكن ويكلف في بدء عمله يعلم إلى أين سينتهي به المطاف. لم يكن يتعمد مقاومة روما أو مقارعتها. لكن تكريسه نفسه للحق جعل من ألزم الأمور بالنسبة إليه أن يحارب الأكاذيب والأباطيل. وكلما زاد اكتشافه واتضحت أمامه أخطاء البابوية وضلالاتها زادت غيخته على توفير تعاليم الكتاب المقدس للناس. رأى أن روما قد تخلت عن كلمة الله وأبدلتها بتقاليد الناس وطقوسهم. واتهم الكهنة بأنهم قد استبعدوا الكتاب المقدس من دون أن يخشى شيئا، وطالب بإعادة الكتاب إلى الشعب وان يعود للكتاب سلطانه في الكنيسة. لقد كان معلما موهوبا وغيورا، وواعظا فصيحاً، وكانت حياته اليومية تطبيقاً للحقائق التي بشر بها. هذا، وان معرفته للكتاب وقوة حججه وطهارة حياته واستقامته وشجاعته العظيمة التي لا تنثني، كل ذلك اكسبه تقدير الناس عامة وثقتهم. وكثيرون منهم لم يعودوا، إذ ذاك، قانعين بإيمانهم القديم إذ رأوا الإثم متفشياً وسائداً في الكنيسة الرومانية. وبفرح يستحيل إخفاؤه رحبوا بالحقائق التي كشف عنها ويكلف. لكن الرؤساء البابويين احتدموا غيظاً واشتعل غضبهم عندما اكتشفوا أن هذا المصلح كان يكسب انصاراً ونفوداً أكبر منهم

كاشف للأخطاء

كثير من الفضائح التي كانت تبيحها سلطات روما. فإذ كان قسيساً للملك وقف موقفاً جريئاً ضد إيفاء الجزية التي فرضها البابا على ملك الإنكليز، وبرهن على أن ادعاء البابا بأن له حق السيادة على الحكام المدنيين مناقض للعقل والوحي الإلهي. فأثارت مطالب البابا كثيراً من السخط، وكان لتعاليم ويكلف تأثير عظيم في عقول قادة الأمة. فاتحد الملك مع النبلاء على إنكار ادعاء البابا بأن له سلطة دنيوية وعلى رفض إيفاء الجزية، وهكذا وُجِعت إلى سيادة البابا في إنكلترا ضربة قوية. وهنالك شر آخر أثار ضده ذلك المصلح حرباً عنيفة طويلة إلا وهو وضع نظام الرهبان المتسولين.

فقد تجمع أولئك الرهبان في إنكلترا وهكذا أصابوا عظمة الأمة وازدهارها بآفة مخيفة. فلقد أحس أرباب الصناعة والتعليم ورجال الأخلاق شدة وطأة هذا التأثير الضار. إن حياة الراهب، التي كان يقضيها في البطالة والتسول، لم تكن فقط بالوعة تلتهم ثروات الشعب، لكنها فوق ذلك جعلت الناس يحتقرون العمل النافع. لقد تحطمت حياة الشباب وفسدت. وبسبب تأثير الرهبان أغري كثيرون على دخول الأديرة وتكريس نفوسهم لحياة النسك. وهذا، فضلا عن كونه مضادا لإرادة الآباء، أخفى عن علمهم لأنه يتعارض مع أوامرهم ورغباتهم. فأحد آباء كنيسة روما الأولين في معرض حثه الشباب على إطاعة مطالب الرهينة واعتبارها جدية بالطاعة وأهم من التزامهم بمحبة آبائهم وإطاعتهم أعلن قائلا: « لو انطرح أبوك أمامك باكيا ونائحا، ولو كشفت لك أمك عن جسدها ونثيبيها للذين أرضعاك فكن حريصا على أن تدوسهما بقدميك وتتقدم إلى الأمام في طريقك إلى المسيح ». هكذا تقست قلوب الأبناء على آبائهم بهذه « الوحشية الفظيعة التي هي أقرب إلى ضراوة الذئب وطغيان المستبدين منها إلى الروح المسيحية أو الرجولة والمروءة »، على حد ما قاله لوثر فيما بعد (٩-١). وهكذا أبطل الرؤساء البابويون وصية الله بسبب تقليدهم كما قد فعل الفريسيون قديما. وبالنتيجة خربت البيوت وأوحشت، وحُرم الآباء من عشرة بنيهم وبناتهم.

يوجههم إلى مصدر الحق

بل حتى طلبة الجامعات انخدعوا بتصويرات الرهبان الكاذبة وغرر بهم لينضموا إلى رهبانياتهم. وقد ندم كثيرون بعد ذلك لأنهم خطوا تلك الخطوة الطائشة إذ اكتشفوا أنهم قد أودوا بحياتهم إلى اليبوسة والذبول وجلبوا الحزن إلى قلوب والديهم. ولكن ما إن أمسكت أرجلهم في الفخ حتى غدا من المستحيل عليهم إن يستعيدوا حريتهم. وإذا كان كثير من الآباء يخافون من تأثير الرهبان رفضوا إرسال بنينهم إلى الجامعات. فكان هنالك نقص ملحوظ في عدد الطلبة الملتحقين بمراكز العلم العظيمة. ونتج من ذلك أن ضعفت المدارس وتفشى الجهل.

وكان البابا قد منح هؤلاء الرهبان السلطان على قبول الاعترافات ومنح الغفران للمعترفين. فصار هذا مبعث شر عظيم. وإذا كان الرهبان يحرصون على زيادة أرباحهم كانوا على أتم استعداد لمنح الناس الغفران حتى لجأ إليهم المجرمون من كل نوع، وعلى أثر ذلك استفحل شر الرذائل بسرعة هائلة. ولقد ترك المرضى والفقراء ليتألموا في حين إن العطايا التي كان يجب أن تُهدى لهم لتفرج ضيقهم وتخفف آلامهم وضعت في أيدي الرهبان الذين كانوا يطالبون الشعب بالتصدق عليهم. وكانوا يعمدون إلى التهديد بفضح من يمتنعون عن تخصيص رهبانياتهم بالعطايا، قائلين عنهم أنهم ملحدون. وعلى رغم احتراف الرهبان التسول والفقر فقد كانت ثرواتهم تتزايد كل يوم كما أن صروحهم الفخمة وموائدهم الحافلة التي كان الترف يبدو فيها ظاهرا للعيان كشفت بالأكثر عن فقر الأمة المتزايد. وإذا كانوا يقضون وقتهم في الترف والملذات كانوا يرسلون بدلا منهم أناسا جهلة لا يسعهم إلا أن يسردوا بعض القصص والأساطير العجيبة، ويرسلوا النكات بين حين وآخر ليسروا الناس ويجعلوهم أغرارا تماما ليستغل الرهبان سذاجتهم. ومع ذلك فقد ظل الرهبان محتفظين بسيطرتهم

على الجموع المتعلقين بالخرافات، وجعلوهم يعتقدون أن كل الواجب الديني المطلوب منهم متضمن فقط في اعترافهم بسيادة البابا وتمجيد القديسين وتخصيص الرهبان بالعطايا، وأن هذا كافٍ لأن يضمن لهم مكانا في السماء.

وعبثا حاول العلماء والأتقياء أن يقوموا ببعض إصلاحات في أخويات الرهبان هذه. ولكن ويكلف ببصيرته الصافية وجه ضرباته إلى أصل الشر معلناً أن النظام بجملته كاذب وباطل وينبغي إبطاله. وقد استيقظ الشعب ليتباحثوا ويتساءلوا. فإذا كان الرهبان يجوبون البلاد طولا وعرضا ويبيعون غفرانات البابا بدأ الناس يشكون في إمكانية ابتياع الغفران بالمال، وكانوا يتساءلون ما إذا لم يكن يجب عليهم أن يطلبوا الغفران من الله لا من بابا روما (انظر التذييل). وقد فزع عدد غير قليل من الناس من جشع الرهبان الذين بدا كأن طمعهم لا يعرف الشبع. فقالوا: « إن رهبان روما وكهنتها يلتهموننا كما لو كانوا سرطانا رهيبا. ينبغي أن يحررنا الله وينقذنا وإلا فمصير الأمة إلى الهلاك » (١٠). لقد حاول أولئك الرهبان المتسولون إخفاء جشعهم بقولهم أنهم إنما يتبعون مثال المخلص فأعلنوا أن يسوع وتلاميذه كانوا يعتمدون في أمر إعالتهم على صدقات الشعب. لكن هذا الادعاء نشأ عنه ضرر عظيم لهم ولدعوتهم لأنه جعل كثيرين يفتشون الكتب المقدسة ليتعلموا الحق لأنفسهم. وهي نتيجة لم تكن روما تتوقعها أو ترغب فيها. وقد اتجهت عقول الناس إلى نبع الحق الذي كانت روما تهدف إلى إخفائه.

ثم بدأ ويكلف بكتابة بعض النبذ ضد الرهبان ونشرها، ومع ذلك فهو لم يكن يرغب في أن يشتبك معهم في جدال، لكنه كان يريد بالأكثر أن يوجه أفكار الناس إلى تعاليم الكتاب ومبدعه. وأعلن أن سلطان الغفران أو الحرم لا يملكه البابا بدرجة أعظم من أي كاهن عادي، وأنه يجب ألا يُحرم إنسان حقاً، ما لم يجلب على نفسه دينونة الله أولاً. ولم يكن يجد وسيلة أفعل من هذه في محاولة قلب ذلك الصرح الهائل وهدمه، صرح السلطة الروحية والزمنية، الذي أقامه البابا وفيه أسر أرواح ملايين الناس وأجسادهم.

إرسال المصلح إلى أوروبا

دُعي ويكلف مرة أخرى للدفاع عن التاج البريطاني ضد اعتداءات روما. فإذا كان قد عُين سفيراً لمليكه وبلاده في الأراضي الواطئة قضى عامين يتفاوض مع مندوبي البابا، وفيما هو هناك اتصل برجال الدين في فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، فكانت له فرصة أن ينظر إلى الصورة الخلفية للأشياء وأن يعرف أمورا كثيرة كان يمكن أن تظل خافية على الشعب في إنكلترا. تعلم أشياء كثيرة انتفع بها في جهوده التي بذلها فيما بعد. وقد عرف من ممثلي البلاط البابوي هؤلاء، الصفة الحقيقية للحكومة البابوية وأهدافها. وعاد إلى إنكلترا ليردد تعاليمه السالفة بأكثر مجاهرة وغيره معلنا أن الجشع والكبرياء والخداع هي آلهة روما.

وفي معرض كلامه عن البابا وجامعي ضرائبه في إحدى النبذ قال: « انهم يستنزفون من بلادنا قوت الفقراء، وآلاف عديدة كل سنة من « الماركات » من خزانة الملك لأجل ذبيحة القديس والأمور

الروحية التي هي زندقة ملعونة، إذ أنها متاجرة بالرتب الكهنوتية، وهذا يجعل العالم المسيحي يرضى بهذه الهرطقة ويتمسك بها. وحقا أنه لو كان في بلادنا جبل كبير من أكوام الذهب، ولم يأخذ أحد منه شيئا باستثناء جامع ضرائب الكهنة المتجبر هذا، فبمرور الزمن لن يعود لهذا الذهب وجود، لأنه يأخذ الأموال من بلادنا ولا يعطينا بدلا منها غير لعنة الله على هذه السيمونية (شراء المنصب الكهنوتي أو بيعه) التي يحترفها « (١١) ».

وحالما عاد ويكلف إلى إنكلترا عينه الملك على أبروشية لترورث. وقد كان هذا تأكيدا على أن الملك، على الأقل، لم يكن مستاء من صراحته في الكلام. وقد ظهر نفوذ ويكلف في تشكيل البلاط وفي صوغ معتقدات الأمة.

وسرعان ما انهالت عليه رعود البابا. فلقد أرسلت ثلاث براءات بابوية إلى إنكلترا، إلى الجامعة والملك والأساقفة، وفي كل منها يأمر البابا باتخاذ الإجراءات السريعة الحاسمة لإسكات ناشر الهرطقة (انظر التذييل). وقبلما وصلت براءات البابا كان الأساقفة، في غيرتهم، قد استدعوا ويكلف لإدانته. لكن اثنين من أقوى أمراء المملكة رافقاه إلى المحكمة، كما أن الناس الذين تجمعوا حولها واندفعوا إلى داخلها أوقعوا الرعب في قلوب القضاة فتوقفت إجراءاتهم مؤقتا وسُمح لويكلف أن يمضي في طريقه بسلام. وبعد ذلك بقليل مات الملك إدوارد الثالث الذي حاول الأساقفة في أثناء شيخوخته أن يثيروه ضد ذلك المصلح، وتولى الحكم ظهير ويكلف ونصيره السابق كنائب عن الملك في حكم المملكة.

إلا أن توالي ورود براءات البابا أوجب على إنكلترا أن تقوم كلها بعمل حاسم بالقبض على ذلك الهرطوقي وطرحه في السجن، وكان الغرض من تلك الإجراءات أن يُحرق بالنار. وقد بدأ مؤكدا أن ويكلف لا بد أن يسقط سريعا فريسة لانتقام روما. لكن ذاك الذي كان قد أعلن لأحد القديسين قائلا: "لَا تَخَفْ... أَنَا تُرْسٌ لَكَ" (تكوين ١٥ : ١) مد يده مرة أخرى لحماية خادمه، فجاء الموت لا يهجم على المصلح بل ليقتضي على البابا الذي أمر بقتله. فلقد مات البابا غريغوريوس الحادي عشر فتشتت شمل رجال الدين الذين أتوا لمحاكمة ويكلف.

لكن عناية الله سيطرت على الأحداث التي جرت بعد ذلك لكي تتيح الفرصة لنمو الإصلاح وازدهاره. فقد تبع موت غريغوريوس اختيار اثنين من البابوات متنافسين. فكان هناك قوتان متناحرتان كل منهما معترف بها أنها معصومة، وكل منهما كانت تطالب الناس بالطاعة (انظر التذييل). وكل من هذين البابوين استنجد بالأمناء لمعاونته في إثارة الحرب ضد الآخر، وكان يرغم الناس على إطاعة أوامره بالحرم التي كان يقذفها في وجوه خصومه، والوعد بالجزاء الصالح في السماء لأنصاره. فكان هذا الحادث من العوامل التي أدت إلى إضعاف سلطة البابا إلى حد كبير. ولقد بذل الحزبان المتنافسان قصارى جهدهما لمهاجمة أحدهما الآخر، فاستراح ويكلف بعض الوقت. كان كل من البابوين يرشق الآخر بالحرم والمهاترات، وسالت الدماء كالأنهار ليثبت كل من الإثنين حقه، فغمرت الكنيسة سيول من الجرائم والوشايات. وفي أثناء ذلك كان المصلح وهو في معتكفه الهادئ في أبروشية لترورث يسعى جاهدا إلى تحويل أنظار الشعب عن ذنوب البابوين

المتناحرين إلى يسوع رئيس السلام.

مهد ذلك الانشقاق الذي حدث، بكل ما نجم عنه من نزاع وفساد، الطريق للإصلاح إذ أعطى الناس فكرة صحيحة عن حقيقة البابوية. وفي إحدى النبذ التي نشرها ويكلف وكان موضوعها « انشقاق بين البابوات » طلب من الشعب أن يتأملوا في ما إذا لم يكن هذان البابوان قد نطقا بالصدق حين حكم كل منهما على الآخر بأنه ضد المسيح (المسيح الدجال). ثم قال: « إن الله لم يسمح للشيطان أن يملك على كاهن واحد بل أحدث الانقسام بين الاثنين حتى يمكن للشعب باسم المسيح أن ينتصروا على كليهما بسهولة أعظم » (١٢).

بشر ويكلف، كسيده، المساكين. ولم يكتف بنشر النور في مساكنهم المتواضعة في أبروشيته في ترورث، بل عقد العزم على أن يحمله إلى كل أنحاء إنكلترا. ولكي ينجز هذا العمل نظم هيئة من المبشرين البسطاء الأتقياء الذين كانوا يحبون الحق ويرغبون كل الرغبة في نشره. فخرج هؤلاء الرجال إلى كل الأماكن يعلمون الناس في الأسواق وشوارع المدن العظيمة وفي الأرياف، في الدروب والأزقة وفي القرى. وكانوا يبحثون عن الشيوخ والمرضى والمساكين ويخبرونهم ببشارة نعمة الله المفرحة.

مرض خطر يهاجم المصلح

وكأستاذ للاهوت في أكسفورد كان ويكلف يبشر بكلمة الله في قاعات الجامعة. وكان بكل أمانة يعرض الحق أمام طلابه حتى لقد حصل على لقب « دكتور الإنجيل ». لكن أعظم عمل قام به في حياته كان ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنكليزية. وفي أحد مؤلفاته الذي عنوانه « حق الكتاب ومعناه » عبر عن اعتزازه أن يترجم الكتاب حتى يتسنى لكل رجل في إنكلترا أن يقرأ عن أعمال الله العجيبة في لغته التي وُلد فيها.

ولكن فجأة أوقفت أعماله. فمع أنه لم يكن قد بلغ الستين من عمره فإن عمله المتواصل ودراساته ومهاجمات أعدائه، كل ذلك أثر في صحته وقوته وجعله يشيخ قبل الأوان، ثم هاجمه مرض خطر، فسّر الرهبان لهذا الخبر سرورا بالغاً إذ ظنوا أنه الآن سيعلن ندامته المرة على الشر الذي صنعه بالكنيسة، وأسرعوا إلى حجرته ليصغوا إلى اعترافه. فاجتمع حول سرير ذلك الرجل الذي ظن أنه في دور الاحتضار ممثلون عن الرهبانيات الأربع مع أربعة ضباط مدنيين، فقالوا له: « ها نحن نرى لمسات الموت على شفئك، فينبغي لك أن تتدم على أخطائك، وفي حضرتنا تنكر كل ما قلته للإضرار بنا ». أصغى ذلك المصلح إلى أقوالهم وهو صامت، فلما كفوا عن الكلام أمر غلامه أن يرفع في فراشه، فإذا وقفوا منتظرين أن يسمعوا إنكاره لتصريحاته الماضية حدّق ببصره إليهم ثم قال بصوته القوي الثابت الذي طالما أربعهم: « لن أموت ولكني سأعيش لأعلن على الملأ مرة أخرى الشرور التي يرتكبها الرهبان » (١٣)، فخرج الرهبان مهرولين وهم متعجبون ورجلون.

أقوى الأسلحة

وتحقق ما قاله ويكلف، فلقد عاش ليضع في أيدي مواطنيه أمضى سلاح ضد روما: الكتاب المقدس الذي هو الوسيلة التي عينتها السماء لتحرير الشعب وإنارتهم وتبشيرهم. كانت هناك

عوائق وعقبات عظيمة وكثيرة، وكان عليه ان يذلها لإنجاز هذا العمل. كان ويكلف ينوء تحت ثقل المرض والضعف، وقد علم أنه لم يبق له سوى سنين قليلة يقضيها في العمل والخدمة، ورأى المقاومات التي كان عليه أن يواجهها، ولكنه إذ تشجع بالاستناد إلى مواعيد كلمة الله تقدم إلى الأمام غير خائف بأس أحد. وفي ملء نشاط قواه العقلية وثروته العظيمة من الاختبارات الناضجة حفظته عناية الله الخاصة وأعدته للقيام بهذا العمل الذي كان أعظم أعماله وأمجدها. فإذا كانت الفتنة والثورات تجتاح العالم المسيحي شرع هذا المصلح في القيام بعمله المختار في أبروشيته في ترورث، غير آبه للعواصف التي كانت تتور في الخارج.

أخيرا أكمل العمل: أول ترجمة إنكليزية للكتاب إطلاقا. ها هي كلمة الله تُقدَّم إلى شعب إنكلترا، وما عاد المصلح يخاف الآن السجن أو الموت احتراقا. لقد وضع بين أيدي الشعب الإنكليزي نورا لن يخبو أو ينطفئ. فإذا وقُر الكتاب لمواطنيه عمل لتحطيم قيود الجهل والرزيلة ولتحرير بلاده ورفع شأنها عملا أكبر من كل ما أحرزه أذكي الناس من انتصارات باهرة في ساحات القتال.

وإذ كان فن الطباعة غير معروف حينذاك لم يكن من الممكن الحصول على عدد كبير من نسخ الكتاب المقدس إلا بعد عمل مضمّن بطيء، وكان اهتمام الشعب بالحصول على الكتاب عظيما بحيث أن كثيرين شرعوا في نسخه عن طيب خاطر. ولكن لم يكن من الميسور أن يلبي الناسخون كل طلبات الشعب فورا. وقد طلب بعض الأثرياء الكتاب المقدس كاملاً، بينما حصل آخرون على جزء منه. وفي حالات كثيرة اشتركت جملة عائلات في شراء نسخة واحدة. وهكذا وجدت تورا ويكلف طريقها إلى بيوت الشعب.

هذا وإن الالتجاء إلى عقول الناس أيقظهم من خنوعهم واستسلامهم للعقائد البابوية فقد علم ويكلف الشعب حينئذ التعاليم البروتستانتية الممتازة: الخلاص بالإيمان بالمسيح والعصمة الكاملة التي اتصفت بها الكتب المقدسة. وكان الكارزون الذين أرسلهم ويكلف يعرضون الكتاب المقدس للشعب، وكذلك بعض مؤلفات المصلح. وقد حالفهم النجاح بحيث أن حوالي نصف شعب إنكلترا قبلوا الإيمان الجديد.

ساء ظهور الكتاب المقدس وذبوعه سلطات الكنيسة إساءة عظيمة. فقد كان عليهم إذ ذاك أن يواجهوا وسيلة وعاملاً أقوى من ويكلف، وهو عامل لا تقوى أسلحتهم على أن تقهره. ولم يكن في إنكلترا في ذلك الحين أي قانون يحرم اقتناء الكتاب المقدس لأنه لم يكن قد نُشر قبل ذلك بلغة الشعب. فسُنّت مثل تلك القوانين فيما بعد ونُفذت بكل صرامة، ولكن في تلك الأثناء على رغم محاولات الكهنة كانت توجد فرصة لنشر كلمة الله إلى حين.

ويكلف يُستدعى إلى المحاكمة

تآمر الرؤساء البابويون لإسكات صوت المصلح من جديد، فاستدعي ليحاكم أمام ثلاث محاكم، واحدة في إثر الأخرى، لكن ذلك كله كان بلا جدوى. ففي البداية قرر مجمع الأساقفة أن مؤلفات ويكلف هرطوقية، وإذ كسبوا رتشارد الثاني الملك الشاب إلى جانبهم حصلوا على مرسوم ملكي

يقضي بالسجن على كل من يعتنق تلك العقائد الجديدة المدانة.

واستأنف ويكلف دعواه من ذلك المجمع إلى البرلمان، ومن دون خوف اتهم حكومة الكهنة أمام مجلس الأمة وطالب بإصلاح الأضرار والمفاسد الهائلة التي أقرتها الكنيسة وصادقت عليها. وبقوة إقناع عظيمة صوّر لرجال المجلس الاغتصابات والمفاسد التي ارتكبتها السلطات البابوية. فارتبك خصوم ويكلف، أما أصدقاؤه ومعضدوه فقد أرغموا على الخضوع وكان كثيرون ينتظرون بكل ثقة أن المصلح نفسه، وهو في حال الضعف والشيخوخة ووحيد لا صديق له، سينحني صاغرا أمام السلطة المزدوجة أي سلطة الملك وسلطة الأساقفة. ولكن بدلا من هذا رأى البابويون أنفسهم منهزمين. فأمام قوة حجج ويكلف ومقدرته الخطابية العظيمة ألغى البرلمان المرسوم القاضي باضطهاد المصلح ومشايحيه، وهكذا أطلق سراحه.

ومرة ثالثة أوتي به ليحاكم، أما هذه المرة فكانت أمام أعلى محكمة إكليريكية في المملكة وقد عزم البابويون ألا يظهروا أي تعاطف مع الهرطقة: فقد ظنوا أن روما لا بد أن تنتصر هنا أخيراً ويوضع حد نهائي لعمل المصلح. فلو ظفروا بمرادهم فلا بد من إرغام ويكلف على إنكار تعاليمه أو سوقه مباشرة إلى المحرقة.

يرفض أن يتراجع

لكن ويكلف لم يتراجع ولم يبد خضوعا أو استسلاما، بل بكل شجاعة تمسك بتعاليمه وفند اتهامات مضطهديه. فإذ نشي نفسه ومركزه والظروف المحيطة به أوقف سامعيه أمام محكمة الله ووضع مغالطاتهم ومخاتلاتهم في ميزان الحق الأزلي. وأحس الحاضرون في المجلس بقوة الروح القدس، واستولت على أولئك السامعين هيبة الله، وبدا كأنهم عاجزون عن الخروج من ذلك المكان. لقد اخترقت أقوال المصلح قلوبهم كأنها سهام من جعبة الله. فبقوة تبكيت عظيمة رد تهمة الهرطقة عليهم فصاروا هم المتهمين وقد سألهم قائلا: « لماذا تجرأتُم على نشر ضلالتكم؟ لأجل الربح أتجرتُم بنعمة الله؟ ».

وأخيرا قال: « مَنْ تظنون أنكم تحاربون؟ أشيخا فانيا يترنح وهو واقف على حافة القبر؟ كلا فأنتم إنما تحاربون الحق، الحق الذي هو أقوى منكم والذي سيقهركم » (١٤). وإذ قال هذا خرج من ذلك الاجتماع ولم يحاول أحد من خصومه أن يمنعه من الخروج.

أوشك عمل ويكلف أن ينتهي، وراية الحق التي حملها طويلا كان لا بد أن تسقط من يده ولكن كان عليه أن يشهد للإنجيل مرة أخرى. كان لا بد له من أن يعلن الحق من معقل مملكة الضلال نفسه. فلقد أسدعي ويكلف ليحاكم أمام المحكمة البابوية في روما التي قد سفكت دم القديسين مدرارا مرارا عديدة، ولم يكن يجهل الخطر المحدق به ومع ذلك فقد كان يرغب في إطاعة ذلك الأخطار لولا أن مرض الفالج المفاجئ الذي أصيب به قد حال بينه وبين القيام بتلك الرحلة. ولكن مع أن صوته لم يُسمع في روما فقد كان يستطيع أن يتكلم بواسطة الرسائل، وهذا ما عقد العزم على عمله. فمن أبروشيته كتب ذلك المصلح رسالة إلى البابا، تلك الرسالة التي وإن كانت تبدو فيها نعمة الاحترام

والروح المسيحية فقد كانت تويخا جارحا للسدة البابوية على ابهتها وكبريائها.
قال: « أنه مما يبهج قلبي حقا أن أجاهر معلنا، لكل إنسان، الإيمان الذي اعتنقه، وعلى الخصوص
أمام أسقف روما، الذي بكل رضى وسرور سيثبتني في هذا الإيمان لكوني اعتقد أنه سليم وحقيقي،
وإن كان خطأ فليصلحه.

« فأنا أعتقد أولاً أن إنجيل المسيح هو شريعة الله الكاملة... وأعتبر أن أسقف روما من حيث أنه
نائب المسيح على الأرض مرتبط بشريعة الإنجيل هذه أكثر من جميع الناس. لأن العظمة بين تلاميذ
المسيح لا تنحصر في السيادة والكرامات العالمية بل في اتباع المسيح بكل دقة وعن أقرب قرب في
حياته وتصرفاته... إن المسيح مدى سني غربته هنا على الأرض عاش كأقفر إنسان، محتقرا وطارحا
عنه كل سلطان وكرامة عالمية...

لا سلام إلا في اتباع المسيح

« ينبغي لكل إنسان أمين ألا يتبع البابا نفسه أو أيًا من القديسين إلا في الأمور التي يكون فيها تابعا
للرب يسوع المسيح. لأن بطرس وابني زبدي إذ كانوا يشتاقون إلى الحصول على الكرامة العالمية،
التي هي على نقيض اتباع خطوات المسيح، فقد أخطأوا. ففي تلك الأخطاء لا يصلحون لأن يكونوا
مثلا تحتذى...

« ينبغي للبابا أن يترك للسلطات الدنيوية كل سيادة وحكم زمني. ولأجل ذلك عليه أن يرضى بحق
إكليروسه كافة وينصحه، لأن هذا ما فعله المسيح وعلى الخصوص بواسطة رسله. ولذلك فإن كنت
قد أخطأت في أي من هذه الأمور فأنا بكل تواضع اخضع لكل تأديب، حتى للموت إذ دعت الضرورة.
ولو كنت أسعى وفقا لإرادتي أو رغبتى الشخصية لتقدمت بكل تأكيد للمثل أمام أسقف روما.
لكن الرب قد افتقدني على عكس ذلك، وعلمني أن أطيع الله بالأحرى لا الناس.»
وفي ختام رسالته قال: « لنُصلِّ إلى الله طالين منه أن يوقظ البابا وأربان السادس، حتى كما بدأ
خدمته، هكذا يتبع بكل أمانة هو وكل رجال الإكليروس مثال الرب يسوع المسيح في الحياة
والعادات، وحتى يعلموا الشعب، على نحو فعال مجد، أن يتبعوا المسيح هم أيضاً في الحياة
والعادات » (١٥).

وهكذا قدم ويكلف للبابا وكرادته وداعة المسيح وتواضعه، مستعرضا لا أمامهم فقط بل أيضاً أمام
العالم المسيحي أجمع، الفرق بينهم وبين السيد الذي ادعوا أنهم يمثلون.
كان ويكلف يتوقع بكل تأكيد أن يبذل حياته ثمن ولأته لسيدته، فلقد اتحد الملك مع البابا والأساقفة
على إهلاكه. وبدا أكيدا أنه بعد شهور قليلة على الأكثر سيموت احتراقاً، لكن شجاعته لم تضعف.
فقد قال لبعض من حوله: « ما لكم تتحدثون عن طلب إكليل الاستشهاد كأنه بعيد؟ أنكم إذا بشرتم
بإنجيل المسيح على مسامع الأساقفة المتعجرفين فلن يخطئكم الاستشهاد. ما هذا! هل أعيش وأظل
صامتا؟ ... كلا مطلقا! فلتسقط الضربة فأنا منتظر مجيئها » (١٦).

لكن عناية الله ظلت تحمي عبده وتحرسه. فذلك الرجل الذي ظل طوال حياته واقفا بشجاعة

مدافعا عن الحق، معرّضا للخطر كل يوم، ما كان ليسقط فريسة أعدائه وكراهيتهم. لم يحاول ويكلف أبدا أن يحمي نفسه لكنّ الرب كان حاميا له وحارسا، والآن عندما أحس الأعداء أنهم قد تمكنوا من فريستهم فقد رفعته يد الله بعيدا عن متناول أيديهم. فإذا كان في كنيسته في لترورث مزمعا أن يقدم إلى الشعب المائدة المقدسة سقط على الأرض إذ هاجمه مرض الفالج. وبعد وقت قصير أسلم الروح.

لقد عين الله لويكلف عمله، ووضع في فمه كلام الحق، ووفر له الحماية حتى يصل هذا الكلام إلى مسامع الشعب. وطالت أيامه، وطالت سنوات التعب والكدح، إلى أن وُضع أساس الإصلاح العظيم.

خرج ويكلف من غمرة عصور الظلام. ولم يكن أحد قد سبقه حتى ينسج نظام الإصلاح الذي قام به على منواله. فإذا أقيم كيوحنا المعمدان ليتم وينجز رسالة خاصة، كان بشير عهد جديد. ومع ذلك فقد كان يوجد في نظام الحق الذي قدمه وحدة وكمال لم يتفوق عليه فيهما المصلحون الذين أتوا بعده، وبعضهم لم يصلوا إلى مستواه حتى بعده بمئة سنة. لقد كان الأساس الذي وضعه متسعا وعميقا كما كانت البنية ثابتة وحقيقية حتى لم يكن هنالك ما يدعو إلى أن يعيد من جاؤوا بعده إقامتها من جديد.

فيض من البركات

تلك الحركة العظيمة التي بدأها ويكلف، والتي كانت مزمعة أن تطلق العقول والضامير من أسرها وتحرر الأمم التي ظلت أمدا طويلا موثقة إلى مركبة روما الظافرة، بدأت ونبتت من الكتاب المقدس. ففي الكتاب كان نبع نهر البركة الذي فاض كماء الحياة وسال مدى الأجيال منذ القرن الرابع عشر. لقد قبل ويكلف الكتب المقدسة بإيمان ثابت كالإعلان الموحى به عن إرادة الله والقانون الكافي للإيمان والأعمال. كان قد تعلم أن يعتبر كنيسة روما السلطة الإلهية المعصومة وأن يقبل، بوقار، التعاليم والعادات المصطلح عليها مدى ألف سنة، لكنه ترك ذلك كله ليصغي إلى ما تقوله كلمة الله المقدسة. هذه هي السلطة التي ألح على الشعب أن يعترف بها. فبدلا من كون الكنيسة تتكلم على لسان البابا أعلن أن السلطة الحقيقية الوحيدة هي صوت الله متكلم في كتابه. وهو لم يعلم أن الكتاب المقدس هو الإعلان الكامل للإرادة الله وحسب، بل قال أيضا أن الروح القدس هو المفسر الوحيد للكلمة الإلهية، وأن كل من يدرس تعاليم الكتاب سيعرف واجبه بنفسه ولنفسه. وهكذا حوّل أفكار الناس من البابا وكنيسة روما إلى كلمة الله.

لقد كان ويكلف أحد أعظم رجال الإصلاح. ففي اتساع ذهنه وسمو تفكيره، وفي عزمه الثابت على حفظ الحق وجراته في الدفاع عنه لم يكن يباريه غير القليلين ممن أتوا بعده. إن طهارة الحياة، والنشاط الذي لا يكل في الدرس والكد، والنزاهة التي لا غبار عليها، والمحبة المسيحية والأمانة في الخدمة كانت هي الصفات التي امتاز بها أول المصلحين، وهذا كله على رغم الظلام العقلي

والفساد الأخلاقي الذي استشرى في عصره.

إن صفات ويكلف هي شهادة لقوة كلمة الله المهدبة والمغيرة. فالكتاب المقدس هو الذي صاغه ووسم شخصيته المحبة. فالسعي إلى فهم حقائق الوحي الإلهي يضفي على قوى النفس نشاطاً وقوة وهو يوسع الذهن ويشحذ المدارك وينضج التمييز. ودراسة الكتاب تسمو بالأفكار والمشاعر والمثل أكثر من أي دراسة أخرى، وتكسب المرء ثبات القصد والصبر والشجاعة والجلد، وتطهر الخلق، وتقديس النفس. دراسة كتاب الله بروح الغيرة والوقار إذ تقرب بين عقل التلميذ وفكر الله غير المحدود تمنح العالم رجالاً أقوى وأنشط عقولاً وذوي مبادئ أنبل من كل ما قد نتج من أعظم تعليم قد تتضمنه الفلسفة البشرية. يقول صاحب المزامير « فَتُحْ كَلَامَكَ يُنِيرُ، يُعَقِّلُ الْجُهَالَ » (مزمور ١١٩: ١٣٠).

ظلت تعاليم ويكلف تنتشر بعض الوقت. وأتباعه الذين لقبوا بالويكلفيين واللولارديين لم يكتفوا بالتجول في أنحاء إنكلترا بل تشتتوا في بلدان أخرى، حاملين معرفة الإنجيل. أما الآن وقد أخذ منهم قائدهم فقد خدموا بغيرة أعظم مما فعلوا من قبل، فتقاطرت جماهير الناس تستمع إلى تعاليمهم. وبعض النبلاء وحتى الملكة نفسها كانوا ضمن المهتدين. وفي كثير من الأماكن كان هنالك إصلاح ملحوظ في عادات الناس، وحتى الرسوم والرموز الوثنية البابوية أزيلت من الكنائس. ولكن سرعان ما هبت عاصفة الاضطهاد القاسية على أولئك الذين تجرأوا على قبول الكتاب المقدس مرشداً لهم. فإذا كان ملوك الإنكليز يتوقعون إلى توطيد سلطانهم بالحصول على معاضدة روما لم يترددوا في التضحية بأولئك المصلحين. ولأول مرة في تاريخ إنكلترا تقرر حرق تلاميذ الإنجيل بالنار. وقد جاء استشهاد في إثر آخر. فالمحامون عن الحق الذين نفوا أو عذبوا لم يسعهم إلا أن يسكبوا صرخاتهم في أذني رب الجنود. وإذا طوردوا كأعداء للكنيسة وخونة ضد المملكة كانوا يبشرون في الأماكن الخفية وعلى قدر الإمكان كانوا يلجأون إلى بيوت الفقراء والضيعة، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى المغاور والكهوف في بطون الجبال.

ولكن على الرغم من هول الاضطهاد فقد رُفع احتجاج هادئ مقدس غيور صبور ضد الفساد المتفشي في الإيمان والعقيدة الدينية مدى قرون طويلة. إن المسيحيين الذين عاشوا في تلك العصور القديمة كانوا يعرفون جزءاً من الحق، ومع هذا فقد تعلموا أن يحبوا كلمة الله ويطيعوها، وبكل صبر احتملوا الآلام في سبيلها. ومثل التلاميذ في العصر الرسولي ضحى كثيرون منهم بأملهم وأموالهم في سبيل دعوة المسيح. والذين منهم سُمح لهم بالسكنى في بيوتهم آووا معهم بكل سرور إخوتهم المنفيين. ولكن عندما طردوا هم أيضاً قبلوا بكل فرح أن يكونوا مشردين. نعم، إن آفا منهم إذ أرعبهم احتياج مضطهدهم اشتروا حريتهم بتضحية إيمانهم فأطلق سراحهم من السجون والبسوا مسوح التائبين ليعلموا على الملأ إنكارهم للإيمان. لكن عدد الذين حملوا مشعل الشهادة في السجون المظلمة في معازل اللولارد لم يكن قليلاً. وكان بينهم جماعة من النبلاء من أصل عريق، كما كان بينهم أيضاً الفقراء والوضعاء. وفي وسط العذاب، والنييران تلتهم أجسامهم، كانوا متهللين لأنهم قد حُسبوا أهلاً لأن يعرفوا « شركة آلامه ».

لقد أخفق البابويون في تنفيذ إرادتهم مع ويكلف في حياته، ولم يشفوا غليلهم منه حتى عندما كان جثمانه راقدا مستريحا وساكنًا في قبره. فبناء على مرسوم أصدره مجمع كونستانس بعد موت ويكلف بأكثر من أربعين عاما نُش قبره وأحرقت عظامه على ملأ من الناس، وألقي برماده في نهر قريب. وقد قال كاتب قديم: « إن هذا النهر قد حمل رماده إلى نهر الأفون، ونهر الأفون حمله إلى نهر السفرن وحمله السفرن إلى البحار الضيقة وهذه بدورها حملته إلى الأوقيانوس العظيم. وهكذا كان رماد ويكلف رمزا لتعاليمه التي هي الآن منتشرة في كل العالم » (١٧). ولم يكن أعداؤه يفهمون مغزى فعلتهم الخبيثة.

وبواسطة مؤلفات ويكلف نبذ جون هس من بوهيميا كثيرا من الضلالات البابوية، وشرع في عمل الإصلاح. وهكذا ففي هذين البلدين المتباعدين المنفصلين ألقى بذار الحق. ومن بوهيميا امتد الإصلاح إلى بلدان أخرى. واتجهت أفكار الناس إلى كلمة الله التي كانت قد نُسيَت وأُهملت طويلا. إن يدا الهية كانت تعد الطريق للإصلاح العظيم.

٦ - هس وجيرون

كان الإنجيل قد غرس في بوهيميا وتأصلت جذوره منذ القرن التاسع. وقد تُرجم الكتاب المقدس، وكانت العبادة الجهارية تقام بلغة الشعب. ولكن بقدر ما زاد سلطان البابا حجت كلمة الله. إن غريغوريوس السابع الذي إلى على نفسه أن يذل كبرياء الملوك كان يصر على استعباد الشعب أيضاً، وتبعاً لذلك أصدر أمراً يحرم فيه إقامة العبادة الجهارية باللغة البوهيمية، كما أعلن البابا قائلاً: « لقد سر الكلي القدرة بأن تقام عبادته بلسان غير مفهوم، فإن شرورا وهرطقات كثيرة قد ظهرت لعدم مراعاة هذا القانون » (١٨). وهكذا قررت روما أن تطفئ نور كلمة الله وأن يظل الشعب سجيناً في الظلام. لكن السماء أعدت وسائل أخرى لحفظ الكنيسة. إن كثيرين من الولدنسيين والالبيجنسيين إذ طردوا من أوطانهم بسبب الاضطهاد الذي وقع في فرنسا وإيطاليا أتوا إلى بوهيميا. ومع أنهم لم يكونوا يجسرون على التبشير بالكلمة جهاراً كانوا يكدون بكل غيرة في الخفاء. وهكذا حفظ الإيمان الحقيقي من جيل إلى جيل.

قبل أيام هس كان يوجد في بوهيميا رجال قاموا جهاراً يوبخون الفساد الذي تفشى في الكنيسة والخلاعة التي عمت بين الناس، فأثار عملهم اهتمام الشعب في كل مكان. وثارت مخاوف الكهنة، فوقع الاضطهاد على تلاميذ الإنجيل. وإذ طرد هؤلاء الناس ليعبدوا الله في الغابات والجبال طاردهم الجنود وقتلوا كثيرين منهم. وبعد وقت صدر قرار يقضي بحرق كل من يرتد عن العبادة كما قد رسمتها كنيسة روما. ولكن فيما كان المسيحيون يسلمون أرواحهم كانوا ينظرون إلى الأمام عندما تنتصر دعوتهم. وإن واحدا ممن علموا « أن الخلاص هو بالإيمان بالمخلص المصلوب وحده » أعلن قبلما أسلم روحه قائلاً: « إن أعداء الحق الغاضبين علينا منتصرون علينا الآن، ولكن هذه النصر لندوم، فسيقوم واحد من بين عامة الشعب، بلا سيف أو سلطان، لن يستطيعوا الانتصار عليه » (١٩)، وكان عصر لوثر لا يزال بعيداً جداً، لكن واحداً كان قد بدأ ينهض، وكانت شهادته ضد روما مزمنة أن تثير الشعوب.

كان جون هس متواضع الأصل، عاش يتيماً منذ صباه في كنف أمه التقية التي إذ كانت تعتبر التهذيب ومخافة الله أعظم قيمة من كل الأملاك، اجتهدت في إحراز هذا الإرث لأبنها. وتعلم هس في إحدى مدارس الأقاليم، ثم التحق بجامعة براغ بعدما حصل على منحة دراسية من أهل الخير. وصحبته أمه في السفر إلى براغ، وكانت أرملة فقيرة. وعندما اقتربا من المدينة العظيمة جثت بجوار ذلك الشاب اليتيم وطلبت من الآب السماوي أن يباركه. ولم تكن تلك الأم تعلم كيف ستجيب صلاتها.

في الجامعة امتاز هس على أقرانه بمثابرته على الدرس ونجاحه السريع المتواصل، بينما اكتسبه سلوكه اللطيف الجذاب وحياته المثالية احترام الجميع. وقد كان تابعاً مخلصاً لكنيسة روما وباحثاً مجداً في طلب البركات الروحية التي كانت الكنيسة تدعي منحها للناس. وفي مناسبة اليوبيل تقدم من كرسي الاعتراف، ووهب كل النقود القليلة التي كان يحتفظ بها، وانضم إلى الموكب حتى يكون له نصيب في الغفران الموعود به. وبعد إنهاء دراسته في الكلية ألحق بسلك الكهنوت وبسرعة هائلة

بلغ درجة الكردينالية، وسرعان ما اتصل ببلاط الملك. وصار أستاذا ثم عميدا للجامعة التي كان قد تلقى علومه فيها، وفي سنوات قليلة صار ذلك الطالب الذي كان يتلقى إحسانات أهل الخير فخر بلاده واشتهر اسمه في أوروبا كلها.

عمل الإصلاح يبتدئ

لكنّ هس بدأ عمل الإصلاح في حقل آخر، فبعد سنوات قليلة من سيامته كاهناً أقيم واعظاً على كنيسة بيت لحم. وكان مؤسس هذه الكنيسة يؤيد موضوع الكرازة بالكتاب بلغة الشعب ويعتبره من أهم الأمور. وعلى رغم مقاومة روما لهذا الإجراء لم يتوقف التبشير في بوهيميا تماماً. لكنّ الجهل بالكتاب المقدّس كان فظيعة فتفشّت الرذيلة تبعاً لذلك بين كل الطبقات. وقد فضح هس هذه الشّرور بلا رحمة مستشهداً بكلمة الله لتعزيز مبادئ الحق والطهارة وطبعها وغرسها في الأذهان. وأن جيروم، أحد مواطني براغ الذي ارتبط بهس بعد ذلك أوثق ارتباط، كان قد أحضر معه مؤلفات ويكلف عند عودته من إنكلترا. وكانت ملكة إنكلترا التي اعتنقت تعاليم ويكلف أميرة بوهيميّة، وبفضل نفوذها انتشرت كتب ذلك المصلح وتداولتها الأيدي في وطنها. وقد قرأ هس هذه الكتب بشغف واهتمام عظيمين واقتنع بأن مؤلفهما مسيحي مخلص، ومال إلى قبول الإصلاحات التي دافع عنها. كان هس قد بدأ السير في طريق من شأنه أن يباعد بينه وبين روما، وإن كان هو لم يعرف ذلك.

صورتان تؤثران في هس

قراءة ذلك الوقت وصل إلى براغ من إنكلترا اثنان من الغرباء من أرباب العلم، كانا قد حصلا على النور وأتيا إلى هذه البلاد القاصية لينشرها فيها. واذ بدأ بهجوم علني على سيادة البابا أسكتتهما السلطات سريعاً. ولكن إذ كانا لا يريدان أن يتنحيا عن غرضهما لجآ إلى إجراءات أخرى. فبصفتهم فنانيين رسماً في ساحة واسعة مكشوفة لجماهير الناس صورتين، أولاهما تمثل دخول المسيح إلى أورشليم « وَدَيْعاً رَاكِباً عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ » (متى ٢١: ٥). ويتبعه تلاميذه وقد بليت ثيابهم من طول السفر، وهم يسيرون حفاة. أمّا الصورة الثانية فقد رسماً فيها الموكب البابوي وقد ارتدى البابا أفخر الثياب وأبهى الحلل وعلى رأسه الإكليل المثلث، وامتنى جواداً عليه زينة فخمة، وكان يتقدمه ضاربو الأبواق ويتبعه الكرادلة والأساقفة في حللهم البهية.

كانت هذه عظة استرعت انتباه الناس من كل الطبقات. وقد أتى جماهير الناس لمشاهدة تلك الصورتين، ولم يخف مغزاهما على أحد. وتأثر كثيرون إذ رأوا الفرق الشاسع بين وداعة المسيح وتنازله مع أنه هو السيد، وكبرياء البابا وغطرسته مع أنه يعترف بأنه عبده وخادمه. فحدث كثير من الشغب في براغ. وبعد وقت وجد ذاك الغريبان أنه ينبغي لهما أن يرحلا حرصاً على سلامتهما. لكنّ الدرس الذي علماه للشعب لم يُنسَ أبداً. لقد أحدثت الصورتان تأثيراً عظيماً في نفس هس، وذلك قاده إلى دراسة أكمل للكتاب ولمؤلفات ويكلف. ومع أنه لم يكن إلى ذلك الحين متأهباً لقبول الإصلاحات التي دافع عنها ويكلف فقد رأى بوضوح أكثر حقيقة البابوية عن كثب، وبغيرة عظيمة شهِر بكبرياء السلطة الكنسية وطموحها وفسادها.

ومن بوهيميا امتد النور إلى أَلْمَانِيَا، لأن الاضطراب الذي حدث في جامعة براغ سبب انسحاب مئات من الطلبة الألمان. وكان كثيرون منهم قد تلقوا من هس معرفتهم الأولى بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، فعند عودتهم بشروا بالإِنْجِيلِ في وطنهم.

وصلت أنباء العمل في براغ إلى روما، وسرعان ما استُدعي هس ليمثل أمام البابا. فلو أطاع لكان قد عرض نفسه لموت مؤكد. فلقد اتحد ملك بوهيميا وملكتها مع رجال الجامعة وبعض النبلاء والضباط في تقديم التماس إلى البابا حتى يسمح ببقاء هس في براغ وأن تستجوبه روما بواسطة مندوب بابوي. ولكن بدلا من أن يجيبهم البابا إلى هذا الطلب شرع في محاكمة هس وإدانته، وأعلن أن مدينة براغ قد وقعت تحت الحرم البابوي.

اهتياج في مدينة براغ

في ذلك العصر كان إصدار حكم كهذا كفيلا بأن ينشر الذعر الشامل، والاحتفالات التي تصحب هذا الحكم كانت تثير الرعب في قلوب الشعب الذي كان ينظر إلى البابا كنائب لله نفسه وفي يده مفاتيح السماء والجحيم وله السلطان على أن يستنزل الأحكام الزمنية والروحية. وكان الناس يعتقدون أن أبواب السماء تغلق في وجه كل إقليم يقع عليه هذا الحرم، وأنه إذا لم يرض البابا برفع هذا الحكم فإن أرواح الموتى تنفى بعيدا من مواطن السعادة. وكعلامة لهذه الكارثة المخيفة أوقفت كل الخدمات الدينية، فأقفلت الكنائس وكان يحتفل بمراسم الزواج في ساحة الكنيسة، ولم يكن يُسمح بدفن الموتى في المدافن المكرسة بل كانوا يوارون الثرى، من دون إقامة طقوس الدفن، في الخنادق أو الحقول. وهكذا بهذه الإجراءات التي تؤثر في التصورات حاولت روما أن تتحكم في ضمائر الشعب.

عم الشعب مدينة براغ وشهّرت جماعة كبيرة من الناس بهس كسبب لكل الكوارث وطالبوا بتسليمه لغضب روما. فلكي يسكن المصلح العاصفة انسحب مؤقتاً إلى مسقط رأسه وكتب إلى أصدقائه الذين تركهم في براغ يقول: «إني إذا كنت قد انسحبت من وسطكم فذلك إطاعة لوصية المسيح واحتذاء لمثاله حتى اعفي ضعفاء العقول من أن يجلبوا على أنفسهم دينونة أبدية، وحتى لا أكون سببا في وقوع حزن أو اضطهاد على الأتقياء. واعتكفت أيضاً خوفاً من أن يظل الكهنة العديمو التقوى يجرّمون الكرازة بكلمة الله بينكم وقتاً أطول، ولكني لم أترككم لكي أنكر الحق الإلهي الذي لأجله أنا مستعد بمعونة الله لأن أموت» (٢٠). ولم يكف هس عن مواصلة كفاحه بل سافر مخترقا البلاد المجاورة معلماً الجماهير المتعطشة. وهكذا كانت الإجراءات التي اتخذها البابا لقمع الإنجيل سببا في نشره إلى مدى أبعد، «لأننا لا نستطيعُ شيئاً ضدَّ الحقِّ، بل لأجل الحقِّ» (٢ كورنثوس ١٣: ٨).

“في هذا الدور من حياة هس كان يبدو أن عقله قد صار مسرحاً لكفاح مرير. فمع أن الكنيسة كانت تحاول أن تدمر حياته بصواعقها فهو لم يرفض سلطانها أو يجحده. كان لا يزال يعتبر الكنيسة البابوية عروس المسيح، والبابا ممثلاً لها ونائباً عنه. إنما الذي كان هس يحاربه هو سوء استخدام السلطة لا المبدأ نفسه. وهذا أثار صراعا مخيفا بين اقتناع عقله ومطالب ضميره، فإذا كانت السلطة

عادلة ومعصومة كما كان يعتقد فكيف حدث أنه أحس باضطرابه إلى عصيانها؟ وقد رأى أن إطاعتها خطية، فكيف تنتهي الطاعة للكنيسة المعصومة إلى تلك النهاية؟ تلك كانت المشكلة التي استعصى عليه حلها، وذلك هو الشك الذي عذبه ساعة بعد ساعة. وأقرب الحلول التي خطرت له هو أن ما حدث قديما في أيام المخلص يحدث هو نفسه الآن مرة أخرى، وهو أن كهنة الكنيسة غدوا أناسا أشرارا يستخدمون سلطاتهم المشروعة في أغراض غير مشروعة. هذا قاده إلى أن يتخذ لإرشاده وإرشاد من يشرهم المبدأ المقرر وهو أن وصايا الكتاب التي نُقلت عن طريق الفهم هي التي ينبغي أن تسود على الضمير وتتحكم فيه، وبمعنى آخر أن الله الذي يتكلم في الكتاب، لا الكنيسة التي تتكلم بواسطة الكهنة، هو المرشد الذي لا يخطئ» (٢١).

جيروم ينضم إلى هس

فلما خفت شدة الاهتياج في براغ بعد وقت عاد هس إلى كنيسته المسماة بيت لحم ليواصل الكرازة بكلمة الله بغيرة وشجاعة عظيمتين. كان أعداؤه نشيطين وأقوياء، لكن الملكة وكثيرين من النبلاء وقفوا إلى جانبه. وكثيرون إذ قارنوا بين تعاليمه النقية المثقفة المنعشة وحياته المقدسة من جهة، والمبادئ المنحطة الحقيرة التي كان ينشرها البابويون، والجشع والدعارة والفجور التي كانوا يرتكبونها من جهة أخرى، اعتبروا الانحياز إليه شرفا عظيما.

كان هس قد وقف وحده في عمله وكفاحه حتى ذلك الحين، غير أن جيروم، الذي كان قد اعتنق تعاليم ويكلف وهو في إنكلترا، انضم إليه في عمل الإصلاح. واتحد الاثنان بعد ذلك في حياتهما، ولم يفترقا في موتهما. كان جيروم متألق الذكاء ذا فصاحة وعلم غزير، وقد أحرز نصيبا كبيرا في تلك المواهب التي تظفر برضى الشعب واستحسانه، لكن هس كان متفوقا عليه في الصفات التي تحدد قوة الخلق الحقيقية، فكانت أفكاره الهادئة ورأيه الصائب رادعا لروح جيروم المتحفزة الوثابة، وهذا الأخير عرف بتواضع حقيقي قدر هس وخضع لمشوراته، وبفضل جهودهما المتحدة انتشر الإصلاح بسرعة عظيمة.

لقد جعل الله نوراً عظيماً يشرق على عقلي هذين الرجلين المختارين، فكشف لهما الشيء الكثير من ضلالات روما، ولكنهما لم يحصلوا على كل النور الذي كان مزمعا أن يعطى للعالم. كان الله عن طريق خادميه هذين يخرج الشعب من ظلمات البابوية، ولكن كان لا بد لهما من مواجهة عقبات ومعطلات كثيرة وعظيمة، وقد قادهما الله خطوة بخطوة على قدر احتمالهما. أنهما لم يكونا مستعدين لقبول كل النور دفعة واحدة. فلو قدم إليهما النور في ملء قوته مثل نور الشمس في وقت الظهيرة إلى قوم عاشوا طويلا في الظلام، فلربما كانا يرتدان راجعين. ولذلك كشف الله النور لهذين القائدين قليلا قليلا بمقدار ما يستطيع الشعب تقبله. ومن جيل إلى جيل كان على العاملين الآخرين أن يسيروا متتبعين هذا الطريق وأن يقودوا الشعب إلى الأمام في طريق الإصلاح.

ظل الانشقاق متفشيا في الكنيسة. فكان هنالك ثلاثة باباوات يتنازعون السيادة، وامتلات ربوع العالم المسيحي بالجرائم والشغب تبعا لتلك المشاغبات والمنازعات. وإذ لم يكتف كل منهم بقذف

الحرم في وجه الآخرين لجأ إلى الأسلحة المادية، فبذل المال لشراء الأسلحة وحشد الجيوش. وكان الثلاثة يحتاجون إلى المال بطبيعة الحال، فلكي يحصلوا عليه عُرِضَت هبات الكنيسة ووظائفها وبركاتها للبيع (انظر التذييل). وتمثل الكهنة برؤسائهم فلجأوا إلى السيمونية والحرب لإذلال منافسيهم وتقوية سلطانهم هم. أما هس فكان كل يوم يزيد بسالة ويرعد بكلامه ضد الرجاسات التي كانت الكنيسة تغضي عنها وتتساهل معها باسم الدين، وكان الناس يهتمون قادة كنيسة روما جهارا بأنهم علة كل الشقاء الذي غمر العالم المسيحي.

ومرة أخرى بدا كأن مدينة براغ على وشك الاشتباك في حرب دامية. وكما كانت الحال في العصور القديمة اتهم خادم الرب بأنه « مُكَدِّرُ إِسْرَائِيل » (١ ملوك ١٨: ١٧). ومرة أخرى وقعت المدينة تحت الحرم البابوي فانسحب هس راجعا إلى قريته. وانتهت شهادته الأمانة التي كان يؤديها في كنيسة المسماة بيت لحم، وكان عليه أن يتكلم في مجال أوسع لكل العالم المسيحي قبل أن يبذل حياته كشاهد للحق.

ولأجل معالجة المساوئ والشرور التي أذهلت أوروبا وأربكتها استدعي مجمع عام للانعقاد في كونستانس. وقد دُعي المجلس بناء على رغبة الإمبراطور سجسموند بواسطة أحد الباباوات الثلاثة المتنافسين هو يوحنا الثالث والعشرون. لكن هذا البابا المدعو يوحنا لم يكن في الحقيقة يرحب باستدعاء المجلس لأن أخلاقه وسياسته لم تكن تحتل الفحص والامتحان حتى على أيدي الأساقفة الذين كانوا متهاونين في تصرفاتهم الأخلاقية كأعضاء الكنائس في تلك الأيام. ومع ذلك فهو لم يكن يجرؤ على مقاومة إرادة سجسموند (انظر التذييل).

وكان من أهم الأغراض التي كان على المجمع إنجازها معالجة الانشقاق الحادث في الكنيسة واستئصال الهرطقة. ولأجل هذا دعي البابوان الآخران المتنازعان للمثول أمام المجمع، وكذلك المروج الأكبر للآراء الجديدة أي جون هس. أما ذاك البابوان فإذ كانا يحرصان على سلامتهما لم يذهبا بنفسهما بل أنابا عنهما ممثلين موفدين من قبلهما. وأما البابا يوحنا الذي كان حسب الظاهر هو الداعي إلى ذلك الاجتماع فقد حضر لكن الهواجس كانت تساوره إذ كان يشك في نيات الإمبراطور ويخشى أن يخلعه ويحاسبه على الرذائل التي جلبت العار على تاجه البابوي وعلى كل الجرائم التي ارتكبها للوصول إلى ذلك المركز. ومع ذلك فقد دخل مدينة كونستانس بأبهة عظيمة يحف به رجال الإكليروس من أعلى الرتب ويتبعه جمع كبير من الندماء. وخرج كل رجال الإكليروس في المدينة ورؤساؤها وجمع غفير من المواطنين للترحيب به. وكانت فوق رأسه مظلة من ذهب يحملها أربعة من عظماء الحكام. وقد حُمل القربان المقدس أمامه، كما حضر الكرادلة والنبلاء في حللهم البهية في عرض مهيب.

وفي أثناء ذلك كان هنالك مسافر آخر يقترب من مدينة كونستانس. كان هس يحس بالمخاطر التي تتهدده وقد ودع أصدقاءه كما لو أنه لن يلتقيهم مرة أخرى، وسار في رحلته وهو شاعر بأن نهايته ستكون الموت حرقا بالنار. وعلى الرغم من أنه كان قد حصل على صك الأمان من ملك بوهيميا كما حصل على صك آخر من الإمبراطور سجسموند فقد عمل تربيته على أنه قد يموت.

تساهل من جانب الملك

وفي رسالة بعث بها إلى أصدقائه في براغ قال: « يا إخوتي. إني مسافر وييدي صك أمان من الملك لمواجهة أعدائي الكثيرين القتلة. ولكنني واثق ثقة كاملة بالله القدير وبمخلصي، وأنا أثق بأنه سيصغي إلى صلواتكم الحارة وأنه سيسكب حكمته في فمي حتى أقاومهم، وأنه سيمنحني روحه القدوس ليحصنني بحقه حتى أستطيع أن أجابه بكل شجاعة التجارب والسجن، بل الموت القاسي إن لزم الأمر. لقد تألم يسوع المسيح لأجل أحبائه فهل نستغرب أنه قد ترك لنا مثالا حتى نحتمل بصبر كل شيء لأجل خلاصنا، إنه الله ونحن خلائقه، وهو الرب ونحن عبيده، وهو سيد العالم أما نحن فبشر محتقرون، ومع ذلك فقد تألم! فلماذا إذاً لا نتألم نحن، لا سيما أن الآلام هي لتطهيرنا؟ فيا أحبائي، إذا كان موتي يؤول إلى مجده فصلوا حتى يجيء سريعا وحتى أحتمل كل البلايا بصبر وثبات. أما إذا كان من الأفضل أن أعود إليكم فصلوا حتى أعود من دون أن أتلوث، أي حتى لا أكتم حرفا واحدا من حق الإنجيل وحتى أترك لإخوتي مثالا فاضلا نبيلًا يتبعونه. وهكذا فمن المرجح أنكم لن تروا وجهي في براغ بعد الآن، أما اذا تعظفت إرادة الله القدير بإعادتي إليكم فلنسر قدما في عملنا ونحن أثبت قلبا في معرفة شريعته ومحبتها » (٢٢).

وفي رسالة أخرى أرسلها إلى كاهن كان قد صار تلميذا للإنجيل تكلم هس باتضاع عميق عن أخطائه متهما نفسه بأنه « كان يحس بالسرور عندما يرتدي الملابس الفاخرة، وأنه كان يقتل الساعات في ممارسات تافهة ». ثم أضاف إلى ما سبق هذه التحذيرات المؤثرة: « ليت مجد الله وخلاص النفوس يشغلان عقلك وليس امتلاك هبات الناس أو الأملاك أو العقارات. حاذر من تزيين بيتك أكثر من تزيين نفسك، وفوق كل شيء وجه كل اهتمامك وعنايتك إلى البناء الروحي. كن تقيا ومتواضعا مع الفقراء ولا تنفق أموالك في الأكل والشرب وإقامة الولائم. فإذا لم تصلح حياتك وتكف عن الإفراط في تمتعاتك فأنا أخشى أنك ستقع تحت طائلة التأديب القاسي كما هو الحال معي... أنت تعرف عقيدتي لأنك منذ طفولتك تلقيت تعاليمي، ولذلك فلا جدوى في أن أكتب لك أكثر من هذا. ولكني أناشدك برحمة الرب ألا تتمثل بي في أي من الأباطيل التي رأيتني أسقط فيها ». وعلى غلاف الرسالة أضاف قائلا: « أناشدك يا صديقي ألا تفض هذه الرسالة حتى يتأكد لك بما لا يحتمل الشك أنني قد مُت » (٢٣).

القبض على المصلح

وفي أثناء الرحلة رأى هس دلائل على انتشار تعاليمه في كل مكان وقبول الناس دعوته قبولا حسنا، فقد تجمهر الناس لمقابلته، وفي بعض المدن كان الحكام يتبعونه في الشوارع. عند وصول هس إلى كونستانس مُنح حرية كاملة. وأضيف إلى صك الأمان الممنوح له من الإمبراطور تأكيد شخصي بحراسة البابا له. ولكن على رغم ذلك فكل تلك العهود والتأكيدات المقدسة المتكررة قد انتهكت ونقضت إذ اعتقل بعد وقت قصير بأمر البابا والكرادلة وألقي به في جب كرية الرائحة. وبعد ذلك نُقل إلى قلعة منيعة عبر الرين وحُفظ أسيرا فيها. أما البابا الذي لم

يستفد من غدره فقد ألقى به هو نفسه بعد ذلك بوقت قصير في السجن ذاته (٢٤) بعدما تأكد للمجمع أنه قد ارتكب أخط الجرائم، فضلاً عن القتل والسيمنية والزنا، « خطايا ذكرها أيضاً قبيح »، على حد قول المجمع. وأخيراً جُرد من تاج البابوية وطرح في السجن. والبابوان الآخرون المتنافسان خُلعا، واختير بابا جديد.

ومع أن البابا نفسه كان مرتكباً جرائم أعظم من تلك التي اتهم بها هس الكهنة وبسببها طالب بالإصلاح، فإن المجمع عينه الذي جرد البابا من رتبته تقدم ليسحق المصلح. ولقد أثار خبر اعتقال هس سخطا عظيما في بوهيميا، فقدم بعض الأمراء الأقوياء احتجاجات شديدة ضد هذا الاعتداء. والإمبراطور الذي كان يرفض السماح بانتهاك صك الأمان قاوم الإجراءات التي اتخذت ضد هس. لكن أعداء المصلح كانوا خبثاء وأصرروا على تنفيذ أغراضهم. وقد لجأوا إلى تعصب الإمبراطور ومخاوفه وغيرته على الكنيسة. وقدموا حججا مطولة يبرهنون بها أن « الإيمان ينبغي ألا يُحفظ لدى الهراطقة أو من يشبهه بأنهم هراطقة حتى ولو كانت في أيديهم صكوك أمان من الإمبراطور أو الملوك » (٢٥). وهكذا انتصروا.

ومع أن هس كان في منتهى الإعياء والضعف من أثر المرض الذي أصابه في السجن — لأن الهواء الرطب المتعفن والأبخرة الكريهة التي كانت تنبعث من سجنه المحتبس الهواء أصابته بحمى كادت تقضي على حياته — فقد أتى به أخيراً ليمثل أمام المجلس. فوقف موثقاً بالأصفاد الثقيلة في حضرة الإمبراطور الذي كان قد تعهد بحمايته. وفي أثناء المحاكمة الطويلة ظل متمسكاً بإيمانه بكل قوة وثبات. وأمام أحبار الكنيسة ورجال الدولة المجتمعين نطق باحتجاج مقدس أمين ضد فساد رجال الكهنوت. وعندما طُلب منه أن يختار بين أن ينكر عقائده أو يُحكم عليه بالموت فقد قبل أن يموت شهيداً.

نعمة الله تسنده

وقد سندته نعمة الله. ففي خلال أسابيع الآلام التي مرت قبل الحكم النهائي عليه امتلأت نفسه بسلام السماء. فكتب إلى أحد أصدقائه يقول: « إنني أكتب هذه الرسالة من سجنني وأنا موثق اليدين أتوقع حكم الموت عليّ غدا... فعندما نجتمع معا مرة أخرى بمساعدة يسوع في حياة الخلود حيث السلام المفرح السعيد فستعلم كم كان الرب رحيما حيالي، وكيف ساندني بقوته العظيمة في وسط تجاربي والآمي » (٢٦).

يأبى أن يتراجع

وفي ظلام سجنه رأى بعين الإيمان نصرة الإيمان الحقيقي. وإذ عاد بأفكاره وأحلامه إلى الكنيسة في براغ حيث كرز بالإنجيل رأى البابا وأساقفته وقد محوا صور المسيح وطمسوا معالمها التي كان هو قد رسمها على الجدران. « وقد أزعجته هذه الرؤيا وأفزعته. ولكنه رأى في اليوم التالي كثيرين من الرسامين عاكفين على إعادة رسم تلك الصور. وقد زاد عددها واشتد لمعان ألوانها. وعندما انتهى أولئك الفنانون من رسم تلك الصور وقد احتشد حولهم جمع كثير صاحوا قائلين: ليأت الآن البابوات

والأساقفة، إنهم مهما جاهدوا لن يستطيعوا أن يطمسوا هذه الصور بعد الآن! ». وقال ذلك المصلح وهو يقص حلمه: « إنني متأكد من هذا أن صورة المسيح لن تطمس أبدا. لقد كانوا يتمنون ملامشتها، لكنّها سترسم من جديد في كل القلوب بواسطة مبشرين أفضل مني » (٢٧).

أوقف هس أمام المجمع للمرة الأخيرة، وكان الاجتماع حافلا بشخصيات شهيرة. كان هناك الإمبراطور وأمراء الإمبراطورية والكرادلة والأساقفة والكهنة، وجمع غفير من الناس الذين أتوا لمشاهدة أحداث ذلك اليوم، وكان كثيرون من أنحاء بلدان العالم المسيحي قد اجتمعوا ليكونوا شهودا على أول ضحية عظيمة في الصراع الطويل الذي كان سيتقرر فيه مبدأ حرية الضمير وحرية العبادة.

وإذ كان هس قد استدعي ليدلي بقراره النهائي أعلن أنه يرفض إنكار تعاليمه. وثبتّ نظره الثاقب على الملك الذي انتهك عهده له على نحو مشين وأعلن قائلا: « لقد عزمت بمحض اختياري أن أمثل أمام المجلس تحت حماية الملك الحاضر هنا الآن وبناء على وعده لي بالأمان » (٢٨)، فاحمر وجهه ساجسوموند خجلا عندما اتجهت إليه أنظار كل الحاضرين.

وبعد النطق بالحكم بدأت إجراءات تجريده من رتبته الكهنوتية. وقد ألبس الأساقفة أسيرهم الزي الكهنوتي، فقال معلقا: « إن ربنا يسوع المسيح ألبس رداء أبيض بقصد إهانته عندما أمر هيرودس بأخذه إلى بيلاطس » (٢٩). وعندما أمر مرة أخرى بأن يتراجع عن تعاليمه التفت إلى الشعب ثم أجاب قائلا: « إذا بأي وجه أشاهد السماوات؟ وكيف أنظر إلى جموع الناس الذين قد بشرتهم بالإنجيل الطاهر؟ كلا فأنا أقدر خلاصهم أكثر مما أقدر هذا الجسد الفاني المحكوم عليه بالموت ». وقد جرد من ملابسه الكهنوتية قطعة بعد أخرى، وكلما قام أسقف بدوره في الاحتفال كان ينطق على هس باللعنة. وأخيرا وضعوا على رأسه إكليلا من الورق هرمي الشكل رسمت عليه صور مخيفة للأبالسة وقد كتبت عليه كلمة « كبير الهرطقة » في مكان ظاهر فوق جبينه. فقال هس: « إنني بفرح عظيم ألبس إكليل العار هذا لأجلك يا يسوع، أنت الذي من أجلي قد ألبست إكليلا من الشوك ».

وبعد أن ألبسوه هكذا قال الأساقفة، « والآن نحن نكرس نفسك للشيطان ». أما هس، فإذ رفع عينيه صوب السماء قال، « أما أنا ففي يديك استودع روحي أيها الرب يسوع لأنك قد فديتني » (٣٠).

يموت على آلة الإعدام

ثم أُسلم إلى أيدي السلطات المدنية فاقتادوه إلى مكان الإعدام وتبعه موكب عظيم، مئات من الرجال المسلحين، والكهنة والأساقفة في حللهم الغالية الثمن، وسكان مدينة كونستانس. وعندما أُوثق إلى آلة الإعدام وكان كل شيء معدا لإشعال النار أُنذر ذلك الشهيد مرة أخيرة لينقذ نفسه بإنكار ضلالاته وجحدها. فقال هس: « أيّ ضلالات أجحدها أو أرفضها؟ أنا أعلم أنني لم أخطئ في شيء ولا ارتكبت جرما. إنني أشهد الله على أن كل ما كتبت وما كرزت به كان القصد منه إنقاذ النفوس من الخطيئة والهلاك. ولذلك فإني بكل سرور أثبت بدمي ما قد كتبت وبشرت به » (٣١). وعندما

أضرمّت النار من حوله أبتدأ يترنم قائلا: « يا يسوع ابن داود ارحمني ». وظل يفعل ذلك إلى أن أسكت صوته إلى الأبد.

أدهشت هذه البطولة وقوة الاحتمال أعداءه أنفسهم فقال أحد البابويين الغيورين وهو يصف استشهاد هس ثم استشهاد جيروم الذي مات بعد ذلك بقليل: « احتمل كلاهما بعزم راسخ وعقل ثابت دنو ساعتهم الأخيرة. لقد استعدا للذهاب إلى النيران كما لو كانا ذاهبين إلى وليمة عرس. ولم ينطقا بما يعبر عن الألم. وعندما اندلعت السنة اللهب وامتدت نحوهما بدأ يترنمان ويسبحان ولم تستطع النار المتوهجة أن توقفهما عن التسبيح » (٣٢).

بعدهما احترق جسد هس كله جُمع رماده والتراب الذي كان تحته وألقي به في نهر الرين وهكذا حُمِلت بقاياه إلى الأقيانوس. وعبثا تصور مضطهدوه أنهم قد استأصلوا المبادئ التي كرز بها. ولم يكونوا يتصورون أن ذلك الرماد الذي ألقوا به في البحر في ذلك اليوم كان مزمعا أن يكون كبدار يزرع في كل ممالك الأرض، وفي بلدان لم تُكتشف بعد، وسيأتي بثمر كثير في قيام شهود كثيرين للحق. كان لذلك الصوت الذي رن في جوانب مجمع كونستانس صدى سيسمع في كل العصور اللاحقة. نعم إن هس قد مات وزال من الوجود، لكنّ الحقائق التي مات في سبيل إثباتها لا يمكن أن تندثر. إن مثال الإيمان والجلد الذي أبداه كان من شأنه أن يشجع جماهير من الناس على الثبات في جانب الحق في مواجهة العذاب والموت. لقد برهن إعدام هس على قسوة روما وغدرها. إن أعداء هس بعملهم هذا إنما كانوا يناصرون ويروجون الحق الذي عبثاً حاولوا ملاحقته، وإن كانوا لا يدرون.

جيروم يصل إلى كونستانس

ومع ذلك فقد كانت ستقام آلة التعذيب مرة أخرى في كونستانس، ودم شاهد آخر كان وشيكا أن يراق لأجل الحق. إن جيروم وهو يودع هس عند رحيله للمثول أمام المجمع جعل يحثه على الشجاعة والثبات معلنا له أنه إذا وقع في أي خطر فسيهب لنجدته، فحالما علم أن صديقه المصلح قد طُرح في السجن تأهب ذلك التلميذ الأمين في الحال لإنجاز وعده. ومن دون أن يحصل على صك أمان بدأ رحلته إلى كونستانس ومعه رفيق واحد. ولدى وصوله إلى هناك اقتنع بأنه إنما قد عرض نفسه للخطر من دون أن يتمكن من عمل شيء لإنقاذ هس. فهرب من المدينة. ولكن فيما كان عائدا إلى وطنه قُبض عليه وأُعيد مكبلا بالقيود وتحت حراسة فرقة من الجنود. وعندما وقف أمام المجمع أول مرة كانت إجابته على التهم الموجهة ضده تقابل بصرخات قائلة: « أطرحوه في النار، ألقوا به في اللهب! » (٣٣). وقد طُرح في سجن مظلم وأوثق بالقيود، وكان في وضع سبب له آلاما مبرحة، وكان طعامه الخبز والماء. وبعد بضعة شهور سببت له آلام السجن مرضا كاد يقضي عليه، فإذ خاف أعداؤه أن يفلت منهم عاملوه بقسوة أقل مع أنه ظل سجيناً عاما كاملاً.

جيروم يمثل أمام المجمع

كانت لموت هس نتائج غير ما كان يرجوه البابويون. فنقض صك الأمان آثار عاصفة شديدة من السخط، لذلك ارتأى المجمع أنه بدلا من حرق جيروم يستحسن إرغامه على التراجع إن كان ذلك في

الإمكان. فأتى به أمام المجلس وعُرض عليه ان يختار إما أن ينكر تعاليمه وإيمانه وأما أن يحرق بالنار. إن موت جيروم عند بدء إلقاءه في السجن كان يمكن أن يكون رحمة بالمقارنة مع العذابات الهائلة التي احتملها، أما الآن، وقد أضعفه المرض والآلام التي قاساها في السجن وعذاب الجزع والقلق وهو بعيداً عن أصدقائه وانهيار قواه بعد موت هس، فقد خارت قوة احتماله وخذله جلده فرضي بالخضوع للمجمع. وتعهد بأن يتمسك بالعقيدة الكاثوليكية وقبل قرار المجمع الذي أدان تعاليم ويكلف وهس، باستثناء « الحقائق المقدسة » التي علّمها بها (٣٤).

وبهذه الوسيلة حاول جيروم إسكات ضميره والنجاة من حكم الموت. لكنه إذ كان منفرداً في سجنه اتضح له جسامته ما فعل. تذكر شجاعة هس وولاءه، وعلى نقيض ذلك تأمل في تنكره للحق ولمعلمه الإلهي الذي كان قد تعهد خدمته والذي احتمل لأجله موت الصليب. كان قبل تراجعهم يجد العزاء في وسط آلامه إذ كان واثقاً من رضى الله، أما الآن فقد تعذبت نفسه من فرط الندم وصارت نهبا للشكوك. وعرف أنه لا بد له من أن يتراجع وينكر أشياء كثيرة قبل أن يتصالح مع روما. والطريق الذي بدأ يسير فيه كان ينتهي حتماً إلى الارتداد التام. ولذلك فقد عزم على أمر وهو أنه ينبغي له ألا ينكر سيده لكي ينجو من آلام قصيرة الأمد.

وسرعان ما أتى به ثانية ليمثل أمام المجمع. فلم يكن خضوعه كافياً لإقناع قضاة. وتعطشهم لسفك الدم الذي قد أهاجه موت هس ألح في طلب ضحايا جديدة. ولم يكن متاحاً الإبقاء على حياة جيروم إلا باستسلام الحق من غير تحفظ. ولكنه كان قد عقد العزم على المجاهرة بإيمانه واتباع مثال أخيه الشهيد ولو طرح في النار.

وقد تبرأ من إنكاره السابق، وكأنسان مائت طلب بكل خشوع فرصة يقدم فيها دفاعه. وإذا كان الأساقفة يخافون تأثير أقواله أصروا على أنه يجب إما أن يصادق على صحة التهم الموجهة إليه وإما أن ينكرها. فاحتج جيروم على تلك القسوة وذلك الظلم قائلاً: « لقد أبقيتموني سجيناً ٣٤٠ يوماً في سجن رهيب. وكنت محاطاً بالأقذار والوخامة والروائح الكريهة. وكنت في عوز إلى كل شيء، توقفوني أمامكم وتميلون آذانكم لسماع أقوال أعدائي القساة ثم ترفضون سماع أقوالي... فإذا كنتم حقاً رجالاً حكماء وأنوار العالم فاحترسوا لئلا تأثموا في حق العدالة. أما أنا فلست إلا إنساناً ضعيفاً، وحياتي ليست بذات أهمية، وعندما أحذركم من النطق بحكم جائر فإني أراعي مصلحتكم أكثر مما أراعي مصلحتي » (٣٥).

أخيراً أُجيب إلى طلبه، وأمام القضاة جثا جيروم وصلى طالباً من روح الله أن يضبط أفكاره وأقواله حتى لا يتكلم كلاماً مناقضاً للحق أو غير جدير بكرامة سيده. وقد تم له وعد الرب للتلاميذ الأولين إذ قال لهم يسوع: « وَتُسَاقُونَ أَمَامَ وُلاَةِ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي... فَمَتَى أَسْلَمُوكُمْ فَلَا تَهْتَمُّوا كَيْفَ أَوْ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ، لِأَنَّكُمْ تُعْطَوْنَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَا تَتَكَلَّمُونَ بِهِ، لِأَنَّ لِسْتُمْ أَنْتُمْ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ رُوحُ أَبِيكُمْ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيكُمْ » (متى ١٠: ١٨-٢٠).

دفاعه الجريء

أثار كلام جيروم الدهشة والإعجاب حتى في نفوس أعدائه. لقد ظل عاما كاملاً محبوساً في سجن مظلم وهو عاجز عن أن يقرأ أو يرى شيئاً، وتعرّضَ لآلام جسمية مبرحة وجزع عقلي. ومع ذلك فقد قدم حججه بوضوح وقوة عظيمين كما لو كان أشبعها درسا. ووجه أفكار سامعيه إلى الصف الطويل من الرجال القديسين الذين دانهم قضاة ظالمون. ففي كل جيل تقريبا وجد أناس كانوا يحاولون أن يرفعوا من شأن أمتهم ومع ذلك فقد عُيروا وطُردوا، ولكن بعد ذلك بزمان طويل اتضح أنهم جديرون بالكرامة. والمسيح نفسه حُكم عليه كفاعل شر أمام محكمة ظالمة.

إن جيروم عندما تخاذل من قبل بدا كأنه صادق على عدالة الحكم بإدانة هس، أما الآن فقد جاهر بأنه نادم على ما قال وشهد ببراءة ذلك الشهيد وقداسته فقال: « لقد عرفته منذ طفولته. وقد كان رجلا فاضلا وعادلا وقديسا، وحُكم عليه بالموت على رغم براءته... وأنا أيضاً مستعد للموت ولن أتراجع أو أنكمش أمام العذابات التي قد أعدها لي أعدائي وشهود الزور الذين سيقدمون حسابا يوما ما عن ادعاءاتهم أمام الله العظيم الذي لا يمكن أن يُخدع » (٣٦).

وجعل جيروم يلوم نفسه على إنكاره الحق، فاستأنف كلامه قائلا: « من بين كل الخطايا التي قد ارتكبتها منذ شبابي لا توجد خطية تضغط بثقلها على وجداني وتسبب لي ندامة أليمة كهذه الخطيئة التي ارتكبتها في هذا المكان المشؤوم عندما وافقت على الحكم الجائر ضد ويكلف وجون هس، الشهيد القديس معلمي وصديقي. نعم! إنني أعترف من أعماق قلبي وأعلن برعب عظيم أنني قد جنبت جبنا مشينا عندما حكمت ظلما على تعاليمهما مدفوعا بدافع الخوف من الموت. لأجل ذلك أنا أتوسل... إلى الله القدير أن يتعطف عليّ ويغفر خطاياي وعلى الخصوص هذه الخطيئة التي هي أفظعها جميعا ». ثم أشار إلى قضاته وقال لهم بكل ثبات: « لقد حكمتكم على ويكلف وعلى جون هس لا لأنهم زعزعا عقيدة الكنيسة بل لأنهم وصما بوصمة العار الفضائح التي ارتكبتها رجال الإكليروس: ترفعهم وتنعمهم وكبرياءهم وكل رذائل الأساقفة والكهنة. فما أكده من الحقائق التي لا تُنقض، أجاريهما فيه وأعلن ما قد أعلنه ».

قوطعت أقواله، وارتجف الأساقفة من شدة الحنق والسخط وصاحوا قائلين: « ما حاجتنا بعد كل هذا إلى برهان جديد؟ ها نحن نرى بعيوننا أشد الهراطقة عنادا ماثلا أمامنا؟ »

فإذ لم تكن تلك العاصفة لتؤثر فيه صاح جيروم قائلا: « ماذا! أتظنون أنني أخاف الموت؟ لقد حبستموني سنة كاملة في سجن مخيف هو أروع من الموت نفسه. ولقد قسوتكم في معاملتي أكثر مما لو كنت تركيا أو يهوديا أو وثنيا. ولقد بلي لحيي بالمعنى الحرفي وتساقط عن عظامي وأنا على قيد الحياة. مع ذلك فأنا لا أشكو لأن النوح والعيول غير لائقين برجل ذي قلب وروح. ولكن لا يسعني إلا أن أبدي دهشتي من مثل هذه الوحشية التي بها تعاملون إنسانا مسيحيا » (٣٧).

يساق إلى السجن والموت

ومرة أخرى ثارت عاصفة الغضب ثم أُسرعوا بإعادة جيروم إلى السجن. ومع ذلك فلقد كان بين أولئك المجتمعين قوم تأثروا من كلامه تأثرا عميقا فحاولوا إنقاذه. وقد زاره بعض أحرار الكنيسة الذين

الحواء عليه في الخضوع للمجمع. وقُدِّمت أعذب الأمانى وأحلاها جزاء له على تنازله عن مقاومة روما. ولكن كما تصرف المسيح معلمه عندما أهدي إليه مجد العالم ظل جيروم ثابتاً. قال لهم: « برهنوا لي من الكتب المقدسة على أنني مخطئ وأنا أجد ما قد صرحت به ». فصاح أحد الذين جاؤوا يجربونه قائلاً: « هل الكتب المقدسة هي إذاً ما يجب أن يقاس به كل أمر؟ من ذا الذي يستطيع أن يفهمها قبل أن تفسرها الكنيسة؟ ». أجاب جيروم قائلاً: « وهل تعاليم الناس أحق بالإيمان من إنجيل مخلصنا؟ أن بولس لم يوص من كتب إليهم بأن يصغوا إلى تقاليد الناس بل قال: فتشوا الكتب ». فجاءه الجواب يقول: « أيها الهرطوقي! إني نادم لأنني تحاججت معك هذا الوقت الطويل. وأنا أرى أنك مسوق بقوة الشيطان » (٣٨).

وبعد قليل صدر حكم الإدانة عليه فأخذوه إلى المكان نفسه الذي فيه أسلم هس روحه. فإذا كان سائراً إلى ساحة الموت كان يسبح الله، وقد أشرق على محياه نور الفرح والسلام. وثبت نظره في المسيح، وما عاد الموت مرعباً في نظره. وعندما خطا الجلاد من خلفه وهو موشك أن يشعل النار صاح الشهيد قائلاً: « تقدم إلى الأمام بشجاعة وأشعل النار أمام وجهي. فلو كنت خائفاً لما أتيت إلى هنا ».

وكان آخر ما قاله عندما أُشعلت النار وامتدت إليه السنة اللهيبة صلاة قال فيها: « يا ربي وأبي القدير ارحمني واغفر خطاياي لأنك تعلم أنني قد أحببت حقك دائماً » (٣٩). وبعد ذلك ما عاد صوته يُسمع إنما كانت شفاته تتحركان بالصلاة. وعندما أتت عليه النار جُمع رماده والتراب الذي كان تحته وألقي في نهر الرين كما قد حدث لهس.

وهكذا مات ذاك الرجلان الأمينان حاملاً نور الله. لكن نور الحق الذي أعلنناه، نور مثالهما وبطولتهما، لا يمكن إخفاؤه. فإذا كان يسهل على الناس أن يرجعوا الشمس في مسيرها فإنهم يستطيعون أن يحولوا دون بزوغ نور ذلك النهار الذي بدأ منذ ذلك الحين ينفجر مشرقاً على العالم.

الحرب في بوهيميا

كان إعدام هس قد أضرم نار غضب ورعب عظيم في بوهيميا. لقد أحست الأمة كلها أنه سقط فريسة حقد الكهنة وغدر الإمبراطور. وقد أعلن أنه كان معلماً أميناً للحق، وأنهم المجمع الذي حكم بموته بارتكاب جريمة قتل. لكن تعاليمه اجتذبت اهتماماً أعظم من كل ما حدث من قبل. وبناء على مراسيم أصدرها البابا كان قد حُكم بحرق مؤلفات ويكلف، لكن المؤلفات التي هُربت ونجت من النار أخرجت من مخابئها ودرست مع الكتب المقدسة أو بعض أجزائه التي استطاع الناس الحصول عليها، وكثيرون اعتنقوا الإيمان المصلح.

لكن قاتلي هس لم يستطيعوا أن يقفوا هادئين مكتوفي الأيدي وهم يرون انتصار دعوته. لقد اتحد البابا مع الإمبراطور على سحق تلك الحركة فهجمت جيوش سجموند على بوهيميا. لكن الرب أقام مخلصاً يدعى زسكا، أصيب بالعمى عند بدء الحرب ومع ذلك كان من أقدر قواد

عصره. وقد صار قائدا لجيش بوهيميا. فإذ استند ذلك الشعب إلى معونة الله وعدالة قضيتهم ثبتوا أمام أقوى الجيوش التي جُرِّدت ضدهم، ومرارا وتكرارا عبأ الإمبراطور جيوشا جديدة وغزا بوهيميا، وفي كل مرة كان يُصد صدا مشينا. كان أتباع هس قد ارتفعوا فوق مستوى الخوف من الموت، فلم يستطع أي جيش أن يصمد أمامهم. وبعد بدء الحرب بسنين قليلة مات زسكا الشجاع فخلفه بروكوبيوس وكان مثله قائدا شجاعا محنكا، بل كان أقدر منه في بعض النواحي.

وإذ علم أعداء شعب بوهيميا أن قائدهم الأعمى مات ظنوا أن الفرصة مؤاتية لاسترداد كل ما خسروه. حينئذ أعلن البابا حربا صليبية ضد أتباع هس، ومرة أخرى جُرد جيش على بوهيميا فمُنِي بهزيمة ساحقة. ثم أعلن عن تجريد حملة أخرى وجمع من كل الممالك الخاضعة لسلطان البابا في أوروبا الرجال والأموال والذخيرة الحربية. وتقاطرت جماهير كثيرة من الرجال واحتشدوا تحت راية البابا وهم واثقون أنهم في النهاية سيقطعون دابر أتباع هس الهراطقة. اقترب الجيشان ولم يكن يفصل واحدهما عن الآخر غير نهر. « كان الصليبيون يفوقون أعداءهم عدداً وقوة ولكن بدلا من أن يعبروا النهر ويهجموا عليهم وقفوا يرنون صامتين إلى أولئك المحاربين » (٤٠)، حينئذ وقع على جيش الغزاة رعب غامض، ومن دون أن يضربوا ضربة واحدة انكسر ذلك الجيش العظيم وتشتت شملهم كما لو أن قوة غير منظورة طردتهم. وقتل جيش هس عددا كبيرا منهم، ثم طاردوا الهاربين ووقعت في أيدي أولئك المنتصرين غنائم كثيرة، حتى أن الحرب لم تؤد بهم إلى الفقر بل أغنتهم غنى جزيلا.

وبعد سنين قليلة قام بابا جديد وجرد عليهم حملة أخرى من المشاة. وكما حدث في المرة السالفة جمعت الذخائر والأموال من كل الممالك الأوروبية الخاضعة لحكم البابا. وكانت الإغراءات المعروضة على من رغبوا في دخول تلك الحرب الخطرة عظيمة. فلقد عُرض تأكيد بغفران أفضع الخطايا التي ارتكبتها الصليبيون، كما قُطع وعد بجزاء صالح عظيم في السماء لمن يموتون في تلك الحرب، ومن يبقون أحياء كانوا سيحصلون على الكرامة والغنى في ساحة القتال. ومرة أخرى حُشد جيش عظيم، وإذ عبروا الحدود دخلوا بوهيميا. تراجعت أمامهم جيوش هس انكسارا، وهكذا اجتذبوا الغزاة إلى عمق البلاد بحيث جعلوهم يعتقدون أنهم قد أحرزوا النصر. أخيرا وقف جيش بروكوبيوس ثابتا في مكانه، وإذ ارتدوا إلى العدو تقدموا ليلتحموا معهم في القتال. ولما اكتشف الصليبيون خطأهم ظلوا في معسكرهم ينتظرون الهجوم. وعندما سمع صوت الجيش الزاحف، بل قبل أن يروه، وقع رعب عظيم على الصليبيين. وإذا بالأمرء والقواد والجنود العاديين يُلقون أسلحتهم ويفرون هاربين في كل اتجاه. وعبثا حاول القاصد الرسولي الذي كان قائدا للغزاة أن يلم شمل الجيش المرتعب الذي شمله الارتباك والفوضى. وعلى رغم الجهود العظيمة التي بذلها انجرف هو أيضاً مع جموع الهاربين. فكانت الهزيمة ماحقة، ومرة أخرى جمع المنتصرون غنائم وافرة.

وهكذا ففي المرة الثانية إذ خرج جيش عظيم من أقوى دول أوروبا، جيش من الرجال المحاربين المدربين على استخدام الأسلحة في القتال، هربوا من دون أن يضربوا ضربة واحدة أمام الجيش الصغير المدافع عن تلك الدولة الضعيفة. هنا ظهرت قدرة الله. لقد أصاب الغزاة رعبٌ عظيم فائق الطبيعة. فذاك الذي طرح جيوش فرعون في بحر سوف، والذي هزم جيوش مديان أمام جدعون

ورجاله الثلاث مئة، والذي في ليلة واحدة قتل كل رجال جيوش ملك آشور المتكبر، مدَّ يده مرة أخرى ليضعف قوة الطغاة الظالمين. « هُنَاكَ خَافُوا خَوْفًا، وَلَمْ يَكُنْ خَوْفٌ، لَأَنَّ اللَّهَ قَدْ بَدَّدَ عِظَامَ مُحَاصِرِكَ. أَخْرَجْتَهُمْ لَأَنَّ اللَّهَ قَدْ رَفَضَهُمْ » (مزمور ٥٣: ٥).

اللجوء إلى الطرق الدبلوماسية

لما يُؤس القواد البابويون من الغلبة لجأوا إلى الحيلة والسياسة، فعقدوا صلحا بحيث أقرروا منح شعب بوهيميا حرية الضمير لقاء ترك حق القرار في يد روما. وقد قدم شعب بوهيميا أربعة شروط للصلح مع روما وهي: حرية الكرازة بِالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، حق كل أعضاء الكنيسة في الخبز والخمر في المائدة السماوية، استخدام اللغة الوطنية في العبادة، واعتزال كل رجال الإكليروس الوظائف والسلطات المدنية، ومتى ارتكب أحدهم جريمة فالسلطة الشرعية للمحاكم المدنية هي التي تحكم على الإكليروس والعلمانيين على حد سواء. وقد « قبلت السلطات البابوية أخيرا شروط اتباع هس الأربعة، ولكن مع حصر حق إيضاها وتفسيرها بالمجمع، أي بالبابا والإمبراطور » (٤١). وعلى هذا الأساس عقدوا المعاهدة فكسبت روما عن طريق النفاق والمخاتلة ما عجزت عن إحرازه بالحرب، لأنها إذ أقامت نفسها مفسرة لشروط اتباع هس وللكتاب استطاعت تحويل معناها لخدمة أغراضها. وإذ رأت جماعة كبيرة في بوهيميا أن ذلك الاتفاق قد غدر بحرياتهم رفضوا قبول المعاهدة، فحدثت خصومات ووقعت انقسامات أدت إلى المنازعات وسفك الدماء بين أبناء الشعب الواحد. وفي ذلك النزاع سقط القائد بروكوبيوس النبيل ومات، وبذلك اندثرت حريات بوهيميا. وصار سبجسموند الذي سلّم هس وجيروم إلى الموت ملكا على بوهيميا الآن، وعلى رغم القسم الذي أخذه على نفسه بأن يحمي حقوق شعب بوهيميا فقد تقدم لنشر البابوية. لكنه لم يربح كثيرا من وراء تعلقه بروما، فلقد عاش حياة التعب المحفوفة بالأخطار مدى عشرين عاما. وضاعت جيوشه وابتلعت أمواله وأقفر خزائنه في حرب طويلة بلا جدوى. والآن بعدما ملك سنة واحدة مات تاركا مملكته على شفا حرب أهلية، وقد أورث نسله اسما مجللا بوصمة العار. وطال أمد الفتن والشغب والمنازعات وسفك الدماء. ومرة أخرى غزت جيوش الغرباء بوهيميا، وطال أمد المنازعات والخصومات الداخلية فارتبكت الأمة. والذين بقوا أمناء للإنجيل حلت بهم اضطهادات دامية.

قيام كنيسة مميزة

ولأن إخوتهم الداخلين في معاهدة مع روما تسببوا بترسيخ ضلالاتها في البلاد، فأولئك الذين ظلوا متمسكين بالإيمان القديم نظموا أنفسهم في كنيسة خاصة وأطلقوا على أنفسهم اسم « الأخوة المتحدين ». ومع أن هذا التصرف انزل عليهم لعنة كل الطبقات فقد ظلوا ثابتين ولم يتزعزعوا. وإذ أرغموا على أن يبحثوا لأنفسهم عن ملجأ في الغابات والكهوف ظلوا مواظبين على اجتماعاتهم لقراءة كلمة الله والاتحاد والاشتراك في العبادة.

وبواسطة رسل أوفدوهم سرا إلى بلدان مختلفة علموا أنه يوجد هنا وهناك « جماعات منعزلة

تعترف بالحق، جماعة قليلة في هذه المدينة، وأخرى في غيرها، وأن الجميع مستهدفون مثلهم للاضطهاد. كما علموا أنه توجد في جبال الألب كنيسة قديمة مبنية على أساس الكتاب المقدس وتحتج على المفاسد الوثنية المتفشية في روما « (٤٢). فاستقبلوا هذا النبأ بفرح عظيم. وبدأ اتصال بينهم وبين المسيحيين الولدنسيين.

انتظار بزوغ الفجر

وإذ ظل أولئك البوهيميون ثابتين على حق الإنجيل انتظروا طوال ليل الاضطهاد، وفي أحلك الساعات، اتجهوا بأنظارهم صوب الأفق كمن يراقبون الصبح. « لقد وقع نصيبهم في أيام شريرة... ولكنهم ذكروا الأقوال التي كان هس أول من نطق بها ورددها جيروم، من أنه ينبغي أن يمر قرن كامل قبل أن يیزغ نور النهار. وكانت هذه الأقوال بالنسبة إلى التابوريين « (أتباع هس)، بمثابة ما قاله يوسف للأسباط في بيت العبودية: « الله سَيَفْتَقِدُكُمْ فَتُصْعِدُونَ عِظَامِي مِنْ هُنَا » (٤٣) (تكوين ٥٠: ٢٥). « هذا، وأن الحقبة التي جاءت في ختام القرن الخامس عشر شهدت زيادة عدد كنائس الإخوة، وإن يكن ببطء. ومع أنه كانت تأتيهم مناوشات ومضايقات فقد كانوا يتمتعون براحة نسبية. وعندما بدأ القرن السادس عشر بلغ عدد الكنائس في بوهيميا ومورافيا مائتي كنيسة (٤٤). « وكانت البقية التي بقيت ونجت من الهلاك ومن هول النار والسيوف عظيمة ومنتقاة، كما كان من نصيبهم أن يبصروا فجر ذلك اليوم الذي. كان هس قد أنبأ به « (٤٥).

٧ - انفصال لوثر عن روما

يقف لوثر في مقدمة من دعوا إلى إخراج الكنيسة من ظلمة البابوية إلى نور إيمان انقى. كان رجلا غيوراً متحمساً متعبدا لا يعرف خشية الناس بل يخاف الله، ولا يعترف بأساس آخر للإيمان والعقيدة الدينية غير أَلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، كان رجل عصره، وعن طريقه أتم الله عملا عظيما لإصلاح الكنيسة وإنارة العالم.

وكالبشيرين الأولين الكارزين بالإنجيل برز لوثر من بين أحضان الفقر، عائشا سني طفولته في بيت فلاح ألماني وضيع. وقد كد أبوه وتعب في العمل في المناجم لكي يكفل له تهذيبا لائقا. كان يريد أن يصير ابنه محاميا، لكن الله قصد أن يجعله بناء في الهيكل العظيم الذي كان يرتفع ببطء شديد مدى العصور. كانت المشقات والحرمان والتدريب القاسي هي المدرسة التي فيها أعدت الحكمة اللامتناهية لوثر لرسالة حياته المهمة.

كان والد لوثر رجلاً ثاقب الذهن، قويم الخلق، ثابت العزم، شريفاً ومستقيماً. وكان أميناً لاقتناعه بالواجب مهما تكن النتائج. وقد جعله رشده أن ينظر إلى نظام الرهبنة بكثير من الشك والارتياب، فغضب جدا عندما دخل لوثر الدير من دون رضاه. ومرت سنتان قبل أن يتصالح مع ابنه. وحتى في ذلك الحين ظلت نظرتة إلى الرهبنة كما كانت فلم تتغير.

وقد حرص والدا لوثر حرصا عظيما على تربية أولادهما وتهذيبهم. وحاولا أن يعلماهم معرفة الله وممارسة الفضائل المسيحية. وقد سمع الابن أباه وهو يصلي طالبا أن يذكر ابنه اسم الرب وأن يساعد في يوم من الأيام على نجاح حقه وتقدمه. وكانا تواقين إلى حسن استغلال كل ميزة أدبية أو فكرية أتاحت لهما خلال حياة الكد التي عاشاها. وانصبت جهودهما بجدية ومثابرة على إعداد أولادهما لحياة التقوى والنفع. وكانت صلابتهما وقوة خلقهما تجنحان بهما أحيانا إلى القسوة البالغة. لكن المصلح نفسه، مع شعوره بأن أبويه قد أخطأ في بعض النواحي، وجد في تربيتهما أشياء تستحق المديح أكثر مما تستحق الإدانة والتوبيخ.

عومل لوثر في المدرسة التي أرسل إليها في حادثته بالفظاظة والقسوة. وكان أبواه فقيرين جدا بحيث أنه في ذهابه من البيت إلى المدرسة في بلدة أخرى كان مضطرا أحيانا إلى أن يحصل على طعامه بواسطة الغناء من باب إلى باب، وكثيرا ما كان يحس بالآلام الجوع. والأفكار الدينية الخرافية الكئيبة التي كانت سائدة آنئذ ملأته خوفا، فكان يضطجع في الليل وقلبه مثقل بالحزن وهو ينظر إلى المستقبل المظلم برعب دائم من التفكير في الله كديان عبوس قاسي القلب وطاغية لا يرحم، بدلا من التفكير فيه كالآب السماوي الرحيم.

ومع ذلك فأمام تلك الخيبات الكثيرة والعظيمة تقدم لوثر بعزم صادق صوب التفوق الأخلاقي والعلمي الذي استهوى نفسه. لقد ظمئت نفسه إلى المعرفة، وقاده ذهنه العملي الحاد إلى اشتهاؤ الأمور الثابتة النافعة، لا السطحية الجميلة المظهر.

وعندما التحق بجامعة أرفرت في الثامنة عشرة من عمره كان مركزه مشجعا مؤاتيا وصارت آماله وأمنيته أعظم إشراقا مما كانت في سني الصبا. وإذ جد أبواه واقتصدا استطاعا أن يؤمنا له كل

المساعدة التي كان يحتاج إليها. وقد خفف تأثير الأصدقاء الحكماء قليلا من وقع تربيته العابسة. وعكف على دراسة مؤلفات أقدر الكتاب. وكان بكل اهتمام وجد يختزن في عقله أرجح الآراء، جاعلا حكمة الحكماء تراثا له. وحتى تحت التدريب الصارم الذي تلقاه من معلميه السابقين قدم البرهان في وقت مبكر على امتيازه وتفوقه. وبفضل المؤثرات المؤاتية نما ذهنه بسرعة. هذا، وإن ذاكرته الواعية وخياله النشط وحججه القوية والمثابرة التي لا تكل سرعان ما قفزت به إلى المكانة الأولى بين زملائه. وقد شحذ التدريب العقلي ذكائه وأيقظ نشاطه الذهني وحدة إدراكه. وكان كل ذلك يعده للنضال في المستقبل.

كان قلب لوثر عامرا بخوف الله، وهذا أعانه على الاحتفاظ بثباته في غرضه وقاده إلى الاتضاع العميق أمام الله. وكان في نفسه إحساس دائم بوجود الاعتماد على معونة الله، فلم يهمل أن يبدأ يومه بالصلاة، بينما كان قلبه يخفق دائما بطلب الإرشاد والعون. وكثيراً ما كان يقول: « الصلاة المخلصة لازمة للدرس والتحصيل » (٤٦).

وإذ كان لوثر في أحد الأيام يفحص بعض الكتب في مكتبة الجامعة وجد كتابا مقدسا مكتوبا باللاتينية. ولم يسبق له أن رأى مثل ذلك الكتاب، وكان يجهل تماما حتى مجرد وجوده. كان قد سمع بعض فصول من الإنجيل والرسائل كانت تتلى على الشعب في العبادة العامة، وكان يظن أنها هي كل الكتاب. أما الآن فما هو لأول مرة يرى كل كلام الله بين دفتي كتاب. فبرهبة ممتزجة بالدهشة جعل يقلب صفحات ذلك السفر المقدس. وإذ كانت نبضاته تسرع وقلبه يخفق بدأ يقرأ لنفسه كلام الحياة. كان بين الحين والآخر يتوقف ليصرخ قائلاً: « ليت الله يعطيني هذا الكتاب ليكون ملكي الخاص! » (٤٧). وكان ملائكة السماء واقفين إلى جواره، وانحدرت من عرش الله أشعة من النور لتكشف لعقله كنوز الحق. وكان دائما يخشى أن يغضب الله، أما الآن فإن الاقتناع العميق بأنه خاطئ استولى عليه كما لم يحدث من قبل.

يتوق إلى السلام مع الله

هذا وإن رغبته الحارة في التحرر من الخطيئة والحصول على السلام مع الله قادته أخيرا إلى دخول أحد الأديرة وتكريس نفسه لحياة الرهبنة. وفي ذلك الدير طُلب منه ممارسة أخط ألوان الكدح المذل فيذهب من بيت إلى بيت مستجديا أهل الإحسان. وكان إذ ذاك في سن تجعل الإنسان يتوق إلى الظفر باحترام الناس وتقديرهم. لكن هذه الممارسات الحقيرة كان فيها قدر كبير من الإماتة لمشاعره الطبيعية. وتحمل هذا الإذلال بصبر إذ كان يعتقد أنه ضروري له بسبب خطايا.

كان ينفق في الدرس كل لحظة تتاح له بعد أداء واجباته اليومية، حارما نفسه النوم بل مستكثرا عليها الدقائق التي كان يقضيها في تناول طعامه البسيط. وكان يفرح بدرس كلمة الله أكثر من فرحه بأي شيء آخر. فقد وجد كتابا مقدسا مربوطا بالسلاسل إلى جدران الدير فكان يذهب إلى هناك كثيرا. وإذ تعمق في نفسه التبكي على الخطيئة اجتهد في الحصول على الغفران والسلام عن طريق أعماله الذاتية. وعاش عيشة غاية في الصرامة، محاولا بواسطة الصوم والصلوات التي كان يتلوها في الليل والجلد الذي كان يفرضه على نفسه أن يقهر شر طبيعته الذي لم تستطع حياة النسك أن تحرره

منه. ولم يتراجع أمام أي تضحية يبلغ بواسطتها إلى طهارة القلب التي قد توقعه مبرراً أمام الله. وقال فيما بعد: « لقد كنت في الحق راهبا تقيا وأتبعته قوانين رهبانيتي بدقة أعجز عن التعبير عنها. ولو أعطي لراهب أن يرث السماء بأعمال النسك التي يمارسها لكان لي الحق في امتلاكها ... ولو استمرت على ذلك مدة أطول لأودى بي قمع الجسد وإذلال النفس إلى الموت » (٤٨). وكان من نتائج هذا النظام المؤلم أن خارت قواه وقاسى كثيرا من جراء تشنجات إغمائية لم يشف منها شفاء كاملاً. ولكن مع كل تلك الجهود لم تجد نفسه المثقلة راحة. وأخيرا انساق إلى حافة اليأس.

عندما بدا للوثر أن كل أمله قد ضاع دبر له الله صديقا ومعينا. ذلك أن ستوبتز التقي فتح ذهن لوثر أمام كلمة الله وأمره بأن يحول نظره بعيدا من نفسه ويترك التفكير في القصاص الأبدي لأجل انتهاك شريعة الله وينظر إلى يسوع المخلص غافر الخطايا. ثم قال له: « بدلا من تعذيب نفسك لأجل خطاياك ألق بنفسك بين ذراعي الفادي. ثق به، في بر حياته وكفارته وموته... اصغ إلى ابن الله. لقد صار إنسانا ليمنحك يقين الرضى الإلهي ». « أحب ذاك الذي أحبك قبلًا » (٤٩). هكذا تكلم رسول الرحمة ذاك فآثر كلامه في عقل لوثر تأثيرا عميقا. فبعد مصارعات كثيرة وطويلة مع أخطائه التي احتضنها طويلا استطاع فهم الحق، فحل السلام في نفسه المضطربة.

أستاذ في الجامعة

كان لوثر قد سيم كاهنا ودُعي للخروج من الدير ليكون أستاذا في جامعة وتنبرك. وهناك عكف على دراسة الكتاب المقدس في لغاته الأصلية. ثم بدأ يلقي محاضرات عن الكتاب المقدس. وشرح سفر المزامير والأنجيل والرسائل لجمهير الناس الذين كانوا يستمعون إليه بسرور وشغف، وقد ألح عليه ستوبتز صديقه ورئيسه أن يعتلي المنبر ويعظ بكلمة الله. لكن لوثر تردد شاعرا في نفسه بعدم استحقاقه مخاطبة الشعب نيابة عن المسيح. ولكن بعد صراع طويل خضع واستجاب لتوسلات أصدقائه. كان قد صار مقتدرا في الكتب واستقرت عليه نعمة الله. وقد أسرت فصاحته قلوب سامعيه. وكان الوضوح والقوة اللذان بهما قدم الحق كافيين لإقناع العقول، فلمست غيرته قلوبهم.

كان لوثر لا يزال ابنا آمينا للكنيسة البابوية، ولم يكن يفكر في أن يكون غير ذلك. وقد رتبت له عناية الله أن يزور روما. وتابع رحلته سائرا على قدميه. وكان يبيت في الأديرة التي كانت في طريقه. وفي أحد أديرة إيطاليا شاهد من مظاهر الثراء العظيم والفخامة والترف ما جعله يمتلئ دهشة. فإذا كان الرهبان يحصلون على إيراد من الأمراء كانوا يسكنون غرفا فخمة ويرتدون أغلى الحلل وأجملها ويأكلون أشهى الأطعمة من الموائد الحافلة بأفخر طعام. فاستبدت الهواجس المؤلمة بنفس لوثر وجعل يقارن بين هذا المنظر وإنكار الذات والمشقات التي واجهها في حياته، فارتبك عقله.

على درج بيلاطس

أخيراً رأى من بُعد المدينة المبنية على سبع تلال. فانطرح على الأرض هاتفاً بانفعال عميق: « يا روما المقدسة، أني أحييك » (٥٠). ثم دخل المدينة وبدأ يزور الكنائس وكان يصغي إلى القصص العجيبة التي كان يرددها الكهنة والرهبان، ثم قام بممارسة الطقوس المفروضة. وأينما ذهب كان يرى

المناظر التي ملأته دهشة ورعباً إذ رأى الإثم متفشياً بين كل طبقات الإكليروس، وسمع من الأساقفة نكاتاً بذيئة فامتلات نفسه رعباً إذ رأى نجاستهم حتى في أثناء إقامة القداس. وإذا اختلط بالرهبان والشعب رأى الإسراف والدعارة. وأينما اتجه وجد النجاسة في موضع القداسة. وقد كتب يقول: « لا يستطيع أحد أن يتصور مقدار شناعة الأمور المخجلة التي تُرتكب في روما، ولا يصدق بوجودها إلا من رآوها بأعينهم. وقد صار أمراً عادياً أن يقول الناس: إذ كان هنالك جحيم فإن روما مبنية فوقها. إنها بؤرة تخرج منها كل الخطايا » (٥١).

وكان قد صدر مرسوم بابوي بمنح الغفران لكل من يصعدون « سلم بيلاطس » على ركبهم، تلك السلم التي قيل أن المخلص نزل درجاتها عندما خرج من دار الولاية الروماني، وأنها قد نُقلت من أورشليم إلى روما بمعجزة. وفي أحد الأيام كان لوثر يرقى درجاتها بخشوع، وفجأة دوى صوت كالرعد بدا كأنه يقول: « أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا » (رومية ١: ١٧). فنهض على قدميه وأسرع خارجاً من ذلك المكان في خزي ورعب. ولم تفقد تلك الآلة قوتها أو سلطانها على نفسه أبداً. ومن ذلك الحين رأى بكل جلاء، أكثر مما سبق له أن رأى، ضلالة الإركان إلى الأعمال البشرية لأجل الخلاص، ولزوم الإيمان الدائم باستحقاقات المسيح. لقد انفتحت عيناه ولم تغلقاً أبداً بعد ذلك على تضليل خدع البابوية. وعندما حوّل وجهه بعيداً عن روما حول قلبه كذلك عنها، ومنذ ذلك الحين زاد الانفصال اتساعاً إلى أن انفصمت وقُطعت كل علاقة له بالكنيسة البابوية.

بعدما عاد لوثر من روما حصل من جامعة وتنبرك على درجة دكتوراه في اللاهوت. والآن صارت له الحرية في أن يكرس نفسه للكتاب المقدس الذي أحبه تكريساً أشد من ذي قبل. لقد أخذ على نفسه عهداً مقدساً بأن يدرس بعناية كلمة الله ويبشر بأمانة بها لا بأقوال البابوات وتعاليمهم، وأن يفعل ذلك مدى أيام حياته. فلم يعد مجرد راهب أو أستاذ بل الناطق المفوض باسم الكتاب. وكراع دُعي إلى إطعام القطيع إذ كانت تلك الخراف جائعة وظامئة إلى الحق. وقد أعلن بكل ثبات أن على المسيحيين ألا يقبلوا تعاليم لا تستند إلى سلطان الكتب المقدسة. وكانت هذه الأقوال ضربة أصابت سيادة البابا، واشتملت على مبدأ الإصلاح.

رأى لوثر خطر تعظيم النظريات البشرية فوق كلمة الله. ومن دون خوف هاجم النظريات الإلحادية التي يعتنقها ويعلم بها رجال التعليم. وقاوم الفلسفة والعلوم اللاهوتية التي ظلت مسيطرة على الشعب طويلاً. وفضح مقولاتهما التي كانت وبيلة في تأثيرها، فضلاً عن تفاقتها وعدم جدواها. وحاول أن يحول عقول سامعيه عن مغالطات الفلاسفة واللاهوتيين إلى الحقائق الأبدية المدونة في كتب الأنبياء والرسل.

كانت الرسالة التي أبلغها إلى الجموع المتلهفة المتعلقة بأقواله ثمينة ومحبية. لم يسبق لهم أن سمعوا مثل تلك التعاليم. إن بشرى محبة المخلص وبقين الغفران والسلام بدمه المكفر ملأت قلوبهم فرحاً وألهمتهم رجاءً أبدياً. لقد أشعل في وتنبرك نوراً كان مقدراً له أن يمتد إلى أقصى الأرض ويزيد لمعاناً إلى انقضاء الدهر.

لكنّ النور والظلمة لا ينسجمان، فبين الحق والضلال تشتعل فتيل حرب لا يمكن السيطرة عليها.

وإن رفع إنسان راية أحدهما ودافع عنه فلا بد أن يهاجم الآخر ويهدمه. ولقد أعلن مخلصنا نفسه قائلاً: « مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلَامًا بَلْ سَيْفًا » (متى ١٠: ٣٤). وقال لوثر بعد بدء الإصلاح بسنين قليلة: « إن الله لا يقودني بل يدفعني إلى الأمام. إنه يحملني بعيدا. فأنا لست سيد نفسي. أنا أحب أن أعيش في راحة وسكون، ولكنه قد ألقي بي في وسط الشغب والضوضاء والثورات » (٥٢). وكان مقيضاً له وقتئذ أن يُزج به في وسط المعركة.

تنزل وصكوك الغفران

كانت كنيسة روما تتجرّ بنعمة الله. لقد وُضعت موائد الصيارفة (متى ٢١: ١٢) في جوار مذابحها، وكانت تتردد في أماكن العبادة صرخات من كانوا يشترون ويبيعون، وكانت صكوك الغفران تُعرض للبيع جهارا بسلطان بابا روما بحجة جمع الأموال لبناء كنيسة القديس بطرس في روما. بضمن الجرائم كان سيقام هيكل لعبادة الله، وكان حجر الزاوية سيوضع بأجرة الإثم، لكن الوسائل نفسها المستخدمة لتعظيم روما كانت فيها الضربة القاضية على سلطانها وعظمتها. هذا ما أهاج ضد البابوية ألد أعدائها إصرارا وأعظمهم نجاحا، وأدى إلى الحروب التي هزت العرش البابوي والتاج المثلث الموضوع على رأس البابا.

كان الموظف المكلف بيع صكوك الغفران في ألمانيا، وأسمه تنزل، متهما بأحط أنواع الجرائم ضد المجتمع وشريعة الله. ولكن بما أنه قد نجا من القصاص الذي كان يستحقه بسبب جرائمه استخدم في ترويج المشاريع التجارية السالفة من قبل البابا. فبكل جرأة ووقاحة جعل يردد أعظم الأكاذيب الخلافة ويقص القصص العجيبة ليخدع ذلك الشعب الجاهل الساذج المتمسك بالخرافات. فلو كانت في حوزتهم كلمة الله لما استطاع أن يخدعهم أحد. ولكن أخذ منهم الكتاب المقدس وحرمو منه ليظلوا خاضعين للسيادة البابوية فتزید قوة رؤسائها وتتضاعف ثروتهم (٥٣).

كان تنزل يدخل المدن وقد تقدمه رسول يعلن قائلا: « ها نعمة الله والبابا المقدس أمام أبوابكم » (٥٤). ورحب الناس بذلك المدعي المجدف كما لو كان هو الله نفسه نزل إليهم من السماء. وقد أقيمت تلك التجارة الشائنة في الكنيسة. فإذا أعتلى تنزل المنبر جعل يمتدح صكوك الغفران على أنها عطايا الله. وأعلن أنه بفضل شهادات الغفران التي معه تُغفر لمن يشتريها كل الخطايا التي يرغب في ارتكابها مستقبلا، وأنه « حتى التوبة لا لزوم لها » (٥٥). وأكثر من هذا فقد أكد لسامعيه أن لصكوك الغفران قوة لا لغفران خطايا الأحياء وحسب بل أيضاً خطايا الموتى، وأنه حالما ترن النغود في الصندوق تتحرر النفس التي قُدمت لأجلها من عذابات المطهر وتنطلق إلى السماء (٥٦).

الألوف تقبل دعوة تنزل

عندما أعطى سيمون الساحر الرسل أموالا ليشتري منهم القوة على إجراء المعجزات قال له بطرس: « لَتَكُنْ فَضْتُكَ مَعَكَ لِلْهَلَاكِ لِأَنَّكَ ظَنَنْتَ أَنَّ تَقْتَنِي مَوْهَبَةُ اللَّهِ بِدَرَاهِمٍ! » (أعمال ٨: ٢٠). لكن آلافا من الناس المتلهفين تمسكوا بعرض تنزل هذا، فكان سيل من الذهب والفضة يتدفق إلى خزائنه. إن الخلاص الذي يمكن شراؤه بالمال أسهل من ذاك الذي يتطلب التوبة والإيمان والمجاهدة في مقاومة

الخطيئة والانتصار عليها (انظر التذييل).

ولقد قاوم رجال العلم والتقوى تعليم الغفران هذا في الكنيسة الرومانية، كما وجد كثيرون ممن كانوا لا يؤمنون بالادعاءات التي لا يقرها العقل أو الوحي الإلهي. ولكن لم يكن هنالك أسقف واحد لديه الجرأة الكافية التي تجعله يرفع صوته محتجا على تلك التجارة الآثمة. غير أن عقول الناس كان يساورها الاضطراب وعدم الاطمئنان. وقد بدأ كثيرون يتساءلون في لهفة وشوق عما إذا لم يكن الله عازما على أن يستخدم إنسانا كوسيلة لتطهير كنيسته.

ومع أن لوثر كان ما يزال من أكثر المتعصبين للبابوية، فقد امتلأ رعبا من الادعاءات التجديفية التي تنطوي عليها المتاجرة بصكوك الغفران. كان كثيرون من المواظبين على سماع عظاته قد اشتروا بعض تلك الصكوك. وسرعان ما عادوا إلى راعيهم معترفين بخطاياهم المتعددة. وكانوا ينتظرون الغفران لا لأنهم قد تابوا أو يرغبون في إصلاح حياتهم بل على أساس صكوك الغفران، فأبى لوثر أن يمنحهم الغفران، وأنذرهم أنهم ما لم يتوبوا ويصلحوا حياتهم فلا بد من هلاكهم في خطاياهم. ففي ارتباك عظيم عادوا إلى تتزل يشتكون رفض كاهن اعترافهم قبول صكوكه، وبعض منهم طلبوا إليه بكل جرأة أن يعيد إليهم نقودهم. فامتلاً الراهب غضبا وجعل يقذف أرهب اللعنات. ثم أمر بإشعال نار في الميادين العامة وأعلن أنه « قد حصل على تفويض من البابا بحرق كل الهراطقة الذين يتجراؤون على مقاومة صكوك الغفران المقدسة التي يبيعها » (٥٧).

بطل من أبطال الحق

باشر لوثر عمله بشجاعة كمدافع عن الحق. وسمّع صوته من المنبر وهو يوجه إلى سامعيه إنذاراً حاراً مقدساً. وقد شرح للشعب أن الخطيئة كريهة جدا، وعلمهم أنه يستحيل على الإنسان بأعماله أن يقلل من جرمها أو يفلت من قصاصها. ولا شيء يخلص الخاطئ غير التوبة إلى الله والإيمان بالمسيح. ونعمة المسيح لا يمكن شراؤها، فهي هبة مجانية. ثم نصح الشعب ألا يشتروا صكوك الغفران بل أن ينظروا بالإيمان إلى الفادي المصلوب. وأخبرهم عن اختبار المؤلم المرير في محاولته الفاشلة الحصول على الخلاص بإذلاله نفسه وأعماله التكفيرية، وأكد لسامعيه أنه قد حصل على السلام والفرح لكونه صرف نظره عن نفسه وآمن بالمسيح.

وإذ ثابر تتزل على تجارته ونشر ادعاءاته الإلحادية عول لوثر على الإقدام على احتجاج أكثر فعالية ضد هذه الفضائح الصارخة وقد عرضت لذلك فرصة مؤاتية وسريعة. كانت توجد في كنيسة القلعة في وتنبرك كثير من الذخائر التي كانت تعرض على الشعب في بعض الأيام المقدسة الخاصة، وكان يُمنح غفران كامل لكل من كانوا يزورون الكنيسة حينئذ ويقدمون اعترافاتهم. ولذلك كان الناس يفدون إليها أفواجا في تلك المناسبات، ومن أهمها عيد « جميع القديسين » الذي كان قد حان مياعده. ففي عشية العيد انضم لوثر إلى تلك الجموع التي كانت في طريقها إلى الكنيسة وألصق على بابها ورقة كتب عليها خمسة وتسعين برهانا ضد صكوك الغفران. وقد أعلن استعداداه لمناقشة كل من يعارض هذه البراهين، ومباحثة كل من يخالفه الرأي في الجامعة في اليوم التالي.

استرعت مقترحاته انتباه الجميع. وقرئت مرارا وتكرارا في كل اتجاه فحدث اهتياج عظيم في الجامعة وفي كل المدينة. وقد برهنت هذه المباحثات أن سلطة غفران الخطيئة والتجاوز عن القصاص لم تُمنح للبابا أو لإنسان آخر. إن ذلك النظام كله حكاية مضحكة وحيلة لابتزاز المال بالتحايل على خرافات الشعب، وهو خدعة شيطانية لإهلاك نفوس كل من يثقون بتلك الادعاءات الكاذبة. وتبرهن بكل وضوح أيضاً أن إنجيل المسيح هو أثمن دُخر في الكنيسة، وأن نعمة الله المعلنة فيه موهوبة مجاناً لكل من يطلبونها بتوبة وإيمان.

رسالته تهز ألمانيا

تحدثت مباحثات لوثر كل جدال فلم يجسر أي إنسان على قبول ذلك التحدي. وفي خلال أيام قليلة انتشرت الأسئلة التي اقترحها في جميع أنحاء ألمانيا، وبعد أسابيع قليلة رنّت في كل العالم المسيحي. وكثيرون من أتباع البابا الأتقياء الذين رأوا الإثم متفشيا في الكنيسة وحزنوا لذلك ولكن لم تكن في يدهم حيلة لدفعه أو وقف تقدمه فرحوا فرحا عظيما بعدما أطلعوا على تلك المقترحات متحققين أن فيها صوت الله. وقد أحسوا بأن الرب في رحمته قد مدّ يده ليوقف ذلك السيل المتدفق من الفساد الخارج من الكرسي البابوي في روما. وفرح الأمراء والحكام في قلوبهم لأن صدمة قوية أصابت ذلك السلطان المتغطرس الذي أنكر على الشعب حق المعارضة أو الاحتجاج على قراراته. أما جموع الناس الذين كانوا يحبون الخطيئة ويؤمنون بالخرافات فقد ارتعبوا إذ رأوا المغالطات التي كانت قد أسكتت مخاوفهم وقد اكتسحت. وأما رجال الإكليروس الماكرون الذين أوقفوا عن عملهم في إباحة ارتكاب الجرائم فإذ رأوا أن أرباحهم مهددة بالخطر تملكهم سخط عظيم، واجتمعوا ليسندوا ادعاءاتهم ويؤيدوها، فكان على ذلك المصلح أن يجابه متهميه وأعداءه الألداء. وقد اتهمه بعضهم بأنه يعمل بدافع العداء وبعض النزعات الأخرى. كما اتهمه آخرون بالغطرسة، وأعلنوا أن الله لم يوجهه بل هو يعمل بدافع الكبرياء والجرأة. فأجاب قائلا: « من ذا الذي لا يعرف أن الإنسان نادرا ما يتقدم برأي جديد من دون أن تظهر عليه بعض مظاهر الكبرياء أو يتهم بأنه يخلق المشاحنات؟ ولماذا مات المسيح وكل الشهداء؟ لأنه بدا وكأنهم قوم متكبرون يحتقرون حكمة زمانهم، وينشرون بدعاً من دون أن يتواضعوا بطلب المشورة من وحي الآراء القديمة ».

ثم أعلن قائلا: « إن كل ما أفعله لن استرشد به حكمة الناس بل مشورة الله، فإن كل العمل عمل الله فمن ذا الذي يستطيع أن يوقفه؟ وإن لم يكن كذلك فمن يستطيع أن يمضي به قُدماً؟ ليكن لا ما أريد أنا ولا ما يريدون هم، لا مشيئتنا بل مشيئتك أنت أيها الأب القدوس الذي في السماء » (٥٨).

محاربات شديدة

ومع أن لوثر كان مسوقا بروح الله ليبدأ عمله فلم يكن ليشرع فيه من دون محاربات شديدة. فتعيبات أعدائه وسوء تصويرهم مقاصده وتعليقاتهم الجائرة الماكرة على أخلاقه وبواعثه انقضت عليه كسيل جارف، ولم تكن عديمة الأثر. لقد كان واثقا بأن قادة الشعب في الكنيسة وفي دور العلم سينضمون إليه في السعي نحو الإصلاح. وكلام التشجيع من الذين كانوا يحتلون مراكز سامية ألهمه

فرحاً ورجاء. كما ألهمه شعوره بأنه سيرى أياماً أصفي وأشد لمعانا يفيض نورها على الكنيسة. فإذا بالتشجيع يستحيل تعبيراً وإدانة. فكثيرون من ذوي المقامات الرفيعة في الكنيسة والدولة اقتنعوا بصدق مباحثه، ولكنهم سرعان ما رأوا أن قبول هذه الحقائق يتطلب تغييرات وانقلابات عظيمة. ذلك أن تنوير الشعب وإصلاحه سيكون في الواقع تقويضاً لسلطان روما وسيوقف الكثير من موارد الثروة التي تتدفق في خزاناتها، وهذا بالطبع سيقول من إسراف الرؤساء البابويين وترفعهم. زد على ذلك أن تعليم الشعب أن يفكروا ويتصرفوا كخلائق مسؤولين، ناظرين إلى المسيح وحده لأجل الخلاص، لا بد أن يطيح عرش البابا، ويقضي في النهاية على سلطته. فلهذه الأسباب رفضوا المعرفة المعطاة لهم من الله واصطفوا ضد المسيح والحق بمقاومتهم الرجل الذي أرسله لإنارتهم.

ارتعب لوثر وهو ينظر إلى نفسه: رجل واحد يتصدى لمقاومة أعظم قوات الأرض. كان أحياناً يشك في ما إذا كان يسير حسب إرشاد الله للتصادم مع سلطة الكنيسة. وقد كتب يقول: « من أكون أنا حتى أقاوم سيادة البابا الذي ترتعد أمامه ملوك الأرض في كل العالم؟ ... ليس من يعرف كم قاسى قلبي وتألّم في أثناء هذين العامين الأولين، ولا مقدار اليأس والقنوط الذي غصت فيه » (٥٩). ولكنه لم يُترك لليأس لتخور عزيمته تماماً. فعندما خذلت المعونة البشرية نظر إلى الله وحده وعلم أنه يستطيع الاستناد إلى ذراعه الكلية القدرة باطمئنان تام.

الكتاب المقدس فقط

وقد كتب لوثر لأحد أصدقاء الإصلاح يقول: « لا يمكننا أن نفهم الكتب المقدسة بالدرس أو بالعقل. إن أول واجب تقوم به هو أن تبدأ بالصلاة. توسل إلى الرب أن يمنحك من فرط رحمته العظيمة الفهم الحقيقي لكلمته. لا يوجد مفسر لكلمة الله غير مؤلفها ومبدعها لأنه هو نفسه قد قال: ويكون الجميع متعلمين من الله. لا تنتظر شيئاً من جهودك الخاصة أو فهمك بل ثق بالله تماماً وتأثير روحه. ثق بهذا بناء على كلمة إنسان مجرب » (٦٠). هنا درس ذو أهمية حيوية للذين يحسون أن الله قد دعاهم ليقدموا إلى الآخرين الحقائق المقدسة في عصرنا هذا. إن هذه الحقائق ستثير عداوة الشيطان والناس الذين يحبون الخرافات التي قد ابتكرها. ففي الصراع مع قوات الشر تدعو الحاجة إلى أكثر من القوة العقلية والحكمة الإنسانية.

عندما لجأ الأعداء إلى العادات والتقاليد أو إلى تصريحات البابا وسلطانه واجههم لوثر بالكتاب من دون سواه. ففي الكتاب حجج لم يستطيعوا الإجابة عنها. ولهذا صرخ عبيد الطقوس والخرافات طالبين سفك دمه كما طلب اليهود سفك دم المسيح. فقد صاح البابويون المتعصبون قائلين: « إنه هرطوقي، إنها خيانة عظمى للكنيسة أن نسمح لهذا الهرطوقي الفظيع أن يعيش ساعة واحدة بعد الآن. فلتنصب له المشنقة في الحال » (٦١). لكن لوثر لم يسقط فريسة غضبهم الجنوني. فلقد أبقى له عملاً يقوم به، وأرسلت ملائكة السماء لحراسته. ومع ذلك فإن كثيرين ممن قبلوا من لوثر النور الثمين صاروا هدفاً لغضب الشيطان، ولأجل الحق احتملوا العذاب والموت بلا خوف.

استرعت تعاليم لوثر اهتمام المفكرين ذوي الأبواب في كل أنحاء ألمانيا. فمن عظاته وكتابات انبثق

النور الذي أيقظ آلاف الناس وأنارهم. لقد بدأ الإيمان الحي يحتل مكان الممارسات الطقسية الميتة التي ظلت الكنيسة متمسكة بها طويلا. وكان الناس يوما بعد يوم يفقدون ثقتهم بخرافات البابوية. وبدأت حواجز التعصب تُنقض وتتلاشى. وكلمة الله التي امتحن بها لوثر كل عقيدة وكل ادعاء كانت تشبه سيفا ذا حدين يشق لنفسه طريقا إلى قلوب الناس. وفي كل مكان استيقظت الرغبة في طلب التقدم الروحي وظهر جوع وعطش إلى البر لم يُر مثلهما منذ أجيال. وعيون الشعب التي ظلت أمدًا طويلا تتجه إلى الطقوس البشرية والوسطاء الأرضيين عانقت الآن المسيح وإياه مصلوباً بقوة وإيمان.

يساق إلى روما

هذا الاهتمام الواسع النطاق أثار مخاوف السلطات البابوية آنذاك فوصل إلى لوثر أمر بالحضور إلى روما لاستجوابه في تهمة الهرطقة. وملأ هذا الأمر قلوب أصدقائه رعبا وهلعاً. لقد عرفوا تماماً هول الخطر الذي يتهدهده في تلك المدينة الفاسدة التي كانت سكرى بدم شهداء يسوع، فعارضوا ذهابه إلى روما وطلبوا أن يتم استجوابه في ألمانيا.

أجيبوا إلى هذا الطلب وعُيِّن القاصد الرسولي ليستمع إلى تلك القضية. وفي التعليمات التي وصلت إليه من البابا تقرّر أن لوثر قد صُنّف في خانة الهرطقة، وقد أوصي نائب البابا بأن « يحاكمه ويقيده من دون تأخير ». وإذ ظل لوثر متشبّثاً برأيه وعجز مبعوث البابا عن القبض عليه شخصياً فقد أعطي السلطان بأن « يحرم لوثر من حماية القانون وأن تصدر أمواله وممتلكاته في أنحاء ألمانيا كافة، وأن يُنفى ويلعن ويُحرم من شركة الكنيسة جميع من لهم به صلة » (٦٢). وأكثر من هذا فقد أوصى البابا رسوله بأن يستأصل تلك الهرطقة الوبائية تماماً، وأن يحرم كل مسؤول في الكنيسة أو الدولة، باستثناء الإمبراطور، بيدي إهمالا في القبض على لوثر وأتباعه وفي تسليمهم إلى انتقام روما.

هنا ظهرت روح البابوية على حقيقتها. أننا لا نرى في هذه الوثيقة أي أثر للمبادئ المسيحية أو حتى للعدالة العادية. لقد كان لوثر بعيداً من روما بعداً قاصياً ولم تُعط له فرصة لإيضاح موقفه أو الدفاع عن نفسه، ومع ذلك فقبل فحص قضيته حُكم عليه إجمالا بالهرطقة، وفي اليوم نفسه أنذر واتهم وحوكم وصدر عليه الحكم وذلك بواسطة الأب الأقدس المتأنق السيد الوحيد والمرجع المعصوم الأوحد للكنيسة والدولة.

ميلانكتون

في هذا الوقت الذي كان فيه لوثر في أشد الحاجة إلى عطف صديق أمين ومشورته أرسلت عناية الله ميلانكتون إلى وتنبرك. كان هذا الإنسان شاباً وديعاً وخجولاً في سلوكه فكسب حكمه الصائب وعلمه الواسع وفصاحته الآسرة، بالإضافة إلى طهارة أخلاقه واستقامته، إعجاب الناس وتقديرهم جميعاً. ولم يكن تألق مواهبه أكثر بروزاً من رقة ميوله ومزاجه. وسرعان ما صار تلميذاً غيوراً جداً للإنجيل وصديق لوثر الموثوق به ومعينه الفعّال. وكانت رفته وحذره ودقته مكملّة لشجاعة لوثر ونشاطه. إن اتحادهما في العمل اضفى على الإصلاح قوة، وهكذا صار ميلانكتون مصدر تشجيع عظيم للوثر.

عينت مدينة أوكسبرك مكانا للمحاكمة، فسار المصلح إليها على قدميه. وقد بدأت المخاوف الجسيمة تتجمع من حوله، وكانت تُسمع تهديدات علنية تقيد بأنه سيُقبض عليه ويُقتل في الطريق، فتوسل إليه أصدقاؤه ألا يتقدم في سيره مخاطرا بحياته، بل استحلفوه بأن يترك وتترك إلى حين ويلجأ إلى من يستطيعون حمايته، لكنه رفض التخلي عن المركز الذي قد وضعه الله فيه. عليه أن يظل أميناً في الدفاع عن الحق على رغم العواصف التي كانت تهب عليه وتصدمه. وهذا ما قاله: «إني أشبه إرميا الذي كان رجل خصام ونزاع. ولكن بقدر ما تزيد تهديداتهم وتتعالى صيحاتهم يتضاعف فرحي... لقد حطموا كرامتي وسمعتي. ولكن بقي شيء واحد وهو جسدي التعس المضمّن، فليأخذه، فإنهم بذلك يقصرون حياتي ساعات قليلة. أما نفسي فلا يستطيعون أن يمسوها. إن من يرغب في إعلان كلمة المسيح للعالم ينبغي له أن ينتظر الموت في كل لحظة» (٦٣).

اغتنب مبعوث البابا اغتباطا عظيما لدى علمه بوصول لوثر إلى أوكسبرك. فذلك الهرطوقي المشاغب الذي قد استرعى انتباه العالم كله بدا الآن وكأنه صار في قبضة يد روما. وقد صمم ذلك السفير على ألا يدعه يفلت. وكان المصلح قد أخفق في الحصول على صك الأمان لنفسه، فألح عليه أصدقاؤه ألا يمثل أمام السفير قبل الحصول على ذلك الصك، وسعوا هم أنفسهم إلى الحصول عليه من الإمبراطور. وقد قصد مبعوث البابا أن يرغم لوثر على التراجع إن أمكن، فإن أخفق في ذلك فسيأمر بحمله إلى روما ليقاسم هس وجيرون مصيرهما، ولذلك حاول عن طريق أعوانه أن يغري لوثر بالمثل أمامه من دون أن يكون معه صك أمان ويسلم نفسه لرحمته. لكن المصلح لم يفعل ذلك فلم يمثل أمام سفير البابا إلا بعد حصوله على وثيقة يلتزم فيها الإمبراطور حمايته.

ومن باب السياسة والحيلة عزم البابويون على أن يحاولوا كسب لوثر بالتظاهر بالرقّة واللفظ نحوه. وتظاهر القاصد الرسولي في حديثه مع لوثر بالود والانعطاف والصدقة نحوه، لكنه أمر لوثر أن يخضع بكل ثقة لسلطان الكنيسة ويسلم في كل نقطة بلا محاجة أو تساؤل. إنه لم يكن يُقدّر الرجل الذي كان يتعامل معه تقديرا صائبا. فأجابه لوثر بقوله أنه يعتبر الكنيسة ويوقرها، وأنه يرغب في الحق، وأنه يريد أن يجيب على كل اعتراض ضد ما قد علّم به، وأن يخضع تعاليمه لحكم بعض الجامعات العظيمة. ولكنه في الوقت نفسه اعترض على تصرف الكردينال إذ طلب منه أن يتراجع من دون أن يبرهن له أنه على ضلال.

يطالبون المصلح بالتراجع

لكنّ الجواب الوحيد كان هذا: «تراجع، تراجع!» أما المصلح فأبان له أنه يستند في موقفه هذا إلى سلطان الكتب المقدسة، وأعلن بكل ثبات أنه لا يستطيع أن يرفض الحق. فإذا لم يستطع ذلك السفير الإجابة على حجج لوثر أمطره بسيل من ألفاظ التعيير والسخرية والمداهنة المحشوة باقتباسات من التقليد وأقوال الآباء، وبذلك لم يعط المصلح فرصة للكلام. فإذا رأى لوثر أنه لو استمر المؤتمر على هذه الحال فسيكون عقيما وقد استطاع أخيرا أن يحصل من السفير على إذن بتقديم جوابه كتابة، وإن يكن على مضض.

كتب لوثر إلى صديق له يقول: « وبهذا العمل يجني المظلوم كسبا مضاعفا: أولا لأن الرسالة المكتوبة يمكن أن يطلع عليها آخرون ليحكموا للكاتب أو عليه، وثانيا لأن الإنسان تكون لديه فرصة أفضل للتأثير على مخاوف طاغية متكبر يهذي ويفضل بالأحرى أن يغلب بكلامه المتعطر، وربما التأثير على ضميره أيضاً » (٦٤).

وفي الاجتماع التالي قدم لوثر تفسيراً واضحاً موجزاً مؤثراً لآرائه، وكان يستند في ذلك إلى اقتباسات كثيرة من كلمة الله. فبعدما قرأ هذه الورقة بصوت عال سلمها إلى الكردينال الذي ألقاها جانباً بكل احتقار معلناً أنها مجموعة أقوال تافهة واقتباسات في غير محلها. وقد ثار لوثر بسبب هذا الكلام وتقدم لمواجهة المبعوث المتكبر في ميدانه، أي تقليد الكنيسة وتعاليمها، فهدم كل ادعاءاته. وعندما رأى السفير أنه قد عجز عن الإجابة على حججه لم يستطع ضبط نفسه، ففي غضب واهتياج صاح قائلاً للوثر: « تراجع وإلا فسأرسلك إلى روما لتمثل هناك أمام القضاة المفوض إليهم الاطلاع على قضيتك. إني لأحرمك وكل مشاييعك وكل مؤيديك ومشجعيك وسأخرجهم من الكنيسة ». وأخيراً أعلن بنعمة متعجرفة غاضبة قائلاً: « تراجع وإلا فلا ترجع ثانية » (٦٥).

انسحب المصلح وأصدقاؤه على الفور، وبذلك أعلن بكل جلاء ألا يُنتظر منه أن يتراجع. ولم يكن الكردينال يرمي إلى ذلك. لقد كان يخدع نفسه أنه بواسطة العنف والقسوة سيُربع لوثر بحيث يخضع. أما الآن وقد تُرك وحده مع مساعديه فقد جعل ينظر إليهم واحداً فواحداً. وقد اغتم غما شديداً لفشل مؤامراته.

ولم تكن جهود لوثر في هذه المناسبة بلا نتائج حسنة. فلقد أتيحت لذلك الجمع الكبير فرصة للمقارنة بين الرجلين، وليحكموا بأنفسهم بشأن الروح التي ظهرت عند كل منهما كما بشأن قوته وصدق موقفه. وكم كان الفارق عظيماً! لقد وقف المصلح البسيط الوضيع الثابت في ملء قوة الله، والحق إلى جانبه. أما ممثل البابا فكان صلفاً معتزاً بنفسه ومتشامخاً وغير واقعي، ولم يقدم حجة واحدة من كلام الله، ومع ذلك ففي حمو غضبه كان يصرخ قائلاً: « تراجع وإلا فسترسل إلى روما لتنال جزاءك ».

الهروب من أوكسبرك

وعلى الرغم من أن لوثر كان بيده صك الأمان فقد كان البابويون يتآمرون للقبض عليه وإيداعه السجن. وتباحث أصدقاؤه معه قائلين إنه من العبث أن يطيل إقامته هناك بل عليه أن يعود إلى وتنبرك بلا إبطاء وأن يلزم جانب الحذر الشديد لإخفاء مقاصده. ولذلك فقد غادر أوكسبرك قبل الفجر ممتطياً صهوة جواد في صحبة دليل قدمه إليه الحاكم. فسار مخترقاً شوارع المدينة المظلمة الساكنة في تكتم شديد وقد اكتنفت نفسه بعض الهواجس. أما الأعداء اليقظون القساة فكانوا يتآمرون لإهلاكه. فهل سيفلت من الأشرار المنصوبة له؟ لقد كانت تلك اللحظات لحظات جزع وصلوات حارة. وقد وصل لوثر إلى باب صغير في سور المدينة فإذ فُتح له خرج منه هو ودليله من دون مانع. فما إن خرجا من المدينة سالمين حتى أسرع ذاك الهاربان يفران بعيداً. وقبلما علم

السفير برجيل غريمه كان لوثر قد ابتعد عن مضطهديه. لقد انهزم الشيطان ورسله إذ أفلت منهم الرجل الذي ظنوا أنه قد وقع في قبضة أيديهم، نجا العصفور من فخ الصياد. وإذا علم مبعوث البابا نبأ هروب لوثر غمرته دهشة وغضب عظيم. لقد كان يظن أنه سيحصل على كرامة عظيمة لأجل حكمته وثباته في معاملة هذا الرجل الذي أزعج سلام الكنيسة، ولكن خاب أمله. وقد عبر عن غضبه في خطاب أرسله إلى فريدريك، منتخب الإمبراطور بالنيابة عن سكسونيا، فيه يتوعد لوثر ويأمر ذلك الحاكم بإرساله إلى روما أو نفيه من سكسونيا. وفي دفاع لوثر عن نفسه طلب أن يريه السفير أو البابا أخطاءه بأدلة من الكتاب المقدس، وأخذ على نفسه عهداً مشدداً بأن يهجر كل تعاليمه متى تبرهن له أنها مناقضة لكلمة الله. وقد شكر الله الذي حسبه أهلاً لأن يتألم من أجل هذه القضية المقدسة.

لم يكن المنتخب يعرف إلا الشيء اليسير من تعاليم الإصلاح تلك، لكنه تأثر تأثراً عميقاً بصدق أقوال لوثر وقوتها ووضوحها. وقد صمم فريدريك على أن يكون حامياً للوثر إلى أن يثبت خطأه. وجواباً على أمر رسول البابا قال: « ما دام الدكتور مارتين قد مثل أمامك في أوكسبرك فيجب أن نكتفي بذلك. أننا لم نكن ننتظر منك أن تحاول حمله على التراجع من دون أن تقنعه بأخطائه. ولم يخبرني أحد من العلماء في كل ولايتنا بأن عقيدة لوثر كفرية أم مضادة للروح والتعاليم المسيحية أو أنها ضلالة ». وفوق ذلك فقد رفض ذلك الأمير أن يرسل لوثر إلى روما أو أن يطرده من ولاياته » (٦٦). لقد رأى ذلك المنتخب أن هنالك انهياراً عاماً في الروادع الأخلاقية في المجتمع. فكانت الحال تستدعي وتتطلب القيام بإصلاح عظيم. فلو اعترف الناس بمطالب الله وإرشاد ضمائرهم المستتيرة وأطاعوها لما كان ثمة حاجة إلى الإجراءات المعقدة لكبح الجرائم ومعاقبة مرتكبيها. وقد رأى أن لوثر كان يجاهد لكي يصل إلى هذه الغاية، وفرح في سره لأن تأثيراً أفضل كان يفرض نفسه في الكنيسة، وقد بدأ الناس يحسون به.

إثارة الاهتمام بالكتاب المقدس

وقد رأى أيضاً أن لوثر كأستاذ في الجامعة كان ناجحاً جداً. لم تكن قد مضت غير سنة واحدة منذ الصق لوثر مباحثه على باب الكنيسة في القلعة، ومع ذلك فقد نقص عدد الحجاج الوافدين عليها في عيد جميع القديسين نقصاً ملحوظاً. لقد حُرمت روما من عابديها وتقدماتهم، لكن مكان هؤلاء قد شغله أناس آخرون وطبقة أخرى جاء أفرادها الآن إلى وتبرك لا كحجاج يمجدون ذخائرها بل كطلاب يملأون قاعات العلم فيها. إن كتابات لوثر ومؤلفاته قد أضرمت في كل مكان اهتماماً بالكتب المقدسة، فتقاطر الطلبة إلى الجامعة لا من ألمانيا وحدها بل من بلدان أخرى. وبعض الشباب إذ أقبلوا على وتبرك لأول مرة « رفعوا أيديهم إلى السماء شكراً لله الذي جعل النور ينبثق من هذه المدينة كما قد انبثق من صهيون في العصور القديمة، ومنها انتشر إلى ابعد الممالك » (٦٧). ولم يكن لوثر إلى ذلك الحين قد رجع عن ضلالات البابوية رجوعاً كاملاً، بل كان رجوعه جزئياً. ولكنه عندما كان يقارن بين الوحي المقدس والمراسيم والقوانين البابوية كان يمتلئ دهشة. وقد

كتب يقول: « إنني الآن ماضٍ في قراءة مراسيم الباباوات... وأنا لا أعلم ما إذا كان البابا هو المسيح الدجال نفسه أم هو رسوله، فلقد شوّه المسيح وصلب في الباباوات إلى حد كبير جداً » (٦٨). ومع ذلك ففي ذلك الحين كان لوثر لا يزال يؤيد كنيسة روما، ولم يكن يفكر في الانفصال عن شركتها.

كانت مؤلفات ذلك المصلح وتعليمه تنتشر في كل دول العالم المسيحي. وامتد العمل إلى سويسرا وهولندا، كما وجدت نسخ من مؤلفاته طريقها إلى فرنسا وإسبانيا. وفي إنكلترا قبل الناس تعاليمه كأنها كلمة الحياة. وامتد الحق إلى بلجيكا وإيطاليا أيضاً. لقد بدأ آلاف الناس يستيقظون من سباتهم الشبيه بالموت إلى فرح حياة الإيمان والرجاء.

غضبت روما واهتاجت بسبب هجمات لوثر، وصرح بعض المتعصبين من خصومه، وحتى بعض دكاترة الجامعات الكاثوليكية، أن من يقتل هذا الراهب المتمرد فلا ذنب عليه ولا إثم. وفي أحد الأيام اقترب إلى المصلح رجل غريب وكان يخفي مسدس تحت ثيابه وسأله لماذا هو سائر هكذا وحده فأجابه لوثر قائلاً: « إنني بين يدي الله فهو قوتي وترسي. فماذا يصنع بي الإنسان؟ » (٦٩)، فإذا سمع الغريب هذا الكلام اكفهر وجهه وهرب بعيداً كمن يهرب من محضر ملائكة السماء.

كانت روما مصرة على إهلاك لوثر، لكن الله كان حصناً له ومجناً. لقد انتشرت تعاليمه في كل مكان، « في الأكواخ والأديرة... في قلاع النبلاء وفي الجامعات وفي قصور الملوك ». وفي كل مكان قام النبلاء يؤيدونه في جهوده (٧٠).

في تلك الأثناء إذ كان لوثر يقرأ مؤلفات « هس » وجد أن ذلك الحق العظيم، حق التبرير بالإيمان الذي كان هو نفسه يحاول أن يؤيده ويعلمه، كان هو الحق نفسه الذي اعتنقه ذلك المصلح البوهيمي. فقال لوثر: « إننا جميعاً، بولس وأوغسطينوس وأنا، قد صرنا من اتباع هس من دون أن ندري ». ثم تابع كلامه قائلاً: « إن الله بكل تأكيد سيطال العالم بقصاصه إذ بشره ذلك الشهيد بالحق ومع ذلك فقد أحرقوه » (٧١).

وفي عريضة رفعها لوثر إلى إمبراطور ألمانيا وبلائها دفاعاً عن إصلاح المسيحية كتب عن البابا يقول: « إنه لأمر مرعب أن يرى الإنسان ذلك الرجل الذي يدعو نفسه نائب المسيح يتظاهر بأبهة ووجاهة لا يكاد يضارعه فيهما أي إمبراطور. فهل هو بهذا يشبه يسوع المسكين أو بطرس الوضيع؟ أن الناس يقولون عنه أنه سيد العالم! لكن المسيح الذي يتشدد هو بأنه نائبه قال: « مملكتي ليست من هذا العالم ». فهل يمكن أن يمتد سلطان النائب إلى أبعد من حدود سلطان رئيسه وسيده؟ » (٧٢). وكتب عن الجامعات يقول: « إنني أخشى جداً أن تكون الجامعات هي أبواب الجحيم إلا إذا كانت تبذل كل جهد في شرح الكلمة الإلهية المقدسة ونقشها في قلوب الشباب. وإنني لا أنصح أحداً بأن يودع ابنه في معهد لا يسود فيه الكتاب المقدس سيادة كاملة. إن كل معهد لا ينشغل الناس فيه على الدوام بدراسة كلمة الله لا بد أن يصير فاسداً » (٧٣).

انتشرت هذه الدعوة بسرعة في كل ألمانيا وكان لها تأثير عظيم في الشعب. لقد استيقظت الأمة كلها ونهضت جموع كثيرة لينضوا تحت راية الإصلاح. وإذا كان خصوم لوثر يلتهبون شوقاً إلى الانتقام الحوا على البابا في اتخاذ إجراءات حاسمة ضده. فصدر أمر بإدانة تعاليمه في الحال.

وأعطيت للمصلح واتباعه مهلة ستين يوما إذا لم يتبرأوا من تعاليمهم بعدها فسيقع عليهم الحرم البابوي جميعا.

أزمة خانقة

كانت هذه أزمة خانقة اجتازها الإصلاح. فلمدى قرون طويلة كان حكم الحرم الذي تصدره روما يوقع الرعب في قلوب أقوى الملوك، بل لقد ملأ إمبراطوريات قوية بالويل والخراب. وأولئك الذين كان يقع عليهم ذلك الحكم كان جميع الناس ينظرون إليهم بخوف ورعب إذ كانوا يُبترون من معايشة زملائهم ويعاملون على أنهم طريدو العدالة، وكانوا يطاردون إلى أن يُستأصلوا. ولم يكن لوثر غافلا عن العاصفة الموشكة أن تهب عليه، ولكنه مع ذلك ظل ثابتا متكلا على المسيح ليسنده ويحميه. فبالإيمان الشهيد وشجاعته كتب يقول: « أنا لا أعلم ما الذي سيحدث ولا أكثرث لذلك... لتسقط الضربة أينما تسقط فأنا لست خائفا. إنه لا تسقط ورقة يابسة على الأرض من دون إذن أبينا. فكم بالحري يهتم بنا ويرعانا. إنه أمر بسيط أن يموت الإنسان لأجل كلمة الله إذ أن الكلمة الذي صار جسدا قد مات هو نفسه. إننا إن متنا معه فسنحيا أيضا معه. وإذ نمر بما قد مر هو به قبلنا فسنكون معه حيث هو ونعيش معه إلى الأبد » (٧٤).

وعندما وصل بيان البابا إلى لوثر قال: « إني ازدريها وأهاجمها بصفتها الحادية كاذبة... إن المسيح نفسه هو الذي دين بموجبها. إنني أفرح لأنني احتمل هذه الشرور في سبيل أفضل دعوة. لقد شعرت بحرية أعظم في قلبي لأنني قد عرفت أخيرا أن البابا هو المسيح الدجال، وأن كرسيه هو كرسي الشيطان نفسه » (٧٥).

ومع ذلك فإن أمر روما لم يكن عديم التأثير. لقد كان السجن والتعذيب والسيف أسلحة فعالة لإرغام الناس على الطاعة. كان الناس الضعفاء والمتمسكون بالخرافات يرتعبون أمام مرسوم البابا، ورغم وجود عطف على لوثر، فلقد أحس كثيرون بأن الحياة أغلى من أن يجازفوا بها في سبيل الإصلاح، وكان كل شيء يدل على أن عمل ذلك المصلح موشك على الانتهاء.

لكن لوثر، مع ذلك، لم يخف. لقد قذفته روما بحروماتها، ولم يكن الناس يشكون في أنه إما أن يهلك وإما أن يرغم على الاستسلام، ولكنه بقوة عظيمة قذف روما نفسها بحكم الإدانة وأعلن على الملأ عزمه على تركها إلى الأبد. وفي حشد من الطلبة والأساتذة والمواطنين من كل الطبقات أحرق لوثر بيان البابا والقوانين والأحكام البابوية وبعض المؤلفات التي تناصر سلطان البابا. ثم قال: « لقد استطاع أعدائي بإحراقهم كتبتي أن يضعفوا تأثير دعوة الحق في عقول عامة الشعب ويهلكوا نفوسهم. فلهذا السبب عاملتهم بمثل معاملتهم وأحرقت كتبهم. لقد بدأ الآن صراع عنيف. كنت قبلأ لاعب البابا. لقد بدأت هذا العمل باسم الله، وسيكمل من دوني وبقوته هو » (٧٦).

« كلمة الله معي »

وقد أجاب لوثر على ملامات أعدائه الذين عيروه بضعف دعوته قائلا: « من يدري ما إذا كان الله قد اختارني ودعاني وما إذا كان على أعدائي أن يخافوا لئلا باحتقارهم إياي يحتقرون الله نفسه؟ لقد

لكن لوثر لم يقرر أن يفصل نهائياً عن الكنيسة ألا بعدما قام في نفسه صراع رهيب. وفي نحو هذا الوقت كتب يقول: «إني أشعر شعوراً متزايداً بمقدار صعوبة طرح الوسائس والشكوك، التي لُفنتها منذ الطفولة، بعيداً مني. ما أكثر ما تألمت لذلك، مع أن الكتاب المقدس هو في جانبي لتبرير وقوفي وحيداً ضد البابا واعتباري إياه المسيح الدجال، وما أعظم المحن التي اجتاز فيها قلبي! وكم مرة سألت نفسي بمرارة ذلك السؤال الذي طالما نطق به البابويون: «هل قصرت الحكمة على نفسك، وهل الجميع مخطئون ما عداك؟ وكيف تكون الحال لو أنك بعد كل هذا كنت أنت المخطئ وأنت الذي قد ورطت نفوساً كثيرة في ضلالتك، وبسببك ستهلك تلك النفوس هلاكاً أبدياً؟» هكذا تحاربت مع نفسي ومع الشيطان إلى أن حصنني المسيح نفسه بكلمته المنزهة عن الخطأ، حصن قلبي ضد هذه الشكوك» (٧٨).

كان البابا قد هدد لوثر بالحرمان أو العزل إذا لم ينكر تعاليمه ويتبرأ منها، وقد تمت وعيده. فلقد ظهر بيان بابوي جديد معلناً انفصال المصلح عن الكنيسة البابوية، مشهراً به كمن هو ملعون من السماء، كما شملت هذه الإدانة نفسها كل من يقبلون تعاليمه. وهكذا بدأ ذلك النضال العظيم.

لقد قال يسوع لتلاميذه: «لَوْ كُنْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ لَكَانَ الْعَالَمُ يُحِبُّ خَاصَّتَهُ وَلَكِنْ لَأَنْتُمْ لَسْتُمْ مِنَ الْعَالَمِ، بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ مِنَ الْعَالَمِ، لِذَلِكَ يُبْغِضُكُمُ الْعَالَمُ أَذْكُرُوا الْكَلَامَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَكْثَمَ

مَنْ سَيِّدُهُ إِنْ كَانُوا قَدْ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهَدُونَكُمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفَظُوا كَلَامِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلَامَكُمْ
« (يُوحَنَّا ١٥ : ١٩ ، ٢٠). ومن ناحية أخرى فَقَدْ أعلن السيد قائلًا بكل وضوح: « وَيَلُّ لَكُمْ إِذَا قَالَ فِيكُمْ
جَمِيعُ النَّاسِ حَسَنًا لِأَنَّهُ هَكَذَا كَانَ آبَاؤُهُمْ يَفْعَلُونَ بِالْأَنْبِيَاءِ الْكَذِبَةَ » (لوقا ٦ : ٢٦). ما عاد روح العالم
منسجماً مع روح المسيح اليوم أكثر مما كان في العصور السالفة. وأولئك الذين يبشرون بكلمة الله
في طهارتها لا يقابلهم الناس بالرضى أكثر مما كانوا في العصور الخالية. قد تختلف ضروب مقاومة
الحق، وقد تكون العداوة مستترة لكونها أشد مكرًا وخبثًا، لكنَّ الخصومة نفسها باقية وستظل قائمة
إلى انقضاء الدهر.

٨ - لوثر أمام المجمع

كان قد أعتلى عرشَ أَلْمَانِيَا إمبراطور جديد يدعى شارل الخامس، فأُسرع رسل روما يَرْجُونَ إليه التهاني ويحرضونه على استخدام سلطانه لمحاربة الإصلاح. ومن الناحية الأخرى تقدم إليه منتخب سكسونيا الذي كان شارل مدينا له بتاجه إلى حد كبير، متوسلا إليه ألا يتخذ إجراءات ضد لوثر حتى يعطيه فرصة للدفاع عن نفسه. فكان الإمبراطور في مركز يبعث على الارتباك والحيرة. ولم يكن البابويون يقنعون بشيء أقل من أن يصدر الإمبراطور أمرا ملكيا يحكم بمقتضاه على لوثر بالموت. لكنَّ المنتخب أعلن أن « لا جلالة الإمبراطور ولا أي شخص آخر أعلن أن كتابات لوثر قد نُقضت أو فندت »، ولذلك طلب « أن يعطي الدكتور لوثر صك أمان حتى يتسنى مثوله أمام محكمة يكون قضاتها رجالا علماء أتقياء منصفين » (٧٩).

اتجه انتباه الأحزاب جميعها إلى اجتماع الولايات الألمانية، الذي كان سيعقد في مدينة ورمس حالا بعد إعتلاء شارل عرش الإمبراطورية. وكانت هنالك مسائل ومصالح سياسية كان على مجلس الأمة أن يتأمل فيها ويتدبرها، ولأول مرة كان أمراء أَلْمَانِيَا سيقابلون مليكهم الشاب ويجتمعون معا للمداولة. ولقد أتى أحبار الكنيسة ورجال الدولة من كل الأماكن من وطن آبائهم. كان هناك اللوردات المدنيون المتحدرون من أصل عريق والمتباهون بحقوقهم الموروثة، ورجال الإكليروس النبلاء المعترّون بسيادتهم العظيمة في المقام والسلطان، كما كان هناك فرسان البلاط النبلاء وضباطهم المسلحون، وكذلك جاء سفراء الدول الأجنبية البعيدة — كل هؤلاء اجتمعوا معا في ورمس. ومع هذا ففي ذلك الاجتماع العظيم كان الموضوع الذي أثار أعظم اهتمام هو دعوة المصلح السكسوني. كان شارل قد أشار على المنتخب من قبل أن يأتي بلوثر معه إلى المجمع مؤكدا له حمايته، وواعدا إياه بحرية المناظرة والجدال مع رجال أكفاء في المشاكل التي هي موضوع النزاع. وكان لوثر مشتاقا للمثول أمام الإمبراطور. ومع أنه كان معتل الصحة في ذلك الحين فقد كتب إلى المنتخب يقول له: « إذا تعذر عليّ الذهاب إلى ورمس وأنا في كامل صحتي فسأحمل إلى هناك وأنا مريض كما أنا. لأنه ما دام الإمبراطور يستدعيني فأنا لا أشك في أنها دعوة من الله نفسه. فإذا كانوا يريدون أن يعاملوني بالعنف والقسوة، وهذا مرجح جدا لأنهم لا يأمروني بالمثل أمامهم لكي ألقى عليهم تعاليمي، فأنا أضع مسألتني هذه بين يدي الرب. إن ذاك الذي قد حفظ الفتية الثلاثة في أتون النار الملهبة لا يزال حيا، وهو يملك. فإذا لم ينقذني فإن حياتي ليست ذات قيمة كبيرة. لنحرص على الإنجيل حتى لا يتعرض لاحتقار الأشرار، ولنسفك دماءنا لأجله خوفا من انتصارهم. وليس لي أن أحكم في ما إذا كانت حياتي أو موتي سيساهم بالأكثر في خلاص الجميع... يمكنك أن تنتظر مني أي شيء... ما عدا الهروب والإنكار. أنا لا يمكنني الهروب، وأكثر من ذلك لا أستطيع التراجع » (٨٠).

وعندما أشيع في مدينة ورمس النبأ الذي يفيد بأن لوثر سيمثل أمام مجلس الأمة حدث احتياج

عام. أما الياندر، مبعوث البابا الذي أُسندت إليه تلك القضية خصيصاً، فقد استولى عليه الفزع والحنق. فقد رأى أن النتيجة ستكون وبيلة على الدعوة البابوية. فكونه يفحص قضية سبق للبابا أن اصدر حكمه فيها بالإدانة معناه احتقار سلطان البابا وسيادته. فضلاً عن ذلك فقد كان يخشى أن تكون فصاحة هذا الرجل وحججه القوية سبباً في تحويل قلوب الأمراء وارتدادهم عن الدعوة البابوية. ولهذا فقد احتج بلهجة شديدة أمام شارل على مجيء لوثر إلى ورمس. وقرابة هذا الوقت كانت براءة البابا القاضية بحرم لوثر قد نُشرت وأُذيعت، فإذ أُضيفت إليها أقوال القاصد الرسولي مال الإمبراطور إلى التنازل، فكتب إلى المنتخب يقول أنه إذا لم يتراجع لوثر فليبقَ في وتنبرك. لم يقنع الياندر بهذا الانتصار بل بذل قصاره من دهاء واحتيال ليضمن إدانة لوثر. وبإصرار كان خليفاً بدعوى أفضل، ألح على الأمراء والأساقفة وأعضاء المجلس الآخرين بالالتفات إلى هذه القضية. وأتهم المصلح بأنه « مثير فتن ومتمرد وملحد ومجذف ». لكنَّ احتدام هذا السفير وغضبه كشفاً بكل جلاء عن الروح التي دفعته إلى ذلك. وقد كانت الملاحظة التي تناقلتها ألسنة الجميع هي هذه: « إنه مدفوع إلى ذلك بالكراهية وحب الانتقام أكثر مما هو مدفوع بالغيرة أو التقوى » (٨١). ولقد كانت غالبية أعضاء المجلس أشد ميلاً إلى استحسان دعوة لوثر والرضا عنها.

لكنَّ الياندر ألح على الإمبراطور بغيرة مضاعفة بوجوب تنفيذ مراسيم البابا. ولكن بموجب شرائع ألمانياً لم يكن ذلك ممكناً ما لم يُجمع الأمراء على ذلك، وإذ انتصرت عليه لجاجة المبعوث أخيراً أمره شارل بأن يعرض قضيته أمام المجلس. « لقد كان ذلك اليوم مدعاة افتخار للقاصد الرسولي. كان ذلك الاجتماع عظيماً وحافلاً وكانت الدعوة أعظم. وكان على الياندر أن يدافع عن روما... أم الكنائس وسيدتهن جميعاً ». كان عليه أن يؤيد خلافة بطرس أمام رؤساء العالم المسيحي المجتمعين. « وكان رجلاً فصيحاً وموهوباً. وأضفت عليه تلك المناسبة عظمة وسموا كبيرين. وقد رتبت العناية أن تظهر روما وتترافع على لسان أقدر خطبائها في حرم محكمة من أعظم المحاكم قبلما حُكم بإدانتها » (٨٢). وكان أولئك الذين ناصروا المصلح يتطلعون قدماً إلى تأثير كلام الياندر بخوف وجزع. ولم يكن منتخب سكسونيا حاضراً ولكن بناء على مشورته، حضر بعض مستشاريه ليُدوّنوا بعض المذكرات عن خطاب القاصد الرسولي

يتهمونه بالهرطقة

إن الياندر بكل ما كان لديه من علم وفصاحة نصب نفسه لهدم الحق. لقد قدم ضد لوثر تهمة في أثر تهمة قائلاً عنه أنه عدو الكنيسة والدولة، عدو الأحياء والموتى، عدو الإكليروس والعلمانيين، وعدو المسيحيين مجالس وأفراداً. وقد أعلن قائلاً: « إن في أخطاء لوثر وضلالته ما يكفي لحرق مئة ألف هرطوقي ». وفي ختام خطابه حاول أن يلقي الاحتقار على معتنقي العقيدة المصلحة فقال: « ما هؤلاء اللوثريون جميعاً؟ إنهم جماعة من الكهنة والمعلمين السفهاء والرهبان الفاسقين والمحامين الجهلة والنبلاء المنحطين مع عامة الشعب الذين قد أضلوهم وأفسدوهم. ولكن كم يفوقهم ويسمو عليهم الحزب الكاثوليكي في العدد والمقدرة والقوة! إن قراراً بإجماع الآراء يصدره هذا المجلس

الشهير كفيل بأن ينير السذج البسطاء ويحذر الغافلين العديمي الفطنة ويثبت المتقلقلين المترددين ويمنح الضعفاء قوة» (٨٣).

بمثل هذه الأسلحة هوجم دعاة الحق في كل عصر. وهذه الحجج نفسها لا تزال تواجه كل من يتجرأ على تقديم تعاليم كلمة الله الواضحة الصريحة لمقاومة الضلالات الراسخة. إن من يرغبون في ديانة رخيصة يصرخون قائلين: «من هؤلاء الذين يكرزون بدين جديد؟ إنهم عديمو العلم وقليلو العدد ومن الطبقات الفقيرة. ومع ذلك فإنهم يدعون أن الحق بجانبهم وأنهم شعب الله المختار. إنهم جهلة ومخدوعون، وكم تفوقهم كنيستنا في العدد والنفوذ! وما أكثر العظماء والعلماء بيننا! وما أعظم السلطان الذي يناصرنا!» هذه هي الحجج التي لها التأثير الفعال على العالم، ولكنها ما عادت قاطعة الآن أكثر مما كانت في أيام المصلح.

إن الإصلاح لم يندثر بموت لوثر كما يظن كثيرون. إنه سيظل باقيا إلى نهاية تاريخ هذا العالم. لقد كان لدى لوثر عمل عظيم إذ قد عكس على الآخرين النور الذي سمح الله بأن يشرق عليه. ومع ذلك فهو لم يحصل على كل النور الذي كان معداً لأن يعطى للعالم. فمنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا وكل يوم يكشف لنا عن نور جديد يشرق على الكتاب المقدس، وكانت حقائق كثيرة تنكشف باستمرار.

أحدث خطاب مبعوث البابا أثرا عميقا في نفوس أعضاء المجمع. لم يكن لوثر حاضرا بما لديه من حقائق كلمة الله الواضحة المقنعة ليهزم البطل البابوي. ولم يُذَلَّ أي مسعى للدفاع عن المصلح. وكان هنالك اتجاه عام ظاهر لا لإدانته هو وتعاليمه فحسب، بل أيضاً لاستئصال تلك الهرطقة لو كان ذلك ممكنا. لقد تمتعت روما بأعظم فرصة مواتية للدفاع عن قضيتها، وقالت كل ما في وسعها أن تقول له لتزكية نفسها. لكن نصرتها الظاهرة كانت دليل الهزيمة. ومنذ ذلك الحين كان الفارق بين الحق والضلال سيظهر واضحا وجليا عندما يشتبكان في حرب علنية. ومنذ ذلك اليوم لم تعد روما قادرة أن تقف آمنة ثابتة كما كانت قبلا.

ولكن في حين أن معظم أعضاء المجلس ما كانوا ليترددوا في تسليم لوثر لغضب روما وانتقامها فإن كثيرين منهم رأوا الفساد المتفشي في الكنيسة وحرزوا لذلك ورغبوا في إزالة الفضائح وسوء المعاملة التي كان الشعب الألماني يتحملها نتيجة لفساد حكومة البابا وجشعها. لقد عرض السفير حكم البابا في أجمل نور خلاب. أما الآن فما هو الرب يحرك أحد أعضاء المجلس ليقدم صورة حقيقية لآثار طغيان البابوية. فبكل نبل وثبات وقف الدوق جورج السكسوني في ذلك الحفل العظيم وطفق يسرد بدقة مرعبة مخاتلات البابوية ورجاساتها ونتائجها الفظيعة. وفي ختام كلامه قال:

«هذا قليل من كثير من الفضائح الصارخة ضد روما. لقد طُرح الخجل والاستحياء جانبا، وكل ما تهدف روما إليه إنما هو المال، المال، المال... بحيث إن المبشرين الذين ينبغي ألا يعلموا غير الحق لا ينطقون بغير الأكاذيب، ولا يُكتفى بالسكوت عنهم والتساهل معهم بل يكافأون على ذلك لأنه بقدر ما تكثر أكاذيبهم تزداد أرباحهم. ومن هذا النبع القذر الفاسد تفيض هذه المياه الملوثة. إن الدعارة تمتد يدها إلى الطمع... وأأسفاه! إن الفضائح التي يرتكبها رجال الإكليروس تقذف بنفوس كثيرة مسكينة إلى الهلاك الأبدي. فلا بد أن يتم إصلاح عام!» (٨٤).

إن لوثر نفسه لم يكن في مقدوره أن يسرد كل تلك الفضائح البابوية، وإن حقيقة كون المتكلم من ألد أعداء المصلح أضفت على أقواله تأثيراً أعظم. ولو أن أعضاء المجلس فتحوا عيونهم لكانوا قد رأوا ملائكة الله في وسطهم يسلطون أشعة النور على ظلمات الضلال ويفتحون العقول والقلوب لقبول الحق. إن قوة إله الحق والحكمة هي التي سيطرت حتى على خصوم الإصلاح، وهكذا مهدت الطريق للعمل العظيم العتيد. لم يكن مارتن لوثر حاضراً في ذلك المجلس، لكن الله الذي هو أعظم من لوثر أسمع أولئك المجتمعين صوته الذي هو صوت الحق.

يدعى للمثول أمام المؤتمر

وفي الحال عين المجلس لجنة لإعداد بيان بحوادث طغيان البابا وظلمه الذي أثقل كاهل الشعب الألماني. فهذه القائمة التي اشتملت على مئة وواحد وصف قُدمت إلى الإمبراطور مشفوعة بالتماس اتخاذ الإجراءات السريعة للقضاء على تلك الفضائح. وقال مقدمو تلك العريضة: « يا لضياع نفوس المسيحيين ويا لهول حوادث النهب والاعتصاب بسبب الفضائح المحيطة بسيد العالم المسيحي! إن الواجب يقتضينا أن نضع حداً للخراب والعار اللذين لحقا ببلادنا وشعبنا. فلهذا السبب نحن بكل تواضع بل بكل إلحاح نتوسل إليك يا صاحب الجلالة أن تأمر بإجراء إصلاح عام وتباشر إتمامه » (٨٥).

وهنا طلب المجلس حضور المصلح ليمثل أمامهم. وعلى الرغم من توسلات الياندر واحتجاجاته وتهديداته قبل الإمبراطور ذلك الطلب أخيراً ودُعي لوثر للمثول أمام المجلس. وقد أرسل مع ذلك الأمر الرسمي صك أمان مؤكداً له أنه سيعود إلى مكان أمين. وقد حمل هاتين الرسالتين رسول انطلق إلى وتبرك لكي يأتي بلوثر إلى ورمس.

ارتعب أصدقاء لوثر واغتموا. فإذا كانوا يعرفون شدة التعصب والعداء اللذين يضمهما له خصومه كانوا يخشون أنه حتى صك الأمان المرسل إليه قد لا يُحترم، ولذلك توسلوا إليه ألا يخاطر بحياته. فأجابهم بقوله: « إن البابويين لا يرغبون في ذهابي إلى ورمس بل يرغبون في إدانتني وموتي. ولكن ذلك لا يهم. لا تصلوا لأجلي بل لأجل كلمة الله... إن المسيح سيمنحني روحه لأنتصر على خدام الضلال هؤلاء. إنني أحتقرهم مدى حياتي وسأنتصر عليهم بموتي. إنهم في « ورمس » يتآمرون لإرغامي على التراجع، وهذا ما سأقوله في تراجعي: « لقد قلت قبلاً أن البابا هو نائب المسيح، أما الآن فأقر أنه عدو ربنا وخصمه ورسول الشيطان » (٨٦).

غيوم في الأفق

ولم يكن لوثر ليسير في رحلته الخطرة وحده، ففضلاً عن رسول الإمبراطور صمم ثلاثة من أشجع أصدقائه على مرافقته. وكان ميلانكتون يرغب بكل لهفة أن يصحبهم. كان قلبه مرتبطاً بقلب لوثر، وكان يتوق إلى أتباعه إلى السجن أو الموت إذا دعت الضرورة. لكن توسلاته رفضت. فلو مات لوثر فإن الأمل في بقاء الإصلاح وتقدمه سيتركز في ذلك الشاب. قال المصلح وهو يودع ميلانكتون: « إذا

لم أرجع وقتلني أعدائي فداوم أنت على التعليم وابق ثابتاً في الحق وجاهد بدلاً مني... فإن بقيت أنت حياً فلن يكون لموتي أهمية كبيرة» (٨٧). تأثر الطلبة والمواطنون الذين اجتمعوا لمشاهدة لوثر وهو يرحل تأثراً عظيماً. وإن جمعا كبيراً ممن كانوا قد تأثروا بتعاليم الإنجيل ودّعوه وهم ييكون. وهكذا سافر المصلح ورفاقه من وتنبرك.

وفيما كانوا مسافرين لاحظوا أن عقول الناس كانت متضايقة من جراء الهواجس الكثيرة. وفي بعض المدن لم يقابلوا بالإكرام. وعندما مالوا لبييتوا تلك الليلة عبر كاهن صديق عن مخاوفه برفعه أمام عيني لوثر صورة مصلح إيطالي قاسى آلام الاستشهاد. وفي اليوم التالي علموا أن مؤلفات لوثر قد حُرمت وحكم بطلانها في ورمس. وكان رسل الإمبراطور يعلنون حكمه ويذيعونه ويدعون الشعب إلى إحضار تلك الكتب المصادرة إلى الحكام. وإذا كان رسول الإمبراطور يخشى على سلامة لوثر في المجلس ويظن أن عزمه قد ترزع سأل عما إذا كان لا يزال راغباً في التقدم في سيره فأجابه قائلاً: «ولو وقع عليّ الحرم في كل مدينة فلا بد من ذهابي» (٨٨).

يعظ في أرفرت

وفي أرفرت قوبل لوثر بكل إكرام. فإذا كان محاطاً بجموع المعجبين سار في شوارع تلك المدينة التي كان قبلاً يسير فيها حاملاً مزود المتسولين. ثم زار غرفته في الدير وجعل يفكر في المصارعات التي عن طريقها أشرق على نفسه النور الذي صار الآن يغمر كل ألمانياً. وقد ألحوا عليه أن يقدم عظة، ومع أن ذلك كان محظوراً عليه فإن الرسول الموفد إليه إذن له بذلك. ولذلك اعتلى المنبر ذاك الذي كان قبلاً راهباً كادحاً في هذا الدير.

وقد خاطب ذلك الجمع الحاشد بكلام المسيح قائلاً: «سلام لكم». ثم قال: «لقد حاول الفلاسفة والأساتذة والكتّاب أن يعلموا الناس الطريق للحصول على الحياة الأبدية فلم يفلحوا. ولكني سأحدثكم عنه الآن... لقد أقام الله رجلاً من بين الأموات، الرب يسوع المسيح، لكي يبيد الموت ويستأصل الخطيئة ويغلق أبواب الجحيم. هذا هو عمل الخلاص... لقد غلب المسيح! هذا هو الخبر السار، ونحن قد خلصنا بعمله لا بأعمالنا... لقد قال ربنا يسوع المسيح: 'سلام لكم، أنظروا يدي'، أي أنظر أيها الإنسان إني أنا من دون سواي الذي رفعت خطاياك وافتديتك، والآن لك السلام قال الرب».

وتابع حديثه مبيناً أن الإيمان الحقيقي يظهر في الحياة المقدسة، قال: «بما أن الله قد خلصنا فلنعمل أعمالنا بحيث تكون مقبولة لديه. أأنت غني؟ أجعل أموالك تخدم حاجات الفقراء. وهل أنت فقير؟ لتكن خدماتك مقبولة لدى الأغنياء. فإن كان عملك نافعا لك وحدك فخدمتك التي تتظاهر بتقديمها لله هي كذب» (٨٩).

كان الناس يصغون وقد سحرتهم تلك الأقوال. لقد كسر خبز الحياة لتلك النفوس الجائعة. وقد رفع المسيح أمامهم أعلى من الباباوات والسفراء والأباطرة والملوك. ولم يُشر لوثر إلى مركزه المحفوف بالمخاطر، ولم يحاول أن يجعل نفسه موضوع التفكير أو العطف. فإذا كان يتأمل في المسيح لم يكن يرى ذاته، بل اختفى خلف رجل جلجثة، محاولاً أن يقدم يسوع وحده كفادي الخطاة.

شجاعة المصلح

كلما تقدم المصلح في رحلته كان يقابل في كل مكان باهتمام عظيم. وكانت الجموع المشتاقة تتجمع من حوله. وكان أصدقاؤه يحذرونه من نوايا البابويين. قال بعضهم: «إنهم سيحرقونك ويصيرون جسدك رمادا كما قد فعلوا مع هس». فأجابهم لوثر قائلا: «حتى لو أشعلوا النيران في كل الطريق من ورمس إلى وتبرك بحيث ترتفع ألسنتها إلى عنان السماء فسأجتاز فيها باسم الرب وسأمثل أمامهم وسأدخل من فكي هذا البهيموت وأحطم أسنانه، إذا أعترف بالرب يسوع المسيح» (٩٠).

وقد أحدثت أنباء قدوم لوثر إلى ورمس هرجا ومرجا عظيمين. وكان أصدقاؤه يرتعدون خوفا على سلامته، وكان أعداؤه يخافون على نجاح دعوتهم. وبُذلت مساع حثيثة لإقناعه بالعدول عن دخول المدينة. وبتحريضات البابويين الح الأعداء عليه كي يلتجئ إلى قلعة فارس صديق حيث ستحل كل المشاكل حلا سلميا، كما أفادوا. وحاول أصدقاؤه أن يثيروا مخاوفه إذ جعلوا يصفون له المخاطر التي تتهدده. لكن كل مساعيهم كان مصيرها الفشل، فإن لوثر الذي ظل ثابتا أعلن قائلا: «ولو كان في ورمس أبالسنة بقدر عدد القرميد الذي فوق سطوحها فلا بد لي من دخولها» (٩١).

يصل إلى ورمس

ولدى وصوله إلى ورمس تجمع قوم كثيرون للترحيب به. إن الإمبراطور نفسه لم يُستقبل بمثل ذلك الاستقبال العظيم. كان الالتهياج عظيماً، ومن وسط ذلك الجمع ارتفع صوت مجلجل حزين منذرا لوثر بالمصير الذي ينتظره. فلما نزل من عربته قال: «إن الله سيكون حصني».

لم يكن البابويون يصدقون أن لوثر سيجيء إلى ورمس مخاطرا بحياته، ولذلك فقد ملأهم مجيء دعرا. وفي الحال استدعى الإمبراطور مشيريه ليتداولوا معا في ما يجب عليهم أن يفعلوه، وإذا بأسقف عفيف قاس من البابويين يعلن قائلا للإمبراطور: «لقد تابختنا في هذه المسألة طويلا فالأفضل أن نتخلص من هذا الرجل في الحال يا صاحب الجلالة. ألم يأمر سيكموند بحرق هس؟ أننا لسنا ملزمين بإعطاء رجل هرطوقي صك أمان أو الاعتراف بذلك الصك». لكن الإمبراطور قال: «كلا بل علينا أن نحافظ على وعدنا» (٩٢) ولذلك فقد تقرر أن يُعطى المصلح فرصة للكلام.

كانت المدينة كلها مشتاقة لرؤية هذا الرجل العظيم، فامتأ الجناح الذي كان لوثر يقيم فيه بجمع كبير من الزوار. ولم يكن لوثر قد شفي تماماً من مرضه الأخير، كما كان متعبا من سفره الطويل الذي استغرق أسبوعين كاملين، وكان عليه أن يتأهب لمواجهة الأحداث الجسيمة التي تنتظره في الغد، فكان في حاجة إلى السكون والراحة، لكن شوق الناس إلى رؤيته كان عظيما بحيث لم يكن لديه غير ساعات قليلة من الراحة. وإذا بالنبلء والفرسان والكهنة والمواطنين يتجمعون حوله بشوق عظيم. كان بين هذا الجمع كثيرون من النبلء الذين بكل جرأة طلبوا من الإمبراطور أن يجري إصلاحا للأضرار التي أحدثها رجال الإكليروس، والذين، كما قال لوثر، «قد تحرروا جميعا بواسطة بشارتي» (٩٣). وقد أقبل الأعداء والأصدقاء على السواء لرؤية هذا الراهب الجريء، لكنه استقبلهم جميعا بهدوء

وثبات، وكان يحييهم جميعا بوقار وحكمة. وقد دلت هيئته على الثبات والشجاعة. وإن وجهه الشاحب النحيل، الذي بان في آثار الإجهاد والمرض، كانت تبدو عليه سيماء الإيناس والفرح. والجلال والغيرة العظيمة اللذان امتازت بهما أقواله أكسباه قوة لم يستطع حتى أعداؤه أن يصمدوا أمامها تماما. فامتلاً أصدقاؤه وأعداؤه دهشة. وقد اقتنع بعضهم بأن قوة إلهية تسنده، بينما آخرون قالوا ما قاله الفريسيون عن المسيح: « به شيطان ».

وفي اليوم التالي دُعي لوثر لحضور المجلس. وقد تعين على ضابط من حرس الإمبراطور أن يقوده إلى قاعة الاجتماع. ومع ذلك لاقى صعوبة كبيرة في الوصول إلى المكان. فلقد ازدحم كل شارع وطريق بجماهير المتفرجين المشتاقين لرؤية ذلك الراهب الذي تجرأ على تحدي سلطان روما. وإذ كان موشكا على المثل أمام قضاته تقدم إليه أحد قادة الجيش العظام، الذي كان بطلا مغوارا في كثير من المعارك، وقال له بكل رفق: « أيها الراهب المسكين إنك على أهبة أن تقف موقفا أشرف وأكرم وأنبل من كل المواقف التي وقفها أنا وكل القادة في أعنف معاركنا الدموية. فإن كانت قضيتك عادلة وكنت واثقا من ذلك فسر إلى الأمام باسم الله ولا تخش شيئا، فالله لن يتركك » (٩٤).

أمام مجلس الأمة

أخيرا وقف لوثر أمام المجلس. جلس الإمبراطور على عرشه، وكانت تحف به أشهر الشخصيات في الإمبراطورية. لم يسبق لإنسان أن مثل أمام مجمع مهيب كالذي وقف مارتن لوثر أمامه ليدافع عن إيمانه وعقيدته. « لقد كان مجرد مثوله في حضرة رجال المجلس انتصارا فريدا على البابوية. فالبابا حكم بإدانة ذلك الرجل وها هو الآن واقف أمام محكمة كانت بذات الفعل قد رفعت نفسها فوق البابا. كان البابا قد وضعه تحت الحرم وبتره من كل المجتمع البشري، ومع ذلك فما هو يُستدعى بكل تقدير واحترام ويمثل أمام أعظم محكمة مهيبة في العالم. كان البابا قد حكم عليه بأن يظل صامتا إلى الأبد وها هو الآن يوشك أن يتكلم أمام آلاف السامعين المنتبهين إلى كل كلمة يقولها والقادمين من اقصى أنحاء العالم المسيحي. ها قد حدثت ثورة هائلة بواسطة لوثر. لقد بدأت روما تسقط من فوق عرشها. وكان صوت ذلك الراهب كفيلا بأن يوقعها في هذا الإذلال » (٩٥).

بدا التهيب والارتباك على وجه ذلك المصلح الوضيع الأصل عندما مثل أمام هيئة ذلك الحفل القوي الشريف العريق. وإذ لاحظ بعض الأمراء انفعاله اقتربوا منه وقال له أحدهم في همس: « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوه ». وقال آخر: « وتساقون أمام ولاية وملوك من أجلي... لأنكم تعطون في تلك الساعة ما تتكلمون به لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذي يتكلم فيكم ». وهكذا اقتبس رجال العالم العظام أقوال المسيح لتشجيع خادمه وتقويته في ساعة التجربة.

أوقف لوثر في مكان مواجه لعرش الإمبراطور مباشرة. وقد ساد على ذلك المجمع العظيم صمت عميق. حينئذ وقف أحد ضباط الإمبراطور، وإذ أشار إلى مجموعة من مؤلفات لوثر طلب منه الإجابة

عن سؤالين: هل يعترف بأن تلك الكتب هي كتبه، وهل يقصد أن يتبرأ من الآراء التي كتبها فيها؟
وبعدما تليت أسماء تلك الكتب أجاب لوثر بأنه في ما يختص بالسؤال الأول يعترف بأن الكتب تخصه. ثم قال: «أما السؤال الثاني فيما أنه يتناول الإيمان وخلص النفوس، وكلمة الله التي هي أعلى كنز وأثمن ذكر في السماء وعلى الأرض، فلو أنني أجبت عنه من دون تفكير أو تأمل فإن تصرفي يكون مجانباً للحكمة وخالياً من الفطنة، ولعلي أؤكد أقل مما تقتضيه الظروف أو أكثر مما يتطلبه الحق، وفي الحالتين ينطبق عليّ قول المسيح: 'وَلَكِنْ مَنْ يُنْكِرُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أُنْكِرْهُ أَنَا أَيْضاً قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ' (متى ١٠: ٣٣). فلهذا السبب التمس منكم يا جلالة الإمبراطور، بكل تواضع، السماح لي بمهلة من الوقت حتى أستطيع أن أجيب من دون أن انتهك كلمة الله» (٩٦).
إن لوثر إذ تقدم بهذا الطلب تصرف بحكمة. وقد أقنع تصرفه المجمع بأنه لم يكن يتصرف مدفوعاً بانفعال أو نزوة. فالهدوء وضبط النفس، اللذين لم يكن يُنتظر توفرهما في ذاك الذي برهن على جرأته التي لا تلين، إضافتها إلى قوته قوة جديدة إعانته على أن يجيب بعد ذلك بحكمة وتصميم وفطنة ووقار أذهلت خصومه وخيبتهم، وكانت توبيخاً لوقاحتهم وكبريائهم.

يجاهد مع الله

وكان عليه أن يمثل أمام المجمع في اليوم التالي ليدلي بجوابه الذي هو فصل الخطاب. وغاص قلبه في داخله بعض الوقت إذ كان يفكر في القوات التي اتحدت معاً لمحاربة الحق. فاضطرب إيمانه وترنح، وهجم عليه الخوف والرعب، وغمره الذعر. وقد تجمعت المخاطر وتكاثرت واصطفت أمامه كأنما أعداءه سينتصرون وكأن قوات الظلمة قد غلبت. وقد تجمعت حوله السحب القاتمة وبدت كأنها قد فصلت بينه وبين الله. فكان يتحرق شوقاً للحصول على اليقين بأن رب الجنود سيكون معه. ففي عذاب روحه انطرح بوجهه على الأرض وسكب هذه الصرخات المتعثرة التي تقطع القلب ولا يستطيع أن يفهمها تمام الفهم غير الله.

توسل قائلاً: «أيها الإله السرمدي القدير، ما أُرهب هذا العالم! ها هو يفغر فاه لابتلاعي، وأنا ضعيف الثقة بك... فإذا كان لي أن أركن إلى قوة هذا العالم وحدها فقد انتهت كل شيء... لقد دنت ساعتى الأخيرة وقد صدر الحكم بإدانتى... يا الله أعني لأنتصر على كل حكمة العالم. فافعل هذا... أنت وحدك... لأن هذا ليس عملي بل هو عملك. لا عمل لي لأعمله هنا، وليس لدي ما أناضل به ضد عظماء هذا العالم... لكن القضية هي قضيتك... وهي قضية عادلة وأبدية. يا رب أعني! أيها الإله الأمين غير المتغير، أنا لا أضع ثقتي بإنسان... فكل ما هو من الإنسان غير أكيد ولا مضمون، كل ما هو من الإنسان مآله الفشل، وهو يخذل من يتكل عليه... لقد اخترتني لهذا العمل... فليتك تقف إلى جانبي لأجل ابنك الحبيب يسوع المسيح الذي هو حصني وترسي وبرج قوتي» (٩٧).

لقد سمحت عناية الله الحكيمة للوثر أن يتحقق من الخطر الذي يتهدهه حتى لا يثق بقوته ويندفع إلى الخطر في طيش، ومع ذلك فإن ما كان يحدق به ويتهدهه لم يكن خوفه من الآلام الشخصية أو من

العذاب أو الموت الذي بدا ماثلاً أمامه. لقد واجه تلك الأزمة وهو يحس بعجزه عن مواجهتها، فقد يخسر قضية الحق بسبب ضعفه. وجاهد مع الله لا لأجل سلامته بل لأجل نصرته للإنجيل. وكما كان ضيق يعقوب في صراع تلك الليلة بجوار ذلك المجري المنعزل، كذلك كان عذاب لوثر وحربه النفسية. وكيعقوب جاهد مع الملاك وغلب. ففي عجزه التام ثبت إيمانه في المسيح المخلص القدير. وقد تقوى بيقين كونه لن يقف أمام المجلس وحده، فعاد السلام إلى نفسه، وفرح لأنه قد سُمح له بأن يرفع كلمة الله أمام رؤساء الأمم.

وإذ استند عقل لوثر إلى الله تأهب للصراع الذي أمامه. وجعل يفكر في خطة إجابته، واطلع على بعض فصول من كتبه واستخرج من الأسفار المقدسة أدلة مناسبة لتدعيم موقفه. ثم إذ وضع يسراه على الكتاب المقدس الذي كان مفتوحاً أمامه رفع يمينه إلى السماء ونذر « أن يظل أميناً للإنجيل، وبكل صراحة وحرية يعترف بإيمانه حتى ولو ختم شهادته بدمه » (٩٨).

أمام المجلس ثانية

عندما أدخل مرة أخرى أمام المجمع لم يكن يبدو على وجهه خوف أو ارتباك. ومع أنه كان هادئاً ومسالماً فقد كان شجاعاً ونبيلاً جداً، وهكذا وقف كشاهد لله بين عظماء الأرض. وطلب منه ضابط الإمبراطور الآن أن يدلي بقراره بما إذا كان يتبرأ من تعاليمه أم لا. فقدم لوثر جوابه بصوت مكبوت متواضع من دون عنف أو غضب. وكان يبدو عليه الخجل والاستحياء والوقار، ومع ذلك فقد أبدى ثقة وفرحاً أدهشا المحفل.

قال لوثر: « يا جلالة الإمبراطور الموقر ويا أصحاب السمو الأمراء ويا أيها السادة الأجلاء، إني أمثل أمامكم اليوم امتثالاً للأمر الذي صدر إليّ أمس، وإني أناشدكم يا صاحب الجلالة ويا أصحاب السمو أن تصغوا بحلمكم إلى الدفاع الذي سأقدمه عن قضية أنا واثق من عدالتها وصدقها. فإذا كنت أخالف عادات المحاكم وآدابها جهلاً مني فأنا التمس منكم الصفح والتجاوز عن أخطائي لأنني لم أنشأ في قصور الملوك بل في حجرة أحد الأديرة » (٩٩).

ثم إذ تقدم للإجابة عن السؤال الموجه إليه قرر أن كتبه ليست كلها من نوع واحد. فبعضها تناول موضوع الإيمان والأعمال الصالحة. وقد شهد حتى أعداؤه أنفسهم أن هذه الكتب ليست عديمة الضرر وحسب بل ونافعة. فالتبرؤ منها معناه إدانة حقائق تعترف بها جميع الأحزاب. والصنف الثاني من الكتب تناول مفاصد البابوية وفضائلها. وسحب هذه المؤلفات يزيد من طغيان روما ويفتح الباب على مصراعيه لمزيد من المعاصي. أما النوع الثالث من كتبه فقد هاجم فيه بعض الأفراد الذين دافعوا عن الشرور المتفشية. واعترف بكل صراحة أنه في هذه الكتب الأخيرة قد اشتد في عنفه وهجومه أكثر مما يليق. وهو ليس يدعي لنفسه العصمة من الأخطاء، ولكن حتى هذه الكتب لا يستطيع أن يسحبها لأن ذلك يزيد من جرأة أعداء الحق ويعطيهم مجالا لأن يسحقوا شعب الله بأعظم قسوة.

ثم استأنف كلامه فقال: « ومع ذلك فأنا لست إلا مجرد إنسان ولست إلها، ولذلك فسأدافع عن

نفشي كما قد فعل المسيح: إن كنت قد تكلمت رديا فأشهد على الرديء ... وإني أناشدكم برحمة الله يا جلالة الإمبراطور وأنتم يا أصحاب السمو أمراء الدولة وجميع الحاضرين من كل الطبقات والدرجات أن تبرهنوا من كتب الأنبياء والرسل على أنني أخطأت أو ضللت. وحالما تقنعوني بهذا فسأتبرأ من كل ما قد أخطأت أو ضللت فيه وأكون أول من يمسك بهذه الكتب ويلقي بها في النار.

لا سلام بل سيف

« وما قد قلته الآن أرجو أن أكون قد تحررت الدقة فيه ووزنت وتأملت في كل المخاطر التي اعرض لها نفشي. ولكنني لست خائفا بل أنا فرح إذ أرى الإنجيل كما كان في العصور الماضية مثار الاضطراب والمنازعات. هذه هي صفة كلمة الله، وهذا هو مصيرها، فلقد قال يسوع المسيح: « ما جئت لألقي سلاما على الأرض بل سيفا » إن الله عجيب رهيب في مشوراته، إذا فاحترسوا لئلا وأنتم تزعمون أنكم تقضون على الخصومات والمنازعات تضطهدون كلمة الله المقدسة وتجلبون على أنفسكم طوفانا من المخاطر والكوارث الحاضرة والخراب الأبدي... كان في وسعي أن أورد لكم عدة أمثلة من كتاب الله، فأحدث عن الفراعنة وملوك بابل وملوك إسرائيل الذين حين حاولوا بمشوراتهم التي كانت تبدو حكيمة توطيد دعائم ملكهم كانت جهودهم من أفعل العوامل التي أدت إلى هلاكهم. وإن الله يزعزع ويزلزل الجبال وهم لا يدرون » (١٠٠).

كان لوثر يتكلم بالألمانية، ولذلك طلب منه أن يعيد ما قاله باللاتينية. ومع أنه كان متعبا من جهده السابق الذي بذله فقد امتثل للأمر وألقى خطابه مرة أخرى بالوضوح والنشاط نفسيهما اللذين تكلم بهما أولا. وقد أرشدته عناية الله في هذا الأمر. كانت عقول كثيرون من الأمراء قد طمستها ظلمة الضلال والخرافات بحيث أنه عندما تكلم لوثر أول مرة لم يلحظ أحد منهم قوة حاجته، ولكن عندما أعاد تلاوة خطابه باللاتينية استطاعوا أن يدركوا جيدا وبكل وضوح النقاط التي أوردتها.

فالذين في عنادهم أغمضوا عيونهم حتى لا يروا النور وأصروا على عدم الاقتناع بالحق حنقوا من قوة كلام لوثر. فلما انتهى من خطابه قال له الناطق باسم المجلس: « إنك لم تجاوب على السؤال المطروح عليك ... اعط الآن جوابا واضحا ومضبوطا... فهل تتراجع أم لا؟ »

أجاب المصلح قائلا: « حيث أنك يا صاحب الجلالة وأنتم يا أصحاب السمو والعظمة تطلبون مني جوابا واضحا بسيطا ومضبوطا فسأقدم جوابي وهاكم هو: أنا لا يمكنني أن اخضع إيماني فأجعله تحت رحمة البابا أو المجامع لأنه واضح وضوح الشمس أنهم في أحيان كثيرة قد أخطأوا وناقض بعضهم بعضا. ولذلك فإذا لم أقتنع من شهادة كلمة الله أو بالمحاجة الواضحة جدا، وما لم أقتنع بواسطة النصوص التي قد اقتبستها، وما لم تلزم تلك الأقوال ضميري بواسطة كلمة الله فأنا لا أستطيع أن أتراجع ولا أريد أن أتراجع. لأنه أمر غير مأمون العاقبة أن يتكلم المسيحي ضد ضميره. هنا أنا أقف ولا يمكنني أن أفعل غير هذا، وليساعدني الله! آمين ».

وهكذا وقف هذا الرجل البار ثابتا على الأساس الراسخ، أساس كلمة الله. وقد استنار محياه بنور السماء. وظهرت للجميع عظمتة وطهارة خلقه وسلامه وفرح قلبه وهو يشهد ضد سلطان الضلال

ويبرز سمو ذلك الإيمان الذي يغلب العالم.

ظل المحفل كله صامتا بعض الوقت من فرط الذهول. عندما قدم جوابه الأول كان يتكلم بكل هدوء وبصوت منخفض بهيئة الاحترام الذي كاد يكون خضوعا. وقد فسر البابويون هذا كدليل على أن شجاعته قد بدأت تخور. واعتبروا طلب التأجيل بمثابة مقدمة لسحب إقراره. وإذا لاحظ شارل نفسه، ببعض الاحتقار، جسم ذلك الراهب المضي وملابسه البسيطة وبساطة حديثه أعلن قائلا: « إن هذا الراهب لن يستطيع أن يجعل مني هرطوقيا ». لكن الثبات والشجاعة اللذين أبداهما الآن وقوة محاجته ووضوحها ملأت قلوب كل الأحزاب دهشة. وقد أبدى الإمبراطور إعجابه فصاح قائلا: « إن هذا الراهب يتكلم بقلب ثابت وشجاعة لا تتزعزع ». وكثيرون من أمراء ألمانيا نظروا بفخر وإعجاب إلى ممثل أمتهم الجريء هذا.

أما ممثلو روما ومشايعوها فقد انهزموا وبدوا كأنهم قد خسروا قضيتهم إذ ظهرت من منظور غير ملائم. وقد حاولوا الاحتفاظ بسلطانهم لا بالالتجاء إلى كتاب الله بل بالالتجاء إلى التهديد الذي هو حجة روما التي لا تخذلها. وقال الناطق باسم المجلس مخاطبا لوثر: « إن لم تتراجع فالإمبراطور والأمراء سيتشاورون في الإجراءات التي سيتخذونها ضد هرطوقي لا يمكن تقويمه أو إصلاحه ». أما أصدقاء لوثر الذين كانوا يصغون بفرح عظيم إلى دفاعه النبيل فقد أربعهم هذا الكلام. لكن الدكتور نفسه أجاب بكل هدوء: « ليكون الله معينا لي لأنني لا أستطيع أن أتبرأ من أي شيء » (١٠١).

أزمة خانقة

ثم طُلب منه الانسحاب من المجلس في حين جعل الأمراء يتشاورون معا. وقد أحسوا بحلول أزمة عظيمة. فإن إصرار لوثر على رفض الخضوع قد يؤثر في تاريخ الكنيسة أجيالا طويلة. وقد تقرر إعطاؤه فرصة أخرى للتراجع. فلآخر مرة أتى به أمام المجمع، ومرة أخرى وجه إليه السؤال عما إذا كان يريد أن ينكر تعاليمه ويتبرأ منها. فقال: « ليس عندي جواب آخر إقدامه غير الذي قدمته من قبل ». وقد اتضح وتبرهن أنه لا يمكن إقناعه بالخضوع لمطالب روما بالعود أو بالوعيد.

اغتم الرؤساء البابويون واغتazonا لأن سلطانهم الذي أربع الملوك والنبلاء صار محتقرا الآن في نظر راهب وضعيع. وكانوا يتوقون إلى أن يجعلوه يحس بشدة وطأة غضبهم بتعذيبه إلى أن يموت. ولكن إذ كان لوثر يشعر بالخطر المحدق به كان قد تكلم مخاطبا الجميع مظهرا عظمة المسيحية وهدوءها. كان كلامه خاليا من الكبرياء والغضب والتحريف. لقد نشي نفسه ونشي عظماء الرجال المحيطين به وأحس فقط بأنه في حضرة ذاك الذي هو أسمى، بما لا يقاس، من كل الباباوات والأساقفة والملوك والأباطرة. لقد تكلم المسيح على لسان لوثر مقدما شهادته بقوة وجلال إلهما الأصدقاء والأعداء على السواء الرهبة والدهشة إلى حين. كان روح الله حاضرا في ذلك المجلس ليؤثر في قلوب رؤساء الإمبراطورية. وبكل شجاعة اعترف أمراء عديدون بعدالة قضية لوثر. واقتنع كثيرون منهم بالحق، لكن بعضهم تأثروا تأثرا وقتيا. وقد وجد فريق آخر لم يفصحوا عن اقتناعهم حينئذ، ولكنهم بعدما فتشوا الكتب لأنفسهم في الأيام التالية صاروا معاضدين للإصلاح لا يخشون

بأس أحد.

كان المنتخب فريدريك ينظر بجزع وهو متوجس من ظهور لوثر أمام المجلس، وبانفعال شديد أصغى إلى خطابه. وبفرح وفخر عظيمين شهد شجاعة الدكتور وثباته ورباطة جأشه فعزم على أن يقف بكل ثبات في الدفاع عنه. جعل يقارن بين طرفي النزاع فرأى أن حكمة الباباوات والملوك والأساقفة قد أبطلتها قوة الحق. لقد أصابت البابوية هزيمة سيحس بها الناس من كل الأمم وفي كل العصور. فإذ رأى مبعوث البابا التأثير الذي أحدثه خطاب لوثر بات يخشى حينئذ أكثر من ذي قبل على سلامة سلطان البابا وعزم على استخدام كل الوسائل التي تحت يده لإسقاط المصلح والقضاء عليه. فبكل ما كان يملك من الفصاحة والمهارة الدبلوماسية التي اشتهر بها جعل يصور للإمبراطور الشاب جهالة تضحية صداقة بابا روما العظيم لأجل قضية راهب مغمور.

لم يكن كلامه بلا تأثير. ففي اليوم التالي بعدما أدلى لوثر بجوابه أمر شارل بتقديم رسالة إلى المجلس معلنا فيها عزمه على تنفيذ سياسة سابقه في حفظ الدين الكاثوليكي وحمانيته. وحيث أن لوثر قد رفض التبرؤ من ضلالاته فلا بد من اتخاذ كل الإجراءات العنيفة ضده وضد الضلالات التي علّم بها: « إن راهبا واحدا أضلته جهالته قام يحارب إيمان العالم المسيحي كله. ولأجل إيقاف هذا الإلحاد عند حده سأضحي بمماليكي وكنوزي وأصدقائي وجسدي وروحي وحياتي. إني سأطرد لوثر الأوغسطيني وأنهاء عن إحداث أي شغب بين الشعب. وبعد ذلك سأهبط لمحاربته هو ومشايغيه بصفتهم هراطقة عصاة بالقطع والحرمان وكل وسيلة يمكن أن تخطر على البال لملاشاتهم. وأنا أطلب من أعضاء الولايات أن يتصرفوا كمسيحيين أمناء » (١٠٢). ومع ذلك فقد أعلن الإمبراطور أن صك أمان لوثر ينبغي احترامه، وقبل فرض الإجراءات التي ستتخذ ضده ينبغي أن يُسمح له بالعودة إلى وطنه بسلام.

عادات وتقاليد

كان هنالك رأيان متناقضان تشبث بهما أعضاء المجلس. فرسل البابا ونوابه عادوا يطالبون بأن يُغفل صك أمان المصلح ولا يُلتفت إليه. ثم قالوا: « ينبغي أن يتلقى نهر الرين رماده كما تلقى رماد جون هس منذ قرن » (١٠٣). لكن أمراء ألمانيا مع أنهم هم أنفسهم كانوا بابويين وجاهروا بعدائهم للوثر احتجوا على خيانة الأمانة ونكث العهد واعتبروا ذلك لطخة عار في جبين كرامة الأمة. وقد وجهوا الأنظار إلى الكوارث التي جاءت بعد مقتل هس وأعلنوا أنهم لا يتجرأون على أن يستمطروا على ألمانيا وعلى رأس إمبراطورهم الشاب مثل تلك الشرور الرهيبة التي حدثت من قبل.

وجوابا على ذلك الاقتراح الدنيء أجاب شارل نفسه قائلا « إنه لو نُفي الإيمان من العالم كله فينبغي أن يجد ملاذا في قلوب الملوك والأمراء » (١٠٤). ومع ذلك فقد ظل البابويون الذين كانوا ألد أعداء لوثر يلحون على الإمبراطور أن يعامل المصلح كما قد عامل سجنسوموند هس، أي أن يتركه تحت رحمة الكنيسة. ولكن إذ ذكر شارل الخامس منظر هس في الاجتماع العام وهو يشير إلى أغلاله مذكراً للإمبراطور بالعهد الذي كان قد ارتبط به أعلن شارل قائلا: « أنا لا أريد أن يعلو الخجل وجهي

كما قد حدث لسجسموند « (١٠٥).

ومع ذلك فإن شارل رفض عمدا التعاليم التي قدمها لوثر. فقد كتب ذلك الإمبراطور يقول: « لقد عقدت العزم على التمثل بأسلافي » (١٠٦). لقد عزم على ألا يخرج على العرف ولو حتى ليسير في طريق العدل والبر. فلكون آباءه قد أيدوا البابوية فهو أيضاً سيؤيدها بكل ما تنطوي عليه من قسوة وفساد. وهكذا تمسك بموقفه ورفض قبول أي نور أكثر مما قد حصل عليه أسلافه أو القيام بأي واجب أكثر مما قد قاموا هم به.

وفي أيامنا هذه يوجد كثيرون ممن يتعلقون بعبادات آبائهم وتقاليدهم. وعندما يرسل الرب إليهم نورا أكثر يرفضون قبوله. فلأن آباءهم لم يعط لهم النور لذلك هم لا يقبلونه. إن موقفنا ليس كموقف آبائنا، ويستتبع ذلك أن واجباتنا وتبعاتنا ليست هي واجباتهم وتبعاتهم نفسها. إن الله لا ينظر إلينا بعين الرضى والاستحسان عندما نجعل مثال آبائنا يقرر واجبنا بدلا من كوننا نتقصى كلمة الحق لأنفسنا. ومسؤوليتنا هي أعظم مما كانت عليه مسؤولية آبائنا وأسلافنا. فنحن مسؤولون عن النور المعطى لهم والذي انتقل إلينا كإرث، كما أننا مسؤولون أيضاً عن النور الإضافي الذي يشرق علينا الآن من كلمة الله.

عطف النبلاء

لقد قال المسيح عن اليهود غير المؤمنين: « لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ، لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيئَةً، وَأَمَّا الْآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيئَتِهِمْ » (يوحنا ١٥: ٢٢). السلطان الإلهي نفسه تكلم على لسان لوثر على مسامع إمبراطور ألمانيا وأمرائها. وأذ أضاء النور من كلمة الله كان روحه يتوسل لآخر مرة إلى كثيرين من أعضاء ذلك المجلس. وكما أن بيلاطس قد جعل الكبرياء وحب الشهرة يغلقان قلبه في وجه فادي العالم منذ قرون طويلة مضت، وكما أمر فيليكس الوالي المرتعب رسول الحق قائلاً له: اذهب ومتى حصلت على وقت أستدعيك. وكما اعترف أغريباس المتكبر قائلاً: بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً (أعمال ٢٤: ٢٥؛ ٢٦: ٢٨) ومع ذلك فقد انصرف عن الرسالة المرسله إليه من السماء كذلك خضع شارل الخامس لما فرضته عليه الكبرياء والسياسة العالمية، فقرر أن يرفض نور الحق.

وقد راجت الإشاعات عن المؤامرات التي تدبر ضد لوثر، ما أحدث احتياجا عظيما في كل المدينة. وكان المصلح قد عقد صداقات مع كثيرين ممن كانوا يعرفون غدر روما وقسوتها ضد كل من يفضح مفاسدها فعولوا على عدم التضحية به. وتعهدها من النبلاء أن يكونوا حماة. واشتكى عدد غير قليل منهم علنا، رسالة الإمبراطور كاستسلام مهين لروما. وعلى أبواب البيوت وفي الأماكن العامة نُصبت لوحات بعضها يدين لوثر والبعض الآخر يناصره. وعلى إحدى تلك اللوحات كتب قول الحكيم ذو المغزى العظيم: « وَيْلٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْأَرْضُ إِذَا كَانَ مَلِكُكَ وَلَدًا، وَرُؤُوسَاؤُكَ يَأْكُلُونَ فِي الصَّبَاحِ » (جامعة ١٠: ١٦). وقد اشتدت حماسة الجميع في جانب لوثر في كل أنحاء ألمانيا، وهذا أقنع الإمبراطور وهيئة المجلس أن أي ظلم يقع عليه سيعرض سلام الإمبراطورية للخطر، ويزعزع العرش.

محاولات للمساومة

أما فريدريك منتخب سكسونيا فقد كانت لديه خطة مدروسة، وهو بكل حرص أخفى مشاعره الحقيقية تجاه المصلح، بينما كان في الوقت نفسه يحرسه بيقظة لا تعرف الكلل، مراقبا تحركاته وتحركات كل خصومه. ولكن كان هنالك كثيرون ممن لم يحاولوا إخفاء عطفهم على لوثر. لقد زاره أمراء وكونتات وبارونات وشخصيات كثيرة شهيرة من العلمانيين والإكليروس. وقد كتب سبالاين يقول: « إن غرفة الدكتور الصغيرة لم تكن تتسع لكل الزوار الذين قدموا أنفسهم إليه » (١٠٧). وكان الشعب يشخصون إليه كما لو كان أعظم من إنسان. وحتى أولئك الذين لم يكونوا يؤمنون بتعاليمه كانوا معجبين بالاستقامة الرفيعة التي اتصف بها هذا الرجل فجعلته يفضل الموت على مخالفة ضميره.

بذلت جهود جدية للحصول على موافقة لوثر على عقد اتفاق مع روما. وصوّر له الأمراء والنبلاء أنه إن أصر على التشبث بحكمه ورأيه ضد حكم الكنيسة والمجامع فسيُنْفى بعيدا عن الإمبراطورية بعد قليل ولن يكون هنالك حصن يحميه. فأجابهم لوثر على ذلك بقوله: « إن إنجيل المسيح لا يمكن أن يبشر به من دون عثرة... إذا فلماذا تفصل المخاوف المتوقعة بيني وبين الرب أو بيني وبين كلمته الإلهية التي هي وحدها الحق؟ كلا، فأنا أفضل بدلا من ذلك أن أسلم جسدي ودمي وحياتي للخطر والموت » (١٠٨).

ومرة أخرى الحوا عليه في الخضوع لحكم الإمبراطور وحينئذ لن يكون هنالك ما يخافه. فأجاب قائلا: « أنا راض من كل قلبي أن يفحص الإمبراطور والأمراء، بل حتى احقر مسيحي، كتبي ويحكموا عليها بشرط واحد هو أن يتخذوا كلمة الله نبراسا لهم، إذ ينبغي للناس أن يطيعوها. لا تستخدموا العنف ضد ضميري الذي هو مقيد ومرتبطة بكلمة الله » (١٠٩).

وقد أجاب على التماس آخر بقوله: « إنني راض أن أتخلى عن صك الأمان المعطى لي فأنا أضع شخصي وحياتي بين يدي الإمبراطور. ولكن لن يحدث أن أتخلى عن كلمة الله أبدا! » (١١٠). وقرر أنه يرغب في النزول على حكم مجمع عام بشرط أن يُطلب من ذلك المجمع أن يحكم بموجب الكتاب المقدس. ثم أضاف قائلا: « في كل ما يختص بكلمة الله والإيمان يصلح كل مسيحي أن يكون قاضيا كالبابا سواء بسواء حتى لو كان يسند البابا مليون مجمع » (١١١). أخيرا اقتنع الأصدقاء والأعداء كلهم أنه لا جدوى من محاولة عقد صلح بعد ذلك.

صمود غير متزعزع

لو كان المصلح قد استسلم في بند واحد لكانت النصر للشیطان وجنوده. لكن ثباته الذي لم يتزعزع كان هو وسيلة تحرير الكنيسة وبدء عهد جديد أفضل. فتأثير هذا الرجل، الذي تجرأ على أن يفكر ويتصرف لنفسه في الشؤون الدينية، كان موشكاً أن يحدث تأثيرا في الكنيسة والعالم ليس في عهده هو فقط بل في كل العصور اللاحقة. وثباته وولاءه سيقويان الجميع إلى انقضاء الدهر عندما يجوزون في مثل ذلك الاختبار. لقد وقفت قوة الله وجلاله فوق مشورات الناس وفوق قوة الشيطان الهائلة.

ثم صدر أمر الإمبراطور إلى لوثر بالعودة إلى وطنه. وقد عرف أن هذا الأمر ستتبعه حتما إدانته سريعا. لقد تجمعت في طريقه السحب المنذرة بالخطر. ولكن فيما كان راحلا عن ورمس امتلأ قلبه فرحا وسلاما. قال: « إن الشيطان نفسه يحرس قلعة البابا لكن المسيح قد أحدث ثغرة فيها وأجبر الشيطان على الاعتراف بأن الرب أقوى منه » (١١٢).

فبعد رحيله إذ كان لوثر لا يزال راغبا في ألا يُفهم ثباته، خطأ، على أنه تمرد، كتب إلى الإمبراطور يقول: « الله العارف القلوب يشهد أنني راغب كل الرغبة في إطاعة جلالتك في كل ما يؤول إلى الكرامة أو الهوان، في الحياة أو الموت، ما عدا كلمة الله التي بها يحيا الإنسان. ففي كل شؤون الحياة الحاضرة لن يتأثر ولائي لجلالتكم، لأن الخسارة أو المكسب في هذه الحياة لا يؤثران في الخلاص. ولكن في ما يختص بالمصالح الأبدية لا يريد الله أن يخضع إنسان لإنسان آخر، لأن مثل هذا الخضوع في الأمور الروحية هو عبادة حقيقية، وهذه العبادة ينبغي عدم تقديمها لغير الخالق وحده » (١١٣).

وعند رحيل لوثر عن ورمس كان استقبال الناس له في عودته يحمل شيئا من التملق أكثر مما كان عند سفره إليها. لقد رحب بعض النبلاء من رجال الإكليروس بذلك الراهب المحروم. وقد أكرم الحكام المدنيون الرجل الذي شهّر به الإمبراطور، وألحوا عليه في أن يبشّر. وعلى رغم نهي الإمبراطور صعد لوثر مرة أخرى إلى المنبر وقال: « إني لم أتعهد أبداً أن أقيد كلمة الله، كلا ولن... » (١١٤).

يقبض عليه ويسجن

ولم يكن قد مر عليه وقت طويل منذ ترك ورمس، وإذا بالبابويين يقنعون الإمبراطور بإصدار مرسوم ضده. وفي هذا المنشور شهّر بلوثر على أنه « الشيطان نفسه في شكل إنسان وفي زي راهب » (١١٥). وصدر أمر بأنه حالما تنتهي مدة صك الأمان الذي في حوزته ينبغي إيقاف عمله. وقد حُرّم على الناس أن يأووه أو يقدموا له طعاما أو شرابا أو معونة من أي نوع لا بالكلام أو العمل، سرا أو جهرا. وكان يتعين القبض عليه أينما وجد ويسلم إلى السلطات. وأتباعه ومشايعوه كانوا سيطرحون في غياهب السجون وتصادر أملاكهم. وكان يجب إحراق كتبه، وأخيرا كل من يخالف هذا المنشور كان ذلك الحكم يشملهم. أما منتخب سكسونيا والأمراء أصدقاء لوثر فكانوا قد رحلوا عن ورمس بعد رحيله حالا. وصادق مجلس الأمة على مرسوم الإمبراطور. وهذا جعل البابويين يفرحون ويتهللون إذ اعتبروا أن مصير الإصلاح قد بات فشله محتوما.

لكن الله أعد لخادمه طريقا للنجاة في هذه الساعة، ساعة الخطر. إن عيناً ساهرة يقظة كانت تتابع حركات لوثر، وقد عزم رجل ذو قلب مخلص نبيل على إنقاذه. كان واضحا أن روما لن تقنع بغير موته. ولذلك فلم يكن متاحا إنقاذه من بين مخالب الأسد بغير إخفائه. فألهم الله فريديك منتخب سكسونيا ابتكار خطة تكفل حفظ المصلح. وقد نفذ ذلك المنتخب ما اعتزمه بمساعدة أصدقائه الأمناء. وبذلك أمكن إخفاء لوثر عن الأصدقاء والأعداء. فإذا كان عائدا إلى وطنه قبض عليه وأبعد عن تابعيه وأخذ بسرعة إلى داخل الغابة ومنها إلى قلعة وتبرك التي كانت حصنا جبليا منعزلا. وقد كان القبض عليه وإخفاؤه محاطين بالغموض إلى حد أن فريديك نفسه ظل بعض الوقت يجهل المكان

الذي قد أخذ اليه. وهذا الجهل لم يكن بغير قصد. فطالما يجهل المنتخب مكان وجود لوثر لا يستطيع قطعاً إفشاء السر. وقد اكتفى بأن علم أن المصلح في مكان أمين، وأنه معافى وحسب. مَرَّ الربيع والصيف والخريف وأقبل الشتاء ولوثر لا يزال أسيراً، وابتهج الياندر وشركاؤه حين ظنوا أن نور الإنجيل مقبل على الانطفاء. ولكن بدلا من هذا كان المصلح يملأ مصباحه من مستودع الحق، وكان نورَه موشكاً أن يضيء بلمعان أعظم.

كان لوثر في حصن أصدقائه في وتيرك مغتبطاً لأنه استراح من شدة المعركة وضوضائها. لكنه لم يكن قانعا بالهدوء والراحة. فإذا كان معتادا حياة العمل والنشاط والصراع الصارم لم يكن يحتمل البقاء ساكنا. ففي أيام الاعتزال تلك ظهرت حالة الكنيسة أمامه على حقيقتها، فصرخ في يأس وقال: «وأسفاه! إنه لا يوجد ولا واحد في يوم غضب الرب هذا، يقف أمامه كسور ليخلص شعبه!» (١١٦). ومرة أخرى جعل يفكر في نفسه، وبات يخشى أن يُتهم بالجبن إذا انسحب من المعركة. ثم جعل يلوم نفسه على تكاسله وانغماسه في الراحة. ومع ذلك ففي كل يوم كان يعمل أكثر مما يبدو أن رجلاً واحداً يستطيع أن يقوم به. فلم يتوقف قلمه عن الكتابة. وإذا كان أعداؤه يخدعون أنفسهم بقولهم أنه خَرَسَ فقد شملتهم الدهشة والارتباك إذ ظهر أمامهم برهان ملموس على أنه لا يزال يعمل بنشاط. ذلك أن كمية كبيرة من الكراريس المكتوبة بقلمه كانت تتداولها الأيدي في ألمانيا. كما أنه أسدى إلى بني أمته خدمة جليلة إذ ترجم العهد الجديد إلى اللغة الألمانية. ومن قلعتة الصخرية الشبيهة بجزيرة بطمس ظل يعلن الإنجيل ويوبخ الخطايا والضلالات المتفشية بين الشعب في أيامه مدة تقرب من سنة.

لكنَّ السبب الذي لأجله جعل الله خادمه ينسحب ويعتزل الحياة العامة لم يكن لحفظ حياته من غضب أعدائه أو منحه فرصة هدوء واستجمام استعدادا للقيام بأعماله الهامة وحسب، بل لقد كانت هنالك نتائج أجل قدرا من هذه ستتحقق. ففي عزلة ذلك المعتكف الصخري وغموضه أبعد لوثر من كل معونة أرضية ولم يعد يسمع مديح الناس، وهكذا نجا من الكبرياء والثقة بالنفس اللتين تنشآن عن النجاح. فعن طريق الإذلال والآلام أعد للسير مرة أخرى وهو آمن فوق المرتفعات الشاهقة التي قد ارتفع إليها فجأة.

إن الناس إذ يفرحون بالحرية التي يمنحهم الحق إياها فإنهم يميلون إلى تمجيد الذين استخدمهم الله في تحطيم أغلال الضلال والخرافات التي كانوا مكبلين بها. والشيطان يحاول أن يبعد أفكار الناس وعواطفهم عن الله وأن يجعلها تتركز في الوسائل البشرية، وإن يقودهم إلى إكرام الذين هم مجرد آلات وإلى تجاهل اليد التي توجه كل حوادث العناية. إننا في غالب الأحيان نرى أن القادة الدينيين الذين يحصلون على المديح والإكرام يتغافلون عن اعتمادهم على الله ويتناسونه. وهذا يقودهم إلى الاتكال على نفوسهم. وينتج من ذلك أنهم يحاولون السيطرة على عقول الناس وضمائهم، إذ يميل هؤلاء إلى أن ينظروا إليهم في طلب الإرشاد بدلا من استرشاد كلمة الله. إن عمل الإصلاح كثيرا ما يتعطل بسبب هذه الروح التي يحتضنها وينغمس فيها معاصدو الإصلاح ومروجوه. وقد أراد الله أن يجنب عمل الإصلاح هذا الخطر. كان يريد أن يطبع هذا العمل لا بطابع إنسان بل

بطابع الله. كانت أنظار الناس قد اتجهت إلى لوثر كمن هو مفسر الحق، وقد عنهم منهم حتى تتجه
أنظار الجميع إلى ذاك الذي هو مبدع الحق الأزلي وهو الحق نفسه.

٩ - المصلح السويسري

عند اختيار الوسائل لأجل إصلاح الكنيسة تُشاهد الخطة الإلهية نفسها التي استخدمت في غرس الكنيسة. لقد عبّر المعلم الإلهي تاركا أشراف الأرض وعظماءها وأثرياءها الذين اعتادوا الحصول على المديح والولاء كقادة للشعب. كانوا من ذوي الافتخار والثقة المفرطة بمكانتهم المتباهية بحيث لم يستطيعوا التكيف والتعاطف مع بني جنسهم، ولا المساهمة في العمل الخلاصي الذي قام به الناصري الوديع. ووجهت الدعوة إلى صيادي الجليل الكادحين الأميين: « هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمْ صَيَّادِي النَّاسِ » (متى ٤: ١٩). كان هؤلاء التلاميذ وضعا وقابلين للتعلّم. وبقدر ما قلّ تأثرهم بالتعاليم الكاذبة التي كانت متفشية في أيامهم بقدر ما استطاع المسيح أن يعلمهم تعليما ناجحا ويدربهم على خدمته. كذلك كانت الحال في أيام الإصلاح العظيم. فالمصلحون الذين أخذوا مركز القيادة كانوا رجالا يحيون حياة الفقر — رجالا كانوا أكثر الناس تحررا من كبرياء الحسب والنسب والمركز ومن التعصب والاحتياال. إن خطة الله هي أن يستخدم الوسائل الوضيعة في تحقيق النتائج العظيمة. وحينئذ لن يعود المجد للناس بل لذاك الذي يعمل فيهم أن يريدوا وأن يعملوا من أجل مسرته.

بعد ولادة لوثر بأسابيع قليلة في كوخ أحد عمال المناجم في سكسونيا، ولد أولريك زوينكلي بين جبال الألب في كوخ راعي للمواشي، أما البيئة التي عاش فيها زوينكلي في طفولته والتعليم الذي تلقاه في صباه فكان من شأنهما إعداده لخدمته العتيدة. فإذ نشأ بين مناظر الجلال الطبيعي والجمال والروعة العظيمة تأثر عقله منذ بكور حياته بالشعور بعظمة الخالق وقدرته وجلاله. هذا، وإن تاريخ أعمال البطولة التي تتالت على الجبال في وطنه اضرم في نفسه آمال الشباب. وإذ كان يجلس إلى جوار جدته التقية كان يصغي إلى القصص الكتابية القليلة التي كانت قد انتقتها من بين أساطير الكنيسة وتقاليدها. وباهتمام وشوق كان يصغي إلى قصص الأعمال الجليلة التي قام بها الآباء والأنبياء والرعاة الذين كانوا يحرسون قطعانهم على تلال فلسطين حيث تحدثت الملائكة معهم، وعن طفل بيت لحم ورجل جلجثة.

وكما كان جون لوثر يرغب في تعليم ابنه كذلك كان أبو أولريك. فأرسل ذلك الصبي من وطنه مبكرا، ونما عقله بسرعة حتى لقد ظهرت مشكلة العثور على المعلمين الأكفاء ليعلّموه. وفي الثالثة عشر من العمر ذهب إلى برن التي كانت تضم حينئذ أشهر مدرسة في سويسرا. ومع ذلك فقد ظهر خطر كان يهدد بالقضاء على مستقبله. فقد بذل الرهبان جهودا جبارة لإغوائه على دخول الدير. لقد كان الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان يتنافسون للظفر برضا الشعب واستحسانه بالزيينات الفخمة التي كانوا يجمّلون بها كنائسهم، والمظاهر الخلابة التي كانوا يحيطون بها طقوسهم، وجاذبية الذخائر الشهيرة والأيقونات العجائبية.

رأى رهبان الدومنيكان في برن أنهم لو استطاعوا أن يكسبوا هذا الطالب الشاب الموهوب لحصلوا على الربح والكرامة. إن شبابه الرائع كفيل باجتذاب الشعب إلى خدماتهم وازدياد إيراد رهبانيتهم أكثر مما تجتذبه الابهة والتباهي. وحاولوا بكل ما أتيهم الحيلة من الخداع والمداهنة أن يغروا زوينكلي

بدخول ديرهم. إن لوثر عندما كان طالبا في المدرسة دفن نفسه في حجرة بأحد الأديرة، وكان ممكنا ألا يعرف العالم عنه شيئا لو لم تُحرره عناية الله. أما زوينكلي فلم يكن له أن يواجه هذا الخطر. فقد دبرت العناية أن يعلم أبوه بمكائد أولئك الرهبان. ولم يكن يريد أن يعيش ابنه حياة عاطلة عديمة النفع كالرهبان. ورأى أن نفع ابنه مستقبلا مستهدف للخطر، فأمره بالعودة إلى وطنه بلا إبطاء.

زوينكلي يكتشف الحق

امتثل الابن لأمر أبيه. لكن ذلك الشاب لم يكن ليقنع بالبقاء في وطنه. فجعل يواصل دراسته، وبعد ذلك ذهب إلى بازل. وفي هذه المدينة سمع زوينكلي إنجيل نعمة الله المجانية لأول مرة. ذلك أن ويتمباك، أستاذ اللغات القديمة، قادته دراسته للغتين اليونانية والعبرية إلى الكتاب المقدس، وهكذا أشرفت أشعة النور الإلهي على عقول الطلبة الذين كان يعلمهم. وقد أعلن أنه يوجد حق أقدم وأثمن بما لا يقاس من النظريات التي يعلمها الأساتذة والفلاسفة. وهذا الحق القديم هو أن موت المسيح هو الفدية الوحيدة المقدمة عن الإنسان الخاطئ. وكان هذا التصريح بالنسبة إلى زوينكلي أول شعاع يبشر بقدوم الفجر.

وسرعان ما دُعي زوينكلي إلى ترك بازل ليبدأ عمل حياته. وكان الحقل الأول لخدمته أبرشية في جبال الألب غير بعيدة عن مسقط رأسه. وعندما سيم كاهنا « كرس نفسه بجملتها للبحث عن الحق الإلهي إذ كان يعلم جيدا »، كما يقول عنه مصلح آخر من شركائه، « كثرة ما يجب أن يتعلمه ذاك الذي يستودعه المسيح قطيعه » (١١٧). وبقدر ما كان يفتش الكتب بقدر ما بدا له الفرق واضحا بين حقائقها وهرطقات روما. فخضع للكتاب المقدس بصفته كلمة الله التي هي القانون الوحيد المعصوم الكافي. وقد رأى أن الكتاب ينبغي أن يفسر نفسه. ولم يجرؤ على أن يشرح الكتاب بحيث يدعم نظرية أو عقيدة سبق له تصورها، بل اعتبر أن واجبه يقتضيه أن يتقصى ما هو تعليم الكتاب المباشر الصريح. وقد حاول الانتفاع بكل معونة لإدراك معنى كلمة الله إدراكا صحيحا وكاملا، وكان يتوسل إلى الله في طلب معونة روحه القدوس الذي يعلنه لكل من يطلبونه بإخلاص في الصلاة.

وقال زوينكلي: « إن الكتب المقدسة آتية من الله لا من إنسان. والله الذي ينير العقول والقلوب سيعطيك أن تفهم أن الكلام آت من الله. إن كلمة الله... لا يمكن أن تخيب، فهي لامعة ومنيرة، وهي تعلم نفسها وتكشف عن ذاتها وتثير النفس بكل الخلاص والنعمة، وتعزيها بالله، وتجعلها تتضع بحيث تفقد نفسها أو حتى تخسرها لتعانق الله » (١١٨). وقد برهن زوينكلي نفسه على صدق هذا الكلام. وإذا كان يتكلم عن اختباره في هذا الوقت كتب بعد ذلك يقول: « عندما... بدأت أخضع نفسي بالتمام للكتاب المقدس كانت الفلسفة واللاهوت التعليمي يقترحان عليّ دائما المجادلات، أخيرا وصلت إلى هذا إذ فكرت قائلا: ' ينبغي لك أن تترك كل ذلك الكذب وتتعلم المعنى الذي يقصده الله من كلمته البسيطة '. وحينئذ بدأت أسأل الله أن يمنحني النور فبدا من السهل عليّ فهم كلامه » (١١٩).

يكرز بتعليم المسيح

إن التعليم الذي كرز به زوينكلي لم يتسلمه من لوثر، لكنه كان تعليم المسيح. لقد قال ذلك المصلح السويسري: « إن كان لوثر يكرز بالمسيح فهو إنما يفعل ما افعله أنا. إن مَنْ قد أتى بهم إلى المسيح هم أكثر ممن قد أرشدتهم أنا إليه. ولكن هذا لا يهم. فأنا لن أحمل اسم شخص آخر غير اسم المسيح الذي أنا جندي له والذي هو وحده قائدي. إني لم أرسل إلى لوثر بكلمة واحدة ولا هو أرسل إليّ. ولماذا؟ ... حتى يتبرهن إلى أي حد يتوافق روح الله مع نفسه إذ أننا كلينا نعلّم تعليم المسيح من دون تواطؤ على نحو واحد متماثل » (١٢٠).

وفي عام ١٥١٦ دعي زوينكلي ليصير واعظا في دير اينسيدلن. هنا أُتيح له أن يرى فساد روما عن قرب، وكان عليه أن يبذل كمصلح نفوذا يحس به الناس بعيدا من وطنه في الألب. وكان بين الجواذب التي في اينسيدلن تمثال للعدراء قيل أن له قدرة على عمل المعجزات. وفوق مدخل الدير نقشَت هذه العبارة: « هنا يمكن الحصول على غفران كامل للخطايا » (١٢١). وكان الحجاج يقصدون مزار العدراء هذا في كل الفصول. ولكن في عيد تكريسه السنوي العظيم كان يتقاطر إلى هناك جماهير غفيرة من كل أنحاء سويسرا بل ومن فرنسا وألمانيا. وأثار ذلك زوينكلي فانتهاز الفرصة ليعلن الحرية بواسطة الإنجيل لعبيد الخرافات هؤلاء.

فقال للنّاس: « لا تتصوروا أن الله هو في هذا الهيكل أكثر مما هو في أي مكان آخر في الخليقة، فالله محيط بكم أينما توجدون وهو يسمعكم... هل يمكن للأعمال غير النافعة أو الحج الطويل أو النذور أو الصور والتماثيل أو التوسل إلى العدراء أو القديسين أن تضمن لكم الحصول على نعمة الله؟ ... ما جدوى الكلام الكثير الذي تتكون منه دعواتنا؟ وأيُّ فاعلية في القلنسوة المصقولة أو الرأس الحليق أو الحلل الطويلة الهفهافة أو المطرزة؟ ... إن الله ينظر إلى القلب، لكنّ قلوبنا منصرفة عنه ». ثم قال: « إن المسيح الذي أسلم مرة على الصليب هو القربان أو الذبيحة التي قدمت تكفيرا عن المؤمنين إلى الأبد » (١٢٢).

لكنّ كثيرين من السامعين لم يرضوا بهذا الكلام أو يقبلوه، بل أحسوا بالخيبة المرة عندما قيل لهم أن سفرهم الشاق كان عبثا. ولم يكونوا يفهمون شيئا عن الغفران المجاني المعطى لهم بواسطة المسيح. كانوا قانعين بالطريق القديم الذي كانوا يعتقدون أنه يوصلهم إلى السماء كما قد رسمته لهم روما. وقد امتنعوا عن إيقاع أنفسهم في الارتباك الناشئ عن محاولة البحث عن شيء أفضل. كان أسهل عليهم أن يستندوا في أمر خلاصهم إلى الكهنة والبابا من أن يسعوا نحو طهارة القلب.

لكنّ فريقا آخر قبلوا أخبار الفداء بالمسيح بفرح. فالممارسات والطقوس التي فرضتها روما لم تستطع أن تمنحهم سلام النفس، فقبلوا بالإيمان دم المخلص كفارة عنهم. وعاد هؤلاء الحجاج إلى وطنهم ليعلنوا للآخرين النور الثمين الذي حصلوا عليه. وهكذا انتقل الحق من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى أخرى، فنقص عدد من كانوا يحجون إلى هيكل العدراء نقصا كبيرا، ونقصت تبعا لذلك قيمة النذور، كما نقص كذلك الراتب الذي كان زوينكلي يتقاضاه منهم. لكنّ هذا سبب له فرحا عندما رأى أن قوة التعصب والخرافات هي في طريقها إلى الاضمحلال.

لم تكن سلطات الكنيسة غافلة عن العمل الذي كان زوينكلي يعمل، ولكنهم رفضوا التدخل في

ذلك الحين. فلأنهم كانوا يرغبون في أن يكسبوه إلى جانبهم حاولوا استمالته إليهم بالتملقات، وفي أثناء ذلك كان الحق يسيطر على قلوب الشعب.

يعظ في كاتدرائية زورخ

هذا وإن خدمات زوينكلي في اينسيدلن أعدته لأن يعمل في حقل أوسع. وكان مقدراً له أن يدخل هذا الحقل سريعاً. فبعدما خدم مدة ثلاث سنين دعي إلى وظيفة واعظ في كاتدرائية زورخ. وكانت هذه المدينة حينذاك أهم مدن الاتحاد السويسري. فالتأثير الذي يحدث فيها سيمتد إلى بعيد. ومع ذلك فإن رجال الإكليروس الذين دعوه كانوا يرغبون في منع أية أفكار جديدة، وتبعاً لذلك أملوا عليه تعليماتهم والواجبات المفروضة عليه.

قالوا له: « عليك أن تبذل كل جهد في جمع الإيرادات للكنيسة ولا تغفل أقل شيء. وينبغي لك أن توصي الجميع من على المنبر وفي كرسي الاعتراف بأن يدفعوا كل العشور والالتزامات الواجبة الأداء حتى يبرهنوا بتقدماتهم على مقدار حبهم للكنيسة. وعليك أن تزيد الدخل الذي يجمع من المرضى والقداسات وكل الفرائض الكهنوتية ». ثم عاد معلموه يقولون له: « أما في ما يختص بتقديم الأسرار المقدسة والوعظ والواجبات الرعوية فتستطيع أن تعين كاهنا آخر غيرك ليقوم بها، وخصوصاً الوعظ. وعليك ألا تقدم الأسرار المقدسة إلا للناس المشهورين ذوي الواجهة، وبناء على طلبهم فقط، لا لجميع الناس من دون تمييز » (١٢٣).

المسيح محور عظاته

كان زوينكلي يصغي إلى كل هذه التوصيات وهو صامت. ثم بعدما عبر لهم عن شكره لأجل شرف دعوتهم إياه لهذه الوظيفة المهمة عمد إلى توضيح الطريق الذي قصد أن يسير فيه، فقال: « لقد ظلت حياة المسيح محجوبة عن الشعب أمداً طويلاً، لذلك فأنا سأعظ مما ورد في إنجيل متى كله... مستقياً التعاليم من ينابيع الكلمة الإلهية فأسبر أغوارها مقارناً بين فصل وآخر وباحثاً عن المعرفة والفهم بالصلاة المستمرة الحارة. إنني سأكرس كل خدمتي لتمجيد الله وتعظيم ابنه الوحيد وخلص النفوس وبنائها في الإيمان الحقيقي » (١٢٤). ومع أن بعض رجال الإكليروس لم يصادقوا على خطته وحاولوا أن يثنوه عنها فقد ظل زوينكلي ثابتاً. وأعلن أنه لن يعتمد طريقة جديدة بل سيتبع الطريقة القديمة التي كانت تمارسها الكنيسة في العصور الأولى الأكثر نقاوة وطهارة.

واستيقظ اهتمام الناس بالحقائق التي علم بها، وتقاطروا أفواجا لكي يستمعوا إليه. وكثيرون ممن كانوا قد انقطعوا عن حضور الخدمة عادوا لسمعوه. وقد بدأ خدمته بفتح الأناجيل وقراءتها وشرحها لسامعيه، مفسراً للشعب كلمة الوحي الإلهي عن حياة المسيح وتعاليمه وموته. وفي زيوريخ كما في اينسيدلن أعلن للشعب كلمة الله كالمرجع الوحيد المعصوم، وموت المسيح كالذبيحة الوحيدة الكاملة. قال: « إنني أريد أن أرشدكم إلى المسيح، المسيح الحقيقي نبع الخلاص الحقيقي » (١٢٥). وقد تجمهر الشعب من كل الطبقات حول ذلك الواعظ، من رجال السياسة والعلم، والصناع والتلاميذ والفلاحين. وكانوا يصغون إلى كلامه باهتمام عظيم. ولم يكتف بإعلان هبة الخلاص

المجاني بل بكل شجاعة وبخ الشرور والمفاسد التي كانت متفشية في ذلك العصر. وقد عاد كثيرون من الكاتدرائية مسبحين الله قائلين: « إن هذا الرجل يعطى بكلمة الحق. أنه سيكون كموسى فيخرجنا من ظلمة مصر الداجية هذه » (١٢٦).

ولكن مع أن الناس قبلوا كلامه في بادئ الأمر قبولاً حسناً وبحماسة شديدة فقد بدأت المقاومات بعد ذلك، إذ انبرى الرهبان لتعطيل عمله وشجب تعاليمه. وهاجمه كثيرون بالسخرية والتهكم، وآخرون لجأوا إلى الوقاحة والتهديد. لكن زوينكلي تحمل كل ذلك بصبر إذ قال: « إذا أردنا أن نربح الأشرار إلى يسوع المسيح فعلينا أن نغمض عيوننا عن أشياء كثيرة » (١٢٧).

في هذه الأثناء دخل عامل جديد لإنجاح عمل الإصلاح. ذلك أن رجلاً يدعى لوسيان أرسل إلى زورخ حاملاً بعض مؤلفات لوثر من قبل أحد أصدقاء الإيمان، المصلح من مدينة بازل، إذ كان يرى أن بيع هذه الكتب سيكون وسيلة قوية لنشر النور. هذا الرجل كتب إلى زوينكلي يقول: « عليك أن تتحقق مما إذا كان حامل هذه الكتب ذا فطنة كافية ومهارة. فإن كان كذلك دعه يحمل هذه الكتب من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية ومن بيت إلى بيت إذا لزم، واضعاً مؤلفات لوثر هذه بين يدي شعب سويسرا، وعلى الخصوص شرحه للصلاة الربانية المكتوبة للشعب. فبقدر ما تفهم هذه الكتب يزداد إقبال الناس على شرائها » (١٢٨). وهكذا دخل النور إلى تلك البلاد.

ولكن فيما يبدأ الله بتحطيم قيود الجهالة والخرافات يعمل الشيطان جاهداً بأعظم قوة ليلف الناس في أكفان الظلام وليزيد من متانة تلك القيود. فإذ نهض رجال في كثير من الأقطار ليقدموا إلى الشعب الغفران والنور بدم المسيح بدأت روما بنشاط جديد في فتح أسواقها في كل العالم المسيحي بائعة الغفران بالمال.

كان لكل خطيئة ثمنها؛ وقد سُمح للناس بارتكاب الجرائم إذا كان هذا الترخيص المجاني يملأ خزنة الكنيسة بالمال. وهكذا تقدمت تلك الحركتان: أحدهما تقدم غفراناً للخطايا في مقابل دفع المال، والأخرى تقدم الغفران بالمسيح. فروما تبيح ارتكاب الخطيئة وتجعل ذلك مصدر إيراداتها، بينما المصلحون يدينون الخطيئة ويوجهون أنظار الناس وقلوبهم إلى المسيح كالكفارة وصانع الخلاص.

بيع الغفران في سويسرا

وقد اسند بيع الغفران في ألمانيا إلى الرهبان الدومنيكان برئاسة تنزل الممقوت القبيح السيرة. أما في سويسرا فقد كلف به الرهبان الفرنسييسكان تحت رئاسة راهب إيطالي يدعى شمشون، فاسدي خدمة عظيمة إلى الكنيسة بجمعه أموال طائلة من ألمانيا وسويسرا ليملاً بها خزنة البابا. أما الآن فقد بدأ يجوب أنحاء سويسرا فاجتمعت حوله جموع كثيرة. وكان يسلب أرباح الفلاحين القليلة ويفرض على الأثرياء أموالاً طائلة. لكن آثار الإصلاح ظهرت في كساد تلك التجارة الآثمة من دون أن توقفها تماماً. كان زوينكلي لا يزال في انيسيدلن عندما عرض شمشون بعد دخوله سويسرا بضاعته في مدينة قريبة. فلما عرف المصلح غرضه من المجيء هبَّ لمقاومته. لم يتقابل الخصمان، ولكن نجاح زوينجلي في فضح ادعاءات ذلك الراهب كان عظيماً حتى لقد اضطر الراهب إلى الانسحاب إلى

جهات أخرى.

وفي زورخ وعظ زوينكلي ضد المتاجرة بالغفران. وعندما اقترب شمشون من هذه المدينة أرسل إليه المجلس رسولا يحذره من دخولها وإذا استطاع الدخول بالحيلة أبعد من دون أن يبيع صكا واحدا من صكوك الغفران، وبعد قليل رحل عن سويسرا.

وقد اكتسب الإصلاح قوة دافعة محركة عظيمة بظهور الطاعون أو « الموت الوبيل » الذي اجتاح سويسرا في عام ١٥١٩. فإذا وقف الناس أمام ذلك المهلك وجها لوجه بدأوا يحسون بأن الغفران الذي كانوا قد ابتاعوه منذ عهد قريب هي باطلة ولا قيمة لها. فكانوا يتوقون إلى أساس أشد رسوخا لإيمانهم. وإذا كان زوينكلي في زيوريخ أصابه الوباء وكانت وطأة المرض شديدة عليه جدا بحيث انتزع كل أمل في شفائه وانتشرت إشاعة تقول أنه قد مات. لكن رجاءه وشجاعته لم يتزعزا في ساعة التجربة. فلقد نظر بإيمان إلى صليب جلجثة مستنداً إلى الكفارة الكافية الكاملة عن الخطية. فلما عاد من أبواب الموت بدأ يركز بالإنجيل بغيره أعظم مما فعل قبلا. وكان لكلامه قوة غير معتادة. فرحب الشعب براعيهم المحبوب بفرح عظيم إذ عاد إليهم بعدما وصل إلى حافة القبر. وكانوا هم قد عادوا من زيارة المرضى والمحتضرين وهم يحسون بقيمة الإنجيل العظيمة أكثر من قبل.

وصل زوينكلي إلى فهم أوضح لتعاليم الكتاب وحقائقه، واختبر قوته المجددة بيقين أعظم وأكمل. وكان موضوع كلامه ووعظه سقوط الإنسان وتدمير الفداء. فقال: « لقد متنا كلنا في آدم وانحدرنا إلى أعماق الفساد والدينونة » (١٢٩). « وقد اشترى لنا المسيح فداء أبديا... وآلامه هي... ذبيحة أبدية دائمة وفعالة إذ أنها تكفل لنا الخلاص والشفاء. وهي كافية لإرضاء العدل الإلهي إلى الأبد لمصلحة من يعتمدون عليها بإيمان ثابت راسخ ». ومع ذلك فقد علم الناس بوضوح أنهم ليسوا أحرارا ليقبوا في الخطية استنادا إلى نعمة المسيح فقال: « أينما يوجد إيمان بالله فهناك يوجد الله. وأينما يسكن الله فهناك توجد غيرة تلح على الناس وتحثهم على الأعمال الصالحة » (١٣٠).

الكاتدرائية تغص بالجماهير

كان اهتمام الشعب بسماع زوينكلي عظيما بحيث ضاقت الكاتدرائية على سعتها بجماهير الناس الذين أتوا ليسمعوه. وقد كشف لسامعيه عن الحق قليلا قليلا على قدر ما كانوا يحتملون. حرص على ألا يقدم إليهم منذ البدء الأمور المفزعة لهم والتي تخلق التعصب. فقد كان عمله أن يريح قلوبهم لتعاليم المسيح حتى تلين بمحبته، واضعا أمامهم مثال السيد؛ وإذا يقبلون مبادئ الإنجيل تزول وتتلاشى كل معتقداتهم وأعمالهم الخرافية.

تقدم الإصلاح في زيوريخ خطوة خطوة، ولذلك فزع الأعداء ونهضوا يقاومونه. قبل ذلك بعام واحد رفض راهب وتبرك أوامر البابا والإمبراطور في مدينة ورمس، والآن ها كل شيء في زورخ يدل على ثبات مماثل ضد مطالب البابا. وقد هوجم زوينكلي مرارا. وفي المقاطعات البابوية كان يؤتى من حين إلى آخر بتلاميذ الإنجيل إلى آلات الإعدام، لكن هذا لم يكن كافيا بل كان ينبغي إسكات صوت معلم الهرطقة. ولذلك أرسل أسقف كونستانس ثلاثة نواب إلى مجلس زورخ، وهؤلاء اشتكوا

على زوينكلي بأنه يشجع على تعدي أوامر الكنيسة، وهذا يعرض سلام المجمع ونظامه للخطر. وقال الأسقف في بيانه: لو ألغي سلطان الكنيسة فلا بد أن تعم الفوضى. وقد أجاب زوينكلي قائلاً أنه منذ أربع سنين يعلم بالإنجيل في زورخ، هذه المدينة « التي هي في أتم هدوء وسلام بين كل مدن الاتحاد ». ثم قال: « أفليست المسيحية إذاً هي أعظم حارس للأمن العام؟ » (١٣١).

أوصى المبعوثون أعضاء المجلس بأن يظلوا في داخل الكنيسة التي لا خلاص لمن هو خارج عنها كما زعموا. فأجاب زوينكلي المجلس قائلاً: « لا تجعلوا هذه التهمة تثيركم. إن أساس الكنيسة هو الصخرة نفسها والمسيح نفسه الذي أعطى سمعان اسم بطرس لأنه قد اعترف به بكل أمانة. ففي كل أمة، كل من يؤمن من كل قلبه بالرب يسوع مقبول لدى الله. هنا حقاً توجد الكنيسة، وخارجاً عنها لا خلاص لأي إنسان » (١٣٢). وكان من نتائج ذلك المؤتمر أن أحد مبعوثي الأسقف قبل الإيمان المصلح.

رفض المجلس اتخاذ أي إجراء ضد زوينكلي، فتأهبت روما للقيام بهجوم جديد. فإذ أبلغ المصلح بالمؤامرات التي يدبرها له أعداؤه صاح قائلاً: « ليأتوا، فأنا لا أخافهم أكثر مما تخاف الصخرة القوية أمواج البحر التي تهدر تحتها » (١٣٣). وقد نتج من مساعي الإكليروس تقدم الدعوة التي حاولوا القضاء عليها، وظل الحق ينتشر. وفي ألمانيا تشجع من جديد معتنقو مبادئ الإصلاح، الذين كانت عزائمهم خائرة بسبب اختفاء لوثر، عندما رأوا تقدم الإنجيل في سويسرا.

وعندما توطد الإصلاح في زيوريخ ظهرت ثماره في وفرتها وكمالها في قمع الرذيلة وازدهار النظام والانسجام. وقد كتب زوينكلي يقول: « لقد سكن السلام والانسجام مدينتنا. فلا توجد بيننا مشاجرات ولا رياء ولا حسد ولا منازعات. فمن أين يمكن أن يجيء مثل هذا الاتحاد والوفاق إن لم يكن من الرب ومن تعاليمه التي تملأنا من ثمار السلام والتقوى؟ » (١٣٤).

أثارت انتصارات الإصلاح حفيظة البابويين فبدلوا أقصى جهودهم الجبارة للقضاء عليه. فإذ رأوا أنهم لم يحققوا نصراً كبيراً بمحاولتهم قمع عمل لوثر في ألمانيا بواسطة الاضطهاد، عقدوا العزم على محاربة الإصلاح بأسلحته. فأرادوا مناظرة مع زوينكلي، وبعدما رتبوا كل شيء أرادوا أن يتأكدوا من الانتصار بأن يختاروا هم ليس فقط مكان المناظرة بل أيضاً القضاة الذين سيحكمون فيها بين المتبارين. فلو استطاعوا أن يوقعوا زوينكلي في قبضة أيديهم فسيحرصون على ألا يفلت منهم. ومتى أبكم الزعيم فستسحق الحركة سريعاً. وقد حرصوا على إخفاء هذا السر وهذه النوايا.

اتفقوا على إقامة المباراة في بادن، لكن زوينكلي لم يكن حاضراً. ذلك أن أعضاء مجلس زورخ كانوا يشكون في نوايا البابويين، وكانت المحرقات في المقاطعات البابوية معدة للمعترفين بالإنجيل إنذاراً لهم، فنهوا راعيهم عن تعريض نفسه لهذا الخطر. وكان زوينكلي مستعداً لمقابلة كل من قد ترسلهم روما إلى زورخ. أما ذهابه إلى بادن التي قد سُفك فيها دم شهداء الحق منذ عهد قريب فكان ذهاباً لملاقاة الموت المحقق. وقد اختير كل من أيكولامباديوس وهالر لتمثيل المصلحين، أما الدكتور إك المشهور يسانده جماعة الدكاترة العلماء فكان بطل روما.

ومع أن زوينكلي لم يكن حاضراً ذلك المؤتمر فقد كان المؤتمر يحسون بحضوره. وقد ختار

البابويون جميع أمناء السر، وحرّم على الآخرين أخذ مذكرات تحت طائلة الموت. ولكن على رغم كل هذا فقد كان يصل إلى زوينكلي بيان دقيق في كل يوم عن كل ما قيل في بادن. ذلك أن طالبا كان حاضرا تلك المناظرة كان في كل مساء يكتب بيانا عن كل الحجج التي قيلت في ذلك اليوم، كما أخذ طالبان آخران على نفسيهما أمر تسليم هذه الأوراق مع الخطاب الذي كان يرسله أيكولامباديوس يوميا إلى زوينكلي في زيوريخ. وكان المصلح يرسل الرد مقدما مشورته ومقترحاته. وكانت خطاباته تكتب ليلا وكان الطالبان يعودان بها إلى بادن في الصباح التالي. ولكي يتملصا من الحارس اليقظ الواقف على باب المدينة كان هذان الرسولان يحضران له بعض الدجاج فكان يسمح بدخولهما بلا عائق.

وهكذا دخل زوينكلي المعركة ضد خصومه المحتالين. وقال عنه مايكونيوس: « إنه تعب واشتغل أكثر بتأملاته وتفكيره خلال ليالي الأرق وبنصائحه التي كان يبعث بها إلى بادن أكثر مما لو كان قد ذهب بنفسه للاشتراك في ذلك الجدل وهو محاط بالأعداء » (١٣٥).

أما البابويون فإذ تحمسوا في انتظار الانتصار الذي كانوا يحلمون به فقد أتوا إلى بادن متسربلين بأبهى الحلل، وكانت الجواهر تلمع في أيديهم وعلى صدورهم. وكانوا ينفقون المال ببذخ، وحفلت موائدهم بأشهى الأطعمة وأجود أنواع الخمور. وقد خفف الانشراح والمرح عبء واجباتهم الكهنوتية. أما المصلحون فكانوا يختلفون عنهم اختلافا ملحوظا، إذ كان الناس ينظرون إليهم كما لو كانوا أحسن قليلا من المتسولين الذين جعلهم اقتصادهم في الأكل يجلسون إلى المائدة وقتا قصيرا. وإذا كان صاحب البيت الذي يسكنه أيكولامباديوس يراقبه بعض الوقت في غرفته كان يجده دائما مشغولا إما في الدرس أو الصلاة. أدهشه ذلك فقال لمن حوله: « إن هذا الهرطوقي على الأقل تقي جدا ».

وفي المؤتمر اعتلى إك بكل غطرسة منصة مزينة بزينة فاخرة، بينما أيكولامباديوس المتواضع الذي كان يرتدي ثيابا زرية حقيرة أرغم بكل احتقار على الجلوس فوق مقعد خشبي حقير (١٣٦). ولم يخذل إك صوته العالي ولا ثقته بنفسه التي لا حد لها. وزادت غيرته وحماسته من أمله في الحصول على الذهب والشهرة لأن المدافع عن العقيدة والإيمان كان سيكافأ بأجر كبير. فلما فشلت حجته المعقولة لجأ إلى الشتائم والقسم.

أما أيكولامباديوس الذي كان محتشما غير واثق بنفسه انكمش أمام تلك المبارزة. ولكنه دخلها بناء على هذا الاعتراف المقدس: « أنا لا أعترف بأي مقياس آخر للحكم غير كلمة الله » (١٣٧). ومع رفته ولطفه في تصرفاته فقد برهن على مقدرته وعدم خوفه أو تراجع. ففي حين أن البابويين استندوا إلى سلطة عادات الكنيسة كما هي عاداتهم فإن المصلح تمسك بكل ثبات بالكتب المقدسة. وقد قال: « إن العرف لا قوة له هنا في بلادنا سويسرا ما لم يكن مطابقا للدستور، أما الآن ففيما يختص بالعقيدة فإن دستورنا هو الكتاب المقدس » (١٣٨).

لم يكن التباين بين المتبارين عديم الأثر فإن المحاجة الصريحة الهادئة التي قدمها المصلح بكل رقة ووداعة كان لها تأثير على تلك العقول التي تحولت في اشمئزاز عن ادعاءاتك المتفاخرة الصاخبة. دامت المناظرة ثمانية عشر يوما وفي نهايتها كان البابويون بكل ثقة يدعون النصر لأنفسهم. وقد

انحاز معظم المبعوثين إلى جانب روما. فأعلن المجلس هزيمة المصلحين كما صرح أنهم، ومعهم زوينكلي قائدهم، قد بتروا من الكنيسة. لكن ثمار المؤتمر أعلنت إلى جانب من له الأفضلية، إذ نتج من تلك المباراة قوة دافعة محركة للدعوة البروتستانتية. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أعلنت المدينتان الكبيرتان برن وبازل انضمامهما إلى الإصلاح.

١٠ - تقدم الإصلاح في ألمانيا

أثار اختفاء لوثر الغامض الرعب والفرع في كل أرجاء ألمانيا. ففي كل مكان كان الناس يسألون عنه وانتشرت إشاعات مغرصة عنه، واعتقد كثيرون أنه قد قتل. وكانت هنالك مناحة عظيمة ليس فقط من جانب أصدقائه المخلصين المجاهدين بولائهم له بل أيضاً من جانب آلاف ممن لم يجاهروا باعتناق مبادئ الإصلاح. وقد أقسم كثيرون قسماً علنياً لينتقموا لموته.

رأى الرؤساء البابويون برعب عظيم إلى أي مدى ثارت مشاعر الشعب ضدهم. فمع أنهم ابتهجوا وتهللوا إذ سمعوا بخبر موت لوثر المزعوم فسرعان ما صاروا الآن يرغبون في الاختفاء بعيداً عن غضب الشعب. إن أعداءه لم يكونوا يضطربون أمام أعظم الأعمال الجريئة التي قام بها وهو عائش بينهم بقدر اضطرابهم عند اختفائه. وأولئك الذين في غضبهم حاولوا إهلاك هذا المصلح الجريء امتلأت قلوبهم الآن خوفاً وهلعاً عندما صار أسيراً عاجزاً. وقد قال أحدهم: « إن الوسيلة الوحيدة الباقية لنا لإنقاذ أنفسنا هي إيقاد المشاعل والبحث عن لوثر في العالم كله لكي نعيده إلى الأمة التي تلح في السؤال عنه » (١٣٩). وقد بدا كأن مرسوم الإمبراطور كان عديم القوة، واستشاط مبعوثو البابا غضباً عندما رأوا أن ذلك المرسوم لم يسترع انتباه الناس ولا اهتمامهم بقدر ما استرعاه مصير لوثر.

لكنّ خبر كونه سالماً، وإن يكن سجيناً، هدأ مخاوف الشعب وزاد تحمسهم له. وبدأ الناس يقرأون مؤلفاته بحماسة أعظم مما قد فعلوا من قبل. وانضمت جماهير متزايدة إلى دعوة هذا البطل الذي دافع عن كلمة الله في مثل تلك الظروف المخيفة. وبمرور الأيام كان الإصلاح يعتز ويتقوى. والبذار الذي ألقاه لوثر نبت وظهر وترعرع في كل مكان. واحتجابه وغيباه انجز عملاً ما كان يُستطاع إنجازُه لو كان حاضراً. وقد أحس القادة الآخرون بأن عليهم مسؤولية جديدة الآن بعد احتجاب قائدهم العظيم. فبإيمان وغيره عظيمين اندفعوا إلى الأمام ليعملوا كل ما في وسعهم حتى لا يتعطل العمل الذي بُدئ به بمثل هذه الروعة.

لكنّ الشيطان لم يكن خاملاً. فلقد حاول الآن أن يعمل ما قد حاول عمله في كل حركات الإصلاح الأخرى، أي أن يخدع الناس ويهلكهم بالتمويه عليهم بإصلاح زائف بدل الإصلاح الحقيقي. فكما كان يوجد مسحاء كذبة في القرن المسيحي الأول في الكنيسة المسيحية كذلك قام أنبياء كذبة في القرن السادس عشر.

فلقد قامت شردمة من الناس متأثرة بالاهتياج الحادث في المحيط الديني وتصوّروا أنهم تلقوا وحياً خاصاً من السماء وادعوا أن الله أرسلهم للتقدم في تكملة عمل الإصلاح الذي أعلنوا أن لوثر بدأه بضعف ووهن. لكنهم في واقع الأمر كانوا يقوِّضون العمل نفسه الذي قام به. فلقد رفضوا المبدأ العظيم الذي هو أساس الإصلاح، أي إن كلمة الله هي الأساس الكافي للإيمان والأعمال، واستعاضوا

عن ذلك المرشد الذي لا يخطئ بالمقياس المتغير غير اليقيني، مقياس مشاعرهم وانفعالاتهم. وبهذا التصرف الذي بموجبه طرحوا كاشف الضلالات والأكاذيب جانبا أفسح المجال للشيطان ليسيطر على عقول الناس كما يشاء.

وقد ادعى أحد أولئك الأنبياء أنه تلقى تعليمه من الملاك جبرائيل. وإن طالبا ممن انضموا إليه ترك دراسته معلنا أن الله قد وهبه حكمة لتفسير الكلمة الإلهية. وانضم إليهما أولئك الذين كانوا يميلون إلى التعصب. لكن إجراءات هؤلاء المتعصبين لم يكن لها تأثير كبير. كانت كرازة لوثر قد أيقظت الناس في كل مكان ليحسوا بضرورة الإصلاح. أما الآن فإن بعضا ممن كانوا أمناء أضلتهم ادعاءات هؤلاء الأنبياء الجدد.

تقدم مترجمو هذه الحركة إلى وتبرك وألحوا على ميلانكتون وشركائه بقبول دعوتهم قائلين: « لقد أرسلنا الله لتعليم الشعب وكانت لنا أحاديث مع الرب. ونحن نعلم ماذا سيحدث. وبالاختصار نحن رسل وأنبياء ونستشهد بالدكتور لوثر » (١٤٠).

المتعصبون يعترضون سبيل الحق

اندهش المصلحون وتحيروا. فقد كان هذا عنصرا لم يسبق لهم أن واجهوه، ولم يكونوا يعلمون كيف يتصرفون. قال ميلانكتون: « إنه بكل تأكيد توجد أرواح غير طبيعية في أولئك القوم، ولكن أي أرواح هي؟ ... فمن ناحية علينا أن نحترس لئلا نطفئ روح الله، ومن الناحية الأخرى لنحترس من أن يضلنا روح الشيطان » (١٤١).

وسرعان ما ظهرت ثمار التعليم الجديد. فهذا التعليم جعل الناس يهملون الكتاب المقدس وينبذونه تماما، وساد التشويش في المدارس. فإذ رفض التلاميذ كل رادع تركوا دراساتهم وخرجوا من الجامعة. والرجال الذين حسبوا أنفسهم أكفاء لإنعاش عمل الإصلاح والسيطرة عليه لم يفلحوا إلا في الإتيان به إلى حافة الدمار وشفا الخراب. فاستعاد البابويون ثقتهم الآن وصاحوا قائلين: « بعد معركة واحدة سنفوز بكل شيء وننتصر » (١٤٢).

فإذ سمع لوثر وهو في وارتبرك بما قد حدث قال باهتمام عميق: « لقد كنت أتوقع دائما أن الشيطان سيقذفنا بهذا الوباء » (١٤٣). وقد عرف طبيعة أولئك الأنبياء الأذعياء، وعرف الخطر الذي كان يهدد قضية الحق. إن مقاومة البابا والإمبراطور لم تسبب له مثل هذا الارتباك والضيق العظيم الذي يحس به الآن. فمن بين الذين كانوا يعترفون بأنهم دعاة الإصلاح وجنوده الأمناء قام قوم وانقلبوا عليه وصاروا ألد أعدائه. والحقائق نفسها التي جلبت لقلبه الفرح والعزاء العظيم استخدمت في إثارة النزاع والخصومة وأحداث التشويش في الكنيسة.

معركة الحق

في عمل الإصلاح كان روح الله يحث لوثر على التقدم إلى الأمام، وقد دفعه إلى أبعد من نفسه. إنه لم يكن يقصد أن يقف المواقف التي وقفها أو أن يحدث مثل تلك الانقلابات الجوهرية. إنما هو كان مجرد آلة في يد القدرة غير المحدودة. ومع ذلك فقد كان يرتعد جزعا على نتيجة عمله. لقد قال مرة:

« لو علمت أن تعاليمي قد أضرت بإنسان مهما كان وضعياً خامل الذكر — وهذا ما لم تفعله لأن تعاليمي هي الإنجيل نفسه — لكنت أفضل أن أموت عشر مرات على أن أرفض التراجع وإنكار تعاليمي » (١٤٤).

أما الآن فهي وارتبرك نفسها التي كانت مركز الإصلاح تقع تحت سيطرة التعصب والعصيان. ومع أن هذه النتيجة المخيفة لم تكن نتيجة تعاليم لوثر إلا أن أعداءه في كل ألمانيا ألصقوا به هذه التهمة. وأحياناً كان يسأل وهو مر النفس قائلاً: « أيمكن أن تكون هذه هي خاتمة عمل الإصلاح العظيم هذا؟ » (١٤٥). وإذا كان يجاهد مع الله في الصلاة ملاً السلام قلبه من جديد فصلى قائلاً: « إن العمل ليس عملي بل هو عملك. وأنت لا تسمح لأن تفسده الخرافات أو التعصب ». لكنه لم يعد يطبق البقاء حيث كان وقتاً أطول بعيداً من النضال في مثل تلك الظروف المتأزمة، ولذلك عوّل على العودة إلى وتبرك.

ومن دون تأخر أو تردد شرع في القيام بتلك الرحلة الخطرة. كان واقعا تحت لعنة الإمبراطور وكان لأعدائه ملء الحرية في أن يغتالوه، كما كان محظوراً على أصدقائه أن يقدموا له مساعدة أو ملجأ يلوذ به. وقد اتخذت حكومة الإمبراطور أقصى الإجراءات ضد تابعيه. لكنّه رأى أن عمل الإنجيل معرض للخطر فخرج من مخبئه بلا خوف باسم الرب ليحارب لأجل الحق.

وفي رسالة بعث بها إلى المنتخب، بعدما أخبره أنه ينوي مغادرة قلعة وارتبرك، قال: « ليكن معلوما لدى سموكم أنني ذاهب إلى وتبرك تحت حراسة أسمى بكثير مما يمكن أن يقدمه الأمراء والمنتخبون. وأنا لا أفكر في التماس معاضدة سموكم وبالبحري لا أرغب في حمايتكم، فأنا أفضل بالبحري أن أحميكم بنفسي. ولو علمت أن سموكم تستطيع حمايتي أو يمكنك تقديمها لي، لما فكرت في الذهاب إلى وتبرك بالمرّة. إن السيف الذي يستطيع الذود عن هذه القضية وإنجاحها لا وجود له، فينبغي أن يعمل الله كل شيء من دون معونة الإنسان أو موافقته. إن من لديه أعظم إيمان هو الذي يستطيع أن يقدم أعظم حماية » (١٤٦).

في رسالة أخرى كتبها لوثر وهو في طريقه إلى أضاف قائلاً: « إنني على استعداد لأن أثير سخط سموكم وغضب العالم كله. أليس أهل وتبرك هم خرافي؟ ألم يجعلهم الله أمانة في عنقي؟ أفلا ينبغي لي إذا دعت الضرورة أن أعرض نفسي للموت في سبيلهم؟ فضلاً عن هذا فأنا أخشى من نشوب ثورة في ألمانيا يعاقب بها الله أمتنا » (١٤٧).

قوة الكلمة

استأنف لوثر عمله بحذر وتواضع عظيمين يصحبهما العزم والثبات. فقد قال: « علينا بواسطة كلمة الله أن نهدم ونخرب ما قد أقيم بواسطة العنف. إنني لن ألجأ إلى القوة في محاربة المتعلقين بالخرافات والعدمي الإيمان... فينبغي ألا نُكره أحداً على شيء. إن الحرية هي جوهر الإيمان » (١٤٨).

انتشر في كل مدينة وتبرك نبأ يفيد أن لوثر قد عاد، وأنه مزعم أن يعظ. فتقاطر الناس من كل مكان

وازدحمت الكنيسة بالعابدين بحيث لم يبق موضع لقدم. فلما اعتلى المنبر جعل يعلمهم ويوصيهم ويوبخهم بحكمة ورقة بالغتين. وإذا كان يتحدث عن تصرف من قد لجأوا إلى إجراءات عنيفة في إبطال الذبيحة الإلهية (القداس) قال: « إن القداس شيء رديء والله يقاومه، وينبغي إلغاؤه. وأحب أن يستعاض عنه في كل العالم بالعشاء الرباني كما هو مرسوم في الإنجيل، ولكن ينبغي ألا نرغم أحداً على تركه بل لنترك الأمر بين يدي الله. فكلمته هي التي يجب أن تعمل لا نحن. قد تسألونني قائلين: ولماذا ذلك؟ فأقول لكم إن السبب هو أنني لا أمسك قلوب الناس في يدي كما يمسك الفخاري الطين. نعم أن لنا الحق في أن نتكلم ولكن لا حق لنا في أن نفعل. علينا أن نبشر، أما الباقي فمن اختصاص الله. ولو أنني لجأت إلى العنف فما الذي أجنيه من وراء ذلك؟ التجهم والعبوسة والتمسك بالرسميات والفرائض البشرية وتقليد الحركات والرياء... ولكن لن يكون هناك إخلاص القلب ولا إيمان ولا محبة. فإذا أعوزتنا هذه الأشياء الثلاثة فكل شيء يعوزنا ونكون ناقصين. وأنا لا أقدم فلسا واحدا للحصول على مثل هذه النتيجة... إن الله يعمل عن طريق كلمته وحدها أكثر مما نستطيع فعله أنتم وأنا وكل العالم بقوتنا المتضافرة. إن الله يمسك بالقلب، فمتى أمتلك القلب فقد أمتلك كل شيء

« إنني سأكرز وأباحث وأكتب، ولكنني لن أرغم إنسانا، لأن الإيمان شيء اختياري. انظروا ماذا فعلت. لقد وقفت ضد البابا وضد صكوك الغفران وضد البابويين ولكن من دون عنف أو ثورة. لقد قدمت كلمة الله وكرزتُ وكتبتُ، هذا هو كل ما قد فعلته. ومع ذلك ففيما كنت نائما حدث أن الكلمة التي كرزتُ بها أطاحت بالبابوية، بحيث أنه لم يوقع بها مثل ذلك الضرر أمير أو إمبراطور. ومع ذلك فأنا لم أفعل شيئا، إنما الكلمة الإلهية هي التي عملت كل هذا. فلو أنني حاولت الالتجاء إلى القوة فربما كانت كل ألمانيا قد غرقت في طوفان هائل من الدم. وماذا كانت تكون النتيجة؟ الخراب والدمار للجسد والنفس. ولهذا ظللت هادئا وتركت كلمة الله تجول وحدها في كل العالم » (١٤٩).

وظل لوثر يعظ يوما بعد يوم، لمدة أسبوع كامل، تلك الجموع العطشى إلى سماع كلامه. فكسرت كلمة الله سحر ثورة التعصب. إن قوة الإنجيل أعادت الشعب الضال إلى طريق الحق.

ولم يكن لوثر يرغب في منازلة المتعصبين الذين نشأ عن تصرفهم شر عظيم. وقد علم أنهم قوم حكمهم غير سليم وأهواءهم غير مضبوطة، وإذا كانوا يدعون أنهم قد حصلوا على استنارة خاصة من السماء لم يكونوا يحتملون أقل مناقضة لأقوالهم أو حتى أرق توبيخ أو مشورة. وإذا كانوا يدعون لأنفسهم السيادة العليا كانوا ينتظرون من كل إنسان أن يعترف بصدق دعواهم من دون سؤال. ولكن إذ طلبوا مقابلة لوثر فقد قبل ذلك وهكذا أفلح في فضح ادعاءاتهم إلى حد كبير حتى لقد رحل أولئك المحتالون عن وتبرك في الحال.

المعلمون يحتقرون الكلمة

وقد أوقف التعصب عند حده إلى حين، ولكن بعد ذلك بعدة سنين ثار بأكثر عنف وكانت له نتائج أشد هولاً. وقد قال لوثر عن المتزعمين لهذه الحركة: « إنهم يعتبرون الكتب المقدسة مجرد رسالة

ميتة. وقد جعلوا كلهم يصرخون قائلين: 'الروح! الروح!' ولكني بكل تأكيد لن أسير في ذلك الطريق الذي يقودهم فيه روحهم. ليحفظني الله برحمته من كنيسة لا يوجد فيها غير القديسين. إني أشتهي أن أعيش مع الفقراء والضعفاء والمرضى الذين يعرفون خطاياهم ويشعرون بها والذين يتنهدون ويصرخون إلى الله دائماً من أعماق قلوبهم للحصول على العزاء والعون « (١٥٠).

كان توماس مونزر أنشط أولئك الرجال المتعصبين. كان رجلاً ذا مقدرة عظيمة لو أحسن توجيهها لإعائته على أن يصنع خيراً، ولكنه لم يكن قد تعلم أول مبادئ الديانة الحقيقية. « كانت قد تحكمت فيه رغبة في إصلاح العالم، ولكنه نشي، كما يفعل كل المتحمسين، إنه ينبغي أن يبدأ بإصلاح نفسه » (١٥١). كان يطمع في الحصول على مركز ونفوذ، وكان يرفض أن يكون في المركز الثاني حتى بعد لوثر. وقد أعلن أن المصلحين إذ وضعوا سلطان الكتاب المقدس في مكان سلطان البابا إنما كانوا يوطدون دعائم شكل آخر من أشكال البابوية. كما ادعى قائلاً أنه هو نفسه مرسل من قبل الله لتقديم الإصلاح الحقيقي. وقال مونزر: « ومن عنده هذه الروح فعنده الإيمان الحقيقي حتى لو لم ير الكتاب المقدس في حياته » (١٥٢).

جعل أولئك المعلمون المتعصبون الانفعالات تتحكم فيهم إذ اعتبروا كل فكر وكل وازع صوتاً من الله. ولهذا تجاوزوا الحدود. بل أن بعضاً منهم أحرقوا كتبهم المقدسة يصيحون قائلين: « إن الحرف يقتل وأما الروح فيحيي ». وقد دغدغ تعليم مونزر رغبة الناس في الأشياء العجيبة، في حين أنه أشبع كبرياءهم وغرورهم إذ أنه في الواقع قدم الآراء البشرية على كلمة الله. واعتنق تعاليمه آلاف من الناس. وسرعان ما شهّر بكل الأنظمة المتبعة في العبادة الجهارية، كما أعلن أن تقديم الطاعة للأمراء هو كمحاولة عبادة الله وبليعال.

إن عقول الناس إذ كانت قد بدأت تطرح بعيداً منها نير البابوية أخذت تتبرم من روادع السلطة المدنية. وتعاليم مونزر الثورية التي كانوا يدعون أنها مصادق عليها من الله ساقطت الناس إلى طرح كل رادع أو ضابط، وإطلاق العنان لتعصبهم وعواطفهم الثائرة. وقد تبعت ذلك ارهب الفتن والمنازعات فارتوت أرض ألمانياً بالدماء.

لوثر تعذّب الأحداث

إن العذاب النفسي الذي كان لوثر قد جاز به في أرفرت صار الآن يضغط قلبه بشدة مضاعفة إذ ألصقت تهمة التعصب بالإصلاح. ولقد أعلن الأمراء البابويون، وكان كثيرون مستعدين للتصديق على ذلك الإعلان، إن الثورة هي الثمرة الشرعية لتعاليم لوثر. ومع أن هذه التهمة لم يكن لها أي أساس من الصحة فقد جلبت ضيقاً وغماً عظيمين لنفس المصلح. فكون دعوة الحق تهان إلى حد مساواتها بالتعصب المنحط الدنيء، كان ذلك أكثر مما يستطيع احتماله. ومن الناحية الأخرى فإن مترعمي الثورة كانوا يبغضون لوثر لأنه فضلاً عن كونه قد قاوم تعاليمهم وأنكر ادعاءهم الإلهام الإلهي فقد أعلن أنهم متمردون على السلطة المدنية، فأرادوا أن يثأروا منه بأن اشتكوا عليه بأنه مدعٍ حقير، فبدا كأنه قد جلب إلى نفسه عداوة الأمراء والشعب.

فرح البابويون لذلك فرحا عظيما إذ كانوا ينتظرون أن ينهار الإصلاح سريعا، وكانوا يلومون لوثر حتى على الأخطاء التي كان يحاول جادا إصلاحها. أما الحزب المتعصب فإذ ادعوا كذبا أنهم عوملوا معاملة ظالمة نجحوا في الظفر بعطف فريق كبير من الشعب، وكما هو الحال في غالب الأحيان مع من ينحازون إلى جانب الضلال والخطأ فقد اعتبرهم الناس شهداء. وهكذا حدث أن أولئك الذين كانوا يبذلون كل قواهم ونشاطهم في محاربة الإصلاح نالوا العطف والمديح كمن هم ضحايا القسوة والظلم. هذا هو عمل الشيطان الذي تدفع الناس إليه روحُ العصيان نفسها التي ظهرت أول ما ظهرت في السماء.

عمل الشيطان

يحاول الشيطان على الدوام أن يخدع الناس ويغمر بهم بحيث يدعون الخطيئة براً والبر خطيئة. وما أعظم نجاحه! وكم من مرة يقع اللوم والعار على خدام الله الأمانة لأنهم يصمدون بلا خوف دفاعا عن الحق! إن أعوان الشيطان يمدحون ويُداهنون، والناس ينظرون إليهم كشهداء، بينما أولئك الذين يجب امتداحهم ومساندتهم لأجل ولائهم لله يُتركون ليقفوا وحدهم تحت الشبهة والشك.

لا تزال الطهارة الزائفة أو القداسة الكاذبة تقوم بعملها، عمل الخداع، فكما كانت في أيام لوثر كذلك في أيامنا هذه تعرض نفسها بأسماء مختلفة، محاولة أفكار الناس عن الكتاب ليسيروا وراء مشاعرهم وانفعالاتهم بدلا من تقديم طاعتهم لشرعية الله. هذه مكيدة من أنجح مكائد الشيطان لإلصاق العار بالطهارة والحق.

دافع لوثر دفاعا مجيدا بلا خوف عن الحق ضد كل الهجمات التي كانت تأتيه من كل جانب. ولقد برهنت كلمة الله على أنها سلاح قوي في كل الحروب. فبتلك الكلمة حارب ضد سلطة البابا المغتصبة والفلسفة العقلية، كما وقف ثابتاً أمام التعصب الذي كان يحاول التحالف مع الإصلاح.

كان كل من هذه العناصر المضادة بطريقته الخاصة يلقي جانباً الكلمة المقدسة ويعظم الحكمة البشرية على أنها منبع المعرفة والحق الديني. فالمذهب العقلي يؤلّه العقل ويجعله مقياس الدين. والبابوية إذ تدّعي للحبر الأعظم إلهاما آتيا من الرسل بسلسلة متصلة وغير متغيرة مدى العصور تفسح المجال لكل أنواع الإسراف والفساد تحت ستار قداسة التفويض الرسولي. والإلهام الذي ادعاه مونزر ورفاقه لأنفسهم لم يكن من منبع أسمى من الأوهام العقلية، وكان تأثيره مدمرا لكل سلطة بشرية أو إلهية. لكن المسيحية الحقّة تقبل كلمة الله ككنز الحق الموحى به ومحك كل أنواع الإلهام.

بعدها عاد لوثر من وارتربرك أكمل ترجمة العهد الجديد. وبعد قليل قدم الإنجيل إلى شعب ألمانيا بلغتهم. وقد استقبل كل من كانوا يحبون الحق هذه الترجمة بفرح عظيم، أما من اختاروا التقاليد البشرية ووصايا الناس فقد رفضوها بكل ازدراء.

ولقد فزع الكهنة عندما فكروا في أن عامة الشعب سيكونون الآن قادرين على التباحث معهم في تعاليم كلمة الله وحينئذ سيكتشف جهلهم ويفضح. إن أسلحة حاجتهم الجسدية كانت عاجزة أمام سيف الروح. وقد حشدت روما كل سلطتها لتمنع تداول الكتاب المقدس وانتشاره. لكن المراسيم

والحروم وشتى العذابات كانت كلها بلا جدوى. وبقدر ما دانت روما الكتاب ونهت الناس عن قراءته زادت لهفة الشعب لمعرفة تعاليمه الحقّة. وكل من كانوا يعرفون القراءة كانوا مشتاقين إلى درس كلمة الله بأنفسهم. كانوا يحملونها معهم ويقرأونها مرارا، ولم يكتفوا إلا بعدما حفظوا أجزاء كبيرة من الكتاب عن ظهر قلب. فإذ رأى لوثر الخطوة التي نالها كتاب العهد الجديد بدأ في الحال في ترجمة العهد القديم ونشره في أجزاء كلما أنهى ترجمة واحد منها.

كان الناس يرحبون بمؤلفات لوثر في المدن والقرى على السواء، « وإن ما قد ألفه لوثر وأصدقاؤه نشره قوم آخرون. وبعض الرهبان إذ اقتنعوا بعدم قانونية الالتزامات الرهبانية ورغبوا في الاستعاضة عن حياة الخمول والكسل الطويلة بحياة العمل الناشط، ولكنهم كانوا يجهلون كيفية إذاعة كلمة الله جهلا تاما، جعلوا يتجولون في الأقاليم يزورون القرى والأكواخ ليبيعوا كتب لوثر وأصدقاؤه، وسرعان ما غصت مدن ألمانيا وقراها بهؤلاء الموزعين الشجعان » (١٥٣).

تأثير قراءة الكتاب

درس الناس هذه الكتب باهتمام عظيم وكان يستوي في ذلك الأغنياء منهم والفقراء، العلماء والبسطاء. وفي الليل كان معلمو مدارس القرى يتلون هذه الكتب على مسامع جماعات صغيرة من الناس وهم جالسون حول المواقد. ومع كل جهد كانت بعض النفوس تقتنع بالحق، وإذ تقبل الكلمة بفرح تقوم بدورها بنشر تلك البشرى للآخرين.

وقد تحقق كلام الوحي القائل: « فَتُحْ كَلَامُكَ يُنِيرُ، يُعَقِّلُ الْجُهَالَ » (مزمور ١١٩: ١٣٠). وقد أحدثت دراسة كلمة الله تغييرا عظيما في عقول الشعب وقلوبهم. كان الحكم البابوي قد وضع نيرا من حديد على أعناق رعاياه فأبقاهم في حالة الجهل والانحطاط. فكان الناس يمارسون الطقوس بتدقيق خرافي، لكن القلب والعقل لم يكونا يشتركان في تلك الممارسات إلا بقدر ضئيل. فإذ قدمت كرازة لوثر إلى الشعب حقائق كلمة الله الواضحة ثم وضعت تلك الكلمة إياها في متناول الشعب فذلك أيقظ قواهم الهاجعة. ولم يكتف بأن طهر طبيعتهم الروحية ورفع من قدرها ولكنه أيضاً منح عقولهم قوة ونشاطا جديدين.

كان يرى أشخاص من كل الطبقات ممسكين بأيديهم الكتاب المقدس وهم يدافعون عن تعاليم الإصلاح وعقائده. أما البابويون الذين كانوا قد وكلوا إلى الكهنة والرهبان أمر دراسة كلمة الله فقد طلبوا منهم الآن أن ينبروا لتفنيد التعاليم الجديدة. ولكن إذ كان الكهنة والرهبان يجهلون الكتب وقوة الله انهزموا هزيمة منكرة أمام أولئك الذين اتهموهم بالجهل والهرطقة. قال كاتب كاثوليكي: « إن لوثر لسوء الحظ قد أوصى تابعيه ألا يؤمنوا بأي كلام آخر غير الكتاب المقدس » (١٥٤). وقد كان كثيرون من الشعب يتجمعون ليسمعوا الحق الذي كان يدافع عنه أناس قليلو المعرفة وبسطاء، بل كان هؤلاء يتباحثون فيه مع بعض أساتذة اللاهوت العلماء الفصحاء، وكان جهل أولئك العظماء المعيب يبدو واضحا عندما كانت حججهم تصطدم بتعاليم كلمة الله البسيطة. وكان العمال والجنود والنساء وحتى الصغار أكثر دراية والماما بتعاليم الكتاب المقدس من الكهنة والفلاسفة وأساتذة العلم.

كان الفرق بين تلاميذ الإنجيل ومروجي الخرافات البابوية واضحاً في أوساط المثقفين كما كان بين عامة الشعب: « وقد تصدّى للمدافعين عن التراتبية البابوية، الذين أهملوا دراسة اللغات ونشر الثقافة الأدبية، بعضُ الشبان من ذوي العقول الرحبة والأذهان الكريمة المكرسين للدرس والاستقراء والبحث في الكتب المقدسة، وجعلوا الطرائف الأدبية القديمة مألوفة لديهم؛ فإذ كانوا قد وهبوا عقولاً نشيطة ونفوساً عالية وقلوباً شجاعة فقد بلغوا من العلم شأنًا كبيراً بحيث لم يمكن لأحد أن يباريهم في ذلك أمداً طويلاً. ولذلك فعندما كان أولئك الشبان المدافعون عن الإصلاح يقارعون الأساتذة البابويين في أي اجتماع كانوا يهاجمونهم بسهولة وثقة عظيمة بحيث كان خصومهم الجهلة يتلعثمون ويرتبون ويجللهم الازدراء الذي كان يرى على وجوه جميع الحاضرين » (١٥٥).

وعندما رأى رجال الكهنوت البابويون قلة جموع المصلين استعانوا بالحكام، وبكل الوسائل حاولوا إرجاع الرعية إلى الحظيرة، لكنَّ هؤلاء كانوا قد وجدوا في التعاليم الجديدة ما أشبع نفوسهم، فتركوا أولئك الذين ظلوا أمداً طويلاً يطعمونهم من خرنوب الطقوس الخرافية التافهة والتقاليد البشرية.

وعندما اشتعلت نيران الاضطهاد ضد معلمي الحق تنبهوا إلى كلام المسيح القائل: « وَمَتَى طَرَدُوكُمْ (اضطهدوكم) في هذه المَدِينَةِ فَاهْرُبُوا إِلَى الْآخَرَى » (متى ١٠: ٢٣). لقد انبثق النور مشرقاً في كل مكان. وأحياناً كان أولئك الهاربون يجدون باباً مفتوحاً يرحب بهم، وحيث يمكنهم كانوا يبشرون بالمسيح، أحياناً في الكنيسة، فإن لم يسمح لهم بذلك وحُرموا من هذا الامتياز كانوا يكرزون في بيوت خاصة أو في العراء. فحيثما وجدوا من يستمع إليهم، يصبح ذلك المكان هيكلًا مقدسًا. والحق الذي كان يُعلن بمثل ذلك النشاط واليقين كان ينتشر بقوة لا تقاوم.

وعبثاً لجأ الكهنة إلى السلطات الدينية والمدنية لسحق الهرطقة وعبثاً كانوا يلجأون إلى السجن والتعذيب والنار والسيوف. لقد ختم آلاف من المؤمنين شهادتهم بدمهم ومع ذلك فقد ظل عمل الإصلاح يسير قدماً. لقد آل الاضطهاد إلى نشر الحق، أما التعصب الذي حاول الشيطان أن يقرنه به فقد نتج عنه إيضاح الفرق الشاسع بين عمل الشيطان وعمل الله.

11

احتجاج الأمراء

كان الاحتجاج الذي قدمه الأمراء المسيحيون في ألمانيا في مجمع سبايرز في عام ١٥٢٩ شهادة من أنبل الشهادات التي قدمت لصالح فترة الإصلاح. وقد ضمنت شجاعة رجال الله أولئك وإيمانهم وثباتهم للأجيال التالية حرية الفكر وحرية الضمير. وقد أطلق احتجاجهم على الكنائس المصلحة اسم بروتستانت (أي المحتجين). والمبادئ المذكورة في ذلك الاحتجاج هي « جوهر البروتستانتية » (١٥٦).

لقد حلَّ على الإصلاح يوم ظلام ووعيد. فعلى الرغم من منشور ورمس الذي فيه أعلن أن لوثر صار طريد القانون وحرَّم نشر تعليمه أو معتقده، فقد ساد التسامح الديني إلى هذا الحين، في أرجاء الإمبراطورية وأوقف الله القوات المناوئة للحق عند حدها. كان شارل الخامس قد عقد العزم على سحق الإصلاح، ولكن في أحيان كثيرة كلما كان يرفع يده ليضرب كان يضطر إلى تحويل الضربة بعيدا. ومرارا كثيرة كان يرى أن الهلاك المباشر السريع لكل من تجرأوا على مقاومة روما أمر لا مفر منه. ولكن في اللحظة الحرجة كانت جيوش الأتراك تُرى على حدود البلاد الشرقية، أو كان ملك فرنسا أو البابا نفسه الذي كان يغار من عظمة الإمبراطور المتزايدة يشن عليه الحرب، وهكذا في غمرة منازعات الأمم وضوضائها ترك الإصلاح ليتقوى ويمتد.

ومع ذلك فإن الولاة البابويون كانوا قد أخفوا ضغائنهم حتى يستطيعوا أن يتكاتفوا ضد رجال الإصلاح. كان مجلس سبايرز الذي انعقد في عام ١٥٢٦ قد منح لكل ولاية، الحرية التامة في الشؤون الدينية إلى أن يجتمع المجلس العام. ولكن ما إن زال الخطر الذي بسببه صدر هذا التصريح حتى استدعى الإمبراطور المجلس ليلتئم مرة ثانية في سبايرز في عام ١٥٢٩ لأجل سحق الهرطقة. وكان لا بد من استمالة الأمراء بالوسائل السلمية إن أمكن لينحازوا إلى جانب الإمبراطور ضد الإصلاح، فإن لم تغلح هذه الوسائل كان شارل مستعدا لأن يحارب بحد السيف.

ابتهج البابويون لذلك كثيرا، فقد حضر إلى سبايرز عدد غفير منهم وجأهروا بعدائهم لرجال الإصلاح وكل من حبذوا أعمالهم أو قبلوا مبادئهم. وقد قال ميلانكتون: « إننا لعنة ونفاية العالم لكنَّ المسيح سينظر من عليائه إلى شعبه المسكين ويحفظهم » (١٥٧). وقد حُرِّم على الأمراء الإنجيليين الذين حضروا المجلس أن يسمحوا بأن يُنادى بالإنجيل حتى في مساكنهم. إلا أن شعب سبايرز كانوا عطشى إلى كلمة الله، فعلى رغم هذا النهي تقاطرت آلاف منهم إلى الخدمات التي كانت تقام في كنيسة منتخب سكسونيا.

هذا الأمر عَجَّل بحلول الأزمة، فقد صدرت من قبل الإمبراطور رسالة تقول للمجلس أنه لكون القرار الذي منح الشعب حرية الضمير قد نجم عنه الشغب والاضطراب فإن الإمبراطور ينوي إلغائه، فأثار هذا التصرف التعسفي غضب المسيحيين الإنجيليين وفرعهم. وقد قال أحدهم: « ها هو المسيح

يقع مرة ثانية فريسة بين أيدي قيافا وبيلاطس ». وزادت قسوة البابويين وهياجهم، وأعلن أحد المتعصبين منهم قائلاً: « إن الأتراك خير من اللوثريين، لأن الأتراك يحفظون أيام الصوم أما اللوثريون فيتعدونها. فلو كان لنا أن نختار إما كتاب الله المقدس أو الضلالات المتوطنة قديماً في الكنيسة، فلا بد أن نرفض الكتاب المقدس ». وقال ميلانكتون: « في كل يوم وفي وسط المجمع كله يقذفنا فابر، نحن المتمسكين بالإنجيل، بحجر » (١٥٨).

كان التسامح الديني قد تثبت بحكم القانون وقد عازمت الولايات الإنجيلية على مقاومة كل اعتداء على حقوقها. وإذا كان لوثر لا يزال تحت الحرمان الذي قد أوقعه عليه مرسوم ورمس فلم يكن مسموحاً له بالذهاب إلى سبايرز، فحل في مكانه زملاؤه الأمراء الذين قد أقامهم الله للدفاع عن حقه في تلك الحالة الطارئة. كان فريدريك منتخب سكسونيا النبيل، الذي حمى لوثر من قبل، قد مات، فرحب بالإصلاح وبفرح أخوه الدوق جون، الذي صار حاكماً من بعده. ومع أنه كان من دعاة السلام فقد أبدى نشاطاً وشجاعة عظيمين في كل المسائل المتعلقة بمصالح الإيمان.

مواجهة الأزمة في سبايرز

طلب الكهنة أن تخضع الولايات التي اعتنقت الإصلاح لسلطان روما خضوعاً كاملاً. ومن الناحية الأخرى تمسك المصلحون بحقوقهم في الحرية التي قد مُنحت لهم من قبل. ولم يرضوا بأن تعود روما لتبسط سلطانها على تلك الولايات التي قد قبلت كلمة الله بفرح عظيم.

وقد اقترح أخيراً حل وسط مفاده أنه في الأماكن التي لم ترسخ فيها قدم الإصلاح ينبغي تنفيذ مرسوم ورمس بكل دقة وصرامة. « وفي الأماكن التي انحرف الناس فيها عن الإصلاح والتي لا يمكن قبوله فيها من دون خطر نشوب ثورة ينبغي لهم على الأقل ألا يقوموا بأي إصلاح جديد، وينبغي ألا يلمحوا إلى أية نقطة هي موضوع جدل، ويحظر عليهم مقاومة الاحتفال بذيبة القداس، وعليهم ألا يسمحوا لأي كاثوليكي باعتناق المذهب اللوثري » (١٥٩). وقد أقر المجلس هذا الإجراء الذي رضي به الكهنة والأساقفة بغبطة عظيمة.

فلو نُفذ هذا المنشور « لما كان يمكن للإصلاح أن يمتد... إذ لم يكن معروفاً بعد، ولما أمكن إرساءه على أسس راسخة. حيث كان موجوداً من قبل » (١٦٠). وكانت تحرّم حرية الكلام، ولم يكن يسمح بانضمام متجديدين إليهم. وقد طُلب من أصدقاء الإصلاح ودُعاه الخضوع لهذه القيود والنواهي في الحال. فبدا وكأن آمال العالم توشك أن تنطفئ. « إن رسوخ قدم الحكومة البابوية من جديد... لا بد أن يعيد الاضطهاد والإهانات القديمة ». وسرعان ما يعطي المجال « للقضاء على ذلك العمل الذي قد تلقى هزات عنيفة قضاء تاماً بواسطة التعصب والخصومات » (١٦١).

نتائج عظيمة في خطر

وعندما اجتمع الحزب الإنجيلي للتأمل والتشااور كانوا ينظرون بعضهم إلى بعض بفرح وارتباك، وجعلوا يتساءلون في ما بينهم قائلين: « وما العمل؟ » إن نتائج عظيمة كانت مستهدفة للخطر. « هل يخضع رجال الإصلاح ويقبلون المرسوم؟ ما كان أسهل عليهم في هذه الأزمة الهائلة أن يأخذوا

بمشورة تجعلهم ينهجون نهجا خاطئاً! وما كان أكثر الحجج المقبولة ظاهراً والأسباب المعقولة التي كان يمكن أن تجعلهم يخضعون! لقد أُعطي للأمراء اللوثريون ضمان لممارسة شعائر ديانتهم بكل حرية، كما أُعطي هذا الضمان لكل رعاياهم الذين كانوا قد اعتنقوا المبادئ المصلحة قبل اتخاذ ذلك الإجراء. أفلم يكن ذلك كافياً لهم؟ ما أكثر المخاطر التي سينجون منها لو خضعوا! وما أكثر المخاطر والحروب المجهولة التي ستحل بهم إذا هم تهادوا في المقاومة! ومن يدري ما هي الفرص السانحة التي يحملها لهم المستقبل؟ علينا أن نشد السلام ونمسك بغصن الزيتون الذي تمده لنا روما ونضمم جراح ألمانياً. يمثل هذه الحجج كان يتاح للمصلحين أن يبرروا قبولهم السير في طريق كان كفيلاً بأن يقضي على قضيتهم قضاءً تاماً.

« ولحسن الحظ نظروا وتأملوا في المبدأ الذي بُنيت عليه هذه التسوية وتصرفوا بإيمان. وماذا كان ذلك المبدأ؟ لقد كان من حق روما أن ترغب ضمائر الناس وتحرم التساؤل الحر. ولكن ألم يكن من حقهم وحق رعاياهم البروتستانت أن يتمتعوا بالحرية الدينية؟ نعم كان لهم أن يتمتعوا بها كإحسان ومئة مشروطة، لا كحق مكتسب. ولكن في كل ما كان خارجاً عن نطاق تلك التسوية كان ينبغي أن يتحكم مبدأ السلطة العظيم. فالضمير لا يؤخذ بعين الاعتبار، وكانت روما هي القاضي الذي لا مرد لحكمه والذي ينبغي إطاعته. إن قبول تلك التسوية المقترحة كان يمكن أن يكون إذعانا إيجابياً لحصر الحرية الدينية في إقليم سكسونيا المصلحة وحدها. أما في ما عدا ذلك من كل بلدان العالم المسيحي فكانت حرية التساؤل والاعتراف بالإيمان المصلح معتبرة جرائم جزاؤها السجن والموت حرقاً. فهل يرضون بحصر الحرية الدينية في نطاق ضيق؟ أو يرضون بأن يشاع أن الإصلاح لن يكون له مهتدون جدد، أو أنه قد أحرز آخر انتصاراته، وأنه أينما كان سلطان روما وسيادتها في الوقت الراهن فستدوم تلك السيادة؟ وهل كان يمكن أن يتبرأ المصلحون من دماء مئات وألوف الناس الذين تبعا لهذه التسوية كانوا سيسلمون أرواحهم في أراض خاضعة لحكم البابوية؟ في تلك الساعة الحرجة العظيمة كان معنى هذا أنهم يخونون قضية الإنجيل وحریات العالم المسيحي » (١٦٢). لقد كانوا يفضلون على هذا تضحية كل شيء حتى أملاكهم وتيجانهم وحياتهم » (١٦٣).

قال الأمرء: « لنرفض هذا المرسوم. ففي ما يختص بالضمير لا سلطان للأغلبية ». وقد أعلن المبعوثون قائلين: « إننا مدينون بالسلام الذي تنعم فيه الإمبراطورية لمرسوم عام ١٥٢٦، فإذا ألغي فلا بد من حدوث اضطرابات وانقسامات في ألمانيا. إن المجلس عاجز عن عمل أي شيء أكثر من إبقاء الحرية الدينية إلى أن ينعقد المجمع » (١٦٤). إن من واجب الدولة أن تحرص على حرية الضمير، وهذا هو مدى سلطانها في المسائل الدينية. فكل حكومة علمانية تحاول تنظيم الممارسات الدينية أو ترغب الناس على حفظها بواسطة السلطة المدنية إنما تضحي بنفس المبدأ الذي لأجله حارب المسيحيون الإنجيليين وكافحوا بكل شجاعة.

ولقد عقد البابويون العزم على القضاء على ما أسموه « عناداً جريئاً »، وبدأوا بمحاولة إيقاع الانقسامات بين معاصدي الإصلاح وبإدخال الخوف إلى قلوب من لم يجاهرُوا بمناصرتِهِ. أخيراً دعي ممثلو المدن الحرة للمثول أمام المجلس وطلب منهم إعلان ما إذا كانوا يرضون بشروط الاقتراح أم لا،

فطلبوا التأجيل لكن طلبهم رُفض. وعند الامتحان وقف ما يقرب من نصف عددهم يناصرون المصلحين. وأولئك الذين رفضوا تضحية حرية الضمير وحق الفرد في أن يكون له حرية رأي عرفوا جيداً أن تصرفهم سيجعلهم هدفاً للانتقاد والإدانة والاضطهاد. وقد قال أحد المندوبين: « علينا إما أن ننكر كلمة الله أو أن نُحرق » (١٦٥).

وقفة الأمراء المشرفة

رأى الملك فرديناند الذي ناب عن الإمبراطور في حضور المجلس أن المرسوم قد تتجم عنه انقسامات خطيرة ما لم يقتنع الأمراء بقبوله وتأييده. ولذلك لجأ إلى قوة الإقناع إذ كان يعلم جيداً أن الالتجاء إلى العنف والقوة مع مثل أولئك الرجال لن يزيدهم إلا إصراراً. ولذلك « التمس من الأمراء قبول المرسوم مؤكداً لهم أن ذلك سيجعل الإمبراطور راضياً عنهم غاية الرضى ». لكن هؤلاء الرجال الأمناء كانوا يعترفون بسيادة أعظم وأسمى من سيادة الحكام الأرضيين، ولهذا أجابوه برصانة: « إننا مستعدون لأن نطيع الإمبراطور في كل ما يؤول إلى إقرار السلام وتمجيد الله وإكرامه » (١٦٦).

أخيراً أعلن الملك أمام المجلس قائلاً للمنتخب وأصدقائه: « إن المرسوم أوشك أن يصبح في صورة إرادة إمبراطورية، وأنه لم يبقَ أمامهم إلا الخضوع للأغلبية ». قال هذا ثم انسحب من المجمع، وبذلك لم يعط للمصلحين مجالاً للمدولة أو التشاور أو حتى تقديم جواب. « وعبثاً أرسلوا وفداً إلى الملك ليتوسلوا إليه أن يعود ». أجابهم قائلاً: « لقد بات الأمر مقرراً، ولذلك فلم يبقَ أمامكم إلا الخضوع » (١٦٧).

كان رجال الحزب الإمبراطوري مقتنعين أن الأمراء المسيحيين سيظلون متمسكين بالكتاب المقدس على أنه أسمى من العقائد والتعاليم البشرية ومطالبها، كما كانوا عالمين أيضاً أنه أينما اعتنق الناس هذا المبدأ انهار سلطان البابوية. ولكنهم كغيرهم من آلاف الناس منذ ذلك الحين إذ كانوا ينظرون إلى الأشياء التي تُرى كانوا يخدعون أنفسهم قائلين إن دعوى الإمبراطور والبابا قوية، أما دعوى المصلحين فضعيفة. ولو استند المصلحون إلى المعونة البشرية وحدها لأصبحوا عاجزين كما قد ظنهم البابويون. ولكنهم مع قلة عددهم ومع أنهم كانوا منشقين على روما كانت لهم قوتهم. لقد استأنفوا « من قرار المجلس إلى كلمة الحق ومن الإمبراطور شارل إلى يسوع المسيح ملك الملوك ورب الأرباب » (١٦٨).

لما رفض فرديناند الالتفات إلى اقتناعات الأمراء المستقيمة السليمة صمم أولئك على تعليق أهمية كبيرة على غيابه بأن يقدموا احتجاجهم أمام المجلس الوطني من دون إبطاء. ولذلك كتبوا بياناً رسمياً وقدموه إلى مجلس الأمة.

وهذا ما جاء في عريضتهم: « إننا نحتج في عريضتنا هذه أمام الله خالقنا وحافظنا وفادينا ومخلصنا والذي سيكون دياننا في يوم ما، كما نحتج أيضاً أمام كل الناس وكل الخلائق إننا نحن بالأصالة عن أنفسنا وبالنيابة عن رعايانا لن نقبل أو نتمسك بما جاء في الأمر الصادر إذا كان يخالف إرادة الله ويناقض كلمته المقدسة وضمائرنا المستقيمة وخلاص نفوسنا.

« ما هذا! أنصادق على هذا المرسوم؟! هل نجزم أنه عندما يدعو الله القدير إنسانا لمعرفته لا يستطيع هذا الإنسان أن يقبل معرفة الله بسبب المرسوم! ». « لا تعليم أكيد إلا إذا تطابق وكلمة الله... الرب ينهانا عن قبول أي تعليم آخر غير تعليمه... وأقوال الله المقدسة ينبغي أن توضحها آيات أخرى أكثر وضوحا... إن الكتاب المقدس ضروري في كل شيء للمسيحي. وفهمه أمر ميسور وهو يعتبر أنه يبدد الظلمات. لقد عزمنا بنعمة الله على حفظ البشارة النقية القاطعة بكلمة الله وحدها كما هي مدونة في أسفار العهد القديم والعهد الجديد من دون أن نزيد عليها شيئا آخر يناقضها. إن كلمة الله هي الحق وحده وهي القانون الأكيد لكل تعليم ولكل حياة، ولا يمكنها أن تخذلنا أو تخذعنا. فالذي يبنى على هذا الأساس سيصمد أمام كل قوات الجحيم، في حين أن كل الأباطيل البشرية التي تقف ضد الكتاب ستسقط أمام وجه الله ».

« فلهذا السبب نحن نرفض حمل النير المفروض علينا ». « ونحن في الوقت نفسه ننتظر من جلالة الإمبراطور أن يعاملنا كسيد مسيحي يحب الله فوق كل شيء وإننا نعلن أننا مستعدون أن نقدم لجلالته ولكم أيها السادة الأجلاء المحبة والطاعة اللتين هما واجبتنا الشرعي العادل » (١٦٩).
تأثر أعضاء المجلس تأثرا عميقا. وقد ملأت الدهشة والفرح قلوب غالبيتهم بسبب جرأة أولئك المحتجين. فبدا المستقبل أمامهم عاصفا وغير مأمون أو مضمون، وكأن الانقسامات والخصومات وسفك الدماء أمور لا مفر منها. لكن المصلحين إذ كانوا واثقين من عدالة قضيتهم ومستندين إلى ذراع الله القدير « امتلأوا شجاعة وثباتا ».

إن المبادئ المتضمنة في هذا الاحتجاج الشهير... اشتملت على جوهر البروتستانتية، فهذا الاحتجاج يقاوم اثنين من المساوي التي يرتكبها الإنسان ضد الأمور المختصة بالإيمان، أولهما تهجم الحكام المدنيين، والثاني سلطة الكنيسة الاعباطية. والبروتستانتية ترفع سلطان الضمير فوق الحكام بدلا من هذه المساوي، وترفع كلمة الله فوق الكنيسة المنظورة. فهي أولا ترفض تدخل السلطة المدنية في الشؤون الإلهية، وتقول مع الأنبياء والرسول: « ينبغي أن يطاع الله أكثر من الناس ». وأمام تاج الإمبراطور شارل الخامس يُرفع اكليل يسوع المسيح، ولكنها تذهب إلى أبعد من ذلك، فهي تقدم هذا المبدأ القائل بأن كل التعاليم البشرية ينبغي أن تخضع لأقوال الله وتقف صاغرة أمامها » (١٧٠).
وفوق هذا فقد أكد أولئك المحتجون أن لهم الحق في المجاهرة باقتناعاتهم بالحق بكل حرية. فهم لن يؤمنوا ويطيعوا كلمة الله وحسب بل وسيعلمونها أيضا للناس، وقد أنكروا على الكهنة والحكام حق التدخل. كان الاحتجاج المقدم للمجلس في سبايرز شهادة احتفالية ضد التعصب الديني وتأييدا لحق كل الناس في عبادة الله بموجب ما تمليه عليه ضمائرهم.

تبني الاحتجاج

قُدِّم ذلك البيان ونُقش في عقول آلاف الناس كما سُجل في أسفار السماء حيث لن يستطيع بشر أن يمحوه. وقبلت كل ألمانيا الإنجيلية هذا على أنه تعبير عن إيمانها وعقيدها. وفي كل مكان كان الناس يرون في هذا البيان بشيرا بعصر جديد أفضل. وقد قال أحد الأمراء البروتستانت في سبايرز:

« ليحفظكم الله القدير الذي أعطاكم نعمة لتقديم هذا الاعتراف بهذه الشجاعة وهذا النشاط وهذه الحرية. ليحفظكم في ثباتكم المسيحي إلى يوم الدين » (١٧١).

لو أن الإصلاح بعد هذا القدر من النجاح الذي أحرزه رضي بمسايرة الظروف للحصول على رضى العالم لبرهن على خيائته وتكره لمبادئه، ولكان في ذلك القضاء التام عليه. ففي اختبار هؤلاء المصلحين النبلاء درس نافع لكل الأجيال التالية. وطريقة الشيطان في مقاومته لله وكلمته لم تتغير. وهو في هذه الأيام لا يزال يحارب الكتب المقدسة لكونها مرشد الإنسان في حياته، كما كان يفعل في القرن السادس عشر. في أيامنا هذه انحرف الناس بعيداً من تعاليم الكتاب وفرائضه، وذلك فهم بحاجة إلى الرجوع إلى المبدأ البروتستانتى العظيم: أَلْكِتَابُ الْمُقَدَّسِ وحده كقانون للإيمان والأعمال. والشيطان لا يزال يستخدم كل وسيلة تحت يده للقضاء على الحرية الدينية. إن ذلك السلطان المضاد للمسيح، الذي قد رفضه أولئك المحتجون في سبايرز، يحاول الآن بقوة ونشاط جديدين أن يستعيد سيادته الضائعة. وإن التمسك ذاته بكلمة الله، الذي لا ميل فيه ولا انحراف والذي تجلى في تلك الأزمة التي حلت بالإصلاح، هو الرجاء الوحيد للإصلاح في هذه الأيام.

مجال ضيق للهرب

وقد ظهرت بعض بوادر الخطر الذي هدد البروتستانت، كما ظهرت أيضاً بوادر تدل على أن يد الله قد امتدت لحماية الأمناء. ففي تلك الأثناء « قاد ميلانكتون صديقه سيمون كرينايس في شوارع سبايرز بعجلة عظيمة، وألح عليه أن يعبر نهر الرين. اندهش كرينايس من هذا التصرف وهذا الاندفاع. فقال له ميلانكتون: « إن رجلاً شيخاً وقوراً لا أعرفه ظهر أمامي فجأة وقال لي أن فرديناند سيرسل بعد لحظات بعض الضباط للقبض على كرينايس! ».

في ذلك اليوم كان فابر، أحد الأساتذة البابويين المشهورين، قد افترى على كرينايس في عظة ألقاها، وفي نهايتها اعترض عليه لكونه قد دافع عن « الضلالات الشنيعة ». « وقد كظم فابر غضبه ولكنه في الحال توجه إلى الملك الذي أعطاه أمراً ضد أستاذ هيدلبرج الملح. ولم يشك ميلانكتون إن الله قد أنقذ صديقه بكونه أرسل احد ملائكته القديسين لتحذيره.

وإذ كان ميلانكتون واقفا ساكناً على شاطئ الرين ظل منتظراً حتى أنقذت مياه ذلك النهر كرينايس من مضطهديه. فإذا رآه على الشاطئ الآخر صاح قائلاً: 'أخيراً، نعم أخيراً أفلت من أيدي أولئك المتعطشين لسفك الدم الزكي'. ولما عاد ميلانكتون إلى بيته قيل له إن بعض الضباط قلبوا بيته رأساً على عقب بحثاً عن كرينايس » (١٧٢).

المجمع في أوكسبرك

كان الإصلاح سيزيد عظمة وسموا في نظر عظماء الأرض. فالملك فرديناند رفض سماع أقوال الأمراء الإنجيليين، ولكن سُمِنَح لهم فرصة فيها يعرضون قضيتهم أمام الإمبراطور وأخبار الكنيسة ورؤساء الدولة المجتمعين. فلكي يسكن الإمبراطور شارل الخامس الخصومات والفتن قام في السنة التالية، بعد احتجاج الأمراء المقدم في سبايرز، باستدعاء المجلس ليلتئم في أوكسبرك وأعلن أنه

سيرأسه بنفسه. وقد دُعي الرؤساء البروتستانت للذهاب إلى هناك.

كان الإصلاح مهددا بمخاطر عظيمة، لكن المدافعين عنه وضعوا قضيتهم بين يدي الله، وتعهدوا بأن يظلوا ثابتين في جانب الإنجيل. وقد ألح مشيرو منتخب سكسونيا عليه بعدم حضور المجمع، وقالوا له أن الإمبراطور قد طلب من الأمراء أن يحضروا لكي يوقعهم في الشرك. ثم قالوا: « أليست مجازفة بكل شيء أن يحبس الإنسان نفسه في داخل أسوار مدينة ومعه عدو جبار؟ » لكن آخرين أجابوا بكل نبل قائلين: « ليتصرف الأمراء بشجاعة فتتجو قضية الله ». وقال لوثر: « إن الله أمين ولن يتركنا » (١٧٣). فخرج المنتخب قاصدا أوكسبرك يحيط به رجال حاشيته. وكان الجميع عالمين بالمخاطر التي تتهدده، وكثيرون تقدموا إلى الأمام ووجوههم عابسة وقلوبهم مضطربة، لكن لوثر الذي سار معهم يشيخهم إلى كوبرج أنعش إيمانهم الخائر إذ انشد التريمة التي كتبها في أثناء تلك الرحلة، وهي القائلة « الله ملجأ لنا وقوة ». فكانت تلك التريمة الجميلة سببا في تبديد فزع أولئك المسافرين ومخاوفهم وإعادة البهجة إلى قلوب المحزونين منهم، إذ ألهمتهم الرجاء والشجاعة.

أما الأمراء المصلحون فقد عقدوا عزمهم على أن يضعوا بيانا بأرائهم بشكل منهجي ومنسق ويرفقوا به الأدلة الكتابية لكي يقدموه أمام المجلس وأسند أمر أعداده إلى لوثر وميلانكتون وشركائهما. وقد قبل البروتستانت هذا الإقرار على أنه شرح لإيمانهم، واجتمعوا ليكتبوا أسماءهم على تلك الوثيقة المهمة. كان ذلك الوقت خطيرا وشاقا، وكان المصلحون مهتمين بالا تختلط قضيتهم بالمشاكل السياسية، وأحسوا بأن الإصلاح ينبغي ألا يمارس أي تأثير أو قوة أو نفوذ غير ما ينبعث من كلمة الله. فإذ تقدم الأمراء المسيحيون ليوقعوا على ذلك الإقرار تدخل ميلانكتون قائلا: « إن علماء اللاهوت والخدام (القساوسة) هم الذين يقترحون هذه الأمور، فلنحتفظ بسلطة عظماء الأرض للشؤون الأخرى ». فأجابه جون منتخب سكسونيا قائلا: « لا سمح الله أن تقصيني، فلقد عقدت العزم على أن أفعل الصواب من دون أن أضطرب خوفا على تاجي. إني أتوق إلى الاعتراف بالرب. إن وظيفتي كمنتخب ومنصبي ليسا شيئا بالنسبة إلى صليب يسوع المسيح ». وبعدها قال هذا وقّع إمضاءه. وقال أمير آخر وهو يمسك بالقلم: « إذا كانت كرامة ربي يسوع المسيح... تقتضيني أن أترك أمواله وحتى حياتي فسأفعل ذلك عن طيب خاطر ». واستأنف كلامه قائلا: « إني أفضل بالأحرى أن أنبذ رعاياي وأتخلى عن أملاكي وأترك أرض آبائي وأجدادي ولا شيء بيدي غير عصاي، على أن أقبل تعليما آخر غير ما تضمنه هذا القرار » (١٧٤). هكذا كان إيمان رجال الله أولئك وجرأتهم.

أعظم يوم في الإصلاح

جاء الوقت المحدد للوقوف أمام الإمبراطور. فإذ كان شارل الخامس جالسا على عرشه يحف به المنتخبون والأمراء أمر بأن يمثل أمامه المصلحون البروتستانت. ثم قرئ إقرار إيمانهم. ففي ذلك المحفل الجليل الوقور عُرضت حقائق الإنجيل بكل وضوح كما أُشير إلى أخطاء الكنيسة البابوية، وحسنا قيل عن ذلك اليوم أنه « أعظم أيام الإصلاح ومن أمجد الأيام في تاريخ المسيحية والجنس البشري » (١٧٥).

قبل ذلك بسنين قليلة وقف راهب وتبرك وحيدا أمام المجلس الوطني. أما الآن فهي أشرف أمراء الإمبراطورية وأقواهم ينوبون عنه. كان محرما على لوثر أن يذهب إلى أوكسبرك، لكنه كان حاضرا بأقواله وصلواته. وقد كتب يقول: « إني فرح جدا لأنني عشت إلى هذه الساعة التي فيها تمجد المسيح بواسطة أمثال هؤلاء المعترفين الممتازين المشهورين وفي مثل ذلك المجمع المجيد » (١٧٦). وهكذا تم ما قاله الكتاب في (مزمو ١١٩: ٤٦): « وَأَتَكَلَّمُ بِشَهَادَاتِكَ قُدَّامَ مُلُوكٍ وَلَا أُخْزَى » في أيام بولس كرُزُ أمام أمراء المدينة الإمبراطورية ونبلائها بالإنجيل الذي كان سجيناً لأجله. وكذلك حدث في هذه المناسبة، إذ أن الإنجيل الذي نُهي عن الكرازة به من المنبر نودي به من القصر، وما كان معتبرا أنه من غير اللائق أن يصغي إليه الخدم والعييد أصغى إليه رؤساء الإمبراطورية وساداتها بدهشة وإعجاب. وكان المستمعون هم الملوك والعظماء، وكان الأمراء المتوجون هم الذين كرزوا بالكلمة، وكانت العظة هي حق الله السامي. وقد قال كاتب: « إنه منذ أيام العصر الرسولي لم يكن هنالك عمل أعظم ولا أبعد من هذا الإقرار » (١٧٧).

وقد أعلن أسقف بابوي قائلاً: « كل ما قاله اللوثريون حق ولا نستطيع إنكاره ». وقد وجه آخر هذا السؤال إلى الدكتور إك قائلاً: « هل يمكنك بواسطة المحاجة المعقولة أن تفند هذا الإقرار الذي قدمه المنتخب وحلفاؤه؟ » فجاءه الجواب يقول: « لا يمكن ذلك بالاستناد إلى كتب الأنبياء والرسل، ولكنه ممكن من وجهة نظر الآباء والمجامع العامة ». فعاد السائل يقول: « لقد فهمت من كلامك الآن أن اللوثرين هم داخل الكتب المقدسة أما نحن فخارجها » (١٧٨).

انضم بعض أمراء ألمانيا إلى صف معتنقي الإيمان المصلح، وأعلن الإمبراطور نفسه أن تلك المواد البروتستانتية ما هي إلا الحق الصريح. وقد ترجم ذلك الإقرار إلى لغات كثيرة، وتداولته أيدي الناس في كل أوروبا، وقبله ملايين الناس مدى الأجيال المتعاقبة على أنه تعبير عن إيمانهم.

ولم يكن عبيد الله الأمناء يشقون وحدهم، فإذ اتحدت ضدهم الرياسات والسلطين وأجناد الشر الروحية في السماويات فالرب لم يترك شعبه. فلو فتحت عيونهم لرأوا البرهان على حضور الله ومساعدته كما قد رأى ذلك أحد الأنبياء في القديم. فإذ وجه خادم الإشع نظر سيده إلى الجيش المعادي المحيط بالمدينة والذي قطع عليهم سبيل النجاة صلى النبي قائلاً: « يَا رَبُّ، افْتَحْ عَيْنَيْهِ فَيُبْصِرَ » (٢ ملوك ٦: ١٧)، وإذا بالجبل مملوء خيلاً ومركبات نار، فلقد جاء جيش سماوي لحراسة رجل الله. وهكذا حرس الملائكة العاملين في الإصلاح وقضيته.

كان بين المبادئ التي حافظ عليها لوثر بكل ثبات وجوب عدم اللجوء إلى القوة الزمنية لمساندة الإصلاح وعدم الركون إلى السيف دفاعاً عنه. وقد ابتهج قلبه وتهلل لأن أمراء الإمبراطورية قد اعترفوا بالإنجيل، ولكن عندما اقترحوا تكوين حلف دفاعي أعلن أن « عقيدة الإنجيل ينبغي أن يدافع عنها الله وحده... فبقدر ما يقل تدخل الإنسان بقدر ما يكون تدخل الله عظيماً ومدهشاً في صالح الإنجيل. وكان يرى أن كل الاحتياطات السياسية كان مبعثها الخوف غير اللائق والشك الخاطئ » (١٧٩).

وعندما اتحد أعداء أشداء لتقويض أركان الإيمان المصلح وملاشاته وكانت آلاف السيوف موشكة أن تُسلَّ ضده كتب لوثر يقول: « إن غضب الشيطان قد ثار وهاج، وها هم الباباوات الأشرار يتآمرون

ونحن مهددون بالحرب. فانصحوا الشعب أن يناضلوا بكل شجاعة أمام عرش الرب بالإيمان والصلاة حتى إذا انهزم أعداؤنا بقوة روح الرب يُجبرون على أن يجنحوا إلى السلام. إن حاجتنا الرئيسية وعملنا الرئيسي هو الصلاة لأن الناس يعلمون أنهم مهددون بالموت بحد السيف ومهددون بغضب الشيطان؛ فليصّلوا « (١٨٠) ».

وفي تاريخ متأخر بعد ذلك إذ كان لوثر يشير إلى الحلف الذي كان الأمراء المصلحون يفكرون فيه أعلن أن السلاح الوحيد المستخدم في هذه الحرب ينبغي أن يكون « سيف الروح ». وقد كتب إلى منتخب سكسونيا يقول: « إن ضمائرنا لا تسمح لنا بقبول تشكيل ذلك الحلف المقترح، فخير لنا أن نموت عشرات المرات من أن نسمح بأن تسفك نقطة دم واحدة في سبيل محاماتنا عن حق الإنجيل. إن دورنا هو أن نكون كغنم تساق إلى الذبح، وينبغي لنا أن نحمل صليب المسيح. فلا تخف يا صاحب السمو. إننا بصلواتنا سننجز عملاً أكثر مما يستطيع أعداؤنا أن يعملوه بمفاخراتهم. إنما أحرص على ألا تلوث يديك بدماء إخوتك. فإذا رغب الإمبراطور في الالتجاء إلى المحاكم فنحن على استعداد لأن نحاكم. أنت لا تستطيع أن تدافع عن إيماننا، فعلى كل واحد أن يؤمن على مسؤوليته ويخاطر بنفسه « (١٨١) ».

فمن معتكف الصلاة جاءت القوة التي هزت العالم بالإصلاح العظيم، إذ هناك بسكون مقدس ثبتّ عبيد الرب أقدامهم على صخرة مواعيده. ففي أثناء الصراع الذي كان محتدماً في أوكسبرك « لم يكن يمر على لوثر يوم من دون أن يقضي ثلاث ساعات في الصلاة على الأقل، وكان يختارها من بين أفضل الساعات المكرسة للدرس ». ففي خلوته وهو في حجرته كان يُسمع وهو يسكب نفسه أمام الله بكلام « كله تعبد وخوف ورجاء كما يفعل الإنسان وهو يخاطب صديقاً له ». فكان يقول: « أنا أعلم أنك أنت أبونا والهنأ وأنك ستشتت مضطهدي أولادك لأنك أنت نفسك مهدد بالخطر معنا. إن هذه القضية كلها هي قضيتك ونحن لم نُقحم أنفسنا فيها إلا بإرغامك لنا. فإنقذنا إذاً يا أبانا « (١٨٢) ».

وكتب إلى ميلانكثون الذي كاد الجزع والخوف يسحقانه قائلاً: « نعمة وسلام في المسيح! أقول في المسيح لا في العالم. آمين! إني أمقت مقتاً شديداً هذه الهموم الهائلة التي تتناكب وتكاد تلتهمك. فإن كانت القضية غير عادلة فاتركها، أما إذا كانت عادلة فما لنا نكذب مواعيد ذاك الذي يأمرنا أن ننام بلا خوف... إن المسيح لن يتوانى عن القيام بهذا العمل الذي هو عمل الحق والعدل. إنه حي ويملك، فمن أين يأتينا الخوف؟ « (١٨٣) ».

أصغى الله إلى صرخات عبيده. فقد أعطى للأمراء والخدام نعمة وشجاعة لحفظ الحق ضد رؤساء ظلمة هذا الدهر. لقد قال الرب: « هَذَا أَصْعُ فِي صَهْيُونَ حَجَرَ زَاوِيَةٍ مُخْتَارًا كَرِيمًا، وَالَّذِي يُؤْمَنُ بِهِ لَنْ يُخْرَى » (١ بطرس ٢: ٦). لقد أقام المصلحون البروتستانت بناءهم على المسيح فلم يمكن لأبواب الجحيم أن تقوى عليهم.

١٢ - الإصلاح الفرنسي

تلا الاحتجاج الذي قدم في سبايرز والإقرار الذي تلى في أوكسبرك، اللذين سجلا نصره الإصلاح في ألمانيا، سنو صراع وظلام؛ فالبروتستانتية إذ أضعفتها الانقسامات التي وقعت بين معاضديها وهاجمها أعداؤها الأشداء بدت كأنها محكوم عليها بالهلاك. لقد ختم آلاف من الأمناء شهادتهم بدمائهم، ثم اشتعلت نار حرب أهلية، وأعلنت خيانة أحد معاضدي القضية البروتستانتية المشهورين، كما سقط أشرف الأمراء المصلحين بين يدي الإمبراطور وكانوا يُسحبون كالأُسرى من مدينة إلى أخرى. لكن الإمبراطور في لحظة انتصاره الظاهري أصابته الهزيمة. لقد رأى الفريسة تُغتصب من قبضته وأجبر أخيرا على التسامح مع التعاليم التي كان طيلة حياته يطمع في ملامشتها. لقد جازف بمملكته وأمواله وحياته نفسها لكي يسحق الهرطقة، أما الآن فما هو يرى جيوشه تُباد في المعارك وأمواله تتبدد وتذهب ضياعا، وممالكه الكثيرة تنذر بالثورة، بينما الإيمان الذي حاول عبثا أن يكبته ويخمدته ينتشر في كل مكان. كان شارل الخامس يحارب ضد قوة الله القاهرة. لقد قال الله: «ليكن نور»، لكن الإمبراطور كان يحاول أن يبقي الظلمة جاثمة في الصدور والأذهان، وقد أخفقت كل مقاصده. وعندما بلغ سن الشيخوخة قبل الأوان إذ كان مضني القلب والجسم من هول المعارك الطويلة تنازل عن العرش ودفن نفسه في دير حيث قضى باقي أيام حياته التلسة.

وكما كانت الحال في ألمانيا كذلك مرّت على الإصلاح في سويسرا ليال سود، ففي حين أن مقاطعات كثيرة قبلت الإيمان المصلح فقد ظلت المقاطعات الأخرى متمسكة بعقيدة روما في إصرار أعمى. فكان من نتائج اضطهادهم من رغبوا في قبول الحق أن قامت حرب أهلية، وسقط زوينكلي وكثيرون ممن اتحدوا معه صرعى في ساحة القتال بمدينة كابل. وإذا انسحقت روح ايكولامباديوس بسبب هذه الكوارث مات بعد ذلك بقليل. وانتصرت روما، وفي أماكن كثيرة بدت كأنها ستسترجع كل ما قد خسرت. لكن ذلك الذي مشوراته منذ الأزل لم يترك عمله ولا شعبه. فإن يده تأتيهم بالخلاص وقد أقام في بلدان أخرى فعلة وعمالا يضطلعون بالإصلاح ويسيروا به قدما. ففي فرنسا كان نور النهار قد انبثق قبلما اشتهر لوثر كمصلح. وكان أول من أشرق عليهم النور رجلا شيخا يدعى ليففر، وكان رجلا متبحرا في العلم وأستاذا في جامعة باريس، وكان أحد البابويين الغيورين المخلصين. ففيما كان ينقب في كتب الأدب القديم استرعى الكتاب المقدس انتباهه، فقدمه إلى تلاميذه ليدرسوه.

وكان ليففر من المعجبين المتحمسين بالقديسين، فبدأ بإعداد تاريخ للقديسين والشهداء كما هو مدون في أساطير الكنيسة، وكان هذا العمل يتطلب تعباً عظيماً وجهداً كبيراً. وإذا كان قد قطع فيه شوطاً بعيداً إذا به يفكر في الاستعانة بالكتاب المقدس، فبدأ بدرسه ونصب عينيه هذا الغرض، فرأى القديسين في الكتاب في صورة أخرى غير ما صورّه التقويم الكاثوليكي. وحينئذ أشرق على ذهنه فيض من النور الإلهي. ففي ذهول واشمئزاز كف عن ذلك العمل الذي كان قد عينه لنفسه، وكرس ذاته ووقته لكلمة الله. وقد بدأ يعلم بتلك الحقائق الغالية الثمينة التي اكتشفها.

مصلحان يعلنان الحق

وفي عام ١٥١٢، قبلما بدأ لوثر أو زوينكلي عمل الإصلاح، كتب ليففر يقول: « إن الله هو الذي يمنحنا بالإيمان ذلك البر الذي بالنعمة وحدها يبرر للحياة الأبدية » (١٨٤). وإذا كان يتأمل في أسرار الفداء صاح قائلًا: « ما أعظم تلك المقايضة التي لا توصف! فالبار قد دين والمجرم أطلق حراً، المبارك يحمل اللعنة والملعون ينال البركة، معطي الحياة يموت والموتى يحيون، المجد يغوص في الظلام وذاك الذي لم يعرف غير خزي الوجوه يتسربل بالمجد » (١٨٥).

وفيما كان يعلم أن مجد الخلاص يُنسب إلى الله وحده أعلن أيضاً أن الطاعة واجبة على الإنسان. قال: « إذا كنت عضواً في كنيسة المسيح فانت عضو في جسده، فإن كنت عضواً في هذا الجسد فانت إذاً ممتلئ بالطبيعة الإلهية... آه لو أمكن أن يدرك الناس هذا الامتياز فكم كانوا يعيشون حياة الطهارة والعفاف والقداسة، كم كانوا ينظرون باحتقار إلى مجد هذا العالم بالمقارنة مع المجد الذي في داخلهم، ذلك المجد الذي لا تستطيع أن تراه عيون البشر! » (١٨٦).

وقد وُجد بين طلبة ليففر جماعة كانوا يصغون إلى أقواله بشوق ولهفة، طلبة كانوا سيواظبون على إعلان الحق بعد أن يصمت صوت أستاذهم. وقد كان وليم فارل واحداً من هؤلاء. هذا الطالب، إذ كان ابناً لأبوين تقيين وقد تربى على قبول تعاليم الكنيسة بإيمانٍ وطيد، كان بوسعه أن يقول ما قاله بولس الرسول: « حَسَبَ مَذْهَبِ عِبَادَتِنَا الْأَضْيَقُ عَشْتُ قَرِيصِيًّا » (أعمال ٢٦: ٥). ولما كان كاثوليكيًا مكرساً التهاب قلبه غيرة لإهلاك كل من يجرؤ على مقاومة الكنيسة. وقد قال بعد ذلك وهو يشير إلى هذه الفترة من حياته: « كنت أصر بأسناني كذئب ضار حين كنت أسمع إنساناً يتكلم بالسوء ضد البابا » (١٨٧). وكان دائماً في تمجيد القديسين بجهد لا يكل حين كان يصحب ليففر في جولاته لزيارة كنائس باريس، فيسجد أمام المذبح ويزين المزارات المقدسة بالهدايا. لكن هذه الفرائض لم تستطع أن تمنح نفسه السلام، فقد لازمه تبكيت شديد على خطاياهِ بحيث إن كل الأعمال التكفيرية التي مارسها لم تُبعد عنه ذلك التبكيت. وقد أصغى إلى أقوال المصلح كما لو كانت صوتاً جاءه من السماء حين قال: « إن الخلاص هو بالنعمة... لقد دين البريء أما المجرم فأطلق سراحه... وصليب المسيح وحده هو الذي يفتح أبواب السماء ويغلق أبواب الجحيم » (١٨٨).

وبفرح عظيم قبل فارل هذا الحق. فإذا كان اهتداؤه كاهتداء بولس تحول بعيداً من عبودية التقاليد إلى حرية أولاد الله. وهو يقول: « بدلاً من القلب الفتاك لذئب مفترس عاد بهدوء حملاً وديعاً عديم الأذى إذ انسحب قلبه بعيداً من البابا وأعطى ليسوع المسيح » (١٨٩).

إقبال شديد على الإنجيل

ظَلَّ ليففر ينشر النور بين طلبته، أما فارل فإذا كان غيوراً في ما يختص بالمسيح كما كان في قضية البابا خرج ليشهد للحق علانية. هذا، وأن أحد أبحار الكنيسة وهو أسقف (مدينة) ميوكس (حوالي ٥٥ كم من باريس)، سرعان ما... انضم إليهم. كما أن معلمين آخرين ذوي مراكز سامية لمقدرتهم وعلمهم انضموا إليهم في المناداة بالإنجيل، وقد حصل الإنجيل على مهتدين اعتنقوا الإيمان من كل

الطبقات، من بيوت العمال والفلاحين إلى قصر الملك. فقبلت أخت فرنسيس الأول ملك فرنسا إيمان الصلاح. والملك نفسه والملكة الأم بدا في ذلك الحين أنهما يقبلان الإنجيل قبولاً حسناً. وبآمال عالية تطلع المصلحون إلى الأمام، إلى الوقت الذي فيه تُربح فرنسا للإنجيل.

لكن آمالهم لم تكن لتتحقق. فلقد كانت التجارب والاضطهادات تنتظر تلاميذ المسيح. غير أن الله في رحمته أخفى كل ذلك عنهم. وقد تخللت ذلك فترة سلام حتى يتشددوا لمواجهة العاصفة وينجح الإصلاح ويتقدم تقدماً سريعاً. لقد تعب أسقف ميوكس وبذل جهوداً كبيرة في أسقفية في تعليم رجال الكهنوت والشعب أيضاً. وعزل الكهنة الجهلة الفاسدين وبقدر المستطاع نصب في مكانهم رجالاً ذوي علم وتقوى. وكان الأسقف يرغب كل الرغبة في أن يقترب شعبه من كلمة الله بأنفسهم فتحقق ذلك سريعاً. لقد عكف ليففر على ترجمة العهد الجديد، وفيما كان كتاب لوثر الألماني يخرج من المطبعة في وتنبك نُشر العهد الجديد الفرنسي في ميوكس. ولم يدخر الأسقف جهداً ولا مالا في سبيل نشر الكتاب في أبروشياته، وسرعان ما حصل الفلاحون في ميوكس على الكتاب المقدس.

وكما يتلهف المسافرون، المشرفون على الموت عطشا، على نبع ماء حي ويستقبلونه بفرح عظيم كذلك استقبلت هذه النفوس رسالة السماء. فالفعلة في الحقول والعمال في ورش العمل كانوا يتسلون بذكر حقائق الكتاب المقدس الثمينة وهم فرحون. وفي المساء بدلا من ارتياد الحانات كانوا يجتمعون في بيوت إخوانهم ليقروا كلمة الله ويشتركوا معا في الصلاة والتسبيح. وقد شوهد تغيير عظيم في هذه المجتمعات. فمع أنهم كانوا من أفقر الطبقات ومن الفلاحين الكادحين وغير المتعلمين فقد شوهدت قوة النعمة الإلهية المصلحة التي تسمو بالنفس في حياتهم. فإذ كانوا متواضعين ومحبين وقديسين وقفوا شهودا لما يستطيع الإنجيل أن يفعله في حياة من يقبلونه بإخلاص.

هذا، وأن النور الذي أشرق في ميوكس أرسل أشعته إلى أماكن بعيدة. ففي كل يوم كان يزداد عدد المتجديدين. أما غضب حكومة البابا فكان قد أوقف عند حده إلى حين بفضل جهود الملك الذي كان يحتقر تزمت الرهبان وتعصبهم. لكن الرؤساء البابويين انتصروا في النهاية. وها هي آلات الإعدام تُنصب. فإذ اجبر أسقف ميوكس على أن يختار إما الحرق بالنار أو التراجع أختار أسهل الأمرين، ولكن على الرغم من سقوط الراعي فقد ظل قطيعه ثابتا. وشهد كثيرون للحق والنار تلتهم أجسامهم. إن هؤلاء المسيحيين الفقراء، بشجاعتهم وولائهم، تحدثوا إلى ألوف من الناس الذين لم يسبق لهم أن سمعوا شهادتهم في أيام السلام.

نبيل يحمل الشعلة

ولم يكن المحتقر والفقراء وحدهم هم الذين تجرأوا على أن يشهدوا للمسيح في وسط الآلام والاحتقار. ففي قلاع الإشراف وفي قصر الملك كانت توجد نفوس ملكية تقدر الحق أكثر من تقديرها الثروة والمراكز، وحتى الحياة نفسها. كان سلاح الملك يخفي تحته روحا أعلى وأثبت مما يخفي رداء

الأسقف وتاجه.

كان لويس دي بركين من أصل عريق، فارسا شجاعا ولطيفا كرس وقته للدرس، ومهذبا في عاداته وبلا لوم في أخلاقه وآدابه. وقد قال عنه أحد الكتّاب: « لقد كان تابعا أميناً للشرائع البابوية ومواظبا على حضور القداسات والاستماع إلى العظات... وقد توج كل فضائله الأخرى ببغضه لمبادئ لوثر ومقته إياها مقتا شديدا ». ولكن إذ قادت عناية الله إلى الكتاب المقدس ككثيرين غيره من الناس فقد أدهشه أن يرى فيه « لا تعاليم روما بل تعاليم لوثر » (١٩٠). فمنذ ذلك الحين كرس نفسه تكريسا كاملاً لقضية الإنجيل.

كان « أعظم عالم بين نبلاء فرنسا »، وإن ذكائه وفصاحته وشجاعته التي لا تُقهر وغيرته وبسالته، ونفوذه في البلاط الملكي — لأنه كان من أعز أصدقاء الملك — كل ذلك جعل كثيرين يعتقدون أنه سيكون مصلح البلاد. وقد قال بيزا: « كان في وسع دي بركين أن يكون لوثر الثاني لو كان الملك فرنسيس الأول شبيها بمنخب سكسونيا ». وقد صاح البابويون قائلين: « إنه شر من لوثر » (١٩١). وبالحقيقة إن الكاثوليك في فرنسا كانوا يخافونه أكثر من خوفهم لوثر، فألقوه في السجن بتهمة كونه هرطوقيا، لكن الملك أطلق سراحه. وظل الصراع محتدما عدة سنين، وإذ كان الملك فرنسيس يتأرجح بين روما والإصلاح كان أحيانا يتسامح مع الرهبان وأحيانا يكبح غيرتهم العنيفة. وقد سجت السلطات البابوية دي بركين ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يُطلق سراحه بأمر الملك الذي إذ كان معجبا بذكائه ونبوغه ونبيل أخلاقه رفض أن يتركه ضحية لخبت حكومة البابا وضغائنها.

أما دي بركين فقد أُنذر مرارا بالخطر الذي كان يتهدهده في فرنسا، وألح عليه أصدقاؤه أن يتبع خطوات الذين وجدوا النجاة في النفي الاختياري. فاراسمس الجبان المسابير للظروف، الذي مع علمه وفصاحته العظيمة أخفق في الوصول إلى تلك العظمة والسمو الخلقي الذي يجعل الحياة والشرف خادمين للحق، كتب إلى دي بركين يقول: « أطلب أن يرسلوك سفيراً في دولة أجنبية. اذهب وسافر في أنحاء ألمانيا. أنت تعرف بيذا، ورجل مثله هو تين ذو ألف رأس ينفث سمومه في كل مكان. إن أعداءك يُسمّون لجئون. ولو أن قضيتك أفضل من قضية يسوع المسيح فلن يتركوك تفلت بل سيفتكون بك فتكا ذريعاً. لا تمنع في الثقة بحماية الملك. وعلى كل حال لا تعرضني للخطر مع كلية اللاهوت » (١٩٢).

المخاطر تتكاثر

ولكن إذ تكاثرت المخاطر وتفاقت الأهوال زادت غيرة دي بركين وقوته. فبدلاً من اتباع مشورة إراسمس السياسية المنطوية على خدمة الذات، عزم على اتخاذ إجراءات أعظم جرأة. ولم يقنع بالدفاع عن الحق بل هاجم الضلالات. فتهمة الهرطقة التي حاول الكاثوليك أن يلصقوها به ألصقها هو بهم. وقد كان ألد أعدائه وأنشطهم هم الأساتذة المثقفون ورهبان القسم اللاهوتي في جامعة باريس العظيمة التي كانت من أسمى المراجع الإكليريكية في المدينة وفي الأمة. وقد استخلص دي بركين من كتب أولئك العلماء اثنتي عشرة قضية جاهر بأنها « مخالفة للكتاب المقدس وهرطوقية »،

والتمس من الملك أن يكون حَكما في ذلك الصراع.

وإذ لم يكن الملك ينفر إبراز قوة أولئك المناضلين وذكائهم، بل فرح لأن الفرصة قد سنحت له لإذلال كبرياء أولئك الرهبان المتعجرفين، أمر الكاثوليك أن يدافعوا عن قضيتهم ببراهين من أَلْكِتاب المُقَدَّس. كانوا يعرفون جيدا أن هذا السلاح لن يفيدهم كثيرا، أما السجن والتعذيب والحرق بالنار فكانت هي الأسلحة التي عرفوا جيدا كيف يحسنون استخدامها. والآن فها هي الدائرة تدور عليهم إذ رأوا أنفسهم موشكين على السقوط في الهوة التي كانوا يحاولون إسقاط دي بركين فيها. ففي حيرتهم وذهولهم جعلوا يتلفتون حولهم طلبا للنجاة

« في ذلك الوقت نفسه شوهد تمثال للعذراء في زاوية أحد الشوارع مشوها ومبتورا »، فحدث شغب عظيم في المدينة. وتقاطرت جماهير الناس إلى ذلك المكان وهم يعبرون عن حزنهم وغضبهم. وكذلك الملك تأثر تأثرا عميقا. وصاحوا قائلين: « هذه هي ثمار تعاليم دي بركين » ثم قالوا: « إن كل شيء مصيره إلى الدمار — الدين والشرائع والعرش نفسه — بسبب مؤامرة هذا اللوثري » (١٩٣).

وقُبض على دي بركين مرة أخرى. أما الملك فانسحب من باريس، وهكذا تُركت للرهبان الحرية لإتمام أغراضهم. فحوكم هذا المصلح وحكم عليه بالموت، وحتى لا يتدخل فرنسيس لإنقاذه نُفذ فيه حكم الموت في يوم النطق بالحكم نفسه. ففي ظهر ذلك اليوم سيق إلى ساحة الإعدام حيث اجتمعت جموع كثيرة لمشاهدة ذلك الحدث. وكثيرون رأوا بدهشة وتشاؤم أن هذه الضحية قد اختيرت من بين أفضل وأشجع الأسر النبيلة في فرنسا. وقد غشيت وجوه تلك الجموع الصاخبة سحب الذهول والغضب والاحتقار والكراهية المرة. لكنَّ وجهها واحدا كان صافيا لم يعكره شيء. لقد طارت أفكار ذلك الشهيد بعيدا عن منظر ذلك الشغب فلم يكن يحس بغير حضور سيده وربّه.

صمت دي بركين

لم يلتفت إلى العربة التعسة التي ركب فيها ولا إلى نظرات التجهم والعبوس التي كان يوجهها إليه مضطهدوه، ولا إلى الموت المخيف الذي كان ماضيا إليه. فهذه لم يكثر لها، لكنَّ ذاك الحي الذي كان ميتا وهو حي إلى أبد الأبدين والذي له مفاتيح الهاوية والموت كان واقفا إلى جواره. كان وجه دي بركين يتألق بنور السماء وسلامها. وكان قد لبس ثيابا فاخرة، إذ ارتدى معطفا من المخمل وصدره من الأطلس والفولاذ وبنطلونا نحيفا ذهبيا « (١٩٤). كان مزمعا أن يشهد لإيمانه في محضر ملك الملوك وسكان المسكونة المشاهدين، وما كان ينبغي أن تظهر علامة من علامات الحزن لتكذب فرحه أو تُعكره.

وإذ كان الموكب يسير ببطء في الشوارع المزدهمة لاحظ الناس بدهشة السلام الصافي والنصرة الفرحة في نظراته وهيبته، فقالوا: « إنه يشبه إنسانا جالسا في هيكل يتأمل في الأمور المقدسة » (١٩٥).

وعندما جيء به إلى مكان الإعدام حاول دي بركين أن يخاطب الشعب قليلا، ولكن إذ كان الرهبان

يخشون مغبة ذلك بدأوا يصيحون وبدأ الجنود يصلون أسلحتهم فلم يستطع أحد أن يسمع صوت الشهيد. وهكذا ففي عام ١٥٢٩ قامت أعلى السلطات الأدبية والإكليريكية لمدينة باريس المهذبة المثقفة « بإعطاء غوغاء [الثورة الفرنسية] في العام ١٧٩٢ مثالا دنيئاً عن كيفية إسكات أصوات المحتضرين المقدسة وهم على المشنقة » (١٩٦).

وقد شُنق دي بركين وأحرقت جثته في النار. فكان خبر موته محزناً لأصدقاء الإصلاح في فرنسا كلها. لكن مثاله لم يذهب عبثاً. فلقد قال شهود الحق: « إننا نحن أيضاً على أتم استعداد لمواجهة الموت بفرح ونحن نأظرون إلى الحياة الآتية » (١٩٧).

وفي أثناء الاضطهاد الذي وقع في ميوكس حُرِم معلمو الإيمان المصلح من الترخيص المعطى لهم للتبشير فرحلوا إلى حقول أخرى. وبعد قليل سافر ليففر إلى ألمانيا. أما فارل فعاد إلى مسقط رأسه في شرقي فرنسا لينشر النور حيث قضى سني طفولته. وكانت قد وصلت إلى هناك أخبار عن الأحداث الجارية في ميوكس، فوجد الحق الذي علم به المصلح بغيرة لا تعرف الخوف من يستمعون إليه. ولكن سرعان ما ثارت السلطات لإسكاته فنفي من المدينة. ومع أنه لم يعد في مقدوره أن يخدم جهازاً فقد جال في الأرياف والقرى معلماً الناس في مساكنهم الخاصة ومراعيهم المنعزلة، وكان يأوي إلى الغابات والكهوف المنقورة في الصخور التي كان يلجأ إليها في حديثه. وكان الله يُعده لتجارب أقسى. وقد قال مرة: « إن الصليب والاضطهادات ودسائس الشيطان التي سبق أن أُنذرت بها كان يوجد منها الشيء الكثير، وهي أقسى من أن أستطيع احتمالها من تلقاء نفسي، لكن الله هو أبي فلقد أمدني بالقوة التي أحتاج إليها وهذا هو ما يصنعه بي دائماً » (١٩٨).

وكما حدث في أيام الرسل كذلك حدث حينئذ أن الاضطهادات « آلتْ أَكْثَر إلى تَقَدُّم الإنجيل » (فيلبي ١: ١٢). فإذ طردوا من باريس وميوكس « فَالَّذِينَ تَشَتَّتُوا جَالُوا مُبَشِّرِينَ بِالْكَلِمَةِ » (أعمال ٨: ٤). وهكذا شق النور لنفسه طريقاً في كثير من مقاطعات فرنسا النائية.

الله يعد كلفن

لقد كان الله لا يزال دائماً في إعداد عمال لينشروا رسالته. ففي إحدى مدارس باريس كان يوجد شاب مفكر هادئ، وكان قد سبق فأقام البرهان على أن له عقلاً ثاقباً جباراً، كما كانت حياته أيضاً بلا لوم كشأنه في غيرته وذكائه وتعبده الديني. وسرعان ما جعله نبوغه ومثابرته مفخرة الكلية، وكان كثيرون يؤملون بكل ثقة أن جون كلفن سيصير من أقدر الرجال وأكرمهم في الدفاع عن الكنيسة. لكن شعاعاً من نور الله اخترق جدران التمسك بالتعاليم التقليدية والخرافات التي كان كلفن محبوساً ضمنها. وقد اقشعر بدنه عندما سمع عن التعاليم الجديدة، ولم يكن يشك في أن الهراطقة يستحقون الحرق بالنار التي اکتووا بها. ومع ذلك فقد جمعت الصدفة وجهها لوجه أمام الهراطقة وأرغم على اختبار قوة اللاهوت الكاثوليكي في مبارزة التعليم البروتستانتي.

جاء إلى باريس أحد أبناء عمه، وكان قد انضم إلى المصلحين فاجتمع ذانك القريبان معا وكثيراً ما كانا يتباحثان في تلك المسائل التي أربكت العالم المسيحي. فقال أوليفيتان البروتستانتي: « لا

توجد في العالم غير ديارتين، إحداهما من اختراع الناس وفيها يُخلّص الإنسان نفسه بالطقوس والأعمال الصالحة، أما الأخرى فهي تلك المعلنة في الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ والتي تُعلم الإنسان أن ينتظر الخلاص بنعمة الله المجانية وحدها».

فصاح كلفن يقول: « لا شأن لي بتعاليمك الجديدة هذه. أفتظن أنني قد عشت في الضلال كل أيامي؟ » (١٩٩).

تحت تأثير الحق

ولكن استيقظت في عقله أفكار لم يقو على طردها بعيدا منه بإرادته. فإذا كان منفردا في حجرته جعل يتأمل في ما قاله له ابن عمه. وقد لازمه تبكيت شديد على خطيئته فرأى نفسه ولا شفيع له وهو ماثل في حضرة الديان القدوس العادل. إن شفاعة القديسين والأعمال الصالحة وطقوس الكنيسة عجزت كلها عن التكفير عن الخطيئة. ولم يكن يرى أمامه سوى قتام اليأس الأبدي. وعبثاً حاول أحبار الكنيسة أن يُخففوا عنه ويله وشقاءه. وعبثاً لجأ إلى الاعتراف والأعمال التكفيرية إذ لم تُصلح بينه وبين الله.

وفيما كان كلفن لا يزال مشتبكا في تلك المصارعات التي لا جدوى منها أتته فرصة للذهاب لزيارة أحد الميادين العامة في أحد الأيام، فرأى هناك هرطوقيا يموت احتراقا. وقد أدهشه السلام الذي كان يراه مرتسما على وجه ذلك الشهيد. ففي وسط عذابات ذلك الموت الرهيب، وهو واقع تحت دينونة الكنيسة التي هي أروع من العذاب والموت، أبدى ذلك الشهيد شجاعة وإيمانا راح ذلك الطالب الشاب يوازن بينهما وبين يأسه وظلمته بألم وانسحاق مع حرصه الشديد على إطاعة أوامر الكنيسة بكل صرامة. وقد علم كلفن أن إيمان الهراطقة كان يستند إلى الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، فعقد العزم على دراسته حتى يكتشف، إذا أمكن، سر فرحهم.

وفي الكتاب وجد المسيح. فصاح يقول: « أيها الأب، إن ذبيحته قد أسكتت غضبك، ودمه طهرني من كل نجاساتي. وعلى الصليب حمل اللعنة عني، وموته كفر عن ذنوبي. لقد ابتكرنا لأنفسنا كثيرا من الجهالات الباطلة، لكنك وضعت كلمتك أمامي كسراج، وقد لمست قلبي حتى اعتُبر كل استحقاق آخر غير استحقاقات يسوع رجاسة » (٢٠٠).

كان كلفن قد تعلّم لكي يدخل الخدمة الكهنوتية. فإذا كان في الثانية عشرة من العمر الحق في خدمة كنيسة صغيرة وقد حلق له الأسقف رأسه حسب قانون الكنيسة. لكنه لم يُرسم ولم يقوم بواجبات الكاهن بل حُسب عضوا بين رجال الإكليروس، وكان يحتفظ بلقب وظيفته ويتقاضى مرتبا عنها.

أما الآن، وقد أحس أنه لن يمكنه أن يصير كاهنا، فقد عكف على دراسة القانون بعض الوقت، لكنه أخيرا ترك تلك الدراسات وعقد العزم على تكريس حياته للإنجيل. غير أنه تردد في أن يكون معلما للشعب. لقد كان خجولا بطبيعته وقد ثقل على نفسه عبء مسؤولية تلك الوظيفة، وكان يرغب في تكريس نفسه للدرس. أخيرا انتصرت عليه توسلات أصدقائه فقبل القيام بذلك العمل. قال: « إنه أمر

مدهش أن إنسانا وضع الأصل يتبوأ هذا المركز الرفيع العظيم « (٢٠١).

كلفن يبدأ عمله

بدأ كلفن عمله بكل هدوء، فكان كلامه كالندى المتساقط على الأرض اليابسة لإحيائها. كان قد ترك باريس وانطلق إلى مدينة إقليمية تحت حراسة الأميرة مرغريت التي إذ كانت تحب الإنجيل بسطت حمايتها على تلاميذه. كان كلفن لا يزال حدثا رقيق العادات وبسيط المظهر. وقد بدأ عمله بين الشعب في بيوتهم. فإذا كان أفراد العائلة يجتمعون حوله كان يقرأ الإنجيل ويكشف لهم عن حقائق الخلاص. فالذين سمعوا الرسالة نقلوا تلك الأخبار السارة إلى الآخرين، وسرعان ما انتقل ذلك المعلم تاركا تلك المدينة إلى المدن والقرى المنعزلة. وكان يجد الباب مفتوحا أمامه إلى القلاع والأكواخ على السواء، وكان يتقدم ليضع أساسات كنائس كانت ستُخرج شهودا للحق لا يهابون الموت.

وبعد أشهر قليلة عاد إلى باريس. وكان هناك احتياج غير عادي بين العلماء والأساتذة. فدراسة اللغات القديمة قادت الناس إلى الكتاب المقدس، وكثيرون ممن لم تتأثر قلوبهم من قبل بحقائقه جعلوا بكل شوق يتباحثون فيها، بل كانوا يحاربون المناضلين عن الكاثوليكية. أما كلفن فمع كونه ضليعا ومتمرسا في ميادين المجادلات اللاهوتية فقد كانت لديه رسالة أسمى يتممها غير ما كان لأولئك الفلاسفة الكثيри الصخب والمشاغبات. كانت عقول الناس قد استيقظت، فكان هذا هو الوقت المناسب الذي يكشف لهم فيه الحق. ففي حين كانت قاعات الجامعات تسودها ضجة المجادلات اللاهوتية، كان كلفن ينتقل من بيت إلى بيت وهو يفسر الكتاب المقدس للشعب ويحدثهم عن المسيح وإياه مصلوبا.

إشراق النور في باريس

اقتضت عناية الله أن تُقدّم إلى مدينة باريس دعوة أخرى لقبول الإنجيل. لقد رفضت دعوة ليفغر وفارل، لكن كل الناس من كل الطبقات في تلك العاصمة كانوا سيسمعون الرسالة من جديد. أما الملك فإذا كان متأثرا باعتبارات سياسية لم يكن ينحاز إلى روما تماما ضد الإصلاح. وأما مرغريت فكانت لا تزال متشبثة بالأمل في أن البروتستانتية ستنتصر في فرنسا. فعزمت على أن تأمر بالكرازة بالعقيدة المصلحة في باريس. ففي أثناء غياب الملك أمرت خادما بروتستانتيا بأن يبشر في كنائس العاصمة. وإذا منعت السلطات البابوية هذا فتحت الأميرة أبواب القصر على سعتها. فأعدت حجرة كبيرة لتكون قاعة للاجتماعات، وأعلن أنه في ساعة معينة من كل يوم ستلقى عظة، ودُعي الناس من كل الطبقات والمراكز للحضور، فتقاطرت جماهير الشعب لحضور الخدمة. وإذا ضاقت القاعة بجماهير الشعب تجمّع الناس في غرف الانتظار والردهات. وكانوا يحيئون إلى هناك كل يوم بالألوف، منهم النبلاء والساسة والمحامون والتجار والصناع. وبدلا من أن يمنع الملك هذه الاجتماعات فقد أمر بفتح كنيسة من كنائس باريس. ولم يسبق لتلك المدينة أن تأثرت بكلمة الله كما حدث حينئذ. وقد بدا وكأن روح الحياة قد نزل من السماء ليرف على ذلك الشعب. كما حلت

القناعة والزهد والطهارة والنظام والجد والعمل مكان السكر والخلاعة والمنازعات والخصومات والبطالة.

لكنّ الأبحار البابويين لم يقفوا مكتوفي الأيدي. كان الملك لا يزال يرفض التدخل لإيقاف الكرازة فاتجهت السلطات الدينية إلى الشعب، ولم تدخّر وسيلة لإثارة مخاوف الجموع الجهلة المتعلقين بالخرافات وتعصبهم. وإذ خضعت باريس في جهلها لمعلميها الكذبة فإنها كأورشليم في القديم لم تعرف زمان افتقادها ولا ما هو لسلامها. ودام التبشير بكلمة الله في العاصمة سنتين، ومع أن كثيرين قبلوا الإنجيل فإن الأكثرية الساحقة من الشعب رفضوه. وكان فرنسيس الأول قد تظاهر بالتسامح لكي يخدم أغراضه، فافلح البابويون في استعادة سيادتهم. ومرة أخرى أغلقت الكنائس وأعدت النار لحرق الهراطقة.

كان كلفن لا يزال في باريس يعدّ نفسه بالدرس والتأمل والصلاة لعمله وخدماته العتيدة. ومن فرط مواظبته على نشر النور حامت حوله الشكوك. وقد حاولت السلطات أن تحرقه بالنار. وكان يظن نفسه في معتكفه في منأى عن الخطر، وإذا ببعض أصدقائه يهرولون مسرعين إليه ليخبروه بأن بعض الضباط هم في طريقهم إليه ليلقوا القبض عليه. وفي تلك اللحظة سُمع قرع عنيف على الباب الخارجي. ولم تبق لديه برهة واحدة ليضيعها. وقد أبقى بعض أصدقائه أولئك الضباط واقفين على الباب في حين ساعد آخرون على إنزال المصلح من إحدى النوافذ، فأسرع خارجا إلى أطراف المدينة. وقد لجأ إلى كوخ عامل من أصدقاء الإصلاح فتتكر بثياب مضيفه ووضع فأسا على كتفه واستأنف رحلته. واتجه في سيره نحو الجنوب لاجئا إلى أملاك مرغريت مرة أخرى (٢٠٢).

تحت حماية الأصدقاء

ظل في ذلك المكان بضعة أشهر تحت حماية أصدقاء أقوياء، وانشغل في الدرس كما فعل من قبل ذلك. لكنه كان قد آل على نفسه أن يبشر فرنسا، ولذلك لم يستطع أن يظل عاطلا وقتا طويلا. فحالما خفت شدة العاصفة قليلا ذهب يبحث عن حقل جديد للخدمة في بواتييه التي تضم جامعة وحيث كان الناس قد بدأوا يعتنقون الآراء الجديدة ويقبلونها. وكان أناس من كل الطبقات يصغون إلى رسالة الإنجيل بفرح. لم يكن التبشير علنيا بل كان يعقد الاجتماع في بيت كبير القضاة، في محل إقامته، وأحيانا في أحد المتنزهات. وكان كلفن يشرح كلام الحياة الأبدية لكل من رغبوا في سماع أقواله. وبعد وقت إذ زاد عدد السامعين ارتأوا أن يجتمعوا خارج المدينة لضمان سلامتهم. وكان يوجد كهف في جانب ممر عميق ضيق حولته الأشجار والصخور المشرفة إلى معتكف محبوب عن العيون، فاختره ليعقدوا فيه اجتماعاتهم. وكانوا جماعات صغيرة متخذين طرقا مختلفة. في هذه البقعة المنعزلة كان الكتاب المقدس يُقرأ ويُشرح. في هذا المكان مارس البروتستانت فريضة العشاء الرباني لأول مرة في فرنسا. ومن هذه الكنيسة الصغيرة خرج كثيرون من المبشرين الأمناء. ومرة أخرى عاد كلفن إلى باريس. كان لا يزال متعلقا بهذا الأمل وهو أن فرنسا كأمة ستقبل الإصلاح. لكنه وجد كل باب من أبواب العمل مغلقا تقريبا. فكونه يعلم الناس الإنجيل معناه أنه يسير

في أقصر الطرق إلى الموت احتراقا، ولذلك قرر أخيرا أن يرحل إلى أَلْمَانِيَا. وما إن ترك فرنسا حتى هبت على البروتستانت عاصفة هائلة بحيث أنه لو بقي لكان مصيره القتل كغيره. إن المصلحين الفرنسيين إذ كانوا يتوقون إلى أن يروا بلادهم سائرة قدما في طريق الإصلاح كَأَلْمَانِيَا وسويسرا عولوا على أن يضربوا ضربة جريئة ضد خرافات روما توقظ الأمة كلها. ولذلك فقد كُتبت إعلانات في ليلة واحدة تهاجم القديس وأرسلت بالبريد إلى كل أنحاء فرنسا. لكن هذه الحركة الغيورة والطائشة في الوقت نفسه بدلا من أن تعمل على تقدم الإصلاح جلبت الدمار ليس على مروجيها فحسب بل على كل أصدقاء الإصلاح في كل أرجاء فرنسا. فلقد أعطت البابويين ما كانوا يبتغونه، أي حجة لطلب إهلاك الهراطقة هلاكا تاما لكونهم مهيجين خطرين على استقرار العرش وسلام الأمة.

وبيد خفية — لم يُعلم إذا كانت يد صديق طائش أو عدو محتال — ألصق أحد الناس تلك الإعلانات على باب مقصورة الملك الخاصة. وقد امتلأ قلب الملك رعبا. ففي هذا الإعلان هاجمت يد قاسية الخرافات التي ظل الناس يوقرونها أجيالا طويلة. وهذه الجرأة التي لا مثيل لها، جرأة التطفل بهذه الأقوال الصريحة المفزعة في حضرة الملك، أثارت غضبه. ففي ذهوله ظل بعض الوقت مرتعدا وهو صامت وحينئذ عبر عن اهتياجه وغضبه بهذه الكلمات: « لِيُقْبَضَ على كل من يُشك في أنهم لوثريون من دون تمييز. إني سأستأصلهم جميعا » (٢٠٣). وهكذا قُضى الأمر إذ عزم الملك على أن يلقي بنفسه إلى جانب روما.

حكم إرهابي

أُتخذت الإجراءات في الحال للقبض على كل أتباع لوثر في باريس. وكان حَرْفي فقير من معتنقي الإيمان المصلح معتادا أن يدعو المؤمنين لحضور الاجتماعات التي كانت تعقد في الخفاء، فقبُض عليه وهُدِد بالقتل في الحال حرقا بالنار إذا لم يرشد مبعوث البابا إلى بيت كل بروتستانت في المدينة. فارتجف رعبا أمام ذلك الاقتراح الدنيء، لكن خوفه من الموت احتراقا انتصر عليه في النهاية فرضي بأن يسلم إخوته. فسار الخائن مع مورين المخبر السري الملكي، وحولهما جماعة من الكهنة وحاملي المباحر والرهبان والجند، في شوارع المدينة. كان القصد من هذه المظاهرة ظاهريا تكريم « القربان المقدس »، والتكفير عن الإهانة التي لحقت بذبيحة القديس من البروتستانت، ولكن كان يختفي خلف هذا المهرجان قصد مهلك مميت. فلدى وصولهم مقابل بيت أحد اللوثرين كان الخائن يومئ خفية، فيتوقف الموكب ويدخل الأعداء البيت، ويسحبون أفراد العائلة ويكبلونهم بالقيود. وكانت تلك الجماعة الرهيبة تتقدم إلى الأمام بحثا عن ضحايا جديدة. « إنهم لم يُبقوا على بيت واحد عظيما كان أو صغيرا، حتى كليات جامعة باريس ... لقد أرعب مورين المدينة كلها ... كان ذلك الحكم حكم الإرهاب » (٢٠٤).

وقد قُتلت كل تلك الضحايا بعد عذابات قاسية. وكان هناك أمر خاص يقضي بأن تكون النار خفيفة حتى تطول مدة عذاباتهم. لكنهم ماتوا منتصرين. فلم يتزعزع ثباتهم ولا عكّر سلامهم مُعكر.

وإذ عجز المضطهدون عن زعزعة ثبات أولئك الشهداء الذي لا يلين أحسوا بأنهم قد انهزموا. « لقد نصبت المشانق في كل أحياء باريس، وتبع ذلك الحرق بالنار في أيام متتابة، وكان القصد من ذلك نشر الذعر من الهرطقة بنشر القتل والإعدام في كل مكان. ومع ذلك ففي النهاية كانت كفة الإنجيل هي الراجحة. لقد استطاع كل أهل باريس أن يروا أي نوع من الرجال هم أولئك الذين أنجبتهم تلك الآراء الحديثة. لم تكن هنالك منصة أفضل من منصة كل شهيد وهو يموت احتراقا. فذلك الفرع الرصين الذي أنار وجوه هؤلاء الرجال وهم يسيرون... إلى ساحة الإعدام، والبطولة التي أبدوها وهم واقفون في وسط النيران المشتعلة، ووداعتهم وصفحهم عن تلك المظالم جعلت غضب بعض المشاهدين ينقلب إلى أسفاق وبغضتهم إلى محبة، وكان دفاعا ينطق بأفصح لسان وأقوى حجة في صالح الإنجيل » (٢٠٥).

وإذ كَانَ الكهنة يحرسون على أن يجعلوا حنق الشعب على أشده أشاعوا أُرهب التهم ضد البروتستانت. فلقد اتهموهم بالتآمر على ذبح الكاثوليك وقلب الحكومة وقتل الملك. لكن كل هذه الادعاءات لم يكن هنالك ظل من برهان على صدقها. ومع ذلك فإن هذه التنبؤات عن الشر كانت ستتم في ظروف تختلف عن هذه الظروف اختلافا بينا ولأسباب من نوع مختلف. فأعمال القسوة التي ارتكبتها الكاثوليك ضد البروتستانت الأبرياء تجمعت في جزاء ثقیل رهيب، وبعد ذلك بقرون أوقعت بهم الهلاك الذي تنبأوا بأنه يتهدهدهم، ملكا وحكومة وشعبا. لكنه جزاء وقع عليهم بأيدي الملحدین والبابويين أنفسهم. فلم يكن توطيد دعائم البروتستانتية بل هو كبجها وكبتها ما سيوقع بفرنسا كوارث هائلة بعد قرابة ٣٠٠ سنة.

في ذلك الوقت شملت الشبهات والشكوك والرعب كل طبقات المجتمع. وفي وسط الذعر العام رأى الناس إلى أي حد تأصلت التعاليم اللوثرية في عقول الرجال الذين كانوا قد تلقوا أعلى تعليم وتمتعوا بأعظم نفوذ وتحلوا بالأخلاق السامية. لقد وجدوا أن وظائف كثيرة سامية ومهمة قد خلت من أصحابها. واختفى كثيرون من الصناع ورجال المطابع والعلماء وأساتذة الجامعات والمؤلفين، وحتى ندماء الملك. وهرب مئات من باريس، نفوا أنفسهم من وطنهم، وفي حالات كثيرة قدموا أول إخطار على انحيازهم للعقيدة المصلحة. وقد جعل البابويون ينظرون حولهم في ذهول وهم يفكرون في الهرطقة الذين عاشوا فيما بينهم من دون أن يثيروا الشبهات. وقد صبوا جامات غضبهم على جماهير الضحايا من الفقراء الذين كانوا في قبضة أيديهم. واكتظت السجون بالأبرياء وأظلمت السماء بالدخان المتصاعد من المحرقات المنصوبة لقتل المعترفين بالإنجيل.

لقد كان فرنسيس الأول يتشدد بأنه قائد في حركة النهضة التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر، وسره أن يجمع في بلاطه رجالا علماء من كل البلدان. وكان التسامح القليل الذي أظهره للإصلاح يعزى نوعا ما إلى حبه العلم واحتقاره جهل الرهبان وخرافاتهم. ولكن إذ دفعته غيرته إلى استئصال الهرطقة أصدر من كان نصيرا للعلم ومجبا للعلماء منشورا بإلغاء الطباعة في كل أنحاء فرنسا! وهو بذلك يقدم إلينا مثالا، ضمن أمثلة كثيرة سجلها التاريخ، عن أن الثقافة العقلية ليست واقية للإنسان من التعصب الديني والاضطهاد.

كانت فرنسا عازمة على ملاشاة البروتستانتية في احتفال مقدس عام. وقال الكهنة إن الإهانة التي بلغت إلى عنان السماء بدم ذبيحة القديس يجب غسلها بالدم، وإن الملك يجب أن ينوب عن شعبه في التصديق على ذلك العمل المخيف.

وتقرر أن يكون اليوم الحادي والعشرون من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٥٣٥ اليوم المعين للقيام بذلك الاحتفال الرهيب. فثارت المخاوف الوهمية والكراهية المتعصبة العمياء في قلوب الأمة جمعاء. واجتمعت في باريس جماهير من الناس القادمين من الأرياف المحيطة بها فامتلاّت بهم الشوارع. كان ذلك اليوم سيّداً بموكب مهيب « وقد علّقت على البيوت المحيطة بالشوارع أقمشة حداد سوداء، كما أقيمت مذابح متباعدة ». وأضيء سراج أمام كل باب تكريماً « للسر المقدس ». « وقبل الفجر بدأ الموكب يتجمع أمام قصر الملك. في مقدّمه جاءت أعلام الأبروشيات المتعددة وصلبانها، وبعدها سار المواطنون اثنين اثنين حاملين السرج ». ثم أقبلت الرهبانيات الأربع، كل منها في زيها الخاص. وأتى بعد ذلك بمجموعة من الذخائر الشهيرة وخلفها رجال الإكليروس الأشرف في حللهم الأرجوانية والقرمزية، وثيابهم الزاهية الجميلة البراقة، وقد غمرتهم الزينات المجملّة بالجواهر.

« وحمل أسقف باريس ذبيحة القربان تحت مظلة فخمة... يحملها أربعة من أمراء البيت المال... وخلف القربان الملك فرنسيس الأول الذي لم يلبس في ذلك اليوم لا تاج الملك ولا الحلة الملوكية ». « فإذا كان ملك فرنسا حاسر الرأس وهو متجه ببصره إلى الأرض وفي يده سراج منير « ظهر » في هيئة إنسان تائب نادم » (٢٠٦). وكان يجثو أمام كل مذبح بكل تذلل ليس لأجل الرذائل التي تنجست بها روحه أو الدم الزكي الذي تلوث به يداه، بل لأجل الخطيئة المميتة التي ارتكبتها رعاياه الذين تجرأوا على إدانة ذبيحة القديس. وبعده جاءت الملكة ورؤساء الدولة وهم يسيرون اثنين اثنين وكل يحمل سراجاً منيراً.

وكجزء من خدمات ذلك اليوم خاطب الملك رجال المملكة العظام في باحة قصر الأسقف الكبيرة. فظهر أمامهم بوجه حزين. وبكلام فصيح مؤثر كان ينوح على « الجريمة والتجديف ويوم الحزن والعار الذي حل بالأمة. وقد طالب رعاياه المخلصين بأن يساعدوا في استئصال الهرطقة الوبائية التي كانت تتهدد فرنسا بالدمار، ثم قال: « وعلى قدر ما أنا متأكد من أنني ملككم أيها السادة لو رأيتم أعضاء من أعضاء جسمي ملطخاً أو مصاباً بهذا التعفن والفساد الكريه لكنت أقدمه إليكم لكي تبتروه... وأكثر من هذا فلو علمت أن أحد أبنائي متنجس بهذه الهرطقة لما أبقيت عليه... بل كنت أسلمه بنفسه وأقدمه ذبيحة لله ». وقد انهمرت الدموع من عينيه فاحتبس صوته ولم يستطع أن يتكلم، فبكى كل ذلك الجمع، وصاحوا يقولون بصوت واحد: « إنا سنعيش ونموت في سبيل الدين الكاثوليكي » (٢٠٧).

ما كان أَرهَب تلك الظلمة التي شملت أمة رفضت نور الحق! لقد ظهرت « النعمة المخلّصة » لكنّ فرنسا بعدما شاهدت قوتها وقداستها، وبعدها اجتذب جمالها آلاف النفوس، وبعدها استنارت المدن والقرى بنورها، ارتدت إلى الوراء إذ اختارت الظلمة ورفضت النور. لقد طرحوا عنهم هبة

السماء قالوا عن الشر خيرا وعن الخير شرا إلى أن سقطوا ضحايا خداع النفس العنيد. والآن فمع أنهم يعتقدون فعلاً أنهم باضطهادهم شعب الله إنما يؤدّون له تعالى خدمة فإن ذلك الإخلاص لم يبررهم. أنهم بكل عناد رفضوا النور الذي كان يمكن أن ينقذهم من الخداع ومن تلطيخ أرواحهم بدماء ضحاياهم الأبرياء.

قَسَم لاسْتِئْصَالِ الْهَرْطَقَةِ

وقد أقسم الجميع قسما مقدسا بأن يستأصلوا الهرطقة وذلك في الكاتدرائية العظيمة حيث نصبت « إلهة العقل » على العرش بعد ذلك بحوالي ثلاث مئة سنة، نصبتها تلك الأمة التي نسبت الإله الحي. وقد نُظِم الموكب من جديد وشرع ممثلو فرنسا في العمل الذي قد اقسّموا أن يعملوه. « فعلى مسافات قصيرة نصبت الصقالات التي كان بعض المسيحيين البروتستانت سيُحرقون عليها أحياء، ورتبوا أن تشعل النار في اللحظة التي يقترب فيها الملك منهم، وأن يتوقف الموكب لمشاهدة الإعدام » (٢٠٨). إن مجرد ذكر تفاصيل العذابات التي قاساها شهود المسيح أولئك مرعب ومدمر للشعور، لكن أولئك الضحايا ثبتوا ولم يتراجعوا. فإذ ألح على واحد منهم أن يتراجع أجاب قائلا: « أنا لا أومن بغير ما سبق الأنبياء والرسل فكرزوا به وما آمنت به جموع القديسين. إن إيماني راسخ بالله، وهو سيقاوم كل قوات الجحيم » (٢٠٩).

وكان الموكب يتوقف مرارا أمام أماكن التعذيب، فلما وصلوا إلى قصر الملك الذي كانوا قد انطلقوا منه تفرق الجمع، وانسحب الملك والأساقفة، وهم راضون كل الرضى عن إجراءات ذلك اليوم، وكانوا يهنئون أنفسهم بأن العمل الذي قد بدأ به سيستمر حتى تتلاشى الهرطقة تماما.

مُحَارَبَةُ الْإِنْجِيلِ بِعَنْفٍ

إن إنجيل السلام الذي قد رفضته فرنسا كان سيُستأصل بكل تأكيد، وما أُرهب نتائج ذلك! ففي الحادي والعشرين من كانون الثاني (يناير) عام ١٧٩٣، أي بعد ٢٥٨ سنة من اليوم نفسه الذي فيه شرعت فرنسا في اضطهاد المصلحين، كان هناك موكب آخر، ولكن بهدف مختلف تماما، سار في شوارع باريس. ومرة أخرى كان الملك هو الشخصية الرئيسية. ومرة أخرى كان هنالك شغب وضوضاء، ومرة أخرى صاح الناس في طلب ضحايا جديدة، ومرة أخرى كانت تُرى الصقالات السود، ومرة أخرى انتهت أحداث اليوم بالمحركات الهائلة. وكان الملك لويس السادس عشر يناضل بين أيدي سجنائه وجلاديه، لكنهم سحبوه إلى ساحة الإعدام حيث أمسك بكل قوة وطرح على الأرض وهوت الفأس على عنقه فتدحرج رأسه المقطوع بعيدا « (٢١٠). ولم يكن الملك هو الضحية الوحيدة، فبالقرب من تلك البقعة هلك ٢٨٠٠ نفس تحت حد المقصلة القاطع في خلال تلك الأيام الدامية، أيام حكم الرعب.

لقد قدم الإصلاح إلى العالم كتابا مفتوحا كاشفا لهم عن وصايا شريعة الله وهو يلح بمطالبه على ضمائر الشعب. إن محبة الله غير المحدودة والسرمدية قد كشفت للناس عن شرائع السماء ومبادئها. لقد قال الله: « فَأَحْفَظُوا وَاعْمَلُوا لِأَنَّ ذَلِكَ حِكْمَتُكُمْ وَفِطْنَتُكُمْ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ

يَسْمَعُونَ كُلَّ هَذِهِ الْفَرَائِضِ، فَيَقُولُونَ: هَذَا الشَّعْبُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا هُوَ شَعْبٌ حَكِيمٌ وَقَطَنُ « (تثنية ٤: ٦). إن فرنسا عندما رفضت هبة السماء زرعت بذار الفوضى والخراب، ثم إن التفاعل الذي لا مفر منه بين السبب والنتيجة نتجت منه تلك الثورة الهائلة التي بدأ بها حكم الرعب.

فارل في سويسرا

قبلما ثار الاضطهاد بسبب تلك الإعلانات المشؤومة، بوقت طويل، أُجبر فارل الشجاع الغيور على الهرب من أرض ميلاده، فانطلق ذاهباً إلى سويسرا وساعد على نجاح عمل زوينكلي، وهكذا جعل كفة الإصلاح ترجح. وقد قضى سنواته الأخيرة في تلك البلاد، ومع ذلك فقد ظل يبذل جهوده ونفوقه الثابت لإصلاح فرنسا. وفي خلال السنوات الأولى التي قضاها في منفاه اتجهت مساعيه بنوع خاص إلى نشر رسالة الإنجيل في وطنه. وقد قضى وقتاً كبيراً في تبشير مواطنيه الساكنين عند الحدود، وبيقظته التي لا تعرف الكلال كان يراقب الصراع، وأعان الشعب بتشجيعاته ونصائحه. وبمساعدة غيره من المبعدين ترجمت مؤلفات المصلحين الألمان إلى الفرنسية، وطُبعت كميات كبيرة من هذه الكتب ومن الكتاب المقدس الفرنسي. وكان الموزعون يبيعون هذه الكتب بكثرة في فرنسا. كانت تلك الكتب تعطى للموزعين بأثمان مخفضة، وهكذا ساعدتهم الأرباح التي كانوا يحصلون عليها على الاستمرار في ذلك العمل.

لقد بدأ فارل عمله في سويسرا في زي معلم مدرسة وضع. وإذ لجأ إلى أبروشية منعزلة كرس نفسه لتعليم الصغار. وفضلاً عن فروع العلم العادية قدم حقائق الكتاب المقدس بكل حذر على أمل أن يصل إلى الآباء عن طريق أولادهم. وقد آمن بعضهم، لكن الكهنة انبروا له ليقفوا ذلك العمل، وثار سكان الأرياف المتعلقون بالخرافات فقاوموه. وقد دافع الكهنة بقولهم: « ذلك لا يمكن أن يكون إنجيل المسيح لأن الكرازة به لا تجيء بالسلام بل بالحرب » (٢١١). وعندما طُرد فارل من مدينة هرب كالتلاميذ الأولين إلى أخرى. فمن قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة أخرى انطلق سيرا على قدميه متحملاً الجوع والبرد والتعب. وفي كل مكان كانت المخاطر تهدده. كان يبشر في الأسواق والكنائس، وأحياناً كان يقف على منابر الكاتدرائيات. وأحياناً كان يجد الكنيسة خالية من السامعين، وفي أحيان أخرى كان تبشيره يقاطع بصيحات التهكم، في ذات مرة سُحب من المنبر بعنف. وقد تحرش به الرعاع أكثر من مرة، وضُرب حتى أشرف على الموت. ومع ذلك فقد ظل متقدماً في سيره. ومع أنه قد صُدَّ في أحيان كثيرة إلا أنه عاد إلى الهجوم بإصرار لا يتزعزع. وكان يرى مدينة بعد مدينة وبلدة بعد أخرى، كانت قبلاً معاقل للبابويين، تفتح أبوابها للإنجيل. والأبروشية الصغيرة التي بدأ عمله فيها قبلت العقيدة المصلحة. كما أن مدينتي مورات ونيوشاتل نبذتاها هما أيضاً الطقوس البابوية وأخرجتا التماثيل الوثنية من الكنائس.

اختيار وسيلة متواضعة

وكان فارل يشاق منذ زمن بعيد إلى أن يرفع العلم البروتستانتى في مدينة جنيف. فلو أمكنه أن يريح هذه المدينة فقد تصبح مركزاً للإصلاح في فرنسا وسويسرا وإيطاليا. فإذ جعل هذا الهدف نصب

عينه ظل يواصل جهوده حتى ربح كثيرا من المدن والقرى المجاورة. ثم دخل جنيف ومعه رفيق واحد. ولكن لم يُسمح له بأن يعظ أكثر من مرتين. وقد حاول الكهنة عبثاً أن يقنعوا السلطات المدنية بإدانتهم، فاستدعوه للمثول أمام مجلس إكليريكي، وأتوا هم المجلس يحملون السلاح تحت طيات ثيابهم إذ كانوا ينوون اغتياله. وقد وقف خارج المجلس جمع من إلى الرعاع الشرسين المسلحين بالهراوات والسيوف لكي يتأكدوا من موته إذا أمكنه الإفلات من المجلس. ومع ذلك فإن وجود القضاة والقوة المسلحة أنقذه. باكراً اليوم التالي أخذ هو وزميله ليعبرا البحيرة إلى مكان أمين. وهكذا انتهى أول مجهود بذله لتبشير جنيف.

أما المحاولة التالية فقد استخدمت فيها وسيلة متواضعة: شاب وضع المظهر قبول بفتور حتى من المعترفين بصدقتهم للإصلاح. ولكن أي نجاح يمكن أن يحزره هذا الإنسان في المدينة التي طرد منها فارل؟ وكيف يستطيع مثل هذا الإنسان الذي تعوزه الشجاعة والخبرة أن يصمد لتلك العاصفة التي قد هرب من أمامها أقوى الرجال وأشجعهم؟ «... لَا بِالْقُدْرَةِ وَلَا بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (زكريا ٤: ٦). «اخْتَارَ اللَّهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْأَقْوِيَاءَ»، «لَأَنَّ جَهَالََةَ اللَّهِ أَحْكَمُ مِنَ النَّاسِ! وَضَعَفَ اللَّهُ أَقْوَى مِنَ النَّاسِ» (١ كورنثوس ١: ٢٧، ٢٥).

بدأ فرومنت (وهذا هو اسم ذلك الشاب) عمله كمعلم مدرسة. فالحقائق التي علمها للأولاد في المدرسة رددوها على مسامع آبائهم في بيوتهم. وسرعان ما أقبل الوالدون ليستمعوا إلى شرح الكتاب المقدس حتى امتلأت حجرة الدراسة بالمستمعين المنتبهين وقد وُزعت عليهم كتب العهد الجديد وبعض النبذ مجانا فوصلت إلى أيدي كثيرين ممن لم يجسروا على المجيء علانية ليسمعوا تلك التعاليم الجديدة. وبعد وقت أجبر هذا المعلم أيضاً على الهرب صونا لحياته، لكن التعاليم التي علمها للناس علقت بعقولهم. لقد زرع الإصلاح وظل يقوى ويمتد. وقد عاد المبشرون، وبفضل جهودهم ثبتت العبادة البروتستانتية في جنيف أخيراً.

كانت المدينة قد أعلنت انحيازها إلى جانب الإصلاح عندما دخل كلفن من أبوابها بعد جولات متعددة وتقلبات مختلفة مرت به. فإذ كان عائداً من آخر زيارة لمسقط رأسه كان سائراً في طريقه إلى بازل، فلما رأى جيوش شارل الخامس تسد عليه الطريق اضطر أن يتخذ طريقاً دائرياً يمر بجنيف. في هذه الزيارة اعترف فارل بأن يد الله تعمل. فمع أن جنيف قبلت العقيدة المصلحة إلا أنه كان باقياً عمل عظيم ينبغي إنجازه فيها. فالناس لا يهتدون إلى الله كجماعات بل كأفراد. وعملية التجديد ينبغي أن تتم في القلب والضمير بقوة الروح القدس لا بقرارات المجالس. وفيما طرح شعب جنيف عنهم سلطة روما لم يكونوا مستعدين تماماً لأن ينبذوا الرذائل التي تفشت تحت حكمها. ولم تكن مهمة سهلة تثبت مبادئ الإنجيل الطاهرة في هذه المدينة وإعداد شعبها ليملاً عن جدارة المركز الذي بدا أن العناية الإلهية تدعوه إليه.

كان فارل واثقاً بأنه قد وجد في كلفن الشخص الذي يمكنه أن يشركه معه في هذا العمل. وقد ناشد ذلك الواعظ الشاب باسم الله أن يبقى ليعمل معه. لكن كلفن تراجع فزعاً. فإذ كان بطبعه خجولاً ومحبا للسلام فقد أجفل من الاحتكاك بأهل جنيف الذين كانت روحهم جريئة ومعتزة بنفسها

وعنيفة. ثم إن اعتلال صحته وولعه بالدرس والاطّلاع جعلاه يميل إلى العزلة وينشدها. وإذا كان يعتقد أنه بكتابات بإمكانه أن يسدي أجل الخدمات لقضية الإصلاح كان يرغب في أن يجد لنفسه معتكفا هادئا فيه ينكب على الدرس، وهكذا فعن طريق المطبوعات يستطيع أن يعلم الكنائس وبينها. لكن إنذار فارل المهيب المقدس جاءه كأنه صوت من السماء فلم يجرؤ على الرفض. وقد قال « إنه تراءى له وكأن يد الله قد امتدت إليه من السماء لتمسك به، وثبتته على نحو قاطع في المكان الذي كان يرغب كل الرغبة في تركه » (٢١٢).

أعداء ألداء للإصلاح

في هذا الوقت كانت مخاطر عظيمة محدقة بالقضية البروتستانتية. لقد أرعدت حرومات البابا ضد جنيف فكانت هنالك أمم قوية تتوعدها بالهلاك. فكيف لهذه المدينة الصغيرة أن تقاوم السلطة الدينية القوية الجبارة التي طالما أرغمت الملوك والأباطرة على الخضوع لها؟ وكيف يمكنها أن تصمد أمام الجيوش القوية التي يقودها غزاة العالم الأشداء الصناديد؟

في كل العالم المسيحي كانت البروتستانتية مهددة بأعداء أقوياء مرعبين. فإذا أحرز الإصلاح أول انتصاراته عبأت روما قوات جديدة على أمل أن تقضي عليه بالدمار. وفي هذا الوقت أنشئت رهبنة اليسوعيين (الجزويت) وهي أقسى أبطال البابوية الفاسدين وأقواهم. فإذا انقطعوا عن كل الصلات الأرضية وبُتروا من كل المصالح البشرية وأُمتيتوا عن مطالب العاطفة الطبيعية وابتكموا العقل والضمير، فإنهم لم يكونوا يعرفون قانونا ولا صلة عدا قوانين رهبانيتهم وصلاتها، ولم يكونوا يعرفون واجبا غير واجب نشر سلطانها (انظر التذييل). لكن إنجيل المسيح كان قد أعان معتنقيه على مواجهة الأخطار واحتمال الآلام وعدم تهيب البرد أو الجوع أو التعب أو الفقر، وعلى رفع راية الحق في وجه آلات التعذيب أو السجون أو النار المحرقة. فلكي ينازل الجزويت هذه القوات أضرموا قلوب تابعيهم بنار التعصب الذي أعانهم على احتمال مخاطر مماثلة واستخدام كل قوى الخداع لمقاومة قوة الحق. فلم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الجرائم أو استخدام أخط أساليب الخداع أو الغش المتعددة الأشكال. ومع كونهم قد نذروا أن يعيشوا عيشة الفقر والاتضاع مدى الحياة فقد كان هدفهم المدروس أن يحرزوا الثروة والسلطان وأن يكرسوا جهودهم لتدمير البروتستانتية ويوطدوا دعائم السيادة البابوية.

لبس هؤلاء الرهبان قناع القداسة فبدأوا بزيارة السجون والمستشفيات، وكانوا يخدمون المرضى والفقراء، ويعترفون أنهم قد نبذوا العالم وهم يحملون اسم يسوع المقدس الذي جال يصنع خيرا. ولكن تحت هذا المظهر الخارجي الذي لا غبار عليه كانت تختفي أرواح النوايا الإجرامية المميتة. وقد كان من المبادئ الأساسية لهذه الرهبنة « إن الغاية تبرر الوسيلة ». وبناء على هذا المبدأ كان الكذب والسرقة ويمين الزور وجرائم الاغتيال، فضلا عن كونها مغتفرة، تُعتبر أعمالا حميدة وجيليلة ما دامت تخدم مصالح الكنيسة. وتحت كثير من أشكال التنكر زحف الجزويت إلى وظائف الدولة وجعلوا يتسلقون حتى صار بعضهم مستشارين للملوك، وصاروا يشكلون سياسة الدول. وكان بعضهم يعملون كخدم ليتجسسوا على ساداتهم. وقد أقاموا كليات لأبناء الأمراء والنبلاء ومدارس

لعامة الشعب، وكان أبناء البروتستانت يُجبرون على حفظ الطقوس البابوية. هذا، وقد استخدمت كل مظاهر الابهة والفخامة الخارجية لتربك عقول الأولاد وتذهل وتأسر أفكارهم، وهكذا خان الأبناء عهود آبائهم وأسلموا الحرية التي في سبيلها تعب آبائهم واستنزفوا دماءهم. وبسرعة عظيمة توسّع الجزويت في كل أوروبا وأينما حلوا انتعشت البابوية.

وفي سبيل زيادة سطوتهم وسلطانهم صدرت براءة بابوية بإعادة محاكم التفتيش (انظر التذييل). وعلى الرغم من نفور الشعب الكاثوليكي نفسه وكراهيتهم لهذه المحكمة المخيفة فقد أقامها الحكام البابويون ثانية، وارتكبت في أعماق السجون السرية فظائع أُرهب من أن تواجه النور. وفي ممالك كثيرة قُتل ألوف فوق ألوف أو أُجبروا على الهرب إلى بلدان أخرى، وهم من زهرة الأمة الذين كانوا أظهر وأشرف الناس وأعلامهم ثقافة وأسماءهم علما وخلقا وأتقاهم، من الرعاة المكرسين والمواطنين الكادحين المحبين للوطن والأساتذة العباقرة والفنانين الموهوبين والصناع المهرة.

انتصارات للإصلاح

هذه هي الوسائل التي استخدمتها روما لإطفاء نور الإصلاح وحرمان الناس من الكتاب المقدس وإبقاء جهالة العصور المظلمة وخرافات جاثمة على الصدور. ولكن ببركة الله وجهود أولئك الرجال الإشراف الذين أقامهم الله ليخلفوا لوثر لم تُقهر البروتستانتية ولم تُعزى قوتها إلى فضل أسلحة الأمراء. لقد صارت أصغر البلدان وأحقّر الأمم وأقلها قوة، معاقل لها. كانت جنيف الصغيرة واحدة من تلك المدن التي كانت في وسط أعداء أشداء يتآمرون على هلاكها. وكذلك البلاد الواطئة (هولندا) بشواطئها الرملية في بحر الشمال صارت ضد طغيان إسبانيا التي كانت حينئذ أعظم الممالك وأكثرها ثراء. وأيضاً السويد الشديدة البرودة والمجدبة التربة أحرزت للإصلاح نصره العظيم.

ظل كلفن يعمل جاهداً في جنيف حوالي ثلاثين سنة، ليقم أولاً هناك كنيسة تتمسك بفضائل الكتاب المقدس، ولينشر ثانية الإصلاح في جميع أنحاء أوروبا. ولم يكن تصرفه كقائد شعبي خالياً من الأخطاء، ولا كانت تعاليمه خالية من الخطأ، لكنه أعان على نشر الحقائق التي كانت مهمة في عصره وعلى حفظ المبادئ البروتستانتية للصمود أمام تيار البابوية الذي كان يعود مسرعاً، ومنها بساطة الحياة المسيحية وطهارتها التي عمل على تنميتها في الكنائس المصلحة لتحل مكان الكبرياء والفساد الذي تفشى بتأثير التعاليم البابوية.

ومن جنيف خرجت مطبوعات وبرز معلمون لنشر التعاليم المصلحة. وقد نظر المضطهدون في كل البلدان إلى هذه البقعة في انتظار التعليم والمشورة والتشجيع. وصارت مدينة كلفن هذه ملاذاً لكل المصلحين المطاردين في كل غربي أوروبا. فأولئك المهاجرون في هربهم من الأعاصير المخيفة التي ظلت تهب عدة قرون قرعوا أبواب جنيف. وإذا كانوا يتضورون جوعاً ومجروحين ومحرّمين من الوطن والأهل رحب بهم أهل المدينة وعوملوا بكل رفق ومحبة. ولما وجدوا في هذه المدينة وطناً باركوها بمهاراتهم وعلومهم وتقواهم. وكثيرون ممن لجأوا إليها يحتمون فيها عادوا إلى بلدانهم ليقاوموا طغيان روما. إن جون كنوكس المصلح الإسكوتلندي الشجاع، وجماعة غير قليلة من البيوريتان

الإنكليز، والبروتستانت في هولندا وإسبانيا، والهيغونوت في فرنسا حملوا من جنيف مشعل الحق لينيروا ظلمات أوطانهم.

١٣ - الأراضي الوطیئة واسكندیناوه

استوجب طغیان البابا فی الأراضي الوطیئة الاحتجاج منذ عهد مبكر جدا. فقبل عهد لوثر بسبع مئة سنة اتهم البابا بالخيانة بلا خوف، وذلك على لسان اثنين من الأساقفة اللذين إذ كانا قد أرسلنا إلى روما فی سفارة عرفا الصفة الحقيقية « للبابوية المقدسة ». فقالا: إن الله « قد جعل ملكته وعروسه، الكنيسة، مؤونة فخمة أبدية لأسرتها ببائنة (مهر) لا تفنى ولا تتدنس وأعطاه إكليلا وصولجانا أبدیین... وكل ما يعود بالربح تصدیت له كاللص. لقد أقمت نفسك في هیکل الله، وبدلا من كونك راعيا فقد صرت ذئبا يفترس الغنم... أنت تريد أن تقنعنا بأنك رئیس الأساقفة، لكنك تتصرف كما لو كنت طاغية... ومع أنه ينبغي لك أن تكون عبد العبيد، كما تسمي نفسك، فانت تسعى إلى أن تكون رب الأرباب... إنك تجعل أوامر الله محتقرة... الروح القدس هو باني كل الكنائس في كل أنحاء الأرض... ومدينة إلهنا التي نحن رعاياها تصل إلى كل أقالیم السماء، وهي أعظم من تلك المدينة التي يسميها الأنبياء القديسون بابل والتي تتظاهر إنها إلهية وتعد نفسها للسماء وتتشدق بأن حکمتها خالدة، وأخيرا تدعي من دون سبب أنها لم ولن تخطئ » (٢١٣).

ومن قرن إلى قرن قام آخرون ليرددوا صدى هذا الاحتجاج. ثم إن أولئك المعلمين الأولين فيما كانوا يجوبون البلدان المختلفة بأسماء متعددة وكانت لهم صفات المبشرين الولدنسيين وكانوا ينشرون في كل مكان معرفة الإنجيل، تغلغلوا في داخل الأراضي الوطیئة حيث انتشرت تعاليمهم بسرعة. وقد ترجموا التوراة الولدنسية شعرا إلى اللغة الهولندية. وأعلنوا « إن فيها ميزة عظيمة، لا نكات وفكاهات وخرافات وأشياء تافهة ومخاتلات، بل كلام الحق، وأنه بالطبع كانت توجد هنا وهناك لقمة يابسة، ولكن كان يمكن بعد ذلك أن تكتشف بسهولة زبدة وحلاوة كل ما هو صالح ومقدس في الكتاب ». (٢١٤). هذا ما كتبه معتنقو الحق القديم في القرن الثاني عشر.

وهنا بدأت الاضطهادات البابوية، ولكن في وسط وقود النار والعذابات ظل المؤمنون يتكاثرون معلنين بكل ثبات أن الكتاب المقدس هو المرجع الوحيد الذي لا يخطئ في الدين، وأنه « ينبغي ألا يُكره أحد على الإيمان بل يجب ربحه بالتبشير » (٢١٥).

ولقد وجدت تعاليم لوثر تربة ملائمة في الأراضي الوطیئة، فقام رجال غيورون أمناء ليبشروا بالإنجيل. وقد أتى مينو سيمونز من إحدى مقاطعات هولنده. فإذ تلقى تعليما رومانيا كاثوليكيًا وسيم كاهنًا كان يجهل الكتاب جهلا تاما، ولم يكن يريد أن يقرأه خشية أن يُغوى ويعتنق الهرطقة. وعندما اقتحمت عقله الشكوك الخاصة بعقيدة استحالة القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه فعليا. اعتبر ذلك تجربة شيطانية، فحاول بالصلاة والاعتراف أن يتحرر منها، ولكن عبثًا حاول. فانغمس في الملذات محاولا إسكات ضميره الذي كان يكتنه ولكن من دون جدوى. وبعد وقت عكف على دراسة العهد الجديد، وهذا مع مؤلفات لوثر جعله يقبل الإيمان المصلح. وفي أثر ذلك رأى في قرية مجاورة رجلا يُحكم عليه بالإعدام ويقطع رأسه لأنه قبل المعمودية مرتين. وهذا قاده إلى أن يدرس ما ورد في الكتاب عن المعمودية الأطفال. فلم يستطع أن يجد برهانا عليها في كلام الله، ولكنه رأى أنه في كل مكان كان يُطلب التوبة كشرط لقبول المعمودية.

فانسحب مينو من الكنيسة البابوية وكرس حياته لتعليم الناس الحقائق التي قد قبلها. وقام في أَلْمَانِيَا والأراضي الوطيفة جماعة من المتعصبين ينادون بتعاليم سخيفة مثيرة للفتن تدعو إلى انتهاك النظام واللياقة، وتنادي بالالتجاء إلى العنف والثورة. وقد رأى مينو العواقب المخيفة التي لا بد أن تؤدي إليها هذه الحركات، فبكل جرأة جعل يقاوم التعاليم الخاطئة والتدبيرات الطائشة التي كان ينادي بها أولئك المتعصبون. ومع ذلك فقد أضل أولئك المتعصبون أناساً كثيرين ولكنهم عادوا فنبذوا تعاليمهم الويلة الشريرة. وكان لا يزال باقيا كثيرون من نسل المسيحيين القدامى الذين كانوا من ثمار التعليم الولدنشي. وقد خدم مينو بين هؤلاء الناس بغيرة عظيمة وبنجاح منقطع النظير.

ولمدة خمس وعشرين سنة ظل يسافر ويتنقل مع زوجته وأولاده متحملين المتاعب الجمة والعُسر، وكثيرا ما تعرضت حياته للخطر. وقد قطع الأراضي الوطيفة وشمالي أَلْمَانِيَا وهو يعمل بالأكثر بين الطبقات الفقيرة، وكان له تأثير واسع النطاق. ولأنه كان بطبيعته فصيحاً وأن تكن ثقافته محدودة فقد كان رجلاً موصوفاً بالاستقامة التي لا تلين ولا تتزعزع ووداعة الروح ورقة العادات وخلوص التقوى والغيرة المقدسة، وجاعلاً من حياته مثلاً للتعاليم والوصايا التي علم بها، وهكذا ظفر بثقة الشعب. وقد تشتت اتباعه واضطهدوا وقاسوا الشيء الكثير، وارتكبوا بسبب تعاليم المونستريين المتعصبين. ومع ذلك فبفضل جهوده اهتمت جموع كثيرة من الناس إلى الله.

لم تُقبل التعاليم المصلحة بالإجماع كما قبلت في الأراضي الوطيفة. وفي قليل من الأقطار احتمل معتنقو تلك التعاليم اضطهادات ارهب مما احتمله أهل الأراضي الوطيفة. وفي أَلْمَانِيَا لعن شارل الخامس الإصلاح وحرّم على الناس اعتناق مبادئه، وكان يريد بكل سرور أن يحرق بالنار كل من ينتمون إليه، لكنّ الأمراء حالوا بينه وبين الطغيان. بيّد أن نفوذه كان أعظم في الأراضي الوطيفة مما في بلاده، وقد توالى المنشورات الداعية إلى الاضطهاد في تتابع وسرعة عظيمة. فكون الإنسان يقرأ الكتاب المقدس أو يسمع تعاليمه أو يبشر به أو حتى يتحدث عنه كان كفيلاً بأن يوقعه تحت خطر الموت احتراقاً. وكون الإنسان يصلي إلى الله في الخفاء أو يتمتع عن السجود أمام الأيقونات أو يترنم بمزمور كان يستوجب الموت. بل حتى من كانوا يتركون أخطاءهم كانوا يدانون. فإن كانوا رجالاً كانوا يموتون قتلاً بالسيف، أما النساء فكن يُدفن حياً. وهكذا هلك آلاف من الناس تحت حكم شارل الخامس وفيليب الثاني.

وفي مرة أُتي بأسرة كاملة أمام محكمة التفتيش، وكانوا متهمين بالتخلف عن حضور القداس وإقامة العبادة في بيتهم. وعند استجواب الابن الأصغر إذ سئل عما يفعلونه في الخفاء أجاب قائلاً: «إننا نخر جاثين ونتضرع إلى الله أن ينير عقولنا ويغفر خطايانا، ونحن نصلي لأجل ملكنا حتى يكون حكمه ناجحاً وحياته سعيدة، ونصلي لأجل حكامنا حتى يحفظهم الله» (٢١٦). وقد تأثر بعض القضاة تأثراً عميقاً، ومع ذلك فقد حكم على الأب وأحد أبنائه بالموت حرقاً بالنار.

إيمان الشهداء

كان إيمان الشهداء موازناً ومساوياً لغضب مضطهديهم وحنقهم. ففضلاً عن الرجال أبدت النساء

الرقاقات الضعيفات والعذارى الشابات شجاعة ثابتة ونادرة. « كانت الزوجة تقف إلى جوار زوجها وهو يحترق بالنار، وفيما كان يقاسي العذابات كانت زوجته تهمس له بكلام العزاء أو ترنم له زمورا لتخفف عنه »، وكانت العذارى الشابات يرقدن في قبورهن وهن على قيد الحياة كما لو كن داخلات إلى مخادع نومهن أو يذهبن إلى المشائق والنار وهن متسريلات بأبهى الحلل كما لو كن ذاهبات إلى حفلة زفافهن » (٢١٧).

وكما في عهد الوثنية عندما حاول الوثنيون أن يلاشوا الإنجيل فكان دم المسيحيين هو البذار (٢١٨)، كذلك كان من نتائج الاضطهاد أن زاد عدد شهود الحق. فسنة بعد سنة كاد الملك يجن أمّام عزم الشعب الذي لا يقهر فظل ماضيا في أعمال القسوة، ولكن عبثا. وأما تحت حكم وليم أورانج النبيل فنجحت الثورة في تحقيق حرية العبادة في هولندا.

وفي جبال بيدمونت وسهول فرنسا وشواطئ هولندا كان تقدم الإنجيل موسوما بدم تلاميذه. أما في الأقطار الشمالية فقد وجد قبولا ودخل دخولا سليما. فطلبة وتبرك في عودتهم إلى أوطانهم حملوا الإيمان المصلح إلى بلاد إسكندينايا. وقد ساعدت كتب لوثر أيضاً بعد نشرها على تعميم النور. وابتعد أهل الشمال البسطاء الجريئون عن المفاصد والفخفة والخرافات التي هي من صنع روما، ورحبوا بطهارة حقائق الكتاب المقدس المانحة الحياة وبساطتها.

المصلح الدانيماركي

كان تاووزن « المصلح الدانيماركي » ابن رجل فلاح. وقد برهن ذلك الصبي على ذكاء عقله ونبوغه. كان يتوق إلى التعلم لكن ظروف أبويه حرمتهم ذلك فدخل ديرا. هناك أكسبته طهارة حياته مع اجتهاده وولائه رضى رئيسه. وقد برهنت نتيجة الامتحان على موهبة تبشر بأنه سيسدي في المستقبل إلى الكنيسة خدمات جليلة. وقد تقرر الحاقه بإحدى جامعات ألمانيا أو الأراضي الوطيئة. وأعطى ذلك الطالب الشاب الحق في اختيار المدرسة التي يريد بها بشرط واحد هو ألا يذهب إلى وتبرك. فالتالب المبعوث من قبل الكنيسة ينبغي ألا يتعرض لسوموم الهرطقة. هذا ما قاله الرهبان.

فذهب تاووزن إلى كولونيا التي كانت حينئذ ولا تزال إلى اليوم معقلا حصينا من معاقل البابوية. وسرعان ما اشمأزت نفسه من تدين الأساتذة المتزمت الغامض. وفي ذلك الوقت حصل على مؤلفات لوثر فقرأها بدهشة وسرور. وكان يرغب كل الرغبة في أن يتمتع بنوال نصيب شخصي من تعليم ذلك المصلح، لكنه لو فعل ذلك لأسخط عليه رئيس ديره فيُحرم من الإنفاق عليه. لكنه عقد العزم، وبعد قليل سجل اسمه بين طلبة وتبرك.

عندما عاد إلى الدانيمارك توجه إلى الدير. ولم يكن أحد يشك فيه إلى ذلك الحين أنه قد اعتنق مبادئ لوثر، وهو لم يُطلع أحدا على سريره، بل حاول من دون أن يشير تعصب زملائه أن يقودهم إلى إيمان أنقى وحياة أقدس. ففتح لهم الكتاب المقدس وجعل يشرح لهم معناه الصحيح، وأخيرا بشرهم بالمسيح على أنه بر الخاطئ ورجاؤه الوحيد في الخلاص، فكان غضب رئيس الدير عظيما إذ كان يبنى عليه آمالا كبارا كمحام ومدافع شجاع عن روما. فنقل من ديره في الحال إلى دير آخر وحكم عليه

بملازمة حجرته، وفُرضت عليه رقابة شديدة.

ارتعب الأوصياء الجدد عندما أعلن رهبان كثيرون أنهم قد اهتمدوا إلى البروتستانتية. فمن خلال قضبان حجرته كان تاوزن يراسل زملاءه بمعرفة الحق. ولو كان أولئك الآباء الدانيماركيون ماهرين في استخدام وسائل الكنيسة في معاملتها للهرطقة لما سمع أحد صوت تاوزن بعد ذلك، ولكنهم بدلا من أن يقبروه في سجن تحت الأرض طردوه من الدير. وقد أمسوا عاجزين الآن، ذلك أنه كان قد صدر مرسوم ملكي يؤمّن الحماية لمعلمي التعاليم الجديدة. وقد بدأ تاوزن يبشر، ففتحت له الكنائس وتقاطر الناس لسماعه. وكان آخرون يبشرون بكلمة الله وكتاب العهد الجديد الذي ترجم إلى اللغة الدانماركية وانتشر في كل مكان. هذا، وأن المساعي التي بذلها البابويون للقضاء على هذا العمل آلت إلى نشره أكثر، وبعد قليل أعلنت الدانيمارك أنها قد قبلت العقيدة المصلحة.

تقدم الإصلاح في السويد

وفي السويد أيضاً حدث أن الشبان الذين كانوا قد نهلوا من النبع العذب في وتنبرك حملوا ماء الحياة إلى بلادهم ومواطنيهم، وكان من بين قادة الإصلاح في السويد شابان أخوان هما أولاف ولورنتيوس بيتري، أبوهما حداد من مدينة أوربيرو. هذان الشبان كانا قد تلقيا العلم على يدي لوثر وميلانكتون، وكانا مجتهدين في تعليم الناس تلك التعاليم التي تلقياها. ومثل المصلح العظيم أثار أولاف الشعب بغيرته وفصاحته، أما لورنتيوس فكان مثل ميلانكتون عالما ومفكرا وهادئا. كان كل منهما حارا في تقواه وحاصلا على معرفة البابويين على أشدها، فلقد أثار الكهنة الكاثوليك ذلك الشعب الجاهل المتعلق بالخرافات. فهاجم الرعايا أولاف بيتري مرارا، وفي بعض الأحيان كان ينجو بحياته بشق النفس. ومع ذلك فقد كان هذان المصلحان حائزين رضى الملك وحمايته.

غاص الشعب تحت حكم الكنيسة البابوية في أعماق الفقر وسحقه الظلم. كان الناس محرومين من الكتاب المقدس، وإذ كانت ديانتهم عبارة عن بعض الرموز والطقوس التي لم تكن لتثير الذهن كانوا يعودون إلى العقائد الخرافية والممارسات الوثنية التي كان يدين بها أسلافهم الوثنيون. وقد انقسمت الأمة إلى أحزاب متضاربة زادت منازعاتهم وخصوماتهم من شقاء الجميع. وقد عقد الملك العزم على إجراء إصلاح في الدولة وفي الكنيسة فرحب بمساعدة هذين المصلحين المقتدرين في حربه ضد روما.

ففي حضرة الملك وعظماء بلاد السويد دافع أولاف بيتري بمقدرته الخطابية عن تعاليم الإيمان المصلح ضد أبطال البابوية. وأعلن أن تعاليم الآباء ينبغي قبولها على قدر مطابقتها للكتب المقدسة، وأن تعاليم الإيمان الجوهريّة معروفة في الكتاب على نحو واضح بسيط بحيث يمكن أن يفهمها كل إنسان. لقد قال المسيح: «... تَعْلِمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي» (يوحنا ٧: ١٦). وقد أعلن بولس أنه أن بشر بإنجيل آخر غير ما قبله فليكن أناثيما (ملعوناً) (غلاطية ١: ٨). ثم قال المصلح: «إذا فكيف يتجرأ آخرون على أن يسنوا قوانين كما يروق لهم ويفرضوها على الناس كأنها ضرورة للخلاص؟» (٢١٩). ثم أعلن أن أوامر الكنيسة ليست ملزمة متى كانت متعارضة مع أوامر الله، ثم

قدم المبدأ البروتستانتي العظيم وهو « أن الكُتَاب المُقَدَّس وحده » هو قانون الإيمان والأعمال في الأراضي الوطیئة واسكنديناوه.

ومع أن هذا النزاع أُقيم على مسرح مغمور نسبيا فهو يرينا « نوع الرجال من كل الرتب الذين تكوّن منهم جيش المصلحين الذين لم يكونوا قوما أميين عديمي العلم ولا متعصبين لطائفة خاصة، مشاغبين أو محبين للجدال، كلا بل كانوا رجالا درسوا كلمة الله وعرفوا جيدا كيف يحسنون استخدام الأسلحة التي زودتهم إياها خزانة أسلحة الكتاب. وفي ما يختص بالبلاغة والعلوم كانوا في طليعة جيلهم. وعندما نحصر انتباهنا في المدن المتألقة مثل وتنبرك وزورخ، وننظر إلى الأسماء الشهيرة كلوثر وميلانكتون وزوينكلي واكلولامباديوس، فقد يقال لنا أن هؤلاء كانوا قادة الحركة، ونحن بالطبع ننتظر أن تكون لهم قوة هائلة وإدراك واسع المدى، أما أتباعهم فلم يكونوا مثلهم. حسنا فلنلتفت إلى مسرح السويد المغمور وإلى ذينك الاسمين المتواضعين أي أولاف ولورنتيوس بيتري — من الأساتذة إلى التلاميذ — فما الذي نجده؟ ... نجد أساتذة ولاهوتيين أقوياء، رجالا أتقنوا كل نظام حق الإنجيل وانتصروا انتصارا سهلا على السفسطائيين من المدارس وعلى أصحاب المقامة في روما » (٢٢٠).

السويد تؤيد الإصلاح

كان من نتائج هذه المجادلة أن ملك السويد قبل الإيمان البروتستانتي، وبعد وقت قصير قرر المجلس الوطني اعتناقه. كان أولاف بيتري قد ترجم كتاب العهد الجديد إلى اللغة السويدية، وبناء على رغبة الملك شرع الإخوان في ترجمة الكُتَاب المُقَدَّس كله. وهكذا فلأول مرة حصل شعب السويد على الكُتَاب المُقَدَّس في لغتهم الوطنية. وقد صدر أمر من المجلس يفرض على خُدام الكلمة في كل أنحاء المملكة أن يشرحوا الكُتَاب المُقَدَّس، وعلى الأولاد أن يتعلموا في مدارسهم قراءة الكتاب.

وبكل ثبات وتأکید طردت أنوار الإنجيل المبارك ظلمات الجهالة والخرافات. وإذ تحررت الأمة من المظالم البابوية وصلت إلى قوة وعظمة لم تبلغهما من قبل. وقد صارت السويد معقلا من معاقل البروتستانتية. وبعد ذلك بقرن من الزمان، في وقت محنة وخطر عظيمين، فإن هذه الدولة التي كانت إلى ذلك الحين صغيرة وواهنة أصبحت هي الوحيدة في أوروبا التي تجرأت على مد يد العون إلى ألمانيا فأنقذتها في حرب الثلاثين سنة المخيفة. كانت كل دول شمالي أوروبا مهددة بخطر العودة للخضوع لطغیان روما، لكن جيوش السويد هي التي أعانت ألمانيا على أن تعكس تيار النجاح البابوي وتحصل على التسامح مع البروتستانت — الكلفنيين واللوثريين سواء بسواء — وتستعيد حرية الضمير للممالك التي قبلت الإصلاح.

١٤ - المصلحون الآخرون في إنكلترا

عندما كان لوثر يفتح الكتاب المقدس المغلق للشعب الألماني ألزم روح الله تندل بأن يقوم بذلك العمل نفسه لشعب إنكلترا. كانت توراة ويلكف قد ترجمت عن النص اللاتيني المليء بالأخطاء، ولكنها لم تكن قد طُبعت قط. وكانت أثمان النسخ المخطوطة عظيمة جدا بحيث لم يكن إلا القليل من غير الأثرياء والنبلاء يستطيع اقتناء نسخة منها. وفوق هذا فحيث أن اقتناءها كان محظورا بشدة بأمر الكنيسة كان انتشارها في حيز ضيق نسبيا. وفي عام ١٥١٦، أي قبل ظهور نظريات لوثر بسنة، كان أراسمس قد نشر ترجمته اليونانية واللاتينية للعهد الجديد. لذلك، ولأول مرة طُبعت كلمة الله في لغتها الأصلية. وفي هذا الكتاب أصلحت كثير من الأخطاء الواردة في الترجمات السابقة، وبذلك صار معناها أكثر وضوحا. وقد قاد هذا الكتاب كثيرين من الطبقات المتعلمة إلى معرفة أفضل للحق وأعطى عمل الإصلاح قوة دفع جديدة. لكن عامة الشعب كانوا إلى حد كبير لا يزالون محرومين من كلمة الله. وكان على تندل أن يكمل عمل ويلكف في تقديم الكتاب المقدس إلى مواطنيه.

كان تندل تلميذا مجدا وباحثا غيوراً عن الحق، فحصل على كتاب العهد الجديد باليونانية لأراسمس. ومن دون خوف بشر الناس باقتناعاته، وألح على الشعب أن يمتحنوا كل التعاليم في نور كلمة الله. وقد أجاب تندل على الادعاء البابوي القائل أن الكنيسة هي التي أعطت الكتاب وهي وحدها تستطيع أن تشرحه بقوله: « هل تعرفون من الذي علم النصور أن تجد صيدها؟ ذلك الإله نفسه يعلم أولاده الجياع أن يجدوا أباهم السماوي في كلمته. إنكم لم تعطونا كلام الله ولكنكم على النقيض من ذلك أخفيتموه عنا. وأنتم الذين أحرقتهم من قد بشروا به، ولو استطعتم لا حرقتم الكتاب نفسه » (٢٢١).

أثارت بشارة تندل اهتماما عظيما، فقبل كثيرون من الشعب الحق. لكن الكهنة كانوا يقظين، فما إن ترك الحقل حتى عمدوا إلى تدمير عمله بالوعيد والتحريف والتشويه. وقد نجحوا مرارا عديدة. فصاح قائلا: « ماذا نصنع؟ ففيما أنا أزرع في مكان يدمر العدو ما قد زرعت في حقل آخر. أنا لا أستطيع أن أكون في كل مكان. آه! لو توفر للمسيحيين الكتاب المقدس بلغتهم لأمكنهم الصمود أمام كل هذه المغالطات. فمن دون الكتاب المقدس لا يمكننا أن نثبت الشعب في الحق » (٢٢٢).

أما الآن فقد استحوز على عقله غرض جديد. قال: « لقد كان الشعب يترنمون بالمزامير في هيكल الرب بلغة إسرائيل، أفلا يمكن أن يكلمنا الإنجيل بلغة إنكلترا؟... وهل يكون نور الظهيرة الذي تسير الكنيسة على هديه أضعف من نور الفجر؟ ينبغي للمسيحيين أن يقرأوا العهد الجديد في لغتهم الوطنية ». لقد اختلف أساتذة الكنيسة ومعلموها في ما بينهم. إنما بقراءة الكتاب المقدس وحده استطاع الناس الوصول إلى الحق. « واحد يتمسك بعقيدة أستاذ، وآخر يُشيد بتعليم أستاذ آخر... وكل مؤلف يناقض الآخرين، إذاً كيف يمكننا التمييز بين من يقول الصواب ومن يقول الخطأ؟... كيف؟... في الواقع يمكننا ذلك بواسطة كلمة الله » (٢٢٣).

وبعد ذلك بوقت قصير إذ اشتبك عالم من أساتذة الكاثوليك مع تندل في جدال صاح هذا العالم قائلا: « خير لنا أن نستغني عن شرائع الله من أن نستغني عن شرائع البابوات ». فأجابه تندل بقوله:

« إنني أتحدى البابا وكل شرائعه. وإذا أبقى الله على حياتي فقبل مضي سنين كثيرة سأجعل الولد الذي يسوق المحراث يعرف من أقوال الله أكثر مما تعرف أنت » (٢٢٤).

العهد الجديد بلغة الشعب

إن ذلك الغرض الذي كان تندل يفكر فيه ويهتم به، إلا وهو تقديم كتاب العهد الجديد للشعب بلغة الشعب، ثبت في ذهنه وتأييد حينئذ، وفي الحال بدأ في ذلك العمل. وإذ طُرد من بيته بسبب الاضطهاد ذهب إلى لندن وظل بعض الوقت يواصل عمله من دون إزعاج. لكنَّ عنف البابويين وقسوتهم اضطراه إلى الهرب. وقد بدا كأن كل بلاد إنكلترا الواسعة قد أغلقت أبوابها في وجهه، فعوّل على اللجوء إلى أَلْمَانِيَا. وهناك بدأ بطبع كتاب العهد الجديد المترجم إلى الإنكليزية. وقد توقف العمل مرتين، وعندما كان يحظّر عليه الطبع في مدينة كان يذهب إلى أخرى. أخيرا سافر إلى ورمس التي كان لوثر قد دافع فيها عن حق الإنجيل قبل ذلك بسنوات قليلة أمام المجلس. وكان في تلك المدينة العريقة كثيرون من أصدقاء الإصلاح، فواظب تندل على عمله هناك من دون توقف. وسرعان ما أعدت ثلاثة آلاف نسخة من العهد الجديد، وفي السنة ذاتها تبعت الطبعة الأولى طبعة ثانية.

وتابع تندل جهوده بغيرة ومواظبة عظيمتين. وعلى الرغم من أن السلطات الإنكليزية حرسَت موانئها بأعظم يقظة وأكمل حذر فقد حُمِلت كلمة الله سرا إلى لندن بطرق مختلفة، ومن هناك وُزعت على كل البلاد. وعبثا حاول البابويون أن يُخمدوا صوت الحق. وقد اشترى أسقف درهام مرة من بائع كتب مقدسة من أصدقاء تندل كل ما كان معه من كتب، ليحرقها ظنا منه أنه بذلك سيعطل ذلك العمل إلى حد كبير، ولكن على العكس من ذلك فإن المال الذي أخذه الرجل من الأسقف ثمنًا لتلك الكتب أعان على شراء بعض المواد لإصدار طبعة جديدة أفضل للكتاب، ولولا ذلك لما كانت قد نُشرت. وحين سُجن تندل بعد ذلك قدمت إليه فرصة للإفراج عنه على شرط أن يذكر أسماء من قد أعانوه في تغطية نفقات طبع كتبه المقدسة فأجابهم قائلا إن أسقف درهام هو الذي أسدى إليه عونًا أكثر من الجميع لأنه بشرائه الكتب الباقية أعانه على التقدم في عمله بكل شجاعة. أسلم تندل إلى أعدائه وقاسى مرة آلام السجن شهورا طويلة. وأخيرا شهد لإيمانه بموته شهيدا، لكنَّ الأسلحة التي أعانها أعانت جنودا آخرين على مواصلة الحرب مدى كل العصور إلى يومنا هذا.

قادة غيورون أتقياء

وقد أعلن لاتيمر من المنبر قائلا أن الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ ينبغي أن يُقرأ بلغة الشعب. ثم قال إن مبدع الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ « هو الله نفسه » وهذا الكتاب يشارك مبدعه في قوته وخلوده: « لا يوجد ملك أو إمبراطور ولا قاض ولا حاكم... ألا وهو ملزم بأن يطيع... كلمته المقدسة » « فلا نسر في طرق مشعبة بل لنسر على هدي كلمة الله، لا نسر في أثر خطوات... أجدادنا، ولا نحاول أن نعمل مثل أعمالهم، بل لنعمل ما كان يجب عليهم أن يعملوه » (٢٢٥).

وانبرى بارنز وفريت، اللذان كانا من أخلص أصدقاء تندل، للزود عن الحق. وجاء في أثرهما ردلي

وكرأغر. فهؤلاء القادة في الإصلاح الإنكليزي كانوا علماء، ومعظمهم كانت لهم مراكز عظيمة ونالوا كرامة لأجل غيرتهم أو تقواهم في الشركة البابوية. ولذلك فإن مقاومتهم للبابوية جاءت نتيجة لاطلاعهم على ضلالات « كرسي البابوية المقدسة » وأخطائها. إن اطلاعهم على أسرار بابل أمدَّ شهادتهم قوة أعظم ضدها.

سؤال غريب

قال لاتيـمر: « أريد الآن أن أسأل سؤالاً غريباً: من هو أكثر أساقفة إنكلترا نشاطاً واجتهاداً؟ ... أراكم تنصتون باهتمام عظيم في انتظار ذكر اسمه... سأقول لكم عن اسمه، إنه الشيطان. إنه لا يترك أسقفياته البتة، ففي كل وقت تذهبون لزيارته تجدونه هناك... وهو دائم في عمله دائماً... لا يمكن أن تجدوه خاملاً في أي يوم، وأنا أؤكد لكم ذلك، فأينما يسكن الشيطان... تختفي الكتب وترتفع الشموع، وتختفي الكتب المقدسة ويؤتى بالمساج. ليختف نور الإنجيل وليؤت بأنوار الشموع حتى في وضـح النهار وفي وقت الظهيرة، ليختف صليب المسيح ولينتشر ابتزاز الأموال عن طريق ضلالة المطهر... لا لزوم لكساء العراة والفقراء والعاجزين وليهتم الناس بزخرفة التماثيل وتزيين أوتان الخشب والحجر، لترتفع تقاليد الناس ووصاياهم ولتسقط تقاليد الله وكلمته المقدسة... يا ليت أساقفتنا يجتهدون في زرع بذار التعاليم الصالحة بقدر ما يجتهد الشيطان في زرع الزوان » (٢٢٦).

إن المبدأ الجليل الذي حفظه هؤلاء المصلحون، والذي تمسك به واعتنقه الولدنسيون وويكلف وجون هس ولوثر وزوينكلي وكل من اتحدوا معهم، كان هو المرجع المعصوم في الكتب المقدسة والقانون الوحيد للإيمان والأعمال. وقد أنكروا على البابوات والمجامع والآباء والملوك الحق في التحكم في ضمائر الناس في الشؤون الدينية. كان الكتاب المقدس هو مرجعهم ومستندهم، وفي نور تعاليمه امتحنوا كل التعاليم والادعاءات. وقد ساند الإيمان بالله وبكلمته هؤلاء الناس عندما أسلموا حياتهم للموت حرقاً بالنار. وصاح لاتيـمر يقول لشهيد زميل له عندما كانت لهب النار تلتهم جسميهما وتوشك أن تسكت صوتهما: « ثق وافرح فإننا اليوم سنشعل بنعمة الله في إنكلترا شمعة لن تنطفئ كما أنا واثق » (٢٢٧).

وفي اسكوتلانده لم يتلاش بالتمام بذار الحق الذي زرعه كولومبا ومعاونوه. فلمدى مئات السنين بعدما خضعت كنائس إنكلترا لروما ظلت كنائس اسكوتلانده محتفظة بحريتها. ومع ذلك ففي القرن الثاني عشر ثبتت البابوية قدمها في اسكوتلانده، ولم تكن لها السيادة التامة في مملكة أخرى كما كانت الحال في اسكوتلانده، ولم تكن الظلمة في أشد حالات حلوكها كما كانت في تلك البلاد. ومع هذا فقد جاءت بعض أشعة النور حيث كان الظلام على أشده لتشق كبـد غياهب الظلمة وتبشر بقدوم نور النهار الباهر. إن جماعة اللولارديين القادمين من إنكلترا بالتوراة وتعاليم ويكلف أعانوا كثيراً في حفظ معرفة الإنجيل، وكان لكل عصر شهوده وشهداؤه.

وعند بدء الإصلاح العظيم جيء بكتب لوثر، ثم بكتاب العهد الجديد الذي ترجمه تندل إلى الإنكليزية، ومن دون أن تلاحظ السلطة الكهنوتية عبرت هذه الرسائل الجبال والوديان بسكون فأوقدت

مشعل الحق من جديد وزادته نورا على نوره بعدما كاد يخبو في اسكوتلاند، وهكذا خربت عمل روما الذي ظلت تقيمه لمدة أربعة قرون من الظلام والاضطهاد.

دم الشهداء قوة عظيمة

حينئذ صار دم الشهداء قوة عظيمة دفعت بتلك الحركة إلى الأمام. فإذ تنبّه القادة البابويون فجأة إلى الخطر الذي كان يهدد قضيتهم أحرقوا بعضا من أنبل وأشرف أبناء اسكوتلاند. لكنهم بهذا العمل إنما أقاموا منبرا لكي تُسمع منه أقوال أولئك الشهود المحتضرين في كل أنحاء البلاد، وهكذا اهتزت مشاعر الشعب وقد عزمّت الأمة عزيمة ثابتة على أن تنفض عنها أغلال روما.

كان هاملتون وويشارت على درجة عظيمة من نبل الأخلاق كما كان دم النبل يجري في عروقهما. هذان الأميران ومعهما جمع كبير ممن كانوا أقل منهما شأنا وحسبا ونسبا أسلموا أرواحهم فوق المحرقة. ولكن من رماد ويشارت خرج واحد لم يكن للهيبة النار أن يسكته، شخص كان بمساعدة الله سيقضي القضاء المبرم على البابوية في اسكوتلاند.

كان جون كنوكس قد نفّض يده من تقاليد الكنيسة وعلومها الروحانية ليتغذى بحقائق كلمة الله. وقد ثبتت تعاليم ويشارت تعاليم جون كنوكس في عزمه على الانفصال عن روما والانضمام إلى المصلحين المضطهدين.

فإذ ألح عليه رفاقه بأن يكون واعظا تراجع مرتعبا من تلك المسؤولية، ولم يقبل تلك الدعوة إلا بعدما قضى أياما في الاعتزال والصراع العنيف مع نفسه. ولكن حالما اضطلع بأعباء الوعظ تقدم إلى الأمام بعزيمة لا تلين وشجاعة وبسالة لا تقهر مدى أيام حياته. هذا المصلح المخلص الأمين لم يكن يخاف وجه إنسان. فنيّر الاستشهاد المتقدمة من حوله زادت من غيرته قوة فوق قوة. وإذ رفعت فأس الطاغية فوق رأسه متوقعة إياه ظل ثابتا في الميدان بل كان يضرب ضرباته إلى اليمين وإلى اليسار بكل قوة لهدم الوثنية.

أمام الملكة وجها لوجه

وعندما وقف جون كنوكس وجها لوجه أمام ملكة اسكوتلاند، التي كان كثيرون من المصلحين يجبنون في حضرتها وتدخلهم شجاعتهم وغيرتهم، شهد للحق بلا انحراف. لم يكن في وسع المداهنة أو الملاطفة أن تكسبه، ولا هو جبن أمام التهديدات. لقد أتهمته الملكة بالهرطقة قائلة له أنه يعلم الشعب أن يعتقدوا دينا ممنوعا بأمر الدولة، وهكذا تعدى على أمر الله الذي يفرض على الرعايا أن يطيعوا ملوكهم، فأجابها كنوكس بكل ثبات قائلاً:

« كما أن الدين الصحيح لم يحصل على قوته الأصيلية ولا سيادته من ملوك الأرض بل من الله السرمدى وحده فكذلك رعاياه ليسوا ملزمين أن يشكلوا دينهم حسب مزاج ملوكهم، لأنه يحدث في غالب الأحيان أن الملوك يكونون أجهل الناس بالنسبة إلى دين الله الحقيقي ... فلو كان كل نسل إبراهيم اعتنقوا دين فرعون الذي كان ملكا عليهم أمدا طويلا، فأسألك يا مولاتي أن تجيبيني أي دين كان يبقى في العالم؟ أو لو أن كل الناس في أيام الرسل كانوا يدينون بدين أباطرة الرومان فأى نوع من

الدين كان يوجد على وجه الأرض؟ ... وهكذا تدركين يا مولاتي أن الرعايا ليسوا مجبرين على اعتناق دين ملوكهم ولو أنهم ملتزمون أن يقدموا لهم الخضوع والطاعة». فقالت ماري: «أنتم تفسرون الكتاب المقدس بشكل، وهم (معلمو الكنيسة الكاثوليكية) يفسرونه بشكل آخر؛ فبأي التفسيرين أؤمن ومن يكون حكما؟».

فأجابها المصلح قائلا: «آمني بالله الذي يخاطبك من كتابه بكل وضوح، وأبعد مما يعلمه الكتاب ليس لك أن تؤمني بهذا أو ذاك. إن كلمة الله واضحة في حد ذاتها، أما إذا ظهرت أمامك معضلة أو مشكلة في مكان ما فالروح القدس الذي لا يمكن أن يناقض نفسه أبدا، يوضح تلك المعضلة نفسها في موضع آخر، بحيث لا يبقى هنالك شك إلا لمن يصرون على البقاء في جهلهم» (٢٢٨).
بمثل هذه الحقائق تكلم ذلك المصلح الشجاع أمام الملكة مخاطرا بحياته. وقد ظل ثابتا على غرضه بنفس تلك الشجاعة التي لا تكل ولا تتراجع، مصليا ومحاربا حروب الرب فتحررت اسكوتلانده من البابوية.

أما في إنكلترا فإن تثبيت قدم البروتستانتية كدين قومي قلل من الاضطهاد وخفف من حدته وإن يكن لم يوقفه كليا. فمع أن كثيرا من تعاليم روما قد رُفضت فإن عددا غير قليل من طقوسها ظل باقيا. لقد رفضوا سيادة البابا، ولكن، في مكانه، أقيم الملك رأسا للكنيسة. وفي خدمة الكنيسة كان لا يزال يوجد انحراف عن طهارة الإنجيل وبساطته. ولم يكن ذلك المبدأ العظيم، مبدأ الحرية الدينية، قد فهم تماما. فمع أن الحكام البروتستانت قلما لجأوا إلى ضروب القسوة الرهيبة التي استخدمتها روما ضد الهرطقة فإنهم لم يعترفوا بحق كل فرد في أن يعبد الله كما يمليه عليه ضميره. كان مطلوبا من الجميع أن يقبلوا التعاليم ويحفظوا طقوس العبادة التي فرضتها الكنيسة المعترف بها. وقد قاسى المنشقون أهوال الاضطهاد، إن عنيفا أو خفيفا، مئات السنين.

وفي القرن السابع عشر طُرد آلاف الرعاة من وظائفهم. كما حُرم على الناس الذهاب إلى كل اجتماع ديني لم تقره ولا صادقت عليه الكنيسة. والمخالفون كانت تفرض عليهم غرامات فادحة، أو يُسجنون أو ينفون. وأولئك الأمناء الذين لم يكونوا يستطيعون أن يكفوا عن الاجتماع لعبادة الله أرغموا على الاجتماع في الأزقة المظلمة أو العليات المعتمة، وفي بعض الأحيان كانوا يذهبون إلى الغابات في منتصف الليل. وفي المخابئ التي كانوا يلوذون بها في الغابات كان يقام هيكل من صنع الله وكان أبناء الله المشتتون والمضطهدون يجتمعون ليسكبوا نفوسهم أمام الله في الصلاة والتسبيح. وعلى رغم كل التحفظات قاسى كثيرون الآلام لأجل إيمانهم. فقد اكتظت السجون وتشتت شمل العائلات ونُفي كثيرون إلى بلدان أجنبية. ومع ذلك فقد كان الله مع شعبه ولم تفلح الاضطهادات في إسكات شهادتهم. وطُرد كثيرون عبر المحيط إلى أميركا حيث وضعوا أسس الحرية المدنية والدينية التي كانت حصن تلك البلاد ومجدها.

ظهور تقدم الإنجيل

ومرة أخرى حدث حينئذ، كما في أيام الرسل، إن الاضطهادات آلت إلى تقدم الإنجيل. ففي سجن

كرهه امتلاً بالمجرمين الخليعين استنشق جون بنيان عبير السماء، وهناك كتب روايته العجيبة التي فيها صَوَّرَ سَفَر السائح المسيحي من مدينة الهلاك إلى المدينة السماوية. وفي مدة تزيد على مئتي سنة ظل ذلك الصوت الخارج من سجن مدينة بدفورد يكلم قلوب الناس بقوة تهز المشاعر. إن كتابي يوحنا بنيان اللذين أسماهما « سياحة المسيحي » و « النعمة المتفاضلة لأول الخطاة » أرشداً أناساً كثيرين في طريق الحياة.

ثم إن باكستر وقلافل وآلين وغيرهم من الرجال ذوي المواهب والعلم والاختبار المسيحي العميق وقفوا بكل شجاعة يدافعون عن الإيمان المسلم مرة للقديسين. والعمل الذي قام به هؤلاء الرجال المحرومون وطريدو القانون بأمر حكام هذا العالم لا يمكن أن يتلاشى، فإن كتابي فلافل « نبع الحياة » و « أسلوب النعمة » قد علما آلاف من الناس كيف يسلمون أرواحهم للمسيح. كما أن كتاب باكستر « الراعي المصلح » كان بركة عظيمة لكثيرين من الذين يرغبون في انتعاش عمل الله، وأيضاً كتابه « راحة القديسين الأبدية » كان له أثره العظيم في إرشاد نفوس كثيرة إلى الراحة التي بقيت لشعب الله.

وبعد ذلك بمئة سنة في أثناء الظلمة الروحية ظهر هوايتفيلد وابنا وسلي كحاملي مشعل النور من قبل الله. فتحت حكم الكنيسة المعترف بها وصل شعب إنكلترا إلى حالة من الركود الروحي قريبة الشبه بالوثنية. وكان الدين الطبيعي هو الدراسة المحبة لدى رجال الإكليروس وقد شمل معظم تعاليمهم اللاهوتية. وكان رجال الطبقات العالية يتهكمون على التقوى ويفخرون بأنهم فوق متناول ما سموه التعصب الديني. أما الطبقات الفقيرة فكان أفرادها في أحط دركات الجهل وصاروا صرعى الرذائل. أما الكنيسة فلم تكن لديها الشجاعة أو الإيمان لإسناد قضية الحق الذي بدأ يهوي إلى الحضيض.

إن العقيدة العظيمة، عقيدة التبرير بالإيمان التي علم بها لوثر بكل وضوح، كانت قد غابت تقريباً عن أنظار الناس وأذهانهم، وقد احتلت مكانها العقيدة البابوية، عقيدة الاتكال على الأعمال الصالحة للخلاص. وكان هوايتفيلد وابنا وسلي، الذين كانوا أعضاء في الكنيسة المعترف بها، يطلبون رضى الله بكل إخلاص، وقد تعلموا أنهم يستطيعون الظفر بالرضى الإلهي بواسطة حياة الفضيلة وحفظ فرائض الديانة.

وعندما أصيب تشارلس وسلي بمرض وكان يتوقع قدوم الموت سئل على أي أساس بنى رجاءه للحصول على الحياة الأبدية. فأجاب قائلاً: « لقد بذلت قصارى جهدي لكي أخدم الله ». وإذ تراءى له أن صديقه الذي طرح عليه ذلك السؤال لم يكفه ذلك الجواب قال تشارلس: « ماذا أليست مساعي التي بذلتها أساساً كافياً للرجاء؟ وهل هو سيسلب مني تلك المساعي؟ إذاً فلم يبق لي ما أتكلم عليه بعد ذلك » (٢٢٩). هكذا كانت الظلمة الداجية التي سادت على الكنيسة وأخفت الكفارة، سالبة المسيح مجده، ومحولة عقول الناس بعيداً من رجائهم الوحيد في الخلاص، أي دم الفادي المصلوب.

« كيف يتبرر الإنسان عند الله » رأى وسلي وزميلاه أن الدين الحقيقي مركزه القلب، وأن شريعة

الله تمتد إلى الأفكار كما إلى الأقوال والأعمال. وإذ اقتنعوا بلزوم قداسة القلب كما بوجوب استقامة السلوك الخارجي عكفوا على أن يحيوا حياة جديدة بكل جد وعزم. وحاولوا بكل الجهود الجدية المصحوبة بالصلاة أن يقمعوا شر القلب الطبيعي. فعاشوا حياة إنكار الذات والمحبة والاتضاع، وكانوا بكل دقة وصرامة يراعون كل الإجراءات التي ظنوا أنها قد تعينهم في الحصول على ما كانوا يتحرقون شوقاً إليه، القداسة التي تظفر برضى الله. ولكنهم لم ينالوا مطلبهم. وعبثاً حاولوا تحرير أنفسهم من دينونة الخطيئة أو تحطيم قوتها أو سلطانها. هذا هو الصراع نفسه الذي اختبره لوثر في حجرته بدير أرفرت. ولقد كان هذا هو السؤال ذاته الذي عذب نفسه: « فَكَيْفَ يَتَبَرَّرُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ اللَّهِ؟ » (أيوب ٩: ٢).

إن نار الحق الإلهي التي كادت تخدم على المذابح البروتستانتية كانت ستشعل من جديد من المشعل القديم الذي قد سلمه المسيحيون في بوهيميا عبر الأجيال لمن جاءوا بعدهم. فالبروتستانتية في بوهيميا بعد أيام الإصلاح امتُهنت وداستها أقدام حشود روما. وكل من رفضوا نبذ الحق أجبروا على الهرب. فبعض من هؤلاء إذ وجدوا لأنفسهم ملجأ في سكسونيا احتفظوا بالحق القديم هناك. ومن نسل هؤلاء المسيحيين حصل وسلي وزميلاه على النور.

إن جون وتشارلس وسلي بعدما رسما للخدمة أرسلوا إلى أميركا للتبشير. وكان على ظهر تلك السفينة جماعة من المورافيين. وقد غضبت الطبيعة وثارَت العواصف، فإذ وقف جون وسلي وجها لوجه أمام الموت أحس بأن ليس عنده يقين السلام مع الله. أما أولئك الألمان فعلى العكس من ذلك أبدوا هدوءاً وثقة لم يكن هو يعرف عنهما شيئاً.

وقال: « لقد ظللت طويلاً أراقب رزانتهم وحكمة تصرفاتهم وقد برهنوا على الدوام أنهم قوم ودعاء إذ قاموا بخدمات وضيعة لأجل المسافرين وهذا ما يترفع كل إنكليزي عن القيام به، ولم يرغبوا ولا قبلوا أن يأخذوا أجراً عن كل تلك الخدمات، قائلين أنها خير علاج لقلوبهم المتكبرة، وأن مخلصهم الحبيب أسدى إليهم خدمات أجل وأعظم. وقد أعطاهم كل يوم فرصة لإظهار وداعة لم يستطع أن يثيرها أي أذى. فلو أن أحد المسافرين دفعهم أو ضربهم أو طرحهم أرضاً فإنهم كانوا يقومون ويسيرون في طريقهم من دون أن تصدر من أفواههم كلمة شكوى. وها قد عرضت فرصة لاختبار ما إذا كانوا قد تحرروا من روح الخوف كما قد تحرروا من روح الكبرياء والغضب والانتقام. ففي وسط المزمور الذي رتلوه وبدأوا به الخدمة هاج البحر فانشق الشراع وتمزق ودخلت المياه السفينة وفاضت على متنها كما لو أن الغمر العظيم قد ابتلعها. فسُمعت صرخات مخيفة من الإنكليز. أما الألمان فبكل هدوء ظلوا يواصلون الترنيم. وبعد ذلك سألت واحداً منهم قائلاً: "ألم تكن خائفاً؟" فأجابني قائلاً: « شكراً لله فأنا لم أكن خائفاً » فعدت أسأله: « ولكن ألم يكن أولادكم ونسائكم خائفين؟ » فقال بكل لطف: « كلا، لأن نساءنا وأولادنا لا يخافون الموت » (٢٣٠)

ولدى وصولهم إلى سافانا مكث وسلي مع المورافيين وقتاً قصيراً وقد أثر فيه سلوكهم المسيحي تأثيراً عميقاً. وعلى نقيض الرسميات الميتة التي كانت تُرى في كنيسة إنكلترا كتب عن إحدى خدماتهم الدينية يقول: « إن البساطة العظيمة والوقار الذي شمل الخدمة كلها كادا ينسيانني الأف

والسبع مئة سنة السالفة فتصورت نفسي وسط إحدى تلك الجماعات التي لم يكن فيها وجود للرسميات أو المقامات، بل كان يرأس الاجتماع بولس صانع الخيام أو بطرس الصياد؛ ولكن في تلك الخدمات كان يتجلى الروح والقوة».

المسيح وحده

وبعدما عاد وسلي إلى إنكلترا توصل تحت إرشاد واعظ مورافي إلى إدراك أكمل لعقيدة الكتاب. وقد اقتنع أنه ينبغي له أن ينبذ كل استناد إلى أعماله للخلاص ويتكل بالتمام على « حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم ». وفي اجتماع من اجتماعات المورافيين في لندن قرئ بيان من بيانات لوثر فيه يصف التغيير الذي يحدثه روح الله في قلب المؤمن. وإذا كان وسلي يسمع اضطرم الإيمان في نفسه، وفي ذلك يقول: « لقد أحسست بقلبي يسخن ويتحمس، وأحسست أنني قد اتكلت على المسيح وحده لأجل الخلاص وأعطى لي اليقين بأنه قد رفع عني خطاياي، نعم خطاياي أنا، وأنقذني من ناموس الخطيئة والموت » (٢٣١).

وعلى مدى سنين طويلة من المحاولات الشاقة اليائسة ومن الإنكار الصارم للنفس ولومها وإذلالها ظل وسلي ثابتاً على عزمه الأوحى في طلب الله. أما الآن فقد وجده كما وجد أن النعمة التي جدَّ في الحصول عليها بالصلوات والأصوام والصدقات وإنكار الذات كانت هبة « بلا فضة ولا ثمن ».

فلما ثبت في الإيمان بالمسيح اضطربت في أعماقه رغبة في نشر معرفة إنجيل نعمة الله المجانية في كل مكان. فقال: « إني أنظر إلى العالم كله على أنه أبروشي، وحيثما أكون أحكم بأنه من اللائق والصائب واللازم أن أعلن لكل من يرغبون في الاستماع، بشرى الخلاص المفرحة » (٢٣٢).

وقد ظل دائماً في حياة الدقة وإنكار الذات، إنما من منظار أنها ثمرة الإيمان لا أساسه. فنعمة الله في المسيح هي أساس رجاء المسيحي، وهذه النعمة تظهر في الطاعة. وقد كرس وسلي حياته للتبشير بالحقائق العظيمة التي قد حصل عليها: التبشير بالإيمان بدم المسيح المكفر وقوة الروح القدس المجددة للقلب والتي تظهر ثمارها في الحياة المطابقة لمثال المسيح.

لقد أعد هوايتفيلد وآل وسلي لعملهم باقتناعهم الشخصي الطويل والمضني بأنهم في حال الهلاك؛ وبكونهم قادرين على احتمال المشقات كجنود صالحين للمسيح، لقد تعرضوا لتجربة الاحتقار والسخرية والاضطهاد في الجامعة وفي حقل الخدمة بعدما دخلوه. وقد دعاهم زملاءهم الفجار من الطلبة، هم وكل من عطفوا عليهم وانضموا إليهم، باسم ميثودست قصداً للزدرء والاحتقار — وهذا يُعتبر اسماً من أكبر الأسماء في الوقت الحاضر إذ تكرمه وتعتقه طائفة من أكبر الطوائف في إنكلترا وأميركا.

وإذا كانوا أعضاء في كنيسة إنكلترا واطبوا على طقوس عبادتها، لكن الرب قدم إليهم في كلمته مقياساً أسماً، وقد أقنعهم الروح القدس بأن يبشروا بالمسيح وإياه مصلوباً. وقد رافقت بشارتهم قوة العلي. واقتنع آلاف الناس وتجددوا، فكان من اللازم حماية هذه الحملان من الذئاب الخاطفة. ولم يكن وسلي يفكر في إنشاء طائفة جديدة بل نظمهم في ما دعي بالاتحاد الميثودستي.

كانت المقاومة التي لاقاها هؤلاء المبشرون من الكنيسة المعترف بها مقاومة عجيبة وقاسية، ومع ذلك فإن الله تسلط على الحوادث بحكمته حتى جعل الإصلاح يبدأ من داخل الكنيسة نفسها. فلو جاء كله من الخارج لما تغلغل في الأماكن التي كانت في أشد الحاجة إليه. ولكن بما أن المبشرين بالانتعاش كانوا من رجال الكنيسة وخدموا في داخل حظيرة الكنيسة كلما أتيح لهم ذلك فقد وجد الحق باباً مفتوحاً كان يمكن أن يظل موصداً. وقد أوقف بعض رجال الإكليروس من سباتهم فصاروا خداماً غيورين في أبروشياتهم. والكنائس التي قد تقست وفسدت بالرسميات والطقوس عادت إليها الحياة.

وفي عهد وسلي كما في كل أجيال تاريخ الكنيسة قام أناس ذوو مواهب مختلفة بالعمل المفروض عليهم. لم ينسقوا كل نقطة في العقيدة، لكن الجميع كانوا منقادين بروح الله واتحدوا في غرض شامل هو ربح النفوس للمسيح. هذا وإن الخلاف بين هوايتفيلد وابني وسلي كاد في وقت ما ينتهي بالنفور والفرقة، ولكن بما أنهم كانوا قد تعلموا الوداعة في مدرسة المسيح فقد أصلح بينهم التسامح المتبادل والمحبة. ولم يكن لديهم متسع من الوقت ليقضوه في الجدل، في حين أن الضلال والآثام كانت تتكاثر في كل مكان، وكان الخطاة يتحدرون إلى الهلاك.

نجاه وسلي من الموت

سار خدام الله في طريق وعر. فقد استخدم الناس ذوو النفوذ وأرباب العلم نفوذهم وعلومهم ضدهم. وبعد وقت جاهر كثيرون من رجال الإكليروس بعدائهم لهم، فأغلقت أبواب الكنائس في وجه الإيمان النقي وفي وجوه الداعين إليه. وإن تصرف رجال الإكليروس بمنعهم من اعتلاء منابرهم أيقظ عناصر الظلام والجهل والإثم. ومراراً كثيرة كان جون وسلي ينجو من الموت بأعجوبة من أعاجيب رحمة الله. ولما ثار غضب الرعاع ضده وبدا كأن لا مهرب له وقف إلى جانبه ملاك في هيئة إنسان فتراجع الرعاع وخرج خادم المسيح من مكان الخطر آمناً.

وكتب وسلي عن نجاته من الرعاع الساخطين في إحدى تلك المرات يقول: « لقد حاول كثيرون أن يطرحوني إلى أسفل ونحن نازلون من التل في طريق زلق إلى المدينة، وكنت أعتقد أنني لو سقطت إلى الأرض فقد لا أستطيع النهوض ثانية. لكن رجلي لم تزل ولم أتعثر أدنى تعثر حتى نجوت من أيديهم كلياً... ومع أن كثيرين حاولوا أن يمسكوا بعنقي أو بثيابي ليطرحوني إلى أسفل فإنهم لم يستطيعوا، لكن واحداً منهم أمسك بجيب صدرتي، الذي تمزق في يده، أما الجيب الآخر الذي كانت فيه ورقة مالية فتمزق جزء منه... وكان خلفي تماماً رجل جشع. هذا الرجل وجهه إلي عدة ضربات بعصا كبيرة من السنديان، فلو ضربني بها ضربة واحدة في مؤخرة رأسي لقضى علي. ولكن في كل مرة كانت الضربة ترتد عني ولم أعرف سبب ذلك لأنني لم أكن أستطيع التحرك لا إلى اليمين ولا إلى اليسار... وقد جاء آخر مندفعاً في وسط الجمع وإذا كان يرفع يده ليضربني أنزلها فجأة، إنما فقط جعل يربت على رأسي ويقول: ' ما أشد نعومة شعره! '... إن الرجال الأولين أنفسهم الذين تحولت قلوبهم كانوا أبطال المدينة، وكانوا قادة الرعاع في كل الظروف. وكان أحدهم مصارعاً في

حدائق الدبية ...

« بأي درجات لطيفة يعدنا الله لعمل مشيئته! منذ عامين أصابت طوبة (قطعة قرميد) كتفي فأحدثت فيها كشطا، وبعد ذلك بعام أصابتنى ضربة حجر بين عيني. وفي الشهر الماضي تلقيت ضربة، وفي هذا المساء تلقيت اثنتين، أحدهما قبل دخولنا المدينة والثانية عند خروجنا منها، ولكن لم أتأثر منهما لأنه مع أن إنسانا ضربني ضربة على صدري بكل قوته، والأخرى أصابت فمي بعنف شديد حتى سال الدم في الحال، فإني لم أشعر بألم أكثر مما لو لمسني بقشة » (٢٣٣).

الميثودست يلاقون الصعاب

تلقى الميثودست الذين عاشوا في تلك الأيام الخوالي — سواء، في ذلك، الشعب والخدام — الهزء والاضطهاد من أعضاء الكنائس ومن المجاهرين بزندقتهم وعدم تدينهم الذين ألهبهم سوء تصويرهم وتحريفهم. لقد اشتكى عليهم في محاكم العدل التي لم يكن فيها عدل، لأن العدالة كانت نادرة الوجود في محاكم تلك الأيام. وفي غالب الأحيان كانوا يلاقون ظلما على أيدي مضطهديهم. وكان الرعاع ينتقلون من بيت إلى بيت يحطمون الإثاث والبضائع وينهبون ما يروقههم، وبكل وحشية يمتنون كرامة الرجال والنساء والأطفال. وفي بعض الحالات كانت تلصق بعض الإعلانات التي تدعو كل من يرغبون في تحطيم نوافذ بيوت الميثودست ونهب ما في تلك البيوت إلى الاجتماع في مكان وزمان يحدّدان لهم. وهذه الاعتداءات العلنية على كرامة الشرائع الإنسانية والإلهية سُمح بارتكابها من دون أن يوبخ مرتكبوها. وقد وقع اضطهاد منظم ضد الشعب الذي كانت غلطته الوحيدة أبعاد الخطأ عن طريق الهلاك وهدايتهم إلى طريق القداسة.

وقد تحدث جون وسلي عن التهم الموجهة إليه وإلى زملائه، فقال: « بعض الناس يدّعون أن تعاليم هؤلاء الرجال كاذبة ومخطئة وحماسية، وأنها تعاليم جديدة لم يُسمع بها إلا من عهد قريب، وأنها خاصة بمذهب الكويكرز (الأصدقاء) يعتنقها قوم متعصبون بابويون. لكنّ هذا الادعاء كله اقتلع من أصوله حيث قد تبرهن على مدى واسع أن كل فرع من هذا التعليم هو تعليم الكتاب المقدّس الصريح كما تفسره كنيستنا. ولذلك فلا يمكن أن يكون تعليما كاذبا ولا مخطئا على شرط أن يكون الكتاب المقدّس صادقا ». ثم قال: « وآخرون يدعون قائلين: 'إن عقيدتهم دقيقة أكثر من اللازم. وهم يجعلون الطريق إلى السماء أضيق وأكرب مما يجب'. وهذا هو في الحق الاعتراض الأصلي (كما كان هو الاعتراض الوحيد بعض الوقت)، وهو في السر أساس آلاف الاعتراضات الأخرى التي تبدو في أشكال مختلفة. ولكن هل هم يجعلون طريق السماء أضيق مما جعله ربنا ورسله؟ وهل عقيدتهم وتعاليمهم أدق مما هي في الكتاب المقدّس؟ تأملوا فقط في بعض الآيات القليلة الواضحة، 'تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك'. 'لأن كل كلمة بطلاة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين'. 'فإن أكلتم أو شربتم أو فعلتم شيئا فافعلوا كل شيء لمجد الله'.

« فإن كانت عقيدتهم أدق من هذه فاللوم عليهم، لكنّ ضمائرهم تعلم أنها ليست كذلك. ومن ذا

الذي يكون أقل دقة في شيء صغير من دون أن يفسد كلمة الله؟ وهل يمكن أن من هو وكيل على سرائر الله يحسب أميناً لو أنه غير جزء من تلك الوديعة المقدسة؟ كلا. إنه لا يستطيع أن يلغي شيئاً، ولا أن يُلْمَ حدّ شيء، بل هو ملزم بأن يعلن قائلًا للناس: 'إنه غير مسموح لي أن أنزل بكلمة الله لتوافق ذوقكم بل عليكم أن ترتقوا أنتم إليها وإلا هلكتم إلى الأبد'. هذا هو الأساس الصحيح لتلك الصرخة الأخرى المألوفة عن 'جفاء هؤلاء الناس'. فهل هم جفاة حقاً، ومن أي وجهة هم جفاة؟ ألا يطعمون الجياع ويكسون العراة؟ كلا ليس هذا هو الموضوع. إنهم ليسوا ناقصين في هذا، ولكنهم جفاة جدا لكونهم يدينون الناس! فهم يظنون أنه لا يستطيع أحد أن يخلص ما لم ينتمي إلى طريقتهم « (٢٣٤).

إن الانحطاط الروحي الذي ظهر في إنكلترا قبيل أيام وسلي كان إلى حد كبير نتيجة للتعليم الأتينيومي (تناقضي القوانين). لقد أكد كثيرون أن المسيح قد ألغى الشريعة الأدبية ولذلك فالمسيحيون ليسوا ملزمين بحفظها، وأن المؤمن قد تحرر من « عبودية الأعمال الصالحة ». وهناك قوم آخرون مع أنهم يسلمون بدوام الشريعة أعلنوا أنه ليس من اللازم للخدام أن يوصوا الشعب بإطاعة وصاياها، لأن أولئك الذين اختارهم الله للخلاص « سينقادون بواسطة تحريضات النعمة الإلهية التي لا تقاوم إلى ممارسة التقوى والفضيلة »، بينما أولئك المحكوم عليهم بالطرد بعيداً عن الله إلى الأبد « لن تكون لهم القوة على حفظ الشريعة الإلهية ».

وهناك آخرون ممن اعتقدوا « أن المختارين لن يكون في وسعهم أن يسقطوا من النعمة ولا أن يخسروا حقهم في رضى الله، هؤلاء وصلوا إلى الاستنتاج الأكثر شناعة وهو أن الأعمال الشريرة التي يرتكبونها ليست خاطئة في حقيقتها ولا تعتبر أدلة على انتهاكهم شريعة الله، وإنه ينتج عن ذلك أنه لا يوجد ما يدعو إلى أن يعترفوا بخطاياهم ولا إلى التخلص منها بالتوبة' (٢٣٥). ولذلك أعلنوا أنه حتى الخطيئة التي هي أردل الخطايا، 'المعتبرة في نظر الجميع انتهاكاً شنيعاً لشريعة الله، لا تعتبر خطيئة في نظر الله' لو كان مرتكبها واحداً من المختارين، لأنه 'من بين الصفات الجوهرية المميزة للمختارين أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً مغيظاً لله أو تنهى عنه شريعته' « (٢٣٦).

هذه التعاليم الفظيعة شبيهة في جوهرها بالتعاليم التي علّم بها في ما بعد المعلمون وأساتذة اللاهوت المشهورون — وهي أنه لا توجد شريعة إلهية ثابتة كنموذج الصواب، ولكن نموذج الأخلاق يقرره المجتمع نفسه، وإنه كان دائماً عرضة للتغيير. كل هذه الآراء مصدرها الروح السائدة نفسها، روح ذاك الذي حتى وهو بين سكان السماء الذين بلا خطيئة بدأ عمله في نقض سياجات روادع شريعة الله.

أدت عقيدة علم الله المسبق بالسلوك البشري وتقرير الله مصير الناس منذ الأزل إلى رفض حقيقي لشريعة الله. لكنّ وسلي قاوم بكل ثبات ضلالات المعلمين الأتينيوميين، وبينّ للناس أن هذا التعليم الذي قاد الناس إلى اعتناق مذهب الأتينيوميين مناقض لكلمة الله المقدسة. لقد « ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ الْمُخْلِصَةُ، لِجَمِيعِ النَّاسِ » « لَأَنَّ هَذَا حَسَنٌ وَمَقْبُولٌ لَدَى مُخْلِصِنَا اللَّهِ، الَّذِي يُرِيدُ أَنْ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُوا، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يَقْبَلُونَ لِأَنَّهُ يُوجَدُ إِلَهُ وَاحِدٌ وَوَسِيطٌ وَاحِدٌ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ: الْإِنْسَانُ

يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً لِأَجْلِ الْجَمِيعِ « (تيطس ٢: ١١؛ ١ تيموثاوس ٢: ٣-٦). إن روح الله يُعْطَى مَجَانًا لِلنَّاسِ لِيَقْدِرَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَلَى التَّمَسُّكِ بِوَسَائِلِ الْخَلَاصِ. وهكذا المسيح « النُّورُ الْحَقِيقِيُّ يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِيًّا إِلَى الْعَالَمِ » (يوحنا ١: ٩). إن الناس يفشلون في نيل الخلاص بسبب إصرارهم على رفض هبة الحياة.

الدفاع عن الناموس الأدبي

وجوابا على ادعاء القائلين بأنه عند موت المسيح أُلغيت الوصايا العشر مع الناموس الطقشي قال وسلي: « إن الناموس الأدبي الذي يشمل الوصايا العشر وقد أوجب الأنبياء حفظه وألزموا الناس بذلك لم يطله الله. فلم يكن غرض المسيح من مجيئه أن يلغي أي جزء من هذه الشريعة. هذه هي الشريعة التي لا يمكن نقضها والتي 'تقف ثابتة كالشاهد الأمين في السماء'... كان هذا منذ بدء العالم إذ لم تكتب على ألواح حجرية بل على قلوب كل بني الإنسان عندما خرجوا من يد الخالق. ومع أن الحروف التي كتبت بأصبع الله قد شوهتها الخطيئة إلى حد كبير، فإنه من غير الممكن محوها تماما ما دام عندنا إحساس بالخير والشر. وينبغي لكل جزء من هذه الشريعة أن يبقى في قوته الملزمة لكل الجنس البشري في كل العصور، وألا تكون متوقفة على الزمان أو المكان أو أي ظرف من الظروف المعرضة للتغيير، بل يتعين أن تكون هذه الشريعة مستندة إلى طبيعة الله وطبيعة الإنسان وعلاقاتهما غير المتغيرة كل بالآخر.

'ما جئت لأنقض بل لأكمل'... من دون تساؤل نقول أن معنى هذا الكلام (إذ هو متوافق مع ما جاء قبله وما جاء بعده) — هو: أتيت لأجل تثبيت الناموس في ملئه برغم كل تعليقات الناس: أتيت لكي أوضح توضيحا كاملاً كل ما كان محجوبا عن الأذهان أو غامضا في الكلمة الإلهية، أتيت لأعلن الأهمية الكاملة الحقيقية لكل جزء منها، ولكي أبين للناس طول كل الوصايا المتضمنة في الكتاب وعرضها ومداهها، وما بلغت طهارة كل فروعها وروحانيتها غير المدركة من سمو وعمق.

وقد أعلن وسلي عن التوافق التام بين الناموس والإنجيل فقال: « إذاً فهناك أوثق الصلات والروابط التي يمكن تصورها بين الناموس والإنجيل. فمن ناحية نجد أن الناموس يعد الطريق للإنجيل ويرشدنا إليه، ومن الناحية الأخرى نجد الإنجيل يرشدنا دائما إلى إتمام الناموس إتماما أكمل. فالناموس مثلا يطلب منا أن نحب الله ونحب القريب وأن نكون متواضعين وودعاء أو قديسين. ونحن نحس بأن ليس فينا الكفاية لهذه الأمور، 'وأن ذلك غير مستطاع للإنسان'. ولكننا نجد الله يقدم لنا وعدا بأن يهبنا تلك المحبة ويجعلنا متواضعين وودعاء وقديسين. ونحن نتمسك بالإنجيل وبهذه الأخبار المفرحة، وحينئذ فحسب إيماننا يكون لنا، وحينئذ 'يكمل فينا برّ الناموس' بالإيمان الذي في المسيح يسوع... »

وقال وسلي: « إن من ألد أعداء إنجيل المسيح هم أولئك الذين بكل مجاهرة وعلى نحو قاطع 'يدينون الناموس' نفسه 'ويتكلمون عنه شرا ويذمونه' والذين يعلمون الناس أن يكسروا (أن ينقضوا ويحلوا ويفكوا) بضربة واحدة مضامين ليس وصية واحدة، سواء كانت من الوصايا الصغرى أو

الكبرى، بل كل الوصايا... وأعظم كل الظروف المدهشة التي تلازم هذا الضلال القوي وهذه الخديعة العظيمة هو أن من يقعون فيها يعتقدون أنهم يكرمون المسيح بالحق إذ يهدمون الناموس الإلهي وأنهم يعظمون مركز المسيح في حين أنهم يهدمون تعاليمه! ومع ذلك فهم يكرمونه مثلما أكرمه يهوذا بقوله 'السلام يا سيدي. وقبّله'. ويمكنه أن يقول بحق لكل منهم: 'أَبْقُبْلُهُ تَسْلَمُ ابْنُ الْإِنْسَانِ؟' فليس أقل من تسليمه بقبلة. أن نتحدث عن دمه ثم نحرمه من الإكليل، وأن نستخف بأقل جزء من الناموس بحجة أننا نساعد على تقدم الإنجيل. وكذلك لن نستطيع التنصل من هذه التهمة من يبشر بالإيمان على نحو يؤدّي مباشرة إلى إسقاط أيّ من فروع الطاعة، ومن يركز بالمسيح على نحو يلغي أو يوهن أصغر وصايا الله « (٢٣٧).

وقد أجاب وسلي على أولئك الذين علموا « إن الكرازة بالإنجيل فيها تحقيق لكل أهداف الناموس » فقال: « هذا ما ننكره إنكاراً باتاً، فهو لا يحقق أول غاية من غايات الناموس وهي إقناع الناس بالخطيئة وإيقاظ أولئك الذين هم نيام على حافة الجحيم ». والرسول بولس يعلن قائلاً: ' بالناموس معرفة الخطيئة، وما لم يتبكت الإنسان على الخطيئة فهو لا يشعر بحاجته إلى دم المسيح المكفر... وقد قال ربنا نفسه: 'لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى '. إذاً فمن السخافة أن نجيء بالطبيب إلى جماعة من الأصحاء، أو على الأقل من يتصورون أنهم أصحاء. فعليك أن تقنعهم أولاً بأنهم مرضى وإلا فلن يشكروا لك تعبك لأجلهم. ومن السخافة كذلك كونك تقدم المسيح للذين قلبهم صحيح لم ينكسر بعد « (٢٣٨).

وهكذا نرى أن وسلي وهو يركز بالإنجيل كان كسيده « يعظم الشريعة ويكرمها ». وهو بكل أمانة أنجز العمل المسلم له من الله، وما كان أمجد النتائج التي سمح له بأن يراها. ففي نهاية حياته الطويلة التي بلغت ثمانين سنة — قضى منها أكثر من نصف قرن في الخدمة متنقلاً — زاد عدد سامعيه المتعلقين به على نصف مليون نسمة. ولكن الجمع الغفير الذين بفضل جهوده رُفِعوا من خراب الخطيئة وانحطاطها إلى حياة أسمى وأطهر، وعدد الذين بواسطة تعليمه حصلوا على اختبار أعمق وأغنى، لن تتسنى معرفتهم حتى تجتمع كل جموع المفديين من أفراد أسرة الله في ملكوته. إن حياته تقدم لكل مسيحي درساً لا يقدر بثمن. فحبذا لو أن الإيمان والوداعة والغيرة التي لا تكل وتضحية النفس والتكريس التي لوحظت في حياة خادم المسيح هذا تجد لها انعكاساً في كنائس عصرنا الحاضر!

١٥ - أَلِكِتَابُ الْمُقَدَّسِ وَالثَّوْرَةُ الْفَرَنْسِيَّةِ

إن الإصلاح إذ أهدى الناس كتاباً مقدساً مفتوحاً في القرن السادس عشر كان يحاول الدخول إلى كل ممالك أوروبا. وقد رحبت به بعض الدول بكل سرور على أنه رسول السماء، ولكن في بلدان أخرى أفلحت البابوية إلى حد كبير في منع دخوله، وبذلك كادت أنوار معرفة كتاب الله بتأثيراتها السامية تُبْعَدُ تماماً. ومع أن النور وجد باباً مفتوحاً في فرنسا فإن العقول المظلمة لم تدركه. وظل الحق والضلال يتصارعان على السيادة طوال قرون. وأخيراً انتصر الشر وأقصي حق السماء بعيداً: « وَهَذِهِ هِيَ الدِّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ، وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ » (يوحنا ٣: ١٩). وقد تركت الأمة لتحصد ثمار المسلك الذي اختارته لنفسها. فُرُفِعَتْ رِوَادِعُ رُوحِ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ الشَّعْبِ الَّذِي أَزْدَرَى بِهَبَةِ نِعْمَتِهِ. وَسُمِحَ لِلشَّرِّ أَنْ يَتَفَاقَمَ وَيَسْتَشْرِي. وَرَأَى الْعَالَمُ كُلَّهُ عَوَاقِبَ الْإِصْرَارِ عَلَى رَفْضِ النُّورِ.

بلغت الحرب التي ثارت طوال قرون عدة ضد أَلِكِتَابِ الْمُقَدَّسِ في فرنسا غايتها القصوى في مشاهد الثورة. لقد كانت تلك الثورة الهائلة هي النتيجة الشرعية لكبت روما وكبحها ومصادرتها الكتب المقدسة، (انظر التذييل). فقدمت أعظم مثال مدهش رآه العالم لما آلت إليه السياسة البابوية، وأظهرت العواقب التي كان تعليم الكنيسة البابوية يؤدي إليها في حقبة من الزمن تزيد عن ألف عام.

كان الأنبياء قد تنبأوا عن قمع الكتب المقدسة وكبتها في سني السيادة البابوية، كما أن الرائي يشير أيضاً إلى العواقب الهائلة التي كانت ستعصف بفرنسا على الخصوص نتيجة لسيادة « إنسان الخطيئة ».

قال ملاك الرب: « وَسَيَدُوسُونَ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا وَسَأُعْطِي لِشَاهِدَيَّ، فَيَتَنَبَّأَانِ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا، لِأَسْيِنَ مُسَوِّحًا... وَمَتَى تَمَّمَا شَهَادَتَهُمَا، فَالْوَحْشُ الصَّاعِدُ مِنَ الْهَآوِيَةِ سَيَصْنَعُ مَعَهُمَا حَرْبًا وَيَغْلِبُهُمَا وَيَقْتُلُهُمَا وَتَكُونُ جُثَّتَاهُمَا عَلَى شَارِعِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تُدْعَى رُوحِيًّا سَدُومَ وَمَصْرَ، حَيْثُ صُلِبَ رَبُّنَا... وَيَسْمَتُ بِهِمَا السَّاكِنُونَ عَلَى الْأَرْضِ وَيَتَهَلَّلُونَ، وَيُرْسِلُونَ هَدَايَا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِأَنَّ هَذَيْنِ النَّبِيِّينَ كَانَا قَدْ عَذَّبَا السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ وَالنَّصْفِ، دَخَلَ فِيهِمَا رُوحُ حَيَاةٍ مِنَ اللَّهِ، فَوَقَفَا عَلَى أَرْجُلِهِمَا. وَوَقَعَ خَوْفٌ عَظِيمٌ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَهُمَا » (رؤيا ١١: ٢-١١).

إن الفترتين المذكورتين هنا — « اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا » « أَلْفٌ وَمِئَتَانِ وَسِتِّينَ يَوْمًا » هما شيء واحد وتمثلان كلتاهما الزمن الذي كانت كنيسة المسيح ستقاسي فيه الاضطهاد من روما. إن الألف والمئتين والستين سنة التي كانت فيها السيادة للبابوية بدأت في عام ٥٣٨ للميلاد، وكانت ستنتهي في عام ١٧٩٨، (انظر التذييل). ففي ذلك التاريخ دخل جيش فرنسي روما وأسر البابا الذي مات في

منفاه. ومع أنه كان قد تم اختيار بابا جديد توأ بعد ذلك فإن السلطة البابوية لم تستطع قط منذ ذلك الوقت أن تستخدم القوة التي كانت لها من قبل.

يتبنآن في المسوح

على أن اضطهاد الكنيسة لم يظل قائما مدى فترة الـ ١٢٦٠ سنة كلها. فالله، رحمة منه بشعبه قصر أيام تلك البلوى المحرقة. والمخلص حينما تنبأ عن « الضيقة العظيمة » التي ستحل بالكنيسة قال: « وَلَوْ لَمْ تُقَصِّرْ تِلْكَ الْيَّامَ لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُخْتَارِينَ تُقَصِّرُ تِلْكَ الْيَّامَ » (متى ٢٤: ٢٢).
فبفضل تأثير الإصلاح انتهت الاضطهادات قبل عام ١٧٩٨.

أما في ما يختص بدينك الشاهدين فالنبي يعلن قائلا: « هَذَانِ هُمَا الرِّبُّونَتَانِ وَالْمَنَارَتَانِ الْقَائِمَتَانِ أَمَامَ رَبِّ الْأَرْضِ ». وقد قال صاحب المزامير: « سِرَاجٌ لِرِجْلِي كَلَامُكَ وَنُورٌ لِسَبِيلِي » (رؤيا ١١: ٤؛ مزمور ١١٩: ١٠٥) فالشاهدان يرمزان إلى كتب العهد القديم والعهد الجديد. فكلاهما شهادة هامة لأصل شريعة الله ودوامها. وكلاهما يشهدان لتدبير الخلاص. فرموز العهد القديم وذباطحه ونبواته تشير إلى مخلص آت في المستقبل. وأنجيل العهد الجديد ورسائله تخبرنا عن مخلص قد أتى بالطريقة ذاتها التي أنبى بها عنه بواسطة الرموز والنبوات:

« يَتَبَنَّانِ أَلْفًا وَمِئَتَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا، لِأَبْسِينَ مُسُوحًا ». وطوال أغلب سني تلك المدة ظل شاهدا الله محجوبين. لقد حاول السلطان البابوي أن يحجب كلمة الحق عن الشعب وأقام بدلا منها شهودا كذبة لكي يناقضوا شهادتها، (انظر التذييل). وعندما صادرت السلطات الزمنية والدينية أَلْكَتَابَ الْمُقَدَّسَ وعكست شهادته وأفسدتها وبذلت أقصى الجهود التي يستطيع الناس والشياطين أن يبتكروها لتحويل أذهان الشعب عن تلك الشهادة، وعندما طورد أولئك الذين تجرأوا على إعلان حقائقه المقدسة أو أسلموا وعذبوا أو دفنوا في زرنانات في السجون أو استشهدوا من أجل إيمانهم أو أجبروا على الهروب إلى حصون الجبال ومغاور الأرض وشقوقها، حينئذ تنبأ الشاهدان الأمينان لأبسين مسوحا. إلا أنهما ظلا يؤديان شهادتهما طوال مدة الـ ١٢٦٠ سنة. ففي اظلم العصور كان يوجد رجال أمناء أحبوا كلمة الله وكانوا غيورين على مجده. هؤلاء العبيد المخلصون الأمناء أعطوا الحكمة والقوة والسلطان ليعلموا حق الله طوال تلك السنين.

« وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يُؤْذِيَهُمَا، تَخْرُجُ نَارٌ مِنْ فَمِهِمَا وَتَأْكُلُ أَعْدَاءَهُمَا وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يُرِيدُ أَنْ يُؤْذِيَهُمَا، فَهَكَذَا لَا بُدَّ أَنْهُ يُقْتَلُ » (رؤيا ١١: ٥). لا يمكن أن يدوس إنسان كلمة الله من دون قصاص. إن معنى هذا الإنذار المخيف موضح في الأصحاح الأخير من سفر الرؤيا حيث يقول الرائي: « لِأَنِّي أَشْهَدُ لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ أَقْوَالَ نُبُوَّةِ هَذَا الْكِتَابِ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَزِيدُ عَلَى هَذَا، يَزِيدُ اللَّهُ عَلَيْهِ الضَّرَبَاتِ الْمَكْتُوبَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْذِفُ مِنْ أَقْوَالِ كِتَابِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ، يَحْذِفُ اللَّهُ نَصِيبَهُ مِنْ سَفَرِ الْحَيَاةِ، وَمِنْ الْمَدِينَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَمِنْ الْمَكْتُوبِ فِي هَذَا الْكِتَابِ » (رؤيا ٢٢: ١٨، ١٩).

نتائج العصيان على الله

هكذا كانت الإنذارات التي أعطاها الله لمنع الناس من تغيير ما قد أعلنه أو أمر به، أو من تحويره

بطريقة ما. هذه الإنذارات الخطيرة تنطبق على كل من يستخدمون نفوذهم في جعل الناس يستخفون بشريعة الله. وينبغي أن تخيف وترعب الذين بكل طلاقة يعلنون إنه لا ضير من كوننا نطيع شريعة الله أو نعصاها. فكل الذين يعظمون آراءهم فوق الوحي الإلهي أو يحاولون تحويل المعنى الواضح الصريح للكلمة الإلهية لتتفق مع أهوائهم الخاصة أو لتتماشى مع العالم يوقعون أنفسهم تحت مسؤولية هائلة مخيفة. إن الكلمة المكتوبة أي شريعة الله ستزن خلق كل إنسان وتدين كل من يعلن عنه هذا المحك الذي لا يخطئ، أنه ناقص.

ومتى تمما شاهدتهما « (وفيما هما يتممان شهادتهما). إن المدة التي كان فيها ذاك الشاهدان سيتنبآن لابسين مسوحا انتهت في عام ١٧٩٨. وإذ كانا يقتربان من نهاية عملهما في الخفاء كانت ستثور حرب عليهما من القوة التي يمثلها « الوحش الصاعد من الهاوية ». ففي كثير من دول أوروبا كانت القوى المتحكمة في الكنيسة وفي الدولة على مدى قرون طويلة هي تلك التي كان الشيطان مسيطرا عليها عن طريق البابوية. ولكننا هنا نرى مظهرا جديدا من مظاهر قوة الشيطان.

كانت سياسة روما، تحت ستار الإقرار بتوقيعها للكتاب المقدس، إن تبقيه مغلقا عليه في لغة يجهلها الشعب ومحجوبا عن الأنظار. وتحت حكمها تنبأ الشاهدان « لَابَسِينَ مُسُوْحًا ». لكن قوة أخرى — هي قوة الوحش الصاعد من الهاوية — كانت موشكة أن تعلن الحرب على كلمة الله.

ثم إن « المدينة العظيمة » التي قتل الشاهدان في شوارعها وفيها كانت جثتاها تدعى « روحيا مصر ». من بين كل الأمم المذكورة في تاريخ الكتاب المقدس نجد أن مصر هي أكثرها جرأة في إنكار وجود الإله الحي ومقاومة أومراه. إنه لم يجرؤ أي ملك على أن يجاهر بالعدوان على سلطة السماء في ترفع وكبرياء مثلما فعل ملك مصر. فعندما أبلغ موسى إلى فرعون الرسالة باسم الرب أجاب الملك بكل غطرسة وتشامخ قائلا: « مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلَقَ إِسْرَائِيلُ؟ لَا أَعْرِفُ الرَّبَّ، وَإِسْرَائِيلُ لَا أُطْلِقُهُ » (خروج ٥: ٢). هذا هو الإلحاد، والأمة التي ترمز إليها مصر ستقدم على إنكار شبيه بهذا إذ تنكر مطالب الله الحي، وستبدي روحا شبيهة بتلك الروح المشبعة بعدم الإيمان والتحدي. ثم إن « المدينة العظيمة » مشبهة أيضا « روحيا » بسدوم. إن فساد سدوم الظاهر في تعديها شريعة الله ظهر على الخصوص في دعارتها. وهذه خطيئة ستكون أيضا من السمات البارزة لتلك الأمة التي تنطبق عليها أوصاف هذه الآية.

وتبعنا لما ورد في أقوال النبي قبل عام ١٧٩٨ بقليل ستقوم قوة نابعة من الشيطان ولها صفاته لتحارب الكتاب المقدس. ففي البلاد التي ستبكم فيها شهادة شاهدي الله ستتفشى دعاة سدوم وإلحاد فرعون.

إتمام حرفي للنبوّة

هذه النبوة تمت حرفيا وبطريقة مذهشة في تاريخ فرنسا. ففي أثناء الثورة التي نشبت في عام ١٧٩٣ « لأول مرة سمع العالم عن جمع من الناس؛ ولدوا وتهذبوا في أحضان المدنية وكانوا يدعون أن لهم الحق في أن يسوسوا دولة من أجمل دول أوروبا، يرفعون أصواتهم مجاهرين بإنكار أعظم حق

مقدس تقبله نفس الإنسان، ويُجمعون على إنكار الاعتقاد بالله وبعبادته « (٢٣٩). » إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في العالم التي سُجل عليها أنها كأمة رفعت يدها في تحد وتمرد ضد خالق الكون. لقد وجد ولا يزال يوجد كثيرون من المجدفين والملحدين في إنكلترا وألمانيا وإسبانيا وفي كل مكان، لكنّ فرنسا تقف وحدها في تاريخ العالم كالدولة الوحيدة التي بموجب قرار جمعيّتها التشريعية أعلنت أنه لا يوجد إله والتي قبل كل سكانها في العاصمة وأكثرية الناس في أماكن أخرى ذلك الإعلان وهم يرقصون بفرح عظيم، سواء الرجال والنساء « (٢٤٠).

وتميزت فرنسا كذلك بتلك السمة التي اشتهرت بها سدوم، ففي أثناء الثورة ظهرت حالة انحطاط وفساد خلقي شبيهة الحالة التي استمرت جامات الغضب على مدن السهل. وها هو المؤرخ يعرض إلحاد فرنسا ودعارتها جنباً إلى جنب كما هما مقدمان في النبوة فيقول: « وقد ارتبط بهذه القوانين التي تمس الدين ذاك الذي حوّل وحدة الزواج — وهو أقدس ارتباط يمكن أن يكونه بنو الإنسان ويؤدي دوامه إلى زيادة التماسك في المجتمع — إلى حالة عقد مدني مؤقت يُتاح لرجل وامرأة أن يرتبطا به أو يفسخاه متى أرادا ... فلو أن الشياطين عملوا وكدوا لاستنباط وسيلة تؤدي حتماً إلى تدمير كل ما هو جليل أو وقور أو جميل أو ثابت في الحياة البيئية، وللحصول في الوقت نفسه على ضمان أن الضرر الذي يقصدون أن يخلقه سيدوم من جيل إلى جيل، لما استطاعوا أن يستنبطوا خطة أفعل من انحطاط الزواج... إن صوفي أرنولت، وهي ممثلة اشتهرت بسرعة خاطرها ونكاتهما، وصفت الزواج الذي أقرته الجمهورية الفرنسية بأنه 'سر الزنا' « (٢٤١).

عداوة ضد المسيح

« حيث صلب ربنا أيضاً ». هذا التحديد الوارد في النبوة تمتته فرنسا أيضاً. فلم تبدُ العداوة للمسيح على أشدها في أمة ما كما ظهرت في فرنسا، ولم يجابه الحق ولا اصطدم بعبادة ومقاومة مرة وقاسية كما حدث في فرنسا. ففي الاضطهاد الذي أثارته فرنسا ضد المعترفين بالإنجيل صلبت المسيح في شخص تلاميذه.

ومن جيل إلى جيل أهرقت دماء القديسين. فإذا كان الولدنسيون يبذلون حياتهم على جبال بيدمونت « لأجل كلمة الله ولأجل شهادة يسوع المسيح » قدم أخوتهم الالبجنسيون شهادة مماثلة في فرنسا. وفي أيام الإصلاح كان تلاميذه يساقون إلى الموت بعد عذابات هائلة. فالملك والنبلاء والسيدات الشريفات والعذارى الرقيقات، فخر الأمة وفرسانها كانوا جميعاً يمتعون أنظارهم برؤية عذابات شهداء يسوع. والهيكونوت الشجعان الذين كانوا يحاربون لأجل استخلاص تلك الحقوق التي يعتز بها ويقدها كل قلب بشري سُفكت دماؤهم في كثير من المعارك الحامية الوطيس. لقد اعتبر البروتستانت طريدي العدالة، وكانت تعطى جوائز لمن يأتون بروؤوسهم، فكانوا يطاردون كما تطارد الوحوش.

إن « الكنيسة في البرية »، البقية القليلة الباقية من ذرية المسيحيين الأولين الذين ظلوا باقين في فرنسا في القرن الثامن عشر والذين كانوا يختبئون في جبال الجنوب، ظلوا على ولائهم لإيمان آبائهم.

وإذ كانوا يتجرون على الاجتماع على سفح جبل أو في مستنقعات منعزلة كان الجنود والفرسان يطاردونهم ويوثقونهم إلى السفن ليظلوا مُستعبدين فيها مدى الحياة. فأولئك الذين كانوا أنقى الناس في فرنسا وأعظمهم ثقافة وذكاء وعبقرية كانوا يكبلون ويعذبون عذابات رهيبة ويُحشرون بين اللصوص والقتلة (٢٤٢). وآخرون ممن كانوا يعاملون ببعض الرحمة كانوا يُقتلون رميا بالرصاص من دون أن يرثي لهم أحد حين كانوا، وهم عزّل من السلاح وعاجزون تماما، يجثون على ركبهم للصلاة. وكان مئات من الرجال الطاعنين في السن والنساء اللواتي لا حيلة لهن في الدفاع عن أنفسهن والأولاد الأبرياء يتركون قتلَى على الأرض في مكان اجتماعهم للصلاة. وإذا كان بعضهم يعبرون سفوح الجبال أو الغابات لم يكن أمرا غير مألوف أن يجدوا « بعد كل أربع خطوات جثا مبعثرة في المروج أو أجساما معلقة على الأشجار. فأرضهم التي أقفرها السيف أو الناس أو النار » استحالت إلى بركة واسعة كئيبة ». « هذه الفظائع سُنت لها قوانين ... ليس في عصر مظلم بل في الفترة الزاهرة الجميلة في إبان حكم الملك لويس الرابع عشر، فلقد انتشر العلم حينئذ وازدهرت العلوم المختلفة، وكان علماء اللاهوت في البلاط الملكي وفي العاصمة رجالا علماء وفصحاء، وكانوا يتظاهرون بالوداعة والإحسان وحب الخير » (٢٤٣).

أبشع الجرائم

لكنّ مذبحه سان بارثولوميو سطرت خطوطا أشد سوادا من دجى الليل في سجلات الجرائم وكانت أرهب عمل يمكن أن ترتكبه الشياطين مدى العصور المخيفة. ولا يزال العالم يذكر بخوف ورعب عظيم مشاهد ذلك الهجوم الدال على النذالة والقسوة والجبن. فملك فرنسا أباح ذلك العمل الرهيب تحت الحاح كهنة روما وأساقفتها. وقد كانت إشارة البدء في تلك المذبحة دقات الأجراس في سكون الليل. إن آفا من البروتستانت إذ كانوا نائمين باطمئنان وسكون في بيوتهم مستندين إلى عهد الشرف بالأمان من فم مليكهم سُحبوا بلا سابق إنذار وقتلوا بكل قسوة من دون أن يعطف عليهم قلب إنسان.

وكما كان المسيح هو القائد غير المنظور لشعبه في خروجهم من عبودية مصر، كذلك كان الشيطان هو قائد رعاياه غير المنظور في هذا العمل الرهيب الذي فيه تضاعف عدد شهداء الحق. وقد ظلت المذبحة قائمة في باريس سبعة أيام كاملة، وفي خلال الثلاثة أيام الأولى زاد غضب أولئك القاتلين واهتياهم إلى حد فاق كل تصور. ولم تقتصر تلك المذبحة على المدينة وحدها، فالملك أصدر أمرا خاصا بأن تمتد لتشمل كل المقاطعات والمدن حيث يعيش البروتستانت. ولم تراع حرمة السن أو الجنس. فلم يبقوا على طفل بريء ولا على رجل أشيب. لقد قُتل الأشراف والفلاحون، الكبار والصغار، والأمهات وأطفالهن معا. وظلت تلك المذبحة قائمة في جميع أنحاء فرنسا شهرين كاملين، فهلك من خيرة الأمة وأفضل رعاياها سبعون ألفا.

مظاهر التعظم

« ولما بلغت أنباء تلك المذبحة أسماع روما ابتهج رجال الإكليروس ابتهاجا فاق كل الحدود. وقد

كافأ كاردينال اللورين الرسول الذي حمل إليه ذلك الخبر بأن أعطاه ألف جنيه ذهباً. ودوت طلقات مدافع سان أنجيلو فرحاً وابتهاجاً، كما تجاوزت أصوات نواقيس الكنائس من كل مكان، وأحالت شعلات النار الليل البهيم إلى نهار، كما سار البابا غريغوريوس الثالث عشر في موكب طويل يحف به الكرادلة وغيرهم من أحرار الإكليروس إلى كنيسة سان لويس حيث كان كاردينال اللورين ينشد نشيد الشكر، وقد سُكّ وسام لإحياء ذكرى تلك المذبحة، ولا تزال توجد في الفاتيكان ثلاث صور لفاساري في وصف الهجوم على الأميرال، والملك وهو مجتمع مع المجلس يتآمرون لتدبير تلك المذبحة، والمذبحة نفسها. وقد أرسل غريغوريوس إلى شارل الوردية الذهبية، وبعد المذبحة بأربعة أشهر... كان يصغي بكل سرور وبشاشة إلى عظة كان يلقيها كاهن فرنسي... تكلم فيها عن « ذلك اليوم المفعم بسعادة وفرحاً عندما وصلت الأخبار إلى الأب الأقدس فذهب في جلال مقدس لي شكر الله والقديس لويس » (٢٤٤).

إن الروح الشريرة نفسها التي سيطرت على من قاموا بتدبير مذبحة سان بارثولوميو كانت هي الروح السائدة في مشاهد الثورة. فلقد أعلن أن يسوع المسيح دجال، وكانت صيحات الملحدّين الفرنسيين تهتف في مزاح قائلة: « اسحقوا ذلك الحقير » وكانوا يقصدون المسيح. لقد سار التجديف المتحدي للسماء والشر الرجس يدا بيد، وقد رُفِع وتمجد أخط الناس الأنذال. وشر وحوش الخلاعة والقسوة والوحشية والرذيلة حملوا فوق الأعناق. وفي كل هذا أظهر الناس أعظم الولاء للشيطان. بينما المسيح الذي يمتاز بالحق والطهارة والمحبة المنكرة ذاتها علّق على صليب.

« الوحش الصاعد من الهاوية سيصنع معهما حرباً ويغلبهما ويقتلهما ». إن قوة الإلحاد التي سادت على فرنسا في أثناء الثورة وحكم الرعب أثارت ضد الله وكلمته المقدسة حرباً هائلة لم يسبق للعالم أن رأى لها مثيلاً. لقد أبطل المجلس القومي أو الجمعية الوطنية عبادة الله، والكتب المقدسة جمعت وأحرقت على مرأى من الناس بكل احتقار وازدراء. ولقد داس الناس شريعة الله تحت أقدامهم وألغيت كل قوانين الكتاب المقدّس، وأبطل يوم الراحة الأسبوعي، واستعاضوا عنه بجعل اليوم العاشر يوماً للطرب والتجديف. وحُرم إجراء فريضتي العمد والعشاء الرباني. وكتبت فوق المدافن إعلانات بخط واضح تفيد أن الموت نوم أبدي.

ولقد قيل أن مخافة الله أبعد ما تكون عن رأس الحكمة بحيث أنها صارت رأس الجهالة. وحُطِّرت كل الخدمات الدينية باستثناء خدمات الحرية والدولة. « وقد أتى بأسقف باريس الشرعي ليمثل الجانب الأكبر في أوقح مهزلة تثير الشكوك مُثَلَّتْ قط أمام هيئة قومية... لقد جيء به في موكب حافل ليعلن أمام الجمعية أن الدين الذي قد علم به تلك السنين الطوال كان بكل معاني الكلمة حيلة من حيل الكهنوت ليس لها أساس لا في التاريخ ولا في الحق المقدس. وفي عبارات خطيرة حاسمة أنكر وجود الله الذي كان قد كرس نفسه لخدمته، ثم قال أنه في مستقبل أيامه سيكرس نفسه للولاء للحرية والمساواة والفضيلة وعلوم الأدب. ثم وضع أوسمته الأسقفية على المنضدة، وبعد ذلك عانقه رئيس الجمعية. واتبع كثيرون من الكهنة المرتدين مثال الأسقف (٢٤٥).

« ويشمت بهما الساكنون على الأرض ويتهللون ويرسلون هدايا بعضهم لبعض لأن هذين النبيين

كانا قد عذبا الساكنين على الأرض. إن فرنسا الملحدة كانت قد أبكمت صوت التوبيخ الذي كان ينطق به ذانك الشاهدان. لقد انطرحت كلمة الحق ميتة في الشوارع، ولذلك فرح وتهلل كل من كانوا يمتقون نواهي شريعة الله وأوامرها. لقد جاهر الناس بتحديهم لملك السماء. وكالخطاة من قديم الزمان صاحوا قائلين: « كَيْفَ يَعْلَمُ اللَّهُ؟ وَهَلْ عِنْدَ الْعَلِيِّ مَعْرِفَةٌ؟ » (مزمو ٧٣: ١١).

جرأة مجدفة

وبجرأة وتجديف لا يكاد الإنسان يصدقهما قال أحد كهنة النظام الجديد: « يا الله إن كنت موجوداً انتقم لاسمك الذي أهين. إني أتحداك! أراك صامتا. إنك لا تجرؤ على أن تمطرنا بصواعقك أو رعودك. من ذا الذي يصدق بعد هذا أنك موجود؟ » (٢٤٦). ما أعظم هذا من صدى لقول فرعون: « من هو الرب حتى أسمع لقوله؟ » « لا أعرف الرب »!

« قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: 'لَيْسَ إِلَهٌ' » (مزمو ١٤: ١). والرب يعلن عمن يحرفون الحق قائلا: « حُمَقُهُمْ سَيَكُونُ وَاضِحًا لِلْجَمِيعِ » (٢ تيموثاوس ٣: ٩). فبعدما نبذت فرنسا عبادة الإله الحي « العلي المرتفع ساكن الأبد » بزمن قصير انحدرت إلى عبادة الأوثان المنحطة المزدولة إذ عبد الناس إلهة العقل في شخص امرأة خليعة متهتكة. وذلك في الجمعية التي تمثل الأمة وبواسطة أعلى سلطاتها المدنية والتشريعية! وقد قال المؤرخ: « ثمة احتفال لا مثيل له في السخافة الممزوجة بالإلحاد ثم في عصر الجنون هذا. لقد فتحت أبواب المؤتمر على مصاريعها لدخول فرقة موسيقية كان يسير في مقدمتها هيئة رجال المجلس البلدي الذين دخلوا في موكب وقور ينشدون نشيدا في تمجيد الحرية وهم يحرسون أنثى محجبة لتكون موضوع عبادتهم مستقبلا وسموها إلهة العقل. فلما أتى بها إلى داخل الحاجز رُفِعَ عنها الحجاب باحتفال رسمي عظيم ووضعت على يمين الرئيس، في حين أن جميع الناس كانوا يعرفون أنها إحدى راقصات دار الأوبرا ... هذه الشخصية، التي تعتبر أنسب ممثل لذلك العقل الذي عبده رجال الجمعية الوطنية الفرنسية، هي التي خصتها فرنسا بالعبادة الجهرية والولاء.

يعبدون إلهة العقل

« كان لهذا المجون الإلحادي السخيف طراز خاص، فعمد الناس في طول البلاد وعرضها إلى تنصيب إلهة العقل حيثما رغبوا في أن يبينوا أنهم أنداد لكل القمم التي تسمو إليها الثورة » (٢٤٧). وقال الخطيب الذي قدم عبادة العقل: « أيها المشترعون! لقد أفسح التعصب المجال للعقل. إن عينيه الضعيفتين لم تقويا على مواجهة النور الباهر. ولقد اجتمع اليوم حشد عظيم تحت تلك القبيب القوطية التي تردد للمرة الأولى صدى صوت الحق. هنا يحتفي الفرنسيون بالعبادة الحقيقية الوحيدة: عبادة الحرية وعبادة العقل. وهنا نبتهل طالبين نجاح قوات جيش الجمهورية. هناك نبذ الأصنام الجامدة ونستعيز عنها بالعقل، هذه الصورة الحية التي هي تحفة الطبيعة » (٢٤٨). وعندما أتى بالآلهة إلى الجمعية أمسك الخطيب بيدها والتفت إلى الجمع وقال: « أيها الناس، لا ترتعبا بعد الآن أمام رعود إله عاجز خلقتة مخاوفكم. ومن الآن لا تعترفوا بإله آخر غير العقل. وها أنا

أقدم إليكم أكرم تمثال له وأنقاه. فإذا أردتم أن تكون لكم أصنام فقدموا ذبائحكم أمام مثل هذه... أسقط أمام مجلس الحرية يا برقع العقل! ...

« وبعدما عانق الرئيس الآلهة أركبت في عربة فخمة وسار في صحبتها جمهور غفير إلى كاتدرائية نوتردام لتحتل مكان الله. وهناك رفعت على المذبح العالي وتقبّلت العبادة من كل الحاضرين » (٢٤٩).

وتبع ذلك بوقت قصير حرق الكتاب المقدّس جهاراً. وفي إحدى المرات دخلت الجمعية الشعبية للمتحف قاعة المجلس البلدي وصاح رجالها قائلين: « ليحيَ العقل! » وهم يحملون على رأس سارية كومة كتب نصف محترقة، منها كتب صلوات وكتب القداس وكتاب العهد القديم والعهد الجديد، « دلالة على احتراق كل الحماقات والسخافات والكلام الفارغ التي جعلوا الجنس البشري يرتكبها » (٢٥٠)، على حد قول الرئيس.

فرنسا تقاوم الإصلاح

إن البابوية هي التي بدأت العمل الذي يكمله الإلحاد الآن. وسياسة روما هي التي خلقت تلك الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التي كانت تسرع بفرنسا إلى الدمار. وقد قال أحد الكتاب عن تلك الأعمال المتطرفة أن مسؤوليتها تقع على العرش وعلى الكنيسة (انظر التذييل). ولكنها على وجه التحديد تقع على عاتق الكنيسة. لقد سممت البابوية عقول الملوك ضد الإصلاح بحجة أنه عدو للتاج وعنصر للنزاع يقضي على سلامة الأمة ووافقها. واستخدمت عبقرية روما وسائلها لتضرم نيران أشد ضروب القسوة والاضطهاد المثير الذي أثاره العرش.

ولّت روح الحرية بذهاب الكتاب المقدّس. فأينما قبل الناس الإنجيل استيقظت عقولهم. فبدأوا يطرحون عنهم أصفاد الجهل والرذيلة والخرافات التي استرقتهم طويلاً. وبدأوا يفكرون ويعملون كما يعمل عقلاء الناس. ورأى الملوك ذلك فارتعدوا فرقا خوفاً من زوال ظلمهم واستبدادهم.

ولم تتباطأ روما في إضرار حسدهم ومخاوفهم. لقد قال البابا لحاكم فرنسا في عام ١٥٢٥: « إن هذا الجنون (البروتستانتية) لن يكتفي بإزعاج الدين وتدميره، ولكنه مقبل على تدمير كل الرئاسات والأشراف والقوانين والأنظمة والمقامات أيضاً » (٢٥١). وبعد ذلك بسنوات قليلة أُنذر أحد سفراء البابا الملك قائلًا: « لا تضل يا مولاي. إن البروتستانت سيقبلون ويدمرون كل النظم المدنية والدينية... إن العرش مهدد بالخطر، كالمذبح سواء بسواء... فإدخال دين جديد سيتبعه حتماً إدخال حكومة جديدة ». (٢٥٢). واستغاث اللاهوتيون بتعصبات الشعب فأعلنوا أن العقيدة البروتستانتية « تستميل الناس إلى قبول البدع والجهل، وتسلب الملك محبة رعاياه وولاءهم، وتدمر الكنيسة والدولة ». وهكذا أفلحت روما في تعبئة فرنسا لمحاربة الإصلاح. « لقد جُرد سيف الاضطهاد في فرنسا أولاً لمعاوضة العرش وحفظ النبلاء والإبقاء على القوانين » (٢٥٣).

سياسة قاتلة

ما أقل ما كان يعرف حكام البلاد مما يخبئه لهم الغيب من نتائج تلك السياسة المشؤومة الخرقاء!

كان الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ سيغرس في عقول الشعب وقلوبهم مبادئ العدالة والاعتدال والحق والمساواة والإحسان وحب الخير التي هي حجر الزاوية في بناء نجاح الأمة ورخائها وازدهارها: « الْبَرُّ يَرْفَعُ شَأْنَ الْأُمَّةِ »، وبه « لَأَنَّ الْكُرْسِيَّ يُثَبَّتُ بِالْبَرِّ » (أمثال ١٤: ٣٤؛ ١٦: ١٢). « وَيَكُونُ صُنْعُ الْعَدْلِ سَلَامًا »، ويولّد « سُكُونًا وَطُمَأْنِينَةً إِلَى الْأَبَدِ » (إشعياء ٣٢: ١٧). وَمَنْ يطيع شريعة الله لا بد أن يحترم ويطيع شرائع بلاده. ومن يخاف الله يكرم الملك وهو يستخدم كل سلطاته العادلة الشرعية. لكن فرنسا التعسة حرّمت اقتناء الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وحرمت ونفت كل تلاميذه. فمن قرن إلى قرن حدث أن الرجال ذوي المبادئ السليمة المستقيمة والذكاء الخارق والخلق القويم، الذين أوتوا شجاعة جعلتهم يجاهرون باقتناعاتهم وإيماناً أعانهم على احتمال الآلام لأجل الحق، أُرهِقُوا كعبيد في السفن أو هلكوا حرقاً بالنار أو بلي لحملهم وعظامهم في ظلمات السجون. وقد وجد أُلُوفٌ وأُلُوفٌ أن النجاة في الهروب، وظلت الحال هكذا مدى ٢٥٠ سنة بعد بدء الإصلاح.

هروب أنبل المواطنين الفرنسيين

« وندر أن كان هنالك جيل من الفرنسيين مدى تلك الحقبة الطويلة لم يشهد تلاميذ الإنجيل وهم يفرون أمام هياج المضطهدين المجنون حاملين معهم الذكاء والفنون والعمل والنظام التي تفوقوا فيها تفوقاً عظيماً ليغنوا بها البلدان التي لجأوا إليها. وبقدر ما أغدقوا من هذه الهبات على الممالك الأخرى حُرِّمَ وطنهم منها. ولو أن كل ما نُقِلَ من فرنسا بقي فيها، ولو بقيت المهارة الصناعية التي كان يملكها هؤلاء المنفيون لتزرع أرضها مدى هذه الثلاث مئة سنة، ولو ظلت هواياتهم الفنية تُصلح من شأن صناعاتها مدى تلك السنين، ولو أنه في خلال هذه السنين الطوال استُخدم ذكاؤهم وقوة ابتكارهم وقوتهم التحليلية العقلية في إغناء آدابهم وغرس علومهم، ولو كانت حكمتهم تهدي بلادهم في مشوراتها، وشجاعتهم تخوض معاركها، ومساواتهم وعدالتهم تكون شرائعها، ولو أن ديانة الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ كانت تقوي عقول الشعب وتتحكم في ضمائرهم فما كان أعظم المجد الذي كان اليوم يطوق عنق فرنسا! وكم كانت تصير بلادا عظيمة وناجحة وسعيدة! وكم كانت تصير نموذجا عظيما تنسج على منواله كل الأمم!

« لكنّ التعصب العنيد الأعمى طرد من أرضها كل معلم للفضيلة وكل بطل من أبطال النظام وكل مدافع أمين يزود عن العرش. فلأولئك الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يجعلوا لبلادهم ' اسما ومجدا ' في الأرض، قال التعصب: اختاروا واحدا من هذين: الحرق أو النفي. وأخيرا اكتمل خراب الأمة لم يبق هنالك رجل ذو ضمير ليُحرم، ولا رجل متدين ليحرق بالنار، ولا رجل محب لوطنه لينفى بعيدا » (٢٥٤). فكانت الثورة بكل رعبها هي النتيجة الوبيطة.

ماذا بعد ذلك

« وإذ هرب الهيكونوت، شمل فرنسا انحطاط عام. فالمدن الصناعية الزاهرة أصابها العطب والخراب، والأقاليم الخصبة استحالت قفاراً، وأعقبت فترة النجاح غير العادي فترة جمود وبلادة عقلية وانحطاط خلقي. وصارت باريس ملجأ كبيراً وبيتاً من بيوت الإحسان. وقدّر بعضهم أنه عند

نشوب الثورة وُجد ٢٠٠ ألف صعلوك يستجدون الملك. لكنّ الجزويت هم وحدهم الذين نجحوا وازدهرت أحوالهم من دون تلك الأمة الخبرة المتسوسة، وقد تحكموا في الكنائس والمدارس والسجون وسفن العبيد بطغيان رهيب».

كان يمكن أن يأتي الإنجيل لفرنسا بحل صحيح ناجع لكل مشاكلها السياسية والاجتماعية التي أربكت كهنتها وملكها ومُشرعيها، وأخيرا أودت بالأمة إلى الفوضى والدمار. ولكن تحت حكم روما خسر الشعب تعاليم المخلص المباركة عن التضحية والمحبة المنكرة لنفسها. ولقد أبعدوا عن ممارسة إنكار الذات لأجل خير الآخرين. فالأغنياء لم يوبخهم أحد على ظلمهم للفقراء، والفقراء لم يجدوا عوناً في عبوديتهم وانحطاطهم. وقد زادت أنانية الأثرياء والأقوياء وصارت أكثر جلاء وجوراً. ولمدى قرون طويلة نجم عن طمع النبلاء وخلاعتهم اغتصاب ساحق للفلاحين. لقد ظلم الأغنياء الفقراء، بينما أبغض الفقراء الأغنياء.

وفي كثير من الأقاليم كان النبلاء مالكي الأرض، أما الطبقات العاملة فكانوا مجرد مستأجرين تحت رحمة سادتهم، ومرغمين على إجابة مطالبهم الباهظة. إن عبء إعانة الكنيسة والدولة وقع كله على عاتق الطبقات المتوسطة والفقيرة الذين كانت تُفرض عليهم ضرائب فادحة. « وكانت مسرات النبلاء معتبرة القانون الأسمى؛ ويمكن أن يموت المزارعون والفلاحون جوعاً، لكنّ ظالمهم لم يكونوا يكثرثون لذلك في شيء... وكان الناس مرغمين في كل كبيرة وصغيرة أن يقصروا خدمتهم على مصلحة صاحب الأرض. وكانت حياة العمال الزراعيين حياة تعب متواصل، ولم يكن ما يفرج عنهم بؤسهم وشقاءهم. وشكواهم، إن كانوا يتجرأون على الشكوى، كانت تقابل باحتقار وقح. ومحاكم العدل كانت دائماً تستمع لشكوى نبيل يقدمها ضد أحد الفلاحين. واشتهر القضاة بقبولهم الرشوة، وأقل نزوة أو تقلب في المزاج يديه أحد الإشراف كانت له قوة القانون بفضل هذا الفساد العام. والضرائب التي كانت تُغتصب من عامة الشعب بأيدي الوجهاء الدنيويين من ناحية وبأيدي رجال الإكليروس من الناحية الأخرى لم يكن نصفها يجد طريقه إلى الخزانة الملكية أو الكنيسة، فكانت المبالغ الباقية تتبدد في الانغماسات الخليعة. أما الذين كانوا يفقرون رعاياهم فكانوا يُعفون من الضريبة، وكانوا مخولين بموجب القانون أو العادة أن يحتلوا كل وظائف الدولة. كان عدد أفراد الطبقات المحظوظة ١٥٠ ألفاً، فلأجل إرضاء هؤلاء كان يُحكم على ملايين من الشعب أن يحيوا حياة منحلة يائسة » (انظر التذييل).

ترف الأرستقراطيين ورذائلهم

وكان البلاط الملكي مستسلماً للترف والخلاعة. ولم يكن الشعب يثق كثيراً بالحكام، ولا كان الحكام يثقون كل الثقة بالشعب. ولقد حامت الشكوك حول كل إجراءات الحكومة على أنها متآمرة وأنانية. وقبل الثورة بأكثر من نصف قرن كان لويس الخامس عشر متربعا على العرش، وكان يُعتبر حتى في تلك الأيام الشريرة ملكاً كسولاً تافها شهوانياً مستهتراً. ولما كان أشرف تلك الأمة فاسدين وقساء، والطبقة الدنيا فيها فقراء وجهلة وكانت الدولة مرتبكة في شؤونها المالية والشعب ساخطاً

وناقما، فلم تكن ثمة حاجة إلى عين نبي لترى، من بعيد، الثورة القادمة الوشيكة الوقوع. وكان الملك معتادا أن يقول لمستشاريه الذين كانوا يندرونه بوقوع الكارثة: « اجعلوا كل شيء يسير على سجيته طالما أنا حيّ، وبعد موتي ليكن ما يكون ». وعبثا ألحوا عليه في إجراء إصلاح واجب الوقوع. لقد رأى الشرور متفشية، ولكن كانت تعوزه الشجاعة والقوة لصدها. وكان كلام الملك الكسول الأناني أصدق تصوير للهلاك الذي كان موشكا أن يحل بفرنسا عندما قال: « ومن بعدي الطوفان! ».

عندما استعانت روما بحسد الملوك والطبقات الحاكمة أثرت عليهم حتى يبقوا الشعب في عبوديته، إذ كانت تعلم جيدا أن هذا يضعف الدولة، وكانت ترمي من وراء تلك الوسيلة إلى إبقاء الحكام تحت نير عبوديتها. وبسياستها الواعية والبصيرة بالعواقب أحست أنها لكي تستعبد الناس استعبادا فعلا ينبغي أن تكبل نفوسهم، وأن الطريقة الأكيدة لمنعهم من الإفلات من عبوديتهم هي جعلهم غير أهل للحرية. لقد كان الانحطاط الأخلاقي أرهب أضعافا مضاعفة من الآلام الجسدية التي نجمت عن سياستها. وإذ حُرِمَ الشعب من الكتاب المقدس وتركوا لتعاليم التعصب والأنانية فقد لُفوا في أكفان الجهالة والخرافات وغاصوا في أعماق الرذيلة، بحيث غدوا غير مؤهلين لحكم أنفسهم.

حصاد بالدم

لكن نتائج هذا كله أتت مختلفة اختلافا بينا عن كل ما كانت تقصده روما أو ترمي إليه. فبدلا من أن يبقى عملها عامة الشعب خاضعين خضوعا أعمى لتعاليمها صير الناس ملحدين وثوارا. لقد احتقروا الكاثوليكية إذ اعتبروها احتيالا. ورأوا في الإكليروس عصابة تظلمهم وتستعبدهم. والإله الوحيد الذي عرفوه كان إله روما، وكانت تعاليمها هي دينهم الوحيد. واعتبروا أن طمعها وقسوتها هما ثمرة الكتاب المقدس الشرعية ولذلك رفضوا الكتاب.

صوّرت روما صفات الله أسوأ تصوير وحرّفت مطالبه، وها هم الناس الآن يرفضون الكتاب المقدس ومبدعه. وطلبت من الناس أن يؤمنوا إيمانا أعمى بعقائدها مدّعية أنها مصادق عليها من الكتاب. وكان رد الفعل على ذلك أن فولتير وجماعته نشروا سموم الكفر في كل مكان بعدما ألّقوا بكلمة الله جانبا. لقد سحقت روما جماهير الشعب تحت قدميها الحديديتين، وإذ انقلبوا على طغيانها بعدما انحطوا وتوحشوا ألّقوا عنهم كل رادع. فإذ ثار غضبهم على ذلك الخداع البراق الذي قدموا له ولاءهم طوال ذلك الزمن رفضوا الحق والكذب معاً؛ وإذ ظنوا واهمين أن الخلاعة هي حرية ابتهج عبيد الرذيلة بحريتهم المزعومة.

عند بدء الثورة تنازل الملك معطيا الشعب حق التمثيل بحيث يتفوقون على النبلاء والإكليروس معا؛ وهكذا رجحت كفتهم، لكنهم لم يكونوا مستعدين أن يستخدموا تلك الميزة بحكمة واعتدال. فإذ كانوا يتوقون إلى التعويض عن المظالم التي حلت بهم عولوا على الشروع في تكوين المجتمع من جديد. فذلك الشعب المعتدى عليه، الذين كانت عقولهم ممتلئة بذكريات المظالم المريرة الطويلة التي حاقت بهم، عولوا على أن يحدثوا انقلابا في حالة البؤس التي ما عادوا قادرين على احتمالها،

وان يثأروا لأنفسهم من أولئك الذين اعتبروهم علة شقائهم وآلامهم. لقد نقل المضطهدون الدرس الذي قد تلقوه تحت الطغيان، فصاروا مضطهدين لمن قد اضطهدهم.

حصدت فرنسا التعسة بالدم البذر الذي زرعت. وكانت نتائج خضوعها لسلطان روما وسيطرتها رهيبة، ففي المكان الذي فيه نصبت فرنسا أول ركيزة لحرق الشهداء عند بدء الإصلاح بإيعاز من الكاثوليكية أقامت الثورة أول مقصلة لها. وفي البقعة نفسها التي أحرق فيها الشهداء البروتستانت الأولون في القرن السادس عشر سقطت أولى ضحايا المقصلة في القرن الثامن عشر. إن فرنسا إذ قاومت الإنجيل الذي كان يمكن أن يأتيها بالشفاء فتحت الباب للإلحاد والدمار. فعندما ألقى بروادع شريعة الله جانباً وُجد أن قوانين الناس غير كافية لصد سيول الغضب البشري القوية الجارفة، فانسأقت الأمة في تيار الثورة والفوضى. والحرب التي ثارت ضد الكتاب المقدس بدأت عهداً يدعو تاريخ العالم « عهد الرعب ». لقد نُفي السلام والسعادة بعيداً من بيوت الناس وقلوبهم. ولم يكن أحد يحس بالطمأنينة، فالذي يكون منتصراً اليوم يُشك فيه ويدان غداً. لقد كان للظلم والقسوة والشهوة سيادة لا ينافيها فيها منازع.

وقد أرغمَ الملك والإكليروس والنبلاء على الخضوع لفظائع ذلك الشعب الثائر المجنون. فتعطشه إلى الانتقام كان قتل الملك شرارته الأولى، والذين قرروا موته ماتوا شنقا بعد ذلك. ووقعت مذبحه عامة كان ضحاياها كل من اشتبه فيهم أنهم أعداء الثورة. وازدحمت السجون بالناس، وفي وقت ما كانت تضم بين جدرانها أكثر من مئتي ألف أسير. وقد امتلأت مدن المملكة بمشاهد الرعب، وكان أحد أحزاب الثوار يعادي حزبا آخر، فصارت فرنسا ميداناً فسيحاً للقوات المتضاربة التي تسلط عليها الغضب والاهتياج. « ففي باريس كان يجيء شغب في أثر شغب، وكان الأهالي ينقسمون إلى خليط من الأحزاب التي كان بعضها يصر على استئصال البعض الآخر ». ومما زاد من يؤس الشعب أن الأمة كانت مشتبكة مع جيوش أوروبا العظيمة في حروب طويلة مدمرة. « كانت البلاد على شفا الإفلاس، وكانت الجيوش تصرخ مطالبة بمرتباتها المتأخرة، وكان أهل باريس يتضورون جوعاً، وقد خرب اللصوص مدن الأقاليم، وكادت المدينة تنطفئ في بحر من الفوضى والفجور ».

لقد تعلم الشعب جيداً دروس القسوة والتعذيب التي لقيتها إياها روما بكل اجتهاد. وها قد جاء يوم الجزاء أخيراً. فلم يكن تلاميذ يسوع هم الذين يساقون الآن إلى السجون أو يُسحبون ليحرقوا. لقد مات هؤلاء أو طردوا إلى المنفى منذ عهد بعيد. والآن أحست روما القاسية التي لا ترحم بالقوة المهلكة التي لأولئك الذين دربتهم على أن يسروا بسفك الدماء. « إن مثال الاضطهاد الذي قدمه رجال الإكليروس الفرنسيون مدى عصور طويلة ارتد الآن عليهم بقوة عظيمة. لقد تلطخت المشانق بدماء الكهنة. وسفن العبيد والسجون التي امتلأت بالهجونوت امتلأت الآن بمضطهديهم. وإذا وثق رجال الإكليروس الكاثوليك إلى المجازيف كعبيد في السفن اختبروا إذ ذاك كل الويلات والآلام التي أسرفت كنيستهم في إيقاعها بالهراطقة الودعاء » (انظر التذييل).

« حينئذ جاءت الأيام التي فيها سنّت أعظم المحاكم وحشية أعظم القوانين وحشية، عندما لم يكن إنسان يستطيع أن يحيي جاره أو يتلو صلواته... من دون أن يرتكب جريمة عقابها الموت، وكان

الجواسيس يتربصون في كل ركن، وظلت المقصلة تقوم بعملها الرهيب وقتاً طويلاً كل صباح، وتكدس الأسرى في السجون مثلما تكدس الرقيق في سفن العبيد، وجرت دماء الضحايا في القنوات لتصب في نهر السين... وفيما كانت العربات تسير في شوارع باريس محملة بشحناتها من الضحايا الذاهبين ليلقوا حتفهم كان الولاة الذين أرسلتهم اللجنة الملكية إلى المقاطعات يعربدون بقسوة بالغة لم تشهد لها العاصمة مثيلاً. فسكين تلك الآلة المخيفة كانت، في نظرهم، أبطاً مما ينبغي في أدائها عملية القتل الرهيبة. لقد حصدت طلقات الرصاص صفوفاً طويلة من الأسرى، وكانت تحدث ثقباً في أسفل السفن التي تكدس فيها الأسرى بقصد إغراقها. واستحالت مدينة ليون إلى برية قفراء. وفي مدينة آراس حُرِمَ السجناء من الرحمة القاسية وهي الموت السريع. وعلى طول نهر اللوار من سومور إلى البحر كانت أسراب الغربان والحدأة تنهش الجثث العارية المتعانقة معا في وضع شنيع. لم تكن هنالك رحمة لجنس أو لسن. وعدد الفتيان والفتيات البالغين السابعة عشرة من العمر الذين قتلتهم تلك الحكومة الممقوتة، بلغ عدة مئات. والأطفال الذين كانوا يُنتزعون من على صدور أمهاتهم كانت تتلقفهم الحراب والرماح التي كانت تحملها فرق اليعقوبيين « (انظر التذييل). ففي أثناء مدة قصيرة من الزمن لم تتعدَّ العشر سنوات هلكت جماهير غفيرة من بني الإنسان.

هذا كله كان وفق رغبة الشيطان. فعلى مدى عصور طويلة كان يتعب جاهداً لتحقيق هذه النتيجة. إن سياسته هي المخاتلة والخداع من البدء إلى النهاية، وقصده الثابت هو أن يجلب على الناس الويل والتعاسة، ويشوه عمل الله ويفسده ويتلف ويعطل مقاصد الرحمة والإحسان الإلهية، وهكذا يسبب الحزن لساكني السماء. وحينئذ يعمي عقول الناس بأساليبه الخادعة ويجعل الناس يلقون اللوم على الله كما لو أن كل هذا الشقاء هو نتيجة تدبير الخالق. وبهذه الطريقة نفسها عندما يظفر أولئك الذين انحدروا إلى حال الانحطاط والوحشية بحريتهم، يلح عليهم أن يعمدوا إلى اتخاذ جانب الإفراط وارتكاب الفظائع. حينئذ يشير الطغاة والظالمون إلى صورة الخلاعة الجامحة هذه على أنها مثل من أمثلة نتائج الحرية.

عندما يُكتشف الضلال في زي ما يلبسه الشيطان زياً تنكرياً آخر، فيتلقفه جماهير من الناس بكل شوق كما في الأول. فعندما اكتشف الناس أن الكاثوليكية خداع، وعجز الشيطان بهذه الوسيلة عن جعل الناس يتعدون شريعة الله دفعهم إلى الاعتقاد أن كل دين هو مخاتلة وأن الكتاب المقدس حديث خرافة، وهكذا إذ ألقى الناس عنهم روادع شريعة الله أسلموا أنفسهم إلى الإثم الجامح. إن الغلطة المميتة التي تسببت بكل تلك الولايات لسكان فرنسا كانت تجاهل هذا الحق العظيم القائل إن الحرية الحقيقية ينبغي أن تكون داخل نطاق نواهي شريعة الله « لَيْتَكَ أَصْغَيْتَ لَوْصَايَايَ، فَكَانَ كَنْهَرُ سَلَامِكَ وَبُرْكُ كُلِّجِجِ الْبَحْرِ »، « لَا سَلَامَ، قَالَ الرَّبُّ لِلْأَشْرَارِ »، « أَمَّا الْمُسْتَمِعُ لِي فَيَسْكُنُ آمَنًا، وَيَسْتَرِيحُ مِنْ خَوْفِ الشَّرِّ » (إشعياء ٤٨: ١٨، ٢٢؛ أمثال ١: ٣٣).

إن الكفار والمُلاحدين والمرتدين يعارضون شريعة الله وينبذونها، لكن نتائج تأثيرهم تبرهن أن خير الإنسان مرتبط بالطاعة لوصايا الله. والذين يرفضون أن يتعلموا هذا الدرس من كتاب الله يلتزمون تعلمه من تاريخ الأمم.

مصدر البؤس

عندما استخدم الشيطان كنيسة روما لإبعاد الناس عن الطاعة فقد كانت وسيلته مخفية، وقد أخفى عمله بحيث أن الانحطاط والشقاء اللذين نتجا من ذلك لم يظهرأ أنهما نتيجة العصيان والتمرد. وإلى ذلك الحين أبطلت قوته وسلطانه بواسطة روح الله بحيث امتنع عليه نيل مرامه من كل مقاصده ولم يتتبع الشعب التأثير إلى مسبباته، ولا اكتشفوا منشأ ويلاتهم وشقائهم. ولكن في الثورة جاهرت الجمعية الوطنية بطرح شريعة الله جانبا. وفي حكم الرعب الذي تبع ذلك استطاع جميع الناس رؤية التفاعل بين السبب والنتيجة.

عندما جاهرت فرنسا برفضها الله وألقت بالكتاب المقدس جانبا ابتهج الناس الأشرار، وأرواح الظلمة فرحت بما قد حصلت عليه من الغرض الذي ظلت تهدف إليه طويلا: مملكة حرة من روادع شريعة الله ولأن القضاء على العمل الرديء لا يجري سريعا فلذلك « أمتلاً قلبُ بني البشر فيهم لفعل الشر » (جامعة ٨: ١١). لكن كسر الشريعة العادلة البارة لا بد أن ينتج منه الشقاء والدمار. ومع أن شر الناس لم يفتقد بالقضاء في الحال إلا أنه بكل تأكيد كانت ستتجم عنه الديونة. وإن عصور الارتداد والجريمة كانت تدخر غضبا ليوم الغضب، وعندما فاض مكيال إثمهم عرف محتقرو الله، بعد فوات الفرصة، أنه أمر مخيف جداً أن ينهكوا صبر الله. إن روح الله الرادع الذي يفرض كبها لقوة الشيطان القاسية كان قد رفع إلى حد كبير، ولذلك سمح لذلك الذي يسر بشقاء الناس أن يتم إرادته. فالذين اختاروا خدمة التمرد تركوا ليحصدوا ثماره حتى امتلأت البلاد بجرائم رهيبة جدا بحيث يعجز قلم الكاتب عن وصفها. ولقد ارتفعت من جوانب كل الأقاليم المقفرة والمدن المخربة صرخة مخيفة، صرخة مرة رهيبة. لقد اهتزت فرنسا كما من زلزلة هائلة. فالدين والشريعة والنظام الاجتماعي والأسرة « والدولة والكنيسة، كل هذه مُحقت بقوة يد عاقّة ارتفعت لمحاربة شريعة الله لقد صدق الحكيم حقا حين قال: « أَمَّا الشَّرِيرُ فَيَسْقُطُ بِشَرِّهِ »، وإن عمل شرا مئة مرة وطالت أيامه إلا أني أعلم أنه يكون خير للمتقين الله الذين يخافون قدامه. « وَلَا يَكُونُ خَيْرٌ لِلشَّرِيرِ » (أمثال ١١: ٥؛ جامعة ٨: ١٢، ١٣). « لَأَنَّهُمْ أَبْغَضُوا الْعِلْمَ وَلَمْ يَخْتَارُوا مَخَافَةَ الرَّبِّ »، « فَلِذَلِكَ يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَرِ طَرِيقِهِمْ، وَيَشْبَعُونَ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ » (أمثال ١: ٢٩، ٣١).

فرنسا تعود إلى الإنجيل

إن شاهدي الله الأمينين اللذين قتلهما الوحش المجدف « الخارج من الهاوية » ما كانا ليبقيا صامتين طويلا، فإنه « ثُمَّ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ وَالنَّصْفِ، دَخَلَ فِيهِمَا رُوحُ حَيَاةٍ مِنَ اللَّهِ، فَوَقَّعَا عَلَى أَرْجُلِهِمَا. وَوَقَعَ خَوْفٌ عَظِيمٌ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا يَنْظُرُونَهُمَا » (رؤيا ١١: ١١). في عام ١٧٩٣ صادقت الجمعية الفرنسية على مرسوم إلغاء الدين المسيحي والاستغناء عن الكتاب المقدس. ولكن بعد ذلك بثلاث سنين ونصف أصدرت الهيئة نفسها قرارا آخر يلغي هذا المرسوم ويبيح تداول الكتاب المقدس. لقد وقف العالم مشدوها أمام الجرائم الهائلة التي ارتكبت في فرنسا لرفضها الكتاب المقدس، واعترف الناس بضرورة الإيمان بالله وكلمته بما أنهما أساس الفضيلة والخلق الكريم. لقد

قال الرب: « مَنْ عَيَّرْتَ وَجَدَّفْتَ، وَعَلَى مَنْ عَلَّيْتَ صَوْتًا، وَقَدْ رَفَعْتَ إِلَى الْعَلَاءِ عَيْنَيْكَ؟ عَلَى قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ! » (إشعياء ٣٧: ٢٣). « لِذَلِكَ هَآنَذَا أَعْرِفُهُمْ هَذِهِ الْمَرَّةَ، أَعْرِفُهُمْ يَدِي وَجَبْرُوتِي، فَيَعْرِفُونَ أَنَّ أَسْمِي يَهُوَهْ » (إرميا ١٦: ٢١).

وفي ما يختص بالشاهدين يعلن النبي بعد ذلك قائلا: « وَسَمِعُوا صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا لَهُمَا: « اصْعِدَا إِلَى هَهُنَا ». فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ فِي السَّحَابَةِ، وَنَظَرَهُمَا أَعْدَاؤُهُمَا » (رؤيا ١١: ١٢). فمِنذ حَارِبَتِ فرنسا شاهدي الله حَصَلا على كَرَامَةٍ لَمْ يَحْصَلَا عَلَيْهَا مِنْ قَبْل. ففي عام ١٨٠٤ نُظِمَت جمعية التورات البريطانية والأجنبية وتبع ذلك منظمات أخرى مثلها، وصارت لها فروع عديدة في قارة أوروبا. وفي عام ١٨١٦ تأسست جمعية التوراة الأمريكية. ولما تكونت جمعية التوراة البريطانية طبع الكتاب ووزع في خمسين لغة. ومنذ ذلك الوقت ترجم إلى أربع مئة لغة ولهجة (انظر التذييل).

في الخمسين سنة التي سبقت عام ١٧٩٢ لم يُدِ الناس اهتماما كبيرا بالإرساليات الأجنبية. ولم تشكل جمعيات جديدة، ولم يكن غير قليل من الكنائس التي بذلت مجهودا لنشر المسيحية في البلدان الوثنية. ولكن حوالي نهاية القرن الثامن عشر حدث تغيير عظيم. ما عاد الناس قانعين بنتائج الدين العقلي ولا أشبعتهم ثماره، وتحققوا من لزوم الإعلان الإلهي والدين الاختباري. فمِنذ ذلك الحين نما عمل الإرساليات الأجنبية نموا لم يسبق له مثيل (انظر التذييل).

هذا فضلا عن أن التحسينات التي أدخلت على الطباعة أكسبت عمل توزيع الكتاب قوة دافعة. ثم إن التسهيلات المتواصلة في المواصلات بين البلدان المختلفة، ونقض سياجات التعصب والانطواء القومي القديمة، وحرمان بابا روما من استخدام السلطة الدنيوية، كل هذا أفسح الطريق لدخول كلمة الله. ولبضع سنين ظل الكتاب المقدس يباع في شوارع روما بلا مانع، وها هو يُحمل الآن إلى كل أنحاء المسكونة.

لقد تشدق فولتير الكافر مرة وقال في زهو: « لقد سئمت مما يردده الناس مرارا قائلين إن اثني عشر رجلا قد أقاموا دعائم الدين المسيحي. ولكنني سأبرهن أن رجلا واحدا يكفي لهدم هذا الدين ». وقد مرت أجيال منذ مات. واتحد ملايين الناس في محاربة الكتاب المقدس، ولكنه أبعد وأمنع من أن يتلاشى بحيث أنه في حين كانت توجد من كتاب الله مئة نسخة في أيام فولتير، يوجد الآن عشرة آلاف، بل مئة ألف نسخة. قال أحد المصلحين الأقدمين عن الكنيسة المسيحية: « إِنْ أَلْكَتَابُ الْمُقَدَّسِ هُوَ السِّنْدَانُ الَّذِي قَدْ أَبْلَى وَحَطَمَ كَثِيرًا مِنَ الْمَطَارِقِ ». وقد قال الرب: « كُلُّ آلَةٍ صُورَتْ ضِدَّكَ لَا تَنْجُحُ، وَكُلُّ لِسَانٍ يَقُومُ عَلَيْكَ فِي الْقَضَاءِ تَحْكُمِينَ عَلَيْهِ » (إشعياء ٥٤: ١٧).

« وَأَمَّا كَلِمَةُ إِلَهِنَا فَتَثَبَّتْ إِلَى الْأَبَدِ »، « ... كُلُّ وَصَايَاهُ أَمِينَةٌ. ثَابَتَتْ مَدَى الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ، مَصْنُوعَةٌ بِالْحَقِّ وَالْإِسْتِقَامَةِ » (إشعياء ٤٠: ٨؛ مزمور ١١١: ٧، ٨). كُلُّ مَا يَبْنَى عَلَى سُلْطَانِ الْإِنْسَانِ مَصِيرُهُ الْهَدْمُ وَالْإِنْهْيَارُ، أَمَّا مَا يَبْنَى عَلَى صَخْرَةِ كَلِمَةِ اللَّهِ الثَّابِتَةِ فَسَيَبْقَى إِلَى الْأَبَدِ.

١٦ - المهاجرون الأوائل

رفض المصلحون الإنكليز كل تعاليم روما لكنهم أبقوا على كثير من طقوسها. وهكذا فمع أن سلطة روما ومعتقداتها طُرحت جانبا فإن كثيرا من عاداتها وطقوسها تغلغلت في عبادة كنيسة إنكلترا. وقد ادعى المدعون أن هذه الأشياء لا تمس الضمير، وأنه مع كون الكتاب المقدس لا يأمر بها كما لا ينهي عنها فإنها ليست شريرة في جوهرها. لكن حفظ تلك الطقوس جعل الهوة التي تفصل بين الكنائس المصلحة وروما ضيقة جدا، وقد شدد كثيرون قائلين أن هذه الأشياء قد تزيد من قبول الكاثوليك للعقيدة البروتستانتية.

بدا للمحافظين على القديم والمسايرين المتساهلين أن هذه الحجج مقنعة، ولكن وُجدت جماعة أخرى لم تر هذا الرأي. فحقيقة كون هذه العادات « تؤدي إلى إقامة جسر فوق الهوة الفاصلة بين روما والإصلاح » (٢٥٥) كانت في نظرهم حجة مقنعة ضد الإبقاء عليها. لقد نظروا إليها بوصفها سمات العبودية التي تحرروا منها والتي لم يكونوا يرغبون في العودة إليها. وتحتاجوا قائلين أن الله قد أثبت في كتابه القوانين اللازمة لتنظيم عبادته، وأنه لا يسمح لاحد أن يضيف إلى هذه القوانين أو يحذف منها شيئا. إن الارتداد العظيم كان في مبدئه محاولة إضافة سلطة الكنيسة إلى سلطان الله. لقد بدأت روما بأن حرمت على الناس أشياء لم يحرمها الله، وانتهت بأن حرمت على الناس ما قد أمر به أمراً صريحاً.

رغب كثيرون رغبة جادة في العودة إلى الطهارة والبساطة اللتين امتازت بهما الكنيسة الأولى. لقد اعتبروا كثيراً من العادات الثابتة التي كانت سائدة في الكنيسة الإنكليزية نصبا للوثنية، ولم تسمح لهم ضمائرهم بأن يشتركوا معها في عبادتها. لكن الكنيسة، استناداً إلى السلطة المدنية، لم تكن تسمح بانشقاق أو تخلف عن طقوسها. فكان يُطلب من الناس بموجب القانون أن يشتركوا في عباداتها، وكان محرماً على الناس عقد اجتماعات غير مرخص بها للعبادة الدينية، ومن خالف هذه القوانين كان يحكم عليه إما بالسجن أو النفي أو الموت.

في أوائل القرن السابع عشر أعلن الملك، الذي كان قد اعتلى عرش إنكلترا منذ عهد قريب، عن عزمه على جعل « البيوريتان » « يذعنون ويمتثلون أو ... يطردهم من البلاد، أو يفعل بهم ما هو شر من ذلك » (٢٥٦). فإذا كانوا يطاردون ويضطهدون ويسجنون لم يكونوا ينتظرون أن تتحسن الأحوال في المستقبل، وكثيرون اقتنعوا بأن من يعبدون الله ويخدمونه بموجب ما توحى به إليهم ضمائرهم « ما عادت إنكلترا مكانا يصلح لسكانهم » (٢٥٧). وقد عزم بعضهم أخيراً على الالتجاء إلى هولندا. فواجهوا صعوبات وخسائر وسجناً، وأحببت مساعيهم وأسلموا إلى أيدي أعدائهم. لكن مواظبتهم الثابتة انتصرت أخيراً فوجدوا ملاذاً لهم على شواطئ الجمهورية الهولندية الصديقة.

وعند هروبهم تركوا بيوتهم ومتاعهم ووسائل رزقهم. كانوا غرباء في أرض غريبة وبين شعب يختلف عنهم في اللغة والعادات، مما اضطرهم إلى الالتجاء إلى حرف جديدة غير مجربة ليكسبوا لقمة عيشهم. فالرجال الذين كانوا في منتصف العمر والذين قضوا حياتهم في حرا الأرض كان عليهم عندئذ أن يتعلموا صناعات آلية. ولكنهم بكل سرور قبلوا ذلك الوضع ولم يضيعوا الوقت في البطالة

أو التذمر. ومع أنهم مرارا كثيرة كان يعرضهم الفقر، فقد شكروا الله على البركات التي منحت لهم، ووجدوا الفرح والعزاء في شركتهم التي لم يكن يعكرها معكر. « لقد عرفوا أنهم غرباء ولم يكونوا ينظرون كثيرا إلى الأمور العالمية الزائلة بل كانوا يرفعون عيونهم إلى السماء التي هي أعز وطن عليهم. فكانوا يهدئون أرواحهم » (٢٥٨).

المحبة والإيمان يتشددان

وفي وسط آلام الغربة والمشقات والضيقات تقوّت محبتهم وإيمانهم. لقد اتكلوا على مواعيد الرب فلم يخذلهم في وقت الحاجة والضيق. وكانت ملائكته يقفون إلى جوارهم لتشجيعهم وسندهم. وعندما وجّهتهم يد الله إلى عبر البحار، إلى بلاد يستطيعون فيها أن يؤسسوا حكومة ويتركوا لأولادهم الإرث الثمين، إرث الحرية الدينية، تقدموا فلم يتراجعوا بل ساروا إلى الأمام في طريق العناية الإلهية. لقد سمح الله بوقوع التجارب على شعبه لكي يعدّهم لإتمام مقاصده الصالحة نحوهم. ولقد نزلت الكنيسة إلى الحضيض لكي تتسامى وترتفع. كان الله عازما أن يظهر قدرته لخيرها لكي يقدم للعالم برهانا جديدا على أنه لن يترك من يتكلون عليه. ولقد تحكّم في الأحداث لكي يجعل غضب الشيطان ومؤامرات الناس الأشرار تزيد من مجده وتأتي بشعبه إلى موضع أمين، فكان الاضطهاد والنفي يفتحان الطريق للحرية.

إن البيوريتان عندما أكرهوا على الانفصال عن الكنيسة الإنكليزية في بادئ الأمر ارتبطوا معا بعهد مقدس كشعب الرب الحر « أن يسيروا معا في كل طرقه المعروفة لديهم والتي سيعرفونها مستقبلا » (٢٥٩). هنا كانت روح الإصلاح الحقيقية ومبدأ البروتستانتية الحيوي. ولهذا الغرض رحل أولئك المهاجرون عن هولندا ليجدوا لأنفسهم وطنا في العالم الجديد. وقد خاطبهم جون روبنسون راعيهم، الذي شاءت عناية الله ألا يرافقهم، قائلا في خطابه الوداعي لأولئك المنفيين:

وعد بإرسال نور الحق

« يا إخوتي إننا موشكون أن نفترق بعد قليل، والرب وحده يعرف ما إذا كنت سأسعد برؤية وجوهكم ثانية أم لا. ولكن سواء أراد الرب ذلك أم لم يرد أوصيكم أمّا الله وملائكته المباركين ألا تسيروا ورأيي إلى أبعد مما سرت أنا وراء المسيح. وإذا أعلن لكم الرب شيئا بوسيلة من وسائله فكونوا مستعدين لقبوله كما كنتم مستعدين لقبول أي حق أخبرتكم به في أثناء خدمتي، لأنني واثق من أن لدى الرب حقا ونورا أكثر سينبثقان من كلمته المقدسة » (٢٦٠).

« أما من ناحيتي فلا أستطيع أن أنوح على الكنائس المصلحة في حالتها الراهنة بالقدر الكافي، إذ أنهم قد وصلوا إلى نقطة في الدين توقفوا عندها ولا يريدون أن يتقدموا إلى أكثر مما لديهم من إرشادات رجال الإصلاح. فاللوثريون لا يريدون أن يتعدوا ما قاله لوثر أو رآه ... والكلفينيون ترونهم يتمسكون بشدة بما قد تركه لهم رجل الله العظيم ذاك الذي لم ير كل شيء. هذه تعاسة تستحق الرثاء لأنه مع أن أولئك الرجال كانوا ملتهمين وأنوارا مشرقة في زمانهم فإنهم لم يستكشفوا كل مشورة الله ولا نفذوا إليها، لكنهم لو عاشوا إلى اليوم لكانوا مستعدين لقبول نور جديد كما كانوا عندما قبلوا

النور أول مرة « (٢٦١).

« اذكروا عهد كنيستكم الذي فيه أجمعتم على أن تسيروا في كل طرق الرب، ما عرفتم منها وما سوف تعرفون. اذكروا وعدكم وعهدكم مع الله وعهد كل منكم مع الآخرين بأن تقبلوا كل النور والحق الذي سيعلن لكم من كلمته المكتوبة. ولكن فوق هذا أَلتمس منكم أن تلتفتوا إلى ما تقبلونه كحق: قارنوه وزنوه بميزان الحقائق الكتابية الأخرى قبلما تقبلونه، لأنه ليس ممكناً أن يشرق نور المعرفة الكامل مرة واحدة على العالم المسيحي الذي خرج من ظلمات كثيفة ضد المسيح منذ عهد قريب » (٢٦٢).

إن شوق أولئك النزلاء إلى التمتع بحرية الضمير هو الذي ألهمهم بأن يصمدوا لمخاطر السفر الطويل في عرض البحر وتحمل المشاق ومخاطر البرية، وبمعونة الله وبركته أن يضعوا على شواطئ أميركا أساس أمة قوية. ومع أن أولئك النزلاء كانوا قوماً أمناء يتقون الله فإنهم لم يكونوا يفهمون بعد المبدأ العظيم، مبدأ الحرية الدينية. إن تلك الحرية التي ضحوا في سبيلها بالكثير لكي يستحذوا بأنفسهم عليها لم يكونوا كلهم على السواء مستعدين لأن يمنحوها للآخرين. « قليلون جداً حتى من بين طليعة أدباء ومفكري القرن السابع عشر كانوا يفهمون ذلك المبدأ الجليل فهما عادلاً، وهو المستوحى من العهد الجديد الذي يعترف بالله على أنه الحكم والديان الوحيد للإيمان البشري » (٢٦٣). إن التعليم القائل بأن الله أعطى الكنيسة حق التسلط على الضمير ووصف الهرطقة وتحديدها ومعاقبتها هو ضلالة من أعظم الضلالات البابوية المتأصلة في النفوس. ومع أن المصلحين رفضوا عقيدة روما لم يتخلصوا تماماً من روح التعصب. والظلمة الكثيفة التي لفت البابوية بها العالم المسيحي مدى أجيال حكمها الطويلة لم تكن إلى ذلك الحين قد انقشعت تماماً. فها أحد كبار الخدام في مستعمرة خليج ماساشوستس يقول: « إن التسامح هو الذي جعل العالم عدواً للمسيح والمسيحية، والكنيسة لم يلحقها أي ضرر من معاقبة الهرطقة » (٢٦٤)! وقد سن المستعمرون قانوناً ينص على أن أعضاء الكنائس هم وحدهم الذين لهم حق التصويت في انتخاب الحكومة المدنية. وقد تكون نوع من كنيسة الدولة، وطلب من كل الشعب أن يساهموا في إعالة رجال الإكليروس، ورُخص للحكام أن يقضوا على الهرطقة، وهكذا صارت السلطة الدنيوية في يدي الكنيسة. ولم يمض زمن طويل حتى أدت تلك الإجراءات إلى النتيجة المحتومة: الاضطهاد.

روجر وليمز

بعد مرور إحدى عشرة سنة على تأسيس المستعمرة الأولى أبحر روجر وليمز إلى العالم الجديد. وهو كغيره من النزلاء الأولين أتى لينعم بالحرية الدينية؛ ولكنه على خلافهم، رأى — ما لم يره غير القليلين من معاصريه — أن هذه الحرية هي حق كل فرد لا ينازعه فيه منازع، مهما تكن عقيدته. لقد كان باحثاً مجداً في طلب الحق، وكان مثل روبنسون يعتقد باستحالة أن يكون كل النور المستقى من كلمة الله قد حصل عليه الناس بعد. كان وليمز « أول شخص في العالم المسيحي الحديث يؤسس حكومة مدنية على أساس عقيدة حرية الضمير وتساوي الآراء أمام القانون » (٢٦٥). وقد أعلن أنه

يجب على الحاكم أن يردع الجريمة، ولكن ينبغي له ألا يتسلط على ضمائر الناس. وقال: « يستطيع الجمهور أو الحكام أن يقرروا ما يجب على الإنسان نحو أخيه الإنسان، ولكن عندما يحاولون أن يأمرُوا إنساناً بالقيام بالواجب نحو الله فإنهم يكونون في غير وضعهم ولا يمكن أن يكون هنالك أمان، لأنه واضح أنه إذا كان للحاكم سلطان فإنه قد يقرر بعض الآراء أو المعتقدات اليوم، ويصدر نوعاً آخر غداً، كما قد فعل كثيرون من ملوك وملكات إنكلترا على اختلاف عقائدهم، وكما فعل كثيرون من الباباوات والمجامع في كنيسة روما، بحيث يصير الاعتقاد كومة كبيرة من الارتباكات » (٢٦٦).

لقد أمر الناس بالحضور إلى الكنيسة المعترف بها، أما المتخلف فتفرض عليه غرامة أو يلقي في السجن. « وقد استنكر وليمز هذا القانون. إن أردنا مواد القانون الإنكليزي هو ذاك الذي يرغم الناس على حضور الكنيسة الأبروشية. لقد اعتبر إرغام الناس على الاشتراك في العبادة مع من يخالفونهم في العقيدة انتهاكاً صريحاً لحقوقهم الطبيعية. ودفع غير المتدينين وغير الراغبين إلى العبادة العامة بدا كأنه تشجيع على النفاق ... وأضاف قائلاً: 'يجب ألا يرغم أحد على العبادة وفروضها بغير رضاه'. وإذا اندهش خصومه من آرائه صاحوا قائلين: 'ما هذا! ألا يستحق الأجير أجرته؟' فأجابهم قائلاً: 'نعم، ولكن ممن استأجروه' » (٢٦٧).

كان روجر وليمز مكرماً ومحبوباً كخادم أمين ورجل ذي مواهب نادرة واستقامة لا تتشنى ومحبة حقيقية لعمل الخير، إلا أن إنكاره الثابت حق الحكام المدنيين في التسلط على الكنيسة ومطالبته بالحرية الدينية يستحيل التسامح فيهما. فقد قالوا إن تطبيق هذا التعليم الجديد « كفيلاً بأن يهدم سلطة الدولة والحكومة في البلاد » (٢٦٨) وقد حُكم عليه بالنفي بعيداً من المستعمرات؛ وأخيراً، لكي ينجو من القبض عليه، أرغم على الهرب في وسط البرد وعواصف الشتاء إلى الغابة المجهولة. وقد قال: « لمدى أربعة عشر أسبوعاً قُذِف بي في ذلك الفصل القارس البرد جداً، ولم أذق طعاماً ولا استرحت في فراش، لكن الغربان كانت تعولني في البرية »، ولجأت إلى شجرة مجوفة لأحتمي فيها من البرد (٢٦٩). وهكذا ظل يواصل فراره المؤلم في وسط الثلوج والغابة غير المطروقة إلى أن وجد لنفسه ملاذاً بين قبيلة من الهنود الذين كسب ثقتهم ومحبتهم عندما كان يحاول أن يعلمهم حقائق الإنجيل.

وبعد شهور قضاه في التنقل والتجوال اتجه أخيراً إلى شواطئ خليج ناراجانسيت حيث وضع أسس أول ولاية في العصور الحديثة كانت، بأكمل معنى، تعترف بحق كل إنسان في الحرية الدينية. وكان المبدأ الأساسي لمستعمرة روجر وليمز هو هذا: « يجب أن تعطى لكل إنسان الحرية في أن يعبد الله حسب نور ضميره » (٢٧٠). وقد صارت مستعمرته الصغيرة التي هي رود آيلاند ملجأً للمضطهدين، وقد كبرت ونجحت إلى أن صارت مبادئها الأساسية — الحرية المدنية والدينية — حجر زاوية الجمهورية الأمريكية.

الوثيقة الجليلة القديمة للحرية

وفي تلك الوثيقة الجليلة القديمة التي سجلها أجداد الأمريكيين بمثابة صك حقوقهم — إعلان

الاستقلال — أعلنوا قائلين: « إننا نثبت على هذه الحقائق بكل وضوح أن جميع الناس قد خلقوا متساوين، وأن الخالق قد منحهم بعض الحقوق لا ينافيهم فيها أحد، وبين هذه الحقوق الحياة والحرية والسعي في أثر السعادة ». والدستور يكفل بأعظم التعبيرات القاطعة الصريحة حرمة الضمير. « لا يوضع شرط ديني ولا يطلب من أحد ذلك ليكون مؤهلاً يخول له الحصول على وظيفة ذات أمانة عامة في الولايات المتحدة »، « والكونغرس لن يسن قانوناً خاصاً بمؤسسة للدين ولا ينهي عن ممارسة الدين بكل حرية ».

حقوق الضمير

« إن واضعي الدستور اعترفوا بالمبدأ الأبدي وهو أن علاقة الإنسان بإلهه تسمو فوق كل تشريع بشري، وإن حقوق ضميره لا ينافيها فيها أحد، بل هي وقف عليه. ولم تكن هنالك حاجة إلى الحاجة لإثبات هذا الحق، فنحن نحس به في أعماقنا. إن هذا هو الإحساس الذي في تحديه للشرائع البشرية قد أعان كثيرين من الشهداء وأسندهم وهم يقاسون العذابات وتلتهم النار أجسامهم. لقد أحسوا بأن واجبهم نحو الله أسمى من كل تشريع بشري، وأن الناس ينبغي ألا يستخدموا سلطة ما لإرغام ضمائرهم. إنه مبدأ غريزي في النفس لا يمكن أن يقتله شيء » (٢٧١).

وعندما انتشرت الأخبار الطيبة في كل ممالك أوروبا عن وجود أرض يمكن لكل إنسان فيها أن يتمتع بثمار تعبهِ ويطيع اقتناعات ضميره تقاطر ألوف من الناس قاصدين شواطئ العالم الجديد. وزادت وتضاعفت المستعمرات بسرعة. « إن ماساشوستس، بموجب قانون خاص، رحبت ترحيباً كاملاً وعلى النفقة العامة بالمسيحيين من كل دولة الذين يمكنهم أن يطيروا عبر الأطلنطي » هروباً من الحروب أو المجاعات أو اضطهاد مضطهديهم ». وهكذا فإن الهاريين والمدوسين بالأقدام صاروا، بموجب القانون، ضيوفاً على الجمهورية » (٢٧٢). وفي خلال عشرين سنة منذ وطئ الناس أرض بليموث أول مرة استقر ألوف الحجاج في نيوانكلند.

ولكي يضمنوا بلوغ الغرض الذي طلبوه « قنعوا بربح معاش قليل بالركون إلى حياة الاقتصاد والكد. ولم يطلبوا من الأرض شيئاً غير التعويض المعقول عن كدهم وتعبهم. ولم يروا رؤياً ذهبية تلقي هالة خادعة على طريقهم... بل قنعوا بالتقدم البطيء الثابت لنظامهم الاجتماعي. وبكل صبر تحملوا عوز البرية وهم يروون شجرة الحرية بدموعهم وعرق جباههم حتى تأصلت في البلاد ».

ولقد اعتبر الكتاب المقدس أساس الإيمان والعقيدة ونبع الحكمة وميثاق الحرية. وكانت مبادئه تعلم في البيت والمدرسة والكنيسة بكل اجتهاد، وظهرت ثماره في حسن التدبير والذكاء والطهارة والاعتدال. وربما كان الواحد يسكن في مستعمرة بيوريتانية عدة سنين « من دون أن يرى سكيراً أو يسمع إنساناً يحلف أو يلاقي متسولاً » (٢٧٣). وقد تبرهن أن مبادئ الكتاب المقدس هي أضمن حارس لضمان العظمة القومية. ونمت المستعمرات الضعيفة المنعزلة فصارت اتحاداً لولايات قوية، ولاحظ العالم بدهشة سلام « كنيسة لا يحكمها بابا، ودولة لا يحكمها ملك » ونجاحهما.

لكن سبلاً متدفقا غير منقطع من الناس اجتذبوا إلى شواطئ أمريكا مدفوعين بدوافع تختلف عن

تلك التي كانت للنزلاء الأولين. فمع أن الإيمان البدائي الفطري والطهارة بذلا مجهودا واسع النطاق وقوة لصوغ الناس فإن ذلك التأثير جعل يتضاءل شيئا فشيئا بنسبة كثرة الوافدين طلبا للمنفعة المادية.

إن اللائحة التي وضعها المستعمرون الأولون والتي بموجبها كان يسمح لأعضاء الكنائس وحدهم أن يصوتوا أو يحصلوا على مناصب في الحكومة المدنية أدت إلى نتائج وخيمة وبيلة. لقد قبل هذا الإجراء بمثابة وسيلة من وسائل طهارة الدولة، ولكن كان من نتائجه تفشي الفساد في الكنيسة. فكون الاعتراف بالديانة شرط التصويت والتوظيف جعل كثيرين ممن تدفعهم البواعث والسياسة الدنيوية وحدها ينضمون إلى الكنيسة من دون أن تتغير قلوبهم. وهكذا تكونت الكنائس إلى حد كبير من أشخاص غير متجددين. وحتى في دائرة الخدمة وُجد بعض ممن كانوا يجهلون قوة الروح القدس المجدة، فضلا عن الأخطاء التي كانوا يتمسكون بها في العقيدة. وهكذا ظهرت أيضا النتائج الشريرة التي كانت تشاهد في تاريخ الكنيسة منذ أيام قسطنطين إلى يومنا هذا، وهي محاولة بناء الكنيسة بمساعدة الدولة، والالتجاء إلى السلطة الزمنية لمعاوضة إنجيل ذاك الذي قد أعلن قائلا: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ» (يوحنا ١٨: ٣٦). إن اندماج الكنيسة في الدولة ولو بقدر طفيف جدا، مع أنه يبدو وكأنه يقرب العالم من الكنيسة فإنه في الحقيقة يقرب الكنيسة من العالم.

إن المبدأ الذي دافع عنه روبرتسون وروجر وليمز بكل شجاعة والقائل بأن الحق متدرج وبأن المسيحيين ينبغي لهم أن يكونوا مستعدين لقبول النور الذي يشرق عليهم من كلمة الله المقدسة، هذا المبدأ العظيم غاب عن عقول نسلهما. فالكنائس البروتستانتية في أمريكا — وكنائس أوروبا أيضا — التي نالت حظوة التمتع العظيمة ببركات الإصلاح أخفقت في التقدم إلى الأمام في طريق الإصلاح. ومع أن جماعة قليلة من الأمناء قاموا بين وقت وآخر ليعلنوا الحق الجديد ويكشفوا عن الأخطاء التي اعتنقها الناس طويلا، فإن السواد الأعظم من الناس، كاليهود في أيام المسيح والبابويين في عهد لوثر، اكتفوا بالإيمان بما قد آمن به آبائهم والعيشة كما عاشوا. ولذلك عادت الديانة فانحطت حتى صارت مجموعة من الرسميات والطقوس. والضلالات والخرافات التي كان يمكن طرحها جانبا لو ظلت الكنيسة سائرة في نور كلمة الله أبقي عليها واعتنقها الناس. وهكذا خمدت تدريجا الروح التي ألهمها الإصلاح للناس، إلى حد أن كانت هنالك حاجة ماسة إلى إجراء إصلاح في الكنيسة البروتستانتية كما في الكنيسة الكاثوليكية في أيام لوثر. فقد كانت هنالك محبة العالم والخمول والركود الروحي وتوقير آراء الناس والاستعاضة عن تعاليم كلمة الله بنظريات البشر.

إن انتشار الكتاب المقدس الواسع النطاق في أوائل القرن التاسع عشر، والنور العظيم الذي أشرق منه على العالم، لم يتبعهما تقدم مماثل في معرفة الحق المعلن أو تدين اختباري صحيح. فالشيطان لم يستطع حينئذ أن يباعد بين الكلمة الإلهية وشعب الله كما في العصور السالفة، إذ كانت في متناول أيدي الجميع، لكنه لكي يتم أغراضه جعل كثيرين يبخسون كلمة الله حقها ويستخفون بها. وقد أهمل الناس تفتيش الكتب، وهكذا ظلوا يقبلون تفسيرات كاذبة ويعتقدون عقائد لا أساس لها في الكتاب.

وإذ تحقق الشيطان من فشل محاولاته في سحق الحق والقضاء عليه بواسطة الاضطهاد لجأ إلى حيلة التواطؤ التي آلت إلى الارتداد العظيم وتشكيل كنيسة روما. وقد أغوى المسيحيين على أن يتحالفوا لا مع الوثنيين الآن بل مع الذين لشدة تعلقهم بأمور هذا العالم برهنوا على أنهم وثنيون كما كان عابدو التماثيل المنحوتة. ولم تكن نتائج تلك الأحلاف أقل خطراً مما كانت في العصور القديمة. وقد ترعرعت الكبرياء والإسراف تحت ستار الدين ففسدت الكنائس. وظل الشيطان يفسد ويحرّف تعاليم الكتاب. والتقاليد التي كانت ستدمر حياة الملايين رسّخت أصولها. وقد كانت الكنيسة تسند هذه التقاليد وتدافع عنها بدلا من أن تجاهد وتدافع عن « الإيمان المسلّم مرة للقديسين ». وهكذا انحطت المبادئ التي في سبيلها عمل المصلحون وتألّموا كثيرا.

١٧ - البشرون بقدوم الصباح

من أروع الحقائق المعلنة في الكتاب المقدس وأمجدها نفسه حقيقة المجيء الثاني للمسيح ليكمل عمل الفداء العظيم. فشعب الله المتغرب المتروك طويلا ليتغرب في « أرض ظلال الموت » يُعطى رجاءً مفرحاً في الوعد بمجيء ذاك الذي هو « القيامة والحياة »، « ليرد منفيّه ». إن تعليم المجيء الثاني هو محور الكتاب المقدس. فمنذ أن خرج أبوانا الأولان من عدن حزينين ظل أبناء الإيمان ينتظرون مجيء ذاك الموعود به ليحطم سلطان المهلك ويعيدهم إلى الفردوس المفقود. وقد كان رجال الله القديسون قديماً يتشوقون إلى مجيء مسيا في مجده كمنتهى رجائهم. إن أخنوخ الذي كان السابع من آدم والذي لمدة ثلاثة قرون سار مع الله أعطي له وعد بأن يرى من بعيد مجيء المخلص. فأعلن قائلاً: « هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رِبَوَاتٍ قَدِيسِيهِ، لِيَصْنَعَ دَيْئُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ » (يهوذا ١٤، ١٥). وأيوب الشيخ الوقور صاح من وسط بلواه بثقة عظيمة قائلاً: « أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيَّ حَيٍّ، وَالْآخِرَ عَلَى الْأَرْضِ يَقُومُ... » (أيوب ١٩: ٢٥) « ومن جسدي أعين الله الذي أنا أعانيه بنفسي وعيناي تريانه لا غيري » (أيوب ١٩: ٢٦، ٢٧ - ترجمة سنة ١٨٧٨).

إن مجيء المسيح، ليحقق مُلك البر، ألهم الكتاب القديسين بأسمى الأقوال الحماسية. لقد تكلم شعراء الكتاب وأنبياءه طويلاً عن هذا الأمر بكلام يتوهج بالنار السماوية. ولقد تغنى صاحب المزامير بعظمة ملك إسرائيل وقدرته وجلاله، فقال: « مِنْ صِهْيُونَ، كَمَالِ الْجَمَالِ، اللَّهُ أَشْرَقَ. يَأْتِي إِلَهُنَا وَلَا يَصْمُتُ. نَارٌ قُدَّامَهُ تَأْكُلُ، وَحَوْلَهُ عَاصِفٌ جَدًّا. يَدْعُو السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقِ، وَالْأَرْضَ إِلَى مَدَائِنَةِ شَعْبِهِ » (مزمور ٥٠: ٢-٤). « لَتَفْرَحِ السَّمَاوَاتُ وَلَتَبْتَهِجِ الْأَرْضُ... أَمَامَ الرَّبِّ، لِأَنَّهُ جَاءَ. جَاءَ لِيَدِينِ الْأَرْضَ. يَدِينُ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ وَالشُّعُوبَ بِأَمَانَتِهِ » (مزمور ٩٦: ١١-١٣).

وقال النبي إشعياء: « تَحْيَا أَمْوَاتُكَ، تَقُومُ الْجَنَّةُ. اسْتَيْقِظُوا، تَرَنَّمُوا يَا سُكَّانَ التُّرَابِ. لِأَنَّ طَلَّكَ طَلَّ أَغْشَابٍ، وَالْأَرْضُ تُسْقِطُ الْأَخِيلَةَ ». « يَبْلُغُ الْمَوْتُ إِلَى الْأَبَدِ، وَيَمْسَحُ السَّيِّدُ الرَّبُّ الدَّمُوعَ عَنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَيَنْزِعُ عَارَ شَعْبِهِ عَنْ كُلِّ الْأَرْضِ، لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ تَكَلَّمَ. وَيُقَالُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: 'هُوَذَا هَذَا إِلَهُنَا. انْتَظَرْنَاهُ فَخَلَّصَنَا. هَذَا هُوَ الرَّبُّ انْتَظَرْنَاهُ. بَتَّهَجُ وَنَفْرَحُ بِخَلَاصِهِ' » (إشعياء ٢٦: ١٩، ٢٥؛ ٨، ٩).

وحبقوق وهو ذاهل من جلال الرؤيا المقدسة أبصر السيد في مجيئه فقال: « اللَّهُ جَاءَ مِنْ تَيْمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ... جَلَالُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضُ امْتَلَأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. وَكَانَ لَمَعَانُ كَالنُّورِ ». « وَقَفَ وَقَاسَ الْأَرْضَ. نَظَرَ فَرَجَفَ الْأُمَمُ وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ أَكَامُ الْقَدَمِ. مَسَالِكُ الْأَزَلِ لَهُ ». « رَكِبْتَ خَيْلَكَ، مَرَكَبَاتِكَ مَرَكَبَاتِ الْخَلَاصِ » « أَبْصَرْتُكَ فَقَرَعْتَ الْجِبَالَ... أَعْطَتِ اللُّجَّةُ صَوْتَهَا. رَفَعَتْ يَدَيْهَا إِلَى الْعَلَاءِ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَقَفَا فِي بُرُوجِهِمَا لِنُورِ سَهَامِكَ الطَّائِرَةِ، لِلْمَعَانَ بَرَقَ مَجْدُكَ ». « خَرَجْتَ لَخَلَاصِ شَعْبِكَ، لَخَلَاصِ مَسِيحِكَ » (حبقوق ٣: ٣، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١١، ١٣).

وعندما كان المخلص موشكاً أن يرحل عن تلاميذه عزَّاهم في حزنهم بيقين مجيئه الثاني، قائلاً لهم: « لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ... فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ... أَنَا أَمْضِي لِأَعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا، وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعَدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا أَتِي أَيْضًا وَأَخْذُكُمْ إِلَيَّ » (يوحنا ١٤: ١-٣). « مَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ الْقَدِيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ » (متى

ثم إن الملاكين اللذين بقيا على جبل الزيتون بعد صعود المسيح ردا على مسامح التلاميذ الوعد بمجيئه قائلين: « إِنَّ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ » (أعمال ١ : ١١). وإذ كان بولس الرسول يتكلم بروح الإلهام شهد قائلا: « لَأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ بِهِتَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلَائِكَةٍ وَبُوقِ اللَّهِ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ » (١ تسالونيكي ٤ : ١٦). وها هو نبي بطمس يقول: « هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ، وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ » (رؤيا ١ : ٧)

وحول مجيئه تتجمع أمجاد « رَدُّ كُلِّ شَيْءٍ، الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللَّهُ بِقَمِّ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقَدِيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ » (أعمال ٣ : ٢١). حينئذ سيتلاشى حكم الشر الطويل الأمد، وتصير « مَمَالِكُ الْعَالَمِ لِرَبَّنَا وَمَسِيحِهِ، فَسَيَمْلِكُ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ » (رؤيا ١١ : ١٥): « فَيُعْلَنُ مَجْدُ الرَّبِّ وَيَرَاهُ كُلُّ بَشَرٍ ». « أَلَسَيِّدُ الرَّبِّ يُنْبِتُ بَرًّا وَتَسْبِيحًا أَمَامَ كُلِّ الْأُمَمِ ». « يَكُونُ رَبُّ الْجُنُودِ إِكْلِيلَ جَمَالٍ وَنَاجٍ بَهَاءٍ لِبَقِيَّةِ شَعْبِهِ » (إشعياء ٤٠ : ٥ ؛ ٦١ : ١١ ؛ ٤٨ : ٥).

حينئذ فإن مملكة المسيح التي ظل الشعب يتوق إليها طويلا والتي هي مملكة السلام ستثبت تحت كل السماء. « فَإِنَّ الرَّبَّ قَدْ عَزَّى صِهْيُونَ. عَزَّى كُلَّ خَرَبِهَا، وَيَجْعَلُ بَرِّيَّتَهَا كَعَدْنٍ، وَبَادِيَّتَهَا كَجَنَّةِ الرَّبِّ ». « يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ. بَهَاءُ كَرْمَلٍ وَشَارُونِ ». « لَا يُقَالُ بَعْدُ لَكَ: 'مَهْجُورَةٌ'، وَلَا يُقَالُ بَعْدُ لَأَرْضِكَ: 'مُوحَشَةٌ'، بَلْ تُدْعَى: 'حَفْصِيَّةٌ'، وَأَرْضُكَ تُدْعَى: 'بَعُولَةٌ' » « وَكَفَّرَحَ الْعَرِيسُ بِالْعُرُوسِ يَفْرَحُ بِكَ إِلَهُكَ » (إشعياء ٥١ : ٣ ؛ ٣٥ : ٢ ؛ ٦٢ : ٤ ؛ ٥).

لَقَدْ كَانَ مَجِيءُ الرَّبِّ رَجَاءَ أَتْبَاعِهِ الْأَمْنَاءِ فِي كُلِّ عَصْرِ. وَوَعْدُ الْمَخْلَصِ الْوِدَاعِي الَّذِي أَعْطَاهُ عَلَى جَبَلِ الزَيْتُونِ أَنَّهُ سَيَأْتِي ثَانِيَةً أَمَامَ الْمُسْتَقْبَلِ أَمَامَ تَلَامِيذِهِ مَالئًا قُلُوبَهُمْ فَرَحًا وَرَجَاءً لَمْ يَكُنْ لِلْحُزْنِ أَنْ يَطْفَنَهُ وَلَا لِلتَّجَارِبِ أَنْ تَظْلِمَهُ. فِي وَسْطِ الْأَلَمِ وَالْاضْطِهَادِ كَانَ « ظُهُورُ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَمَخْلَصُنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ » هُوَ « الرَّجَاءُ الْمُبَارَكُ ». إِنْ مَسِيحِي تَسَالُونِيكِي إِذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ مَفْعَمَةً حُزْنَا وَهُمْ يَدْفَنُونَ أَحِبَّاءَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْجُونَ أَنْ يَعِيشُوا حَتَّى يَرَوْا مَجِيءَ الرَّبِّ وَجْهَ مُعَلِّمِهِمْ بُولَسَ أَفْكَارَهُمْ إِلَى أَنْ الْقِيَامَةُ سَتَحْدُثُ عِنْدَ مَجِيءِ الْمَخْلَصِ. وَحِينَئِذٍ سَيَقُومُ الْأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ، وَيَخْطَفُونَ مَعَ الْأَحْيَاءِ لِمَلَاقَةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ. قَالَ بُولَسُ: « وَهَكَذَا نَكُونُ كُلُّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ. لِذَلِكَ عَزَّوَا بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهَذَا الْكَلَامِ » (١ تسالونيكي ٤ : ١٧-١٨).

وَإِذْ كَانَ التَّلْمِيزُ الْحَبِيبُ فِي جَزِيرَةِ بَطْمَسِ الصَّخْرِيَّةِ سَمِعَ هَذَا الْوَعْدَ: « نَعَمْ! أَنَا آتِي سَرِيعًا »، فَجَاءَ جَوَابُهُ الْمَشْتَقُّ مُجَاهِرًا بِطَلْبَةِ الْكَنِيسَةِ فِي كُلِّ غَرِبَتِهَا قَائِلًا: « آمِينَ. تَعَالَى إِلَهُهَا الرَّبُّ يَسُوعُ » (رؤيا ٢٢ : ٢٠).

فَمِنْ أَعْمَاقِ ظُلُمَاتِ السَّجُونِ، وَمِنْ فَوْقِ الْمَنْصَّاتِ الَّتِي أَعَدَتْ لِحَرْقِ الضَّحَايَا، وَالْمَشَانِقِ الَّتِي مِنْ فَوْقِهَا شَهِدَ الشَّهَدَاءُ وَالْقَدِيسُونَ لِلْحَقِّ يَجِيءُ نَطَقُ إِيْمَانِهِمْ وَرَجَائِهِمْ عَبْرَ أَجْيَالِ التَّارِيخِ. فَإِذَا كَانُوا « مُتَحَقِّقِينَ مِنْ قِيَامَةِ السَّيِّدِ، وَمُتَحَقِّقِينَ تَبْعًا لِذَلِكَ مِنْ قِيَامَتِهِمْ عِنْدَ مَجِيئِهِ » — كَمَا يَقُولُ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْمَسِيحِيِّينَ — « أَزْدَرَوْا بِالْمَوْتِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَالِينَ عَلَيْهِ » (٢٧٤). كَانُوا رَاغِبِينَ فِي النُّزُولِ إِلَى الْقَبْرِ لِكَيْ « يَقُومُوا أَحْرَارًا » (٢٧٥). كَانُوا يَنْتَظِرُونَ « أَنْ يَأْتِيَ الرَّبُّ مِنَ السَّمَاءِ فِي السَّحَابِ بِمَجْدِ أَبِيهِ »

ليأتي للأبرار بأزمة الملكوت». وكان الولدنسيون يعتقدون هذا الإيمان نفسه (٢٧٦). وكان ويكلف يتطلع إلى الأمام إلى ظهور الفادي كأنه رجاء الكنيسة (٢٧٧).

وقد أعلن لوثر قائلا: «إني مقتنع بكل يقين أن يوم الدينونة لن يتأخر بعد اليوم ثلاث مئة سنة كاملة. فإله لا يقدر ولن يستطيع الصبر على هذا العالم الشرير أكثر من هذا». «إن اليوم العظيم يقترب وفيه ستخرب مملكة الأرجاس» (٢٧٨).

وقد قال ميلانكتون: «إن هذا العالم الهرم ليس بعيدا من نهايته». وكلفن يأمر المسيحيين «ألا يترددوا بل أن يشتاخوا بكل حرارة إلى مجيء المسيح كأُسعد حدث». وهو يعلن «أن كل أسرة الأمناء يجعلون ذلك اليوم نصب عيونهم دائما». ويقول: «ينبغي لنا أن نجوع إلى المسيح ونطلب وتتأمل حتى يبرز فجر ذلك اليوم العظيم عندما يعلن الرب مجد ملكوته كاملاً» (٢٧٩).

وقد قال نوكس المصلح الاسكوتلاندي: «ألم يحمل ربنا يسوع جسدنا إلى السماء؟ وهل هو لن يعود؟ نحن نعلم أنه سيعود وسيعود سريعا». وكان ردلي ولايتمر، اللذان بذلا حياتهما لأجل الحق، ينتظران مجيء الرب بإيمان. وقد كتب ردلي يقول: «إن العالم من دون شك — وهذا ما أعتقد يقينا ولذلك أصرح به — يقترب من النهاية. لذلك يجب أن نشترك مع يوحنا خادم الله فنصرخ بملء قلوبنا إلى مخلصنا المسيح قائلين: «تعال أيها الرب يسوع» (٢٨٠).

وقد قال باكستر: «إن الأفكار الخاصة بمجيء الرب محبة ومفرحة لي» (٢٨١). «إن كوننا نحب ظهوره ومنتظر ذلك الرجاء المبارك هو عمل الإيمان وصفة قديشي العلي». «إذا كان الموت هو آخر عدو يبطل عند القيامة فيمكننا أن نتعلم بأية غير حرارة ينبغي للمؤمنين أن يشتاخوا إلى مجيء المسيح ثانية ويصلوا حتى تتم هذه الغلبة الكاملة والأخيرة» (٢٨٢). «هذا هو اليوم الذي ينبغي لكل المؤمنين أن يشتاخوا إليه ويرجوه وينتظروه كإتمام لكل عملية فدائهم ولكل رغائب نفوسهم ومساعدتها». «أسرع يا رب وعجل هذا اليوم المبارك السعيد» (٢٨٣). هذا كله رجاء الكنيسة الرسولية و «الكنيسة في البرية»، ورجاء المصلحين.

إن النبوات فضلا عن كونها قد سبقت فأنبأت عن كيفية مجيء المسيح وغايته فإنها قد أوردت العلامات التي بموجبها يعرف الناس قرب مجيئه. قال يسوع: «وَلَتَكُنْ عَلَامَاتٌ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ» (لوقا ٢١: ٢٥). «الشَّمْسُ تُظْلَمُ، وَالْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَنُجُومُ السَّمَاءِ تَتَسَاقَطُ، وَالْقُوَّاتُ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ تَتَزَعَزَعُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ» (مرقس ١٣: ٢٤-٢٦). وهكذا يصف الرائي أول العلامات التي تسبق المجيء الثاني فيقول: «وَإِذَا زَلَزَلَتْ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، وَالشَّمْسُ صَارَتْ سَوْدَاءَ كَمِسْحٍ مِنْ شَعْرِ، وَالْقَمَرُ صَارَ كَالدَّمِ» (رؤيا ٦: ١٢).

كارثة لشبونة

وقد رؤيت هذه العلامات قبل بدء القرن التاسع عشر. وإتماما لهذه النبوة حدثت في سنة ١٧٥٥ أُرهب زلزلة سُجلت. ومع أن المشهور عنها أنها زلزلة لشبونة فقد امتدت إلى أبعد أنحاء أوروبا وأفريقيا وأمريكا. فقد أحس بها الناس في كرين لاند وجزر الهند الغربية وجزيرة ماديرا والنرويج

والسويد وبريطانيا العظمى وإيرلندا، ضمن مساحة لا تقل عن أربعة ملايين ميل مربع. وقد كانت شدة الهزة في أفريقيا كما كانت في أوروبا تقريبا، وقد خرب قسم كبير من بلاد الجزائر، وعلى مسافة قريبة من مراكش ابتُلعت قرية عدد سكانها ٨ أو ١٠ آلاف نسمة في جوف الأرض. وقد اكتسحت موجة هائلة شاطئ إسبانيا وأفريقيا فابتُلعت مدنا وأحدثت تخريبا عظيما.

كانت الهزة على أشد عنفها في إسبانيا والبرتغال. ففي قانس قيل ان ارتفاع الموجة بلغ ستين قدما. « وأعظم الجبال في البرتغال اهتزت بقوة هائلة كأنما من أساسها، وبعض منها حدثت في قممها شقوق فتمزقت بطريقة عجيبة وقُذفت كتل هائلة من صخورها إلى الأودية المجاورة، وقيل أن لهب نار خرجت من تلك الجبال » (٢٨٤).

وفي لشبونة « سُمع صوت رعد من تحت الأرض، وبعد ذلك حالا أسقطت هزة عنيفة الجانب الأكبر من المدينة. وفي مدى ست دقائق هلك ستون ألفا من السكان. في البدء تراجع البحر وجفت مياه الميناء وبعد ذلك ارتدت المياه وكان ارتفاعها يبلغ خمسين قدما أو أكثر فوق السطح العادي ». « وبين الأشياء غير العادية التي حدثت في لشبونة والتي قيل أنها وقعت في أثناء تلك الكارثة هبوط رصيف جديد مبني كله من الرخام بلغت تكاليفه مبلغا كبيرا. وكان قد تجمع جمهور كبير من الناس على ذلك الرصيف طلبا للنجاة لظنهم أنهم سيكونون بعيدين من الانقراض المتساقطة. ولكن فجأة غاص الرصيف بكل من كانوا واقفين عليه ولم تطف على سطح الماء جثة واحدة من تلك الجثث » (٢٨٥).

« كان من نتائج الزلزلة سقوط كل الكنائس والأديرة ومعظم الأبنية العامة وأكثر من ربع البيوت. وفي خلال ساعتين بعد تلك الهزة اشتعلت النيران في أحياء مختلفة، وظلت في عنفها تلتهم ما أمامها لمدة ثلاثة أيام حتى خربت المدينة تماما. وقد حدثت الزلزلة في يوم مقدس عندما كانت الكنائس والأديرة مزدحمة بالناس الذين لم ينجو منهم غير القليل جدا (٢٨٦). أما الرعب الذي شمل الناس فكان بعيداً عن الوصف. لم يبكي أحد، فلم يكن مجال لسكب الدموع. بل جعل الناس يجرون إلى هنا وهناك وهم يهزون من هول الرعب والدهشة، وكانوا يلطمون وجوههم ويقرعون صدورهم وهم يقولون 'لقد انتهى العالم!' ونسيت الأمهات أولادهن وكن يركضن حاملات تماثيل الصلبان. ولسوء الحظ ركض كثيرات منهن إلى الكنائس ليحتمين فيها، ولكن عبثا عُرِض سر القربان المقدس، وعبثا احتضن الناس المساكين المذابح. لقد دُفنت التماثيل والكهنة والشعب في ذلك الدمار الواحد الشامل ». وقُدِّر أن عدد النفوس التي هلكت في ذلك اليوم المخيف بلغ تسعين ألف.

ظلام الشمس والقمر

وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة ظهرت العلامة التالية المذكورة في النبوة، أي ظلام الشمس والقمر. والذي زاد من الدهشة عند ظهور هذه العلامة هو حقيقة كون وقت إتمامها كان قد أُشير إليه بكل وضوح وأنبيء به. ففي حديث المسيح مع تلاميذه على جبل الزيتون، إذ وصف لهم المحنة الطويلة التي ستمر بها الكنيسة — أي مدة ١٢٦٠ سنة من الاضطهاد البابوي، والتي قال فيها السيد أن

مدة الضيق ستقصر — ذكر بعض العلامات الخاصة التي ستسبق مجيئه، وحدد الزمن الذي ستحدث فيه أولى تلك الحوادث فقال: « وَأَمَّا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ بَعْدَ ذَلِكَ الضِّيقِ، فَالْشَّمْسُ تُظْلَمُ، وَالْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْؤَهُ » (مرقس ١٣: ٢٤). إن الـ ١٢٦٠ يوما أو سنة انتهت في عام ١٧٩٨. وقبل ذلك بربع قرن كان الاضطهاد قد أوشك على الانتهاء. وبحسب كلام المسيح كان سيعقب هذا الاضطهاد ظلام الشمس. ففي التاسع عشر من أيار (مايو) عام ١٧٨٠ تمت هذه النبوة.

إن يوم الظلام الذي وقع في ١٩ أيار (مايو) عام ١٧٨٠ يكاد يكون يوما فريدا إن لم يكن هو اليوم الأُوحد إطلاقا كأعظم يوم غامض في الظاهرة التي لم يجد الناس لها تفسيراً بعد ... فلقد شملت كل السماوات المنظورة والجو في نيوانكلند ظلمة لم يُعرف مصدرها ولا أمكن التعليل عنها « (٢٨٧). ويصف شاهد عيان ممن كانوا يعيشون في ماساشوستس ذلك الحادث بقوله:

« في الصباح أشرقت الشمس صافية ولكن سرعان ما شملها الظلام. صارت السحب منخفضة وهي إذ كانت سوداء ومنذرة بالخطر كما بدا عليها حالا لمعت منها البروق ودمدمت الرعود وانهمر مطر قليل. وحوالي الساعة التاسعة صارت السحب أقل كثافة، وصار منظرها كالنحاس الأصفر أو الأحمر، فتغيرت مناظر الأرض والصخور والأشجار والمباني والماء والناس بفعل ذلك النور الغريب الذي ليس من الأرض. وبعد دقائق قليلة انتشرت سحابة سوداء في الجو كله باستثناء حيز صغير جدا في الأفق. وكانت الدنيا ظلاما كما تكون عادة في الساعة التاسعة من احدى ليالي الصيف... »

« وبالتدريج امتلأت عقول الناس بالخوف والجزع والرهبة. وقد وقفت النساء أمام أبوابهن ينظرن إلى ذلك المنظر المظلم، وعاد الرجال من عملهم في الحقول، والنجار ترك أدوات نجارته، والحداد ترك كوره، والتاجر ترك متجره. وقد صُرف التلاميذ من مدارسهم ليعودوا إلى بيوتهم فعادوا مرتعبين، والمسافرون لجأوا إلى أقرب مزرعة. وتردد هذا السؤال على كل لسان وفي كل قلب: 'ما الذي سيحدث؟' وقد بدا كأن إعصارا موشك أن يهب على البلاد، أو كأن هذا اليوم هو يوم نهاية كل شيء.

« وقد أضيئت الشموع وأوقدت نيران المواقد التي أرسلت نورها كما في ليلة من ليالي الخريف لا قمر فيها ... وعادت الدواجن إلى صغارها لتجوع وتنام، والمواشي تجمعت في مراعيها وجعلت تخور، والضفادع جعلت تنقنق، والطيور بدأت تنشد أغنيات المساء، وجعلت الخفافيش تطير هنا وهناك. أما بنو الإنسان فكانوا يعلمون أن الليل لم يأت بعد ... »

« أقام الدكتور ثنائيل هويتكر، راعي كنيسة التابرناكل في ساليم، خدمات دينية في بيت الصلاة وألقى عظة فيها أعلن أن الظلمة فائقة الطبيعة. وأقيمت اجتماعات أخرى في أماكن متعددة. وكانت الآيات التي بنيت عليها العظات المرتجلة قد أجمعت كلها على أن تلك الظلمة كانت متفقة مع النبوات الكتابية ... وقد زادت شدة الظلمة حالا بعد الساعة الحادية عشرة « (٢٨٨). » وفي معظم أنحاء البلاد كان الظلام كثيفا بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يتبين الوقت لا من الساعات الصغيرة ولا من ساعات الحائط، ولا أن يتناول غداءه أو يدير شؤون بيته من دون استخدام أنوار الشموع ... »

« كان ذلك الظلام واسع النطاق. وقد لوحظ أنه امتد حتى إلى فالموث شرقا. أما في الغرب فقد

وصل إلى أبعد أطراف كنتكتوت وإلى ألباني. وفي الجنوب رؤي على شواطئ البحر. وفي الشمال امتد إلى أقصى حدود أماكن الاستيطان الأمريكية « (٢٨٩).

شهادة التاريخ

وقبل الغروب بساعة أو ساعتين حل مكانَ الظلام الكثيف نورُ النهار الصافي جزئياً، فظهرت الشمس وإن تكن لا تزال مكتنفة بضباب أسود ثقيل. « وبعد الغروب تجمعت السحب ثانية فوق الرؤوس. وسرعان ما زاد ظلامها ». « وكذلك لم يكن ظلام الليل عادياً ولا أقل رعباً من ظلمة النهار، فمع أن القمر كان تقريباً بدراً فلم يكن من يستطيع أن يميز الأشياء من دون الاستعانة بالأنوار الصناعية التي عندما كانت تشاهد من البيوت المجاورة أو الأماكن البعيدة كانت ترى مكتنفة بظلمة كظلمة مصر التي كان يمكن لأشعة النور أن تخترقها بالجهد » (٢٩٠). وقد قال شاهد عيان لهذا المنظر في ذلك الحين: « لقد أمكنني أن أفهم وقتئذ أنه لو أن كل الأجرام السماوية المضيئة في كل المسكونة لُفّت في ظلمات لا ينفذ إليها النور، أو لو محيت من الوجود لما كان الظلام حينئذ أشد من هذا الذي رأيته » (٢٩١). ومع أن القمر كان قد توسط السماء في التاسعة مساء فأرسل أنواره فإنه « لم يكن له أقل أثر في طرد الظلمات الشبيهة بظلمات الموت ». وبعد منتصف الليل انقشعت الظلمة، وعندما ظهر القمر لأول مرة كان يشبه الدم في لونه.

يسمى يوم ١٩ أيار (مايو) من عام ١٧٨٠ « اليوم المظلم » في التاريخ. فمنذ عهد موسى لم يسجل التاريخ فترة مظلمة في مثل حلوكَة هذا اليوم أو اتساعه أو مدته. إن وصف هذا الحادث كما قدمه شهود العيان إنما هو صدى لكلام الرب الذي سجله يوشع النبي قبل إتمامه بألفين وخمسة مئة سنة، إذ قال: « تَحَوَّلَ الشَّمْسُ إِلَى ظُلْمَةٍ، وَالْقَمَرُ إِلَى دَمٍ قَبْلَ أَنْ يَجِيءَ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الْمَخُوفُ » (يوشع ٢: ٣١).

علامات أخرى للمجيء

لقد أمر المسيح شعبه أن يراقبوا علامات مجيئه ويفرحوا حين يرون علامات مليكهم الآتي. فقال: « وَمَتَى ابْتَدَأَتْ هَذِهِ تَكُونُ، فَإِنْ تَصَبُّوا وَارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ لِأَنَّ نَجَاتَكُمْ تَقْتَرِبُ ». ثم وجه أنظار تابعيه إلى ظهور براعم الأشجار في الربيع فقال:

« مَتَى أَفْرَحَتْ تَنْظُرُونَ وَتَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنَّ الصَّيْفَ قَدْ قَرَّبَ. هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً، مَتَى رَأَيْتُمْ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ صَائِرَةً، فَاعْلَمُوا أَنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ قَرِيبٌ » (لوقا ٢١: ٢٨، ٣٠، ٣١).

ولكن إذ احتلت الكبرياء والتمسك بالطقوس مكان روح الوداعة والورع في الكنيسة فترت المحبة للمسيح والإيمان بمجيئه. وإذ انغمس أولئك المعترفون بولائهم لله في الأمور الدنيوية وصاروا يركضون في أثر المسرات العالمية عميت أذهانهم عن تعليمات المخلص الخاص بعلامات ظهوره. لقد أهمل تعليم المجيء الثاني، والأقوال الإلهية الخاصة به حجبها التحريف إلى حد أن أغفلت ونسيت إلى حد كبير. هكذا كانت الحالة في كنائس أمريكا على الخصوص. فالحرية والراحة اللتان كانت كل طبقات المجتمع تنعم بهما، واشتهاء الغنى والطموح في طلب الترف، والشوق الطاغى إلى جمع المال

والاندفاع القوي نحو الشهرة والسلطان، الأمور التي بدا أنها في متناول أيدي الجميع، كل هذه جعلت الناس يركزون اهتماماتهم وآمالهم في أمور هذه الحياة، ويبعدون عن تفكيرهم، إلى المستقبل البعيد، ذلك اليوم الخطير الذي فيه سيزول ويبطل نظام الأشياء الحاضرة.

عندما وجه المخلص أفكار تابعيه إلى علامات مجيئه الثاني أنبأهم عن حالة الارتداد التي ستعم العالم قبيل ذلك. فكما كانت الحال في أيام نوح كذلك ستكون الحال حينئذ إذ سيكون النشاط وحركة التجارة العالمية على أشدهما، وكذلك السعي في أثر المسرات، والبيع والشراء والغرس والبناء؛ ثم إن الناس سيزوجون ويتزوجون، وفي الوقت نفسه ينسون الله والحياة الآتية. فلمثل أولئك العائشين في هذا الوقت يقدم المسيح إنذاره قائلا: « فَأَحْتَرِزُوا لَأَنْفُسِكُمْ لئَلَّا تَثْقَلَ قُلُوبُكُمْ فِي خُمَارٍ وَسُكْرِ وَهُمُومِ الْحَيَاةِ، فَيُصَادَفَكُمْ ذَلِكَ الْيَوْمُ بَغْتَةً ». « اسْهَرُوا إِذَا وَتَضَرَّعُوا فِي كُلِّ حِينٍ، لِكَيْ تَحْسَبُوا أَهْلًا لِلنَّجَاةِ مَنْ جَمِيعَ هَذَا الْمَرْمَعِ أَنْ يَكُونَ، وَتَقْفُوا قُدَّامَ ابْنِ الْإِنْسَانِ » (لوقا ٢١: ٣٤، ٣٦).

يُصَوِّرُ حَالَةَ الْكَنِيسَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ قَوْلَ الْمَخْلَصِ فِي سَفَرِ الرُّوْيَا: « أَنْ لَكَ اسْمًا أَنْتَ حَيٌّ وَأَنْتَ مَيِّتٌ ». والذين يرفضون أن يستيقظوا من طمأنينتهم الكاذبة وعدم اكتراثهم يُقدِّم إليهم ذلك الإنذار الخطير القائل: « إِنْ لَمْ تَسْهَرْ، أُقْدِمُ عَلَيْكَ كَلِصًّا، وَلَا تَعْلَمُ آيَةَ سَاعَةِ أُقْدِمُ عَلَيْكَ » (رؤيا ٣: ٨، ١٣).

كانت الحالة تدعو إلى أن يصحو الناس ويتنبهوا إلى خطرهم وأن يستيقظوا للتأهب للأحداث الخطيرة المتصلة بنهاية الاختبار. ويعلن نبي الله قائلا: « لَأَنَّ يَوْمَ الرَّبِّ عَظِيمٌ وَمَخُوفٌ جَدًّا، فَمَنْ يُطِيقُهُ؟ » من يستطيع أن يثبت عندما يقترب ذاك الذي عيناه « طَهْرٌ مِنْ أَنْ تَنْظُرَا الشَّرَّ » ولا يستطيع « النَّظَرَ إِلَى الْجَوْرِ » (يوئيل ٢: ١١، حبقوق ١: ١٣). أما الذين يصرخون قائلين: « يَا إِلَهِي، نَعْرِفُكَ » ومع ذلك يتعدون عهده ويسرعون وراء آلهة أخرى ويخفون الإثم في قلوبهم ويحبون طرق الظلم، لهؤلاء يكون يوم الرب « أَلَيْسَ يَوْمُ الرَّبِّ ظَلَامًا لَا نُورًا، وَقَتَامًا وَلَا نُورَ لَهُ؟ » (هوشع ٨: ١، ٢؛ مزمو ١٦: ٤؛ عاموس ٥: ٢٠). « وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ » يقول الرب: « أَنِّي أَقْتَسُ أُورُشَلِيمَ بِالسُّرْجِ، وَأَعَاقِبُ الرَّجَالَ الْجَامِدِينَ عَلَى دُرْدِيهِمْ، الْقَائِلِينَ فِي قُلُوبِهِمْ: إِنَّ الرَّبَّ لَا يُحْسِنُ وَلَا يُشِيءُ » (صفنيا ١: ١٢). « وَأَعَاقِبُ الْمُسْكُونَةَ عَلَى شَرْهَا، وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى إِثْمِهِمْ، وَأَبْطَلُ تَعَظُّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَضَعُ تَجَبُّرَ الْعَتَاةِ » (إشعيا ١٣: ١١). « لَا فَضَّتْهُمْ وَلَا ذَهَبَهُمْ يَسْتَطِيعُ إِنْقَادُهُمْ » « فَتَكُونُ ثُرُوتُهُمْ غَنِيمَةً وَيَبُوتُهُمْ خَرَابًا » (صفنيا ١: ١٨، ١٣).

الدعوة إلى النهوض

والنبي إرميا إذ نظر إلى هذا الوقت المخيف صاح قائلا: « تَوَجَّعْنِي جُدْرَانُ قَلْبِي... لَا أَسْتَطِيعُ السُّكُوتَ. لَأَنَّكَ سَمِعْتَ يَا نَفْسِي صَوْتَ الْبُوقِ وَهْتَافِ الْحَرْبِ. بِكَسْرِ عَلَى كَسْرِ نُودِي » (إرميا ٤: ٢٠، ١٩).

« ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمٌ سَخَطٍ، يَوْمٌ ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، يَوْمٌ خَرَابٍ وَدَمَارٍ، يَوْمٌ ظَلَامٍ وَقَتَامٍ، يَوْمٌ سَحَابٍ وَضَبَابٍ. يَوْمٌ بُوقٍ وَهْتَافٍ » (صفنيا ١: ١٥، ١٦). « هُوَذَا يَوْمُ الرَّبِّ قَادِمٌ، قَاسِيًا بِسَخَطٍ وَحُمُومٍ غَضَبٍ، لِيَجْعَلَ الْأَرْضَ خَرَابًا وَيُبِيدَ مِنْهَا خَطَايَاهَا » (إشعيا ١٣: ٩).

وفي نور ذلك اليوم العظيم تدعونا كلمة الله بلغة مهيبه ومؤثرة وتدعو شعب الله كله لينهضوا من سباتهم الروحي ويلتمسوا وجهه بالتوبة والتذلل، فيقول: « اضربوا بالبوق في صهيون. صوّتوا في جبل قُدسي! ليرتعد جميع سُكَّان الأرض لأن يومَ الرَّبِّ قادمٌ، لأنه قريبٌ ». « قَدِّسُوا صَوْمًا. نَادُوا بِاعْتِكَافٍ. اجْمَعُوا الشَّعْبَ. قَدِّسُوا الْجَمَاعَةَ. احشُدُوا الشُّيُوخَ. اجْمَعُوا الْأَطْفَالَ وَرَاضِعِي الثُدِيِّ. لِيُخْرِجَ الْعَرِيسُ مِنْ مَخْدَعِهِ وَالْعَرُوسُ مِنْ حَجَلَتِهَا ». « ارجعوا إلى الرَّبِّ إِلَهُكُمْ لأنه رَوْوْفٌ رَحِيمٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّأْفَةِ » (يوئيل ٢: ١، ١٥-١٧، ١٢، ١٣).

ولأجل إعداد شعب الرب للوقوف في يوم الله كان لا بد من إجراء إصلاح عظيم. لقد رأى الله أن كثيرين من المعترفين بأنهم شعبه لم يكونوا يبنون للأبدية. ففي رحمته كان من المنتظر أن يرسل إليهم رسالة إنذار لإيقاظهم من خمولهم وليجعلهم يستعدون لمجيء الرب.

وهذا الإنذار نجده في (رؤيا ١٤). ففي هذا الأصحاح توجد رسالة مثلثة، وهي موصوفة بأنها معلنة على أفواه خلائق سماوية، ويتبع ذلك مباشرة مجيء ابن الإنسان ليجمع « حصيد الأرض ». وأول هذه الإنذارات يعلن عن الدينونة المقبلة. لقد رأى النبي ملاكا طائرا « في وَسَطِ السَّمَاءِ مَعَهُ بَشَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لِيُبَشِّرَ السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ وَكُلَّ أُمَّةٍ وَقَبِيلَةٍ وَلِسَانَ وَشَعْبٍ، قَائِلًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: « خَافُوا اللَّهَ وَأَعْطَوْهُ مَجْدًا، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيْنُونَتِهِ، وَاسْجُدُوا لِصَانِعِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَبَنَائِعِ الْمِيَاهِ » (رؤيا ١٤: ٦، ٧).

هذه الرسالة أعلن عنها أنها جزء من « البشارة الأبدية ». فالكراسة بالإنجيل لم يكلف بها الملائكة بل الناس، لكن الملائكة القديسين كلفوا بتوجيه وإدارة هذا العمل. لقد وُكِّلَتْ إليهم الحركات العظيمة لأجل خلاص الناس. إلا أن الإعلان الفعلي للإنجيل يقوم به خدام المسيح على الأرض.

فالناس الأمناء الذين كانوا مطيعين لإلهام روح الله وتعاليم كلمته كان عليهم أن يعلنوا هذا الإنذار للعالم. إنهم هم الذين انتبهوا إلى « الْكَلِمَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ أَثْبَتُ » وهي السراج المنير « في مَوْضِعٍ مُظْلَمٍ، إِلَى أَنْ يَنْفَجَرَ النَّهَارُ، وَيَطْلُعَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ » (٢ بطرس ١: ١٩). لقد كانوا يطلبون معرفة الله أكثر من كل الكنوز إذ حسبوا تجارتها خيرا من تجارة الفضة وربحها خيرا من الذهب الخالص « (أمثال ٣: ١٤). والرب قد أعلن لهم عظام ملكوته: « سِرُّ الرَّبِّ لِحَائِفِيهِ، وَعَهْدُهُ لَتَعْلِيمِهِمْ » (مزمور ٢٥: ١٤).

رجال متواضعون يقدمون الرسالة

ولم يكن العلماء اللاهوتيون هم الذين فهموا هذا الحق وأذاعوه. فلو كان هؤلاء الناس حراسا أمناء وفتشوا الكتب باجتهاد في روح الصلاة لأمكنهم أن يعرفوا ذلك الهزيع من الليل. وكانت الكتب المقدسة قد كشفت لهم عن الحوادث الوشيكة الوقوع. ولكنهم لم يقوموا بمطالب ذلك المركز فسلّمت الرسالة إلى جماعة من المساكين المتواضعين. لقد قال يسوع: « فَسِيرُوا مَا دَامَ لَكُمْ النُّورُ لئَلَّا يَدْرِكَكُمْ الظُّلَامُ » (يوحنا ١٢: ٣٥). فالذين يبتعدون عن النور الذي قد أعطاه الله، أو الذين يهملون في طلبه حين يكون في متناول أيديهم يتركون في الظلام. لكن المخلص أعلن قائلا: « أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلَا يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ » (يوحنا ٨: ١٢). فكل من يطلب

أن يعمل إرادة الله بقصد وعزم موحدين، وبكل غيرة ينتبه إلى النور المعطى من قبل، سيحصل على نور أكمل؛ فلمثل تلك النفس سترسل السماء نجما ذا لمعان سماوي ليرشدها إلى كل الحق.

عند المجيء الأول للمسيح كان يمكن للكهنة والكتبة في المدينة المقدسة الذين استؤمنوا على أقوال الله أن يفهموا علامات الأزمنة ويعلنوا عن مجيء السيد الموعود به. لقد حددت نبوة ميخا مكان مولده، وكذلك حدد دانيال زمان مجيئه (ميخا ٥: ٢؛ دانيال ٩: ٢٥). وقد سلم الله هذه النبوات لرؤساء اليهود، ولم يكن لهم عذر لو انهم لم يعرفوا ولم يعلنوا للشعب أن مجيء المسيح قريب. فقد كان جهلهم نتيجة إهمالهم الخاطئ. كان اليهود يبنون أضرحة أنبياء الله الذين قتلوا، بينما هم بإكرامهم لعظماء الأرض كانوا يبدون ولاءهم لعبيد الشيطان. فإذ كانوا منغمسين في منازعاتهم وطموحهم في طلب المركز السامي والسلطان بين الناس غابت عن أنظارهم الكرامات الإلهية الممنوحة لهم من ملك السماء.

كان ينبغي لشيوخ إسرائيل أن يداوموا على البحث والاستقصاء عن مكان أعظم حادث في تاريخ العالم وعن زمانه وظروفه، أي مجيء ابن الله لأجل فداء الإنسان، باهتمام خشوعي عميق. وكان ينبغي لكل الشعب أن يكونوا ساهرين ومنتظرين لكي يكونوا أول من يرحبون بفادي العالم. ولكن هنا في بيت لحم كان يوجد مسافران متعبان، كانا قد قطعنا الشارع الضيق بطوله إلى طرف البلدة الشرقي يبحثان عبثا عن مكان يلجآن إليه ويستريحان فيه تلك الليلة. ولكن لا بيت فتح بابه لقبولهما. وفي النهاية وجدا ملجأ في حظيرة قدرة من حظائر الماشية، وهناك وُلد مخلص العالم.

أخبار مفرحة

لقد رأت ملائكة السماء المجد الذي كان لابن الله عند أبيه قبل كون العالم، فباهتمام عظيم تشوّقوا إلى ظهوره على الأرض كحادث يسبب أعظم فرح لجميع الشعب. وقد تعيّن على الملائكة أن يحملوا البشرى للذين كانوا متأهبين لقبولها والذين كانوا بكل فرح سيذيعونها على كل ساكني الأرض. لقد تنازل المسيح فاتخذ لنفسه طبيعة الإنسان، وكان عليه أن يحمل عبثا ثقيلا من الويل والألم إذ كان عليه أن يجعل نفسه ذبيحة إثم، ومع ذلك فقد كان الملائكة يتوقون إلى أن يبدو ابن العلي في عظمة ومجد يليقان بصفاته حتى وهو في حالة الاتضاع. فهل سيجتمع عظماء الأرض في عاصمة إسرائيل ليحيوه عند مجيئه؟ وهل ستقدمه جيوش الملائكة إلى الجموع التي تنتظره؟

إن ملاكا ينزل إلى الأرض ليرى من هم المتأهبون للترحيب بيسوع. ولكنه يكاد لا يرى علامة من علامات الانتظار، ولا يسمع صوت التسبيح والانتصار لكون وقت مجيء مسيا على الأبواب. ها الملاك يطير بعض الوقت فوق المدينة المختارة والهيكل الذي كان يُعلن فيه الحضور الإلهي أجيالا طويلة، ولكن حتى في هذا المكان يُرى عدم الاكتراث نفسه. إن الكهنة في فخامتهم وكبرياتهم يقدمون ذبائح معيبة في الهيكل. والفريسيون يخاطبون الشعب بأصواتهم العالية أو يتفاخرون بتقديم صلواتهم في زوايا الشوارع وفي قصور الملوك وفي مجتمعات الفلاسفة وندواتهم وفي مدارس معلمي الناموس، الجميع عديمو الاكتراث ولا يلقبون بالا إلى الحقيقة العجيبة التي قد ملأت السماء

فرحا وتسبيحا، وهي أن فادي البشر منتظر ظهوره على الأرض.

لا برهان على أن الناس ينتظرون المسيح ولا استعدادات لقدوم رئيس الحياة. والرسول السماوي في ذهوله موشك أن يعود إلى السماء ومعه ذلك الخبر المخجل، وإذا به يكتشف جماعة من الرعاة الذين يحرسون قطعانهم في الليل، وإذ يشخصون إلى السماء التي زانتها النجوم يتأملون في النبوة الواردة عن مسيا الآتي إلى الأرض ويتوقون لمجيء فادي العالم. هنا جماعة متأهبة لقبول رسالة السماء. وفجأة يظهر ملاك الرب معلنا بشارة الفرح العظيم. وها المجد السماوي يغمر ذلك السهل كله، ويظهر جمع غفير من الملائكة، وكأنما الفرح عظيم جدا بحيث لا يستطيع رسول واحد أن يعلنه من السماء، وإذا بأصوات كثيرة عذبة تتغنى بأنشودة السماء التي ستتغنى بها فيما بعد أمم الأرض جميعا قائلا: « الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ » (لوقا ٢: ١٤).

ما أعظم قصة بيت لحم هذه من درس عجيب لنا! وكم توبخ عدم إيماننا وكبرياءنا واكتفاءنا بذواتنا! وكم تنذرنا بأن نحترس لنفوسنا بعدم مبالاتنا المجرمة نخيب نحن أيضا فلا نميز علامات الأزمنة، ولذلك لا نعرف زمان افتقادنا!

لم يجد الملاك مترقي مجيء مسيا على جبال اليهودية وحدها وبين الرعاة المنفردين وحدهم. ففي بلاد الأمم أيضا كان يوجد جماعة انتظروه. كانوا رجالا من حكماء بلاد المشرق وأغنيائها ونبلائها وفلاسفتها. فإذا كان أولئك المجوس يتلقون العلم على يدي الطبيعة فقد رأوا الله في خلائقه ومصنوعاته. وكانوا قد علموا من كتب العهد القديم شيئا عن الكوكب الذي يبرز من يعقوب، وبشوق ولهفة انتظروا مجيئه، وهو الذي لن يكون « تَعْرِيةَ إِسْرَائِيل » فحسب بل نورا ينير الأمم و « خَلَاصًا إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ » (لوقا ٢: ٣٥، ٣٢؛ أعمال ١٣: ٢٧). لقد كانوا باحثين عن النور، فأنازل لإقدامهم الطريق نور آت من عرش الله. إن كهنة أورشليم ومعلموها الذين عُيِّنوا ليكونوا حراسا على الحق ومفسرين له، إذ كانوا مكتنفين بالظلام، فإن النجم الذي أرسلته السماء أرشد هؤلاء الأمم الغرباء إلى مكان ميلاد الملك الوليد.

« للذين ينتظرونه »:

إن المسيح « سَيَظْهَرُ ثَانِيَةً بِلَا خَطِيئَةٍ لِلْخَلَاصِ لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَهُ » (عبرانيين ٩: ٢٨). فكما أن أخبار ميلاد المخلص لم تسلم للرؤساء الدينيين كذلك رسالة مجيئه الثاني. لقد أخفقوا في الاحتفاظ بصلتهم بالله ورفضوا النور المنبثق من السماء، فلذلك لم يكونوا ضمن الذين قال عنهم بولس الرسول: « وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فَلَسْتُمْ فِي ظُلْمَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكُمْ ذَلِكَ الْيَوْمُ كُلِّصٍّ. جَمِيعُكُمْ أَبْنَاءُ نُورٍ وَأَبْنَاءُ نَهَارٍ. لَسْنَا مِنْ لَيْلٍ وَلَا ظُلْمَةٍ » (١ تسالونيكي ٥: ٤، ٥).

الشعب نيام

كان ينبغي للحراس الواقفين على أسوار صهيون أن يكونوا أول من يستقبلون أخبار مجيء المخلص، وأول من يرفعون أصواتهم معلنين أنه قد قرب، وأول من يندرون الناس ليتأهبوا لقدمه. لكنهم كانوا مستريحين يحلمون بالسلام والأمان حين كان الناس نائمين ومستريحين في خطاياهم.

لقد رأى يسوع كنيسته كالتينة العقيمة، عليها ورق الادعاء الريائي، ولكن ليس فيها الثمر الثمين. كانوا في تفاخرهم يحفظون طقوس الديانة فيما كانت تعوزهم روح الوداعة الحقيقية والتوبة والإيمان، التي هي من دون سواها تجعل الخدمة مقبولة لدى الله. وبدلاً من فضائل الروح أظهروا الكبرياء وتمسكوا بالرسميات والطقوس والمجد الباطل والأناية والظلم. فالكنيسة المرتدة أغمضت عينيها حتى لا ترى علامات الأزمنة. لكن الله لم يتركهم ولم يكذب من جهة أمانته، أما هم فتركوه وانفصلوا عن محبته. ولأنهم رفضوا الامتثال لشروطه لم يتم مواعيده لهم.

هذه هي النتيجة الأكيدة لرفض تقدير النور والانتفاع به والامتيازات التي يمنحها الله. فما لم تسر الكنيسة في أثر خطوات عنايته التي تكشف الطريق أمامها، وما لم تقبل كل شعاع من أشعة النور، متممة كل واجب يعلن لها، فستنحط الديانة حتماً بحيث تصير مجرد حفظ طقوس، أما روح التقوى الحيوية فستختفي. وقد زخر تاريخ الكنيسة بأمثلة متعددة تُبرز هذه الحقيقة. فالله يطلب من شعبه أعمال الإيمان والطاعة المطابقة للبركات والامتيازات الممنوحة لهم. والطاعة تتطلب التضحية المنطوية على حمل الصليب، وهذا هو السبب الذي لأجله يرفض من يعترفون بأنهم أتباع المسيح قبول النور المنبعث

من السماء، وكاليهود قديماً لم يعرفوا زمان افتقادهم (لوقا ١٩ : ٤٤). فبسبب كبريائهم وعدم إيمانهم تجاوزهم الرب وأعلن حقه للذين على غرار رعاة بيت لحم والمجوس القادمين من المشرق انتبهوا إلى كل النور الذي قد قبلوه.

١٨ - نور جديد في الدنيا الجديدة

إن مزارعا مستقيما أمين القلب كان قبلا يشك في صدق الكتب المقدسة ومع ذلك كان يرغب بكل إخلاص في معرفة الحق، كان هو الرجل الذي اختاره الله خصيصا ليكون في طليعة من يعلنون المجيء الثاني للمسيح. إن وليم ميلر، ككثيرين غيره من المصلحين، كان في بدء حياته يتصارع مع الفقر، وهكذا تعلم دروس النشاط وإنكار الذات. وكان أفراد الأسرة التي تحدر منها يمتازون بالروح المستقلة المحبة للحرية، وبالقدرة على الاحتمال، وبالغيرة على حب الوطن، وكانت كلها من صفاته البارزة. كان أبوه ضابطا في جيش الثورة. وتعزى حالة العسر التي اجتازها ميلر في بكور حياته إلى التضحيات التي بذلها أبوه في الصراع والآلام التي حلت به في تلك الفترة العاصفة.

كان رجلا سليم البنية، وحتى في طفولته برهن على ذكاء خارق غير عادي. وإذ نما وكبر ظهر ذكاؤه على نحو أوضح. كان عقله نشيطا وناميا نموا حسنا، وكان تعطشه إلى العلم قويا. ومع أنه لم يحظ بالتعلم في كلية، فإن حبه للدرس وعادة التفكير الدقيق والانتقاد المحكم صيرته رجلا سليما في حكمه وواسع الأفق في تفكيره. وكانت صفاته الأدبية لا غبار عليها، وقد تمتع بشهرة يحسد عليها، إذ كان مكرما لأجل استقامته وحسن تديره وحبه للخير. ومن كثرة نشاطه ومقدرته اكتسب كفاءة مبكرة، مع أنه ظل محتفظا بعادات حب الدرس والاستقصاء. وقد شغل وظائف متعددة مدنية وعسكرية، بامتياز، وقد بدا كأن السبيل إلى الثروة والكرامة مفتوح أمامه.

كانت أمه امرأة نقية في تقواها. وإذ كان بعد صبيا وقع تحت المؤثرات الدينية. ومع ذلك ففي بكور صباه عاشر جماعة يؤمنون بوجود الله ولكنهم ينكرون الوحي، وقد زاد تأثيرهم فيه لكونهم في الغالب مواطنين صالحين ورجالا كرماء ومحسنين في ميولهم. فإذ كانوا عائشين في وسط المحافل والمجتمعات المسيحية فقد تشكلت أخلاقهم وتأثرت إلى حد كبير بالبيئة المحيطة بهم. والفضائل التي أكسبتهم احترام الناس وثقتهم كانوا مدينين بها للكتاب المقدس، ومع ذلك فإن هذه الهبات الصالحة أفسدت إلى حد أن كان لها تأثير مضاد لكلمة الله. فإذ عاشر ميلر هؤلاء الناس اعتنق ميولهم. والشروح والتفاسير المألوفة لكلمة الله أوجدت صعوبات بدا من الصعب تخطيها؛ بيد أن عقيدته الجديدة، في حين أنها ألقت بالكتاب المقدس جانبا، لم تقدم شيئا أفضل بدلا منه، وقد ظل ميلر غير قانع أو راضي النفس، ومع ذلك بقي متمسكا بتلك الآراء مدة اثنتي عشرة سنة. ولكن إذ بلغ الرابعة والثلاثين من العمر أوقع الروح القدس في قلبه إحساسا بحالته كخاطئ. فلم يعد يجد في عقيدته القديمة أي يقين بالغبطة أو السعادة بعد القبر. وكان المستقبل مظلمًا وكئيبا بالنسبة إليه. وإذ أشار بعد ذلك إلى ما كان يشعر به في ذلك الحين قال:

« إن فكرة الفناء كانت فكرة باردة تصيب النفس بالقشعريرة. والوقوف أمام الله للدينونة كان فيه الهلاك الأكيد للجميع. كانت السماء من فوقي نحاسا، والأرض من تحتي حديداً. الأبدية: ما هي؟

والموت: لماذا هو؟ وبقدر ما فكرت وتحتاجت ازددت بعداً من أي إثبات أو برهان. وبقدر ما فكرت ازدادت استنتاجاتي تبعثراً. حاولت أن أكف عن التفكير، ولكنني لم أستطع التحكم في أفكاري. لقد كنت في الحق تعساً ولكنني لم أفطن إلى السبب. جعلت أئذمر وأشكو ولكنني لم أكن أعلم على من أئذمر ولا ممن أشكو. علمت أن هنالك خطأ إلا أنني لم أعلم كيف أو أين أجد الصواب. لقد نُحت وبكيت ولكن بلا رجاء».

ميلر يجد صديقا

وظل على تلك الحال عدة أشهر ثم يقول: « وفجأة رُسِمْتُ أمام ذهني بكل وضوح ذاتية المخلص. وقد بدا لي أنه يمكن أن يكون هنالك كائن صالح ورحيم بحيث يكفر عن آثامنا وبذلك يخلصنا من تحمل قصاص خطايانا. ففي الحال أحسست أنه لا بد أن يكون ذلك الشخص جميلاً جداً، وخيّل إليّ أنني أستطيع أن ألقى بنفسي بين ذراعيه وأثق برحمته. ولكن تبادر لذهني هذا السؤال: كيف نبرهن على حقيقة وجود مثل هذا الشخص؟ لقد وجدت إني في منأى عن الكتاب المقدس لا أستطيع أن أجد برهاناً على وجود مثل هذا المخلص، أو حتى على وجود الأبدية... »

« رأيت أن الكتاب المقدس يقدم إليّ مثل هذا المخلص الذي احتاج إليه. وقد ارتبكت من هذا الفكر وهو كيف يمكن لكتاب غير موحى به أن يوفّر مثل هذه المبادئ التي تسد حاجات العالم الساقط. وقد اقتنعت واعترفت بأن الكتاب المقدس لا بد وأن يكون إعلاناً من الله. فصار كتاب الله موضوع فرحي، وقد وجدت في يسوع صديقا. فصار المخلص بالنسبة إليّ معلماً بين ربوة. والأقوال الإلهية التي كانت لي قبلاً غامضة ومتناقضة صارت الآن سراجاً لرجلي ونوراً لسبيلي. فاستقر عقلي وشبع واكتفى. وقد وجدت الرب الإله صخرة في وسط أوقيانوس الحياة. وصار الكتاب المقدس إذ ذاك أهم موضوع لدراستي، ويمكنني أن أقول صادقاً أنني قد فتشته بسرور عظيم، ووجدت أن نصفه لم أخبر به. وتساءلت لماذا لم أر جماله ومجده من قبل واستغربت أنني قد رفضته. وقد وجدت كل ما كان يصبو إليه قلبي معلناً لي، ووجدت فيه علاجاً لكل أدوية النفس. وما عدت أجد لذة في المطالعات الأخرى، ووطنت النفس والقلب على طلب الحكمة من الله » (٢٩٢).

اعترف ميلر جهاراً بإيمانه بالديانة التي كان قبلاً يزدرئها. لكنّ عشراء الملحدين لم يتباطأوا في إيراد تلك الحجج التي طالما أورهاها هو ضد سلطان كلمة الله. ولم يكن حينئذ متأهباً للرد عليهم ولكنه تحاجّ قائلاً أنه إذا كان الكتاب المقدس إعلاناً من الله فلا بد أن يكون متوافقاً مع نفسه، وحيث أنه قد أعطي لأجل تعليم الإنسان فلا بد أن يكون مطابقاً لإدراكه. فعول على درس أقوال الله لنفسه ليتحقق مما إذا كان يمكن التوفيق بين الأقوال المتناقضة فيه أم لا.

اتضح الحق له

وإذ حاول أن يلقي جانباً الآراء المعروفة من قبل ويستغني عن التفاسير جعل يقارن أقوال الكتاب بعضها ببعض بمساعدة الشواهد وفهرس الكتاب. وقد تابع دراسته على نحو منظم منهجي مبتدئاً من سفر التكوين، فكان يقرأ آية فآية، ولم يتعجل، قاصراً دراسته على بضع فقرات حتى يتضح له المعنى

ولا تسبب له أي ارتباك. وعندما كان يجد شيئاً ملتبساً أو غامضاً كان معتاداً أن يقارنه بكل آية أخرى لها صلة بالمسألة التي هي موضوع تفكيره. ولقد جعل لكل كلمة علاقة خاصة بموضوع الآية، فإذا كان رأيه فيها متفقاً مع نص مواز آخر تكف عن أن تُعتبر مشكلة بعد ذلك. وعندما كان يأتي إلى فصل يصعب فهمه كان يجد له تفسيراً في فصل آخر من الكتاب. وإذا كان يدرس مصليا بحرارة في طلب الإنارة الإلهية، فما كان يبدو غامضاً على فهمه من قبل كان يتضح أمامه الآن. لقد اختبر صدق كلام صاحب المزامير حين قال: « فَتُحْ كَلَامَكَ يُنِيرُ، يُعَقِّلُ الْجُهَّالَ » (مزمور ١١٩: ١٣٠).

وباهتمام عظيم درس سفري دانيال والرؤيا مستخدماً مبادئ التفسير نفسها كما في الأسفار الأخرى، ولشدة فرحه وجد أن الرموز النبوية يمكن فهمها. وقد رأى أن النبوات على قدر ما تمت، تمت حرفياً؛ وحتى كل الرموز المختلفة والاستعارات والأمثال والمشاوهمات كانت موضحة في علاقتها المباشرة، أو أن التعبيرات التي وردت فيها وضحت في مواضع أخرى من الكتاب المقدس، وعندما وُضحت هكذا فُهمت فهماً حرفياً. ثم يقول: « وهكذا اقتنعت أن الكتاب المقدس هو نظام حقائق معلنة، وهي مقدمة بكل وضوح وبساطة، بحيث أن أي عابر طريق ولو كان جاهلاً لا يحتاج إلى أن يخطئ فيها » (٢٩٣). وقد كوفئت جهوده إذ كان يتتبع خطوط النبوة العظيمة خطوة بعد خطوة، وحلقة بعد أخرى من حلقات سلسلة الحق. وكانت ملائكة السماء تقود افكاره وتكشف أمام عقله حقائق الأسفار الإلهية.

الحنطة والزوان

وإذا اعتبر الطريقة التي بها قد تمت النبوات في الماضي مقياساً يقيس به النبوات التي ستتم مستقبلاً اقتنع بأن الرأي المألوف عن مُلك المسيح الروحي — أي ألف سنة زمنية قبل انقضاء الدهر — لم يكن له سند من كلمة الله. فهذه العقيدة التي تشير إلى ألف سنة يسود فيها البر والسلام قبل مجيء الرب بنفسه أبعدت عن الناس أهوال يوم الله. ولكن مع أن هذه العقيدة تبدو مفرحة ومسررة فهي متناقضة لتعاليم المسيح ورسله الذين أعلنوا أن الحنطة والزوان ينميان معاً إلى وقت الحصاد، أي انقضاء العالم، وأن « النَّاسَ الْأَشْرَارَ الْمُزَوَّرِينَ سَيَقْدَمُونَ إِلَى أَرْدَا » (٢ تيموثاوس ٣: ١٣)، وأنه « فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ سَتَأْتِي أَرْمَنَةٌ صَعْبَةٌ » (٢ تيموثاوس ٣: ٣) وأن مملكة الظلمة ستظل باقية إلى وقت مجيء الرب، وأنه سيبيدها بنفخة فمه ويبيطلها بظهور مجيئه (متى ١٣: ٣٠؛ ٢ تيموثاوس ١٣: ١؛ ٢ تسالونيكي ٢: ٨).

تجديد العالم ليس من عقائد الكنيسة الأولى

لم تكن عقيدة تجديد العالم وملك المسيح الروحي هي عقيدة الكنيسة في أيام الرسل. ولم يقبلها المسيحيون عموماً إلا حوالي بدء القرن الثامن عشر. وكغيرها من الضلالات الأخرى كانت نتائجها وخيمة. فقد علّمت الناس أن يتطلعوا إلى المستقبل البعيد في انتظار مجيء الرب وحالت بينهم وبين الالتفات إلى العلامات المنبئة بمجيئه. وقد ساقطت الناس إلى الإحساس بالثقة والاطمئنان اللذين لم يكن لهما أساس، وقادتهم إلى إهمال الاستعداد اللازم للقاء سيدهم.

وقد اكتشف ميلر أن الكتب المقدسة قد علّمت تعليماً واضحاً بعقيدة مجيء المسيح بنفسه مجيئاً حرفياً. فقد قال بولس: «لأنَّ الرَّبَّ نَفْسُهُ بَهْتَا ف، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلَائِكَةٍ وَبُوقِ اللَّهِ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ» (١ تسالونيكي ٤: ١٦). والمخلص يعلن قائلًا: «وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ» (متى ٢٤: ٣٠). «لأنَّهُ كَمَا أَنَّ الْبَرْقَ يَخْرُجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَيَظْهَرُ إِلَى الْمَغَارِبِ، هَكَذَا يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الْإِنْسَانِ» (متى ٢٤: ٢٧). وستصحبه كل أجناد السماء. يجيء «ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ الْقُدِّيسِينَ مَعَهُ» (متى ٢٤: ٣١).

وعندما يجيء فالأموات الأبرار سيقامون والأحياء الأبرار سيتغيرون. يقول بولس: «لَا نَرْفُذُ كُلَّنَا، وَلَكِنَّا كُلَّنَا نَتَغَيَّرُ، فِي لَحْظَةٍ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، عِنْدَ الْبُوقِ الْآخِرِ. فَإِنَّهُ سَيُبُوقُ، فَيُقَامُ الْأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ، وَنَحْنُ نَتَغَيَّرُ. لِأَنَّ هَذَا الْفَاسِدَ لَا بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فَسَادٍ، وَهَذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ» (١ كورنثوس ١٥: ٥١-٥٣). وفي رسالته إلى أهل تسالونيكي بعدما يصف مجيء الرب يقول: «الأموات في المسيح سيقومون أولاً. ثُمَّ نَحْنُ الْأَحْيَاءُ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحْبِ لِمِلَاقَةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهَكَذَا نَكُونُ كُلُّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ» (١ تسالونيكي ٤: ١٦، ١٧).

إن شعب المسيح لا يستطيع أن يرث الملكوت إلا عندما يجيء هو بنفسه. فقد قال المخلص: «وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ الْقُدِّيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ، فَيُمَيِّزُ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا يُمَيِّزُ الرَّاعِي الْخِرَافَ مِنَ الْجِدَاءِ، فَيُقِيمُ الْخِرَافَ عَنْ يَمِينِهِ وَالْجِدَاءَ عَنْ الْيَسَارِ. ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رَثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مِنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ» (متى ٢٥: ٣١-٣٤). ها نحن قد عرفنا من الأقوال الإلهية التي ورد ذكرها الآن أنه عندما يجيء ابن الإنسان سيقام الأموات عديمي فساد والأحياء يتغيرون. وبهذا التغيير العظيم يؤهلون لقبول الملكوت. لأن بولس يقول: «إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَا يَقْدِرَانِ أَنْ يَرْتَا مَلَكُوتَ اللَّهِ، وَلَا يَرِثُ الْفَسَادُ عَدَمَ الْفَسَادِ» (١ كورنثوس ١٥: ٥٠). إن الإنسان في حالته الحاضرة قابل للموت والفساد. لكن ملكوت الله لا يتدنس. وسيبقى إلى الأبد. ولذلك فالإنسان في حالته الطبيعية لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله. ولكن عندما يجيء يسوع يمنح لشعبه عدم الموت (الخلود)، ثم يدعوهم ليرثوا الملكوت الذي كانوا قبلًا وارثين اسميين له.

دليل آخر

هذه الأقوال الإلهية وغيرها برهنت لعقل ميلر أن الحوادث التي كان الجميع ينتظرون حدوثها قبل مجيء المسيح مثل سيادة ملك السلام على العالم وإقامة ملكوت الله على الأرض إنما هي لاحقة للمجيء الثاني. زد على هذا إن كل علامات الأزمنة وحالة العالم كانت مطابقة لما وصف به الأنبياء الأيام الأخيرة. وقد اضطر إلى الاستنتاج من دراسة الكتاب وحده أن الفرصة المحددة لبقاء الأرض على حالتها الراهنة كانت موشكة على الانقضاء.

ثم يقول: «وهناك برهان آخر أثر في عقلي تأثيراً حيويًا وهو تاريخ الكتاب ... فقد وجدت أن الحوادث المنبأ بها والتي تمت في الماضي حدثت في وقت معين. فالمئة والعشرون سنة التي

كانت قبل الطوفان (تكوين ٦: ٣)، والسبعة أيام التي كانت ستسبقه، والأربعون يوما التي أنبىء بنزول مياه الطوفان فيها (٧: ٤)، والأربع مئة سنة التي أنبىء بأن نسل إبراهيم سيتغرب فيها (تكوين ١٥: ١٣)، والثلاثة أيام التي حلم بها ساقى ملك مصر وخبازه (تكوين ٤٠: ١٢-٢٠)، والسبع سنوات التي حلم بها فرعون (تكوين ٤١: ٢٨-٤٥)، والأربعون سنة التي كان قد حُكم على إسرائيل أن يقضوها في البرية (عدد ١٤: ٣٣)، والثلاث سنوات والنصف التي سيكون فيها جوع (١ ملوك ١٧: ١) - (انظر أيضاً لوقا ٤: ٢٥) ... وسنو السبي السبعون (إرميا ٢٥: ١١)، والسبعة أزمئة التي قضى بها على نبوخذنصر (دانيال ٤: ١٣-١٦)، والسبعة أسابيع والاثنان والستون أسبوعا والأسبوع الواحد فيصير مجموعها سبعين أسبوعا وهي الحقبة المقضى بها على اليهود (دانيال ٩: ٢٤-٢٧)، كل هذه الحوادث المحددة أزمئتها كانت كلها قبلا مواضيع نبوات، ولكنها تمت كلها طبقا للنبوات « (٢٩٤)». ولذلك فعندما وجد في دراسته للكتاب مددا تاريخية مختلفة امتدت بحسب فهمه لها إلى أيام المجيء الثاني للمسيح فقد اعتبرها على أنها «الأوقات المحددة» التي قد أعلنها الله لعبيده. وها هو موسى يقول: «السَّرائِرُ لِلرَّبِّ إِلَهِنَا، وَالْمُعْلَنَاتُ لَنَا وَلَبَنِيْنَا إِلَى الْأَبَدِ» (تثنية ٢٩: ٢٩). والرب يعلن على لسان عاموس النبي قائلا: «أَلَسَيِّدُ الرَّبِّ لَا يَصْنَعُ أَمْرًا إِلَّا وَهُوَ يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الْأَنْبِيَاءِ» (عاموس ٣: ٧). إذاً فيمكن لتلاميذ كتاب الله أن ينتظروا بكل ثقة وقوع أعظم حادثة مدهشة في التاريخ البشري موضحة ومشاراً إليها بكل وضوح في كلمة الحق.

كل الكتاب هو نافع

ثم يقول: «وإذ اقتنعت اقتناعاً كاملاً بأن كل الكتاب الموحى به من الله نافع (٢ تيموثاوس ٣: ١٦)، وأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس (٢ بطرس ١: ٢١)، وأنه قد «كُتِبَ لأجل تعلیمنا، حتَّى بالصَّبْرِ وَالتَّعَزُّيَةِ بِمَا فِي الْكُتُبِ يَكُونُ لَنَا رَجَاءٌ» (رومية ١٥: ٤)، لم يسعني إلا أن أعتبر الأجزاء التاريخية من الكتاب أجزاء من كلمة الله وتستحق منا كل تأمل جدي وكل تقدير كأى جزء آخر من الكتاب. ولذلك فإنني في محاولتي فهم ما قد رأى الله في رحمته أنه من المناسب أن يعلنه لنا، لا حق لي في التغاضي عن المدد النبوية» (٢٩٥). إن النبوة التي بدا أنها تعلن بأجلي وضوح وقت المجيء الثاني هي الواردة في (دانيال ٨: ١٤) وتقول: «إِلَى أَلْفَيْنِ وَثَلَاثِ مِئَةٍ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، فَيَتَبَرَّرُ الْقُدُّسُ». فإذا أتبع ميلر قاعدته في جعل الكتاب مفسراً لنفسه عرف أن اليوم في النبوة الرمزية يمثل سنة (عدد ١٤: ٣٤؛ حزقيال ٤: ٦)، ورأى أن مدة الـ ٢٣٠٠ يوما نبوياً أو سنة حرفية ستمتد بعد انتهاء النظام اليهودي إلى مدى بعيد، ولهذا فلا يمكن أن تكون الإشارة هنا إلى مقدس ذلك العهد. وقد قبل ميلر الرأي السائد، أي أنه في العصر المسيحي تكون الأرض هي المرموز إليها بالمقدس، ولذلك فقد فهم أن تبرئة القدس المذكور في (دانيال ٨: ١٤) أو تطهيره يرمز إلى تطهير الأرض بالنار عند المجيء الثاني للمسيح. فإذا استطاع إذاً معرفة النقطة التي منها تبدأ الـ ٢٣٠٠ يوما، فقد استنتج ميلر أنه يستطيع التأكد بسرعة من معرفة وقت المجيء الثاني. وهكذا يُتاح إعلان وقت تلك النهاية العظيمة، الوقت الذي فيه تنتهي الحالة الراهنة «بكل ما

فيها من كبرياء وسلطان وأبهة وبطل وشر وظلم » عندما « ترفع اللعنة عن الأرض، ويبتل الموت، ويعطى الجزاء لعبيد الله الأنبياء والقديسين والخائفين اسمه، ويهلك من يهلكون الأرض » (٢٩٦).
فبنشاط جديد وغيره أعمق واصل ميلر فحص النبوات وكرس ليالي بطولها وأياما عديدة لدرس ما بدا له أمرا ذا أهمية مذهشة ونفع شامل. لم يجد في الأصحاح الثامن من سفر دانيال دليلا يرشده لمعرفة النقطة التي منها تبدأ الـ ٢٣٠٠ يوما. ومع أن الملك جبرائيل أمر بأن يفهم الرؤيا لدانيال لم يقدم غير شرح جزئي. وإذا انكشفت لعيني النبي الاضطهادات المريعة الموشكة أن تحل بالكنيسة خاتمة قواه الجسمانية. ولم يقو على الاحتمال أكثر من ذلك، فتركه الملك بعض الوقت. وقد ضعف دانيال ونحل أياما ثم قال: « وَكُنْتُ مُتَحِيرًا مِنَ الرُّؤْيَا وَلَا فَاهِمَ » (دانيال ٨: ٢٧).

مقاومة إتمام النبوات

ومع ذلك فقد صدر أمر إلى رسول السماء يقول: « فهَمَّ هذا الرجل الرؤيا ». فينبغي إطاعة هذه الوصية. فامثالا لها عاد الملك إلى دانيال بعد ذلك بمدة من الزمن قائلا: « إني خرجت الآن لأعلمك الفهم فتأمل الكلام وافهم الرؤيا » (دانيال ٨: ٣٧، ١٦؛ ٩: ٢٢، ٢٣). ولكن بقيت نقطة هامة في الرؤيا التي رآها في الأصحاح الثامن تركت من دون إيضاح ألا وهي الخاصة بالزمن، مدة الـ ٢٣٠٠ يوما. ولذلك فإذ عاد الملك ليستأنف شرحه أسهب في الكلام عن موضوع الزمن قال:
« سَبْعُونَ أُسْبُوعًا قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى مَدِينَتِكَ الْمُقَدَّسَةِ لِتَكْمِيلِ الْمَعْصِيَةِ وَتَتِمِيمِ الْخَطَايَا، وَلِكِفَارَةِ الْإِثْمِ، وَلِيُؤْتَى بِالْبَرِّ الْأَبَدِيِّ، وَلَخَتَمَ الرُّؤْيَا وَالنَّبُوءَ، وَلَمَسَحَ قُدُّوسَ الْقُدُّوسِينَ. فَاعْلَمْ وَأَفْهَمْ أَنَّهُ مِنْ خُرُوجِ الْأَمْرِ لِتَجْدِيدِ أُورُشَلِيمَ وَبَنَائِهَا إِلَى الْمَسِيحِ الرَّئِيسِ سَبْعَةَ أَسَابِيعَ وَأَثْنَانَ وَسِتُونَ أُسْبُوعًا، يَعُودُ وَيَبْنِي سُوقَ وَخَلِيجَ فِي ضَيْقِ الْأَزْمَةِ. وَبَعْدَ اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ أُسْبُوعًا يَقْطَعُ الْمَسِيحُ وَلَيْسَ لَهُ... وَيُنْبَتُّ عَهْدًا مَعَ كَثِيرِينَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَفِي وَسْطِ الْأُسْبُوعِ يَبْطُلُ الذَّبِيحَةُ وَالتَّقْدِمَةُ » (دانيال ٩: ٢٤-٢٧).

ملك يرسل إلى دانيال

لقد أرسل الملك إلى دانيال لقصد مستعجل هو إفهامه ما قد عَسَرَ عليه فهمه في الرؤيا المذكورة في الأصحاح الثامن وهي البيان المختص بالزمن: « إِلَى أَلْفَيْنِ وَثَلَاثَ مِئَةِ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، فَيَنْبَرَأُ الْقُدُّوسُ ». فبعدها أمر دانيال قائلا: « فَتَأَمَّلِ الْكَلَامَ وَأَفْهَمْ الرُّؤْيَا » كان أول كلام قاله له الملك هو هذا: « سَبْعُونَ أُسْبُوعًا قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى مَدِينَتِكَ الْمُقَدَّسَةِ ». إن الكلمة المترجمة هنا « قضيت » معناها الحرفي هو اقتطعت أو استُنزلت. فَالسَّبْعُونَ أُسْبُوعًا التي ترمز إلى ٤٩٠ سنة أعلن الملك عنها أنها اقتطعت على اعتبار أنها خاصة باليهود. ولكن مم اقتطعت؟ حيث أن الـ ٢٣٠٠ يوما هي المدة الوحيدة المذكورة في الأصحاح الثامن فلا بد أن تكون هي المدة التي كانت ستقطع منها السبعون أسبوعا. فإذا ينبغي أن تكون السبعون أسبوعا جزءا من الـ ٢٣٠٠ يوما. وينبغي أن تبدأ المدتان معا. وقد أعلن الملك أن السبعين أسبوعا تبدأ منذ خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها فإذا أمكن العثور على تاريخ ذلك الأمر فيمكن التأكد من نقطة الابتداء في تلك الفترة العظيمة أي الـ ٢٣٠٠ يوما.

وفي الأصحاح السابع من سفر عزرا يوجد ذلك الأمر في الآيات ١٢-١٦. إن أُرْتَحَشَسْتَا ملك فارس، أصدر هذا الأمر في أكمل صورة في عام ٤٥٧ ق.م. ولكن في (عزرا ٦: ١٤) نجد الكتاب يقول أن بيت الرب الذي في أورشليم قد بني « حسب ... أمر كورش وداريوس وأُرْتَحَشَسْتَا ملك فارس ». فهؤلاء الملوك الثلاثة في إصدارهم لهذا الأمر وإعادة تثبيته وإكماله أوصلوه إلى الكمال الذي تتطلبه النبوة ليعين بداية الـ ٢٣٠٠ سنة. فإذ نجعل عام ٤٥٧ ق.م الوقت الذي فيه كمل ذلك الأمر كتاريخ لصدوره فكل ما قد حددته النبوة عن السبعين أسبوعا يرى أنه قد تم.

« من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثان وستون أسبوعا — أي ٦٩ أسبوعا أو ٤٨٣ سنة. إن أمر أُرْتَحَشَسْتَا نُفِذَ في خريف سنة ٤٥٧ ق.م. ومن هذا التاريخ تمت الـ ٤٨٣ سنة إلى خريف سنة ٢٧ م. (انظر التذييل) وفي ذلك الوقت تمت هذه النبوة. إن كلمة « المسيح » معناها « الممسوح ». ففي خريف سنة ٢٧ م. تعمد المسيح على يدي يوحنا المعمدان، وقبل مسحة الروح. وبطرس الرسول يشهد بأن « يَسُوعُ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ كَيْفَ مَسَحَهُ اللَّهُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَالْقُوَّةِ » (أعمال ١٠: ٣٨). وقد أعلن المخلص نفسه قائلا: « رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّهُ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ » (لوقا ٤: ١٨). وبعدها اعتمد انتقل إلى الجليل وكان « يَكْرِزُ بِبَشَارَةِ مَلَكُوتِ اللَّهِ وَيَقُولُ: « قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ » (مرقس ١: ١٤، ١٥).

تقديم الإنجيل إلى العالم

« وَيُثَبِّتُ عَهْدًا مَعَ كَثِيرِينَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ » (دانيال ٩: ٢٧). إن هذا « الأسبوع » المذكور أمانا هو آخر أسبوع في الأسابيع السبعين. وهو آخر سبع سنين في المدة المخصصة لليهود. وفي خلال هذه المدة التي تمتد من سنة ٢٧ إلى سنة ٣٤ م. نشر المسيح دعوة الإنجيل أولا بنفسه، وبعد ذلك بواسطة تلاميذه لليهود بوجه خاص. وإذا خرج الرسل حاملين بشاراة المَلَكُوتِ كانت وصية المخلص لهم هي هذه: « إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لَا تَمْضُوا، وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لَا تَدْخُلُوا. بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خَرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ » (متى ١٠: ٦، ٥).

« وَفِي وَسَطِ الْأُسْبُوعِ يُبْطَلُ الذَّبِيحَةُ وَالتَّقْدِمَةُ » (دانيال ٩: ٢٧) ففي عام ٣١ م. أي بعد معموديته بثلاث سنين ونصف صلب سيدنا. فإذ قدمت تلك الذبيحة العظيمة في جلجثة أبطل نظام الذبائح والتقدمات الذي ظل مدى أربعة آلاف سنة يشير إلى حمل الله. لقد التقى الرمز بالرموز إليه، وكل ذبائح النظام الطقشي وتقدماته كانت ستبطل هناك.

إن السبعين أسبوعا والـ ٤٩٠ سنة المحددة لليهود خصيصا انتهت كما قد رأينا في عام ٣٤ م. وفي ذلك الوقت وبسبب ما عمله مجمع السنهدريم اليهودي ختمت الأمة على رفضها للإنجيل باستشهاد استفانوس واضطهاد أتباع المسيح. وحينئذ قدمت إلى العالم رسالة الخلاص التي لم تعد مقصورة على الشعب المختار. وإذا أرغم التلاميذ على الفرار من أورشليم بسبب الاضطهاد « جَالُوا مُبَشِّرِينَ بِالْكَلِمَةِ »، « فَإِنْ حَذَرَ فِيلُبُّسُ إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ وَكَانَ يَكْرِزُ لَهُمْ بِالْمَسِيحِ ». وإذا كان بطرس منقادا بمشورة الله كرز بالإنجيل لقائد المئة في قيصرية، لكنيليوس الرجل الذي كان تقيا وخائف الله،

وبولس الغيور قبل الإيمان بالمسيح فأرسل ليحمل البشارة « إلى الأمم بَعِيدًا » (أعمال ٨: ٤، ٥؛ ٢٢: ٢١).

إلى هنا تمت كل النبوات بحذافيرها وُحِدَت بداءة السبعين أسبوعا فوق كل شك وتساؤل في عام ٤٥٧ ق.م وانتهت في عام ٣٤ م. ومن هذه الحقيقة لن يصعب علينا الاهتداء إلى نهاية الـ ٢٣٠٠ يوما. فباقتطاع السبعين أسبوعا — ٤٩٠ يوما — من الـ ٢٣٠٠ يوما يتبقى ١٨١٠ أيام. وبعد نهاية الـ ٤٩٠ يوما بقيت الـ ١٨١٠ أيام التي لم تتم بعد. ومن عام ٣٤ م. امتدت الـ ١٨١٠ أيام إلى عام ١٨٤٤. ولذلك فإن الـ ٢٣٠٠ يوما المذكورة في (دانيال ٨: ١٤) تنتهي في عام ١٨٤٤. وفي نهاية هذه المدة النبوية العظيمة « يتبرأ (يتطهر) القُدس » بناء على شهادة ملاك الله. وهكذا فوق تطهير الهيكل الذي أجمع غالبية الناس على أنه سيحدث عند المجيء الثاني حدد وأشير إليه.

وقد كان ميلر ورفاقه يعتقدون أولا أن الـ ٢٣٠٠ يوما تنتهي في ربيع عام ١٨٤٤ بينما النبوة تشير إلى خريف تلك السنة (انظر التذييل). إن سوء فهم هذه النقطة أوقع الخيبة والارتباك عند من حددوا وقتا مبكرا على أنه وقت مجيء الرب. ولكن هذا لم يكن له أقل تأثير على قوة الحجة التي برهنت على أن الـ ٢٣٠٠ يوما انتهت في عام ١٨٤٤، وإن تلك الحادثة العظيمة المشار إليها بتطهير القدس ينبغي أن تتم في ذلك الحين.

دليل واضح قاطع

عندما بدأ ميلر بدرس الكتاب ليبرهن أنه إعلان من الله لم يكن لديه أي أمل بأنه سيصل إلى هذه النتيجة، وهو نفسه كان ضعيف الثقة بنتائج بحثه واستقصائه. لكن البرهان الكتابي كان من الوضوح والقوة بحيث لا يمكن إغفاله أو طرحه جانبا.

ولقد كرس عامين كاملين لدرس الكتاب حتى وصل إلى الاقتناع الخطير في عام ١٨١٨ بأن المسيح سيظهر لفداء شعبه بعد قرابة ٢٥ سنة. ويقول ميلر: « لست في حاجة إلى الكلام عن الفرح الذي ملأ قلبي أمام هذا الأمل المبهج ولا عن أشواق نفسي الحارة للاشتراك في أفراح المفتدين. وقد صار الكتاب المقدس في نظري حينئذ كتابا جديدا. لقد كان في الحق وليمة لعقلي. وكل ما كان قاتما أو غامضا أو مبهما من تعاليمه انقشع من عقلي أمام النور الصافي الذي أشرق علي من خلال سطروره. وكم بدا الحق باهرا ومجيدا! فكل المتناقضات وعدم التوافق التي كنت قد وجدت في الكتاب من قبل ذهبت إلى غير رجعة. ومع وجود كثير من الأجزاء التي لم أكن قانعا بأنني قد أدركتها إدراكا كاملا، انبثق في عقلي نور عظيم بعدما كان مظلمًا بحيث أحسست بفرح من دراستي الكتاب لم أكن أظن قبلا أنني سأستقيمه من تعاليمه (٢٩٧).

« وإذ كنت مقتنعا اقتناعا مقدسا بأن تلك الحوادث المهمة كان قد أنبأ بها في الكتاب المقدس لتتم بعد وقت قصير جاءني هذا السؤال بقوة عظيمة عن مدى واجبي تجاه العالم على ضوء البرهان الذي أثر في عقلي » (٢٩٨)، فلم يسعه إلا الإحساس بأن الواجب يقتضيه أن يشارك الآخرين في النور الذي قد حصل عليه. وكان يتوقع مقاومة الأشرار، لكنه كان واثقا أن كل المسيحيين سيفرحون

برجاء لقاء المخلص الذي كانوا يعترفون بأنهم يحبونه. وكان خوفه الوحيد ناشئاً من أن كثيرين من شدة فرحهم برجاء الخلاص المجيد الموشك أن يتم سريعا سيقبلون التعليم من دون أن يفحصوا الكتب الفحص الكافي لإظهار صدقه، ولذلك تردد في تقديم ذلك التعليم لئلا يكون مخطئاً فيتسبب في تضليل الآخرين، وعمد إلى مراجعة البراهين لدعم الاستنتاجات التي وصل إليها، والتأمل بكل اهتمام وحرص في كل مشكلة تعرض لعقله. وقد رأى أن الاعتراضات قد تلاشت أمام نور كلمة الله كما يتلاشى الضباب أمام أشعة الشمس. وإذ قضى خمس سنين على هذا المنوال اقتنع إقناعاً كاملاً بسلامة موقفه.

تحذير العالم

والآن فها واجب إطلاع الآخرين على ما اعتقد أن الكتاب يعلمه بكل وضوح يلح عليه بقوة جديدة، فقال: « عندما كنت في عملي كان هذا القول يرن في أذني بدون انقطاع قائلاً: « اذهب وحذر العالم من الخطر المحدق به ». وقد ظل هذا القول الإلهي يلاحقني: « إذ قلت للشرير يا شرير موتاً تموت فإن لم تتكلم لتحذر الشرير من طريقه فذلك الشرير يموت بذنبه أما دمه فمن يدك أطلبه. وإن حذرت الشرير من طريقه ليرجع عنه ولم يرجع عن طريقه فهو يموت بذنبه أما أنت فقد خلصت نفسك » (حزقيال ٣٣: ٨، ٩). وقد أحسست أنه لو أُنذر الأشرار على نحو فعال فسيتوب كثيرون منهم. فإذا لم يُنذروا فسيطلب دمهم من يدي »

ثم بدأ في عرض آرائه لجماعات خاصة كلما أُتيحت فرصة، مصلياً إلى الله حتى يحس كل خادم بقوتها ويكرس نفسه لنشرها. لكنه لم يستطع أن يبعد عن نفسه الاقتناع بأن عليه واجباً شخصياً يتممه بتقديم الإنذار. وقد كان هذا الخاطر يلازمه دائماً ويهمس في قلبه قائلاً: « اذهب وأخبر العالم بهذا الإنذار. إني سأطلب دم الناس من يدك ». وقد ظل منتظراً تسع سنين، وكان عبء المسؤولية لا يزال يضغط قلبه إلى أن كان عام ١٨٣١ عندما جاهر علانية بأسباب إيمانه لأول مرة.

يدعى لترك المحراث

وكما دُعي إلى إشع لترك محراثه وثيرانه في الحقل ويلبس رداء التكريس للوظيفة النبوية كذلك دُعي وليم ميلر لترك محراثه ويكشف للناس عن أسرار ملكوت الله. فشرع في عمله بارتعاد وهو يقود سامعيه خطوة خطوة عبر الفترات النبوية إلى ظهور المسيح ثانية. وفي كل مجهود اكتسب قوة وشجاعة عندما رأى الاهتمام البعيد المدى الذي أثارته أقواله.

استجاب ميلر التماس أخوته الذين سمع في أقوالهم صوت الله فقبل أن يجاهر بآرائه. كان قد بلغ الخمسين من عمره حينذاك، ولم يكن معتاداً مخاطبة الجماهير، وكان يحس بعدم أهليته للقيام بالعمل الذي أمّامه. ولكن منذ بدأ في ذلك العمل تباركت أعماله وخدماته على نحو عجيب لخلاص النفوس. فأول محاضرة ألقاها حدث بعدها انتعاش ديني تجددت به ثلاث عشرة عائلة كاملة ما عدا شخصين اثنين. وفي الحال الحوا عليه أن يتكلم في أماكن أخرى، وفي كل مكان تقريباً نتج من جهوده انتعاش عمل الله. وقد تجدد الخطاة وأوقظ المسيحيون لتكريس أنفسهم تكريساً أكمل، والتزم ذوو

الاعتقاد الخاطيء عن الله والملحدون أن يعترفوا بصدق الكتاب المقدس والدين المسيحي. وقد شهد عنه من خدم بينهم بالقول: « استطاع الوصول إلى عقول طبقة من الناس لم يكن لغيره أن يؤثر فيهم » (٢٩٩). لقد كانت كرازته كفيلة بأن توقظ عقول الجماهير للتفكير في أمور الدين المهمة وتوقف محبة العالم والشهوانية المتفشيتين في ذلك العصر عند حدهما.

وفي كل مدينة تقريبا تجدد عشرات وأحيانا مئات نتيجة لكرازته. وفي أماكن كثيرة فتحت له الكنائس البروتستانتية من كل الطوائف أبوابها على سعتها، وانهاالت عليه الدعوات من خدام الكنائس المختلفة ليعلم. وقد كان القانون الذي لم يجد عنه هو إلا يخدم في مكان لم يدع إليه، ومع ذلك فسرعان ما وجد أنه لا يستطيع إجابة نصف الطلبات التي كانت تنهال عليه.

وكثيرون ممن كانوا يخالفونه الرأي عن الوقت الصحيح للمجيء الثاني اقتنعوا بيقينية المجيء الثاني للمسيح وبقرب حدوثه وبحاجتهم إلى الاستعداد له. وفي بعض أمهات المدن كان لعمله تأثير ملحوظ. فتجار الخمر تركوا التجارة وحولوا حوانيتهم إلى أماكن للاجتماعات الدينية، ومغاور المقامرة انفض الناس عنها، وذوو الاعتقاد الخاطيء عن الله والملحدون والقائلون أن جميع الناس سيخلصون في النهاية، وحتى أشد الخليعين استهتارا أصلحوا، مع أن بعضا منهم لم يكونوا قد دخلوا بيتا من بيوت العبادة منذ سنين. وقد أقيمت اجتماعات للصلاة. أقامت الطوائف المختلفة في أحياء عديدة في كل ساعة تقريبا، وكان رجال الأعمال يجتمعون في وقت الظهر للعبادة والتسبيح. ولم يسرف الناس في الاهتياج بل كان الوقار سائدا على أغلب العقول. وقد أدى عمل ميلر إلى إقناع الأفهام والعقول، كما كانت الحال مع المصلحين الأولين، لا إلى إثارة الانفعالات.

ترخيص بالكراسة

وفي عام ١٨٣٣ حصل ميلر على ترخيص بالكراسة من الكنيسة المعمدانية التي كان عضوا فيها. وقد أقر أيضا عدد كبير من خدام طائفته عمله، وبمصادقتهم الرسمية واصل عمله. وقد كان يسافر ويكرز بلا انقطاع، وإن اقتصر خدماته الشخصية بصورة رئيسة على نيوانكلند والولايات الوسطى. وعلى مدى سبع سنين ظل ينفق من ماله الخاص، ولم يتسلم بعد ذلك المال الكافي لنفقات سفره إلى الأماكن التي كان يدعى إليها. فبدلا من أن تكون خدماته العامة سببا في اجتناء نفع مالي له كانت ضريبة ثقيلة ناءت بها موارده الضئيلة التي كانت تتناقص تدريجا خلال هذه الفترة من حياته. لقد كان أبا لأسرة كبيرة، ولكن بما أن غايتهم كانت الاقتصاد في الإنفاق والكد في العمل فقد كانت مزرعته كافية للإنفاق عليهم وعليه.

« والنجوم تسقط »

وفي عام ١٨٣٣، أي بعد سنتين من تقديم ميلر لبراهينه علنا عن سرعة مجيء المسيح، ظهرت آخر العلامات التي وعد بها المخلص قبل مجيئه الثاني. فلقد قال يسوع: « وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ » (متى ٢٤: ٢٩). ويوحنا إذ رأى في رؤيا المشاهد التي تنذر بمجيء يوم الرب أعلن قائلا: « وَنُجُومُ السَّمَاءِ سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا تَطَرَّحُ شَجَرَةُ التِّينِ سُقَاطَهَا إِذَا هَرَّتْهَا رِيحٌ عَظِيمَةٌ » (رؤيا ٦: ١٣). هذه

النبوة تمت بطريقة مذهشة ومؤثرة عندما تساقط وابل من الشهب في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٨٣٣. كانت ظاهرة واسعة النطاق وعجيبة إذ تساقطت النجوم على نحو لا مثيل له، « فصار كل جلد السماء فوق كل الولايات المتحدة كتلة من النار المتصادمة بعضها ببعض لمدى ساعات! لم يحدث مثل هذه الظاهرة السماوية في هذه البلاد (أمريكا) منذ أن أنشئت، وقد شاهدتها بعض طبقات المجتمع بإعجاب، وشاهدها آخرون برعب عظيم ». « إن كثيرين لا يزالون يذكرون سموها وجمالها الرهيب ... لم يحدث أن انهمرت الأمطار بأغزر مما سقطت الشهب على الأرض، في الشرق والغرب والشمال والجنوب على السواء. وبالجملة فقد كانت كل السماوات تتحرك ... إن المشهد كما جاء وصفه في صحيفة البروفسور سيليمان قد شوهد في عرض سماء أمريكا الشمالية كلها ... فمن الساعة الثانية صباحا إلى أن أشرق نور النهار، إذ كانت السماء ساكنة وصافية، كانت ترى أنوار مضيئة تبهر الأبصار تلمع بلا انقطاع في السماء » (٣٠٠).

« لا يستطيع قلم كاتب، بالغاً ما بلغ من الفصاحة وحسن التعبير، أن يصف بهاء ذلك المنظر العظيم ... وليس في وسع من يشهده أن يكون فكرة مناسبة صحيحة عن بهائه ومجده. وقد بدا كأن كل نجوم السماء قد اجتمعت في بقعة

واحدة في كبد السماء وراحت في آن واحد تقذف أنوارها بسرعة البرق في كل أنحاء الأفق، ومع ذلك فهي لم تنفد على رغم أن آلاف منها تتالت في أثر آلاف كما لو كانت قد خلقت لتلك المناسبة » (٣٠١). « ولم يكن في المستطاع مشاهدة منظر أقرب إلى هذه الظاهرة من منظر شجرة تين وهي تطرح سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة » (٣٠٢).

وفي صحيفة « نيويورك التجارية » الصادرة في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٨٣٣ ظهر مقال طويل عن تلك الظاهرة العجيبة فيه هذا القول: « لا أظن أن فيلسوفا وصف أو عالما روى حدوث ظاهرة شبيهة بما حدث أمس صباحا. إنما نبي وصفها منذ ١٨٠٠ سنة وصفا مطابقا تماما، أعني إذا كنا ندرك أن تساقط نجوم السماء يعني تساقط الشهب ... إذ أن الكلمة تصح حرفيا بهذا المعنى فقط ».

وهكذا ظهرت آخر تلك العلامات على مجيء المسيح الذي أشار إليه عندما قال لتلاميذه: « مَتَى رَأَيْتُمْ هَذَا كُلَّهُ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى الْأَبْوَابِ » (متى ٢٤: ٣٣). وبعد هذه العلامات رأى يوحنا الحادثة التالية الموشكة أن تحدث إذ رأى وإذا السماء قد انفلقت كدرج والأرض تزلزلت وكل جبل وجزيرة ترحزا من موضعهما، وإذا الأشرار في رعبهم وخوفهم يحاولون الهروب من حضرة ابن الإنسان (رؤيا ٦: ١٢-١٧).

نذير بالدينونة

إن كثيرين ممن شاهدوا سقوط النجوم نظروا إلى ذلك الحادث على أنه نذير باقتراب الدينونة. « إنها رمز مخيف وسابق أكيد وعلامة رحيمة لذلك اليوم العظيم الرهيب » (٣٠٣)*. وهكذا اتجه انتباه الناس إلى إتمام النبوة، وكثيرون انتبهوا إلى الإنذار بمجيء الرب ثانية.

وفي عام ١٨٤٠ تمت نبوة أخرى عظيمة، فأثار ذلك اهتمام الناس عامة. قبل ذلك بعامين نشر يوشيا لتش، أحد مشاهير الخدام الكارزين بالمجيء الثاني، تفسيراً لما جاء في الأصحاح التاسع من سفر الرؤيا الذي ينبئ بسقوط الإمبراطورية العثمانية. وبناء على حسابه كان ذلك سيحدث « في عام ١٨٤٠ م في أحد أيام شهر آب (أغسطس) ». وقبل إتمام تلك النبوة بأيام قلائل كتب يقول: « إذا اعتبرنا المدة الأولى التي طولها ١٥٠ سنة قد تمت بالضبط قبلما اعتلى ديكوزس العرش بإذن من الأتراك، وأن الـ ٣٩٣ سنة والخمسة عشر يوماً قد بدأت في نهاية المدة الأولى فهي ستنتهي في يوم ١١ آب (أغسطس) من عام ١٨٤٠ عندما يتحطم الحكم العثماني في القسطنطينية. وهذا ما سيتبرهن صدقه على ما اعتقد » (٣٠٤).

وفي ذلك الوقت المحدد عينه قبلت تركيا عن طريق سفرائها حماية الجيوش الأوروبية المتحالفة، وهكذا وضعت نفسها تحت سيادة الأمم المسيحية. فكان ما حدث إتماماً صحيحاً للنبوة (انظر التذييل). وعندما عُرف ذلك اقتنع كثيرون بصحة مبادئ التفسير النبوي الذي قدمه ميلر وزملاؤه، وكان ذلك قوة دافعة لحركة المجيء الثاني. وقد انضم إلى ميلر بعض رجال العلم والمراكز السامية في الكرازة وفي نشر آرائه. ومن عام ١٨٤٠ إلى عام ١٨٤٤ امتد العمل بسرعة.

الكتاب المقدس فقط

كان وليم ميلر يتمتع بقوة ذهنية جبارة. وكان مدرباً في تفكيره ودراسته، وأضاف إلى ذلك كله حكمة السماء باتصاله بنبع الحكمة. كان رجلاً ذا قيمة عظيمة، وكان يظفر بالاحترام والتقدير في كل مكان، والناس يقدرون فيه الخلق المستقيم والآداب العالية. فإذ جمع بين الشفقة القلبية الصادقة والوداعة المسيحية وقوة ضبط النفس كان لطيفاً نحو الجميع مستعداً لأن يصغي إلى آراء الآخرين ويزن حججهم. ومن دون غضب أو احتياج كان يختبر كل المبادئ والتعاليم بواسطة كلمة الله، وقد مكنته حججه السليمة ومعرفته الكاملة للكتاب من دحض الأخطاء والضلالات وفصح الأكاذيب.

ومع ذلك فهو لم ينجز عمله من دون مقاومة مرة. فكما كانت الحال مع المصلحين الأولين فإن الحقائق التي قدمها لم تظفر باستحسان معلمي الدين المشهورين. ولأن هؤلاء الناس لم يستطيعوا أن يبرروا موقفهم هذا مما ورد في الكتاب فقد لجأوا إلى أقوال الناس وتعاليمهم وتقاليدهم. لكن كلمة الله كانت هي الشهادة الوحيدة التي قبلها الكارزون بحقيقة المجيء الثاني. لقد كانت كلمة السر عندهم هي هذه: « الكتاب، ولا شيء غير الكتاب ». وإذ عجز خصومهم عن إيراد الحجج الكتابية استعاضوا عنه بالسخرية والاستهزاء، واستخدموا وقتهم ووزناتهم في الطعن في الذين كان ذنبهم الوحيد أنهم ينتظرون مجيء الرب بفرح ويجتهدون في أن يحيوا حياة القداسة وينذرون الآخرين ليكونوا متأهبين لظهوره.

وقد بذلت جهود جبارة لصرف أذهان الناس عن التفكير في موضوع المجيء الثاني. واعتبرت دراسة النبوات التي تشير إلى مجيء المسيح ثانية وانقضاء الدهر خطية وأمرًا مخجلاً. وهكذا قوض الخدام المشهورون الإيمان بكلمة الله. وصيرت تعاليمهم الناس ملحدين. وكثيرون استباحوا السير

في طريق شهواتهم الدنسة. وألقى المتسببون بنشر الشر باللائمة على الذين يؤمنون بالمجيء الثاني. ومع أن ميلر اجتذب بعضاته جماهير من المستمعين الأذكياء فإن دور النشر الدينية ندر أن ذكرت اسمه إلا بقصد السخرية أو التشهير. ولما كان هذا التصرف من معلمي الدين مشجعا للامباليين والفجار فقد عمد هؤلاء إلى وصفه بالألقاب المشينة والنكات التجديفية في محاولة لوصمه وعمله بالعار. فذلك الرجل الأشيب الذي ترك بيته المريح ليسافر من مدينة إلى أخرى على نفقته الخاصة، مجاهدا جهادا متواصلا ليحمل إلى العالم الإنذار الخطير بقرب الدينونة، سخروا منه وشهروا به ونعتوه بالتعصب والكذب، واتهموه بأنه وغد نصاب.

ازدياد الاهتمام

تلك السخرية والكذب والإهانات التي انصبت عليه أثارت الاحتجاج الغاضب حتى من دور النشر الدنيوية. « إن تناول مثل هذا الموضوع ذي الجلال العظيم والخطورة البالغة » بالاستخفاف وبذاءة اللسان، أعلن عنه أهل العالم بأنه « ليس مجرد عبث بمشاعر مذيعة ومؤيديه ولكنه هزء بيوم الدينونة وسخرية بالله نفسه وازدراء بأهوال كرسي دينونته » (٣٠٥).

لقد حاول المحرض على كل شر ليس فقط أن يعطل ويبطل تأثير رسالة المجيء الثاني بل أيضاً أن يهلك الرسول نفسه. فميلر طبق الكتاب المقدس وحاول أن يجعله يمس قلوب السامعين، موبخا خطاياهم ومزعجا رضاهم عن أنفسهم، وقد كان كلامه الصريح القاطع مثيرا لعداوتهم. هذا، وأن مقاومة أعضاء الكنائس رسالته جرأت الطبقات الوضيعة على أن يتطرفوا في عدوانهم، فتأمر الأعداء على اغتياله عند خروجه من مكان الاجتماع. لكن الملائكة القديسين كانوا حاضرين، فاتخذ أحدهم صورة إنسان وأمسك بذراع خادم الرب هذا وأخرجه بسلام من وسط ذلك الجمع الغاضب. فعمله لم يكن قد أكمل بعد، ولذا أخفق الشيطان ورسله في تحقيق أغراضهم.

ولكن على رغم كل المقاومات فإن اهتمام الناس برسالة المجيء الثاني ظل يتزايد. فلقد زاد عدد الحضور من العشرات والمئات إلى أن بلغ ربوات ومئات الألوف. وقد زاد عدد الحاضرين إلى الكنائس المختلفة، ولكن بعد قليل ظهرت روح المقاومة حتى ضد هؤلاء المتجددين أنفسهم، ولجأت الكنائس إلى اتخاذ إجراءات تأديبية ضد معتنقي تعاليم ميلر، ما جعله يرد برسالة مكتوبة أرسلها إلى الكنائس والمسيحيين من مختلف الطوائف قائلاً لهم أنه إذا كانت تعاليمه كاذبة فعليهم أن يروه خطأه وضلاله من الكتاب المقدس.

قال: « بماذا آمنا مما لم تأمرنا به كلمة الله التي تقولون أنتم أنفسكم أنها هي القانون للإيمان والأعمال؟ وما الذي عملناه مما يُنزل علينا مثل هذه التشهيرات المؤذية من فوق المنابر ومن دور النشر، الأمر الذي أعطاكم سببا عادلا لطردها نحن المجيئين من كنائسكم وشركتكم؟ ». « إن كنا على ضلال فأخبرونا في أي شيء ضللنا. أرونا ضلالنا من كلمة الله بالبرهان القاطع. لقد سخر الساخرون منا بما فيه الكفاية، ولكن هذه السخریات لا تستطيع أن تقنعنا بأننا على ضلال، فكلمة الله وحدها هي التي تجعلنا نغير آراءنا. وإن استنتاجاتنا لم تأت إلا وليدة الصلاة والتدقيق، كما قد رأينا

البراهين من الكتاب المقدس « (٣٠٦).

شك وعدم إيمان

إن الإنذارات التي أرسلها الله إلى العالم من جيل إلى جيل على أفواه خدامه قوبلت بمثل هذا الشك وعدم الإيمان. فعندما أثارت آثام الناس وشروهم، قبل الطوفان، غضب الله لكي يرسل عليهم طوفانا من الماء أخبرهم قبل ذلك بما كان ينوي أن يفعله لكي تكون لهم فرصة فيها يرجعون عن طرقهم الشريرة. وطوال مئة وعشرين سنة كان صوت الإنذار يرن في آذانهم داعيا إياهم إلى التوبة لئلا يهلكهم الله بغضبه. لكنهم اعتبروا هذه الرسالة تفاهة فلم يصدقوها. ثم زادت جرأتهم في شرهم فجعلوا يسخرون من رسول السماء واستخفوا بتوسلاته واتهموه بالخطيئة والتصلف. فكيف يجروء رجل واحد على الوقوف في وجه كل عظماء الأرض؟ فإذا كانت رسالة نوح صادقة لماذا لم يرها الناس ولم يصدقوها؟ هل يصمد تصريح رجل واحد أمام حكمة آلاف الناس؟ لم يصدقوا الإنذار، وبالتالي لم يحتسبوا في الفلك.

لقد أشار الساخرون الهازئون إلى أمور الطبيعة — إلى تتابع الفصول من دون أقل تغيير، وإلى السماء الصافية التي لم تمطر أبدا، وإلى الحقول الياض التي كان ينعشها ندى الليل — فصاحوا قائلين: « ألا يمثل أمثالا؟ » وفي احتقار شديد أعلنوا أن الكارز بالبر إن هو إلا متحمس تائر، وظلوا سائرين في طريقهم، وزاد تلهفهم على المسرات وإصرارهم على السير في طرقهم الشريرة أكثر من قبل. لكن عدم إيمانهم لم يؤخر وقوع تلك الكارثة التي قد أنبى بها. لقد احتمل الله شروهم طويلا وأعطاهم متسعا من الوقت للتوبة، ولكن في الوقت المعين افتقد الله بدينوته أولئك الذين رفضوا رحمته.

النهاية تأتي بغتة

والمسيح يعلن أن عدم الإيمان نفسه سيتناول مجيئه الثاني. فكما أن الناس في أيام نوح « لَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ الطوفان وَأَخَذَ الْجَمِيعَ »، « كَذَلِكَ » — كما يقول مخلصنا — « يَكُونُ أَيْضاً مَجِيءُ ابْنِ الْإِنْسَانِ » (متى ٢٤: ٣٩). فعندما يتحد المعترفون بأنهم شعب الله مع العالم، ويعيشون كما يعيش أولئك ويشاركونهم في مسراتهم المحرمة، وعندما يصير ترف العالم سائدا في الكنيسة، وعندما تدق أجراس أفراح الزواج، والجميع ينتظرون مجيء سنوات طويلة من النجاح العالمي، حينئذ يفاجأون بانتهاء أحلامهم البراقة وزوال رجائهم الخادع كما يظهر البرق من السماء.

وكما أرسل الله عبده لينذر العالم بمجيء الطوفان كذلك أرسل أناسا مختارين ليعلنوا للناس عن قرب الدينونة الأخيرة. وكما سخر معاصرو نوح من تنبؤات ذلك الكارز بالبر فكذلك في أيام ميلر سخر به الناس وهزأوا بأقواله، ومن بينهم من يدعون أنفسهم شعب الله.

ولكن لماذا لم ترحب الكنائس بعقيدة المجيء الثاني والكراسة بها؟ إن مجيء الرب وإن كان يسبب للأشوار الويل والدمار فإنه بالنسبة إلى الأبرار مفعم بالفرح والرجاء. فهذا الحق العظيم كان مبعث عزاء لشعب الله الأمانة مدى العصور، إذا فلماذا صار كمبدعه « حجر صدمة وصخرة عثرة » لشعبه؟

إن الرب نفسه هو الذي وعد تلاميذه قائلا: « وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعَدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا آتِي أَيْضًا وَآخُذْكُمْ إِلَيَّ » (يوحنا ١٤: ٣). والمخلص الرحيم هو الذي إذ لاحظ وحشة تابعيه وحزنهم أرسل ملاكين ليعزيابهم بيقين كونه سيأتي ثانية هو بنفسه كما انطلق عنهم إلى السماء. وإذ ظل التلاميذ شاخصين باهتمام إلى فوق ليلقوا نظرة الوداع على ذاك الذي أحبوه استرعت هذه الكلمات انتباههم: « أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ، مَا بِالْكُمُ وَاقْفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ » (أعمال ١: ١١). وقد أضربت رسالة الملاكين هذه، الرجاء في قلوبهم مجدداً. إن التلاميذ "فَسَجَدُوا لَهُ وَرَجَعُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ، وَكَانُوا كُلُّ حِينٍ فِي الْهَيْكَلِ يُسَبِّحُونَ وَيُبَارِكُونَ اللَّهَ » (لوقا ٢٤: ٥٢، ٥٣). إنهم لم يفرحوا لأن يسوع قد انفصل عنهم بينما تركوا هم ليكافحوا ضد تجارب العالم وإغراءاته، بل لأن الملاكين قد أكدوا لهم أنه سيأتي ثانية.

إن المناداة بالمجيء الثاني للمسيح ينبغي أن تكون الآن كما كانت رسالة الملائكة لرعاة بيت لحم بشرى بفرح عظيم. ومن يحبون المخلص بالحق لا يسعهم إلا أن يُحيوا بفرح الإعلان المبني على كلمة الله: إن ذاك الذي فيه تتركز آمالهم في الحياة الأبدية آت ثانية لا ليهان ويُحتقر ويرفض كما في مجيئه الأول، بل بقوة ومجد عظيم ليفدي شعبه. أما الذين لا يحبون المخلص فيرغبون في أن يظل بعيدا، ولا يمكن أن يكون هنالك برهان جازم على أن الكنائس قد انحرفت عن الله كهذا الاهتياج والعداء للذين بهما تقابل رسالة السماء هذه.

إن من قد قبلوا تعليم المجيء الثاني تنبهوا إلى ضرورة التوبة والتذلل أمام الله. وكثيرون ظلوا طويلا يترجحون بين المسيح والعالم، أما الآن فقد أحسوا بأنه قد حان الوقت الذي فيه يقفون موقفا حاسما إلى جانب واحد من الاثنين. « إن الأشياء الخاصة بالأبدية اتخذت في نظرهم هيئة الحقيقة الملموسة على نحو غير عادي. لقد قربت السماء منهم فأحسوا بأنهم مذنبون أمام الله » (٣٠٧). لقد أنهض المسيحيون إلى حياة روحية جديدة. وصاروا يحسون بأن الوقت قصير، وأن ما يجب عليهم أن يعملوه لأجل بني جنسهم ينبغي لهم عمله بسرعة. وتقلصت الأرض وصغرت في نظرهم، وبدا كأن الأبدية تنفتح أمامهم. وشعروا بأن النفس وكل ما يتعلق بخيرها أو شقائها الأبدى تتضاءل وتصغر أمامها كل الأغراض المادية. لقد استقر عليهم روح الله ومنحهم قوة بها يقدمون توسلاتهم الحارة إلى أخوتهم وإلى كل الخطاة حتى يستعدوا ليوم الرب. إن شهادة حياتهم اليومية الصامتة كانت توبيخا دائما لأعضاء الكنائس المتمسكين بالطقوس وغير المكرسين. هؤلاء وأمثالهم لم يريدوا أن يزعجهم أحد أو يوقفهم عن أتباع مسراتهم أو انشغالهم في جمع المال والطموح في طلب الكرامة العالمية. ومن هنا نشأت العداوة والمقاومة التي أثرت ضد عقيدة المجيئين وكل من أذاعوها.

وإذ وجد أن الحجج المستقاة من الفترات النبوية منيعة ولا يمكن التغلب عليها حاول مقاومتها أن يشبطوا الهمم عن البحث والفحص في هذا الموضوع بقولهم أن النبوات قد ختمت. وهكذا سار البروتستانت في أثر خطوات البابويين. ففي حين أن الكنيسة البابوية تمنع وصول الكتاب (انظر التذييل) إلى أيدي الشعب، ادعت الكنائس البروتستانتية أن جزءا هاما من الكتب المقدسة — ولا سيما الجزء الذي يكشف لنا عن الحقائق التي تنطبق على عصرنا الحاضر — لا يمكن إدراكها.

لقد أعلن الخدام والشعب أن نبوات دانيال والرؤيا أسرار لا تفهم ولا تدرك. لكن المسيح وجه انتباه تلاميذه إلى أقوال دانيال النبي عن الحوادث التي كانت مزمنة أن تقع في أيامهم وقال: « لِيَفْهَمَ الْقَارِئُ » (متى ٢٤: ١٥). أما التصريح بأن سفر الرؤيا سر لا يمكن فهمه فهو قول ينقضه عنوان ذلك السفر نفسه: « اِعْلَانُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي أَعْطَاهُ إِيَّاهُ اللَّهُ، لِيُرِيَ عَبِيدَهُ مَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنْ قَرِيبٍ... طُوبَى لِلَّذِي يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَقْوَالَ النُّبُوَّةِ، وَيَحْفَظُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا، لَأَنَّ الْوَقْتَ قَرِيبٌ » (رؤيا ١: ١-٣).

سفر ينفتح

يقول النبي: « طوبى للذي يقرأ » — يوجد من لا يريدون أن يقرأوا. فالبركة ليست لهم. « ولِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ » — كذلك يوجد من يرفضون سماع أي شيء خاص بالنبوات، فالبركة ليست لهذا النوع من الناس. « ويحفظون ما هو مكتوب فيها » — كثيرون يرفضون الالتفات إلى الإنذارات والتعاليم المتضمنة في سفر الرؤيا. لا يستطيعون أحد من هؤلاء أن يدعي أن له حقا في هذه البركة الموعود بها. فكل من يسخرون بمواضيع النبوة ويهزأون بالرموز المقدمة هنا بكل وقار، وكل من يرفضون إصلاح حياتهم والاستعداد لمجيء ابن الإنسان لن ينالوا بركة.

وأمام شهادة الوحي كيف يجرؤ الناس على أن يعلموا أن سفر الرؤيا سر يقصر إدراك الناس عن معرفته؟ إنه سر معلن وسفر مفتوح. إن دراسة سفر الرؤيا توجه العقل إلى نبوات دانيال، وكلاهما يوفّران أهم التعاليم المقدمة من الله إلى الناس عن الحوادث المتوقعة حدوثها في نهاية تاريخ العالم. لقد انكشفت لعيني يوحنا مشاهد لها أهمية تهز المشاعر في اختبار الكنيسة. رأى مركز شعب الله والمخاطر والمعاربات التي سيجوزون فيها، ونجاتهم أخيرا. إنه يسجل الرسائل الختامية التي ستنتزع حصيد الأرض، إما كحزم تؤخذ إلى المخزن السماوي وإما كوقود لنيران الهلاك. لقد كشفت له مواضيع لها أهمية عظيمة، وعلى الخصوص عن الكنيسة الأخيرة، لكي يتعلم من ينبغي لهم أن يرجعوا عن أخطائهم وضلالتهم إلى الحق كل ما يختص بالمخاطر والمعاربات التي أمامهم. لا حاجة إلى إنسان أن يكون في ظلمة في ما يختص بما هو مقبل على الأرض.

فلماذا إذاً هذا الجهل المتفشى بالنسبة إلى جزء هام من الكتاب المقدس؟ ولماذا هذا النفور من فحص تعاليمه؟ إنه نتيجة مسعى مدروس قام به سلطان الظلمة ليخفي عن الناس ما يكشف لهم عن خداعه ومخاتلاته. فلهذا السبب إذ سبق المسيح فرأى الحرب المزمعة أن تندلع ضد من يقرأون سفر الرؤيا نطق بالبركة على كل من يقرأون ويسمعون ويحفظون أقوال النبوة.

**** كُتِبَ هذا القول في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٨٣٣.**

١٩ - نور وسط الظلام

يقدم إلينا عمل الله في الأرض من جيل إلى جيل تشابها مذهشا في كل إصلاح عظيم أو نهضة دينية. إن مبادئ معاملة الله للناس باقية كما هي لم تتغير قط. فالنهضات الهامة في الوقت الحاضر لها نظيرها في العصور الماضية، واختبار الكنيسة في العصور السالفة يوفر دروسا عظيمة القيمة لعصرنا هذا.

لا حقيقة يشرحها الكتاب بأكثر وضوح من تلك القائلة إن الله بروحه القدوس يوجه عبده على الأرض، خصوصا في النهضات العظيمة لأجل تقدم عمل الخلاص. إن الناس هم آلات في يد الله يستخدمهم لإنجاز مقاصد نعمته ورحمته. ولكل واحد عمله الذي يجب أن يقوم به، ويعطى كل واحد قدرا من النور ملائما لحاجات زمانه وكافيا لجعله ينجز العمل الذي وكله الله إليه. ولكن لا يوجد إنسان، مهما كان مقدار حيازته على رضى السماء عظيما، وصل إلى إدراك كامل لتدبير الفداء العظيم، أو حتى إلى التقدير الكامل للقصد الإلهي في العمل الذي في عصره. فالناس لا يدركون تماما ما يريد الله أن يتممه بالعمل الذي يوكله إليهم ليعملوه، ولا يفهمون أو يستوعبون الرسالة التي ينطقون بها باسمه في كل وجهاتها وعلاقاتها.

« أَلِى عُمُقِ اللّٰه تَتَّصِلْ، أَمْ إِلَى نِهَآيَةِ الْقَدِيرِ تَنْتَهِي؟ » (أَيُوب ١١: ٧)، « لَأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ، وَلَا طُرُقُكُمْ طُرُقِي، يَقُولُ الرَّبُّ. لَأَنَّهُ كَمَا عَلَتِ السَّمَاوَاتُ عَنِ الْأَرْضِ، هَكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنْ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي عَنْ أَفْكَارِكُمْ ». « لَأَنِّي أَنَا اللَّهُ وَلَيْسَ آخَرُ. إِلَهٌ وَلَيْسَ مِثْلِي. مُخْبِرٌ مُنْذُ الْبَدْءِ بِالْآخِرِ، وَمُنْذُ الْقَدِيمِ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ » (إشعيا ٥٥: ٨، ٩؛ ٤٦: ٩، ١٠).

فحتى الأنبياء الذين قد أكرمهم الله بإنارة الروح الخاصة لم يدركوا تماما فحوى الإعلانات المعطاة لهم. وكان ينبغي أن يكشف المعنى من جيل إلى جيل على قدر حاجة شعب الله إلى التعليم المتضمن فيها.

يقول بطرس وهو يكتب عن الخلاص الذي كشف للنور بواسطة الإنجيل: « الْخَلَاصَ الَّذِي فَتَشَّ وَبَحَثَ عَنْهُ أَنْبِيَاءُ، الَّذِينَ تَبَّأُوا عَنِ النِّعْمَةِ الَّتِي لِأَجْلِكُمْ، بَاحِثِينَ أَيَّ وَقْتٍ أَوْ مَا الْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَدُلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الْمَسِيحِ الَّذِي فِيهِمْ، إِذْ سَبَقَ فَشْهَدَ بِالْآلَامِ الَّتِي لِلْمَسِيحِ، وَالْأَمْجَادِ الَّتِي بَعْدَهَا. الَّذِينَ أَعْلَنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسَ لَأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لَنَا كَانُوا يَخْدُمُونَ » (١ بطرس ١: ١٠-١٢).

ولكن مع أنه لم يُعْطَ الأنبياء أن يدركوا الأمور المعلنة لهم إدراكا كاملا، فإنهم بكل غيرة طلبوا أن يُعطوا كل النور الذي سُرَّ الله بأن يعلنه لهم. لقد « فتشوا وبحثوا » « باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح ». ما أعظم هذا من درس يجب أن يتعلمه شعب الله في هذا العصر المسيحي الذين لأجل منفعتهم أعطيت لهم هذه النبوات « والذين أعلن لهم أنهم ليس لأنفسهم بل لنا كانوا يخدمون »! انظر إلى رجال الله القديسين أولئك وهم « يفتشون ويبحثون » عن إعلانات معطاة لهم عن أجيال لم تكن قد وُلدت بعد. وقارن بين غيرتهم المقدسة وعدم الاكتراث الفاتر الذي به يعامل أولئك المنعم عليهم في العصور التالية هبة السماء هذه. أي توبيخ هذا لعدم الاكتراث المتكاسل والمتهالك على أمور العالم والذي يعلن أن النبوات لا يمكن فهمها!

خيبة أمل التلاميذ

مع أن عقول الناس المحدودة قاصرة عن أن تدخل إلى مشورات الله غير المحدودة أو تدرك إدراكاً كاملاً إتمام أغراضه ومقاصده، فهم في الغالب بسبب خطأ أو إهمال من جانبهم يدركون رسائل السماء إدراكاً مبهماً وغامضاً جداً. وفي أحيان كثيرة نرى أن عقول الناس، وحتى عقول خدام الله، قد طمسها الآراء البشرية وتقاليد الناس وتعاليمهم الكاذبة بحيث يعجزون عن استيعاب كل العظائم التي قد أعلنها الله في كلمته إلا بقدر ضئيل جداً. هكذا كانت الحال مع تلاميذ المسيح حتى عندما كان المخلص معهم بنفسه. كان قد تأصل في عقولهم ذلك التصور أو الرأي المألوف عن مسيا كملك أرضي موشك أن يسمو بإسرائيل إلى عرش إمبراطورية مسكونية، فلم يستطيعوا أن يفهموا معنى أقواله المنبئة عن آلامه وموته.

كان المسيح نفسه قد أرسلهم بهذه الرسالة: « قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللَّهِ، فَتَوُبُوا وَآمِنُوا بِالْإِنْجِيلِ » (مرقس ١: ١٥). وقد كانت تلك الرسالة مبنية على ما ورد في الأصحاح التاسع من نبوة دانيال. لقد أعلن الملاك أن التسعة والستين أسبوعاً ستمتد إلى « المسيح الرئيس »، فكان التلاميذ ينتظرون بآمال عالية وتوقعات مفرحة، ويتوقون إلى تثبيت ملكوت المسيح في أورشليم عندما يملك على كل الأرض.

وقد كرروا بالرسالة التي سلمها المسيح إليهم مع أنهم هم أنفسهم لم يكونوا يفقهون معناها. ففي حين أن إعلانهم ومناداتهم كانا مبنيين على ما ورد في (دانيال ٩: ٢٥)، فإنهم لم يروا في الآية التالية من الأصحاح نفسه أن المسيح كان سيقطع. فمنذ ولادتهم كانوا قد وضعوا قلوبهم على مجد الإمبراطورية الأرضية المنتظرة، وهذا جعل عقولهم تعمى عن تحديد النبوة وعن معنى كلام المسيح. وقد قاموا بواجبهم في تقديم دعوة الرحمة إلى الأمة اليهودية، وحينئذ فيما كانوا ينتظرون أن يروا سيدهم يعتلي عرش داود رأوه مقبوضاً عليه كفاعل شر ومجلوداً ومُستهزأً به ومحكوماً عليه بالموت ومعلقاً على صليب جلجثة. فأى يأس وألم اعتصر قلوب أولئك التلاميذ في أثناء الأيام التي قضاها سيدهم مدفوناً في القبر!

لقد جاء المسيح في الوقت المعلن عنه وعلى النحو الوارد في النبوة. وتمت شهادة الكتاب في كل تفاصيل خدمته. فقد كرر برسالة الخلاص، وكان كلامه كلام من « له سلطان ». وقد شهدت قلوب سامعيه بأنه مرسل من السماء. وشهدت كلمة الله وروحه لعمل ابنه الإلهي.

عدم يقين

ظل التلاميذ متعلقين بمعلمهم الحبيب بمحبة لا نهاية لها. — ومع ذلك فقد كانت عقولهم مكتنفة بالشكوك وعدم اليقين. وفي عذابهم النفسي لم يذكروا أقوال المسيح التي أشار فيها إلى آلامه وموته. فإذا كان يسوع الناصري هو مسيا الحقيقي فهل كانوا يغوصون إلى أعماق الحزن والخيبة؟ هذا هو السؤال الذي عذب نفوسهم عندما كان المخلص مضطجعاً في القبر في أثناء ساعات اليأس في يوم ذلك السبت الفاصل بين موته وقيامته.

ولكن مع أن ليل الحزن تجمع بظلماته حول أتباع يسوع أولئك فإنهم لم يكونوا متروكين. لقد قال النبي: « إِذَا جَلَسْتُ فِي الظُّلْمَةِ فَالرَّبُّ نُورٌ لِي... سَيُخْرِجُنِي إِلَى النُّورِ، سَأَنْظُرُ بِهِ » (ميا ٧: ٨، ٩). « الظُّلْمَةُ أَيْضًا لَا تَظْلُمُ لَدَيْكَ، وَاللَّيْلُ مِثْلُ النَّهَارِ يُضِيءُ. كَالظُّلْمَةِ هَكَذَا النُّورُ ». لقد تكلم الله قائلا: « نُورٌ أَسْرَقَ فِي الظُّلْمَةِ لِلْمُسْتَقِيمِينَ » « وَأُسِيرَ الْعُمَى فِي طَرِيقٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا. فِي مَسَالِكٍ لَمْ يَدْرُوهَا أَمْشِيهِمْ. أَجْعَلِ الظُّلْمَةَ أَمَامَهُمْ نُورًا، وَالْمُعْوجَّاتِ مُسْتَقِيمَةً. هَذِهِ الْأُمُورُ أَفْعَلُهَا وَلَا أَتْرُكُهُمْ » (مز ١٣٩: ١٢؛ ١١٢: ٤؛ إشعياء ٤٢: ١٦)

إن الإعلان الذي أطلقه التلاميذ باسم الرب كان صحيحا بكل تفاصيله، والحوادث التي كان يشير إليها كانت قد حدثت حينئذ. « قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله »، هذه كانت رسالتهم. فعند انتهاء « الزمان » — التسعة والستين أسبوعا المذكورة في (دانيال ٩) التي كانت ستمتد إلى مسيا « الممسوح » — قبل المسيح مسحة الروح القدس بعد معموديته على يدي يوحنا في الاردن. « وملكوت الله » الذي أعلنوا أنه قد اقترب توطدت دعائمه بموت المسيح. هذا الملكوت لم يكن ملكوتا أرضيا كما كانوا قد تعلموا واعتقدوا. ولا كان هو ذلك الملكوت الدائم في المستقبل الموشك أن يقام عندما « المملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء تعطى لشعب قديشي العلي »، ذلك الملكوت الأبدي الذي فيه « جَمِيعُ السَّلَاطِينِ إِيَّاهُ يَعْْبُدُونَ وَيُطِيعُونَ » (دانيال ٧: ٢٧). إن ما يعبر عنه في الكتاب المقدس بالقول « ملكوت الله » يستخدم للدلالة على ملكوت النعمة وملكوت المجد كليهما. إن بولس يرينا ملكوت النعمة في الرسالة إلى العبرانيين. فبعدما يشير إلى المسيح الشفيع الرحيم الذي « يَرْتِي لضعفَاتِنَا » يقول الرسول: « فَلْتَتَقَدَّمْ بِثَقَّةٍ إِلَى عَرْشِ النِّعْمَةِ لِكَيْ نَنَالَ رَحْمَةً وَنَجِدَ نِعْمَةً » (عبرانيين ٤: ١٥، ١٦). إن عرش النعمة يرمز إلى ملكوت النعمة، لأن وجود عرش يتضمن وجود ملكوت. والمسيح في كثير من أمثاله يستعمل هذا التعبير « ملكوت السماوات » ليدل على عمل النعمة الإلهية في قلوب الناس.

وكذلك عرش المجد يرمز إلى ملكوت المجد، وهذا الملكوت يشار إليه في قول المسيح: « وَمَتَى جَاءَ ابْنُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْدِهِ وَجَمِيعُ الْمَلَائِكَةِ الْقُدِّيسِينَ مَعَهُ، فَحِينَئِذٍ يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيِّ مَجْدِهِ. وَيَجْتَمِعُ أَمَامَهُ جَمِيعُ الشُّعُوبِ » (متى ٢٥: ٣١، ٣٢). هذا الملكوت سيأتي في المستقبل. ولن يقام حتى يجيء المسيح ثانية.

لقد تأسس ملكوت النعمة حالما سقط الإنسان عندما تم تدبير خطة الخلاص لفداء جنسنا الساقط. وقد وُجد هذا الملكوت في قصد الله وبواسطة وعده. وبواسطة الإيمان أمكن الناس أن يكونوا ضمن رعاياه. إلا أنه لم يؤسس فعلاً إلا بعد موت المسيح. فحتى بعد دخول المخلص خدمته الأرضية، كان يمكنه، وقد ضجر من عناد الناس وجحودهم، أن ينسحب من ذبيحة جلجلة فلا يموت. فعندما كان في جثسيماني كانت كأس الويل والعذاب ترتجف في يده. كان في وسعه آنئذ أن يمسح عرقه المتساقط كقطرات الدم تاركا جنسنا المذنب ليهلكوا في إثمهم. فلو فعل ذلك لما كان هنالك فداء للناس الساقطين. ولكن عندما أسلم المخلص روحه وصرخ وهو يموت قائلا: « قَدْ أَكْمَلَ » حينئذ تحقق إتمام تدبير الفداء. وقد صودق على الوعد الذي قدم إلى أبونا المذنبين في عدن.

فملكوت النعمة الذي كان قد وُجد بناء على وعد الله قبلا توطدت أركانه حينئذ.
وهكذا كان موت المسيح — الحادث نفسه الذي كان التلاميذ ينظرون إليه بمثابة دمار وإنهيار لرجائهم — هو الذي حقق ذلك الرجاء. ففي حين أنه أصابهم بخيبة أمل قاسية ومريرة كان هو ذروة البرهان على أن اعتقادهم صحيح. ذلك الحادث الذي جعلهم ينوحون ويأسون كان هو الذي فتح باب الرجاء لكل بنى آدم، وفيه تركزت الحياة العتيدة والسعادة الأبدية لكل عبيد الله الأمناء في كل الأجيال.

كانت مقاصد الرحمة غير المحدودة في طريقها إلى الإتمام حتى عبر خيبة آمال التلاميذ. ففيما رُبحت قلوبهم إلى النعمة الإلهية وإلى قوة تعليمه إذ « لم يتكلم قط إنسان » مثله فقد اختلط بالذهب النقي، ذهب محبتهم ليسوع، مع الكبرياء العالمي والطموح الأناني. وحتى في العلية التي مورست فيها فريضة الفصح، في تلك الساعة الخطيرة عندما كان معلمهم قد بدأ يجوز في ظلمة جثسيماني، فقد « كَانَتْ بَيْنَهُمْ أَيْضاً مُشَاجَرَةٌ مَنْ مِنْهُمْ يُظَنُّ أَنَّهُ يَكُونُ أَكْبَرَ » (لوقا ٢٢: ٢٤). كانت رؤياهم ممتلئة بالعرش والإكليل والمجد، في حين كان أمامهم العار وآلام البستان ودار المحاكمة وصليب جلجثة. إن كبرياء قلوبهم وتعطشهم إلى مجد العالم هو ما جعلهم يتشبثون بقوة تعاليم زمانهم الكاذبة فلا يعيرون أقوال المخلص الالتفات اللائق، وهي التي توضح طبيعة ملكوته الحقيقية وتشير إلى آلامه وموته. وهذه الأخطاء نتجت عنها التجربة — وهي حادة وقاسية ولكنها لازمة — وقد سُمح بها لأجل تأديبهم. ومع أن التلاميذ أخطأوا في فهم معنى رسالتهم وأخفقوا في تحقيق انتظاراتهم فإنهم كرزوا بالإنذار المعطى لهم من الله، وقد كافأ الرب إيمانهم وأكرم طاعتهم. قد استؤمنوا على المناداة بإنجيل سيدهم المجيد لكل الأمم. فلكي يعدّهم لهذا العمل سُمح لهم بالمرور في ذلك الاختبار الذي بدا لهم مؤلماً ومريراً.

إيمان واع

ظهر يسوع بعد قيامته للتلميذين في طريقهما إلى عمواس و « ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ يُفَسِّرُ لَهُمَا الْأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ » (لوقا ٢٤: ٢٧). وقد ثار قلبا التلميذين واضطرب فيهما الإيمان. لقد وُلدا « لرجاء حي » حتى قبلما أعلن يسوع نفسه لهما. وقد قصد أن ينير أفهامهما ويثبت إيمانهما على كلمة النبوة الثابتة (٢ بطرس ١: ١٩). كان يريد أن يتأصل الحق في ذهنيهما ليس فقط لأنه كان مدعوماً بشهادته الشخصية بل بسبب البرهان الذي لا شك فيه الذي تقدمه رموز الناموس الطقشي وظلاله ونبوات العهد القديم. كان تلاميذ المسيح في حاجة إلى الإيمان الواعي ليس فقط لأجل أنفسهم بل لكي يحملوا معرفة المسيح إلى العالم. وكخطوة أولى في إيصال هذه المعرفة وجه يسوع تلميذه إلى « موسى وجميع الأنبياء ». هذه هي الشهادة التي أعطاها المخلص، الذي قام من الموت، لقيمة كتب العهد القديم وأهميتها.

الشك يتحول إلى يقين

وما كان أعظم التغيير الذي حدث في قلب كل من دينك التلميذين وهما ينظران مرة أخرى إلى

وجه معلمهما الحبيب! (لوقا ٢: ٣٢). فبمعنى أكمل وأدق مما حدث من قبل « وجدا ذاك الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء ». وعدم اليقين والألم واليأس قد أفسحت المجال لليقين التام والإيمان الصافي. ولا عجب أن التلاميذ بعد قيامته « كانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله ». أما الشعب فإذ لم يكونوا يعرفون شيئاً أكثر من موت المخلص المشين كانوا ينتظرون أن يروا على وجوههم تعابير الحزن والارتباك والهزيمة، ولكنهم شاهدوا أمارات الفرح والنصرة. فما أعظم الإعداد الذي حصل عليه هؤلاء التلاميذ للعمل الذي كان أمامهم! لقد جازوا في أعماق تجربة كان متاحاً لهم أن يختبروها، وقد رأوا كيف أنه عندما بدا للعيون البشرية أنهم قد خسروا كل شيء فقد تمت كلمة الله بانتصار عظيم. فمنذ ذلك الحين أي شيء كان في وسعه أن يربح إيمانهم أو يقلل من توهج محبتهم؟ ففي أقسى حالات الحزن حصلوا على « تعزية قوية » وعلى رجاء كان « كَمَرْسَاةٍ لِلنَّفْسِ مُؤْتَمَنَةً وَثَابِتَةً » (عبرانيين ٦: ١٨، ١٩). لقد كانوا شهوداً لحكمة الله وقدرته، وقد تيقنوا « أَنَّهُ لَا مَوْتَ وَلَا حَيَاةَ، وَلَا مَلَائِكَةَ وَلَا رُؤُسَاءَ وَلَا قُوَّاتٍ، وَلَا أُمُورَ حَاضِرَةً وَلَا مُسْتَقْبَلَةً، وَلَا عَلُوَ وَلَا عُمُقَ، وَلَا خَلِيقَةَ أُخْرَى ». وقد قالوا: « في هذه جَمِيعَهَا يَعْظُمُ انْتِصَارُنَا بِالَّذِي أَحَبَّنَا » (رومية ٨: ٣٨، ٣٩، ٣٧). « وَأَمَّا كَلِمَةُ الرَّبِّ فَتَثَبَّتْ إِلَى الْأَبَدِ » (١ بطرس ١: ٢٥). « مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟ الْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيْضًا، الَّذِي هُوَ أَيْضًا عَنْ يَمِينِ اللَّهِ، الَّذِي أَيْضًا يَشْفَعُ فِينَا » (رومية ٨: ٣٤).

قال الرب: « وَلَا يَخْزَى شَعْبِي إِلَى الْأَبَدِ » (يوئيل ٢: ٢٦). « عِنْدَ الْمَسَاءِ يَبِيْتُ الْبُكَاءُ، وَفِي الصَّبَاحِ تَرْتُمُ » (مزمو ٣٠: ٥). عندما اجتمع التلاميذ بمخلصهم يوم قيامته والتهبت قلوبهم فيهم وهم يصغون إلى أقواله، وعندما نظروا إلى رأسه ويديه وقدميه التي قد سحقت لأجلهم، وعندما أخذهم قبل صعوده إلى بيت عنيا، فإذ رفع يديه ليباركهم أمرهم قائلاً: « اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعِ وَاكْرِزُوا بِالْإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ » ثم أضاف قوله: « وَهَذَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الْأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ » (مَرْقُسَ ١٦: ١٦؛ متى ٢٨: ٢٠). وعندما نزل المعزي الموعود به في يوم الخمسين وأعطيت لهم قوة من الأعالي، واهتزت نفوسهم لإحساسهم بوجود سيدهم الصاعد، فهل كانوا يرضون حينئذ، مع أنه كان عليهم أن يسيروا في طريق، كطريق سيدهم، يؤدي إلى التضحية والاستشهاد، أن يستبدلوا خدمة إنجيل نعمته و « إِكْلِيلَ الْبَرِّ » الذي سينالونه عند مجيئه، بأمجاد عرش أرضي كان هو الأمل المراد نفوسهم عند بدء تلمذتهم؟ إن ذاك الذي هو « قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَ أَكْثَرَ جَدَا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ » قد منحهم مع شركة آلامه شركة فرحه، فرح « الْإِتْيَانِ بِأَبْنَاءَ كَثِيرِينَ إِلَى الْمَجْدِ »، فرح لا ينطق به، « ثَقُلَ مَجْدُ أَبَدِي »، يقول عنه بولس، « خَفَّةَ ضَيْقَتِنَا الْوَقْتِيَّةِ » لا تُقَاسُ بِهِ.

إنَّ اختِبارَ التلاميذ الذين كرزوا « بِإِنْجِيلِ الْمَلَكُوتِ » عند المجيء الأول للمسيح وجد نظيره في اختِبارَ الذين أعلنوا رسالة مجيئه الثاني. فمثلما خرج التلاميذ يكرزون قائلين « قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله » كذلك أعلن ميلر وزملاؤه أن أطول مدة نبوية أخيرة تشاهد في الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ موشكة على الانتهاء، وأن الدينونة قريبة، وأن الملكوت الأبدي سيحيي. كانت كرازة التلاميذ في ما يختص بالزمن مبنية على السبعين أسبوعاً المذكورة في (دانيال ٩). وقد أعلنت الرسالة التي قدمها ميلر

وزملاؤه انتهاء الـ ٢٣٠٠ يوم المذكورة في (دانيال ٨: ١٤) والتي كانت السبعون أسبوعاً جزءاً منها. إن كرازة كل من الفريقين كانت مبنية على إتمام جزء من قسم مختلف من الحقبة النبوية العظيمة نفسها.

وكالتلاميذ الأولين لم يكن وليم ميلر ولا زملاؤه يفهمون فحوى الرسالة التي حملوها ولا أهميتها فهما كاملاً، فالضلالات التي كانت قد تمكنت من الكنيسة أمداً طويلاً حالت دون وصولهم إلى تفسير صحيح لنقطة هامة في النبوة. ولذلك فمع أنهم أعلنوا الرسالة التي قد كلفهم الله تقديمها إلى العالم، فإنه بسبب سوء فهمهم معناها أصابهم الفشل.

ففي شرح نبوة دانيال (دانيال ٨: ١٤) القائلة « إلى ألفين وثلاث مئة صباح ومساءً فيتبرأ (يتطهر) القدس » اتخذ ميلر، كما سبق أن قلنا، الرأي العام المقبول أن الأرض هي القدس. وكان يعتقد أن تبرئة القدس ترمز إلى تطهير الأرض بالنار عند مجيء الرب. ولذلك فعندما وجد أن نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم قد أنبئ بها بوضوح استنتج أن هذا قد كشف عن وقت المجيء الثاني. وقد نتج خطأه من قبوله الرأي المألوف بخصوص تحديد معنى القدس.

في النظام الرمزي الذي كان رمزاً وظلاً لذيحة المسيح وكهنوته كان تطهير القدس أو تبرئته آخر خدمة يمارسها رئيس الكهنة في دورة خدمته السنوية. كان آخر عمل من أعمال الكفارة، أي رفع الخطيئة أو إزالتها عن إسرائيل. وكان يشير إلى آخر خدمة من خدمات رئيس كهنتنا في السماء، أي رفع خطايا شعبه المسجلة في أسفار السماء ومحوها. هذه الخدمة تشمل عملاً من أعمال الفحص والدينونة وهي تسبق مباشرة مجيء المسيح في سحاب السماء بقوة ومجد عظيم، لأنه عندما يجيء ستكون كل القضايا قد بُت فيها. يقول يسوع: « أُجِرتي معي لأَجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ » (رؤيا ٢٢ : ١٢). هذا هو عمل الدينونة الذي يسبق المجيء الثاني مباشرة والمعلن في رسالة الملاك الأول المدونة في رؤيا ١٤: ٧ القائلة: « خَافُوا اللَّهَ وَأَعْطُوهُ مَجْدًا، لَأنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دِينُونَتِهِ ».

إن من قد أعلنوا هذا الإنذار قدموا الرسالة الصائبة في الوقت المعين. ولكن كما أعلن التلاميذ الأولون قائلين: "قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله" وكان ذلك مبنياً على ما ورد في (دانيال ٩)، بينما أخفقوا في فهم حقيقة كون موت مسيا قد أنبئ عنه في السفر نفسه، كذلك كرز ميلر وزملاؤه بالرسالة المبنية على ما ورد في دانيال ٨: ١٤ ورؤيا ١٤: ٧، ولكن غاب عن أنظارهم أنه كانت توجد رسائل أخرى مبينة في رؤيا ١٤ كان ينبغي تقديمها أيضاً قبل مجيء الرب. وكما أخطأ التلاميذ في ما يختص بالملكوت الموشك أن يُقام في نهاية السبعين أسبوعاً، كذلك أخطأ الأدفنتست في ما يختص بالحادث الذي سيقع في نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم. ففي كلتا الحالتين كان هنالك قبول أو بالحري تعلق بالخطأ المألوف، الأمر الذي أعمى أذهانهم عن الحق. ولقد تمم كلا الفريقين إرادة الله في تقديم الرسالة التي كان يرغب في تبليغها، وكلا الفريقين أصابتهم الخيبة بسبب سوء فهمهم وسوء تقديرهم.

إلا أن الله تمم قصده الرحيم من السماح بتقديم الإنذار بالدينونة كما قدّم تماماً. كان اليوم العظيم قريباً، والله بعنايته جعل الناس يأتون إلى اختبار وقت محدّد لكي يعلن لهم ما في قلوبهم. كان

القصد من الرسالة هو اختبار الكنيسة وتطهيرها. كان يجب عليهم أن يروا ما إذا كانت عواطفهم متعلقة بالعالم أم بالمسيح والسماء. لقد كانوا يقولون بأنهم يحبون المخلص، فكان عليهم الآن أن يبرهنوا على تلك المحبة. فهل كانوا مستعدين لأن يرفضوا آمالهم الدنيوية وينبذوها ويتخلوا عن أطماعهم ويرحبوا بمجيء سيدهم بفرح؟ كان المقصود بالرسالة أن تساعدكم على معرفة حالتهم الروحية الحقيقية. لقد أرسلت إليهم رحمة بهم لإيقاظهم حتى يطلبوا الرب بالتوبة والتذلل.

ولئن كانت خيبتهم أيضاً نتيجة سوء فهمهم الرسالة التي قدموها فقد كان لا بد أن تؤل إلى الخير. كان القصد منها اختبار قلوب من كانوا قد اعترفوا بقبول الإنذار. ففي مواجهة الفشل الذي أصابهم هل يتخلون عن اختبارهم في طيش ويطرحون عنهم الثقة بكلمة الله، أم أنهم بالصلاة والتذلل يطلبون معرفة ما قد أخفقوا فيه لفهم مغزى النبوة؟ كم عدد الذين تحركوا بدافع الخوف والاندفاع أو الاهتياج والإثارة؟ وكم عدد الفاتري القلوب والعديمي الإيمان؟ لقد اعترف كثيرون بأنهم يحبون ظهور الرب. فعندما يدعون إلى احتمال سخرية العالم وتعبيراته وإلى اختبار التباطؤ والخيبة فهل يرفضون الإيمان؟ هل يطرحون جانباً الحقائق التي تدعمها شهادة كلمة الله الصريحة غاية الصراحة لكونهم لم يفهموا معاملات الله معهم في الحال؟

إن هذا الاختبار يكشف عن قوة الذين بإيمان حقيقي أطاعوا ما قد آمنوا بأنه تعليم كلمة الله وروحه. وهو وحده يعلمهم خطر قبول نظريات الناس وتفسيراتهم بدلاً من جعل الكتاب المقدس مفسراً نفسه بنفسه. إن الارتباك والحزن الناشئين عن خطأ أولاد الإيمان سيؤديان إلى الإصلاح والتأديب المطلوبين. وهذا يقودهم إلى درس الكلمة النبوية بكل تدقيق. وسيتعلمون أن يمتحنوا بحرص أكبر أساس إيمانهم وأن يرفضوا كل ما لم يكن مؤسساً على كلمة الحق حتى لو كان أكثرية الناس في العالم المسيحي يقبلونه.

وكما كانت الحال مع التلاميذ الأولين سيتضح لاحقاً لهؤلاء المؤمنين ما كان يبدو غامضاً عن أذهانهم في ساعة التجربة. فعندما يرون « عاقبة الرب » سيعرفون أنه على رغم التجربة التي نتجت من أخطائهم فإن مقاصد محبته نحوهم كانت سائرة بثبات في طريقها إلى الإتمام. وسيتعلمون باختبار مبارك أنه « كثير الرحمة ورؤوف » وأن كل طريقه « رحمة وحق لحافظي عهده وشهاداته ».

٢٠ - نهضة دينية عظيمة

لقد أُنبئ بحدوث نهضة عظيمة عند إعلان نبأ مجيء المسيح السريع وإذاعته، كما هو وارد في نبوة رسالة الملاك الأول الواردة في رؤيا ١٤. إن ملاكا يُرى طائرا « في وَسَطِ السَّمَاءِ مَعَهُ بَشَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لِيُبَشِّرَ السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ وَكُلَّ أُمَّةٍ وَقَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ » و « بِصَوْتٍ عَظِيمٍ » يعلن الرسالة قائلا: « خَافُوا اللَّهَ وَأَعْطُوهُ مَجْدًا، لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيُّونَتِهِ، وَاسْجُدُوا لِصَانِعِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَبَيَابِعِ الْمِيَاهِ » (رؤيا ١٤: ٦، ٧).

إن حَقِيقَةَ الْقَوْلِ بَأَنَّ ملاكا هو المبشر بهذا الإنذار هي حقيقة لها معناها. لقد سُرَّتْ حكمة الله أن تُدَلَّ على سمو العمل الذي ستتممه الرسالة، وعلى السلطان والمجد اللذين سيرافقانها، بطهارة رسول السماء وقوته ومجده. إن طيران الملاك « في وسط السماء » و « والصوت العظيم » الذي به سيُلْقَى الإنذار وإذاعته على كل « الساكنين على الأرض » — « كُلُّ أُمَّةٍ وَقَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ » — كل ذلك يبرهن على تلك النهضة واتساع مداها بحيث تشمل العالم كله.

والرسالة نفسها تفيض نورا بالنسبة إلى وقت حدوث تلك النهضة. فقد أعلن أنها جزء من « البشارة الأبدية » وأنها تعلن عن بدء الدينونة. لقد كُرِّزَ برسالة الخلاص في كل العصور، لكن هذه الرسالة هي جزء من البشارة التي ما كان يمكن إذاعتها إلا في الأيام الأخيرة، لأن ذلك الوقت هو وحده الذي يصدق فيه القول أن ساعة الدينونة قد أتت. فالنبوات تقدم بعض الحوادث المتتابعة التي تنتهي كلها ببدء الدينونة. ويصدق هذا القول على سفر دانيال بنوع خاص. لكن ذلك الجزء من النبوة الذي له صلة بالأيام الأخيرة قد أُمر دانيال بأن يخفيه ويختمه « إلى وقت النهاية ». فإلى أن نصل إلى هذا الوقت ليس في المستطاع إذاعة رسالة عن الدينونة مبنية على إتمام هذه النبوات. ولكن في وقت النهاية كما يقول النبي: « كثيرون يتصفحونه (كثيرون يركضون هنا وهناك) والمعرفة تزداد » (دانيال ١٢: ٤).

ولقد حذر بولس الرسول الكنيسة من انتظار مجيء المسيح في أيامه. فقال: « لَا يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الزَّيْدَادُ أَوَّلًا، وَيُسْتَعْلَنُ إِنْسَانُ الْخَطِيئَةِ، ابْنُ الْهَلَاكِ » (٢ تسالونيكي ٢: ٣). لا يأتي إلا بعد الارتداد العظيم وبعد المدة الطويلة، مدة حَكَمِ « إِنْسَانِ الْخَطِيئَةِ »؛ بعد هذا لنا أن ننتظر مجيء الرب. إن « إِنْسَانَ الْخَطِيئَةِ » الملقب أَيْضًا بـ « سَرِ الْإِثْمِ » و « وَابْنِ الْهَلَاكِ » و « الْإِثْمِ » يرمز إلى البابوية التي أُنبئ عنها في النبوة، وكانت ستحتفظ بسيطرتها لمدة ١٢٦٠ سنة. هذه المدة انقضت في عام ١٧٩٨. ولم يكن ممكنا أن يأتي المسيح قبل ذلك الحين. إن بولس يتناول بتحذيره كل النظام المسيحي حتى إلى عام ١٧٩٨. فبعد سنة ١٧٩٨ ستذاع رسالة مجيء الثاني للمسيح

لم تُقَدِّمْ مثل تلك الرسالة في ما مضى. فبولس، كما رأينا، لم يكرز بها. لقد وَجَّهَ أنظار سامعيه إلى المستقبل، الذي كان بعيدا جدا آنئذ، على أنه وقت مجيء الرب. والمصلحون لم يذيعوه. وقد قال مارتن لوثر إن الدينونة لن تأتي إلا بعد مرور نحو ٣٠٠ سنة بعد زمانه. ولكن منذ عام ١٧٩٨ لم يعد سفر دانيال سفرا مختوما، فلقد ازدادت المعرفة بالنبوات، وأذاع كثيرون أن رسالة الدينونة الخطيرة قريبة.

جوزيف ولف، الرسول المبعوث إلى العالم

وعلى غرار الإصلاح العظيم الذي حدث في القرن السادس عشر ظهرت نهضة المجيء الثاني في كثير من ممالك العالم المسيحي في وقت واحد. ففي كل من أوروبا وأمريكا قاد روح الرب كثيرين من رجال الإيمان والصلاة لدرس النبوات، فإذ تتبعوا التاريخ الموحى به رأوا البرهان المقنع على أن نهاية كل شيء قريبة. وفي كثير من البلدان المختلفة كانت توجد جماعات منعزلة من المسيحيين، هؤلاء الناس وصلوا عن طريق درس الكتاب وحده إلى الاعتقاد بقرب مجيء المخلص.

في عام ١٨٢١، أي بعدما وصل ميلر في تفسيره إلى النبوات المشيرة إلى يوم الدينونة، بدأ الدكتور جوزيف ولف، «الرسول المبعوث إلى العالم»، في إذاعة نبأ مجيء الرب السريع. وُلد ولف في أَلْمَانِيَا من أبوين عبرانيين. كان أبوه حاخاما يهوديا، لكنه اقتنع منذ صباه بصدق الدين المسيحي. ولما كان عقله نشيطا محبا للبحث والاستقصاء كان يصغي بكل شوق إلى المحادثات التي كانت تدور في بيت أبيه حيث كان العبرانيون الأتقياء يجتمعون كل يوم ليعددوا آمال وانتظارات شعبهم ومجد مسيا الآتي وردَّ إِسْرَائِيل. وفي يوم من الأيام إذ سمع ذلك الصبي اسم يسوع الناصري سأل من يكون. فجاءه الجواب يقول: «إنه يهودي ذو مواهب عظيمة جدا. ولكن بما أنه قد ادَّعى أنه مسيا فقد حكمت عليه المحكمة اليهودية بالقتل». فعاد ذلك الصبي يسأل: «إِذَا فلماذا خربت أورشليم، ولماذا نحن مسبيون؟» فأجابه أبوه قائلا: «وأسفاه! وأسفاه! إن السبب في ذلك هو أن اليهود قد قتلوا الأنبياء»، ففي الحال برق في ذهن ذلك الصبي هذا خاطر: «ربما كان يسوع أيضًا نبيا، وقد قتله اليهود مع أنه كان بريئا» (٣٠٨). وقد كان هذا الشعور قويا بحيث أنه كان كثيرا ما يقف خارج كنائس المسيحيين ليصغي إلى الكرازة مع أنه كان قد نُهي عن الدخول إليها.

وإذ كان لا يزال في السابعة من عمره جعل يتفاخر أمام شيخ مسيحي من جيرانه بالنصرة العتيدة التي ستكون من نصيب إِسْرَائِيل عند مجيء مسيا. فقال له الشيخ: «سأخبرك الآن يا ولدي العزيز عمن كان مسيا الحقيقي، لقد كان هو يسوع الناصري... الذي قد صلبه أجدادك كما قد فعلوا بالأنبياء منذ القديم. اذهب إلى بيتك واقرأ الأصحاح الثالث والخمسين من سفر إشعياء فتقتنع بأن يسوع المسيح هو ابن الله» (٣٠٩)، فافتنع في الحال وذهب إلى البيت وقرأ ذلك الأصحاح، وكان مندهشا كيف تم ذلك الكلام تماما في يسوع الناصري. فهل كان كلام ذلك المسيحي صادقا؟ وقد طلب ذلك الصبي من أبيه أن يفسر له تلك النبوة، ولكنه قبل بصمت عابس بحيث لم يجرؤ بعد ذلك على طرق ذلك الموضوع. ومع ذلك فإن هذا زاده شوقا إلى معرفة المزيد من الدين المسيحي.

متهم بالهرطقة

هذه المعرفة التي طلبها حُجبت عنه عمدا في بيته اليهودي. ولكن إذ كان لم يزل في الحادية عشرة من العمر هجر بيت أبيه وخرج إلى العالم ليحصل لنفسه على التعليم وليختار دينه وعمل حياته. وقد سكن بعض الوقت مع بعض أقربائه، لكنه سرعان ما طُرد من هناك لاعتبارهم إياه مرتدا. ولما كان وحيدا وليس لديه مال، كان عليه أن يشق لنفسه طريقا بين الغرباء. فذهب من مكان إلى مكان، وكان

يدرس باجتهاد ويكسب عيشه بتدريس اللغة العبرية. وتبأثير معلم كاثوليكي قبل العقيدة الكاثوليكية وتكون لديه هدف هو أن يكون مرسلًا لشعبه. وبعد ذلك بسنين قليلة إذ كان هذا الهدف نصب عينيه، ذهب إلى روما ليواصل دراساته في كلية نشر الإيمان (البرويغاندا)، ولما كان معتاداً على التفكير المستقل والكلام الصريح جلب على نفسه تهمة الهرطقة في تلك الكلية. وبكل مجاهرة هاجم فضائح الكنيسة وألح على وجوب إجراء إصلاح عاجل. ومع أنه كان قد عومل في بادئ الأمر بالرضى الخاص من أحبار روما عاد فطُرد منها بعد ذلك. وتحت مراقبة الكنيسة جعل ينتقل من مكان إلى مكان إلى أن تبرهن أنه لا يمكن إخضاعه للعبودية البابوية. وقد أعلن أنه لا يمكن إصلاحه وأعطيت له حرية الذهاب إلى حيث يريد. فسافر حينئذ إلى إنكلترا حيث اعترف بالعقيدة البروتستانتية وانضم إلى الكنيسة الأنكليكانية. وبعد دراسة دامت عامين خرج في عام ١٨٢١ لتأدية رسالته.

عندما قبل ولف الحق العظيم عن المجيء الأول للمسيح كرجل « أوجاع ومختبر الحزن » رأى أن النبوات تُظهر بذلك الوضوح نفسه مجيئه الثاني بقوة ومجد. وعندما حاول أن يرشد شعبه إلى يسوع الناصري كالشخص الموعود به ويوجه أنظارهم إلى مجيئه الأول متضعا كذبيحة عن خطايا الناس، فقد علمهم أيضاً عن مجيئه الثاني كملك ومخلص.

ملك على كل الأرض

وقد قال: « إن يسوع الناصري، مسيا الحقيقي الذي قد تُقبت يده ورجلاه وسبق كشاة إلى الذبح، والذي كان رجل أوجاع ومختبر الحزن، والذي بعدما زال القضيبي من يهوذا وسلطة التشريع من بين رجليه جاء في مجيئه الأول، سيأتي ثانية في سحب السماء ببوق رئيس الملائكة » (٣١٠)، « وسيقف على جبل الزيتون، والسلطان الذي أعطي لآدم قبلا على الخليقة ولكنه أضاعه (تكوين ١ : ٢٦ ؛ ٣ : ٧) سيعطى ليسوع، فسيكون ملكا على كل الأرض، وسينتهي أنين الخليقة وآلام مخاضها وستسمع أغاني الحمد والشكر... وعندما يأتي يسوع في مجد أبيه مع الملائكة القديسين ... فالراقدون المؤمنون سيقومون أولا (١ تسالونيكي ٤ : ١٦ ؛ ١ كورنثوس ١٥ : ٢٣). هذا ندعوه نحن المسيحيين القيامة الأولى، وحينئذ تغير المملكة الحيوانية طبيعتها (إشعياء ١١ : ٦-٩) وتخضع ليسوع (مزمو ٨)؛ وحينئذ يعم السلام » (٣١١)، « وسيشرف الرب على الأرض مرة ثانية ويقول: « هوذا هي حسنة جدا » (٣١٢).

كان ولف يؤمن بأن مجيء الرب قريب، وقد جعله تفسيره للفترات النبوية يعتبر النهاية العظيمة في وقت قريب جدا من ذاك الذي حدده ميلر. وقد أجاب ولف على من أوردوا هذا القول « أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد »، كما أجاب على القائلين بأن الناس لا يعلمون شيئا عن قرب المجيء الثاني، قائلا: « هل قال سيدنا أن ذلك اليوم وتلك الساعة لن يُعرفا أبدا؟ ألم يعطنا علامات الأزمنة لكي نعرف على الأقل قرب مجيئه كما يعرف الإنسان أن الصيف قريب عندما تخرج شجرة التين أوراقها؟ (متى ٢٤ : ٣٢). وهل لن نعرف ذلك الوقت أبدا في حين أنه هو نفسه يوصينا ليس فقط بأن نقرأ ما كتبه دانيال النبي بل أن نفهمه؟ وفي سفر دانيال نفسه حيث ذكر أن الكلام خُتم عليه

إلى وقت النهاية (الذي كان هو الواقع في زمانه)، فإن كثيرين (سيركضون هنا وهناك — وهو تعبير عبراني عن الملاحظة والتفكير في الوقت « والمعرفة (معرفة ذلك الوقت) تزداد » (دانيال ١٢ : ٤). فضلا عن ذلك فإن ربنا لم يقصد أن يقول لنا بهذا أن قرب الوقت لن يُعرف، بل أن « اليوم » المحدد، و « الساعة لا يعلم بهما أحد ». وهو يقول أنه سيُعرف من علامات الأزمنة ما فيه الكفاية لإقناعنا بالاستعداد لمجيئه كما أعد نوح الفلك » (٣١٣).

وفي ما يختص بنظام التفسير المؤلف أو تحريف الكتب، كتب ولف يقول: « إن السواد الأعظم من أبناء الكنيسة المسيحية قد انحرفوا عن المعنى الواضح الصريح للكتاب وارتدوا إلى نظام البوذيين الكاذب، الذين يعتقدون أن سعادة الجنس البشري وغبطته العتيدة تنحصر في انتقالهم وطيранهم في الهواء، ويظنون أنهم وهم يقرأون كلمة « اليهود » ينبغي أن يفهموها على أنها « الأمم »، وعندما يقرأون كلمة « أورشليم » ينبغي فهمها على أنها « الكنيسة »، وعندما يقال « الأرض » فمعنى ذلك « السماء »، ومجيء الرب يجب أن يفهموه على أنه نجاح وتقدم الجمعيات التبشيرية، والصعود إلى جبل بيت الرب يجب أن يفهم منه أنه اجتماع جليل لجماعة الميثودست » (٣١٤).

وفي غضون الأربع والعشرين سنة من ١٨٢١ إلى ١٨٤٥ سافر ولف بعيدا. ففي أفريقيا زار مصر والحبشة. وفي آسيا تجول في فلسطين وسوريا وبلاد فارس وبخارى والهند. كما زار أيضاً الولايات المتحدة. وفي أثناء سفره إلى هناك كان يبشر في جزيرة القديسة هيلانه. وقد وصل إلى نيويورك في آب (أغسطس) من عام ١٨٣٧، وبعدما تكلم في تلك المدينة بشر في فيلادلفيا وبلتيمور وأخيرا تقدم إلى واشنطن. وفي هذه المدينة قال: « بناء على طلب قدمه الرئيس السابق جون كويني آدامز، منحي أحد بيوت الكونكرس، بإجماع الآراء، حرية استخدام قاعة المجلس لإلقاء محاضرة ألقيتها في يوم سبت وأكرمت بحضور جميع أعضاء الكونغرس، وكذلك بحضور أسقف فرجينيا ورجال الإكليروس ومواطني واشنطن. وقد منحي ذلك الشرف نفسه أعضاء هيئة حكومة نيوجرسي وبنسلفانيا، وألقيت أمامهم محاضرات عن بحوثي في آسيا كما عن مُلك يسوع المسيح الشخصي » (٣١٥).

قوة في الكتاب

سافر الدكتور ولف إلى أشد الممالك همجية ووحشية من دون أن يحصل على حماية من السلطات الأوروبية، فتحمل كثيرا من المشاق وتعرض لمخاطر لا حصر لها. لقد ضرب بالفلقة وتحمل آلام الجوع وبيع كعبد، وحكم عليه بالموت ثلاث مرات، وكان محاطا باللصوص، وأحيانا كاد يموت عطشا. وفي مرة سلب كل ما كان يملكه وترك ليسافر مئات الأميال سيرا على قدميه في الجبال، وكان الثلج يصدم وجهه وقدميه الحافيتين اللتين تجمدتا من السير على الأرض المجمدة.

وعندما أُنذر ألا يسير وهو أعزل بين القبائل المتوحشة المعادية أعلن قائلا: « إني مزود » سلاح الصلاة والغيرة للمسيح والثقة بمعونته »، ثم قال: « كما أنني مزود أيضاً بمحبة الله والقريب في قلبي، والكتاب المقدس في يدي » (٣١٦) وأيضا ذهب كان يحمل الكتاب المقدس في اللغتين

العبرية والإنكليزية. وقال عن إحدى سفراته المتأخرة: « لقد ... أبقى الكتاب مفتوحاً في يدي. وأحسست أن قوتي هي في الكتاب وأن قوته ستعزضني » (٣١٧).

وهكذا جعل يواصل جهوده إلى أن وصلت رسالة الدينونة إلى قسم كبير من المسكونة. لقد نشر كلمة الله بين اليهود والأتراك والفرنسيين والهندوس وقوميات وأجناس كثيرة بلغات مختلفة، وفي كل مكان بشر بمُلك مسيا الآتي.

في رحلته إلى بخارى وجد شعباً نائياً منعزلاً يعتنق عقيدة مجيء الرب السريع. وقال: « إن عرب اليمن يملكون كتاباً يسمى السيرة وهذا الكتاب يصرح بعقيدة المجيء الثاني للمسيح وملكه بمجد عظيم، وهم يتوقعون حدوث وقائع عظيمة في عام ١٨٤٠ » (٣١٨). « وفي اليمن ... قضيت ستة أيام مع بني ركاب. إنهم لا يشربون خمراً ولا يغرسون كرماً ولا يزرعون حقلاً ويعيشون في الخيام، ويذكرون يوناداب الشيخ الصالح ابن ركاب. وقد وجدت بين تلك الجماعة أفراداً من بني إسرائيل من سبط دان... وهم ينتظرون مع بني ركاب سرعة مجيء مسيا في سحاب السماء » (٣١٩).

وإن مرسل آخر وجد عقيدة مشابهة سائدة في بلاد التتار. وقد سأل كاهن تتاري ذلك المرسل عما إذا كان يعرف وقت المجيء الثاني للمسيح. وعندما أجابه المرسل بأنه لا يعرف عن ذلك شيئاً بدا الاندهاش العظيم على الكاهن من مثل ذلك الجهل الذي يعترف به رجل يقول بأنه معلم للكتاب المقدس، ثم أعلن عن اعتقاده المبني على النبوة بأن المسيح سيأتي حوالي عام ١٨٤٤.

رسالة المجيء في إنكلترا

وفي وقت مبكر، أي في عام ١٨٢٦، نودي في إنكلترا بالكرازة برسالة المجيء. وفي هذه البلاد لم تتخذ هذه النهضة شكلاً محدداً كما في أمريكا، إذ لم يعلموا جهاراً عن الوقت المحدد للمجيء، لكن الحقيقة العظيمة الخاصة بمجيء المسيح السريع بقوة ومجد أعلنت على نطاق واسع. ولم يقتصر هذا على المنشقين والمخالفين وحدهم. فالكاتب الإنكليزي مورانت بروك يقرر أنه حوالي ٧٠٠ خادم من خدام كنيسة إنكلترا كانوا دائبين في الكرازة « ببشارة الملكوت هذه ». والرسالة التي تشير إلى عام ١٨٤٤ كموعِد لمجيء الرب قدمت إلى شعب بريطانيا العظمى أيضاً. ومن الولايات المتحدة انتشرت، على نطاق واسع، مطبوعات عن المجيء. وقد أعيد طبع بعض الكتب والصحف في إنكلترا. وفي عام ١٨٤٢ عاد روبرت ونتر الإنكليزي المولد، والذي قبل عقيدة المجيء وهو في أمريكا، إلى وطنه ليكرز بمجيء الرب. واشترك كثيرون معه في ذلك العمل، فأعلنت رسالة الدينونة في كثير من أنحاء إنكلترا.

وفي أمريكا الجنوبية، في وسط الهمجية والكهنة المحتالين، وجد لاكونزا، الذي كان إسبانيا ينتمي إلى الجزويت، طريقه إلى الكتاب المقدس، وهكذا اعتنق عقيدة قرب المجيء الثاني. وإذا استُغفر ليقدّم الإنذار متحاشياً انتقادات روما نشر آراءه باسم مستعار هو « المعلم بن عزرا »، مصوراً نفسه أنه تجدد من اليهودية إلى المسيحية. وكان لاكونزا يعيش في القرن الثامن عشر، ولكن قرابة العام ١٨٢٥ وجد كتابه طريقه إلى لندن حيث ترجم إلى اللغة الإنكليزية، وكان نشره عاملاً من عوامل

تعميق الاهتمام الذي كان قد بدأ يستيقظ في إنكلترا بموضوع المجيء الثاني. أما في ألمانيا فقد كرز بهذه العقيدة في القرن الثامن عشر على يد بنكل الذي كان أحد خدام الكنيسة اللوثرية وأستاذًا يشار إليه بالبنان، كما كان ناقدًا كبيرًا. فبعدما أتم بنكل تحصيله العلمي، كرّس نفسه لدراسة اللاهوت، التي أمله إليها عقله الوقور المحب للدين بالفطرة. وكان لتهديبه وتدريبه الباكر أثر كبير في ذلك. وكغيره من الشباب الكثيري التفكير قبله وفي أيامه كان عليه أن يصارع الشكوك والصعوبات الدينية، وبتأثر عميق يشير إلى « السهام الكثيرة التي أصابت قلبه المسكين وجعلت شبابه صعب الاحتمال » (٣٢٠) جعل يدافع عن قضية الحرية الدينية بعدما صار عضواً في مجلس وتبرك الكنسي، « وبينما كان متمسكاً بحقوق الكنيسة وامتيازاتها كان مدافعاً عن أكبر قدر من الحرية على أن تُمنح للذين يشعرون بأنهم ملزمون، إطاعة لضمائرهم، بأن ينسحبوا من كنيستهم » (٣٢١). ولا يزال الناس في إقليمه يحسون بالنتائج الصالحة لهذه السياسة.

وإذ كان بنكل يعد عظة مما ورد في الأصحاح الحادي والعشرين من سفر الرؤيا ليلقيها في يوم أحد المجيء أشرق نور المجيء الثاني للمسيح في ذهنه. وانكشفت نبوات سفر الرؤيا أمام ذهنه، الأمر الذي لم يكن له به عهد من قبل. ولما غمره الشعور بالأهمية الهائلة المدهشة والمجد الفائق للمناظر التي يعرضها النبي اضطر إلى الانصراف عن التفكير في ذلك الموضوع إلى حين. وعندما اعتلى المنبر أقحم ذلك الموضوع ذاته على عقله بكل وضوح وقوته. ومن ذلك الحين كرس نفسه لدرس النبوات، وعلى الخصوص تلك المذكورة في سفر الرؤيا، وسرعان ما اقتنع بأنها تشير إلى قرب مجيء المسيح. والتاريخ الذي حدده على أنه وقت المجيء الثاني كان قريباً جداً من التاريخ الذي حدده ميلر بعد ذلك.

ولقد انتشرت مؤلفات بنكل في جميع أنحاء العالم المسيحي. وآراؤه عن النبوة قبلها جميع سكان ولاية وتبرك وانتشرت في بعض أنحاء ألمانيا إلى حد ما. وظلت النهضة باقية بعد موته وسمعت رسالة المجيء في ألمانيا في الوقت نفسه الذي كانت فيه تسترعى الانتباه في بلدان أخرى. وفي تاريخ سابق ذهب بعض المؤمنين إلى روسيا وهناك كوّنوا مستعمرات، ولا تزال الكنائس الألمانية في تلك البلاد تعتنق عقيدة قرب مجيء المسيح.

إشراق النور في فرنسا وسويسرا

وكذلك أشرق النور في فرنسا وسويسرا. ففي جنيف حيث كان فارل وكلفن قد نشرا حق الإصلاح، كرز جوسيه برسالة المجيء الثاني. كان جوسيه لا يزال طالباً في المدرسة عندما اصطدم بروح التدين العقلي التي سادت أوروبا كلها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر؛ وعندما دخل الخدمة، ففضلاً عن أنه كان يجهل الإيمان الحقيقي، كان يميل إلى الشك والارتياب. ففي شبابه راق له أن يدرس النبوات، وبعدما طالع كتاب « التاريخ القديم » الذي كتبه رولن استرعى انتباهه ما ورد في الأصحاح الثاني من سفر دانيال، وقد أدهشته الدقة العجيبة التي بها تمت النبوة كما تُشاهد في ما كتبه المؤرخ. هنا كانت شهادة على كون الكتب المقدسة موحى بها، وكانت هذه بمثابة مرسة له

في وسط مخاطر السنين المتأخرة. فلم يعد قانعا بتعليم الدين العقلي، وإذ كان يدرس الكتاب ويبحث عن نور أوضح قاده ذلك بعد وقت إلى إيمان إيجابي.

الأطفال يفهمون

واصل فحص النبوات فوصل إلى الاعتقاد أن مجيء الرب قد اقترب. وإذ كان متأثر بخطورة هذا الحق العظيم وأهميته رغب في إذاعته على الناس، لكن الاعتقاد السائد بأن نبوات دانيال هي أسرار لا يمكن فهمها كانت عقبة في طريقه. وأخيرا قرر — كما قد فعل فارل من قبل عندما أراد تبشير جنيف — أن يبدأ بالأطفال، وكان يرجو أنه عن طريقهم سيستوعي اهتمام الوالدين.

وفيما كان يتكلم بعد ذلك عن قصده من هذا الإجراء قال: « أريد أن يفهم هذا، أنه ليس بسبب قلة أهمية هذا الموضوع أردت تقديمه بهذا الشكل المألوف بل على العكس خاطبت به الأطفال بسبب أهميته وقيمه العظيمة. لقد رغبت في أن يسمعي الناس، وكنت أخشى ألا يسمعي أحد لو خاطبت الكبار أولا، » « لذلك عولت على الذهاب إلى الأصغر فأجمع جمهورا من الأطفال؛ فإذا زاد العدد وكبرت تلك الجماعة ورؤي أنهم يستمعون ويسرون بالاستماع ويهتمون بالإصغاء ويفهمون الحق ويوضحون الموضوع فلا بد أن أعقد حلقة أخرى حالا، فالكبار بدورهم سيرون أنه مما يستوجب اهتمامهم كونهم يجلسون ويدرسون. فمتى تم هذا فقد كسبنا القضية » (٣٢٢).

وقد نجح ذلك المسعى. فإذا كان يخاطب الصغار جاء الكبار ليسمعوا. وامتلأت أروقة كنيسة بالسامعين المنتبهين. وكان بينهم جماعة من ذوي المقامات العالية والعلم الغزير، ومن الغرباء والأجانب الذين كانوا يزورون جنيف، وهكذا انتقلت الرسالة إلى أماكن أخرى.

فإذ تشجع جوسيه بهذا النجاح نشر تعاليمه على أمل أن يزيد ذلك من إقبال الناس على درس الأسفار النبوية في الكنائس التي يتكلم الناس فيها بالفرنسية. وقد قال: « إن طبع الدروس المعطاة للأولاد هو بمثابة رد على البالغين الذين يهملون دراسة مثل تلك الأسفار مستنديين إلى ذلك العذر الكاذب وهو أنها غامضة ولا يمكن فهمها، فكأنني أقول لهم: « وكيف يمكن أن تكون غامضة في حين أن أطفالكم يفهمونها؟ » ثم أضاف قائلا: « لقد كانت لي رغبة شديدة في تعميم معرفة النبوات بين شعبنا إن أمكن. » وفي الحق يلوح لي أنه لا توجد دراسة أخرى تطابق حاجات الزمن أفضل من هذه، » « إننا بهذه الدراسة نتأهب لمواجهة الضيقة القرية فنسهر وننتظر يسوع المسيح ».

ومع أن غاوسن كان من أشهر الوعاظ المحبوبين الذين يتكلمون الفرنسية فإنه بعد وقت أوقف عن الخدمة، وكان ذنبه الأكبر هو أنه بدلا من استخدام كتاب التعليم المسيحي الكنشي، وهو كتاب غير مشوق وفلسفي وخال تقريبا من الإيمان الإيجابي، استخدم الكتاب المقدس في تعليم الشباب. وقد صار بعد ذلك معلما في مدرسة لاهوتية بينما واصل في أيام الأحاد إعطاء دروس في التعليم المسيحي للصغار وتعليمهم مبادئ الكتاب المقدس. وقد أثارت كتبه عن النبوات اهتماما كبيرا. وظل من كرسي الأستاذية وعن طريق النشر والمطبوعات وفي عمله المحبوب لديه كمعلم للأطفال يحدث تأثيرا كبيرا عدة سنين، وكانت له اليد الطولى في استرعاء انتباه الكثيرين لدرس النبوات التي

كانت تبرهن أن مجيء الرب قريب.

الأطفال يكرزون في إسكندينايا

وفي إسكندينايا أيضاً أذيعت رسالة المجيء فأثارت اهتماماً واسع النطاق. وقد أوقظ كثيرون من طمأنينتهم العديمة الاكتراث ليعترفوا بخطاياهم ويتركوها ويطلبوا الغفران باسم المسيح. لكن رجال الإكليروس في كنيسة الدولة قاوموا تلك الحركة واستخدموا نفوذهم في الزج ببعض من كانوا يكرزون بتلك الرسالة في غياهب السجون. وفي أماكن كثيرة حيث كان يصمت صوت الكارزين برسالة مجيء الرب القريب على هذا النحو سر الله بأن يرسل الرسالة بطريقة عجائية بواسطة الأطفال الصغار. فإذا كانوا لم يبلغوا سن الرشد لم يمكن لقانون الدولة أن يردعهم، ولذلك سُمح لهم بأن يتكلموا من دون إزعاج.

كانت الحركة على الأكثر بين الطبقات الفقيرة، وفي مساكن العمال الوضيعة اجتمع الشعب لسماع الإنذار. والأطفال الكارزون أنفسهم كان معظمهم من أولاد الفقراء. وبعض منهم لم تكن أعمارهم تتجاوز السادسة أو الثامنة. ولما كانت حياتهم تشهد بمحبتهم للمخلص وكانوا يجتهدون في إطاعة مطالب الله المقدسة كانوا يظهرون عادة الذكاء والمقدرة المألوفين فقط عند من هم في مثل أعمارهم. ومع ذلك فعندما كانوا يقفون أمام الشعب كان من الجلي أنهم كانوا يتحركون بقوة تفوق مواهبهم الطبيعية. كانت نعمة كلامهم وطريقتهم تتغير. وبقوة مقدسة كانوا يقدمون الإنذار عن الدينونة. مستخدمين أقوال الكتاب نفسها: « خافوا الله وأعطوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة دينوته ». وكانوا يوبخون الشعب على خطاياهم، فلم يدينوا الفساد والدعارة والرزيلة وحدها بل كانوا يوبخون على محبة العالم والارتداد، وينذرون سامعيهم بالإسراع في الهروب من الغضب الآتي.

يد الله في النهضة

استمع الناس مرتعبين. لقد كان روح الله المبكّت يخاطب قلوبهم. وقد بدأ كثيرون يفتشون الكتب باهتمام جديد أعظم، وأصلح المدمنون والفاسدون. وآخرون هجروا أعمال الخداع. وتم عمل عظيم حتى أن خدام الكنيسة أنفسهم التابعين للدولة أجبروا على الاعتراف بأن يد الله كانت عاملة في تلك الحركة.

كانت إرادة الله أن تصل أخبار مجيء المسيح إلى ممالك إسكندينايا، فعندما أبكمت أصوات خدامه وضع روحه في الأطفال حتى يتم العمل. عندما اقترب يسوع من أورشليم تتبعه الجموع الفرحة المتهللة التي بهتافات الانتصار والتلويح بسعوف النخل أعلنت أنه ابن داود طلب منه الفريسيون الحاسدون أن يسكتهم، لكن يسوع أجابهم قائلاً إن ذلك كان إتماماً للنبوة، وأنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ. والشعب إذ جبنوا أمام تهديدات الكهنة والرؤساء كفوا عن نداءاتهم الفرحة عند دخولهم من أبواب أورشليم، أما الأولاد فإذا كانوا في أروقة الهيكل بعد ذلك عادوا يرددون الهتافات، وإذا كانوا يلوحون بسعوف النخل هتفوا قائلين: « أوصناً لابن داود » (متى ٢١: ٨-١٦). وعندما قال له الفريسيون وهم في أشد حالات الغيظ: « أَسْمَعُ مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ ؟ » قال لهم يسوع: «

نَعَمْ! أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ: مَنْ أَفَوَاهِ الْأَطْفَالِ وَالرُّضْعِ هَيَّاتَ تَسْبِيحًا؟ « فكما استخدم الله الأطفال عند المجيء الأول للمسيح كذلك استخدمهم في تقديم رسالة مجيئه الثاني. ينبغي أن يتم قول الله، وهو أن إذاعة خبر مجيء المخلص يجب أن تعطى لكل شعب ولسان وأمة. لقد أعطي لوليم ميلر وزملائه أن يبشروا بالإنذار في أمريكا. وصارت هذه البلاد المركز لحركة المجيء العظيمة. وفيها كان الإتمام المباشر لرسالة الملاك الأول. لقد وصلت مؤلفات ميلر وزملائه إلى البلدان البعيدة. وفي كل مكان وصل إليه المرسلون في أنحاء المعمور أرسلت بشارة مجيء المسيح القريب. وفي الأماكن البعيدة والقرية انتشرت رسالة البشارة الأبدية القائلة: « خافوا الله وأعطوه مجدا لأنه قد جاءت ساعة دينوته ».

إن شهادة النبوات التي بدا أنها تشير إلى مجيء المسيح في ربيع عام ١٨٤٤ تمكنت من عقول الناس. وإذا انتقلت الرسالة من ولاية إلى أخرى استيقظ اهتمام الناس إلى أبعد مدى، وقد اقتنع كثيرون بأن البراهين المأخوذة من الفترات النبوية كانت صحيحة، فإذ ضحوا بكبرياء التشبث بآرائهم قبلوا الحق بكل سرور. وبعض الخدام ألقوا جانباً آراءهم ومشاعرهم الطائفية وتركوا مراتبهم وكنائسهم واتحدوا مع غيرهم في إذاعة نبأ مجيء يسوع. ومع ذلك فقد كان يوجد خدام قليلون نسيا قبلوا هذه الرسالة ولذلك سُلِّمت الرسالة بالأكثر إلى العلمانيين البسطاء. لقد ترك الفلاحون حقولهم والميكانيكيون آلاتهم والتجار تجارتهم وأرباب المهن مراكزهم، ومع ذلك فإن عدد العمال كان صغيراً مقارنة بالعمل العظيم الذي كان ينبغي إتمامه. إن حالة الكنيسة الآثمة الضالة والعالم الذي انغمس في الشر أثقلت نفوس الرقباء الأمناء، فبكل سرور ورضى احتملوا التعب والفقر والالام ليدعوا الناس للتوبة المؤدية إلى الخلاص. وعلى رغم مقاومة الشيطان فقد سار ذلك العمل إلى الأمام بثبات، وقبل آلاف الناس حقيقة المجيء.

أهمية الاقتناع

وفي كل مكان سمعت الشهادة الفاحصة محذرة الخطاة من العالميين ومن أعضاء الكنائس لكي يهربوا من الغضب الآتي. وكما فعل يوحنا المعمدان، الذي سبق المسيح، كذلك وضع أولئك الكارزون الفأس على أصل الشجرة، وألحوا على الجميع بأن يصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. وكانت أقوالهم وتوسلاتهم المثيرة على نقیض تأكيدات السلام والأمان التي كانت تُسمع من المنابر المشهورة، وأينما وصلت الرسالة أثرت في الناس. إن شهادة أَلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ البسيطة المباشرة إذ أوصلها الرُّوحُ الْقُدُسُ إلى القلوب أحدثت في النفوس تبكيتاً شديداً عجز الكثيرون عن مقاومته كلية. وقد استيقظ المعترفون بالديانة من طمأنينتهم الكاذبة. لقد رأوا ارتداداهم المتكرر ومحبتهم للعالم وعدم إيمانهم وكبرياءهم وأنانيتهم. وكثيرون طلبوا الرب تائبين متذللين. والعواطف التي ظلت طويلاً متعلقة بالأرضيات تعلقت الآن بالسماء. واستقر روح الله عليهم، وبقلوب لينة وخاضعة اشتركوا مع غيرهم في إطلاق هذه الصيحة: « خافوا الله وأعطوه مجدا لأنه قد جاءت ساعة دينوته ».

وقد سأل الخطاة وهم ينتحبون قائلين: « ماذا أفعل لكي أخلص؟ » والذين اتصفت حياتهم قبلًا

بعدم الأمانة صاروا الآن راغبين في التعويض عما اختلسوه. وكل من حصلوا على السلام في المسيح تاقوا إلى مقاسمة الآخرين البركة. لقد رُدت قلوب الآباء إلى أبنائهم وقلوب الأبناء إلى الآباء، واكتُسحت حواجز الكبرياء والتكتم، وقدم كثيرون اعترافات من أعماق قلوبهم، وحاول أفراد العائلات تخليص الذين كانوا أقرب إليهم وأعز على قلوبهم من الجميع. وكثيرا ما كانت تُسمع صلاة شفاعة حارة. وفي كل مكان كانت توجد نفوس في آلام نفسية شديدة وهي تتوسل إلى الله. وكثيرون كانوا يقضون الليل بطوله مجاهدين بالصلاة في طلب الحصول على اليقين بأن خطاياهم قد غفرت، أو في طلب خلاص أقربائهم أو جيرانهم وهدايتهم.

وتقاطر الناس من كل الطبقات لحضور اجتماعات المجيئين. فالأغنياء والفقراء والمترفعون والوضيعون كانوا لأسباب مختلفة مشتاقين أن يسمعوا لأنفسهم تعليم المجيء الثاني. لقد أوقف الرب روح الاضطهاد عند حدها عندما كان عبيده يشرحون للناس أسباب إيمانهم. وفي بعض الأحيان كانت الأداة ضعيفة، لكن روح الله كان يمنح حقه قوة. وفي هذه الاجتماعات كان الناس يحسون بحضور ملائكة الله القديسين فكان كثيرون ينضمون إلى المؤمنين كل يوم. وعندما كانت ترد البراهين على قرب مجيء المسيح كانت جماهير غفيرة تصغي في سكون تام إلى الأقوال المقدسة الخطيرة. وقد بدا كأن السماء والأرض تقاربتا. وأحس الجميع بقدرة الله على الكبار والصغار والمتوسطي الأعمار. وسار الناس إلى بيوتهم والتسبيح والتمجيد على شفاهم، وكانت تلك الأصوات الفرحة تشق سكون الليل. ولا يستطيع كل من حضر هذه الاجتماعات أن ينسى مشاهد الاهتمام العميق هذه.

مقاومة عنيفة للرسالة

أثارت إذاعة الوقت المحدد لمجيء المسيح مقاومة كثيرين من كل الطبقات، من الخدام في منابرهم إلى أشد الخطاة طياشة وتحديا للسماء. وقد تمت أقوال النبوة القائلة: « أَنَّهُ سَيَأْتِي فِي آخِرِ الْأَيَّامِ قَوْمٌ مُّسْتَهْزِئُونَ، سَالِكِينَ بِحَسَبِ شَهَوَاتِ أَنْفُسِهِمْ، وَقَائِلِينَ: 'أَيْنَ هُوَ مَوْعِدُ مَجِيئِهِ؟ لَأَنَّهُ مِنْ حِينَ رَقَدَ الْآبَاءُ كُلُّ شَيْءٍ بَاقٍ هَكَذَا مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ' » (٢ بطرس ٣ : ٣ ، ٤). إن كثيرين ممن كانوا يعترفون بمحبتهم للمخلص أعلنوا أنهم لا يقاومون تعليم المجيء الثاني، إنما هم فقط يعترضون على تحديد الوقت. لكن عين الله التي ترى كل شيء قرأت خواطر قلوبهم. إنهم لم يريدوا أن يسمعوا عن مجيء المسيح ليدين المسكونة بالعدل. كانوا عبيدا غير أمناء، وأعمالهم لم تكن تحتل فحص الله، كاشف القلوب، فكانوا يخشون من لقاء إلههم. ومثل اليهود الذين كانوا عائشين في أيام المجيء الأول لم يكونوا متأهبين للترحيب بيسوع. وهم لم يكتفوا برفض الإصغاء إلى براهين الكتاب الصريحة بل سخروا بمن كانوا ينتظرون الرب. ولقد فرح الشيطان وملائكته بذلك وألقوا بالتعيير في وجه المسيح والملائكة القديسين قائلين إن شعبه المعترفين باسمه لا يحبونه إلا قليلاً بحيث أنهم لا يحبون ظهوره.

حجة المعارضين الرئيسة

الحجة التي كان يوردها كثيرا رافضو عقيدة المجيء هي هذه: « إن أحدا من الناس لا يعرف اليوم

ولا الساعة » وهذا ما قاله الكتاب: « وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلَا مَلَائِكَةُ السَّمَاوَاتِ، إِلَّا أَبِي وَحْدَهُ » (متى ٢٤ : ٣٦). وقد قدم أولئك الذين كانوا ينتظرون الرب شرحا واضحا ومتناسقا لذلك القول، وظهر واضحا الاستعمال المخطئ لذلك القول الذي أورده خصومهم. لقد نطق المسيح بتلك الأقوال في ذلك الحديث التاريخي مع تلاميذه على جبل الزيتون بعدما رحل عن الهيكل لآخر مرة. وقد طرح التلاميذ عليه هذا السؤال: « ما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر »؟ فأعطاهم يسوع العلامات ثم قال: « مَتَى رَأَيْتُمْ هَذَا كُلَّهُ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى الْبُيُوتِ » (متى ٢٤ : ٣٣، ٣). ينبغي ألا يناقض كلام المخلص بعضه بعضا. فمع أنه لا يعرف أحد يوم مجيئه ولا ساعته فإنه يعلمنا ويطلب منا معرفة متى يكون قريبا. ثم هو يعلمنا أيضا أن استخفافنا بإنذاره ورفضنا معرفة قرب مجيئه أو إهمالنا إياها. سيكون مهلكا لنا كما كان لمن عاشوا في أيام نوح لكونهم لم يعرفوا متى يجيء الطوفان. والمثل الذي ورد في الأصحاح نفسه الذي فيه قارن بين العبد الأمين والعبد الخائن، وفيه نطق بالدينونة على ذلك العبد الذي قال في قلبه: « سيدي يبطئ قدمه »، يرينا في أي نور يقبل المسيح ويكافئ الذين يجدهم أمناء ساهرين ويعلمون الناس عن مجيئه، ويجازي من ينكرونه. وهو يقول: « اسهَرُوا إِذَا »، « طُوبَى لِدَلِكِ الْعَبْدِ الَّذِي إِذَا جَاءَ سَيِّدُهُ يَجِدُهُ يَفْعَلُ هَكَذَا! » (متى ٢٤ : ٤٦)، « إِنْ لَمْ تَسْهَرْ، أَقْدَمَ عَلَيْكَ كَلْبٌ، وَلَا تَعْلَمُ آيَةَ سَاعَةِ أَقْدَمَ عَلَيْكَ » (رؤيا ٣ : ٣). يتكلم بولس عن فئة من الناس سيكون مجيء الرب مفاجئا لهم. فيقول: « أَنْ يَوْمَ الرَّبِّ كَلَصَ فِي اللَّيْلِ هَكَذَا يَجِيءُ. لِأَنَّهُ حِينَمَا يَقُولُونَ: « سَلَامٌ وَأَمَانٌ »، حِينئذٍ يُفَاجِئُهُمْ هَلَاكٌ بَعْتَةً... فَلَا يَنْجُونَ ». ولكنه بعد ذلك يوجه كلامه إلى الذين التفتوا إلى إنذار المخلص فيقول: « وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فَلَسْتُمْ فِي ظُلْمَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكُمْ ذَلِكَ الْيَوْمُ كَلَصٌ. جَمِيعُكُمْ أَبْنَاءُ نُورٍ وَأَبْنَاءُ نَهَارٍ. لَسْنَا مِنْ لَيْلٍ وَلَا ظُلْمَةٍ » (١ تسالونيكي ٥ : ٢-٥).

وهكذا تبين أن الكتاب لا يقدم إلى الناس ترخيصا بأن يظلوا جاهلين في ما يختص بقرب مجيء المسيح. ولكن فقط أولئك الذين كانوا يبحثون عن عذر لرفض الحق هم الذين صموا آذانهم عن سماع هذا التفسير. وقد ظل هذا القول « ليس أحد يعرف اليوم ولا الساعة » يرن في آذان الساخرين الجريئين، بل حتى الخدام المعترفين بولائهم للمسيح. وإذا استيقظ الناس وابتدأوا يسألون عن طريق الخلاص تقدم المعلمون الدينيون ليحولوا بينهم وبين الحق محاولين أن يخففوا من مخاوفهم بتفسيرهم الكاذب لكلمة الله. لقد تعاون الرقباء غير الأمناء مع المخادع الأعظم إذ كانوا يصرخون قائلين سلام سلام مع أن الله لم يقل لهم سلام. وكالفريسيين في أيام المسيح كثيرون يرفضون دخول ملكوت السماوات بأنفسهم، بل أكثر من ذلك هم يمنعون الداخلين من الدخول. وسيطلب دم هذه النفوس من أيديهم.

إن أفقر الناس في الكنائس وأعظمهم ورعا وتقوى كانوا كالمعتاد أول من قبلوا الرسالة. والذين درسوا الكتاب لأنفسهم لم يسعهم إلا أن يروا الصفة غير الكتابية للآراء المألوفة عن النبوة. وفي كل مكان لم يكن الناس فيه خاضعين لنفوذ الإكليروس، وفي كل مكان أمكنهم فيه أن يتقصوا كلمة الله لأنفسهم لم تكن عقيدة المجيء في حاجة إلى أكثر من مقارنتها بالكتب المقدسة لإثبات سلطانها

الإلهي.

وكثيرون اضهدهم إخوتهم غير المؤمنين. والبعض منهم في سبيل الاحتفاظ بمكانتهم في الكنيسة رضوا بالسكوت عن التصريح برجائهم، لكن آخرين أحسوا بأن ولاءهم لله يمنعهم من إخفاء تلك الحقائق التي أودعها بين أيديهم. وقد قطع عدد غير قليل منهم من شركة الكنيسة لا لسبب آخر سوى التصريح باعتقادهم بمجيء المسيح. والذين احتملوا تجربة إيمانهم كانت كلمات النبي ثمينة وعزيرة عليهم جدا إذ قال: « قَالَ إِخْوَتُكُمْ الَّذِينَ أَبْعَضُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ مِنْ أَجْلِ اسْمِي: لِيَتَمَجَّدَ الرَّبُّ. فَيُظْهِرَ لِفِرْحِكُمْ، وَأَمَّا هُمْ فَيَخْزُونَ » (إشعياء ٦٦: ٥).

وقد كان ملائكة الله يراقبون نتيجة الإنذار بأعظم اهتمام. فعندما رفضت الكنائس الرسالة بصورة عامة ارتد الملائكة حزاني ومكتئبين. ولكن كان يوجد كثيرون ممن لم يُختبروا في ما يختص بحق المجيء. وكثيرون أضلهم الأزواج والزوجات والآباء والأولاد فجعلوهم يعتقدون أنه حتى مجرد الإصغاء إلى الهرطقات التي يذيعها المجيئون خطيئة. وقد كلف الملائكة بحراسة هذه النفوس بكل أمانة، لأن نورا جديدا آتيا من عرش الله موشك أن يشرق عليهم.

وبشوق لا يوصف كان الذين قبلوا الرسالة يتوقعون مجيء المخلص. كان الوقت الذي سيلتقون به فيه قريبا. فاقربوا من هذه الساعة بوقار هادئ رصين. واستراحوا للشركة الحلوة مع الله كعربون للسلام الذي كانوا سيتمتعون به في الأبدية المتألقة المجيدة. إن من قد اختبر هذا الرجاء وهذه الثقة لا يمكنه أن ينسى ساعات الانتظار الثمينة تلك. وطوال بضعة أسابيع قبل الوقت أُلقي بأكثر الأعمال الدنيوية جانبا، وقد جعل المؤمنون المخلصون يمتحنون بكل دقة كل أفكار قلوبهم وبواعثهم، كما لو كانوا مضطجعين على فراش الموت وبعد ساعات قليلة ستغمض عيونهم عن رؤية المناظر الأرضية. إنهم لم يصنعوا لأنفسهم « حللا ليصعدوا بها إلى السماء » (انظر التذييل) ولكنهم أحسوا بالحاجة إلى البرهان الداخلي على أنهم مستعدون لملاقاة المخلص، فثيابهم البيض كانت هي طهارة النفس والصفات المطهرة من الخطيئة بدم المسيح المكفر. يا ليت كل المعترفين بأنهم شعب الله تكون لهم روح فحص القلب هذه وذلك الإيمان الغيور الثابت الذي لا يتزعزع. فلو أنهم داوموا على الاتضاع أمام الرب وقدموا طلباتهم بالحاح أمام عرش الرحمة لكان لهم اختبار أغنى مما لهم الآن. إن الصلاة والتبكي الحقيقي على الخطيئة يكادان يكونان معدومين. والافتقار إلى الإيمان الحي يجعل الكثيرين منا محرومين من النعمة التي يقدمها فادينا بكل غنى.

قصد الله أن يمتحن شعبه. فقد أخفى غلطة في حساب الفترات النبوية. ولم يكتشف منتظرو المجيء هذه الغلطة، كلا ولا أكتشفها أدكى خصومهم وأغزرهم علما. فلقد قال أولئك الخصوم: « إن حسابكم للفترات النبوية صحيح وإن حادثة عظيمة توشك أن تحدث. ولكنها ليست هي التي يتنبأ عنها السيد ميلر، إنما هي هداية العالم وليست هي المجيء الثاني للمسيح » (انظر التذييل).

خية أمل مريرة

مر وقت الانتظار ولكن لم يظهر المسيح لخلاص شعبه، فالذين بإيمان ومحبة خالصين انتظروا

مخلصهم جازوا في اختبار خيبة مريرة. ومع ذلك فقد تمت مقاصد الله الذي كان يختبر قلوب الذين كانوا يقرون بأنهم ينتظرون ظهوره. وكان بينهم جماعة لم يكن يدفعهم إلى ذلك غير باعث الخوف، واعترافهم بالإيمان لم يؤثر في قلوبهم أو حياتهم، فلما لم يحدث ذلك الحادث المنتظر أعلن هؤلاء القوم أنهم لم يفشلوا ولا خابت آمالهم، لأنهم لم يكونوا يعتقدون بأن المسيح سيأتي. وكانوا أول من سخرُوا من حزن المؤمنين الحقيقيين.

لكن يسوع وكل أجناد السماء أشرفوا بحب وعطف على أولئك المجربين الأمناء الذين قد خابت آمالهم. ولو انكشف الستار الذي يحجب العالم غير المنظور عن العالم المنظور لكان الناس يرون الملائكة يقتربون من هذه النفوس الثابتة ويصدون عنها سهام الشيطان.

٢١ - يحصدون الزوبعة

إن وليم ميلر وزملاءه وهم يكرزون بتعليم المجيء الثاني كان غرضهم الأوحيد من كدهم وتعبهم هو إيقاظ الناس ليستعدوا للدينونة. لقد عملوا على إيقاظ المعترفين بالديانة إلى رجاء الكنيسة الحقيقي وإلى الحاجة إلى اختبار مسيحي أعمق، كما حاولوا أيضاً أن يوقظوا غير المتجددين إلى واجب التوبة السريعة والاهتداء إلى الله. « إنهم لم يحاولوا أن يضموا الناس إلى طائفة أو فئة دينية، ولهذا كانوا يخدمون بين كل الأحزاب والطوائف من دون أن يتدخلوا في شؤونهم أو أنظمتهم ».

ولقد قال ميلر: « في كل خدماتي لم أكن أرغب أو أفكر أبداً في إقامة مطلب أو تدبير يختلف عن مطالب الطوائف القائمة، أو أن انفع طائفة على حساب طائفة أخرى، ولكنني فكرت في نفع الجميع وإذا كنت افترض أن جميع المسيحيين سيفرحون برجاء مجيء المسيح، وأن الذين لم يكونوا يستطيعون أن يروا ما أراه لن تقل محبتهم لمن يعتنقون هذه العقيدة، لم أكن أرى ضرورة لعقد اجتماعات منفصلة. وكان مطلبي الوحيد هو تجديد النفوس إلى الله وإنذار العالم بالدينونة المقبلة وإقناع الناس بإعداد قلوبهم حتى يمكنهم لقاء الههم بسلام. وقد اتحد غالبية من قد تجددوا بتأثير خدماتي وكرازتي مع الكنائس المختلفة » (٣٢٣).

وإذا أثمرت جهوده وخدماته في بناء الكنائس، ظل الناس بعض الوقت ينظرون إليها نظرة الرضى، ولكن عندما قاوم الخدام والقادة الدينيون عقيدة المجيء ورغبوا في كبت كل احتياج يمكن أن يحدثه ذلك الموضوع لم يكتفوا بإعلان مقاومتهم لهذه العقيدة من منابرهم بل حرموا على أعضاء كنائسهم الذهاب إلى تلك الاجتماعات لسماع رسائل عن المجيء الثاني أو التحدث عن رجائهم في الحفلات الاجتماعية التي تقام في الكنائس. وهكذا وجد المؤمنون أنفسهم في مركز تجربة وارتباك. لقد كانوا يحبون كنائسهم ولم يكونوا يرغبون في الانفصال عنها. ولكن إذ رأوا شهادة كلمة الله مكبوتة وقد أنكر عليهم حقهم في فحص النبوات، أحسوا بأن ولاءهم لله يمنعهم من الخضوع. كما أنهم أنكروا على الذين حاولوا إسكات شهادة كلمة الله احتكارهم عضوية كنيسة المسيح، « عمود الحق وقاعدته »، ولذلك أحسوا أنهم لا لوم عليهم في الانفصال عن الروابط القديمة. وفي صيف عام ١٨٤٤ انسحب من الكنائس قرابة خمسين ألفاً.

قرابة ذلك التاريخ لوحظ تغيير ملحوظ في معظم الكنائس في الولايات المتحدة كلها. ولمدة سنين عديدة زاد تشبه المسيحيين بأهل العالم في ممارساتهم وعاداتهم زيادة ثابتة ولكن متدرجة، وظهر تبعاً لذلك انحطاط في الحياة الروحية الحقيقية، ولكن في تلك السنة كانت توجد أدلة على وجود انحطاط ملحوظ مفاجئ في كل كنائس البلاد تقريباً. وفي حين أنه لم يبد أن أحداً يستطيع أن يدلي بأسباب ذلك فإن الحقيقة نفسها لوحظت في كل مكان وأبدت بصدها الملاحظات والتعليقات من منابر الصحافة والكنائس.

ففي اجتماع مجمع فيلادلفيا صرح المستر بارنز، صاحب تفسير الكتاب الواسع الانتشار وراعي كنيسة من أمهات كنائس تلك المدينة، « بأنه قضى في الخدمة عشرين عاماً ولم يحدث طوال تلك السنين إن مارس الفريضة المقدسة من دون أن ينضم إلى الكنيسة أعضاء جدد، قليلين كانوا أو

كثيرين، إلا في آخر مرة مارس فيها الفريضة. أما الآن فلا توجد انتعاشات ولا يوجد متجددون يرجعون إلى الله، ولا يوجد نمو في النعمة ظاهرا في حياة المعترفين بالديانة، ولا يأتي أحد إلى مكتبه للتحديث معه عن خلاص نفوسهم. فإذ زادت الأعمال والتوقعات المشرقة للتجارة والصناعة زاد اهتمام الناس بالأمور العالمية. وهذا يصدق على كل الطوائف» (٣٢٤).

انحراف الكنائس

وفي شهر شباط (فبراير) من تلك السنة عينها قال فيني، الأستاذ في كلية أوبرلين: «أمام أذهاننا تمثل هذه الحقيقة وهي أن عامة الكنائس البروتستانتية في بلادنا إما أنها تغط في سبات عميق وإما أنها تضمّر العداء لأغلب الإصلاحات الأخلاقية في هذا العصر. توجد استثناءات جزئية، ومع ذلك فهي ليست كافية للتدليل على أن الحالة العامة هي على عكس ما قد قررته. كما أن لدينا حقيقة أخرى هي انعدام تأثير الإصلاح في الكنائس. إن السبات الروحي يكاد يكون شاملا ومتفشيا في كل مكان، وهو سبات عميق جدا، وهذا ما تشهد به الصحافة الدينية... إن أعضاء الكنائس عموماً قد صاروا عبيدا للأزياء والعادات العالمية، مثلهم في ذلك مثل أبناء هذا الدهر. فهم يصحبون الأشرار في حفلات الطرب والمسرات وفي الرقص وإقامة الولائم الخ... ولكن لا حاجة بنا إلى الاسترسال في هذا الموضوع المؤلم. ويكفي أن نقول أن البراهين تتكاثر وتزيد وتضغط بثقلها على قلوبنا، وهي تبرهن لنا أن الكنائس عموماً سائرة في طريق الانحطاط المؤلم. لقد ابتعدت عن الرب بعدا قاصيا ولذلك فقد انسحب منها».

وقد كتب أحد الكتّاب في صحيفة «التلسكوب الديني» فشهد قائلا: «لم يسبق لنا أن رأينا انحطاطا دينيا كهذا الانحطاط الشامل الراهن. وفي الحقيقة يجب على الكنيسة أن تستيقظ وتبحث عن سر هذه البلية، إذ يجب على كل محب لصهيون أن يرى فيها بلية. وعندما نذكر ندرة عدد حالات التجديد الحقيقي ووقاحة الخطأة وقسوتهم التي لا مثيل لها فإننا نكاد نصرخ رغما عنا قائلين: «هل نسي الله رحمته أم أن باب الرحمة قد أُغلق؟»

سبب الحالة

مثل هذه الحالة لا يمكن أن توجد من دون أن تكون العلة في الكنيسة نفسها. فالظلمة الروحية التي تكتنف الأمم والكنائس والأفراد لا تعزى إلى تعسف الله في سحب إمدادات نعمته الإلهية بل إلى إهمال الإنسان أو رفضه النور الإلهي. وإن لنا في تاريخ الشعب اليهودي في عهد المسيح مثلاً رائعا على صدق هذا الكلام. فلكونهم أحبوا العالم ونسوا الله وكلمته عميت أذهانهم وصارت قلوبهم أرضية وشهوانية. وهكذا جهلوا كل شيء عن مجيء مسيا، وفي كبريائهم وعدم إيمانهم رفضوا الفادي. وحتى في ذلك الحين لم يحرم الله الأمة اليهودية من معرفة بركات الخلاص أو الاشتراك فيه. لكن الذين رفضوا الحق ما عادت لهم بعد ذلك رغبة في الحصول على هبة السماء. لقد كانوا «يقولون للظلام نورا وللنور ظلاما» إلى أن صار النور الذي كان فيهم ظلاما. وما كان أعظم ذلك الظلام!

أنه مما يروق لسياسة الشيطان أن يُبقي الناس على صورة الديانة وطقوسها إذا كان يعوزهم روح التقوى الحيوية. إن اليهود بعدما رفضوا الإنجيل ظلوا محتفظين بطقوسهم القديمة بكل غيرة، كما ظلوا محتفظين بانطوائهم القومي في حين أنهم هم أنفسهم لم يسعهم إلا التسليم بأن الله ما عاد يعلن حضوره بينهم. إن نبوة دانيال أشارت إشارة لا تخطئ إلى وقت مجيء مسيا، وأنبت نبوة مباشرة بموته إلى حد أنهم لم يشجعوا أحدا على دراستها، وأخيرا نطق أحبار اليهود باللعنة على كل الذين حاولوا تقدير الزمن أو معرفته. وطوال ثمانية عشر قرنا ظل اليهود متمادين في عماهم وتحجرت قلوبهم وهم عديمو الاكتراث لهبات الخلاص الرحيمة، وغير حافلين ببركات الإنجيل، وكان ذلك إنذاراً خطيراً ومخيفاً بخطر رفض النور الآتي من السماء.

يرفض الناس رسالة الحق الإلهي أو يستخفون بها فالكنيسة تلف في أكفان الظلام، ويفتر الإيمان والمحبة، ويقتحم الكنيسة النفور والخصومات، وأعضاء الكنيسة يركزون مصالحهم وجهودهم في الممارسات العالمية، ويمعن الخطاة في صلابة قلوبهم.

إنذار إلى الكنيسة

إن رسالة الملاك الأول المذكورة في سفر الرؤيا الأصحاح الرابع عشر والتي فيها يعلن عن ساعة دينونة الله ويدعو الناس إلى أن يخافوا الله ويسجدوا له كان المقصود بها أن تفصل الشعب المعترف بولائه لله بعيداً عن تأثيرات العالم المفسدة، وتوقظهم لمعرفة حالتهم الحقيقية، حالة محبة العالم والارتداد. ففي هذه الرسالة أرسل الله إلى الكنيسة إنذاراً، ولو قبل هذا الإنذار لكان كفيلاً بإصلاح الشرور التي كانت تباعد بينهم وبين الله. وهم لو قبلوا تلك الرسالة الآتية من السماء واتضعت قلوبهم أمام الرب وطلبوا بكل إخلاص أن يستعدوا للوقوف في حضرته لظهر روح الله وقدرته في وسطهم. وكان في وسع الكنيسة أن تعود من جديد إلى تلك الحالة المباركة، حالة الوحدة والإيمان والمحبة التي سادتها في عصر الرسل عندما قيل عن المؤمنين أنه كان لهم « قَلْبٌ وَاحِدٌ وَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ » و « وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ بِمُجَاهَرَةٍ »، « وَكَانَ الرَّبُّ كُلَّ يَوْمٍ يَضُمُّ إِلَى الْكَنِيسَةِ الَّذِينَ يَخْلُصُونَ » (أعمال ٤: ٣٢، ٣١؛ ٢: ٤٧).

ولو أن الشعب المعترف بالله يقبل النور الذي يشرق لهم من كلمته لكانوا يصلون إلى تلك الوحدة التي قد صلى المسيح في طلبها، والتي يصفها الرسول بأنها: « وَحْدَانِيَّةُ الرُّوحِ بِرَبَاطِ السَّلَامِ ». ثم يقول: « جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَرُوحٌ وَاحِدٌ، كَمَا دُعِيتُمْ أَيْضاً فِي رَجَاءِ دَعْوَتِكُمُ الْوَاحِدِ. رَبٌّ وَاحِدٌ، إِيْمَانٌ وَاحِدٌ، مَعْمُودِيَّةٌ وَاحِدَةٌ » (أفسس ٤: ٣-٥).

مثل هذه كانت النتائج المباركة التي اختبرها أولئك الذين قبلوا رسالة المجيء. لقد أتوا من طوائف مختلفة، وقد رُميت حواجزهم الطائفية إلى الأرض، وتطايرت العقائد المتضاربة فصارت ذرات. وهجر الناس الرجاء غير الكتابي في عصر ذهبي مادي زمني. كما أصلحت الآراء الكاذبة الخاصة بالمجيء الثاني، واكتسحت الكبرياء ومجاعة العالم، وأصلحت الأخطاء، واتحدت القلوب في أجمل وأعذب شركة. وصارت للمحبة والفرح السيادة العظمى. فإذا كانت هذه العقيدة قد حققت هذا كله للأقلية

الذين قبلوها فلا بد أنها كفيلة بأن تحقق هذا أيضاً لكل من يقبلونها.

لكن الكنائس عموماً لم تقبل الإنذار. فإن خدامها بوصفهم « رقباء على بيت إسرائيل » وكان ينبغي لهم أن يكونوا أول من يميزون علامات مجيء يسوع، أخفقوا في فهم الحق من شهادة الأنبياء ومن علامات الأزمنة. فإذ امتلأ القلب بالآمال والمطامع الدنيوية فترت المحبة لله والإيمان بكلمته، فعندما قدمت رسالة المجيء أثارت تعصبهم وعدم إيمانهم. إن واقع كون الذين كرزوا بهذه العقيدة كانت غالبيتهم من العلمانيين استخدم ضدها. لقد قوبلت شهادة كلمة الله الصريحة كما في القديم بهذا السؤال: « أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً قَدْ ضَلَلْتُمْ » (يوحنا ٧: ٤٨)، وإذا أيقنوا صعوبة تنفيذ البراهين المقتبسة من الفترات المذكورة في كتب الأنبياء ثبطوا همم الكثيرين حتى لا يدرسوا النبوات، إذ علموهم أن الأسفار النبوية مختومة ولا يمكن فهمها. ولما كان كثيرون من الناس واثقين بخدامهم ثقة كاملة رفضوا الإصغاء إلى الإنذار، بينما آخرون مع اقتناعهم بالحق لم يجرؤوا على الاعتراف به لئلا « يخرجوا من المجمع ». إن الرسالة التي بعثها الله لاختبار الكنيسة وتطهيرها كشفت بكل تأكيد عن كثرة عدد من ثبتوا محبة قلوبهم على هذا العالم بدلاً من أن يحبوا المسيح. فالأواصر التي ربطتهم بالأرض كانت أقوى من الدوافع التي جذبتهم إلى السماء. لقد اختاروا الإصغاء إلى صوت الحكمة الدنيوية وابتعدوا عن رسالة الحق الفاحصة للقلب.

وإذا رفضوا إنذار الملاك الأول رفضوا الوسيلة التي قد أعدتها السماء لردهم. لقد رفضوا رسول الرحمة وطرده، ذلك الرسول الذي كان يستطيع أن يصلح الشرور التي فصلتهم عن الله، وبشوق عظيم ارتدوا ينشدون صداقة العالم. كان هذا هو سبب حالة محبة العالم المخيفة والارتداد والموت الروحي الذي حل بالكنائس في عام ١٨٤٤.

إننا نجد في الأصحاح الرابع عشر من سفر الرؤيا أن الملاك الأول يتبعه ملاك آخر يعلن قائلاً: « سَقَطَتْ! سَقَطَتْ! بَابِلُ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ، لِأَنَّهَا سَقَتْ جَمِيعَ الْأُمَمِ مِنْ خَمَرِ غَضَبِ زَنَاهَا! » (رؤيا ١٤: ٨). إن كلمة « بابل » معناها بلبلة أو ارتباك. وهي تستعمل في الكتاب المقدس لتحديد وتعيين الأشكال المختلفة لدين الارتداد الكاذب. وفي رؤيا ١٧ نجد أن بابل ممثلة بهيئة امرأة، وهذا رمز يستخدم في الكتاب ليشير إلى الكنيسة، فالمرأة الفاضلة ترمز إلى الكنيسة الطاهرة، أما المرأة الشريرة الفاسدة فترمز إلى الكنيسة المرتدة.

وفي الكتاب المقدس نجد أن الصفة المقدسة الدائمة للعلاقة الكائنة بين المسيح والكنيسة ممثلة في الارتباط بالزواج. لقد اقترن الرب بشعبه وضمه إلى نفسه بعهد مقدس، فمن ناحيته يعدهم بأن يكون لهم إلهاً وهم من ناحيتهم يتعهدون بأن يكونوا خاصة له وحده. وهو يعلن قائلاً: « وَأَخْطُبُكَ لِنَفْسِي إِلَى الْأَبَدِ. وَأَخْطُبُكَ لِنَفْسِي بِالْعَدْلِ وَالْحَقِّ وَالْإِحْسَانِ وَالْمَرَامِ » (هوشع ٢: ١٩). ومرة أخرى يقول: « لِأَنِّي سُدْتُ عَلَيْكُمْ [أَي تَزَوَّجْتُكُمْ] » (إرميا ٣: ١٤). واستخدم الرسول بولس التشبيه ذاته في العهد الجديد إذ قال: « خَطَبْتُكُمْ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ، لَأَقْدِمَ عَذْرَاءَ عَفِيفَةً لِلْمَسِيحِ » (٢ كورنثوس ١١: ٢).

إن عدم أمانة الكنيسة للمسيح، إذ حولت ثقته وعواطف محبتها عنه وسمحت لمحبة أمور العالم أن تحتل النفس، شبيه بتدنيس عهد الزواج. وخطيئة إسرائيل في تركهم للرب ينظر إليها بالمنظار

نفسه. فمحبه الله العجيبة التي ازدروها إلى هذا الحد صوّرت على نحو مؤثر إذ يقول الله: « حلفت لك ودخلت معك في عهد يقول السيد الرب فصرت لي ». وجملت جدا جدا فصلحت لمملكة. وخرج لك اسم في الأمم لجمالك لأنه كان كاملاً بيهائي الذي جعلته عليك... فاتكلت على جمالك وزنيت على اسمك ». « حقا انه كما تخون المرأة قرينها هكذا خنتموني يا بيت إسرائيل يقول الرب ». « أيتها الزوجة الفاسقة تأخذ أجنيين مكان زوجها » (حزقيال ١٦: ٨، ١٣-١٥؛ إرميا ٣: ٢٠؛ حزقيال ١٦: ٣٢).

وإننا نجد في العهد الجديد كلاما قريب الشبه جدا بهذا موجهها إلى المسيحيين المعترفين بالمسيح الذين يطلبون صداقة العالم من دون رضى الله. يقول الرسول يعقوب: « أَيُّهَا الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ مَحَبَّةَ الْعَالَمِ عَدَاوَةٌ لِلهِ؟ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلْعَالَمِ، فَقَدْ صَارَ عَدُوًّا لِلهِ » (يعقوب ٤: ٤).

المرأة المرتدة

إن المرأة (بابل) المذكورة في رؤيا، الأصحاح السابع عشر، موصوفة بأنها « مُتَسَرِّبَةً بِأَرْجَوَانٍ وَقَرْمِزٍ، وَمُتَحَلِّيةً بِذَهَبٍ وَحَجَارَةٍ كَرِيمَةٍ وَلَوْلُؤٍ، وَمَعَهَا كَأْسٌ مِنْ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا مَمْلُوءَةٌ رَجَاسَاتٍ وَنَجَاسَاتٍ، ... وَعَلَى جَبْهَتِهَا اسْمٌ مَكْتُوبٌ: 'سُر'. بَابِلُ الْعَظِيمَةِ أُمُّ الزَّوَانِي وَرَجَاسَاتِ الْأَرْضِ » ... ويقول النبي « رَأَيْتُ الْمَرْأَةَ سَكْرَى مِنْ دَمِ الْقُدِّيسِينَ وَمِنْ دَمِ شُهَدَاءِ يَسُوعَ ». وقد أعلن عن بابل أيضاً أنها « الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي لَهَا مُلْكٌ عَلَى مُلُوكِ الْأَرْضِ » (رؤيا ١٧: ٤-٦، ١٨). إن القوة التي بسطت طوال قرون عديدة سيادتها المتعسفة الظالمة على ملوك العالم المسيحي هي روما. والأرجوان والقرمز والحجارة الكريمة والذهب واللؤلؤ تصور لنا بكل جلاء الأبهة والعظمة والفخامة التي تزيد على عظمة الملوك والتي كان يتباهى بها كرسي الباباوات المتعجرفين في روما. ولا يمكن أن سلطانا آخر يصدق عليه القول بأنه « سكر من دم القديسين » كما صدق على تلك الكنيسة التي قد اضطهدت اتباع المسيح بكل قسوة. ثم إن بابل متهمة أيضاً باتحادها وارتباطها غير المشروع « بملوك الأرض ». إن الكنيسة اليهودية بسبب تركها الرب وتحالفها مع الوثنيين صارت زانية، وكذلك روما إذ أفسدت نفسها بالطريقة ذاتها وطلبت معاضدة القوات الأرضية تقع تحت تلك الدينونة عينها.

سقوط بابل

وقد قيل عن بابل أنها « أم الزواني ». وبناتها ترمز إلى الكنائس التي تتمسك بتعاليمها وتقاليدها وتتبع مثالها في التضحية بالحق ورضى الله واستحسانه في سبيل إبرام تحالف غير مشروع مع العالم. وإن الرسالة الواردة في رؤيا، الأصحاح الرابع عشر، التي تعلن عن سقوط بابل لا بد أن تنطبق على كل الهيئات الدينية التي كانت قبلا طاهرة ولكنها فسدت. وبما أن هذه الرسالة تتبع الإنذار بالدينونة فلا بد من تقديمها في الأيام الأخيرة، ولذلك فلا يمكن أن تكون الإشارة إلى كنيسة روما وحدها، لأن الكنيسة ظلت في حالة السقوط قرونا طويلة. وفوق هذا ففي الأصحاح الثامن عشر من الرؤيا يُطلب من شعب الله أن يخرجوا من بابل. وبناء على ما جاء في هذا الأصحاح لا بد أن يكون كثيرون من

شعب الله باقين في بابل. ففي أي الهيئات الدينية يوجد السواد الأعظم من اتباع المسيح في هذه الأيام؟ إنهم لا شك موجودون في الكنائس المختلفة التي تعتنق العقيدة البروتستانتية. إن هذه الكنائس وقفت عند بدء ظهورها موقفا نبيلًا إلى جانب الله والحق فحلت عليها بركته. وحتى العالم غير المؤمن التزم الاعتراف بالنتائج الجميلة النافعة التي تبعت قبول الناس لمبادئ الإنجيل. وقد وردت هذه الكلمات في أقوال النبي: « وَخَرَجَ لَكَ اسْمٌ فِي الْأُمَمِ لَجَمَالِكَ، لَأَنَّهُ كَانَ كَامِلًا بِنَهَائِي الَّذِي جَعَلْتُهُ عَلَيْكَ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ ». لكن الرغبة التي كانت لعنة ودمارًا لإسرائيل كانت هي نفسها علة سقوطهم، ألا وهي رغبة التشبه بالأشرار في العادات ومحاولة التقرب منهم لكسب صداقتهم. « فَأَتَكَلَّمْتُ عَلَى جَمَالِكَ، وَزَيَّيْتُ عَلَى اسْمِكَ » (حزقيال ١٦: ١٤، ١٥).

تتحد مع العالم

إن كثيرا من الكنائس البروتستانتية تتمثل بروما في ارتباطها الآثم « بملوك الأرض ». — كنائس الدولة في صلتها بالحكومات الأرضية، وبطوائف أخرى في سعيها إلى طلب رضى العالم. ويمكن إطلاق اسم « بابل » — ببلبة — بكل لياقة على هذه الهيئات، إذ أنها كلها تعترف بأنها تقتبس تعاليمها وعقائدها من الكتاب، ومع ذلك فهي منقسمة إلى شيع تكاد لا تحصى، وعقائدها ونظرياتها متضاربة.

وفضلا عن الاتحاد الآثم مع العالم فإن الكنائس التي انفصلت عن روما تقدم صفات أخرى من صفاتها.

في أحد المؤلفات الرومانية الكاثوليكية نجد هذا القول: « إذا كانت كنيسة روما مذنبه بعبادة الأوثان في علاقتها بالقدسين، فإن ابنتها كنيسة بريطانيا قد ارتكبت الخطيئة نفسها، إذ أنها تكرس عشر كنائس للعدراء في مقابل تكريس كنيسة واحدة للمسيح » (٣٢٥).

ثم إن الدكتور هوبكنز يعلن في « مقال كتبه عن العصر الألفي » قائلا: « لا يوجد ما يدعونا إلى اعتبار الروح المنافية للمسيحية وممارستها قاصرة على الكنيسة التي تسمى الآن كنيسة روما. فالكنائس البروتستانتية فيها كثير من هذه الروح، وهي أبعد ما تكون عن الإصلاح الكامل... المنزه من الفساد والانحلال والشر » (٣٢٦).

وبخصوص انفصال الكنيسة المشيخية عن روما كتب الدكتور كوثري يقول: « منذ ثلاث مئة سنة خرجت كنيستنا من أبواب روما وعلى أعلامها صورة أَلِكْتَابِ الْمُقَدَّسِ مفتوحا وهذا الشعار فتشوا الكتب مكتوب على دَرَجِهَا ». وبعد ذلك يسأل هذا السؤال الذي له مغزاه: « ولكن هل خرجوا من بابل خروجًا كاملاً بمعنى الكلمة؟ » (٣٢٧).

وها هو سبرجن يقول: « يبدو أن كنيسة بريطانيا قد أصيبت بنخر سوس التمسك بالفرائض والطقوس، لكن الانشقاق يبدو ملتبسا مع الإلحاد الفلسفي. إن أولئك الذين كنا نفكر فيهم أفكارا حسنة ينحرفون واحدا بعد الآخر عن أصول الإيمان. وإني اعتقد أن الإلحاد قد نخر في عظام بريطانيا، ذلك الإلحاد اللعين الذي يجروء على اعتلاء المنبر ويدعو نفسه مسيحي ».

ماذا كان أصل الارتداد العظيم، وكيف بدأت الكنيسة في الانحراف عن بساطة الإنجيل؟ بمشاكلتها الممارسات الوثنية لتهوّن على الوثنيين أمر قبولهم للمسيحية. وقد أعلن بولس الرسول حتى في عصره قائلاً: « سَرَّ الإِثْمُ الآنَ يَعْمَلُ فَقَطْ » (٢ تسالونيكي ٢: ٧). وقد ظلت الكنيسة طاهرة نسبياً في عهد الرسل، « وَلَكِنْ قَرَابَةُ الْقَرْنِ الثَّانِي صَارَ لِمُعْظَمِ الْكَنَائِسِ شَكْلٌ جَدِيدٌ، فَاخْتَفَتِ الْبَسَاطَةُ الْأُولَى، وَبَعْدَاضْطِجَعِ التَّلَامِيذِ الْأَوَّلِينَ فِي قُبُورِهِمْ قَامَ نَسْلُهُمْ مَعَ الْمَهْتَدِينَ الْجَدِيدِ... وَشَكَلُوا شَيْئاً فَشِئاً الْقَضِيَّةَ الْمَسِيحِيَّةَ مِنْ جَدِيدٍ » (٣٢٨) ولكي يحصلوا على مهتدين خفضوا مقياس الإيمان المسيحي السامي، ونتيجة لذلك « حدث أن طوفانا وثنيا غمر الكنيسة بممارسات الوثنية وعاداتها وأوثانها » (٣٢٩)، وإذ ظفر الدين المسيحي برضى الرؤساء العالميين ومعاضدتهم قبلت جماهير الوثنيين الدين المسيحي قبولاً اسمياً. ولكن مع إن كثيرين كانوا مسيحيين في مظهرهم « فقد ظلوا وثنيين في قلوبهم، وكانوا على الخصوص يسجدون لأوثانهم في الخفاء » (٣٣٠).

العملية تتكرر

ألم تتكرر هذه العملية ذاتها في أغلب الكنائس التي تدعو نفسها بروتستانتية. فما أن تنقضي حياة مؤسسي الكنائس المصلحة الذين كان لهم روح الإصلاح الحقيقي حتى يتقدم أولادهم « ويشكلون القضية من جديد ». وفي حين أن أولاد المصلحين يتعلقون في عماهم بعقيدة آبائهم ويرفضون قبول أي حق كتابي جديد أكثر مما قد عرفوه فإنهم يبتعدون بعداً قاصياً عن مثالهم، مثال الوداعة وإنكار الذات ونبذ العالم. وهكذا « تختفي البساطة الأولى ». إن طوفانا عالمياً يكتسح الكنيسة « ويحمل معه إليها عادات العالم وأعماله وأوثانه ».

وأسفاه، إلى أي حد مخيف يحتضن أولئك المعترفون بأنهم أتباع المسيح محبة العالم التي هي « عداوة لله! » وما أعظم ابتعاد الكنائس المشهورة في العالم المسيحي عن مثال الكتاب المقدس، مثال الوداعة وإنكار الذات والبساطة والتقوى! لقد قال جون وسلي وهو في معرض حديثه عن استخدام المال استخداماً صائباً: « لا تُبَذِّرُوا جزءاً ولو صغيراً من هذه الوزن الثمينة لمجرد إشباع شهوة العيون في التألق ولبس الثياب الغالية الثمن أو الزينة التي لا حاجة إليها. ولا تُبَذِّرُوا شَيْئاً مِنْهَا فِي تَرْيِيزِ بَيْوتِكُمْ أَوْ شَرَاءِ الصُّورِ وَالْأَثَاثِ الْغَالِيِ الثَّمَنِ وَالزَّائِدِ عَنْ الْحَاجَةِ، وَلَا فِي تَمْوِيهِ الْجَدْرَانِ بِمَاءِ الذَّهَبِ... وَلَا تَضَعُوا شَيْئاً يُؤَدِّي إِلَى تَعْظُمِ الْمَعِيشَةِ أَوْ إِلَى الظُّفْرِ بِإِعْجَابِ النَّاسِ أَوْ مَدِيحِهِمْ... وَيَمْدَحُكِ النَّاسُ طَالَمَا أَحْسَنْتَ إِلَى نَفْسِكَ ». فما دمت 'تلبس البز والأرجوان وتتنعم كل يوم مترفها' فلا شك أن الناس سيمتدحون جمال ذوقك وكرمك وسخاءك. ولكن احذر من أن تشتري مدحهم واستحسانهم بهذا الثمن الغالي. فخير لك أن تقنع بالكرامة التي تأتيك من الله » (٣٣١). لكن كثيراً من الكنائس في أيامنا هذه تستخف بمثل هذا التعليم.

ادعاء التقوى

صار الاعتراف بالدين أمراً مألوفاً لدى العالم. فالحكام ورجال السياسة والمحامون والأساتذة العظام والتجار ينضمون إلى الكنيسة كوسيلة تجعلهم يحصلون على احترام المجتمع وثقته ونجاح

مصالحتهم العالمية. وهكذا هم يحاولون أن يستروا كل صفقاتهم الآتية تحت ستار الاعتراف بالمسيحية. والهيئات الدينية المختلفة إذ تتقوى بشراء هؤلاء العالميين المعتمدين ونفوذهم تطلب مزائدة أعلى للشهرة والرعاية. إن الكنائس الفخمة المزينة بأعلى الزينات توجد غالبا في الشوارع المشهورة. والعابدون يلبسون أفخر الملابس المصنوعة على أحدث طراز. والخادم الموهوب يُعطي أجرا عظيما ومرتباً سخيا ليحتفي بالشعب ويجذبهم. وينبغي ألا تمس عظاته الخطايا المألوفة بل أن يكون الكلام ناعما ومسرا لتلك الأذان المهذبة. وهكذا تسجل أسماء الخطاة المهذبين في سجلات الكنيسة وتختفي الخطايا المهذبة تحت ستار التظاهر بالتقوى.

إن صحيفة عالمية شهيرة في تعليقها على موقف المعترفين بالمسيحية حيال العالم كتبت تقول: « لقد خضعت الكنيسة لروح العصر وهي لا تشعر، ووفقت بين طقوس عبادتها وحاجات العصر. » وفي الحق أن الكنيسة الآن تستخدم كل الوسائل التي من شأنها أن تجعل الديانة جذابة. » وإن كاتباً في صحيفة « نيويورك إنديبنندنت » يتحدث عن الكنيسة الميثودية قائلاً: « إن الحد الفاصل بين الأتقياء وغير المتدينين بدأ يبهت شيئاً فشيئاً بحيث صار امتزاجاً بين النور والظلام، والناس الغيورون من كلا الجانبين جاهدون في سبيل محو كل الفروق بين أساليب عملهم وتمتعاتهم. » إن شهرة الديانة تؤول إلى زيادة عدد الذين يرغبون في الحصول على فوائدها من دون القيام بواجباتها بكل إنصاف. »

ويقول هوارد كروسبي: « إنه مما يدعونا إلى التفكير العميق كوننا نجد كنيسة المسيح لا تحقق أغراض سيدها إلا بقدر ضئيل جداً. فكما فعل اليهود قديماً حين جعلوا اختلاطهم بالأُمم الوثنية يسترق قلوبهم ويجعلها تزيغ عن الله... كذلك الحال مع كنيسة يسوع اليوم، التي تماثلهم بتحالفها واشتراكها المخطئ مع العالم العديم الإيمان، وبتخليها عن المثل الإلهية العليا لحياتها الحقيقية الأُمينة، وبتسليمها نفسها لعادات المجتمع المعادي للمسيح، تلك العادات الوبيلة التي هي في الوقت نفسه مُغرية، وباستخدام البراهين والوصول إلى النتائج التي لا صلة بينها وبين إعلانات الله والتي تعادي وتعارض النمو في النعمة. » (٣٣٢)

انعدام روح التضحية لأجل المسيح

وفي هذا التيار الجارف، تيار محبة العالم والسعي في طلب المسرات، تكاد تضع التضحية لأجل المسيح وإنكار الذات. « إن بعضاً من الرجال والنساء الذين يمارسون نشاطهم في كنائسنا كانوا قد تعلموا في طفولتهم أن يتدربوا على التضحية حتى يستطيعوا أن يعطوا أو يفعلوا شيئاً لأجل المسيح »، ولكن « إذا طُلبت نفقات الآن... ينبغي ألا يطلب من أي واحد أن يعطي. آه كلا! اعملوا سوفاً خيرية واعرضوا لوحات الرسم ومثلوا محاكمة كاذبة أو أقيموا وليمة عشاء تقليدية أو أي شيء يؤكل، أي شيء فيه تسلية ومتعة للناس. »

أعلن الحاكم واشبرن من وسكونسن في خطابه السنوي في يوم ٩ كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٧٣ قائلاً: « يبدو أننا نحتاج إلى سن قانون لإغلاق المدارس التي تخرج المقامرين. وهذه المدارس

توجد في كل مكان. بل حتى الكنيسة (وإن يكن ذلك لعدم تيقظها بالطبع) أحيانا تعمل عمل الشيطان. فالجوائز التي تقدم إلى الجوقات الموسيقية، وجوائز المشاريع، واليانصيب الذي يكون أحيانا لأغراض دينية أو خيرية ولكن غالبا ما يكون لأغراض أقل لياقة، وبيع الأشياء بأوراق اليانصيب، والطرود الخادعة، كل هذه حيل للحصول على المال من دون مقابل. ليس ما يفسد الأخلاق أو يُسكر الناس، وعلى الخصوص الشباب، مثل إحراز المال أو الأملاك من دون كد أو تعب. فإذا كان الناس المحترمون ينشغلون بهذه المشاريع التي هي رهن الصدفة، ويحاولون إسكات ضمائرهم بالتفكير في أن هذا المال ينفق في أبواب خيرية، فلا غرابة إذا كان شباب الوطن يسقطون مرارا في العادات التي غالبا ما يحدثها احتياج الألعاب التي فيها مخاطرات» (٣٣٣).

إن روح مجارة العالم تغزو الكنائس في كل العالم المسيحي. ويقدم روبرت أتكنز، في عظة له ألقاها في لندن، صورة قاتمة للانحطاط الروحي المتفشي في بريطانيا فيقول: «لقد نقص عدد الأبرار الحقيقيين من الأرض، ولا أحد يضع ذلك في قلبه. إن المعترفين بالديانة في أيامنا هذه في كل كنيسة محبوبون للعالم، وهم على شاكلته ومحبون للعزاء والراحة اللذين يأتیانهم من بني الإنسان ويتحرقون شوقا إلى الظفر باحترام الناس. إنهم مدعوون لأن يتألموا مع المسيح ولكنهم ينكمشون حتى أمام التعبير... إن الارتداد، الارتداد، الارتداد كلمة منقوشة في واجهة كل كنيسة. ولو كانت تلك الكنائس تعرف ذلك وتحس به لكان لها رجاء، ولكن وأسفاه! فهم يصيحون قائلين: «إني أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة لي إلى شيء» (٣٣٤).

إن الخطيئة العظيمة التي اتهمت بها بابل هي أنها «سَقَتْ جَمِيعَ الْأُمَمِ مِنْ خَمَرِ غَضَبِ زَنَاهَا!» (رؤيا ١٤: ٨). وكأس الخمر هذه التي تقدمها إلى العالم ترمز إلى التعاليم الكاذبة التي قبلتها كنتيجة لعلاقتها غير المشروعة بعظماء الأرض. فمصادقتها للعالم تفسد إيمانها، وهي بدورها تبذل جهدا مفسدا للعالم بتقديمها تعاليم مضادة لأوضح مبادئ الكلمة المقدسة وأعظمها صراحة.

لقد حجت روما أَلْكِتَابَ الْمُقَدَّسِ عن الناس وطلبت منهم جميعا أن يقبلوا تعاليمها هي بدلا من تعاليم الكتاب. وكان عمل الإصلاح هو إعادة كلمة الله إلى الناس، ولكن أليس أمرا حقيقيا جدا أن الناس في كنائس عصرنا يتعلمون أن يركزوا إيمانهم على عقيدتهم وتعليم كنيستهم لا على الكتاب؟ يقول تشارلس بيتشر في معرض كلامه عن الكنائس البروتستانتية: «إنهم يرتعبون لدى سماع أقل كلمة قاسية تقال ضد العقائد بالحساسية العظيمة نفسها التي كان الآباء القديسون يحسونها ويرتعبون بسببها متى سمعوا كلمة جارحة تقال ضد عقيدة الإكرام الزائد للقديسين والشهداء التي تبنيها.. وإن الطوائف البروتستانتية الإنجيلية وقفت كلها صفا واحدا جنبا إلى جنب ويبدأ بيد بحيث لم يكن إنسان يستطيع أن يصير واعظاً البتة من دون أن يقبل كتابا آخر مع أَلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ... وليس من باب التصور أو الخيال أن نقرر أن قوة العقيدة قد بدأت تحرم أَلْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مثلما عملت روما سواء بسواء، إنما بطريقة أشد مكرًا واحتيالا» (٣٣٥).

عندما يفسر المعلمون الأمانة الكتاب ويشرحونه جيدا ينبري رجال العلم والخدام ويقررون أنهم يفهمون الكتاب. وهؤلاء يشهرون بالعقيدة السليمة قائلين أنها هرطقة، وهكذا يضللون طالبي الحق.

ولولا أن العالم قد سكر بخمر بابل بحيث صارت حاله ميؤوسا منها لتمكن تبكيت جماهير كثيرة وهدايتهم بواسطة حقائق كلمة الله الجارحة. لكن الإيمان أو العقيدة الدينية تبدو مشوشة ومتنافرة بحيث أن الناس لا يعرفون ما الذي يجب أن يؤمنوا به على أنه الحق. فعلى الكنيسة تقع تبعة خطيئة تحجر قلب أهل العالم.

إن رسالة الملاك الثاني المذكورة في رؤيا ١٤ بُشِّر بها أولا في عام ١٨٤٤، وقد طبقت حينئذ تطبيقا مباشرا على كنائس الولايات المتحدة، فأعلن الإنذار بالدينونة على أوسع مدى، لكن الغالبية العظمى رفضوه هناك حيث كان انحطاط الكنائس سريعا جدا. إلا أن رسالة الملاك الثاني لم تتم بالكامل في عام ١٨٤٤. لقد اجتازت الكنائس حينئذ اختبار انهيار أدبي نتيجة لرفضها نور رسالة المجيء، لكن ذلك الانهيار لم يكن كاملاً. فإذ ظلت تلك الكنائس متمادية في رفضها للحقائق الخاصة بهذا الزمن جعلت تنحدر إلى أسفل. ومع هذا فإنها إلى ذلك الحين لم يكن ليصدق عليها القول: « سقطت بابل... لأنها سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها ». فهي لم تحمل جميع الأمم على فعل ذلك بعد. وما تزال روح مشاكلة العالم وعدم الاكتراث للحقائق الفاحصة لأيماننا موجودة وقد رسخت قدمها في الكنائس التي تعتنق العقيدة البروتستانتية في كل بلدان العالم المسيحي، وكل هذه الكنائس يشملها الإنذار الخطير الرهيب المتضمن في رسالة الملاك الثاني. لكن عمل الارتداد لم يصل بعد أقصى غايته.

يعلن الكتاب أنه قبل مجيء الرب سيعمل الشيطان « بَكْلٌ قُوَّة، وَبَايَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ، وَبَكْلٌ خَدِيعَةِ الْإِثْمِ، فِي الْهَالِكِينَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا ». فالذين لم يقبلوا محبة الحق سَيُتْرَكُونَ حَتَّى يَقْبَلُوا « عَمَلُ الضَّلَالِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ » (٢ تسالونيكي ٢: ٩-١١). ولن يكون سقوط بابل كاملاً حتى يتم الوصول إلى هذه الحالة ويتم ويرم الاتحاد بين الكنيسة والعالم في جميع أنحاء العالم المسيحي. إن التطور التدريجي، وإتمام النبوة الواردة في رؤيا ١٤: ٨ على نحو كامل سيكون في المستقبل.

يطلبون نورا أوضح

وعلى رغم الظلمة الروحية والابتعاد عن الله الموجودين في الكنائس التي منها تتكون بابل، فإن هيئة اتباع المسيح الأمعاء يوجدون في شركتهم. وكثيرون من هؤلاء لم يروا قط الحقائق الخاصة بهذا الزمن. وجماعة غير قليلة منهم غير قانعين بحالتهم الراهنة، وهم يتوقون إلى نور أوضح. وعبثاً ينتظرون أن يروا صورة المسيح في الكنائس التي هم مرتبطون بها. فإذ تبتعد هذه الهيئات عن الحق شيئاً فشيئاً وتعتقد مع العالم تحالفاً وثيقاً فسيرى البون شاسعا بين الفريقين، وينتهي الأمر بالانفصال. وسيأتي الوقت الذي فيه لا يستطيع من يحبون الله أعظم الحب أن يظلوا مرتبطين بأولئك الذين هم « مُحِبِّينَ لِلذَّاتِ دُونَ مَحَبَّةٍ لِلَّهِ، لَهُمْ صُورَةُ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُمْ مُنْكَرُونَ قُوَّتِهَا » (٢ تيموثاوس ٣: ٥، ٤).

إن ما ورد في رؤيا ١٨ يشير إلى الوقت الذي فيه ستكون الكنيسة وصلت تماما إلى الحالة التي تنبأ

عنها الملاك الثاني نتيجة لرفضها الإنذار المثلث الوارد في رؤيا ١٤ : ٦-١٢ ، وشعب الله الباقيون في بابل سيدعون لينفصلوا عن شركتها. وهذا هو آخر إنذار يعطى للعالم، وسيتم عمله. وعندما يُترك الذين « لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ، بَلْ سُرُّوا بِالْإِثْمِ » (٢ تسالونيكي ٢ : ١٢) ليقبلوا الخداع القوي ويصدقوا الكذب، حينئذ سيشرق نور الحق على الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مَفْتُوحَةٌ لِقَبُولِهِ، وكل شعب الله الباقيين في بابل سيلتفتون إلى النداء القائل: « اخْرُجُوا مِنْهَا يَا شَعْبِي لِئَلَّا تَشْتَرِكُوا فِي خَطَايَاهَا، وَلِئَلَّا تَأْخُذُوا مِنْ ضَرَبَاتِهَا » (رؤيا ١٨ : ٤).

٢٢ - خيبة أمل، ورسوخ إيمان

عندما مر الوقت الذي كان مجيء الرب منتظرا فيه أولا — أي في ربيع عام ١٨٤٤ — فالذين كانوا ينتظرون ظهوره بإيمان اكتنفتهم موقتا الشكوك وعدم اليقين. وفيما كان العالم يعتبرهم منهزمين هزيمة كاملة ويلومهم على احتضانهم خدعة، فإن كلمة الله كانت لا تزال نبع عزائهم. وظل كثيرون يفتشون الكتب ويمتحنون من جديد براهين إيمانهم، وبكل حرص كانوا يدرسون النبوات ليحصلوا على نور جديد. وقد بدا أن شهادة الكتاب التي تسندهم في موقفهم واضحة وقاطعة. والعلامات التي لا يمكن أن تخطئ أشارت إلى قرب مجيء المسيح. وشهدت بركة الرب الخاصة في هداية الخطاة وفي انتعاش الحياة الروحية بين المسيحيين أن الرسالة كانت من السماء. ومع أن المؤمنين لم يستطيعوا تعليل فشلهم فقد كانوا موقنين بأن الله كان مرشدهم في اختبارهم الماضي.

كان التعليم المنطبق بنوع خاص على حالة عدم اليقين والترقب متداخلا في النبوات التي كانت تعتبر منطبقة على ميعاد المجيء الثاني، وكان مشجعا لهم على الانتظار بصبر وهم مؤمنون أن ما كان غامضا عليهم حينئذ سيتضح لهم في الوقت المناسب.

وكان بين هذه النبوات تلك الواردة في حبقوق ٢: ١-٤ وهي القائلة: « عَلَى مَرْصَدِي أَقِفْ، وَعَلَى الْحَصْنِ أَنْتَصِبْ، وَأَرَاقِبْ لَأَرَى مَاذَا يَقُولُ لِي، وَمَاذَا أُجِيبُ عَنْ شَكْوَايَ. فَأَجَابَنِي الرَّبُّ وَقَالَ: ' اكَتُبِ الرُّؤْيَا وَانْقُشْهَا عَلَى الْأَلْوَحِ لِكَيْ يَرْكُضَ قَارِئُهَا، لِأَنَّ الرُّؤْيَا بَعْدُ إِلَى الْمِيعَادِ، وَفِي النَّهَايَةِ تَتَكَلَّمُ وَلَا تَكْذِبُ. إِنْ تَوَانَتْ فَإِنْتَظِرْهَا لِأَنَّهَا سَتَأْتِي إِيثَانًا وَلَا تَتَأَخَّرُ. هُوَذَا مُنْتَفِخَةٌ غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ نَفْسُهُ فِيهِ. وَالْبَارُّ بِإِيْمَانِهِ يَحْيَا ».

حتى منذ عام ١٨٤٢ كان التوجيه المقدم في هذه النبوة إلى النبي بأن يكتب الرؤيا وينقشها على الألواح لكي يركض قارئها، قد أوحى إلى تشارلس فتش بأن يعد خارطة نبوية لتصوير نبوات دانيال والرؤيا. وقد اعتبر نشر هذه الخارطة إتماما لأمر الله المعطى بواسطة حبقوق. ومع ذلك فلم يلاحظ أحد حينئذ أن تأخيرا ظاهرا في إتمام الرؤيا — وقت تباطؤ — ملحوظ في النبوة نفسها. وبعد الخيبة بدت هذه الآية مهمة جدا وهي تقول: « لِأَنَّ الرُّؤْيَا بَعْدُ إِلَى الْمِيعَادِ، وَفِي النَّهَايَةِ تَتَكَلَّمُ وَلَا تَكْذِبُ. إِنْ تَوَانَتْ فَإِنْتَظِرْهَا لِأَنَّهَا سَتَأْتِي إِيثَانًا وَلَا تَتَأَخَّرُ... الْبَارُّ بِإِيْمَانِهِ يَحْيَا » (حبقوق ٢: ٣، ٤).

وكان جزء من نبوة حزقيال أيضا نبع قوة وعزاء للمؤمنين، وهو يقول: « وَكَانَ إِلَيَّ كَلَامُ الرَّبِّ قَائِلًا: ' يَا ابْنَ آدَمَ، مَا هَذَا الْمَثَلُ الَّذِي لَكُمْ عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، الْقَائِلُ: قَدْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَخَابَتْ ... أَتَكَلَّمُ، وَالْكَلِمَةُ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا تَكُونُ ' » « هُوَذَا بَيْتُ إِسْرَائِيلَ قَائِلُونَ: الرُّؤْيَا الَّتِي هُوَ رَائِيهَا هِيَ إِلَى أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ، وَهُوَ مُتَنَبِّئٌ لِأَزْمَنَةٍ بَعِيدَةٍ. لِذَلِكَ قُلْ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: لَا يَطُولُ بَعْدُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِي. الْكَلِمَةُ الَّتِي تَكَلَّمْتُ بِهَا تَكُونُ » (حزقيال ١٢: ٢١-٢٥، ٢٧، ٢٨).

وقد فرح جماعة المنتظرين وتهللوا إذ آمنوا أن ذاك الذي يعرف النهاية من البداية قد رأى الحقائق

عبر الأجيال، وإذ سبق فرأى خيبتهم منحهم كلام التشجيع والرجاء. فلولا الفصول الكتابية التي تدعوهم إلى الانتظار بصبر وإلى التمسك بثقتهم بكلمة الله لكان إيمانهم قد خذلهم في ساعة التجربة تلك.

العذارى العشر

ثم إن مثل العذارى العشر المذكور في متى ٢٥ يصور اختبار شعب المجيئين. ففي الأصحاح الرابع والعشرين من متى أجاب المسيح تلاميذه على سؤالهم الذي قدموه إليه عن علامة مجيئه وانقضاء الدهر بأن وجه انتباههم إلى بعض الحوادث المهمة جدا في تاريخ العالم والكنيسة منذ مجيئه الأول إلى مجيئه الثاني، أي خراب أورشليم والضيقة العظيمة المحيطة بالكنيسة بسبب اضطهاد الوثنيين والبابويين، وإظلام الشمس والقمر وسقوط النجوم. ثم تكلم بعد هذا عن مجيئه في ملكوته وأورد لهم المثل الذي فيه وصف فريقين من العبيد الذين كانوا ينتظرون مجيئه. والأصحاح الخامس والعشرون من متى يبدأ بالقول: « حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى ». هنا نرى الكنيسة وهي عائشة في الأيام الأخيرة، وهي نفسها التي أشير إليها في نهاية الأصحاح ٢٤. وفي هذا المثل يمثل اختبارهم بما يجري في إحدى حفلات الزواج في بلاد الشرق.

« حينئذ يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى، أخذن مصاييحهن وخرجن للقاء العريس. وكان خمس منهن حكيما، وخمس جاهلات. أما الجاهلات فأخذن مصاييحهن ولم يأخذن معهن زيتا، وأما الحكيما فأخذن زيتا في آنيتهن مع مصاييحهن. وفيما أبطأ العريس نعتسن جميعهن ونمن. ففي نصف الليل صار صراخ: هوذا العريس مقبل، فأخرجن للاقائه! » (متى ٢٥: ١-٦).

تأخير العريس

إن مجيء المسيح كما أعلنت عنه رسالة الملاك الأول فهم على أنه يرمز إليه بمجيء العريس. والإصلاح الواسع النطاق الذي حدث عند إعلان قرب مجيئه كان يمثله خروج العذارى. وإننا نجد في هذا المثل وفي ما ورد في الأصحاح ٢٤ أنه يوجد فريقان ممثلان هنا. جميع العذارى أخذن مصاييحهن، أي الكتاب المقدس، وعلى نوره خرجن لملاقاة العريس. ولكن في حين أن الجاهلات « أخذن مصاييحهن ولم يأخذن معهن زيتا » فإن « الحكيما أخذن زيتا في آنيتهن مع مصاييحهن ». لقد قبلت الحكيما نعمة الله، قوة روح الله المجددة والمنيرة التي تجعل كلامه سراجاً لأرجلهن ونوراً لسبيلهن. وفي خوف الله درسنا الأقوال الإلهية ليتعلمن الحق، وبكل غيرة طلبن طهارة القلب والحياة. هؤلاء كان لهن اختبار شخصي، اختبار الإيمان بالله وبكلامه، الذي لن تهدمه الخيبة والتأخير. أما الباقيات فإنهن « أخذن مصاييحهن ولم يأخذن معهن زيتا ». لقد دفعهن إلى ذلك وازع: ثارت مخاوفهن لدى سماع الرسالة الخطيرة، لكنهن كن قد اتكلن على إيمان أخواتهن قانعات بذلك النور الخامد، نور البواعث الصالحة، من دون أن يكون عندهن إدراك كامل للحق ولا عمل حقيقي للنعمة في قلوبهن. أولئك العذارى خرجن للقاء الرب ولهن ملء الرجاء في انتظار الأجر السريع، لكنهن لم يكن متأهبات لمواجهة التأخير والخيبة. فعندما جاءت التجارب خاب إيمانهم

وكادت مصاييجهن تنطفئ.

« وفيما أبطأ العريس نعسن جميعهن ونمن ». يرمز تباطؤ العريس إلى مرور الزمن الذي كان يُنتظر أن يجيء الرب فيه وإلى الخيبة وما زعموا أنه تأخير. وفي هذا الوقت، وقت الحيرة وعدم اليقين، بدأ اهتمام السطحيين وذوي القلوب المنقسمة يضعف ويترنح، واخذوا يميلون إلى الاسترخاء، أما الذين كان إيمانهم مؤسسا على معرفتهم الشخصية للكتاب فكانت أرجلهم مثبتة على صخرة لم تستطع الخيبة أن ترحزهم عنها. « نعسن جميعهن ونمن »، فريق منهن نمن في عدم اكتراث، تاركات إيمانهن، أما الأخريات فكن ينتظرن بصبر إلى أن يعطى لهن نور أكمل. ومع ذلك ففي ليل التجربة بدا كأن الفريق الثاني قد بدأوا يفقدون غيرتهم وتقواهم إلى حد ما. أما السطحيون والمنقسمو القلوب فلم يعودوا قادرين على الاستناد إلى إيمان إخوتهم. فعلى كل واحد أن يثبت أو يسقط لنفسه.

ظهور التعصب

قراءة هذا الوقت بدأ التعصب في الظهور. فبعض من قد اعترفوا بأنهم مؤمنون بالرسالة وغيورون ومتحمسون لها رفضوا كلمة الله كالدليل المعصوم، وإذ ادعوا أنهم مسترشدون بالروح أسلموا أنفسهم لسلطان مشاعرهم وانفعالاتهم وخيالاتهم. كان يوجد جماعة اظهروا غيرة متعصبة عمياء وشهروا بكل من لم يصادقوا على تصرفهم. إن آراءهم وأعمالهم الممتزجة بالتعصب لم تلاق عطفًا من جانب أكثرية المجيئين، ومع ذلك فقد كان من نتائجها أن ألحق العار بقضية الحق.

لقد كان الشيطان يحاول بهذه الوسيلة أن يقاوم عمل الله ويدمره. اهتاج الناس إذ رأوا حركة المجيء، واهتدى آلاف من الخطاة، وكرس الأمناء أنفسهم لعمل نشر الحق حتى في وقت التأخير. وكان سلطان الشر يخسر رعاياه، فلكي يجلب العار على عمل الله حاول أن يخدع بعض من اعترفوا بالإيمان ليجعلهم يتجاوزون الحدود. حينئذ وقف أعوانه ليغتنموا فرصة مراقبة كل غلطة وكل إخفاق وكل عمل غير لائق فيشهرها به أمام الناس في نور مجسم مبالغ فيه إلى أقصى حد ليجعل المجيئين وعقيدتهم مكروهين وممقوتين. وهكذا بقدر وفرة من استطاع أن يحشدهم ليعترفوا بإيمانهم بالمجيء الثاني فيما سلطانه مسيطر على قلوبهم، بقدر ذلك ينال ميزة عظيمة من توجيه الالتفات إليهم على أنهم ممثلو هيئة المؤمنين جميعا.

إن الشيطان هو « المشتكي على الإخوة » وروحه هي التي توغز إلى الناس بمراقبة أخطاء شعب الرب ونقائصهم ورفعها عالية لكي يراها الجميع، بينما أعمالهم الصالحة وحسناتهم تُغفل ولا يذكرها أحد. وعندما يعمل الله على خلاص النفوس يكون هو دائما نشيطا ودائبا في العمل. فعندما يأتي بنو الله ليمثلوا أمام الرب يأتي الشيطان أيضاً ليمثل في وسطهم. وفي كل انتعاش هو مستعد أن يدخل أولئك الناس غير المقدسين بقلوبهم وغير المتزين بعقولهم. وعندما يقبل هؤلاء بعض أجزاء الحق ومتى افسح لهم المجال بين المؤمنين فهو يعمل عن طريقهم بدس بعض النظريات التي تخدع غير اليقظين. وليس في المستطاع أن تبرهن على أن إنسانا هو حقا مسيحي لمجرد وجوده بين جماعة من أولاد الله حتى ولو كان في بيت العبادة وأمام مائدة الرب المقدسة. والشيطان غالبا ما يكون هناك

في أقدس المناسبات في أشخاص الذين يستخدمهم كأعوان له.

أرض متنازع عليها

إن سلطان الشر يتنازع على كل شبر من الأرض التي يسير عليها شعب الله في طريق سياحتهم إلى المدينة السماوية. ففي كل تاريخ الكنيسة لم ينجح أي إصلاح من دون أن يواجه عقبات جسيمة. كذلك كانت الحال في أيام بولس. فأينما أقام ذلك الرسول كنيسة وُجد جماعة اعترفوا بقبولهم للإيمان ولكنهم أدخلوا معهم الهرطقات التي لو قبلها المسيحيون لكانت أخيراً تطرد محبة الحق بعيداً. كما أن لوثر أيضاً قاسى الشيء الكثير من الارتباك والضيق من جراء تصرفات الناس المتعصبين الذين ادعوا أن الله قد تكلم عن طريقهم مباشرة، والذين لأجل ذلك رفعوا أفكارهم وآراءهم الخاصة فوق شهادة الكتب المقدسة. وكثيرون ممن كان ينقصهم الإيمان ومع ذلك كان عندهم قدر كبير من الاتكال على الذات، والذين كانوا يحبون أن يسمعوا أو يقولوا شيئاً جديداً، أغوتهم ادعاءات المعلمين الحديثين فانضموا إلى أعوان الشيطان في هدم ما قد حرك الله لوثر ليبنيه. وكذلك ابنا وسلي وغيرهما ممن قد باركوا العالم بقدوتهم وإيمانهم. ففي كل خطوة واجهوا مكاييد الشيطان الذي كان يأتي بأناس شديدي التحمس ويعوزهم الاتزان والتقوى فيزجهم في التعصب في كل طور من أطواره.

ولم يكن وليم ميلر يميل إلى تلك المؤثرات التي تسوق إلى التعصب. لقد أعلن على غرار لوثر أن كل روح ينبغي أن يمتحن بكلمة الله. ولقد قال ميلر: « إن للشيطان سلطاناً عظيماً على عقول بعض الناس في هذه الأيام. وكيف يمكننا أن نعرف من أي روح هم؟ إن الكتاب المقدس يجيبنا قائلاً: « من ثمارهم تعرفونهم... » توجد أرواح كثيرة خرجت إلى العالم ونحن قد أمرنا بأن نمتحن الأرواح. فالروح الذي لا يجعلنا نعيش صالحين وأبراراً وأتقياء في هذا العالم الحاضر ليس هو روح المسيح. إني مقتنع اقتناعاً كاملاً بأن للشيطان دخلاً كبيراً في هذه الحركات الطائشة... كثيرون بيننا ممن يدعون أنهم مقدسون بالتمام إنما يتبعون تقاليد الناس، ويبدو أنهم يجهلون الحق كغيرهم ممن لا يتشدقون بمثل هذه الادعاءات (٣٣٦)، « إن روح الضلال يبعدنا عن الحق، أما روح الله فيقودنا إلى الحق. ولكن، قد يقول أحدكم، يستطيع إنسان أن يكون على ضلال ويقول إنه يملك الحق، ماذا إذا؟ فعلى هذا السؤال نجيب قائلين أن الروح والكلمة متفقان. فإذا كان أحد يحكم على نفسه بموجب كلمة الله ويجد توافقاً وانسجاماً كاملاً في الكتاب فعليه أن يؤمن بأن عنده الحق. أما إذا وجد أن الروح الذي يقوده غير منسجم ولا متوافق مع كل طبيعة شريعة الله أو كتابه فليسر بحذر لئلا تؤخذ رجلاه في أشراك الشيطان » (٣٣٧). « كثيراً ما وجد في بعض الأشخاص الدليل على وجود التقوى في قلوبهم من نظرات عيونهم المتوهجة الملهبة أو وجوههم المبللة بالدموع أو أحاديثهم المختنقة، بأكثر جلاء ووضوح من كل الضجة التي تُسمع في العالم المسيحي » (٣٣٨).

وفي أيام الإصلاح اتهم أعداؤه أولئك الذين كانوا جادين بكل غير في محاربة التعصب، بكل شروره ومساوئه. وقد عامل محاربو حركة المجيء دعائها بمثل تلك المعاملة. وإذا لم يقنعوا بتشويه أخطاء

المتطرفين والمبالغة فيها نشروا أخبارا معاكسة لا أثر للصدق فيها. هؤلاء الناس كانوا مدفوعين بدافع التعصب والكراهية. ذلك أن سلامهم قد عكره إعلان قرب مجيء المسيح. لقد باتوا يخشون أن يكون ذلك الكلام صحيحا، وكانوا يرجون إلا يكون كذلك، وهذا كان السر في الحرب التي أثاروها ضد المجيئين وعقيدتهم.

محبة ووئام

إن حقيقة كون جماعة قليلة من المتعصبين اندسوا بين صفوف المجيئين ليست سببا يجعل الناس يقررون أن الحركة لم تكن من الله، تماما مثلما أن وجود المتعصبين والمخادعين في عهد بولس أو لوثر لم يكن عذرا كافيا لإدانة عملهما. ليستيقظ شعب الله من نومهم ويبدأوا جادين في عمل التوبة والإصلاح. ليفتشوا الكتب، ليتعلموا الحق كما هو في يسوع، وليكرسوا أنفسهم بالتمام لله، وحينئذ لن يعوزنا البرهان على أن الشيطان لا يزال نشيطا وساهرا. أنه بكل خديعة ممكنة سيظهر قوته داعيا لمعاونته كل الملائكة الساقطين في مملكته.

لم يكن إعلان خبر المجيء الثاني هو الذي خلق التعصب والانقسام. لقد ظهرت هذه الأشياء في صيف عام ١٨٤٤ عندما كان جماعة المجيئين في حالة الشك والارتباك بالنسبة إلى موقفهم الحقيقي. إن الكرازة برسالة الملاك الأول « وصراخ نصف الليل » أديا على نحو مباشر إلى إخماد التعصب والقضاء على الانقسام. وأولئك الذين اشتركوا في هذه الحركات المقدسة كانوا في حالة توافق، وقد امتلأت قلوبهم حبا بعضهم لبعض وليسوع الذي كانوا ينتظرون أن يروه سريعا. فالإيمان الواحد والرجاء المبارك الواحد رفعاهم فوق تسلط أي تأثير بشري أو سيادته، وبرهنا أنهما ترس يقيهم هجمات الشيطان.

« وفيما أبطأ العريس نعسن جميعهن ونمن. ففي نصف الليل صار صراخ هوذا العريس مقبل فاخرجن للقائه. فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن » (متى ٢٥: ٥-٧). في صيف ١٨٤٤، في منتصف المدة التي ظن أولا أن الـ ٢٣٠٠ يوما ستنتهي عندها، وفي خريف تلك السنة عينها الذي وجد بعد ذلك أن المدة ستمتد إليه، أعلنت الرسالة بكلماتها كما هي واردة في الكتاب: « هوذا العريس مقبل »!

والذي أدى إلى هذه الحركة كان الاكتشاف بأن منشور أرْتَحَشَسْتَا لتجديد أورشليم الذي كان هو نقطة بدء مدة الـ ٢٣٠٠ يوما بُدئ في تنفيذه في خريف عام ٤٥٧ ق.م.، وليس في بدء ذلك العام كما اعتُقد قبلا. فبإحصاء الأيام من خريف عام ٤٥٧ تنتهي الـ ٢٣٠٠ سنة في خريف عام ١٨٤٤ (انظر التذييل).

ثم إن الحجج المقتبسة من رموز العهد القديم تشير أيضاً إلى الخريف على أنه الوقت الذي فيه تتم الحادثة التي يرمز إليها « تطهير القدس » (تبرئته). وقد وضح هذا إذ اجتذب انتباه الناس إلى الطريقة التي بها تمت الرموز المشيرة إلى المجيء الأول للمسيح.

إتمام الرموز

كان ذبح خروف الفصح رمزا لموت المسيح. فبولس يقول: « لَأَنَّ فَصْحَنَا أَيْضاً الْمَسِيحُ قَدْ ذُبِحَ لِأَجْلَانَا ». (١ كورنثوس ٥: ٧). ثم إن حزمة الباكورة التي كانوا يرددونها أمام الرب عند وقت الفصح كانت ترمز إلى قيامة المسيح. وبولس إذ يتكلم عن قيامة الرب وكل شعبه يقول: « الْمَسِيحُ بِأَكُورَةٍ، ثُمَّ الَّذِينَ لِلْمَسِيحِ فِي مَجِيئِهِ » (١ كورنثوس ١٥: ٢٣). فالمسيح هو باكورة ذلك الحصاد الخالد، حصاد المفدين الذين سيجمعون إلى مخزن الله في القيامة العتيدة، كما كانت حزمة التريد.

وقد تمت هذه الرموز ليس فقط بالنسبة إلى الحوادث بل أيضاً بالنسبة إلى وقت حدوثها. ففي اليوم الرابع عشر من أول أشهر السنة اليهودية، الذي لمدة خمسة عشر قرناً طويلة كان يذبح فيه خروف الفصح، وبعدها أكل المسيح الفصح مع تلاميذه سن ذلك العشاء الذي كان لإحياء ذكرى موته على أنه « حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم ». وفي تلك الليلة نفسها قبضت عليه أيدي الآثمة ليُصلب ويُقتل. وإذ كان سيدنا هو المرموز إليه بحزمة التريد فقد أقيم من بين الأموات في اليوم الثالث « بِأَكُورَةِ الرَّاقِدِينَ » (١ كورنثوس ١٥: ٢٠) وهو نموذج لكل الراقدين الأبرار الذين سيتغير « جَسَدُ تَوَاضَعْنَا » لِيَكُونَ « عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ » (فيلبي ٣: ٢١).

وعلى هذه الصورة ينبغي أن تتم كل الرموز التي تشير إلى المجيء الثاني في الوقت المشار إليه في الخدمة الرمزية. وفي النظام الموسوي كان تطهير القدس أو يوم الكفارة العظيم يقع في اليوم العاشر من الشهر اليهودي السابع (لاويين ١٦: ٢٩-٣٤)، فبعدها يقدم رئيس الكهنة كفارة عن كل إسرائيل فترفع خطاياهم من القدس، كان يخرج ويبارك الشعب. وهكذا اعتقد أن المسيح رئيس كهنتنا الأعظم سيظهر ليظهر الأرض بملاشاة الخطيئة والخطاة ويبارك بالخلود شعبه الذي ينتظره. إن اليوم العاشر من الشهر السابع، يوم الكفارة العظيم الذي تم فيه تطهير القدس والذي وقع في الثاني والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٤٤، اعتبر وقت مجيء الرب. وقد كان هذا متفقاً مع البراهين التي سبق أن أوردناها على أن الـ ٢٣٠٠ يوم تنتهي في الخريف، وقد بدا أن هذا الاستنتاج تستحيل مقاومته.

وفي المثل الوارد في متى ٢٥ نفهم أن فرصة الانتظار والنوم تبعها قدوم العريس. وكان هذا مطابقاً للبراهين التي قدمناها الآن من النبوات والرموز. وهي تحمل بين طياتها الاقتناع بصدقها. وقد أعلن آلاف المؤمنين « صراخ نصف الليل ».

وكموجة المد العاتية اكتسحت الحركة كل البلاد. لقد انتقلت من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى أخرى إلى أقصى ربوع البلاد إلى أن أوقف شعبُ الله المنتظرون. وقد اختفى التعصب أمام هذا الإعلان كما يختفي صقيع الصباح أمام الشمس المشرقة. ورأى المؤمنون أن شكوكهم وارتباكهم تلاشت، وأحيت الشجاعة والرجاء قلوبهم، وكان العمل خالياً من كل تطرف يظهر غالباً عندما يكون هنالك احتياج بشري لا يضبطه تأثير كلمة الله وروحه. وقد كان شبيهاً بأوقات التذلل والرجوع إلى الرب التي كانت تحدث لشعب إسرائيل عقب سماع رسائل التوبيخ من خدام الله، كما كان له ذلك الطابع الذي به امتاز عمل الله في كل عصر. كان يوجد قليل من الفرح المذهل إنما الصفة الغالبة كانت فحص القلب بكل دقة والاعتراف بالخطيئة وترك العالم. وكان التاهب لملاقاة الرب هو الحمل

الذي أثقل النفوس المعذبة. وكان هنالك مواظبة على الصلاة وتكريس لله في غير تحفظ. قال ميلر في وصف ذلك العمل: « لا يوجد تعبير عن الفرح، أي أنه كان مكبوتا لوقت مستقبل عندما تفرح السماء والأرض معا بفرح مجيد لا يوصف. ولا يوجد هتاف، فهذا أيضاً محفوظ للهتاف من السماء. والمغنون صامتون، فهم منتظرون حتى يشتركوا مع أجناد الملائكة وجوقة السماويين... ولا يوجد تصادم في الميول أو العواطف، فالجميع لهم قلب واحد وفكر واحد » (٣٣٩). وشهد شخص آخر ممن اشتركوا في الحركة فقال: « لقد أحدثت هذه الحركة أعظم فحص للقلوب وتذلل للنفوس أمام الله ساكن السماء العليا، وأحدثت أيضاً انعطافاً للعواطف عن أمور هذا العالم، وفض المنازعات والقضاء على العداوة والاعتراف بالأخطاء والمظالم والانسحاق أمام الله، والابتهاالات التائب المنسحقة أمام الله في طلب الغفران والقبول. وقد كانت سببا في إذلال النفوس وانبطاحها، الأمر الذي لم نشهد مثيلا له من قبل. وكما أمر الله على لسان يوثيل النبي عندما يقترب يوم الرب العظيم، كذلك حدث في هذه الحركة أن الناس مزقوا قلوبهم لا ثيابهم ورجعوا إلى الرب بالصوم والبكاء والنوح. وكما قال الله على لسان زكريا كذلك حدث الآن، فقد فاض روح النعمة والتضرعات على أولاده، ونظروا إلى ذاك الذي قد طعنوه، وكان نوح عظيم في الأرض... والذين كانوا ينتظرون الرب تذللوا أمامه » (٣٤٠).

ومن بين كل الحركات الدينية العظيمة التي حدثت منذ أيام الرسل لم توجد حركة خالية من شوائب النقص البشري ومكايد الشيطان أكثر من تلك التي حدثت في خريف عام ١٨٤٤. وحتى الآن بعد مرور سنين عديدة فإن كل من اشتركوا في تلك الحركة وكل من وقفوا ثابتين على منصة الحق ما زالوا يحسون بالتأثير المقدس لذلك العمل المبارك ويشهدون بأنه كان من الله.

اهتمام عظيم

وإذ سمع جماعة المنتظرين النداء القائل « هوذا العريس مقبل فاخرجن للقاءه » قامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن «؛ لقد درسوا كلمة الله غير المعروفة لديهم من قبل بأعظم اهتمام. وأرسل من السماء ملائكة لإيقاظ الذين خارت عزائمهم وإعدادهم لقبول الرسالة. فالعمل لم يثبت بحكمة الناس وعلومهم بل بقدرة الله. والذين كانوا أول من سمعوا النداء وأطاعوه لم يكونوا أعظم الناس الموهوبين بل أعظمهم تواضعا وتكريسا. لقد ترك الفلاحون محاصيلهم في الحقول والميكانيكيون القوا آلاتهم جانبا، وبدموع الفرح خرجوا ليقدموا الإنذار. والذين كانوا قبلا قادة في هذا العمل صاروا آخر من انضموا إلى هذه الحركة. فقد أغلقت الكنائس أبوابها بوجه عام ضد هذه الرسالة وانسحب من الارتباط بها جمع كبير ممن قبلوها. ورتبت عناية الله أن يتحد هذا الإعلان برسالة الملاك الثاني، وهذا أضفى قوة على ذلك العمل.

إن الرسالة القائلة « هوذا العريس مقبل! » لم تكن مسألة حجة، مع أن البرهان الكتابي كان واضحا وقاطعا. فقد كان يصحب الرسالة قوة دافعة تحرك النفس. لم يكن هنالك شك أو تساؤل. فعند دخول المسيح الانتصاري إلى أورشليم تقاطر إلى جبل الزيتون جموع الناس الذين اجتمعوا من كل

أنحاء البلاد لإحياء العيد، وإذ انضموا إلى الجمع الذي كان يرافق يسوع واشتركوا في الهتاف قائلين: «مُبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ» (متى ٢١: ٩). هكذا فعل غير المؤمنين الذين تقاطروا على اجتماعات المجيئين، بعضهم مدفوعين بحب الاستطلاع وآخرون بقصد السخرية، والجميع أحسوا بالقوة المقنعة المرافقة لهذه الرسالة: «هوذا العريس مُقبل!»

في ذلك الوقت كان يوجد إيمان جعل الصلاة تُستجاب، وهو إيمان كان ينظر إلى المجازاة. فكالسيول النازلة على الأرض العطشى نزل روح النعمة على أولئك الطالبين الغيورين. وأولئك الذين كانوا ينتظرون الوقوف سريعا أمام فاديهم وجها لوجه شعروا بفرح مقدس لا يوصف. ففوة الروح القدس اللطيفة المؤثرة أذابت القلب إذ مُنحت بركته الوفيرة لجماعة المؤمنين الواثقين. وصل الذين قبلوا الرسالة، بكل حذر ووقار، إلى الوقت الذي كانوا يرجون فيه أن يلاقوا سيدهم، وفي كل صباح أحسوا أن واجبههم الأول يقتضيهم أن يحصلوا على برهان قبولهم لدى الله. كانوا متحدي القلوب ويصلون كثيرا معا بعضهم لأجل بعض. وكثيرا ما كانوا يلتقون معا في أماكن منعزلة لكي تكون لهم شركة مع الله، وكانت الصلوات تسمع صاعدة من الحقول والبساتين. إن يقين رضى المخلص عنهم كان اهم في نظرهم من الطعام، وإذا غشت سحابة عقولهم لم يكونوا يستريحون حتى تنقشع. وإذ كانوا يشعرون بشهادة النعمة الغافرة كانوا يتوقون إلى مشاهدة ذاك الذي كانت تحبه نفوسهم.

خيبة أمل ثانية

ولكن كان لا بد أن يصابوا بالخيبة مرة أخرى. لقد مر وقت الانتظار ولم يظهر مخلصهم. لقد نظروا إلى الأمام في انتظار مجيئه بثقة ثابتة، والآن ها هم يشعرون بما شعرت به مريم التي عندما جاءت إلى قبر المخلص ووجدته فارغا صرخت باكية تقول: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!» (يوحنا ٢٠: ١٣).

إن شعورهم بالرهبة والخوف من أن تكون الرسالة صادقة كان رادعا للعالم غير المؤمن بعض الوقت. وهذا الشعور لم يختف حالا بعد انقضاء المهلة، ففي بادئ الأمر لم يتجرأوا على الشماتة بأولئك الذين خابت آمالهم، ولكن عندما لم تُر علامة من علامات غضب الله، أفاقوا من خوفهم وعادوا إلى استئناف تعبيرهم وسخريتهم. وإن كثيرين ممن كانوا قد اعترفوا بإيمانهم بقرب مجيء الرب قد هجروا إيمانهم. وبعض الذين كانت لهم ثقة شديدة طعنوا في كبريائهم بحيث أحسوا وكأنهم يريدون الهروب من العالم، فتذمروا على الله وطلبوا الموت لأنفسهم بدلاً من الحياة، كما فعل يونان. والذين بنو إيمانهم على آراء الآخرين لا على كلمة الله صاروا الآن مستعدين لتغيير آرائهم مرة أخرى. وقد كسب الساخرون، المستضعفين الجبناء إلى جانبهم، واتحدوا جميعا في الإعلان بأنه لم تعد توجد مخاوف أو انتظارات. لقد مر الوقت والرب لم يأت، وقد يظل العالم على حاله آلاف السنين.

ترك المؤمنون الغيورون المخلصون كل شيء لأجل المسيح وتمتعوا بحضوره كما لم يتمتعوا من

قبل. لقد قدموا آخر إنذار للعالم كما اعتقدوا، وإذ كانوا ينتظرون أن يُقبلوا في عشرة سيدهم الإلهي وملائكة السماء انسحبوا إلى حد كبير من صحة الذين لم يقبلوا الرسالة. لقد صلو بشوق حار قائلين: « تعال أيها الرب يسوع، تعال سريعاً ». ولكنه لم يأت. فكونهم يعودون الآن ليحملوا عبء اهتمامات الحياة وارتباكاتها الثقيلة من جديد ويتحملون تغيير العالم الساخر وهزئه كان ذلك تجربة قاسية مرعبة لإيمانهم وصبرهم.

خيبة أمل أعنف

ومع ذلك فإن هذه الخيبة لم تكن في مثل جسامه خيبة التلاميذ التي جازوا فيها في المجيء الأول للمسيح. فعندما دخل يسوع أورشليم منتصراً اعتقد تابعوه أنه موشك أن يعتلي عرش داود ويخلص إسرائيل من ظالمهم. فبآمال عالية وانتظارات مفرحة جعلوا يتسابقون في إكرام مليكهم. وكثيرون منهم فرشوا ثيابهم في الطريق كبساط يمر عليه، أو كانوا ينثرون أغصان الأشجار وسعوف النخل في طريقه. وفي فرحهم الحماسي هتفوا معاً قائلين: « أوصناً لابن داود! » وعندما طلب الفريسيون منه أن ينتهر تلاميذه إذ أزعجتهم وأغضبتهم هزة الفرحة تلك، أجابهم يسوع بقوله: « إن سكّ هؤلاء فالحجارة تصرخ! » (لوقا ١٩: ٤٠). ينبغي أن تتم النبوة. فلقد كان التلاميذ يتمنون قصد الله، ولكن ما أن مرّت أيام قليلة حتى شاهدوا مخلصهم يعاني آلام الموت ويضعونه في القبر. لقد أصابتهم خيبة مرة. ذلك أن توقعاتهم لم يتحقق منها شيء، فماتت آمالهم مع يسوع، ولم يدركوا أن كل تلك الأحداث كان الأنبياء قد سبقوا وأنبأوا بها، وأنه « كَانَ يَنْبَغِي أَنْ الْمَسِيحَ يَتَأَلَّمَ وَيَقُومَ مِنَ الْأَمْوَاتِ » (أعمال ١٧: ٣)، إلا بعدما خرج سيدهم من القبر منتصراً.

بعض من ثبتوا

قبل ذلك بخمس مئة سنة كان الرب قد أعلن على لسان زكريا النبي قائلاً: « ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم. هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادلٌ ومنصورٌ وديعٌ، وراكبٌ على حمارٍ وعلى جحش ابن أتان » (زكريا ٩: ٩). فلو تحقق التلاميذ أن المسيح على أهبة أن يحاكم ويموت لمأمكنهم أن يتمموا هذه النبوة.

وكذلك تم ميلر وجماعته النبوة وقدموا الرسالة التي أنبأ الوحي بأنها ينبغي أن تقدم إلى العالم، ولكنهم ما كانوا ليقدموها لو أدركوا تماماً النبوات المشيرة إلى خيبتهم والتي تقدم رسالة أخرى ليُبشّر بها كل الأمم قبل مجيء الرب. إن رسالة كل من الملاكين الأول والثاني قدّمتا في الوقت المحدد وتممتا العمل الذي قصد الله أن يتممه بواسطتهما.

لقد كان العالم يتربص منتظراً أنه إذا مر الوقت ولم يظهر المسيح فكل نظام المجيء الثاني سيُهجر ويتخلّى الناس عنه. ولكن في حين أن كثيرين تحت ضغط التجارب الشديدة هجروا إيمانهم، بقي آخرون ثابتين. غير أن ثمار حركة المجيء، وروح الوداعة وفحص القلب، وهجر العالم، وإصلاح الحياة، وهي أمور تبعت ذلك العمل، شهدت بأنه من الله. فلم يتجرأوا على إنكار حقيقة كون قوة الروح القدس شهدت لكراسة المجيء الثاني، ولم يستطيعوا اكتشاف غلطة واحدة في حسابهم

للفترة النبوية. ولم ينجح أقوى خصومهم في هدم نظام التفسير النبوي الذي ساروا عليه. وهم لم يرضوا بالتخلي عن المواقف التي وصلوا إليها عن طريق دراسة كلمة الله بروح الغيرة والصلاة بعقولهم المستنيرة بروح الله وقلوبهم الملهبة بقوة الحياة، إلا بعد إقناعهم ببراهين من الكتاب، تلك المواقف التي صمدت أمام أعظم الانتقادات الفاحصة والمقاومة المرة جدا من معلمي الدين المشهورين وحكماء هذا العالم، والتي ظلت ثابتة أمام قوات العلم والفصاحة متحدة معا، والتعابير والشتائم من الشرفاء والأدنياء على السواء.

نحن لا ننكر أنه كانت هنالك خيبة بالنسبة إلى تلك الحادثة المنتظرة، ولكن حتى هذا لم يكن ليزعزع إيمانهم بكلمة الله. عندما نادي يونان في شوارع نينوى قائلاً أنه بعد أربعين يوماً تنقلب المدينة، قبل الرب تذلل أهل نينوى ومدد فرصة إمهالهم. ومع ذلك فقد كانت رسالة يونان من قبل الله، وقد امتحنت نينوى حسب إرادته. واعتقد المجيئون أن الله قد أرشدهم إلى تقديم الإنذار بالدينونة بمثل تلك الوسيلة، فأعلنوا قائلين: «لقد كانت فاحصة لقلوب كل من سمعوها وأيقظت في القلوب محبة لظهور الرب، أو تسببت عنها عداوة ظاهرة أو مستترة لمجيئه، ولكن الرب عرف ذلك كله. لقد رسمت خطأ... حتى إن الذين سيمتحنون قلوبهم يعرفون إلى أي جانب سيقفون لو جاء الرب حينئذ، سواء كانوا سيهتفون قائلين: هوذا هذا إلها. انتظرناه فخلصنا، أو سيصرخون إلى الصخور والجبال لتسقط عليهم وتخفيهم عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف. وقد اختبر الله شعبه بهذه الطريقة على ما نعتقد، امتحن إيمانهم ورأى ما إذا كانوا سيتراجعون في ساعة التجربة عن الموقف الذي قد يرى هو أنه يناسبهم، وما إذا كانوا سيهجرون هذا العالم ويعتمدون على كلمة الله بثقة كاملة» (٣٤١).

وقد عبر وليم ميلر عن مشاعر الذين ظلوا على إيمانهم بأن الله كان مرشدا لهم في اختبارهم الماضي إذ قال: «لو أنني عشت حياتي مرة أخرى بالبرهان نفسه الذي كان لي في الماضي، فلكي أكون أميناً مع الله والناس لما كان لي أن أعمل غير ما عملت». «أرجو أن أكون قد طهرت ثيابي من دماء الناس. إنني أحس أنني على قدر استطاعتي قد خلصت نفسي من جريمة جلب الدينونة والهلاك عليهم». وكتب رجل الله، هذا القول: «مع أنني قد خذلت مرتين فلست بعد منكسر الخاطر ولا يائساً... إن رجائي في مجيء المسيح قوي الآن كما كان في أي وقت مضى. لقد فعلت فقط ما شعرت بأنه واجبي المقدس الذي ينبغي لي أن أفعله، بعد سنين قضيتها في التأملات المقدسة. فإن كنت قد أخطأت فمن ناحية إحساني ومحبتني لبني جنشي واقتناعي بواجبي نحو الله». «إنني أعلم شيئاً واحداً، وهو أنني لم أكرز إلا بما آمنت به، وقد كان الله معي، وتجلت قوته في العمل، فنتج عن ذلك خير كثير». «وقد أخذ آلاف من الشعب يدرسون كلمة الله مدفوعين بالكراسة في هذا العصر. وبتلك الوسيلة وبواسطة الإيمان ورش دم المسيح تصالحوا مع الله» (٣٤٢). «لم أوسع أبداً وراء مديح الناس أو استحسانهم ولا جنبنت عندما تجهم لي العالم. ولن أشتري رضى الناس الآن، ولن أتجاوز حدود واجبي لأثير عداؤهم. ولن أطلب الإبقاء على حياتي عن طريقهم، ولن أراجع، كما أرجو، عن فقد حياتي إذا أرادت عناية الله الصالحة ذلك» (٣٤٣).

ولم يترك الله شعبه، فلقد مكث روحه مع أولئك الذين لم ينكروا بطيش النور الذي حصلوا عليه ولا شهروا بحركة المجيء. إن في الرسالة إلى العبرانيين أقوالاً لتشجيع المجربين والمنتظرين في هذه الأزمة ولإنذارهم، إذ يقول الرسول: « فَلَا تَطْرَحُوا ثِقَتَكُمْ الَّتِي لَهَا مُجَازَاةٌ عَظِيمَةٌ. لَأَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الصَّبْرِ، حَتَّى إِذَا صَنَعْتُمْ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَنَالُونَ الْمَوْعِدَ. لَأَنَّهُ بَعْدَ قَلِيلٍ جَدًّا « سَيَأْتِي الْآتِي وَلَا يُبْطِئُ. أَمَّا الْبَارُّ فَبِالْإِيمَانِ يَحْيَا، وَإِنْ ارْتَدَّ لَا تُسَرُّ بِهِ نَفْسِي ». وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا مِنَ الْارْتِدَادِ لِلْهَلَاكِ، بَلْ مِنَ الْإِيمَانِ لاقْتِنَاءِ النَّفْسِ » (عبرانيين ١٠: ٣٥-٣٩).

ويتبرهن لنا من الكلام المشير إلى قرب مجيء الرب أن هذا الإنذار موجه إلى الكنيسة في الأيام الأخيرة: « لأنه بعد قليل جدا سيأتي الآتي ولا يبطئ ». وهذا الكلام يدل بكل وضوح أنه سيكون هنالك تباطؤ ظاهر، وأنه يبدو أن الرب قد تباطأ. وهذا التعليم المقدم هنا ينطبق انطباقا خاصا على اختبار المجيئين في هذا الوقت. فالناس الموجه إليهم هذا الكلام كانوا في خطر أن يتحطم إيمانهم. لقد عملوا إرادة الله في اتباع إرشاد روحه وكلمته، ومع ذلك فلم يستطيعوا إدراك قصده في اختبارهم الأول، ولا عرفوا الطريق الذي كان عليهم أن يسيروا فيه، وكانوا في خطر الشك في ما إذا كان الله هو مرشدهم أو لا. وفي هذه الحالة كان ينطبق عليهم القول: « أما البار فبالإيمان يحيا ». فإذ أشرق على طريقهم نور « صراخ نصف الليل »، وإذ رأوا النبوات وقد فكت ختومها، والعلامات التي كانت تتم بسرعة تنبئ بقرب مجيء المسيح، كانوا يسلكون بالعيان كما يبدو. أما الآن وقد انحنت نفوسهم بسبب آمالهم التي خابت فقد أمكنهم الثبات فقط بواسطة الإيمان بالله وبكلمته. كان العالم الهازئ الساخر يقول: « لقد انخدعتم، فاهجروا إيمانكم وقولوا أن حركة المجيء إنما هي من الشيطان ». لكن كلمة الله تعلن قائلة: « إن ارتد لا تسر به نفسي »، فكونهم يهجرون إيمانهم الآن وينكرون قوة الروح القدس التي كانت تصحب الرسالة فمعنى ذلك أنهم يرتدون إلى الهلاك. ولقد شجعتهم أقوال بولس على الثبات إذ قال: « فلا تطرحوا ثقتكم ». « إنكم تحتاجون إلى الصبر. لأنه بعد قليل جدا سيأتي الآتي ولا يبطئ ». وقد كان أسلم طريق يسيرون فيه هو أن يحتفظوا بالنور الذي قد حصلوا عليه من الله ويتمسكوا بوعدده ويداوموا على تفتيش الكتب، وبكل صبر، ينتظروا ويسهروا للحصول على نور أعظم.

٢٣ - ما هو المقدس؟

إن الآية الكتابية التي كانت من دون كل الآيات الأخرى، أساس تعليم المجيء والعمود المركزي فيها، هي الإعلان القائل: « إلى ألفين وثلاث مئة صباح ومساءً فيتبرأ (يتطهر) القدس » (دانيال ٨: ١٤). كانت هذه الكلمات مألوفة لدى كل المؤمنين بقرب مجيء الرب. وكانت آلاف الأفواه تنطق بهذه النبوة وتردها على أنها كلمة سر إيمانهم. وقد أحس الجميع أن على الحوادث المنبأ بها في تلك النبوة تتوقف أبهج انتظاراتهم إشراقاً وأعظم الآمال التي يحتضنونها. وقد بينوا أن هذه الأيام النبوية تنتهي في خريف عام ١٨٤٤. فبالاشتراك مع باقي العالم المسيحي كان المجيئون يعتقدون أن العالم أو جزء منه هو القدس. وفهموا أن تبرة القدس أو تطهيره كان هو تطهير الأرض بالنار في اليوم الأخير العظيم، وإن هذا سيحدث في المجيء الثاني. ولهذا استنتجوا أن المسيح سيعود إلى الأرض في عام ١٨٤٤.

ولكن الوقت المحدد لم يظهر الرب. وكان المؤمنون يعلمون أن كلمة الله لا تخيب أبداً، إذاً فلا بد أن يكون هنالك خطأ في تفسير النبوة، ولكن أين كان ذلك الخطأ؟ وكثيرون اندفعوا في طياشة لقطع عقدة المعضلة بإنكار كون الـ ٢٣٠٠ يوم تنتهي في عام ١٨٤٤. ولم يستطيعوا تبرير ذلك إلا بالقول أن المسيح لم يأت في الوقت الذي انتظروه فيه. وقد تحاجوا قائلين أنه لو كانت الأيام النبوية تنتهي في عام ١٨٤٤ لكان المسيح قد جاء ليظهر القدس بكونه يطهر الأرض بالنار، وما دام لم يأت فلا يمكن أن تكون الأيام قد انقضت.

فلو قبل هذا الاستنتاج لكان معناه نبذ حساب الفترات النبوية. لقد وُجد أن الـ ٢٣٠٠ يوم بدأت عند تنفيذ الأمر الذي أصدره أرثوذكسنا بتجديد أورشليم وبنائها في خريف عام ٤٥٧ ق.م. فإذا نجعل هذا التاريخ نقطة البدء يكون هنالك توافق تام في تطبيق كل الحوادث المنبأ بها في إيضاح تلك المدة المذكورة في (دانيال ٩: ٢٥-٢٧). فالتسعة والستون أسبوعاً أي الـ ٤٨٣ سنة، وهي الحقبة الأولى من الـ ٢٣٠٠ سنة، كانت ستصل إلى مسيا، المسيح، ومعموديته ومسحه بالروح القدس في سنة ٢٧ للميلاد، وهذا تمم التحديد بكل دقة. وفي منتصف الأسبوع السبعين كان مسيا سيُقطع. فبعد معمودية المسيح بثلاث سنين ونصف عُلق على الصليب في ربيع عام ٣١ م. أن السبعين أسبوعاً أو الـ ٤٩٠ سنة كانت خاصة باليهود. وفي نهاية هذه المدة ختمت الأمة على رفضها للمسيح باضطهاد تلاميذه، فتوجه الرسل إلى الأمم في عام ٣٤ م. إن انقضاء ٤٩٠ سنة من ٢٣٠٠ سنة يُبقي ١٨١٠ سنين. فمن سنة ٣٤ للميلاد تنتهي الـ ١٨١٠ سنة عام ١٨٤٤. وقد قال الملاك: « حينئذ يتبرأ (يتطهر) القدس ». فكل تحديدات النبوة السابقة تمت بلا ريب في الوقت المحدد.

وبهذا الحساب كان كل شيء واضحاً ومتوافقاً عدا هذا الأمر وهو أنه لم تقع فعلاً أي حادثة مطابقة

لتطهير القدس في عام ١٨٤٤. ولكن كوننا ننكر أن الأيام قد انتهت في ذلك التاريخ معناه أننا نلقي بالمسألة كلها في الفوضى والارتباك ونبذ المواقف التي ثبتت بموجب إتمام النبوة الذي لا يخطئ.

الله قاد شعبه

لكن الله قاد شعبه في حركة المجيء العظيمة. فلقد لازمت قوته ومجده العمل، فلم يسمح أن ينتهي بالظلام وخيبة الآمال ويوصم بوصمة العار على أنه اهتياج تعصبي كاذب. ولم يسمح أن يترك كلمته مكتنفة بالشك وعدم اليقين. ومع أن كثيرين هجروا حسابهم القديم للفترات التاريخية وانكروا صحة الحركة المبنية عليه، فإن آخرين لم يرغبوا في نبذ نقاط الإيمان والاختبار التي كانت تسندها كلمة الله وشهادة روحه. لقد اعتقدوا أنهم اتخذوا مبادئ سليمة للتفسير في درسهم النبوات وأنه يجب عليهم التمسك بالحقائق التي حصلوا عليها والسير على النهج نفسه الذي اعتمدوه في بحوثهم الكتابية. وبروح الصلاة الحارة راجعوا موقفهم ودرسوا الكتاب لاكتشاف خطئهم، فإذا لم يجدوا غلطة واحدة في الفترات النبوية أرشدهم الله إلى فحص موضوع القدس بأكثر دقة.

ففي بحثهم عرفوا أنه لا يوجد نص في الكتاب أو برهان يدعم الرأي القائل أن الأرض هي القدس، وإنما وجدوا في الكتاب شرحا وافيا لموضوع القدس وطبيعته وموقعه وخدماته، إذ كانت شهادة الكتاب القديسين واضحة ومفصلة بحيث تجعل المسألة مفهومة بلا شك ولا إبهام. وفي الرسالة إلى العبرانيين يكتب بولس الرسول قائلا: « ثُمَّ الْعَهْدُ الْأَوَّلُ كَانَ لَهُ أَيْضاً فَرَائِضُ خِدْمَةِ الْقُدُسِ الْعَالَمِيِّ، لِأَنَّهُ نُصِبَ الْمَسْكَنُ الْأَوَّلُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ « الْقُدُسُ » الَّذِي كَانَ فِيهِ الْمَنَارَةُ، وَالْمَائِدَةُ، وَخُبْزُ التَّقْدِمَةِ. وَوَرَاءَ الْحِجَابِ الثَّانِي الْمَسْكَنُ الَّذِي يُقَالُ لَهُ « قُدُسُ الْأَقْدَاسِ » فِيهِ مَبْخَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَنَابُوتُ الْعَهْدِ مُعَشًى مِنْ كُلِّ جَهَةِ بِالذَّهَبِ، الَّذِي فِيهِ قِسْطٌ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ أَلْمَنُ، وَعَصَا هَارُونَ الَّتِي أَفْرَخَتْ، وَلَوْحَا الْعَهْدِ. وَفَوْقَهُ كُرُوبًا الْمَجْدُ مُظَلِّلِينَ الْغَطَاءَ » (عبرانيين ٩: ١-٥).

إن القُدس الذي يشير إليه بولس هنا كان هو الخيمة التي أقامها موسى بأمر الله كالمسكن الأرضي للعلي: « فَيَصْنَعُونَ لِي مَقْدَسًا لِأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ » (خروج ٢٥: ٨)، هذا ما أمر الله به موسى عندما كان الله في الجبل. كان الإسرائيليون مسافرين في البرية وكانت الخيمة مصنوعة بحيث يمكن نقلها من مكان إلى مكان ومع ذلك فقد كانت مسكنا فخما جدا. لقد كانت جدران القدس مكونة من ألواح مستقيمة مغطاة بغشاء سميك من الذهب وموضوعة في قواعد من الفضة بينما كان السقف مكونا من جملة ستائر أو أغطية متتابعة كانت أعلاها من الجلد أما الداخلية منها فكانت من الكتان المشغول بصناعة الكروبيم الجميلة. وفضلا عن الدار الخارجية التي كانت تحتوي على مذبح المحرقة كانت الخيمة نفسها مكونة من مسكنين يسمى أحدهما القدس، والآخر قدس الأقداس يفصل بينهما حجاب أو ستار جميل ثمين، وكان على باب المسكن الأول حجاب مشابه لهذا.

القُدس وقُدس الأقداس

وفي القُدس كانت المنارة (الشمعدان) في جهة الجنوب ولها سبعة سرج لتتير القُدس نهارا وليلا، أما في الشمال فكانت توجد مائدة خبز التقدمة، وأمام الحجاب الذي يفصل القُدس عن قدس

الأقداس كان يوجد مذبح الذهب للبخور الذي كانت تصعد منه كل يوم سحابة البخور العطر أمام الله.

وفي قدس الأقداس كان يوجد التابوت الذي كان عبارة عن صندوق من الخشب الثمين المغشى بالذهب، وفيه وُضع لوحا الحجر اللذان كتب الله عليهما الوصايا العشر. وكان فوق التابوت غطاء يسمى كرسي الرحمة، وكان قطعة من الصناعة الفخمة الجميلة، وفوق الغطاء كان كروبان كل منهما على أحد طرفيه، وكل ذلك من الذهب الخالص. وفي هذا المسكن كان يعلن الحضور الإلهي في سحابة المجد بين الكروبيين.

هيكل سليمان

وبعدما سكن العبرانيون في أرض كنعان واستراحوا واستبدلت الخيمة بهيكل سليمان الذي كان بناء متينا دائما، وعلى مساحة أكبر، فقد روعيت فيه النسب نفسها ووضع فيه الأثاث نفسه الذي كان في الخيمة. على هذا الشكل كان الهيكل — إلا عندما صار خرابا في عهد دانيال — إلى أن دمر بأيدي الرومان في سنة ٧٠ للميلاد.

هذا هو القدس الوحيد الذي وجد على الأرض والذي يخبرنا عنه أَلِكْتَابُ الْمُقَدَّسِ. وقد أعلن بولس أنه قدس العهد الأول. ولكن ألا يوجد قُدُس للعهد الجديد؟

فإذ اتجه طالبو الحق مرة أخرى إلى الرسالة إلى العبرانيين اكتشفوا أن وجود مقدس ثان أو مقدس العهد الجديد كان متضمنا في قول بولس الذي اقتبسناه من قبل إذ يقول: « ثُمَّ الْعَهْدُ الْأَوَّلُ كَانَ لَهُ أَيْضاً فَرَائِضُ خِدْمَةِ وَالْقُدُسُ الْعَالَمِيُّ ». إن استعمال كلمة « أَيْضاً » يشير إلى أن بولس قد سبق فذكر هذا القُدُس. فإذ عادوا إلى أول الإصلاح السابق قرأوا هذا القول: « وَأَمَّا رَأْسُ الْكَلَامِ فَهُوَ: أَنَّ لَنَا رَئِيسَ كَهَنَةٍ مِثْلَ هَذَا، قَدْ جَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ الْعِظَمَةِ فِي السَّمَاوَاتِ خَادِمًا لِلْأَقْدَاسِ وَالْمَسْكَنِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي نَصَبَهُ الرَّبُّ لِإِنْسَانٍ » (عبرانيين ٨: ١، ٢).

هنا يعلن قدس العهد الجديد. لقد نصب الإنسان القدس الأول الذي بناه موسى، أما هذا فقد بناه الرب لا إنسان. في القُدُس الأول كان الكهنة يمارسون خدماتهم، أما في هذا فيخدم المسيح رئيس كهنتنا عن يمين الله. كان المقدس الأول على الأرض أما الآخر ففي السماء.

وفوق هذا، فالخيمة التي أقامها موسى كانت حسب مثال. فقد أمره الرب قائلا: « بِحَسَبِ جَمِيعِ مَا أَنَا أُرِيكَ مِنْ مِثَالِ الْمَسْكَنِ، وَمِثَالِ جَمِيعِ آيَاتِهِ هَكَذَا تَصْنَعُونَ ». وقد قدمت إليه الوصية مرة أخرى قائلة: « وَانْظُرْ فَأَصْنَعُهَا عَلَى مِثَالِهَا الَّذِي أَظْهَرَ لَكَ فِي الْجَبَلِ » (خروج ٢٥: ٩، ٤٠). وبولس يقول إن المسكن الأول « رَمَزُ لَوَقْتِ الْحَاضِرِ، الَّذِي فِيهِ تُقَدَّمُ قَرَابِينُ وَذَبَائِحُ »، وأن أماكنه المقدسة هي « أمثلة الأشياء التي في السَّمَاوَاتِ »، وأن الكهنة الذين يقدمون قرابين حسب الناموس كانوا يخدمون « شِبْهَ السَّمَاوِيَّاتِ وَظِلِّهَا »، وأن « الْمَسِيحَ لَمْ يَدْخُلْ إِلَى أَقْدَاسِ مَصْنُوعَةٍ بِيَدِ أَشْبَاهِ الْحَقِيقَةِ، بَلْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنَهَا، لِيُظْهَرَ الْآنَ أَمَامَ وَجْهِ اللَّهِ لِأَجْلِنَا » (عبرانيين ٩: ٩، ٢٣؛ ٨: ٥؛ ٩: ٢٤).

الأصل العظيم

إنَّ القُدُسَ الذي في السماء الذي يخدم فيه يسوع لأجلنا هو القُدُسُ الأصلي العظيم الذي كان القُدُسُ الذي بناه موسى على مثاله. لقد وضع الله روحه على الرجال الذين أقاموا القُدُسَ الأرضي. فالمهارة الفنية التي استخدمت في صنعه كانت مظهرًا لحكمة الله. كان للجدران مظهر الذهب الخالص، ومن كل جهة تنعكس عليه أنوار السرج السبعة للمنارة الذهبية. وكانت مائدة خبز التقدمة ومذبح البخور يلمعان كالذهب المصقول. والستارة الفاخرة البديعة التي كونت السقف والمشغولة بصور الملائكة بالأسْمَانِجُون والأرجوان والقرمز، كل ذلك زاد من جمال المشهد. وخلف الحجاب الثاني كان الشكينَا المقدَّس وهو مظهر مجد الله المنظور الذي لم يكن أحد غير رئيس الكهنة يدخل أمامه ويعيش.

إنَّ بهاء المسكن الأرضي الذي لا يبارى عكس أمام العيون البشرية أمجاد ذلك الهيكل السماوي الذي فيه يخدم المسيح كسابق لأجلنا أمام عرش الله. إنه المسكن الثابت الذي فيه ملك الملوك حيث ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوفٌ قدامه (دانيال ٧: ١٠)، ذلك الهيكل الممتلئ بمجد العرش الأبدي حيث السرافيم حراسه اللامعون الذين يغطون وجوههم إكراما وتعبدًا لم يستطيعوا أن يجدوا في أفخم بناء إقامته يد إنسان إلا انعكاسًا باهتًا لعظمته ومجده. ومع ذلك فقد كانت توجد في القدس الأرضي وخدماته حقائق مهمة للناس خاصة بالقدس السماوي والعمل العظيم الذي يجري فيه لفداء بني الإنسان.

الأماكن المقدسة في القُدُس الذي في السماء يرمز إليها المسكنان اللذان في القُدُس الأرضي. وقد رأى يوحنا الرسول في رؤيا منظر هيكل الله في السماء، فرأى « وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحَ نَارٍ مُتَّقَدَةٌ » (رؤيا ٤: ٥). وقد رأى ملاكا « مَعَهُ مِبْخَرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَأُعْطِيَ بَخُورًا كَثِيرًا لِكَيْ يُقَدِّمَهُ مَعَ صَلَوَاتِ الْقُدِّيسِينَ جَمِيعِهِمْ عَلَى مَذْبَحِ الذَّهَبِ الَّذِي أَمَامَ الْعَرْشِ » (رؤيا ٨: ٣). لقد سُمح للنبي بأن يرى المسكن الأول من القُدُس الذي في السماء، ورأى هناك « السبعة المصابيح التي من نار »، ومذبح الذهب « اللذين كان يرمز إليهما المنارة ومذبح البخور اللذان في القُدُس الأرضي. ومرة أخرى « انْفَتَحَ هَيْكَلُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ » (رؤيا ١١: ١٩) فتطلع في داخل الحجاب الداخلي إلى قدس الأقداس. وهنا رأى « تَابُوتُ عَهْدِهِ » الذي كان يرمز إليه التابوت المقدس الذي صنعه موسى لتوضع فيه شريعة الله.

وهكذا وجد الذين كانوا يدرسون الموضوع برهانا لا ينقض على وجود قدس في السماء. لقد صنع موسى القدس الأرضي حسب مثال أظهر له. وقد علمنا بولس أن المثال هو القدس الحقيقي الذي في السماء. ويوحنا يشهد بأنه قد رآه في السماء.

في الهيكل الذي في السماء، مسكن الله، عرشه المثبت بالبر والعدل. وفي قدس الأقداس توجد شريعته، القانون العظيم للحق الذي به يختبر كل الجنس البشري. والتابوت الذي فيه حفظ لوحا الشريعة يغطيه الغطاء (كرسي الرحمة) الذي أمامه يتوسل المسيح لأجل الخاطئ باستحقاق دمه. وهكذا يمثل اتحاد العدل بالرحمة في تدبير فداء الإنسان. هذا الاتحاد لم يكن في وسع غير الحكمة الإلهية غير المحدودة أن تبتكره وغير القدرة الإلهية غير المحدودة أن تتممه. إنه اتحاد يملأ قلوب كل

سكان السماء بالدهشة والتمجيد لله. يمثل الكروبان اللذان كانا في القُدس الأرضي ينظران بوقار إلى كرسي الرحمة، الاهتمام الذي به يتأمل الأجناد السماويون في عمل الفداء. هذا هو سر الرحمة الذي تشتهي الملائكة أن تطلع عليه: إن الله يستطيع أن يكون باراً فيما يبرر الخاطئ التائب، وهو يجدد معاشرته لجنسنا الساقط وشركته معه، وإن المسيح أمكنه أن يتنازل ليرفع جماهير لا حصر لها من هاوية الهلاك ويلبسهم ثياب برّه النقية ليجمع بينهم وبين الملائكة الذين لم يسقطوا قط، وليعيشوا إلى الأبد في حضرة الله.

نبوة جميلة

إن عمل المسيح، كشفيع ووسيط للإنسان، مذكور في تلك النبوة الجميلة التي أوردتها عنه زكريا: « الغصن اسمه... فهو يبنى هيكل الرب... وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه (كرسي أبيه)، ويكون كاهناً على كرسيه وتكون مشورة السلام بينهما كليهما » (زكريا ٦: ١٢، ١٣).

« يبنى هيكل الرب ». إن المسيح بذبيحته وشفاعته هو أساس كنيسة الله وبانيها. والرسول بولس يشير إليه على أنه « حَجَرُ الزَّائِغَةِ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ الْبِنَاءِ مُرَكَّبٌ مَعًا، يَنْمُو هَيْكَلًا مُقَدَّسًا فِي الرَّبِّ. الَّذِي فِيهِ أَنْتُمْ أَيْضًا مَبْنِيُونَ مَعًا، مَسْكَنًا لِلَّهِ فِي الرُّوحِ » (أفسس ٢: ٢٠-٢٢).

« يحمل الجلال ». للمسيح مجد فداء جنسنا الساقط. فمدى دهور الأبد ستكون أنشودة المفديين هي هذه: « الَّذِي أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ، وَجَعَلَنَا مَلُوكًا وَكَهَنَةً لِلَّهِ أَبِيهِ، لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ » (رؤيا ١: ٥، ٦).

« وَيَجْلِسُ وَيَتَسَلَّطُ عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَيَكُونُ كَاهِنًا عَلَى كُرْسِيِّهِ ». ليس الآن « على كرسي مجده »، فملكوت المجد لم يوت به بعد، فبعدما يكمل عمله كوسيط « يُعْطِيهِ الرَّبُّ إِلَهُ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ... وَلَا يَكُونُ لِمُلْكِهِ نَهَايَةٌ » (لوقا ١: ٣٢، ٣٣). إن المسيح ككاهن هو الآن جالس مع الآب في عرشه (رؤيا ٣: ٢١). فعلى كرسيه مع الله السرمدي القيوم يوجد ذاك الذي « أَحْزَانًا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعًا تَحَمَّلَهَا »، الذي تجرب « فِي كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُنَا، بَلَا خَطِيئَةٍ »، لكي يكون قادراً « أَنْ يُعِينَ الْمُجْرِبِينَ ». « إِنَّ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الْآبِ » (إشعياء ٥٣: ٤؛ عبرانيين ٤: ١٥، ٢: ١٨، ١ يوحنا ٢: ١). إن شفاعته هي شفاعة الجسد المسحوق المطعون والحياة التي بلا عيب. فاليدان المثقوبتان والجانب المطعون والرجلان المشوهتان تتوسل لأجل الإنسان الساقط الذي دُفع في فدائه هذا الثمن الذي لا يمكن تقديره.

« وتكون مشورة السلام بينهما كليهما ». إن محبة الآب، التي ليست أقل من محبة الابن، هي نبع خلاص الجنس الساقط الهالك. وقد قال يسوع لتلاميذه قبل انطلاقه: « وَلَسْتُ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَنَا أَسْأَلُ الْآبَ مِنْ أَجْلِكُمْ، لَأَنَّ الْآبَ نَفْسَهُ يُحِبُّكُمْ » (يوحنا ١٦: ٢٦، ٢٧). لقد كان الله « فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ » (٢ كورنثوس ٥: ١٩). وفي الخدمة في القدس الأعلى « تكون مشورة السلام بينهما كليهما ». « لَأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ » (يوحنا ٣: ١٦).

ماهية المقدس

إن السؤال القائل « ما هو القدس » نجد له جواباً واضحاً في الكتاب. فكلمة « قدس »، كما هي مستعملة في الكتاب، تشير أولاً إلى الخيمة التي بناها موسى كمثال للسماويات، وتشير ثانياً إلى « المسكن الحقيقي » في السماء الذي كان القدس الأرضي يرمز إليه. وبموت المسيح انتهت الخدمة الرمزية. « فالمسكن الحقيقي » في السماء هو قدس العهد الجديد. وبما أن النبوة الواردة في دانيال ١٤: ٨ تتم في هذا النظام أو هذا العهد، فلا بد أن يكون القدس الذي تشير إليه النبوة هو قدس العهد الجديد. ففي نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم أي في عام ١٨٤٤ لم يكن يوجد قدس على الأرض مدى قرون عديدة. إن القول: « إلى ألفين وثلاث مئة صباح ومساءً فيتبرأ (يتطهر) القدس » يشير بلا ريب إلى القدس الذي في السماء.

ولكن يبقى أهم سؤال ينتظر الإجابة وهو: ما هو تطهير القدس؟ إن حقيقة وجود مثل هذه الخدمة في ارتباطها بالقدس الأرضي منصوص عنها في أسفار العهد القديم. ولكن هل يمكن أن يكون في السماء ما يحتاج إلى تطهير؟ إن ما ورد في عبرانيين ٩ يعلمنا بكل وضوح عن تطهير القدس الأرضي والسماوي كليهما حيث يقول الرسول: « وكل شيء تقريبا يتطهر حسب الناموس بالدم، وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة. فكان يلزم أن أمثلة الأشياء التي في السماوات تطهر بهذه (بدم الذبائح)، وأما السماويات عينها فبذبائح أفضل من هذه » (عبرانيين ٩: ٢٢، ٢٣)، أي دم المسيح الزكي الثمين.

تطهير القدس

إن التطهير في كلتا الخدمتين الرمزية والحقيقية ينبغي أن يتم بالدم، دم الذبائح في الخدمة الأولى ودم المسيح في الخدمة الثانية. فبولس يقرر أن السبب الذي لأجله يجب أن يتم التطهير بالدم هو أنه من دون سفك دم لا تحصل مغفرة. إن رفع الخطيئة وإزالتها هو العمل الذي ينبغي إنجازه، ولكن كيف يمكن أن تكون هنالك خطيئة متصلة بالقدس في السماء أو على الأرض؟ هذا ما يمكن أن نفهمه بالرجوع إلى الخدمة الرمزية، لأن الكهنة الذين كانوا يخدمون على الأرض إنما كانوا يخدمون « شبه السَّمَاوِيَّاتِ وَظَلَّهَا » (عبرانيين ٨: ٥).

لقد كانت خدمة القدس الأرضي تنحصر في قسمين، فالكهنة كانوا يخدمون كل يوم في القدس، بينما كان رئيس الكهنة يمارس مرة واحدة في السنة خدمة تكفيرية خاصة في قدس الأقداس لأجل تطهير القدس. ويوما بعد يوم كان الخاطئ التائب يأتي بذبيحته إلى باب خيمة الاجتماع، وإذ يضع يده على الذبيحة يعترف بخطاياهم، وبهذه الطريقة الرمزية كانت خطاياهم تنتقل منه إلى الذبيحة البريئة. وبعد ذلك كانت الذبيحة تُذبح. والرسول يقول: « بدون سفك دم » لا تحصل مغفرة. « لَأَنَّ نَفْسَ الْجَسَدِ هِيَ فِي الدَّمِ » (لاويين ١٧: ١١). إن شريعة الله التي كسرت تطلب حياة من قد خالفها. فكان الكاهن يأخذ الدم، وهو رمز الحياة التي خسرها الخاطئ الذي حملت الذبيحة ذنبه، إلى القدس ويرشه أمام الحجاب الذي كان خلفه التابوت الذي يحتوي على الشريعة التي تعدها الخاطئ. فبهذا الطقوس كانت الخطيئة، بواسطة الدم، تنتقل إلى القدس بطريقة رمزية. وفي بعض

الحالات لم يكن الدم يُحمل إلى القدس، ولكن كان لحم الذبيحة يؤكل بعد ذلك بواسطة الكاهن كما أمر موسى ابني هرون قائلاً: « قد أعطاكم (الله) إياها لتحملها إثم الجماعة » (لاويين ١٠: ١٧). وكان كلا الطقسين يرمزان إلى نقل الخطيئة من التائب إلى القدس.

مثل هذا كان العمل الذي كان يمارس من يوم إلى يوم على مدار السنة. وهكذا انتقلت خطايا إسرائيل إلى القدس، وكانت الحاجة تتطلب القيام بعمل خاص لرفعها. لقد أمر الله بالتكفير عن كل من المسكنين المقدسين فقال: « فَيَكْفُرُ عَنِ الْقُدُسِ مِنْ نَجَاسَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمِنْ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَاهُمْ. وَهَكَذَا يَفْعَلُ لَخِيْمَةِ الْجَمَاعَةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهُمْ فِي وَسْطِ نَجَاسَاتِهِمْ ». كما كان ينبغي التكفير عن المذبح لكي « وَيُطَهَّرَ وَيُقَدَّسَ مِنْ نَجَاسَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (لاويين ١٦: ١٦، ١٩).

يوم الكفارة العظيم

وكان على الكاهن أن يدخل إلى قدس الأقداس مرة في السنة في يوم الكفارة العظيم لأجل تطهير القدس. والعمل الذي كان يمارس هناك كان مكملًا للخدمات التي كانت تقدم على مدار السنة. وفي يوم الكفارة كان يؤتى بتيسين من المعزى إلى باب الخيمة، وكانت تلقى عليهما قرعتان « قُرْعَةً لِلرَّبِّ وَقُرْعَةً لِعَزَازِيلَ » (لاويين ١٦: ٨). فالتيس الذي كانت تقع قرعته للرب كان يذبح كذبيحة خطيئة عن الشعب، وكان على الكاهن أن يأتي بدمه إلى داخل الحجاب ويرش دمه على غطاء التابوت (كرسي الرحمة) وأمامه. وكان يجب أيضاً أن يرش من الدم على مذبح البخور الذي كان أمام الحجاب. « وَيَضَعُ هَارُونُ يَدَيْهِ عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ الْحَيِّ وَيُقَرُّ عَلَيْهِ بِكُلِّ ذُنُوبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكُلِّ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَاهُمْ، وَيَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ، وَيُرْسَلُهُ بَيْدَ مَنْ يَلَاقِيهِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، لِيَحْمَلَ التَّيْسُ عَلَيْهِ كُلَّ ذُنُوبِهِمْ إِلَى أَرْضِ مَقْفَرَةٍ » (لاويين ١٦: ٢١، ٢٢). ولا يعود تيس عزازيل ثانية إلى محلة إسرائيل. وكان يُطلب من الرجل الذي يرسله إلى البرية أن يغتسل ويغسل ثيابه قبل عودته إلى المحلة.

وكان القصد من هذا الطقس كله هو أن يطبع على عقول بني إسرائيل وقلوبهم حقيقة قداسة الله وكرهيته للخطيئة، وأكثر من هذا أن يريهم أنه لا يمكنهم أن يتصلوا بالخطيئة من دون أن يتنجسوا. وكان يطلب من كل إنسان أن يذلل نفسه ويحزنها عندما تمارس عملية الكفارة هذه. كان ينبغي الاعتكاف عن كل الأعمال، وكان على كل جماعة إسرائيل أن يقضوا الوقت في التذلل المقدس أمام الله بالصلاة والصوم وفحص القلب فحصاً عميقاً.

تعليم حقائق مهمة

وهناك حقائق مهمة عن الكفارة يمكن تعلمها من الخدمة الرمزية: كان في المستطاع قبول بديل عن الخاطئ، لكن الخطيئة لم تكن تشطب بدم الذبيحة. لذلك قُدمت وسيلة بها كانت تنتقل الخطيئة إلى القدس. فبتقديم الدم كان الخاطئ يعترف بسلطة الناموس، فيعترف بذنبه في تعديه، ويعرب عن شوقه إلى الغفران بالإيمان بفاد سيأتي، ولكنه لم يكن يتحرر تماماً من دينونة الناموس. ففي يوم الكفارة بعدما كان رئيس الكهنة يأخذ ذبيحة من الجماعة كان يدخل إلى قدس الأقداس بدم الذبيحة ويرشه على غطاء التابوت فوق الشريعة مباشرة لكي يقدم ترضيته عن مطالبها. وحينئذ ففي

وظيفته كوسيط كان يأخذ الخطايا على نفسه ويحملها من القدس، وإذ يضع يديه على رأس تيس عزازيل كان يعترف عليه بكل هذه الخطايا، وبذلك كان بطريقة رمزية ينقلها من نفسه إلى التيس. وكان التيس يحملها بعيداً فتُعتبر قد انفصلت وابتعدت عن الشعب إلى الأبد.

هكذا كانت الخدمة تمارس على « شبه السماويات وظلها ». وما كان يصنع بطريقة رمزية في خدمة القدس الأرضي يصنع حقيقة في خدمة القدس السماوي. إن مخلصنا بعد صعوده بدأ عمله كرئيس كهنتنا. فبولس يقول: « لَأَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَدْخُلْ إِلَى أَقْدَاسٍ مَصْنُوعَةٍ بِيَدِ أَشْبَاهِ الْحَقِيقَةِ، بَلْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنَهَا، لِيُظْهَرَ الْآنَ أَمَامَ وَجْهِ اللَّهِ لِأَجْلِنَا » (عبرانيين ٩: ٢٤).

إن خدمة الكاهن على مدار السنة في مسكن القدس الأول « داخل الحجاب »، الذي كان باباً يفصل القدس عن الدار الخارجية، ترمز إلى عمل الخدمة التي دخلها المسيح عند صعوده. لقد كان عمل الكاهن في الخدمة اليومية أن يقدم دم ذبيحة الخطيئة أمام الله، كما كان يقدم البخور الصاعد مع صلوات إسرائيل. وهكذا تقدم المسيح باستحقاق دمه أمام الآب لأجل الخطاة كما قدم أمامه أيضاً صلوات التائبين المؤمنين معطرة ببره. مثل هذا كان عمل الخدمة في مسكن القدس الأول في السماء.

وقد تبعه إيمان التلاميذ إلى هناك عندما صعد المسيح من بينهم إلى السماء بعيداً من أنظارهم. هنا تركز رجائهم، ذلك الرجاء الذي قال عنه بولس: « كَمُرْسَاةٍ لِلنَّفْسِ مُؤْتَمَنَةً وَثَابِتَةً، تَدْخُلُ إِلَى مَا دَاخَلَ الْحُجَابِ، حَيْثُ دَخَلَ يَسُوعُ كَسَاقٍ لِأَجْلِنَا، صَائِرًا... رَئِيسَ كَهَنَةٍ إِلَى الْأَبَدِ »، « وَلَيْسَ بَدَمِ ثِيُوسٍ وَعُجُولٍ، بَلْ بِدَمِ نَفْسِهِ، دَخَلَ مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَقْدَاسِ، فَوَجَدَ فِدَاءً أَبَدِيًّا » (عبرانيين ٦: ١٩، ١٢: ٢٠).

ولمدي ثمانية عشر قرناً ظل عمل الخدمة هذا في مسكن القدس الأول. وقد توسل دم المسيح لأجل المؤمنين التائبين وحصل لهم على الغفران والقبول لدى الآب، ومع ذلك فقد ظلت خطاياهم مسجلة في الأسفار. وكما إن في الخدمة الرمزية كان يوجد عمل كفارة في ختام السنة، كذلك قبل أن يُكْمَلَ عمل المسيح لفداء الناس يوجد عمل كفارة لمحو الخطيئة وإزالتها من القدس. فهذه هي الخدمة التي بدأت في نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم. ففي ذلك الوقت دخل رئيس كهنتنا إلى قدس الأقداس، كما قد سبق النبي دانيال وأنبأ بذلك، ليمارس آخر جزء من عمله المقدس، أي ليظهر القدس.

عمل الدينونة

وكما حدث قديماً أن خطايا الشعب وضعت بالإيمان على ذبيحة الخطيئة وبواسطة دمها انتقلت الخطيئة إلى القدس الأرضي بطريقة رمزية، كذلك في العهد الجديد تنتقل خطايا التائب وبالإيمان توضع على المسيح وتنتقل فعلاً إلى القدس السماوي. وكما تم التطهير الرمزي للقدس الأرضي بإزالة الخطايا التي كان قد تنجس، بها كذلك يتم التطهير الفعلي للقدس السماوي بإزالة الخطايا المسجلة هناك أو محوها. ولكن قبل أن يتم هذا ينبغي فحص الأسفار المسجلة فيها الخطايا للحكم في من هم، الذين بواسطة التوبة عن الخطيئة والإيمان بالمسيح، يؤهلون لنوال بركات كفارته. ولذلك فتطهير

القدس يشمل أيضاً عملية فحص، عملية دينونة. وهذا العمل يجب إنجازه قبل المجيء الثاني للمسيح لفداء شعبه. لأنه عندما يأتي ستكون أجرته معه ليجازي كل واحد كما يكون عمله (رؤيا ٢٢: ١٢).

وهكذا رأى أولئك الذين اتبعوا نور الكلمة النبوية أن المسيح بدلا من المجيء إلى الأرض في نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم في عام ١٨٤٤ دخل إلى قدس أقداس المقدس السماوي ليكمل عمل الكفارة الختامي استعدادا لمجيئه.

وقد رؤي أيضاً أنه في حين أن ذبيحة الخطيئة كانت ترمز إلى المسيح كذبيحة، ورئيس الكهنة كان يرمز إلى المسيح كوسيط، فإن تيس عازيل يرمز إلى الشيطان مبتدع كل خطيئة والذي ستوضع عليه، نهائياً، خطايا التائبين الحقيقيين. وعندما أزال رئيس الكهنة الخطايا من القدس بفضل دم ذبيحة الخطيئة وضعها على تيس عازيل. وعندما يزيل المسيح خطايا شعبه من القدس السماوي في نهاية خدمته، بفضل دمه، فسيضعها على الشيطان الذي، تنفيذاً للحكم، ينبغي أن يتحمل القصاص الأخير. وقد أرسل تيس عازيل إلى أرض مقفرة على ألا يعود ثانية إلى جماعة إسرائيل. وهكذا سيُنفي الشيطان إلى الأبد من حضرة الله وشعبه ويمحى من الوجود في الهلاك النهائي للخطيئة والخطاة.

٢٤ - المسيح شفيعنا

كان موضوع القدس المفتاح الذي كشف عن سر خيبة الأمل التي حدثت في عام ١٨٤٤. لقد كشف للإبصار عن نظام كامل للحق مترابط ومتوافق، مظهرًا أن يد الله وجهت حركة المجيء العظيمة ومبينًا الواجب الحالي بتسليطه الضوء على وضع شعبه وعمله. وكما « فرح تلاميذ يسوع عندما رأوا الرب » بعد ليلة مخيفة قضوها في العذاب والخيبة، كذلك فرح أولئك الذين كانوا ينتظرون مجيئه الثاني بإيمان. لقد كانوا ينتظرون أنه سيظهر في مجده لمجازاة عبيده. فعندما خابت آمالهم غاب يسوع عن أنظارهم، وصرخوا مع مريم حينما كانت عند القبر قائلين: « أخذوا سيدي ولست أعلم أين وضعوه ». أما الآن فقد رأوه في قدس الأقداس مرة أخرى كرئيس كهنتهم الرحيم المزمع أن يظهر كملكهم ومخلصهم. وقد سطع من القدس نور أنار الماضي والحاضر والمستقبل. وعرفوا أن الله كان يقودهم بعنايته التي لا تخطئ. ومع أنهم، كالتلاميذ الأولين، أخفقوا في فهم الرسالة التي كانوا يحملونها فقد كانت، مع ذلك، صحيحة من كل جانب. وإذ نادوا بها تمموا قصد الله ولم يكن تعبهم باطلا في الرب. فإذ كانوا « مولودين ثانية لرجاء حي » فقد فرحوا « بفرح لا يُنطق به ومجيد ».

إن كلتا النبوتين الواردة أولاهما في (دانيال ٨: ١٤) القائلة « إلى ألفين وثلاث مئة صباح ومساء فيتبرأ (يتطهر) القدس » وثانيتها في (رؤيا ١٤: ٧) « خافوا الله وأعطوه مجداً، لأنه قد جاءت ساعته ديتوته » كانتا تشيران إلى خدمة المسيح في قدس الأقداس وإلى الدينونة الاستقصائية (أو التحقيقية) لا إلى مجيء المسيح لأجل فداء شعبه وهلاك الفجار. فلم تكن الغلطة في حسابان الفترات النبوية بل في الحادثة نفسها التي كانت ستحدث في نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم. وبسبب هذه الغلطة حاقت بالمؤمنين الخيبة، ومع ذلك فكل ما سبقت النبوة وأنبأت به وكل ما كان لديهم من مستند كتابي لينتظروه قد تم. وفيما كانوا يندبون انهيار آمالهم كانت الحادثة التي أنبأت بها الرسالة والتي ينبغي أن تتم قبل ظهور الرب لمكافأة عبيده قد حدثت.

فالمسيح لم يأت إلى الأرض كما كانوا ينتظرون، بل أتى إلى قدس أقداس هيكل الله في السماء كما سبق أن أشير إليه في الرمز. وقد صورته دانيال النبي على أنه آت في هذا الوقت إلى القديم الأيام: « كُنْتُ أَرَى فِي رُؤْيِ اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ »، لا إلى الأرض، بل « إلى القديم الأيام، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ » (دانيال ٧: ١٣).

وقد سبق النبي ملاخي أيضاً فأنبأ بهذا المجيء قائلا: « يَأْتِي بَعْتَهُ إِلَى هَيْكَلِهِ السَّيِّدُ الَّذِي تَطْلُبُونَهُ، وَمَلَكَ الْعَهْدِ الَّذِي تُسَرُّونَ بِهِ. هُوَذَا يَأْتِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ » (ملاخي ٣: ١). كان مجيء السيد إلى هيكله فجائياً، فلم يكن شعبه ينتظرونه. لم يكونوا ينتظرونه هناك. فقد كانوا ينتظرون مجيئه إلى الأرض « فِي نَارٍ لَهَيْبٍ، مُعْطِيًا نَقْمَةً لِلَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ، وَالَّذِينَ لَا يُطِيعُونَ إِنْجِيلَ رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ » (٢ تسالونيكي ١: ٨).

ضرورة الاستعداد

لكن الشعب لم يكونوا بعد متأهبين لاستقبال سيدهم. كان هنالك عمل تأهب ينبغي أن يتموه.

كان سيعطى نور لتوجيه عقولهم إلى هيكل الله في السماء، ولأنه كان عليهم أن يتبعوا رئيس كهنتهم بالإيمان في خدمته هناك كانت ستعلن لهم واجبات جديدة. وكانت ستقدم إلى الكنيسة رسالة إنذار وتعليم أخرى.

يقول النبي: « مَنْ يَحْتَمِلُ يَوْمَ مَجِيئِهِ؟ وَمَنْ يَثْبُتْ عِنْدَ ظُهُورِهِ؟ لَأَنَّهُ مِثْلُ نَارِ الْمُمَحِّصِ، وَمِثْلُ أَشْنَانِ الْقَصَارِ. فَيَجْلِسُ مُمَحِّصًا وَمُنْقِيًا لِلْفَضَّةِ. فَيَنْقِي بَنِي لَأَوِي وَيُصَفِّيهِمْ كَالذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ، لِيَكُونُوا مُقَرَّبِينَ لِلرَّبِّ، تَقْدَمَةً بِالْبُرِّ » (ملاخي ٣: ٢، ٣). فالذين يكونون عائشين على الأرض عندما تنتهي شفاعته المسيح في القدس السماوي عليهم أن يقفوا في حضرة الله القدوس من دون وسيط. ينبغي أن تكون ثيابهم نقية بلا عيب، وصفاتهم مطهرة من الخطيئة بدم الرش. فبنعمة الله وجهودهم ينبغي لهم أن ينتصروا في حربهم ضد الشر. فعندما تكون الدينونة الاستقصائية (التحقيقية) سائرة قدما في السماء والعمل جاريا بإزالة خطايا المؤمنين التائبين من القدس، فلا بد أن يكون هنالك عمل تطهير خاص وإزالة الخطيئة بين شعب الله على الأرض. وهذا العمل معروض على نحو أوضح في الرسائل الواردة في الأصحاح الرابع عشر من الرؤيا.

فعندما يكون هذا العمل قد كمل سيكون اتباع المسيح مستعدين لظهوره: « فَتَكُونُ تَقْدَمَةُ يَهُودَا وَأُورُشَلِيمَ مَرْضِيَّةً لِلرَّبِّ كَمَا فِي أَيَّامِ الْقَدَمِ وَكَمَا فِي السَّنِينَ الْقَدِيمَةِ » (ملاخي ٣: ٤). وحينئذ فستكون الكنيسة التي سيقبلها ربنا لنفسه في مجيئه « كَنِيْسَةً مَجِيدَةً، لَا دَنَسَ فِيهَا وَلَا غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ، بَلْ تَكُونُ مُقَدَّسَةً وَبَلَا عَيْبٍ » (أفسس ٥: ٢٧). وحينئذ ستبدو « مُشْرِفُهُ مِثْلُ الصَّبَاحِ، جَمِيلَةٌ كَالْقَمَرِ، طَاهِرَةٌ كَالشَّمْسِ، مُرْهَبَةٌ كَجَيْشٍ بِالْوَيْةِ » (نشيد الانشاد ٦: ١٠).

وفضلا عن مجيء الرب إلى هيكله فإن ملاخي ينبئ عن مجيئه الثاني أيضاً لإجراء الدينونة بهذا القول: « وَأَقْتَرَبُ إِلَيْكُمْ لِلْحُكْمِ، وَأَكُونُ شَاهِدًا سَرِيعًا عَلَى السَّحَرَةِ وَعَلَى الْفَاسِقِينَ وَعَلَى الْحَافِينَ زُورًا وَعَلَى السَّالِبِينَ أَجْرَةَ الْأَجِيرِ: الْأَرْمَلَةِ وَالْيَتِيمِ، وَمَنْ يَصُدُّ الْغَرِيبَ وَلَا يَخْشَانِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ » (ملاخي ٣: ٥). ثم إن يهوذا يشير إلى المشهد نفسه حينما يقول: « هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رَبَوَاتِ قَدِيسِيهِ، لِيَصْنَعَ دِيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ، وَيُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّارِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمْ » (يهوذا ١٤ و ١٥). هذا المجيء ومجيء الرب إلى هيكله كل منهما مختلف عن الآخر ومنفصل عنه.

« هُوَذَا الْعَرِيسُ مَقْبِلٌ »

إن مجيء المسيح كرئيس كهنتنا إلى قدس الأقداس لأجل تطهير القدس الوارد في دانيال ٨: ١٤، ومجيء ابن الإنسان إلى القديم الأيام كما جاء في دانيال ٧: ١٣، ومجيء الرب إلى هيكله كما قد أنبأ عنه ملاخي، هي أوصاف لحادث واحد، وهو ممثل أيضاً في مجيء العريس إلى العرس كما قد وصفه المسيح في مثل العذارى العشر المذكور في متى ٢٥.

في صيف عام ١٨٤٤ وخريفه أطلق هذا النداء: « هُوَذَا الْعَرِيسُ مَقْبِلٌ ». إن الفريقين اللذين ترمز إليهما العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات كانا قد تكونا وقتئذ: الفريق الذي كان ينتظر ظهور الرب بفرح وكان أفراد مجتهدين في الاستعداد لملاقاته، والفريق الآخر الذي كان أفراده متأثرين

بالخوف وكانوا يعملون بدافع النوازع المختلفة، هؤلاء قنعوا بنظرية الحق لكنّ قلوبهم خلت من نعمة الله. ويقول المثل أنه عند مجيء العريس « المستعدات دخلن معه إلى العرس. إن مجيء العريس المعروف أماننا هنا يحدث قبل الزواج، والزواج يرمز إلى قبول المسيح ملكوته. إن المدينة المقدسة، أورشليم الجديدة، التي هي عاصمة المملكة وممثلتها تسمى « العروس امرأة الخروف ». قال الملاك ليوحنا: « هلم فأريك العروس امرأة الخروف » ثم يقول النبي: « وذهب بي بالروح... وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله » (رؤيا ٢١: ٩ و ١٠). إذا يتضح أن العروس ترمز إلى المدينة المقدسة، والعداري اللائي يخرجن للقاء العريس رمز للكنيسة. يقول الكتاب في الرؤيا أن شعب الله هم المدعوون إلى عشاء العرس (رؤيا ١٩: ٩). فإن كانوا ضيوفا مدعوين فلا يمكن أن يكونوا رمزا إلى العروس كذلك. إن المسيح بناء على ما قاله دانيال النبي سيعطى من قديم الأيام في السماء « سلطانا ومجدا وملكوتا ». وسيعطى أورشليم الجديدة، قصبة ملكوته « مهياة كعروس مزينة لرجلها » (دانيال ٧: ١٤؛ رؤيا ٢١: ٢). فبعدما يعطى الملكوت سيأتي في مجده كملك الملوك ورب الأرباب لفداء شعبه الذين سيتكئون « مع إبراهيم واسحق ويعقوب » على مائدته في ملكوته (متى ٨: ١١؛ لوقا ٢٢: ٣٠) ليشاركوا في عشاء عرس الخروف.

ينتظرون ربهم

إن النداء القائل « هوذا العريس مقبل » الذي سُمع في صيف عام ١٨٤٤ جعل آلاف من الناس ينتظرون مجيء الرب في الحال. ففي الوقت المعين جاء العريس لا إلى الأرض كما توقع الناس بل إلى القديم الأيام في السماء، إلى العرس ليعطي ملكوته، « وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ، وَأُغْلِقَ الْبَابُ ». لم يكن لهم أن يحضروا العرس بأنفسهم لأن هذا يحدث في السماء بينما هم على الأرض. إن أتباع المسيح عليهم أن ينتظروا « سَيِّدَهُمْ مَتَى يَرْجِعُ مِنَ الْعُرْسِ » (لوقا ١٢: ٣٦). ولكن عليهم أن يدركوا عمله ويتبعوه بالإيمان حين يدخل أمام الله، فهذا المعنى يقال عنهم أنهم يدخلون العرس.

وقد قيل في المثل أن العداري اللواتي كان معهن زيت في آنيتهن مع مصايجهن هن اللاتي دخلن العرس. فالذين، فضلا عما لديهم من معرفة للحق من الكتاب، كان عندهم أيضاً روح الله ونعمته، والذين في ليل تجاربهم المرة انتظروا بصبر فاحصين الكتاب طلبا لنور أعظم، هؤلاء رأوا الحق الخاص بالقدس في السماء وتغيير خدمة المخلص، وبالإيمان تبعوه في عمله في القدس السماوي. وكل الذين يقبلون الحقائق نفسها بواسطة شهادة الكتب تابعين المسيح بالإيمان عندما يمثل أمام الله ليتمم آخر عمل من أعمال وساطته وفي نهايته يعطى له ملكوته، كل هؤلاء يوصفون بأنهم داخلون إلى العرس.

العمل الختامي في القدس السماوي

وفي المثل الوارد في متى ٢٢ تمثل صورة العرس نفسها الدينونة الاستقصائية (التحقيقية) بكل وضوح على أنها تحدث قبل العرس. فقبل الزفاف يدخل الملك لينظر المدعوين وليرى هل كلهم

لابسون ثوب العرس، ثوب الخلق الذي بلا عيب المغتسل والمبيض في دم الخروف (متى ٢٢: ١١؛ رؤيا ٧: ١٤). فمن وجد مقصرا في هذا وليس عليه لباس العرس يطرح خارجا، ولكن كل من وُجدوا بعد الفحص أن عليهم لباس العرس يقبلهم الله ويحسبهم أهلا لنصيب في ملكوته ويجلسون معه في عرشه. إن عمل امتحان الخلق هذا والحكم في من هم متأهبون لملكوت الله هو حكم الاستقصاء او دينونة الفحص، والعمل الختامي في القدس السماوي.

وعندما تنتهي عملية فحص قضايا كل الذين اعترفوا مدى الأجيال بأنهم اتباع المسيح، فبعد الحكم في هذا وليس قبله ينتهي زمن النعمة ويغلق باب الرحمة. وهكذا ففي هذه الجملة القصيرة القائلة: « وَالْمُسْتَعِدَّاتُ دَخَلْنَ مَعَهُ إِلَى الْعُرْسِ، وَأُغْلِقَ الْبَابُ » نُحْمَلُ من خدمة المخلص الختامية إلى الوقت الذي فيه يتم العمل العظيم لخلاص الإنسان.

في خدمة القدس الأرضي، التي كما وقد رأينا ترمز إلى خدمة القدس السماوي، عندما كان رئيس الكهنة يدخل قدس الأقداس في يوم الكفارة كانت تبطل الخدمة في المسكن الأول. لقد امر الله قائلا: « وَلَا يَكُنْ إِنْسَانٌ فِي خِيَمَةِ الْجَمَاعِ مَنْ دُخُولُهُ لِلتَّكْفِيرِ فِي الْقُدُسِ إِلَى خُرُوجِهِ » (لاويين ١٦: ١٧). وهكذا عندما دخل المسيح قدس الأقداس ليمارس عمل الكفارة الختامي كف عن خدمته في المسكن الأول. ولكن عندما انتهت الخدمة في المسكن الأول بدأت الخدمة في المسكن الثاني. وفي الخدمة الرمزية عندما ترك رئيس الكهنة القدس في يوم الكفارة دخل ليمثل في حضرة الله ويقدم دم ذبيحة الخطيئة لأجل كل إسرائيل الذين تابوا توبة صادقة عن خطاياهم. وكذلك كان المسيح قد أكمل جزءاً فقط من عمله كشفيعنا ليدخل على جزء آخر من عمله وكان لا يزال يتوسل باستحقاق دمه أمام الأب لأجل الخطاة.

هذا الموضوع لم يفهمه الأذفتست في عام ١٨٤٤. فبعدما مر الوقت الذي كان يُنتظر فيه مجيء المخلص، كانوا لا يزالون يعتقدون بقرب مجيئه. كانوا يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى أزمة مهمة وأن عمل المسيح كشفيع الإنسان أمام الله قد انتهى. وخيّل إليهم أنه يوجد تعليم في الكتاب يفيد بأن فرصة اختبار الإنسان (أي زمن النعمة) تنتهي قبل مجيء الرب الفعلي في سحب السماء بوقت قصير. وهذا بدا واضحا من الآيات التي تشير إلى وقت فيه يطلب الناس ويقرعون ويصرخون في طلب الرحمة وهم واقفون أمام بابها من دون أن يُفتح. وقد كان السؤال الذي واجههم هو ما إذا كان الموعد الذي كانوا يتوقعونه لمجيء المسيح لن يحدد بالحري بدء هذه الفترة التي كانت ستسبق مجيئه مباشرة. فإذا كانوا قد قدموا الإنذار بقرب الديونة أحسوا بأن عملهم لأجل العالم قد كمل ولم يعودوا يشعرون بثقل مسؤولية النفوس لخلاص الخطاة بينما بدا لهم أن تجاديف الفجار وسخريتهم الجريئة كانت برهانا آخر على أن روح الله قد انسحب بعيدا من رافضي رحمته. كل هذا ثبت اعتقادهم أن الاختبار (أو زمن النعمة) قد انتهى أو، كما عبروا عنه، « إن باب الرحمة قد اغلق ».

لكن نورا أوضح أشرق عليهم عند فحص مسألة القدس. فلقد رأوا الآن أنهم كانوا على صواب في اعتقادهم أن نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم في عام ١٨٤٤ حدّدت أزمة مهمة. فمع أنه كان صحيحا أن باب الرجاء والرحمة، الذي ظل الناس طوال ١٨٠٠ سنة يستطيعون بواسطته أن يجدوا طريقا للإتيان إلى الله قد

أغلق، فقد فتح باب آخر وقدم إلى الناس غفران لخطاياهم بشفاعة المسيح في قدس الأقداس. لقد انتهى جزء من خدمته لكي يعطي المجال لجزء آخر. كان لا يزال يوجد « باب مفتوح » إلى القدس السماوي حيث كان المسيح يخدم لأجل الخاطئ.

وقد وجد حينئذ تطبيق قول المسيح في سفر الرؤيا الذي به يخاطب الكنيسة في عصرنا الراهن إذ يقول: « هَذَا يَقُولُهُ الْقُدُّوسُ الْحَقُّ، الَّذِي لَهُ مَفْتَا حُ دَاوُدَ، الَّذِي يَفْتَحُ وَلَا أَحَدٌ يُغْلِقُ، وَيُغْلِقُ وَلَا أَحَدٌ يَفْتَحُ: أَنَا عَارِفُ أَعْمَالِكَ. هَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ » (رؤيا ٣: ٧، ٨).

إن الذين بالإيمان يتبعون يسوع في عمل الكفارة العظيم هم الذين يستفيدون من وساطته لأجلهم، بينما الذين يرفضون النور الذي يكشف عن عمل هذه الخدمة لا يستفيدون منها. إن اليهود الذين رفضوا النور المعطى لهم عند مجيء الأول للمسيح، ورفضوا الإيمان به كمخلص العالم لم يستطيعوا نوال الغفران بواسطته. وعندما دخل يسوع بدمه إلى القدس السماوي عند صعوده ليسكب على تلاميذه بركات وساطته ترك اليهود للظلمة الشاملة المدلهمة ليدوموا على تقديم ذبائحهم وقربانهم التي لا جدوى منها. لقد انتهت خدمة الرموز والظلال. فذلك الباب الذي وجد الناس بواسطته قديما طريقا للدنو من الله لم يعد مفتوحا. لقد رفض اليهود أن يطلبوا الرب بالوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن يوجد بها حينئذ عن طريق الخدمة في القدس السماوي. ولذلك لم يجدوا شركة مع الله. لقد كان الباب موصدا أمامهم. فلم تكن لهم معرفة بالمسيح كالذبيحة الحقيقية والوسيط الوحيد أمام الله، ولهذا لم يستطيعوا أن يتمتعوا بفوائد وساطته.

إن حالة اليهود غير المؤمنين تصور لنا حالة العديمي الاكتراث والعديمي الإيمان بين المعترفين بالمسيح الذين يصرون على البقاء في جهلهم عمل رئيس كهنتنا الرحيم. وفي الخدمة الرمزية عندما كان رئيس الكهنة يدخل قدس الأقداس كان يطلب من جميع إسرائيل أن يجتمعوا حول القدس وبكل وقار مقدس يذلون أنفسهم أمام الله لكي ينالوا غفرانا لخطاياهم ولا يقطعون من بين الجماعة. فكم بالأحرى يليق بنا وكم هو جوهري لنا في يوم الكفارة المرموز إليه أن ندرك عمل رئيس كهنتنا الأعظم ونعرف الواجبات المطلوبة منا.

إن الناس لا يمكنهم أن يرفضوا إنذار الله الذي يرسله إليهم في رحمته من دون أن يعاقبوا. لقد قدمت رسالة من السماء إلى العالم في أيام نوح، وكان خلاصهم متوقفا على الكيفية التي بها يتجاوبون مع تلك الرسالة. فلأنهم رفضوا الإنذار انسحب روح الله بعيدا من الجنس الخاطئ فهلكوا بمياه الطوفان. وفي عهد إبراهيم كفت الرحمة عن التوسل إلى سكان سدوم الأثمة، وهلك الجميع محترقين بالنار التي أمطرتها عليهم السماء ما عدا لوط وامراته وابنتيه. كذلك في عهد المسيح. لقد أعلن ابن الله لليهود غير المؤمنين في ذلك الجيل قائلا لهم: « هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا » (متى ٢٣: ٣٨). فلدى التطلع عبر الأجيال إلى الأيام الأخيرة تعلن قدرة الله غير المحدودة عن الذين « لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا » قائلة: « لِأَجْلِ هَذَا سَيُرْسَلُ إِلَيْهِمُ اللَّهُ عَمَلُ الضَّلَالِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ، لِكَيْ يُدَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ، بَلْ سُرُوا بِالْإِثْمِ » (٢ تسالونيكي ٢: ١٠-١٢). فإذ

يرفضون تعاليم كلمته فالله سيسحب منهم روحه ويتركهم للضلال الذي قد أحبوه. لكنّ المسيح لا يزال يتوسط لأجل الإنسان وسيعطي النور لمن يطلبونه. ومع أن المجيئين لم يفهموا هذا أولاً فقد اتضح لهم في ما بعد عندما وضحت لهم الأقوال الإلهية التي تحدد موقفهم الحقيقي. إن مرور الزمن في عام ١٨٤٤ تبعته فترة محنة عظيمة للذين ظلوا متمسكين بعقيدة المجيء. والشيء الوحيد الذي خفف عنهم وأراحهم في ما يختص بموقفهم الحقيقي كان النور الذي ارشد عقولهم إلى القدس السماوي. وقد هجر البعض إيمانهم بحسبانهم السابق للفترات النبوية ونسبوا التأثير القوي لعمل الرُّوح القدس الذي رافق حركة المجيء إلى عوامل بشرية أو شيطانية. لكنّ فريقاً آخر ثبتوا على الاعتقاد بأن الرب كان مرشداً لهم في اختبارهم السابق. وعندما انتظروا ساهرين ومصلين في طلب معرفة إرادة الله رأوا أن رئيس كهنتهم العظيم قد شرع في عمل خدمة آخر، واذ اتبعوه بالإيمان قادهم ذلك إلى أن يروا أيضاً عمل الكنيسة النهائي. وقد صار لهم إدراك أوضح لرسالة كل من الملاكين الأول والثاني وباتوا مستعدين لقبول الإنذار الخطير المتضمن في رسالة الملاك الثالث المذكورة في رؤيا ١٤، وتقديمه إلى العالم.

٢٥ - دوام شريعة الله

« وَأَنْفَتَحَ هَيْكَلُ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ، وَظَهَرَ تَابُوتُ عَهْدِهِ فِي هَيْكَلِهِ » (رؤيا ١١: ١٩). إن تابوت عهد الله هو في قدس الأقداس الذي هو المسكن الثاني في القُدس. ففي خدمة المسكن الأرضي الذي كان « شَبَهَ السَّمَاوِيَّاتِ وَظَلَّهَا » (عبرانيين ٨: ٥) انفتح هذا المسكن فقط في يوم الكفارة العظيم لأجل تطهير القُدس. لذلك فالإعلان القائل بأن هيكَلُ الله انفتح في السماء وظهر تابوت عهده إنما يشير إلى فتح قدس أقداس القُدس السماوي في عام ١٨٤٤ عندما دخله المسيح لممارسة عمل الكفارة الختامي. فالذين بالإيمان اتبعوا رئيس كهنتهم العظيم عندما دخل قدس الأقداس لمباشرة خدمته رأوا تابوت عهده. وبما أنهم كانوا قد درسوا موضوع القُدس فقد أدركوا تغيير خدمة المخلص، ورأوا أنه كان الآن يخدم أمام تابوت الله متوسلا لأجل الخطأة باستحقاق دمه.

كان التابوت في المسكن الأرضي يحوي لوحَي الحجر اللذين كانت وصايا شريعة الله مكتوبة عليهما. فالتابوت كان مجرد مستودع للوَحْيِ الشريعة، وكان وجود هذه الوصايا الإلهية هو الذي أضفى عليه قيمته وقُدسيته. وعندما انفتح هيكَلُ الله في السماء ظهر تابوت عهده. ففي داخل قدس الأقداس في القُدس السماوي تُحَفَظُ شريعة الله بكل قدسية وإكرام، الشريعة التي تكلم بها الله نفسه من وسط رعود سيناء وكتبها بأصبعه على لوحَي الحجر.

إن شريعة الله في القُدس السماوي هي الأصل العظيم التي كانت الوصايا المكتوبة على لوحَي الحجر والتي دَوَّنَهَا موسى في الأسفار الخمسة الأولى من الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ صورة طبق الأصل عنها. والذين توصلوا إلى إدراك هذه النقطة المهمة قادهم ذلك إلى أن يروا الصفة المقدسة غير المتغيرة للشريعة الإلهية. وقد رأوا كما لم يروا من قبل قوة كلام المسيح حين قال: « إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نَقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ » (متى ٥: ١٨). إن شريعة الله إذ هي إعلان لمشيئته وصورة لصفاته ينبغي أن تبقى إلى الأبد « كَشَاهِدٍ أَمِينٍ فِي السَّمَاءِ ». ولم تلغ وصية واحدة ولا تغيير حرف أو نقطة منها. وصاحب المزامير يقول: « إِلَى الْأَبَدِ يَا رَبُّ كَلِمَتُكَ مُثَبَّتَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ ». « كُلُّ وَصَايَاهُ أَمِينَةٌ. ثَابِتَةٌ مَدَى الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ » (مزور ١١٩: ٨٩، ١١١: ٧، ٨).

في قلب الوصايا العشر تبرز الوصية الرابعة كما قد أعلنت من البدء: « اذْكُرْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَعْمَلُ وَتَصْنَعُ جَمِيعَ عَمَلِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبَّتٌ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ. لَا تَصْنَعْ عَمَلًا مَا أَنْتَ وَأَبْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَبَهِيمَتُكَ وَزَيْلُكَ الَّذِي دَاخَلَ أَبْوَابَكَ. لَأنَّ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَحَّ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لِذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ » (خروج ٢٠: ٨-١١).

إن روح الله قد عمل في قلوب تلاميذ كلمته أولئك، فأجبروا على الاقتناع بأنهم في جهلهم قد تعدوا هذه الوصية بعدم حفظ يوم راحة الخالق. فبدأوا يفحصون أسباب حفظ اليوم الأول من الأسبوع بدلا من اليوم الذي قدسه الله. ولم يستطيعوا أن يجدوا في الكتاب برهانا على أن الوصية الرابعة قد ألغيت أو أن يوم السبت قد تغير، والبركة التي بها قدس اليوم السابع لم تُزل ولا أبطلت. كانوا بكل أمانة يطلبون أن يعرفوا إرادة الله ويعملوها، فإذا رأوا الآن أنهم كانوا متعددين شريعته ملأ

الحزن قلوبهم وأعلنوا ولاءهم لله بحفظ سبته المقدس.

سر المقاومة

وقد بذلت جهود كثيرة وجادة لهدم إيمانهم، ولم يكن لأحد إلا أن يفهم أنه إذا كان القدس الأرضي صورة ومثالا للسمائي فالشريعة المحفوظة في التابوت على الأرض هي صورة طبق الأصل عن الشريعة التي في التابوت في السماء، وأن قبول الحق الخاص بالقدس السماوي يتضمن اعترافا بمطالب شريعة الله والالتزام بحفظ السبب المذكور في الوصية الرابعة. هنا كان سر المقاومة المرة التي لا تلين للتفسير المنسجم المتناسق للأقوال الإلهية التي أبانت خدمة المسيح في القدس السماوي. لقد حاول الناس أن يغلقوا الباب الذي فتحه الله وأن يفتحوا الباب الذي أغلقه. لكن ذلك « الَّذِي لَهُ مَفْتَا حُ دَاوُدَ، الَّذِي يَفْتَحُ وَلَا أَحَدٌ يُغْلِقُ، وَيُغْلِقُ وَلَا أَحَدٌ يَفْتَحُ » قد أعلن قائلا: « هَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ » (رؤيا ٣: ٧، ٨). لقد فتح المسيح الباب أو خدمة قدس الأقداس وكان النور يشرق من ذلك الباب المفتوح في القدس في السماء، وقد تبرهن أن الوصية الرابعة متضمنة في الشريعة التي كانت محفوظة هناك، وما بناه الله لا يستطيع الإنسان أن يهدمه.

وقد وجد الذين قبلوا النور الخاص بوساطة المسيح ودوام شريعة الله أن هذه كانت الحقائق المقدمة في رؤيا ١٤. إن رسائل هذا الأصحاب تكون إنذاراً مثلثاً (انظر التذييل) لإعداد ساكني الأرض للمجيء الثاني للرب. فالإعلان القائل « قد جاءت ساعة دينوته » يشير إلى العمل الختامي لخدمة المسيح لأجل خلاص الناس. وهو ينادي بالحق الذي ينبغي إعلانه إلى أن تنتهي شفاعته المخلص ويعود إلى الأرض ليأخذ شعبه لنفسه. فعمل الدينونة الذي بدأ في عام ١٨٤٤ ينبغي أن يستمر حتى يتقرر مصير الجميع، الأحياء منهم والأموات، ولهذا فهو سيستمر إلى نهاية زمن النعمة المقدم إلى البشر. فلكي يتأهب الناس للثبات في الدينونة تأمرهم الرسالة قائلا: « خَافُوا اللَّهَ وَأَعْطَوْهُ مَجْدًا ». واسجدوا لصانع السماء والأرض والبحر ونبايح المياه ». ونتيجة قبول هذه الرسالة مبينة في القول: « هنا الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع ». فلكي يتأهب الناس للدينونة يتعين عليهم أن يحفظوا شريعة الله. فتلك الشريعة ستكون هي مقياس الخلق في الدينونة. والرسول بولس يعلن قائلا: « كُلُّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ. وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي النَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانَ ... فِي الْيَوْمِ الَّذِي فِيهِ يَدِينُ اللَّهُ سَرَائِرَ النَّاسِ... بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ » كما يقول أيضاً: « الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّامُوسِ هُمْ يُبْرَرُونَ » (رومية ٢: ١٢-١٦). فالإيمان جوهرى لأجل حفظ شريعة الله، إذ « بِدُونِ إِيمَانٍ لَا يُمْكِنُ إِرْضَاؤُهُ » و « وَكُلُّ مَا لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ فَهُوَ خَطِيئَةٌ » (عبرانيين ١١: ٦؛ رومية ١٤: ٢٣).

يدعو الملاك الأول الناس لأن « يخافوا الله ويعطوه مجدا » ويسجدوا له لكونه خالق السماوات والأرض. فلكي يفعلوا هذا عليهم أن يطيعوا شريعته. يقول الحكيم: « اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو (واجب) الإنسان كله » (جامعة ١٢: ١٣). فمن دون إطاعة وصايا الله لا يمكن للسجود أن يكون مرضيا له. « هَذِهِ هِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ: أَنْ نَحْفَظَ وَصَايَاهُ. وَوَصَايَاهُ لَيْسَتْ ثَقِيلَةً ». « مَنْ يُحَوِّلُ أذُنَهُ

عَنْ سَمَاعِ الشَّرِيعَةِ، فَصَلَاتُهُ أَيْضاً مَكْرَهَةً « (١ يوحنا ٥: ٣؛ أمثال ٢٨: ٩).

دعوة إلى عبادة الخالق

إن واجب السجود لله مبني على حقيقة كونه هو الخالق وإن كل الخلائق الأخرى مدينة بوجودها له. وفي كل موضع في الكتاب حيث يطلب من الناس تقديم الإكرام والسجود إليه من دون كل آلهة الوثنيين يُرى برهان قدرته كخالق: «لأنَّ كُلَّ آلِهَةِ الشُّعُوبِ أَصْنَامٌ، أَمَّا الرَّبُّ فَقَدْ صَنَعَ السَّمَاوَاتِ» (مزمور ٩٦: ٥). «فَبِمَنْ تُشَبِّهُونَنِي فَأُسَاوِيهِ؟» يَقُولُ الْقُدُّوسُ. اِرْفَعُوا إِلَى الْعَلَاءِ عُيُونَكُمْ وَاَنْظُرُوا، مَنْ خَلَقَ هَذِهِ؟». «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «خَالِقِ السَّمَاوَاتِ هُوَ اللَّهُ. مُصَوِّرِ الْأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلًا. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ» (إشعياء ٤٠: ٢٥، ٢٦؛ ٤٥: ١٨). وصاحب المزامير يقول: «اعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللَّهُ. هُوَ صَنَعَنَا، وَلَهُ نَحْنُ شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرْعَاهُ». «هَلُمَّ نَسْجُدْ وَتَرَكَّعْ وَجَنُتْ أَمَامَ الرَّبِّ خَالِقِنَا» (مزمور ١٠٠: ٣؛ ٩٥: ٦). والخلائق المقدسة الذين يسجدون لله في السماء يذكرون سبب ولائهم له بقولهم: «أَنْتَ مُسْتَحِقُّ أَيَّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لِأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ» (رؤيا ٤: ١١).

وفي رؤيا ١٤ يطلب من الناس أن يسجدوا للخالق. والنبوة ترينا جماعة من الناس الذين نتيجة للرسالة المثلثة يحفظون وصايا الله. وإحدى هذه الوصايا (الرابعة) تشير مباشرة إلى الله الخالق إذ تقول: «وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتُ لِلرَّبِّ إِلَهِكَ... لأن في سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا، وَاسْتَرَحَّ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. لَذَلِكَ بَارَكَ الرَّبُّ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَدَّسَهُ» (خروج ٢٠: ١١، ١٠). زد على هذا قول الرب عن السبت إنه: «عَلَامَةٌ... لَتَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ» (حزقيال ٢٠: ٢٠). والسبب المقدم هو هذا: «لأنَّه فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ اسْتَرَحَّ وَتَنَفَّسَ» (خروج ٣١: ١٧).

«إن أهمية السبت على أنه تذكاري للخلق هي كونه يذكركنا دائما بالسبب الحقيقي للعبادة اللائقة بالله»: لأنه هو الخالق ونحن خلأته. «لذلك فالسبت هو في أساس العبادة لله لأنه يعلم هذا الحق العظيم بأعظم طريقة مؤثرة. ولا يوجد تشريع آخر أو نظام يفعل هذا. يكمن الأساس الحقيقي لكل أنواع عبادة الله، بما فيها حفظ يوم السبت، في التمييز بين الخالق وخلأته. هذه الحقيقة العظيمة لا يمكن أن تصبح عقيمة، وينبغي ألا تُنسى إطلاقاً» (٣٤٤). فلكي تكون هذه الحقيقة ماثلة أبداً أمام أذهان الناس سن الله شريعة السبت في جنة عدن. وطالما ظلت حقيقة كونه خالقنا سبباً يوجب عبادتنا إياه يظل السبت علامة له ومذكراً به. ولو كان جميع الناس يحفظون السبت لكانت أفكارهم وعواطفهم تنعطف إلى الخالق كموضوع للإكرام والعبادة، ولما وُجد عابد وثن أو كافر أو ملحد. إن حفظ السبت علامة من علامات الولاء للإله الحقيقي «الذي صنع السماء والأرض والبحر وينابيع المياه». ويتبع ذلك أن الرسالة التي تأمر الناس بالسجود لله وحفظ وصاياه تأمرهم على الخصوص بحفظ الوصية الرابعة.

وعلى عكس أولئك الذين يحفظون وصايا الله وعندهم إيمان يسوع يشير الملاك الثالث إلى فريق

آخر ناطقا بإنذار خطير ومخيف ضد أخطائهم وضلالتهم، فيقول: « إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ، وَيَقْبَلُ سَمَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ، فَهُوَ أَيْضاً سَيَشْرَبُ مِنْ خَمَرِ غَضَبِ اللَّهِ » (رؤيا ١٤: ٩ و ١٠). فلكي نفهم هذه الرسالة يتعين علينا أن نفسر الرموز المستعملة تفسيرا صحيحا. فما الذي يرمز إليه الوحش والصورة والسمة؟

ماهية التنين

يبدأ وصف النبوة الذي فيه توجد هذه الرموز في الأصحاح الثاني عشر من سفر الرؤيا بالتنين الذي طلب أن يهلك المسيح عند ولادته. والتنين يقال عنه أنه الشيطان (رؤيا ١٢: ٩). فهو الذي حرّض هيرودس على قتل المخلص. لكن وسيلة الشيطان العظمى في محاربته للمسيح وشعبه في غضون القرون الأولى من التاريخ المسيحي كانت هي الإمبراطورية الرومانية التي كانت الوثنية فيها هي الديانة السائدة. وهكذا ففي حين أن التنين يرمز مبدئيا إلى الشيطان فإنه بالمعنى الثاني رمز إلى روما الوثنية.

وفي الأصحاح الثالث عشر (الأعداد ١-١٠) وصف لوحش آخر « شبه نمر » وقد أعطاه التنين « قدرته وعرشه وسلطانا عظيما ». هذا الرمز، كما اعتقد غالبية البروتستانت، يرمز إلى البابوية التي ارتقت إلى القدرة والعرش والسلطان الذي كان قبلا للإمبراطورية الرومانية القديمة. وقد أعلن عن هذا الوحش الشبيه بالنمر أنه « أُعْطِيَ فَمَا يَتَكَلَّمُ بِعِظَائِمٍ وَتَجَادِيفٍ ... فَفَتَحَ فَمَهُ بِالتَّجْدِيفِ عَلَى اللَّهِ لِيَجْدِفَ عَلَى اسْمِهِ وَعَلَى مَسْكَنِهِ وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي السَّمَاءِ. وَأُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقَدِيسِينَ وَيَغْلِبَهُمْ. وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَأَمَةً ». هذه النبوة التي هي مطابقة تقريبا للوصف الذي جاء عن القرن الصغير الوارد في دانيال ٧ تشير بلا شك إلى البابوية.

« وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا أَنْ يَفْعَلَ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ شَهْرًا ». ثم يقول النبي: « وَرَأَيْتُ وَاحِدًا مِنْ رُؤُوسِهِ كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ » ثم يقول أيضا: « إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَجْمَعُ سَبِيًّا فَإِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُ. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَقْتُلُ بِالسَّيْفِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَقْتُلَ بِالسَّيْفِ ». إن الاثنين والأربعين شهرا تساوي تماما « الزمان والزمانين ونصف الزمان »، ثلاث سنين ونصف أو ١٢٦٠ يوما المذكورة في سفر دانيال ٧، وهو الزمن الذي كان السلطان البابوي سيضطهد فيه شعب الله. هذه الفترة بدأت عندما سادت البابوية كما قد تبين لنا من الفصول السابقة، أي في عام ٥٣٨ م، وانتهت في عام ١٧٩٨ م عندما أخذ البابا أسيرا عند الجيش الفرنسي. لقد جرح السلطان البابوي جرحا مميتا وبذلك تمت النبوة القائلة: « إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَجْمَعُ سَبِيًّا فَإِلَى السَّبْيِ يَذْهَبُ ».

قيام قوة جديدة

عند هذا الحد يُقَدَّمُ إلينا رمز آخر، إذ يقول النبي: « ثُمَّ رَأَيْتُ وَحْشًا آخَرَ طَالَعًا مِنَ الْأَرْضِ وَكَانَ لَهُ قَرْنَانِ شَبَهَ خُرُوفٍ » (العدد ١١). إن منظر هذا الوحش والطريقة التي بها طلع تدلان على أن الأمة التي يرمز إليها تختلف عن تلك التي تقدمها الرموز السابقة. فالممالك العظيمة التي حكمت في العالم ظهرت لدانيال النبي بصورة وحوش مفترسة طالعة عندما هجمت « أَرْبَعُ رِيَّاحِ السَّمَاءِ » على

« الْبَحْرُ الْكَبِيرُ » (دانيال ٧: ٢). وفي الأصحاح السابع عشر من سفر الرؤيا فسر أحد الملائكة المياه كرمز إلى « شَعُوبٌ وَجُمُوعٌ وَأُمَمٌ وَالسَّنَةُ » (رؤيا ١٧: ١٥). والرياح رمز إلى النزاع والحرب. وهجوم أربع رياح السماء على البحر الكبير يرمز إلى المناظر المرعبة، مناظر الغزو والثورات التي بواسطتها وصلت الممالك إلى قمة السطوة والسلطان.

لكنّ الوحش الشبيه بالخروف ظهر « خارجاً من الأرض ». فبدلاً من أن يهدم قوات أخرى ليثبت نفسه وسلطانه فالأمة التي يرمز إليها الخروف ينبغي أن تطلع في إقليم لم يحتله أحد من قبل وتتمو تدريجاً في سلام. إذاً فلم يكن يمكنها أن تطلع بين القوميات المزدحمة المتصارعة في العالم القديم، ذلك البحر الهائج الثائر « بالشعوب والجموع والأمم والألسنة »، بل ينبغي البحث عنه في القارة الغربية.

فما هي تلك الأمة التي في الدنيا الجديدة أخذت في عام ١٧٩٨ تتقوى وتحصل على سلطان وتبشر بالقوة والعظمة وتجتذب انتباه العالم؟ إن تطبيق الرموز لا يعطي مجالاً للتساؤل. إن أمة واحدة من دون سواها هي التي تنطبق عليها تحديدات هذه النبوة التي تشير إشارة صائبة لا تخطئ إلى الولايات المتحدة الأمريكية. فمراراً عديدة استخدم الخطباء والمؤرخون، على نحو لا شعوري، فكر كاتب الوحي بل غالباً كلماته نفسها لوصف نشوء هذه الأمة ونموها. لقد ظهر الوحش « طالعا من الأرض »، وحسب ما يقوله المفسرون، نجد أن معنى كلمة « طالعا » الحرفي هو « إن ينبت أو ينمو كالنبات ». فتلك الأمة كما قد رأينا كان ينبغي أن تنمو في إقليم لم يسكنه أحد من قبل. إن كاتباً شهيراً يصف قيام الولايات المتحدة ويقول عن « سر انبثاقها من الفراغ » (٣٤٥): « كبذرة ساكنة نمونا حتى صرنا إمبراطورية ». وفي عام ١٨٥٠ كتبت صحيفة أوروبية عن الولايات المتحدة أنها إمبراطورية مدهشة كانت « طالعة »، « وفي وسط سكون الأرض كانت كل يوم تزيد من قوتها وكبريائها » (٣٤٦). وفي خطاب القاه إدوارد إيفريت عن المهاجرين الذين أنشأوا هذه الأمة قال: « هل كانوا يبحثون عن بقعة هادئة غير موحشة بسبب احتجاجها، وأمنة في بعدها حيث كان يمكن أن تتمتع كنيسة « ليدن » الصغيرة بحرية الضمير؟ انظروا الأقاليم العظيمة التي رفعوا عليها راية الصليب بالغزو السلمي...! » (٣٤٧).

« وله قرنان شبه خروف ». إن القرنين الشبيهين بقرني الخروف يدلان على الشباب والبراءة والرقّة واللفظ، وهو وصف يناسب أن يكون رمزا لصفة الولايات المتحدة عندما رآها النبي « طالعة » في عام ١٧٩٨. فلقد وُجد بين المنفيين من المسيحيين، الذين كانوا في طليعة من هربوا إلى أمريكا وطلبوا ملجأً يلوذون به من طغيان الملوك وتعصب رجال الكهنوت، كثيرون ممن عقدوا العزم على إقامة حكومة على أساس رحب من الحرية المدنية والدينية. وقد وجدت آراؤهم مجالاً لها في إعلان الاستقلال الذي يقرر الحقيقة العظمى وهي أن « جميع الناس مخلوقون سواسية » ولهم أعطي حق غير قابل للتصرف في « الحياة والحرية والسعي في أثر السعادة ». والدستور يضمن للشعب حق الحكم الذاتي على شرط أن الممثلين الذين يختارهم الشعب بطريقة التصويت يسنون القوانين ويطبّقونها. كما قد منحت للجميع أيضاً حرية العقيدة الدينية فسمح لكل إنسان بأن يعبد الله

بموجب ما يمليه عليه ضميره. وقد صار النظام الجمهوري والعقيدة البروتستانتية من مبادئ الأمة الأساسية. وهذه المبادئ هي سر قوتها ونجاحها. فلقد توجه المضطهدون والمضطهقون في كل أنحاء العالم المسيحي صوب هذه البلاد باهتمام ورجاء. وقصد شواطئ هذه القارة الجديدة ملايين من الناس فنهضت الولايات المتحدة إلى مركز مرموق بين أقوى أمم الأرض.

لكن الوحش الذي كان « لَهُ قَرْنَانِ شَبُهُ خُرُوفٍ » « كَانَ يَتَكَلَّمُ كَتْنَيْنِ، وَيَعْمَلُ بِكُلِّ سُلْطَانِ الْوَحْشِ الْأَوَّلِ أَمَامَهُ، وَيَجْعَلُ الْأَرْضَ وَالسَّائِكِينَ فِيهَا يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ الْأَوَّلِ الَّذِي شَفِيَ جُرْحُهُ الْمَمِيتُ... قَائِلًا لِلْسَّائِكِينَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَصْنَعُوا صُورَةً لِلْوَحْشِ الَّذِي كَانَ بِهِ جُرْحُ السَّيْفِ وَعَاشَ » (رؤيا ١٣: ١١-١٤).

تناقض مذهل

يشير القرنان الشبيهان بقرني الخروف والصوت الشبيه بصوت التنين في الرمز إلى تناقض مدهش بين اعترافات الأمة المرموز إليها وأعمالها. إن « تكلم » الأمة هو عمل سلطاتها التشريعية والقضائية. فبهذا العمل ستُكذَّب كل تلك المبادئ السخية السلمية التي أذاعت بأنها أساس سياستها. فالنبوة القائلة أن هذا الوحش سيتكلم « كتنين » ويعمل « بكل سلطان الوحش الأول » تنبئ بجلاء عن نمو روح التعصب والجنوح إلى الاضطهاد الذي أظهرته الأمم التي يرمز إليها التنين والوحش الشبيه بالنمر. والحقيقة القائلة أن الوحش الذي له القرنان « يجعل الأرض والسائكين فيها يسجدون للوحش الأول » تدل على أن سلطان هذه الأمة سيستخدم في إرغام الناس على القيام ببعض الممارسات التي ستكون عملاً من أعمال الولاء للبابوية.

مثل هذا العمل سيناقض مناقضة مباشرة مبادئ هذه الحكومة، ويتناقض مع عبقرية نظمها الحرة ومع اعترافات إعلان الاستقلال المباشرة الحازمة ومع الدستور أيضاً. لقد حرص مؤسسو هذه الأمة، بحكمة، على ألا يستخدموا القوة الدنيوية لمعاوضة الكنيسة، بما ينجم عنها من نتائج لا بد منها: التعصب والاضطهاد. وينص الدستور على هذه المادة فيقول: « لن يضع الكونغرس قانوناً خاصاً بتثبيت أي دين، ولن يمنع حرية ممارسته » وأنه « لن يوضع اختبار ديني بموجبه يؤهل أي إنسان لمنصب عام ذي مسؤولية في الولايات المتحدة ». إنما فقط عندما يحدث انتهاك فظيع لهذه القوانين الواقية لحرية الأمة يمكن للسلطات المدنية أن تفرض بعض الممارسات الدينية. لكن تناقض عمل كهذا ليس أعظم مما هو مصور في الرمز. إن الوحش الذي له قرنا خروف مع مجاهرته بإيمان طاهر ورقيق وعديم الأذى — هو الذي يتكلم كتنين.

« قَائِلًا لِلْسَّائِكِينَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَصْنَعُوا صُورَةً لِلْوَحْشِ ». هنا تُصوَّر بكل وضوح هيئة حكومة فيها تستند السلطة التشريعية على الشعب، وهذا برهان مدهش على أن الولايات المتحدة هي الأمة المقصودة بالذات في النبوة.

ولكن ما هي « صورة الوحش » وكيف تصوّر؟ الصورة يصنعها الوحش ذو القرنين وهي صورة للوحش الأول. وتدعى أيضاً صورة الوحش. فلكي نعلم ماذا تشبه الصورة وكيف تصوّر، علينا أن

ندرس صفات الوحش نفسه: البابوية.

عندما فسدت الكنيسة الأولى بانحرافها عن بساطة الإنجيل وقبولها الطقوس والعادات الوثنية خسرت وأضاعَت روح الله وقوته. فلكي تتحكم في ضمائر الناس طلبت مساندة السلطة الدنيوية. فنتج من ذلك البابوية، أي كنيسة تحت يدها سلطة الدولة التي تستخدمها لتنفيذ أغراضها وتحقيق أهدافها وعلى الخصوص إيقاع القصاص بمعتقدني « الهرطقة ». فلكي تصنع الولايات المتحدة صورة الوحش فعلى السلطة الدينية أن تسيطر على الحكومة المدنية بحيث تستخدم الكنيسة سلطة الدولة أيضاً في إتمام أغراضها.

وأيما ادعت الكنيسة لنفسها السلطة الدنيوية استخدمتها في معاقبة المنشقين على تعاليمها. والكنايس البروتستانتية التي سارت في أثر خطوات روما بإبرام محالفات مع السلطات الدنيوية أبدت رغبة مماثلة في كبت حرية الضمير. ولنا مثال على ذلك في الاضطهاد الطويل الأمد الذي أوقعته كنيسة بريطانيا بالمنشقين. ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر أرغم آلاف من الخدام المنشقين على ترك كنائسهم، وكثيرون من الرعاة ومن الشعب تعرضوا للغرامات والسجن والتعذيب والاستشهاد.

الارتداد يعد الطريق

إن الارتداد هو الذي ساق الكنيسة الأولى إلى طلب معونة الحكومة المدنية، وهذا أعد الطريق لازدهار البابوية — الوحش. لقد قال بولس: « يَأْتِ الارتدادُ... وَيُسْتَعْلَنُ إِنْسَانُ الْخَطِيئَةِ » (٢ تسالونيكي ٢: ٣). وهكذا فإن الارتداد في الكنيسة سيهيئ الطريق لصورة الوحش.

يعلن الكتاب أنه قبل مجيء الرب ستوجد حالة انحطاط ديني شبيهة بتلك التي كانت في القرون الأولى: « في الأيام الأخيرة سَتَأْتِي أَزْمَنَةٌ صَعْبَةٌ، لَأَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ مُحِبِّينَ لَأَنْفُسِهِمْ، مُحِبِّينَ لِلْمَالِ، مُتَعَطِّمِينَ، مُسْتَكْبِرِينَ، مُجَدِّفِينَ، غَيْرَ طَائِعِينَ لَوَالِدِهِمْ، غَيْرَ شَاكِرِينَ، دَنَسِينَ، بَلَا حُنُوٍّ، بَلَا رِضَى، ثَالِبِينَ، عَدِيمِي النَّزَاهَةِ، شَرَسِينَ، غَيْرَ مُحِبِّينَ لِلصَّالِحِ، خَائِنِينَ، مُقْتَحِمِينَ، مُتَصَلِّفِينَ، مُحِبِّينَ لِلذَّاتِ دُونَ مَحَبَّةِ لِلَّهِ، لَهُمْ صُورَةُ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُمْ مُنْكَرُونَ قُوَّتَهَا »

(٢ تيموثاوس ٣: ١-٥). « وَلَكِنَّ الرُّوحَ يَقُولُ صَرِيحًا: إِنَّهُ فِي الْأَزْمَنَةِ الْآخِرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الْإِيمَانِ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضَلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيَاطِينٍ » (١ تيموثاوس ٤: ١). « إِنَّ الشَّيْطَانَ سَيَعْمَلُ « بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ وَبِكُلِّ خَدِيعَةِ الْإِثْمِ ». وَكُلُّ مَنْ « لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا » سَيَتَرَكُونَ لِيَقْبَلُوا « عَمَلُ الضَّلَالِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكُذْبَ » (٢ تسالونيكي ٢: ٩-١١). فعندما يصل الناس إلى حالة الكفر والضلال هذه فستتبع ذلك النتائج نفسها التي حدثت في القرون الأولى.

يعتبر كثيرون أن الاختلاف الكبير في العقيدة في الكنايس البروتستانتية برهان قاطع على أنه لا يمكن بذل أي مسعى لفرض الوحدة على تلك الكنائس. ولكن وُجد، مدى سنين كثيرة، ميل متزايد وقوي في الكنائس التي تعتنق العقيدة البروتستانتية إلى الوحدة مبني على المشابهة في العقائد. فلكي يتحقق هذا الاتحاد فإن المجادلة في المواضيع المختلف عليها — مهما يكن مبلغ أهميتها من

وجهة النظر الكتابية — ينبغي بالضرورة التنازل عنها.

لقد أعلن تشارلس بيتشر في عظة ألقاها في عام ١٨٤٦ قائلاً إن خدمة « الطوائف الإنجيلية البروتستانتية فضلاً عن كونها مكونة على طول الخط تحت ضغط هائل من مجرد خشية الناس فإن أفرادها يعيشون ويتحركون ويتنفسون في أحوال فاسدة في جوهرها وفي كل ساعة يستنجدون بكل عنصر سافل في طبيعتهم ليحكم صوت الحق وينحني ساجداً أمام قوة الارتداد. أفلم تكن هذه هي الطريقة التي سارت عليها الأمور في روما؟ ألسنا نعيش حياتها من جديد؟ وما الذي نراه أمامنا؟ جمعية عمومية أخرى! مؤتمراً للعالم! حلفاً إنكليزياً وعقيدة شاملة! » (٣٤٨). ومتى تم هذا ففي محاولة للوصول إلى الاتحاد الكامل سيكون ذلك إذاً خطوة نحو الالتجاء إلى القوة والعنف. عندما تتحد أمهات الكنائس في الولايات المتحدة في اتفاقها على مواد العقيدة التي تشترك كلها فيها فهي تؤثر على الدولة لتنفيذ قراراتها وتسد وتدعم أنظمتها وقوانينها فتكون أمريكا البروتستانتية قد عملت بذلك صورة لحكومة روما البابوية، وسيكون من نتائج ذلك حتماً أنها توقع عقوبات دنيوية على المنشقين.

الوحش وصورته

إن الوحش ذا القرنين « يَجْعَلُ الْجَمِيعَ: الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ، وَالْأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ، وَالْأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ، تُصْنَعُ لَهُمْ سَمَةٌ عَلَى يَدِهِمُ الْيُمْنَى أَوْ عَلَى جَبْهَتِهِمْ، وَأَنْ لَا يَقْدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَشْتَرِيَ أَوْ يَبِيعَ، إِلَّا مَنْ لَهُ السَّمَةُ أَوْ اسْمُ الْوَحْشِ أَوْ عَدَدُ اسْمِهِ » (رؤيا ١٣: ١٦، ١٧). إن رسالة الملاك الثالث هي هذه: « إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ، وَيَقْبَلُ سَمَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ، فَهُوَ أَيْضاً سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرٍ غَضَبَ اللَّهِ ». (رؤيا ١٤: ٩، ١٠). إن « الوحش » المذكور في هذه الرسالة والذي يقوم الوحش ذو القرنين ويرغم الناس على السجود له هو الوحش الأول الذي يشبه النمر المذكور في رؤيا ١٣ — البابوية. « صورة الوحش » ترمز إلى صورة البروتستانتية المرتدة التي ستتكون عندما تطلب الكنائس البروتستانتية معونة السلطة المدنية لأجل إكراه الناس على قبول عقائدها. بقي علينا أن نحدد « سمة الوحش ».

بعدما قدم التحذير من السجود للوحش وصورته تعلن النبوة قائلة: « هنا الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع ». فيما أن الذين يحفظون وصايا الله هم على طرفي نقيض مع من يسجدون للوحش ولصورته ويقبلون سمته يُستنتج أن حفظ شريعة الله على الجانب الواحد ومخالفتها على الجانب الآخر هو ما يجعل فارقا بين عابدي الله وعابدي الوحش.

إن الصفات الخاصة المميزة للوحش وبالتالي لصورته هي نقض وصايا الله. يقول دانيال عن القرن الصغير، البابوية: « وَيُظَنُّ أَنَّهُ يُعَيِّرُ الْأَوْقَاتَ وَالسَّنَةَ » (دانيال ٧: ٢٥)، وبولس يلقب تلك القوة وذلك السلطان نفسيهما « إنسان الخطيئة » الذي كان سيرفع نفسه فوق الله. فكل من النبوتين مكملة للأخرى. والبابوية لم تستطع أن ترفع نفسها فوق الله إلا بتغييرها شريعة الله، وكل من يحفظ الشريعة بعد تغييرها وهو عالم بذلك سيعطي إكراما فائقا لذلك السلطان الذي أحدث هذا التغيير. مثل

هذه الطاعة للشرائع البابوية ستكون هي سمة الولاء للبابا بدلا من الله. لقد حاولت البابوية تغيير شريعة الله. فالوصية الثانية التي تنهي عن تقديم العبادة أو السجود للصور أو التماثيل حذفت من الشريعة، والوصية الرابعة غيرت بحيث رخص للناس بحفظ اليوم الأول بدلا من اليوم السابع، على أنه يوم الراحة أو السبت. لكن البابويين يقولون أن سبب حذفهم الوصية الثانية هو كونها غير ضرورية إذ أنها متضمنة في الأولى وإنهم إنما يقدمون الشريعة للناس تماما كما قصد الله أن تفهم. هذا لا يمكن أن يكون التغيير الذي أنبأ به النبي. ذلك أنهم يقدمون تغييرا متعمدا مقصودا: « يَظُنُّ أَنَّهُ يُعَيِّرُ الْأَوْقَاتِ » (دانيال ٧: ٢٥). وحده التغيير الذي طرأ على الوصية الرابعة يتمم النبوة بالتمام. فالسلطة الوحيدة المزعومة في هذا هي سلطة الكنيسة، وهنا جاهر السلطان البابوي بالتعالي على الله.

علامة قوة الخلق

ففي حين إن عابدي الله سيمتازون خصوصا بحفظهم للوصية الرابعة — لأن هذه هي رمز قدرته الخالقة وشهادة على حقه في إكرام الإنسان وولائه له — فإن عابدي الوحش سيتميزون بمحاولاتهم لتمزيق تذكارات الخالق لأجل رفع شريعة روما وتعظيمها. فلأجل يوم الأحد فرضت البابوية أولا مطالبتها المتعجرفة (انظر التذييل)، وكان التجاؤفا الأول إلى سلطان الدولة لإرغام الناس على حفظ يوم الأحد على أنه « يوم الرب ». لكن الكتاب يشير إلى اليوم السابع لا إلى اليوم الأول على أنه يوم الرب. فلقد قال المسيح: « ابْنُ الْإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضًا ». والوصية الرابعة تعلن قائلته: « أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك ». والرب يحدده على لسان إشعياء النبي بالقول: « يَوْمَ قُدْسِي » (مرقس ٢: ٢٨؛ إشعياء ٥٨: ١٣).

وإن الادعاء الذي كثيرا ما يرد على الأفواه والذي يقول أن المسيح قد غير السبت يكذبه ويدحضه كلام المسيح نفسه. ففي موعظته على الجبل يقول: « لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لَانْقُصَ النَّامُوسَ أَوِ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لَانْقُصَ بَلْ لِأَكْمِلَ. فَإِنِّي الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نَقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصَّغَرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا، يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مَنْ عَمَلَ وَعَلَّمَ، فَهَذَا يُدْعَى عَظِيمًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ » (متى ٥: ١٧-١٩).

إنها حقيقة يسلم بها البروتستانت إجمالا أن الكتاب المقدس لا يعطي أحدا سلطانا لتغيير السبت. هذا مبين بكل وضوح في منشورات وزعتها جمعية النبذ الأمريكية واتحاد مدارس الأحد الأمريكية. واحدى هذه النشرات تعترف « بصمت العهد الجديد المطبق حول إعطاء أمر قاطع عن يوم الراحة [الأحد، أول أيام الأسبوع] أو حول القواعد المحددة لحفظه » (٣٤٩). وهناك نشرة أخرى تقول: « لم يحدث تغيير في اليوم حتى وقت موت المسيح » (٣٥٠). « وعلى قدر ما ترينا شهادة الكتاب فإنهم (الرسول) لم... يقدموا أمرا قاطعا يفرض على المسيحيين هجر اليوم السابع — السبت — وحفظ اليوم الأول من أيام الأسبوع » (٣٥١).

يعترف اتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن كنيستهم هي التي غيرت يوم السبت ويعلنون أن حفظ البروتستانت يوم الأحد هو بمثابة اعتراف منهم بسلطانها. وفي كتاب « خلاصة العقيدة الكاثوليكية » للدين المسيحي نجد جوابا على السؤال عما هو اليوم الواجب حفظه إطاعة للوصية الرابعة، نجد هذه الحقيقة: « في عهد الناموس القديم كان يوم السبت هو اليوم المقدس، لكن الكنيسة كما قد علمها يسوع المسيح وبموجب توجيهات روح الله، أبدلت يوم السبت بيوم الأحد، ولذلك فنحن الآن نقدر اليوم الأول لا السابع. إن يوم الأحد معناه، كما هو الآن، يوم الرب ». وكرمز لسيادة الكنيسة الكاثوليكية يورد الكتاب البابويون « إن مجرد إبدال السبت بالأحد، الذي يسمح به البروتستانت... لأنهم بحفظهم ليوم الأحد يعترفون بسلطان الكنيسة في رسم الأعياد وفي إصدار أوامر ملزمة لهم تحت الخطيئة » (٣٥٢). إذاً فما إبدال السبت إلا أن يكون علامة أو سمة لسيادة كنيسة روما، « سمة الوحش؟ ».

ادعاء السيادة

لم تنتج كنيسة روما بعد عن ادعائها السيادة، وعندما يقبل العالم والكنائس البروتستانتية يوما للراحة والعبادة من صنعها فيما هم يرفضون يوم السبت الذي فرضه الكتاب، فإنهم في الواقع يعترفون بصدق ادعائها هذا. قد يدعون أن سلطة التقليد وأقوال الآباء هي سندهم في هذا الاستبدال، ولكنهم بهذا يتجاهلون المبدأ نفسه الذي يفصلهم عن روما: إن « الكتاب المقدس والكتاب المقدس وحده هو دين البروتستانت ». يستطيع البابوي أن يرى أنهم إنما يخدعون أنفسهم وأنهم بإرادتهم يغمضون عيونهم عن رؤية الحقائق في هذه القضية. فإذا يجد إرغماهم الناس على حفظ يوم الأحد قبولاً فإن ذلك الكاثوليكي يفرح إذ يشعر أن ذلك سيجعل جميع العالم البروتستانتى ينضوون في النهاية تحت راية روما.

يعلن البابويون أن « حفظ البروتستانت يوم الأحد هو ولاء يقدمونه رغما عنهم لسيادة الكنيسة الكاثوليكية » (٣٥٣). إن إرغام الكنائس البروتستانتية على حفظ يوم الأحد هو إرغام لها على عبادة البابوية — الوحش. وأولئك الذين مع علمهم بمطالب الوصية الرابعة يختارون حفظ السبت الزائف بدل الحقيقي إنما يقدمون ولاءهم للسلطان الذي أمر به من دون سواه. ولكن في هذا العمل نفسه الذي فيه تفرض سلطة دنيوية واجبا دينيا تصنع الكنائس نفسها بذلك صورة للوحش، ولهذا إرغام شعب الولايات المتحدة على حفظ يوم الأحد ما هو إلا إرغام على السجود للوحش ولصورته.

لكن المسيحيين في العصور السابقة كانوا يحفظون يوم الأحد ظنا منهم أنهم بذلك يحفظون يوم الرب المنصوص عنه في الكتاب، واليوم يوجد في كل كنيسة مسيحيون حقيقيون، ولا يُستثنى من ذلك اتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (اللاتين)، يعتقدون بكل أمانة أن يوم الأحد هو اليوم المعين من الرب. والله يقبل إخلاصهم في القصد واستقامتهم أمامه. ولكن عندما يكون حفظ الأحد مفروضا من القانون ويكون العالم قد استنار بشأن واجب حفظ السبت الحقيقي، فإن كل من يتعدى وصية الله بإطاعته أمرا لا يصدر عن سلطة أعلى من سلطة روما إنما يُكرم بذلك البابوية أكثر من الله. إنه

يقدم ولاءه لروما وللقوة التي تفرض القوانين التي رسمتها روما. وهو إنما يسجد للوحش ولصورته. فإذا يرفض الناس التشريع الذي قد أعلن الله إنه رمز سلطانه ويكرمونه بدلا منه ما قد اختارته روما علامة لسيادتها فهم بهذا يقبلون رمز الولاء لروما أي « سمة الوحش ». وإلى أن يتضح للناس نتائج ذلك ويتحتم عليهم أن يختاروا بين وصايا الله ووصايا الناس فإن أولئك الذين يظلون متمادين في تعديهم سيقبلون « سمة الوحش ».

إنذار الملاك الثالث

تتضمن رسالة الملاك الثالث ارهب تهديد وجه إلى بني الإنسان إطلاقا. إن تلك الخطيئة التي تُنزل غضب الله الصريف (الذي لا أثر فيه للرحمة) لا بد أن تكون خطيئة رهيبية. لن يُترك الناس في الظلمة في ما يختص بهذا الأمر الهام، فالإنذار الخاص بهذه الخطيئة سيقدم إلى العالم قبل افتقاد دينونة الله حتى يعلم الجميع لماذا تحل بالناس، هذه العقوبة وتكون لديهم فرصة للنجاة منها. إن النبوة تعلن أن الملاك الأول سيقدم الإعلان إلى كل « أمة وقبيلة ولسان وشعب ». وإنذار الملاك الثالث، الذي يكون جزءا من الرسالة المثلثة نفسها، سيكون واسع النطاق كالرسالة الأولى. والنبوة تصوره على أنه نطق بإنذاره بصوت عالٍ، والملاك الذي قدم الإنذار كان طائرا في وسط السماء وهذا سيسترعي انتباه العالم.

سينقسم العالم المسيحي كله إلى فريقين عظيمين حول موضوع النضال هذا: أولئك الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع، والذين يسجدون للوحش ولصورته ويقبلون سمته. ومع أن الكنيسة والدولة ستوحدان قوتيهما وسلطانهما لإرغام « الصَّغَارَ وَالْكَبَارَ، وَالْأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ، وَالْأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ » (رؤيا ١٣: ١٦)، على قبول « سمة الوحش »، فإن شعب الله لن يقبلوها. إن نبي بطمس يرى « الْعَالِبِينَ عَلَى الْوَحْشِ وَصُورَتِهِ وَعَلَى سَمَتِهِ وَعَدَدَ اسْمِهِ، وَأَقْفَيْنَ عَلَى الْبَحْرِ الرَّجَاجِيِّ، مَعَهُمْ قِيَارَاتُ اللَّهِ » وهم يرتلون ترنيمة موسى والخروف (رؤيا ١٥: ٢، ٣).

٢٦ - أحد أعمال الإصلاح

إن عمل إصلاح السبت الذي سيتم في الأيام الأخيرة سبق فأنبئ به في نبوة إشعياء الذي يقول: « هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: « احْفَظُوا الْحَقَّ وَأَجْرُوا الْعَدْلَ. لِأَنَّهُ قَرِيبٌ مَجِيءٌ خَلَّاصِي وَاسْتَعْلَانُ بَرِّي. طُوبَى لِلإِنْسَانِ الَّذِي يَعْمَلُ هَذَا، وَلابْنِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَتَمَسَّكُ بِهِ، الْحَافِظُ السَّبْتَ لئَلَّا يُجَسَّهُ، وَالْحَافِظُ يَدَهُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ شَرٍّ ». » وَأَبْنَاءُ الْعَرِيبِ الَّذِينَ يَقْتَرِنُونَ بِالرَّبِّ لِيَخْدُمُوهُ وَلِيُحِبُّوا اسْمَ الرَّبِّ لِيَكُونُوا لَهُ عَبِيدًا، كُلُّ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ السَّبْتَ لئَلَّا يُجَسُّوهُ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِعَهْدِي، آتِي بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ قُدْسِي، وَأُفَرِّحُهُمْ فِي بَيْتِ صَلَاتِي » (إشعياء ٥٦: ١، ٢، ٦، ٧).

هذا الكلام ينطبق على العصر المسيحي كما يبرهن سياق الكلام القائل: « السيد الرب جامع منفبي إسرائيل اجمع بعد اليه [بيت الرب] إلى مجموعيه » (إشعياء ٥٦: ٨). هنا يرمز إلى جمع الأمم بواسطة الإنجيل. والرب ينطق بالبركة على من يكرمون السبت حينئذ. وهكذا يمتد التزام الوصية الرابعة بعد صلب المسيح وقيامته وصعوده إلى الوقت الذي فيه يبشر عبده كل الأمم بالبركة المفرحة.

والرب يأمر على لسان النبي نفسه قائلا: « صُرَّ الشَّهَادَةُ. اخْتِمِ الشَّرِيعَةَ بَتَلَامِيذِي » (إشعياء ٨: ١٦). إن ختم شريعة الله يوجد في الوصية الرابعة. فهذه الوصية وحدها من دون باقي الوصايا العشر ترينا اسم معطي الشريعة ولقبه. فهي تعلن عنه أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وهكذا تبرهن على حقه علينا في الإكرام والعبادة أكثر من كل الوصايا الأخرى. وإذا استثنينا هذه الوصية لا يوجد في الوصايا العشر ما يرينا بسلطان من أعطيت الشريعة. وعندما أبدل السبت بالسلطان البابوي أخذ الختم من الشريعة. ويطلب من تلاميذ يسوع أن يرجعوه بتمجيدهم وإكرامهم لسبت الوصية الرابعة ووضعه في مركزه الشرعي كتذكاري للخالق ورمز لسلطانه.

« إلى الشريعة وإلى الشهادة ». عندما تتكاثر التعاليم والنظريات المتضاربة فشريعة الله هي القانون المعصوم الأوحد الذي به تمتحن كل الآراء والتعاليم والنظريات. ثم يقول النبي: « إِنْ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ فَلَيْسَ لَهُمْ فَجْرٌ! » (فذلك لأنه لا نور فيهم) (إشعياء ٨: ٢٠).

ومرة أخرى يعطى هذا الأمر: « ناد بصوت عال. لا تمسك. ارفع صوتك كبوق وأخبر شعبي بتعديدهم وبيت يعقوب بخطاياهم ». ليس العالم الشرير بل أولئك الذين يقول الرب عنهم « شعبي » هم الذين يوبخون على تعدياتهم. وهو يعلن أكثر من هذا قائلا: « وَإِيَّايَ يَطْلُبُونَ يَوْمًا فَيَوْمًا، وَيُسَرُّونَ بِمَعْرِفَةِ طُرُقِي كَأَمَّةٍ عَمَلَتْ بَرًّا، وَلَمْ تَتْرُكْ قَضَاءَ إِلَهَاهَا » (إشعياء ٥٨: ١، ٢). هنا نرى فريقا من الناس يظنون أنفسهم أبرارا ويبدو أنهم يظهرون اهتماما عظيما بخدمة الله. لكن التوبيخ الصارم الخطير الذي ينطق به ذاك الذي هو فاحص القلوب يبرهن أنهم كانوا يدوسون على الوصايا الإلهية.

ثغرة في الشريعة

وبعد ذلك يشير النبي إلى الفريضة التي قد تركت فيقول: « تُقِيمُ أَسَاسَاتِ دَوْرٍ فَدَوْرٍ، فَيَسْمُونَكَ: مُرَمِّمَ الثُّغْرَةِ، مُرْجِعَ الْمَسَالِكِ لِلسُّكْنَى. إِنْ رَدَدْتَ عَنِ السَّبْتِ رَجْلَكَ، عَنْ عَمَلِ مَسَرَّتِكَ يَوْمَ قُدْسِي،

وَدَعَوْتَ السَّبْتَ لَذَّةً، وَمُقَدَّسَ الرَّبِّ مُكْرَمًا، وَأَكْرَمْتَهُ عَنْ عَمَلِ طُرْقِكَ وَعَنْ إِجَادِ مَسَرَّتِكَ وَالتَّكَلُّمِ بِكَلَامِكَ، فَإِنَّكَ حِينَئِذٍ تَتَلَذَّذُ بِالرَّبِّ » (إشعياء ٥٨: ١٢-١٤). ثم إن هذه النبوة تنطبق على عصرنا الحاضر. لقد حدثت ثَغْرَةٌ في الشريعة الإلهية عندما أُبدل السبت بسلطان روما. ولكن قد جاء الوقت الذي فيه تعود تلك الوصية إلى ما كانت عليه. لا بد من ترميم الثغرة وإقامة أساسات دور فدور.

إن السبت إذ تقدر براحة الخالق وبركته كان آدم يحفظه وهو في حالة الطهارة في جنة عدن المقدسة، وحتى بعدما سقط وتاب عندما طرد من ذلك المسكن السعيد. وكان كل الآباء يحفظونه من هابيل إلى نوح البار إلى إبراهيم إلى يعقوب. وإذا كان الشعب المختار في مصر أرض العبودية فكثيرون منهم إذ كانوا محاطين بالوثنية المتفشية لم تكن عندهم معرفة بشريعة الله، ولكن عندما حررهم الرب أعلن شريعته لذلك الجمهور المجتمع في جلال رهيب لكي يعرفوا مشيئته ويتقوه ويطيعوه إلى الأبد.

منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا حُفِظَت معرفة شريعة الله في الأرض وحفظ سبت الوصية الرابعة. ومع أن « إنسان الخطيئة » أفلح في سحق يوم الله المقدس بالإقدام، فحتى في إبان سني سيادته وُجِدَت نفوس أمينة في أماكن خفية مستترة كانت تحفظ السبت وتكرمه. ومنذ أيام الإصلاح وجد في كل جيل قوم كانوا يحفظونه. ومع أنهم كانوا مكتنفين من كل جانب بالتعابير والاضطهادات فقد ظلوا يشهدون لدوام شريعة الله وثباتها والالتزام المقدس بحفظ سبت الخليقة.

هذه الحقائق كما هي مقدمة في رؤيا أصحاب ١٤ في ارتباطها « بالبشارة الأبدية » ستميز كنيسة المسيح في وقت ظهوره. لأنه نتيجة للرسالة المثلثة يعلن الكتاب قائلًا: « هنا الذين يحفظون وصايا الله وإيمان يسوع ». وهذه هي آخر رسالة تقدم قبل مجيء الرب. وبعد إعلانها مباشرة يرى النبي ابن الإنسان آتيا في مجده ليجمع حصيد الأرض.

جمال الحق وتناسقه

والذين قبلوا النور الخاص بالقدس وثبات شريعة الله امتلأوا دهشة وفرحاً عندما رأوا جمال نظام الحق الذي انكشف لأذهانهم. وقد كانوا يبتغون أن يقدم النور، الذي بدا ثميناً جداً في نظرهم، إلى جميع المسيحيين، ولم يسعهم إلا الاعتقاد أن الجميع سيقبلونه بفرح. لكن تلك الحقائق التي تحدث خلافاً بينهم وبين العالم لم تجد ترحيباً من كثيرين ممن يدعون أنهم اتباع المسيح. إن الطاعة للوصية الرابعة تطلبت تضحية وهذا ما قد تراجع أمامه كثيرون.

وعندما قدمت مطالب السبت جعل كثيرون يحتاجون من وجهة نظر أهل العالم فقالوا: « لقد كنا دائماً نحفظ يوم الأحد كما قد حفظه آباؤنا من قبل وكثيرون من الصالحين الأتقياء ماتوا سعداء وهم يحفظونه. فإذا كانوا هم على صواب فكذلك نحن. إن حفظ هذا السبت الجديد سيخرجنا عن الانسجام مع العالم ولن يكون لنا تأثير عليهم. وماذا تستطيع شُرْذمة صغيرة تحفظ اليوم السابع أن تفعل ضد كل أهل العالم الذين يحفظون يوم الأحد؟ » بمثل هذه الحجج حاول اليهود أن يبرروا رفضهم المسيح. فلقد كان آباؤهم مقبولين لدى الله وهم يقدمون القرايين التكفيرية، فلماذا لا يجد

أبناءؤهم الخلاص بسيرهم في ذلك الطريق نفسه؟ وكذلك في عهد لوثر كان البابويون يجادلون قائلين أن المسيحيين الحقيقيين ماتوا معتنقين الإيمان الكاثوليكي ولذلك فهذا الدين كاف للخلاص. مثل هذه المجادلات قد تصير مانعا قويا لكل تقدم في العقيدة أو العمل الديني.

وقد تحتاج كثير من قائلين أن حفظ يوم الأحد هو عقيدة ثابتة وعادة ذائعة اصطلحت عليها الكنيسة مدى قرون عديدة. وللد على هذه الحجة تبرهن أن يوم السبت وحفظه كانا أقدم وأكثر انتشاراً بنسبة قدم العالم نفسه، وكان مصادقا عليه من الملائكة ومن الله. فعندما وضعت أساسات الأرض وترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بني الله حينئذ وضع أساس السبت (أيوب ٣٨: ٦، ٧؛ تكوين ٢: ١-٣). وحسنا يطلب منا هذا القانون التوقير والإكرام، فهو لم يرسم بموجب أي سلطان بشري ولا يستند على أي تقاليد بشرية، فلقد وضعه القديم الأيام، وأمرت به كلمته الأزلية.

وإذ استرعى انتباه الناس إلى موضوع إصلاح السبت أفسد الخدام المشهورون كلمة الله وحرفوها إذ قدموا تفسيرات على شهادتها كفيلة بأن تهدئ العقول المتسائلة. والذين لم يفتشوا الكتب لأنفسهم قنعوا بقبول الاستنتاجات المطابقة لرغائبهم. وبواسطة الحجة والمغالطة وتقاليد الآباء وسلطة الكنيسة حاول كثيرون هدم الحق. لكن المحامين عنه عادوا إلى كتبهم المقدسة للدفاع عن قانونية الوصية الرابعة. فالناس الودعاء المسلحون بكلمة الحق وحدها صمدوا أمام هجمات رجال العلم الذين، لشدة دهشتهم وحنقهم، وجدوا أن مغالطاتهم الفصيحة أضعف من أن تصمد أمام الحجة البسيطة القوية التي قدمها رجال ضالعون في الكتب المقدسة لا في خبث المدارس واحتيالها.

إن كثيرين لسبب عدم وجود شهادة من الكتاب تسندهم جعلوا يجادلون بإصرار لا يكل، وقد نسوا أن هذه المجادلات نفسها قد استخدمت ضد المسيح ورسله. فكانوا يقولون: « لماذا لا يفهم عظمائنا قضية السبت هذه؟ ولكن الذين يعتنقون عقيدتكم هذه هم قلة. فلا يعقل أن تكونوا صادقين وعلى صواب ويكون كل رجال العلم في العالم مخطئين وعلى ضلال ».

فلأجل تنفيذ أمثال تلك الحجج كانت الحاجة تدعو إلى اقتباس تعاليم الكتاب وتاريخ معاملات الله مع شعبه في كل العصور. إن الله يستخدم الذين يسمعون صوته ويطيعونه، والذين عندما تدعو الضرورة ينطقون بحقائق غير مستساغة والذين لا يخافون من أن يوبخوا الخطايا الشائعة. والسبب الذي لأجله لا يكثر من استخدام العلماء والعظماء ليكونوا في طليعة القائمين بحركات الإصلاح هو كونهم يثقون بعقائدهم ونظرياتهم ونظمهم اللاهوتية ولا يحسون بحاجة إلى التعلم من الله. إنما فقط أولئك الذين لهم ارتباط شخصي بنبع الحكمة هم القادرون على فهم الكتب وشرحها. فالرجال الذين قد نالوا قدرا قليلا من العلم في المدارس يدعون أحيانا لإعلان الحق، لا لأنهم غير متعلمين بل لأنهم غير متكئين على أنفسهم إلى حد يجعلهم لا يشعرون بحاجتهم إلى التعلم من الله. إنهم يتعلمون في مدرسة المسيح، ووداعتهم وطاعتهم تجعلانهم عظماء. فالله إذ يسند إليهم معرفة حقه يخلع عليهم كرامة عظيمة تصغر أمامها الكرامة والعظمة البشريتان بحيث تصيران كلا شيء.

يرفضون النور

إن أكثرية المجيئين رفضوا الحقائق الخاصة بالقدس وشريعة الله، وكثيرون أيضاً رفضوا ونبذوا إيمانهم بحركة المجيء وتمسكوا بآراء غير سليمة ومتضاربة عن النبوات التي تنطبق على ذلك العمل. وقد انساق البعض وراء خطأ تكرار تحديد وقت معين لمجيء المسيح. فالنور الذي كان يضيء حينئذ على موضوع القدس كان يمكن أن يظهر لهم أنه لا توجد فترة نبوية تمتد إلى المجيء الثاني، وأن الوقت المحدد لهذه الحادثة لم يُنبأ به. لكنهم إذ ابتعدوا عن النور استمروا يحددون ميعادا بعد آخر لمجيء الرب، وفي كل مرة كانوا يخيبون.

عندما قبلت كنيسة تسالونيكى آراء مخطئة عن مجيء المسيح نصحهم بولس الرسول بأن يختبروا بكل حذر آمالهم وتوقعاتهم بواسطة كلمة الله. وقد اقتبس لهم بعض النبوات التي تعلن عن الحوادث التي ستحدث قبل مجيء المسيح، وأبان لهم أنه لا يوجد أساس يستندون إليه لانتظار مجيئه في أيامهم، فقال لهم محذرا: « لَا يَخْدَعَنَّكُمْ أَحَدٌ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا » (٢ تسالونيكى ٢: ٣). فإن تمسكهم بتوقعات لا تصادق عليها كلمة الله قد يقودهم إلى عمل خاطئ. وخيبتهم ستجعلهم عرضة لسخرية غير المؤمنين، وخطر التسليم للخوف والضعف وخوار العزيمة، ولتجربة الشك في الحقائق التي هي جوهرية لخلاصهم. في إنذار الرسول لأهل تسالونيكى درس مهم لمن يعيشون في الأيام الأخيرة. وكثيرون من المجيئين أحسوا أنهم ما لم يثبتوا إيمانهم على زمن معين لمجيء الرب فإنهم لا يمكن أن يكونوا غيورين وجادين في عمل الاستعداد. ولكن إذ تنبه آمالهم مرارا لتتلاشى بعد ذلك فإن إيمانهم يتلقى صدمة شديدة بحيث يغدو قريبا من المستحيل عليهم أن يتأثروا بحقائق النبوات العظيمة.

هذا، وأن الكرازة بزمان محدد للدينونة في تقديم الرسالة الأولى كانت بأمر الله. أما تقدير الفترات النبوية الذي عليه بنيت تلك الرسالة إذ جُعلت نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم في خريف عام ١٨٤٤ فهو حساب لا يرقى إليه الخطأ. إن المحاولات المتكررة لإيجاد تواريخ جديدة لبدء الفترات النبوية وختامها والجدال غير السليم اللازم لدعم هذه المواقف هي، فضلا عن كونها تبعد العقول عن الحق الحاضر، تلقي العار والاحتقار على كل محاولة لشرح النبوات. فكلما أكثر من تحديد وقت للمجيء الثاني وكلما انتشر ذلك التعليم في أماكن عديدة كلما كان ذلك متوافقا مع أغراض الشيطان. فبعدما يمر الوقت سدى يثير الشيطان السخرية والاحتقار على المدافعين عنه، وهكذا انصب العار على حركة المجيء العظيمة لعامي ١٨٤٣ و ١٨٤٤. وأولئك الذين يصرون على هذه الغلطة ويتشبثون بها سيحددون أخيرا تاريخا في المستقبل البعيد لمجيء المسيح. وهذا يسوقهم إلى الاطمئنان الكاذب، وكثيرون لن يكتشفوا الخداع إلا بعد فوات الأوان.

إن تاريخ العبرانيين قديما هو مثال مدهش للاختبار الماضي عند جماعة المجيئين. لقد كان الله قائدا لشعبه في حركة المجيء كما قد فعل عندما اخرج العبرانيين من مصر. وفي خيبة الأمل العظيمة امتحن إيمانهم كما امتحن إيمان العبرانيين عند بحر سوف. فلو كانوا قد ظلوا متكئين على يد الله الهادية التي كانت معهم في اختبارهم الماضي لكانوا قد رأوا خلاص الله. لو أن كل من قد جدوا متضامين في العمل في عام ١٨٤٤ قبلوا رسالة الملاك الثالث ونادوا بها بقوة الروح القدس

لكان الرب قد عمل بواسطة جهودهم عجائب. وكان قد اشرق على العالم فيض من النور، وأنذر سكان الأرض منذ سنين، وكمل العمل الختامي، وجاء المسيح لفداء شعبه.

لم يكن الله يريد أن يهيم العبرانيون على وجوههم في البرية أربعين سنة، بل كان يريد أن يدخلهم أرض كنعان مباشرة ويثبت أقدامهم فيها شعباً مقدساً سعيداً. لكنهم « فَنَرَى أَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَدْخُلُوا لِعَدَمِ الْإِيمَانِ » (عبرانيين ٣: ١٩). فبسبب عصيانهم ارتدادهم هلكوا في القفر وقام آخرون ليدخلوا أرض الموعد. وبهذه الطريقة ذاتها لم تكن إرادة الله أن يتأخر مجيء المسيح إلى هذا الحد ويظل شعبه في عالم الخطيئة والحزن كل هذه السنين، ولكن عدم إيمانهم صار فاصلاً بينهم وبين إلههم. فإذا رفضوا إنجاز العمل الذي عينه لهم قام آخرون لينادوا بالرسالة. إن يسوع، رحمة منه بالعالم، يؤخر مجيئه حتى تتاح للخطاة فرصة لسماع الإنذار ويجدوا فيه ملجأً قبلما ينصب غضب الله.

والآن كما في كل العصور الماضية يثير تقديم الحق، الذي يوبخ الخطايا والضلالات المتفشية، مقاومة شديدة. « كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ يُبْغِضُ النُّورَ، وَلَا يَأْتِي إِلَى النُّورِ لئَلَّا تُبْخَ أَعْمَالُهُ » (يوحنا ٣: ٢٠). وإذا يرى الناس أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بمركزهم بواسطة الكتب المقدسة فإن كثيرين يصرون على الاحتفاظ به مهما تكن المخاطرة عظيمة، وبروح خبيثة يهاجمون أخلاق الذين يصمدون في الدفاع عن الحق غير المقبول ويشككون في بواعثهم. هذه هي السياسة نفسها التي كانت متبعة في كل العصور. لقد اتهم إيليا بأنه مكدر إسرائيل، وقيل عن إرميا أنه خائن، وبولس اتهم بأنه قد نجس الهيكل. ومنذ ذلك اليوم إلى الآن نجد أن كل من يريدون أن يكونوا مخلصين في ولائهم للحق يشهر بهم على أنهم مشيرو فتن أو هراطقة أو منشقون. وجماهير كثيرة من عديمي الإيمان الذين لا يقبلون كلمة النبوة الصادقة الثابتة يقبلون ويصدقون بسرعة كبيرة الاتهام الموجه ضد من يجرؤون على توبيخ خطايا عصرهم المألوفة. هذه الروح ستقوى وتتفاقم. والكتاب يعلمنا بكل وضوح عن قرب مجيء الوقت الذي فيه تتصارع قوى الدولة مع شريعة الله بحيث أن من يطيع كل وصايا الله سيتعرض للتعذيب والقصاص كفاعل شر.

ففي نور هذا الحق ما هو واجب رسول الحق؟ هل يستنتج أن الحق ينبغي ألا يقدم إلى الناس حتى لا يثاروا فيتهربوا منه أو يقاوموا مطالبه؟ كلا، فلا عذر له بعد ذلك عن حجز شهادة كلمة الله، لكونها تثير المقاومة، أكثر مما كان للمصلحين الأولين من عذر. إن الاعتراف بالإيمان الذي نطق به القديسون والشهداء سجل لاستفيد منه الأجيال التالية. فتلك المثل الحية، مثل القداسة والاستقامة التي لا تتقلقل، قد وصلت إلى عصرنا لتلهم شجاعة أولئك الذين يُدعون اليوم ليكونوا شهوداً لله. لقد حصلوا على النعمة والحق لا لأجل أنفسهم فحسب بل لكي — عن طريقهم — تنير معرفة الله الأرض. فهل أعطى الله عبيده نورا في هذا الجيل؟ إذاً فليجعلوا نوره يضيء في العالم.

قديمًا أعلن الرب لواحد ممن قد تكلموا باسمه قائلاً: « بَيْتَ إِسْرَائِيلَ لَا يَشَاءُ أَنْ يَسْمَعَ لَكَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَشَاوُونَ أَنْ يَسْمَعُوا لِي ». ومع ذلك فقد قال له: « تَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ بِكَلَامِي، إِنْ سَمِعُوا وَإِنْ أَمْتَنَعُوا » (حزقيال ٣: ٧، ٢: ٧). أما خادم الله في هذا العصر فالرب يأمره قائلاً: « أَرْفَعُ صَوْتَكَ كَبُوقٍ وَأَخْبِرُ

شَعْبِي بِتَعْدِيهِمْ، وَبَيَّتَ يَعْقُوبَ بِخَطَايَاهُمْ» (إشعياء ٥٨ : ١).

تحت مسؤولية جسيمة

إن كل من أتاح له الظروف قبول نور الحق يقع تحت المسؤولية المهيبة والمخيفة نفسها التي التزمها نبي إسرائيل الذي جاءته كلمة الرب: « وَأَنْتَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَقَدْ جَعَلْتَنِي رَقِيبًا لِبَيْتِ إِسْرَائِيلَ، فَتَسْمَعُ الْكَلَامَ مِنْ فَمِي، وَتُحَذِّرُهُمْ مِنْ قَبْلِي. إِذَا قُلْتُ لِلشَّرِيرِ: يَا شَرِيرٌ مَوْتًا تَمُوتُ. فَإِنْ لَمْ تَتَكَلَّمْ لَتُحَذِّرِ الشَّرِيرَ مِنْ طَرِيقِهِ، فَذَلِكَ الشَّرِيرُ يَمُوتُ بِذَنْبِهِ، أَمَّا دَمُهُ فَمِنْ يَدِكَ أَطْلُبُهُ. وَإِنْ حَذَرْتَ الشَّرِيرَ مِنْ طَرِيقِهِ لِيَرْجِعَ عَنْهُ، وَلَمْ يَرْجِعْ عَنْ طَرِيقِهِ، فَهُوَ يَمُوتُ بِذَنْبِهِ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ خَلَصْتَ نَفْسَكَ » (حزقيال ٣٣ : ٧-٩).

العقبة الوحيدة في طريق الحق

إن العقبة العظيمة الكأداء التي تمنع الناس من قبول الحق والمناداة به هي ما ينطوي عليه ذلك من تعب وعار. هذه هي الحجة الوحيدة ضد الحق، التي لم يستطع المدافعون عنه أن يدحضوها. لكن هذه الحجة لا تعيق اتباع المسيح الأمانة ولا تصدهم. هؤلاء لا ينتظرون حتى يشتهر الحق وينتشر. فلأنهم مقتنعون بواجبهم يقبلون بعزم صادق حمل الصليب ويقولون مع بولس الرسول: « لَأَنَّ خَفَةَ ضَيْقِنَا الْوَقْتِيَّةِ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثَقَلٌ مَجْدٌ أَبَدِيًّا »، ومعه أيضاً عن لسان موسى: « حَاسِبًا عَارَ الْمَسِيحِ غَنَى أَعْظَمَ مِنْ خَزَائِنِ مِصْرَ » (٢ كورنثوس ٤ : ١٧؛ عبرانيين ١١ : ٢٦).

ومهما يكن نوع حرفة خادمي العالم، فهم وحدهم الذين يعملون بقلوبهم مدفوعين بدافع السياسة أكثر مما بدافع المبدأ في الشؤون الدينية. علينا أن نختار الصواب لكونه صواباً ونترك النتائج لله. إن العالم يدين بإصلاحاته العظيمة للرجال ذوي المبدأ والإيمان والجرأة. فبواسطة مثل هؤلاء ينبغي أن يتم الإصلاح ويتقدم في عصرنا هذا.

لقد قال الرب: « اسْمَعُوا لِي يَا عَارْفِي الْبَرِّ، الشَّعْبُ الَّذِي شَرِيعَتِي فِي قَلْبِهِ: لَا تَخَافُوا مِنْ تَغْيِيرِ النَّاسِ، وَمِنْ شَتَائِمِهِمْ لَا تَرْتَأَعُوا، لَأَنَّهُ كَالثُّوبِ يَأْكُلُهُمُ الْعُثُ، وَكَالْصُّوفِ يَأْكُلُهُمُ السُّوسُ. أَمَّا بَرِّي فَأَلِي الْأَبَدُ يَكُونُ، وَخَلَّاصِي إِلَى دَوْرِ الْأَدْوَارِ » (إشعياء ٥١ : ٧، ٨).

٢٧ - نهضات عصرية

أينما يركز بكلمة الله بأمانة تتبع ذلك نتائج مباركة تشهد لمصدرها الإلهي. لقد رافق روح الله رسالة عبده وكانت الكلمة مصحوبة بقوة. وقد أحس الخطأة بأن ضمائرهم قد استيقظت. « والنور الذي ينير كل إنسان آتيا إلى العالم » أنار مخادع نفوسهم وانكشفت للنور الأشياء التي كانت مختبئة بين طيات الظلام. وقد تبكت عقولهم وقلوبهم تبكيتا عميقا. تبكتوا على خطيئة وعلى بر وعلى الدينونة العتيدة. كان عندهم إحساس ببر الرب وشعروا بالرعب من المثل أمام فاحص القلوب وهم ملوثون بالذنوب والنجاسات. ففي ألم وعذاب صرخوا قائلين: « من ينقذني من جسد هذا الموت؟ » فإذ أعلن لهم صليب جلجثة بذبيحته السرمدية لأجل خطايا الناس رأوا أنه لا يوجد شيء سوى استحقاقات المسيح يكفي للتكفير عن معاصيهم، فهي وحدها التي يمكنها أن تصالح الإنسان مع الله. فبايمان ووداعة قبلوا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم. وبدم يسوع حصلوا على « غفران خطاياهم الماضية ».

وصنعت هذه النفوس ثمارا تليق بالتوبة. لقد آمنوا واعتمدوا وقاموا ليسلكوا في جدة الحياة، فصاروا خليفة جديدة في المسيح يسوع، لا ليشاكلوا شهواتهم السابقة بل ليسيروا في خطواته بإيمان ابن الله وليعكسوا صفاته وليطهروا أنفسهم كما هو طاهر. لقد صاروا الآن ييغضون ما كانوا قبلا يحبون ويحبون ما كانوا قبلا ييغضون. فالمتكبرون والمتغطرسون صاروا ودعاء ومتواضعي القلوب. والمختالون والمعجبون بأنفسهم والمتشامخون صاروا جادين وغير فضوليين. والنجسون المستبيحون صاروا وقورين. والسكران صاروا صاحين والخليعين طاهرين. وأزياء العالم الباطلة ألقي بها جانبا. ولم تطلب السيدات المسيحيات « الزينة الخارجية، من صفر الشعر والتحلّي بالذهب ولبس الثياب، بل إنسان القلب الخفي في العديمة الفساد، زينة الروح الوديع الهادي، الذي هو قدام الله كثير الثمن » (١ بطرس ٣: ٣، ٤).

لقد كان من ثمار النهضات أو الانتعاشات فحص عميق للقلوب وتذلل. وتميزت بتوسلات حارة إلى الخطأة وحنان وشوق إلى دم المسيح. وصلى الرجال والنساء وجاهدوا مع الله في طلب خلاص النفوس. وقد شوهدت ثمار مثل هذه الانتعاشات في كثيرين ممن لم يتراجعوا أمام إنكار الذات والتضحية بل كانوا فرحين لأنهم حسبوا مستأهلين لأن يحتملوا التعيير والتجارب لأجل المسيح. وقد رأى الناس تبدا في حياة من قد اعترفوا باسم يسوع وأفادوا المجتمع بتأثيرهم. كانوا يجمعون مع المسيح ويزرعون للروح ليحصدوا حياة أبدية.

وكان ينطبق عليهم القول: « لأنكم حزنتم للتوبة »، « لأن الحزن الذي بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة، وأما حزن العالم فينشئ موتا. فإنه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله، كم أنشأ فيكم: من الاجتهاد، بل من الاحتجاج، بل من العيظ، بل من الخوف، بل من الشوق، بل من الغيرة، بل من الانتقام. في كل شيء أظهرتم أنفسكم أنكم أبرياء في هذا الأمر » (٢ كورنثوس ٧: ٩-١١).

« من ثمارهم تعرفونهم »

هذه هي نتيجة عمل روح الله. ولا يوجد برهان على التوبة الحقيقية ما لم ينتج منها إصلاح. فإذا رد الخاطئ الوديعه وأرجع ما قد اغتصبه واعترف بخطايه وأحب الله والناس يستطيع أن يتأكد من أنه وجد سلاماً مع الله. مثل هذه الآثار تبعت أوقات النهضة الدينية في السنين السالفة. وإذ حكم عليها بثمارها عرف أن الله قد باركها في خلاص الناس ورفع شأن البشرية.

ولكن كثيراً من الانتعاشات التي حدثت في العصور الحديثة تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي ظهرت في الأيام القديمة وتبعت خلالها النعمة الإلهية جهود عبید الله. نعم، نحن لا ننكر أن اهتماماً واسع النطاق قد أُثير، وكثيرون يعترفون أنهم قد تجددوا وأن الإقبال عظيم على الكنائس، ومع كل ذلك فالنتائج لا تبرر الاعتقاد أن هذا الاهتمام رافقته زيادة ملائمة في مستوى الحياة الروحية الحقيقية. إن النور الذي يرتفع لهيبه إلى حين سرعان ما ينطفئ تاركاً الظلمة أشد حلوكة مما كانت.

إن الانتعاشات المألوفة كثيراً ما تحدث بواسطة الالتجاء إلى الخيال والأوهام وإثارة الانفعالات وإشباع شوق الناس إلى كل ما هو جديد ومفزع. والمتجددون بهذه الوسائل لا يرغبون كثيراً في الإصغاء إلى حق الإنجيل، وقلما يهتمون بشهادة الأنبياء أو الرسل. وما لم تكن الخدمة الدينية من النوع العاطفي فهي لا تجذبهم. فالرسالة التي تستنجد بالعقل الرزين لا توقظ فيهم استجابة ولا تجد لديهم قبولا. وهم لا يكثرثون لإنذارات كلمة الله الصريحة التي تتناول مباشرة مصالحهم الأبدية.

أتباع أمناء للمسيح

وبالنسبة إلى كل نفس مهتدية حقاً ستكون الصلة بينها وبين الله والأمور الأبدية هي مدار الحياة كلها وموضوعه. ولكن في أي كنيسة من الكنائس المشهورة في هذه الأيام نجد روح تكريس الذات لله؟ فالمتجددون لا ينبذون كبرياءهم ولا حبههم للعالم، ولا عادوا راغبين في إنكار الذات وحمل الصليب وأتباع يسوع الوديع المتواضع أكثر مما كانوا قبل تجديدهم. لقد صار الدين موضوع سخريه الملحدين والمتشككين لأن كثيرين جدا ممن يحملون اسم الدين يجهلون مبادئه. فقرة التقوى تكاد تهجر كثيراً من الكنائس. والنزهات في الهواء الطلق ومسرحيات الكنائس، والأسواق التي تقام فيها، والبيوت الفخمة، والتفاخر الشخصي والمباهاة قد أبعدت عن الناس التفكير في الله. لقد انشغلت العقول بالأملك والأمتعة والأشغال العالمية، أما الأمور التي لها مساس بصالح النفس الأبدية فلا تكاد تظفر بنظرة عابرة.

ولكن على رغم انحطاط الإيمان الشائع وضعف التقوى المتفشي يوجد في هذه الكنائس أتباع أمناء للمسيح. فقبلما يفتقد الله الأرض بضرباته الأخيرة سيحدث بين شعب الرب انتعاش في التقوى والقداسة على غرار ما حدث في عصر الرسل. فسينسكب روح الله وقوته على أولاده. وفي ذلك الوقت سينسحب كثيرون من تلك الكنائس التي فيها احتلت محبة العالم مكان محبة الله وكلمته. وكثيرون من الخدام والشعب سيقبلون بكل سرور تلك الحقائق العظيمة التي أمر الله بأن ينادى بها في هذا الوقت للإعداد شعب لمجيء الرب ثانية. إن عدو النفوس يرغب في تعطيل هذا العمل.

وقبل مجيء الوقت لمثل هذه النهضة سيحاول الشيطان أن يمنعها بتقديم شيء زائف بدلا منها. وفي تلك الكنائس التي يستطيع أن يجعلها تحت سلطانه الخادع سيجعل الأمر يبدو للناس وكأن بركة الله الخاصة قد فاضت، وسيظهر ما يُظن بأنه اهتمام ديني عظيم. وسيفرح جماهير من الناس لأن الله يعمل عملا عجيبا لأجلهم. في حين أن ذلك العمل هو عمل روح آخر. فتحت ثوب الدين سيحاول الشيطان أن يمد تأثيره على العالم المسيحي.

وفي كثير من الانتعاشات التي حدثت في نصف القرن الأخير كانت المؤثرات نفسها تعمل عملها إلى حد كبير أو صغير، وهي التي ستكون ظاهرة في الحركات الأكثر شمولا واتساعا في المستقبل. فثمة احتياج عاطفي هو مزيج من الحقيقي والزائف يساعد على التضليل. ولكن لا حاجة إلى أن ينخدع أحد. ففي نور كلمة الله ليس من الصعب على الإنسان أن يحكم على طبيعة هذه الحركات. فعندما يهمل الناس شهادة الكتاب مبتعدين عن تلك الحقائق الواضحة الفاحصة للنفس والتي تتطلب إنكار الذات ونبذ العالم تُحجب عنهم بركة الله بالتأكيد. وبموجب القانون الذي وضعه المسيح نفسه والقائل: « مِنْ ثَمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ » (متى ٧: ١٦) فمن الواضح أن هذه الحركات ليست من عمل روح الله.

لقد قدم الله إلى الناس في حقائق كلمته إعلانا عن نفسه، وهي ترس لكل من يقبلونها يقيهم أغواء الشيطان. وإهمال هذه الحقائق هو ما فتح الباب لكل الشرور التي تفاقمت وانتشرت في كل العالم المتدين. لقد غابت عن أنظار الناس طبيعة شريعة الله وأهميتها إلى حد كبير. وساق الفهم الخاطئ لطبيعة شريعة الله ودوامها وحقها، الناس، إلى الأخطاء الخاصة بالهداية والتقديس، ونتج من ذلك خفض مقياس التقوى في الكنيسة. هنا نجد السر في افتقارنا إلى روح الله وقوته في الانتعاشات التي تحصل في عصرنا الحاضر.

في الطوائف المتعددة رجال اشتهروا بتقواهم يعترفون بهذه الحقيقة ويأسفون لها. إن البروفيسور إداوردز بارك، وهو يعدد المخاطر الدينية الشائعة، قال: « من بين مصادر الخطر، إهمال المنبر في إلزام الناس حفظ شريعة الله. في العصور القديمة كان المنبر صدى لصوت الضمير ... إن أشهر وعاظنا أضفوا على عظاتهم جلالة مدهشا باتباعهم مثال السيد وإعطائهم شريعة الله ووصاياها ووعيدها السمو والرفعة اللائقين بها. لقد ردوا المبدئين العظميين المقررين، وهما أن الشريعة هي صورة لكمالات الله وأن من لا يحب الناموس لا يحب الإنجيل، لأن الناموس كالإنجيل مرآة تعكس صفات الله الحقيقية. وهذا الخطر يقود إلى خطر آخر ألا وهو التقليل من شر الخطيئة ومداها وانحطاطها. فعلى قدر صواب الوصية يكون خطأ عصيانها ...

» ومن بين المخاطر التي أوردناها خطر الاستخفاف عدالة الله. فالمنبر العصري يميل إلى إخراج عدل الله من دائرة إحسانه، مع الحط من شأن هذا الأخير، إلى حد جعله عاطفة بدلا من رفعه إلى مرتبة المبدأ. إن النظرية اللاهوتية الجديدة تفرق ما قد جمعه الله. هل شريعة الله خير أم شر؟ إنها صالحة، إذاً فالعدل صالح لأنه يميل إلى تنفيذ القانون. فمن عادة التقليل من شأن شريعة الله وعدله، ومدى العصيان البشري وعيبه، إن الناس ينزلون بسهولة إلى بخس النعمة التي قد أعدت كفارة عن

الخطيئة والتقليل من قيمتها»، وهكذا يفقد الإنجيل قيمته وأهميته في عقول الناس، وسرعان ما يكونون مستعدين فعلاً لطرح الكتاب المقدس نفسه جانبا.

ناموس الحرية

يؤكد كثيرون من معلمي الدين أن المسيح أبطل بموته الناموس فتنحصر الناس من مطالبه. وبعض الناس يصورونه نيرا مكذرا محزنا، وعلى نقيض عبوديته يقدمون الحرية التي يتمتعهم بها الإنجيل. لكن هذه لم تكن النظرة التي كان الأنبياء والرسول ينظرون بها إلى شريعة الله المقدسة. فلقد قال داود: « أَتَمَشَّى فِي رَحْبٍ، لِأَنِّي طَلَبْتُ وَصَايَاكَ » (مزمو ١١٩: ٤٥). والرسول يعقوب الذي كتب رسالته بعد موت المسيح يشير إلى الوصايا العشر على أنها « الناموس الملوكي » و « الناموس الكامل ناموس الحرية » (يعقوب ٢: ٨؛ ١: ٢٥). والرأي الذي كتب بعد الصلب بنصف قرن ينطق بالبركة والطوبى على « الَّذِينَ يَصْنَعُونَ وَصَايَاهُ لِكَيْ يَكُونَ سُلْطَانُهُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ، وَيَدْخُلُوا مِنَ الْبُوابِ إِلَى الْمَدِينَةِ » (رؤيا ٢٢: ١٤).

إن الادعاء القائل أن المسيح بموته قد ألغى وأبطل شريعة أبيه هو ادعاء لا أساس له من الصحة. فلو كان من الممكن تغيير الشريعة أو طرحها جانبا لما كان من حاجة إلى أن يموت المسيح لينقذ الإنسان من قصاص الخطيئة. إن موت المسيح لا يلغي الشريعة بل يبرهن ثباتها وعدم تغييرها. وابن الله قد أتى لكي « يعظم الشريعة ويكرمها » (إشعيا ٤٢: ٢١) وهو الذي قال: « لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ ». « إِلَى أَنْ تَرُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضَ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ » (متى ٥: ١٧، ١٨). أما عن نفسه فيعلن قائلا: « أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلَهِي سُرَرْتُ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسْطِ أَحْشَائِي » (مزمو ٤٠: ٨).

شريعة الله لا تتغير

لا تتغير شريعة الله بطبيعتها. إنها إعلان إرادة وصفات مبدعها. الله محبة، وشريعته محبة. والمبدآن العظيمان اللذان يلخصانها هما المحبة لله والمحبة للناس. « الْمَحَبَّةُ هِيَ تَكْمِيلُ النَّامُوسِ » (رومية ١٣: ١٠). إن صفات الله هي البر والحق، وكذا طبيعة شريعته. يقول صاحب المزامير: « شَرِيعَتُكَ حَقٌّ », « كُلُّ وَصَايَاكَ عَدْلٌ » (مزمو ١١٩: ١٤٢، ١٧٢). وبولس الرسول يعلن قائلا: « الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة » (رومية ٧: ١٢). مثل هذه الشريعة إذ هي تعبير عن فكر الله وإرادته ينبغي أن تكون ثابتة وباقية كمبدعها.

إن عمل التجديد والتقديس هو إصلاح ذات البين بين الناس والله بجعلهم في حالة وفاق مع مبادئ شريعته. في البدء خلق الله الإنسان على صورته. كان الإنسان في حالة وفاق كامل مع طبيعة الله وشريعته، وكانت مبادئ البر مكتوبة على قلبه. لكن الخطيئة فصلت بينه وبين خالقه، فما عاد بعد ذلك يعكس الصورة الإلهية. ونشبت حرب في قلبه ضد مبادئ شريعة الله، « لَأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ لِلَّهِ، إِذْ لَيْسَ هُوَ خَاضِعًا لِنَامُوسِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ أَيْضًا لَا يَسْتَطِيعُ » (رومية ٨: ٧). ولكن « هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ » لكي يتاح للإنسان أن يتصالح مع الله. فبواسطة استحقاقات

المسيح يمكنه أن يعود إلى حالة الوفاق مع جابله. ينبغي أن يتجدد قلبه بنعمة الله وأن تكون له حياة جديدة من فوق. هذا التغيير هو الولادة الثانية التي من دونها لا يقدر أن يرى ملكوت الله»، كما يقول يسوع.

أولى خطوات المصالحة مع الله هي الاقتناع بالخطيئة. «الْخَطِيئَةُ هِيَ التَّعَدِّيُّ» على شريعة الله. «لأنَّ النَّامُوسَ مَعْرِفَةُ الْخَطِيئَةِ» (١ يوحنا ٣: ٤؛ رومية ٣: ٢٠). فلنرى الخاطئ خطيئته عليه أن يقيس أخلاقه ويمتحنها بمقياس البر العظيم (الشريعة). إنه مرآة يُري الإنسان كمال الصفات البارة ويقدره على اكتشاف النقص في أخلاقه.

يكشف الناموس للإنسان عن خطاياه لكنه لا يقدم علاجاً لذلك. ففي حين يعد الطائعين بالحياة، يعلن أن الموت هو نصيب العصاة. إنما إنجيل المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يحرر الإنسان من دينونة الخطيئة نجاستها. لذا ينبغي له أن يتوب إلى الله الذي قد تعدى على شريعته ويؤمن بالمسيح الذي هو ذبيحته الكفارية. وهكذا ينال «غفراناً لخطاياه السالفة» ويصير من شركاء الطبيعة الإلهية. يغدو ابناً لله لأخذه روح التبني الذي به يصرخ «يا أبا الآب» (غلاطية ٤: ٦).

فهل هو حر الآن ليتعدى شريعة الله؟ يقول بولس: «أفنبطل الناموس بالإيمان؟ حاشا بل ثبت الناموس». «نحن الذين متنا عن الخطيئة كيف نعيش بعد فيها». ويوحنا يعلن قائلاً: «هذه هي محبة الله أن نحفظ وصاياه ووصاياهم ليست ثقيلة» (رومية ٣: ٣١؛ ٦: ٢؛ ١ يوحنا ٥: ٣). عندما يولد الإنسان ثانية يصير القلب في حالة توافق مع الله ومع شريعته. فعندما يحدث هذا التبدل العظيم في قلب الخاطئ ينتقل من الموت إلى الحياة ومن الخطيئة إلى القداسة ومن التعدي والعصيان إلى الطاعة والولاء. لقد انتهت حياته القديمة، حياة البعد والانفصال، وبدأت الحياة الجديدة، حياة المصالحة والإيمان والمحبة. حينئذ «يتم حكم (بر) الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رومية ٨: ٤). وحينئذ ستكون لغة النفس هي هذه: «كم أحببت شريعتك. اليوم كله هي لهجي» (مزمو ١١٩: ٩٧).

«ناموس الرب كامل يرد النفس» (مزمو ٩١: ٧). من دونه لا يدرك الناس طهارة الله ووقداسته إدراكاً عادلاً كاملاً، ولا يدركون خطاياهم ونجاستهم. لا يكون عندهم إقْتِنَاعٌ حقيقي بالخطيئة ولا يحسون بحاجتهم إلى التوبة. وإذا لا يرون حالة الهلاك التي هم فيها لتعديهم شريعة الله فهم لا يدركون حاجتهم إلى دم المسيح المكفّر. والإنسان يقبل رجاء الخلاص من دون تغيير جوهري في القلب أو إصلاح للحياة. وهكذا تكثر هدايات سطحية وتنضم جماهير غفيرة ممن لم يرتبطوا بالمسيح أبداً إلى الكنيسة.

تحتل النظريات الخاطئة عن التقديس، التي تنشأ من إهمال شريعة الله أو نبذها، مكاناً رفيعاً مرموقاً في الحركات والنهضات الدينية في هذه الأيام. هذه النظريات زائفة وكاذبة في العقيدة وخطرة في عواقبها العملية. وحقيقة كونها تحظى برضا الجميع تحتم على الجميع أن يدركوا إدراكاً واضحاً ما تُعلم به الكتب المقدسة حول الموضوع.

ما هو التقديس؟

التقديس الصحيح عقيدة كتابية. فالرسول بولس يعلن في رسالته إلى تسالونيكي قائلا: « هذه هي إرادة الله ». ويصلي قائلا: « وَإِلَهُ السَّلَامِ نَفْسُهُ يُقَدِّسُكُمْ بِالتَّمَامِ » (١ تسالونيكي ٤: ٣؛ ٥: ٢٣). ويعلمنا الكتاب تعليمًا واضحًا ماهية التقديس وكيفية الوصول إليه. لقد صلى المخلص لأجل تلاميذه قائلا: « قَدْسَهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلَامُكَ هُوَ حَقٌّ » (يوحنا ١٧: ١٧). وبولس يعلمنا قائلا أن على المؤمن أن يكون « مُقَدَّسًا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ » (رومية ١٥: ١٦). وما هو عمل وَالرُّوحِ الْقُدُسِ؟ لقد أخبر يسوع تلاميذه قائلا: « وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْسِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ » (يوحنا ١٦: ١٣). وصاحب المزامير: يقول: « شريعتك حق » (مزمو ١١٩: ١٤٢) فبواسطة كلمة الله وروحه تكشف للناس مبادئ البر العظيمة المشتملة في شريعته. وبما أن شريعة الله « مقدسة وعادلة وصالحة » (رومية ٧: ١٢) وصورة طبق الأصل عن كماله الإلهي فإن الأخلاق التي تتكون بالطاعة لتلك الشريعة لا بد أن تكون أيضًا مقدسة. والمسيح هو المثال الكامل لتلك الأخلاق فهو يقول: « إني أنا قد حفظت وصايا أبي »، « في كل حين أفعل ما يرضيه » (يوحنا ١٥: ١٠؛ ٨: ٢٩). وعلى اتباع المسيح أن يكونوا مثله، وبنعمة الله أن تكون لهم صفات متفقة مع مبادئ شريعته المقدسة. وهذا هو التقديس حسب تعليم الكتاب المقدس.

بالإيمان فقط

ويمكن إنجاز هذا العمل بواسطة الإيمان بالمسيح فقط وبواسطة قوة روح الله الساكن في القلب. إن بولس يوصي المؤمنين بقوله: « تَمَمُّوا خَلَاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ » (فيلبي ٢: ١٢، ١٣). سيشعر المسيحي بنوازع الخطيئة لكنه سيثبر عليها حربًا دائمة لا هوادة فيها. هذا هو الوقت الذي فيه يحتاج المؤمن إلى معونة المسيح، فيتحد الضعف البشري بالقوة الإلهية ويهتف بالإيمان قائلا: « شُكْرًا لِلَّهِ الَّذِي يُعْطِينَا الْعَلْبَةَ بِرَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ » (١ كورنثوس ١٥: ٥٧).

يعلمنا الكتاب بكل وضوح أن عمل التقديس متدرج. فإذا وجد الخاطئ في التجديد سلامًا مع الله بدم الكفارة تكون الحياة المسيحية قد بدأت. وعليه الآن أن يتقدم « إلى الكمال » (عبرانيين ٦: ١) وينمو « إلى قياس قامة ملء المسيح ». يقول بولس الرسول: « أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وَرَاءَ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامٌ. أَسْعَى نَحْوَ الْعَرَضِ لِأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللَّهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ » (فيلبي ٣: ١٣، ١٤). وبطرس يضع أماننا الخطوات التي بواسطتها يمكننا الوصول إلى حالة التقديس كما رسمه الكتاب فيقول: « وَلِهَذَا عَيْنُهُ وَأَنْتُمْ بَادِلُونَ كُلَّ اجْتِهَادٍ قَدُمُوا فِي إِيمَانِكُمْ فَضِيلَةً، وَفِي الْفَضِيلَةِ مَعْرِفَةً، وَفِي الْمَعْرِفَةِ تَعَفُّفًا، وَفِي التَّعَفُّفِ صَبْرًا، وَفِي الصَّبْرِ تَقْوَى، وَفِي التَّقْوَى مَوَدَّةَ أَخَوِيَّةٍ، وَفِي الْمَوَدَّةِ الْأَخَوِيَّةِ مَحَبَّةٌ... لِأَنَّكُمْ إِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ، لَنْ تَزَلُوا أَبَدًا » (٢ بطرس ١: ٥-١٠).

إن الذين يختبرون التقديس الكتابي لا بد أن يظهروا روح الوداعة. فهم كموسى قد رأوا عظمة جلال القداسة ويرون عدم استحقاقهم على نقيض طهارة الإله السرمدى وكماله السامي.

كان النبي دانيال مثالا للتقديس الحقيقي. لقد قضى حياته الطويلة في الخدمة النبيلة لسيده. كان « الرجل المحبوب » لدى السماء (دانيال ١٠: ١١). ومع ذلك فبدلاً من أن يدعي لنفسه الطهارة والقداسة اعتبر نفسه واحداً من الخطاة الفعليين عندما كان يتوسل لأجل شعبه أمام الله فيقول: « لا لأجل برنا نطرح تضرعاتنا أمام وجهك بل لأجل مراحمك العظيمة »، « أخطأنا عملنا شراً »، ثم يعلن قائلاً: « وبينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيئتي وخطيئة شعبي ». وبعد ذلك عندما ظهر له ابن الله ليعلمه ويقدم إليه إرشاداً يقول دانيال: « ونضارتي تحولت فيَّ إلى فساد ولم أضبط قوة » (دانيال ٩: ١٨، ١٥، ٢٠، ١٠: ٨).

لا تمجيد للذات

وعندما سمع أيوب صوت الرب من العاصفة صاح قائلاً: « أرفض (نفشي) وأندم في التراب والرماد » (أيوب ٤٢: ٦). وعندما رأى إشعياء مجد الرب وسمع الكروبيم ينادون قائلين: « قدوس قدوس قدوس رب الجنود » صرخ قائلاً: « وَيَلُّ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ » (إشعياء ٦: ٣، ٥). وبولس بعدما اختطف إلى السماء الثالثة وسمع أشياء لا يجوز لإنسان أن ينطق بها يتحدث عن نفسه على أنه « أصغر جميع القديسين » (٢ كورنثوس ١٢: ٢-٤؛ أفسس ٣: ٨). ويوحنا الحبيب الذي اتكأ على صدر يسوع ورأى مجده سقط كميته أمام رجلي الملاك (رؤيا ١: ١٧).

لا يمكن للذين يسيرون في ظل الصليب أن يمجدوا أنفسهم أو يدعوا أنهم قد تحرروا من الخطيئة. فهم يحسون بأن خطيئتهم هي التي تسببت في الآلام والعذابات التي سحقت قلب ابن الله، وهذا الفكر يقودهم إلى التذلل والانسحاق. والذين هم أقرب الناس إلى يسوع يدركون كل الإدراك ضعف البشرية وشرها، وأن رجاءهم الوحيد هو في استحقاق مخلصهم المصلوب والمقام.

إن التقديس المشهور الآن في عالم الدين يحمل معه روح تمجيد الذات والاستخفاف بشريعة الله مما يجعله يختلف عن ديانة الكتاب. والذين يدافعون عنه يعلمون الناس قائلين أن التقديس هو عمل لحظة بواسطته يحصلون على القداسة الكاملة بالإيمان وحده. وهم يقولون: « آمن فقط فتحصل على البركة ». ويظنون أنه لا يُطلب ممن ينال هذه البركة أن يبذل أي مجهود بعد ذلك. وهم في الوقت نفسه ينكرون سلطان شريعة الله ويحتجون قائلين إنهم قد تحرروا من التزام حفظ الوصايا. ولكن أيمن للناس أن يكونوا قديسين طبقاً لمشيئة الله وصفاته من دون أن يكونوا في حالة وفاق مع المبادئ التي هي تعبير عن طبيعته ومشيئته والتي ترينا ما الذي يرضيه؟

دين سهل

إن رغبة الناس في الحصول على دين سهل لا يتطلب جهداً ولا إنكاراً للذات ولا انفصالاً عن جهالات العالم جعلت لتعليم الإيمان والإيمان وحده عقيدة شائعة. ولكن ما الذي تقوله كلمة الله؟ يقول يعقوب الرسول: « مَا الْمُنْفَعَةُ يَا إِخْوَتِي إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيْمَانًا وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدَرُ الْإِيْمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟... هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الْبَاطِلُ أَنَّ الْإِيْمَانُ بَدُونِ أَعْمَالٍ مَيِّتٌ؟ أَلَمْ يَتَبَرَّرْ إِبْرَاهِيمُ أَبُونَا بِالْأَعْمَالِ، إِذْ قَدَّمَ إِسْحَاقَ ابْنَهُ عَلَى الْمَذْبَحِ؟ فَتَرَى أَنَّ الْإِيْمَانَ عَمَلٌ مَعَ أَعْمَالِهِ، وَبِالْأَعْمَالِ

أكمل الإيمان... تَرَوْنَ إِذَا أَنَّهُ بِالْأَعْمَالِ يَتَّبَرَّرُ الْإِنْسَانُ، لَا بِالْإِيمَانِ وَحْدَهُ « (يعقوب ٢: ١٤-٢٤).
إن شهادة كلمة الله هي ضد هذا التعليم المعرقل لتعليم الإيمان من دون أعمال. فليس الإيمان هو الذي يطالب برضى السماء من دون الامتثال للشروط التي على أساسها تُمنح الرحمة، بل هي الغطرسية. لأن الإيمان الحقيقي له أساسه في المواعيد والشروط التي يقدمها الكتاب.
لا يخدع أحد نفسه بالاعتقاد أنه يمكنه أن يكون قديسا في حين أنه يتعمد التعدي على مطلب واحد من مطالب الله. فارتكاب خطيئة معروفة يُسكت صوت الروح الشاهد ويفصل النفس عن الله.
« الخطيئة هي التعدي ». و « كل من يخطئ (أي يتعدى على الشريعة) لم يبصره ولا عرفه » (١ يوحنا ٣: ٦). إن يوحنا مع أنه يتكلم كثيرا عن المحبة في رسائله فإنه لا يتردد في الكشف عن الصفة الحقيقية لتلك الفئة من الناس الذين يدعون أنهم قد تقدسوا في حين أنهم عايشون في حال التعدي على شريعة الله. فيقول: « من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب وليس الحق فيه. وأما من حفظ كلمته فحقا في هذا قد تكملت محبة الله » (١ يوحنا ٢: ٤، ٥). هنا اختبار لاعتراف كل واحد. لا يمكننا أن ننسب القداسة إلى أي إنسان من دون أن نأتي به إلى مقياس الله الوحيد للقداسة في السماء وعلى الأرض. فإذا استخف الناس بالشريعة الأبدية وحقروا من شأن وصايا الله ونقضوا إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلموا الناس هكذا فلن يكون لهم أي اعتبار في نظر السماء. ونعرف نحن أن ادعاءاتهم كانت على غير أساس.

وادعاء الإنسان أنه بلا خطيئة هو في حد ذاته برهان على أن من يقدم هذا الادعاء بعيد كل البعد من القداسة. فلأنه لا يدرك إدراكا حقيقيا طهارة الله وقداسته غير المحدودة، ولا ما يجب أن يصير إليه الذين يريدون أن يكونوا على وفاق مع صفاته، ولأنه لا يدرك إدراكا صحيحا طهارة يسوع وسمو جماله وخبث الخطيئة وشرها، لأجل هذا يعتبر ذلك الإنسان نفسه قديسا. وكلما زاد ابتعاده عن المسيح ونقص إدراكه لصفات الله ومطالبه كلما بدا بارا جدا في عيني نفسه.

ذبيحة حية

يتناول التقديس المقدم إلينا في الكتاب كيان الإنسان كله، في الروح والنفس والجسد. لقد صلى بولس لأجل أهل تسالونيكي قائلا: « لَتُحْفَظْ رُوحُكُمْ وَنَفْسُكُمْ وَجَسَدُكُمْ كَامِلَةً بَلَا لَوْمٍ عِنْدَ مَجِيءِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ » (١ تسالونيكي ٥: ٢٣). ومرة أخرى يكتب للمؤمنين قائلا: « أَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ بَرَأْفَةَ اللَّهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ » (رومية ١٢ : ١). وفي عهد إِسْرَائِيلَ قديما كانت كل ذبيحة تُقدَّم تُفحص جيدا. فإذا اكتشف أي عيب في الحيوان المقدم كان يُرفض لأن الله أمر أن يكون كل قربان « بلا عيب ». فكَذلك المسيحيون يُطلب منهم أن يقدموا أجسادهم « ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله ». فلكي يفعلوا هذا ينبغي أن تُحفظ كل قواهم في أفضل حالة ممكنة. فكل عمل من شأنه أن يضعف قوى الجسد أو العقل يجعل الإنسان غير أهل لخدمة الله خالقه. وهل يرضى الله بشيء أقل من أفضل ما في وسعنا أن نقدمه؟ لقد قال المسيح: « تحب الرب إلهك من كل قلبك ». فالذين يحبون الله من كل القلب سيكونون راغبين في أن يسدوا

اليه أفضل خدمة في حياتهم، ويطلبون على الدوام أن يجعلوا كل قوى كيانه في حالة وفاق مع القوانين التي تزيد من قدرتهم على عمل إرادته. أنهم لن يجعلوا الانغماس في الشهية أو الشهوات وسيلة أضعاف أو تدنيس للقربان الذي يريدون تقديمه إلى أبيهم السماوي.

يقول بطرس: « أطلب إليكم ... أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس » (١ بطرس ٢: ١١). فكل تمتع خاطئ يعمل على تخدير القوى وإماتة الأحاسيس الذهنية والروحية، فلا تستطيع كلمة الله أو روحه أن تؤثر في القلب إلا بقدر ضئيل جدا. وبولس كتب يقول لأهل كورنثوس: « لنظهر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح مكملين القداسة في خوف الله » (٢ كورنثوس ٧: ١). ومع ثمر الروح الذي هو « مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلَامٌ، طَوْلٌ أَنَاةٌ لُطْفٌ صَلَاحٌ، إِيْمَانٌ، وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ » (غلاطية ٥: ٢٢، ٢٣).

ولكن على رغم كل هذه الإعلانات الموحى بها ما أكثر المعترفين بالمسيحية الذين يوهنون قواهم بالركض في أثر الربح أو عبادة الزي والأناقة، وما أكثر من يحطون من قدر إنسانيتهم الجليلة المجيدة بالانغماس في النهم والشراهة وشرب الخمر أو التمتع بالمسرات المحرمة. والكنيسة بدلا من أن توبخ هذه الشرور فإنها في غالب الأحيان تشجع الشر بالالتجاء إلى الشاهية وطلب الربح أو حب الملذات لكي تملأ بالمال خزانتها، لأن محبتها للمسيح هي أضعف من أن تملأها. ولو كان ليسوع أن يدخل كنائس اليوم ويرى الولايم والتجارة النجسة التي تدار باسم الدين أما كان يطرد أولئك المنجسين كما قد طرد الصيارفة من الهيكل؟

طهارة الإنجيل

يعلن الرسول يعقوب أن الحكمة التي من فوق هي « أولا طاهرة ». ولو جابه الرسول أولئك الذين ينطقون باسم يسوع العزيز بشفاهمم التي قد نجسها التبغ، أولئك الذين أنفاسهم وأشخاصهم ملوثة برائحتهم الكريهة والذين يفسدون هواء السماء ويرغمون كل من حولهم على استنشاق سمومه، ولو جرى في حضوره مثل هذا العمل المضاد كلياً لطهارة الإنجيل، أما كان يشهر به على أنه « أرضي نفساني شيطاني؟ » إن عبيد التبغ الذين يدعون أن عندهم بركة التقديس الكامل يتحدثون عن رجائهم في السماء، لكن كلمة الله تعلن بكل صراحة أنه « لَنْ يَدْخُلَهَا شَيْءٌ دَنَسَ » (رؤيا ٢١: ٢٧).

« أم لستم تعلمون أن جسديكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله. وأنكم لستم لأنفسكم. لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله » (١ كورنثوس ٦: ١٩، ٢٠). إن ذلك الذي جسده هيكل للروح القدس لن تستعبده عادة وبييلة. فكل قواه هي للمسيح الذي اشتراه بدمه. وأملاكه هي للرب. وكيف يكون مبرراً وهو يبذر رأس المال هذا المودع أمانة بين يديه؟ إن المعترفين بالمسيح ينفقون كل عام مبلغاً ضخماً على الملاذ العديمة النفع والوبييلة بينما توجد نفوس تهلك وليس من يقدم إليها كلمة الحياة. لقد سلَبنا الله في العشور والتقدمة بينما نحن نحرق على مذبح الشهوة المهلكة أكثر مما نقدم لإسعاف المساكين أو لنشر رسالة الإنجيل. لو كان كل المعترفين بأنهم أتباع المسيح مقدسين بالحق لكانت أموالهم، بدلا من أن

تصرف في تمتعات باطلة لا داعي لها بل وضارة، تتحول إلى خزانة الرب، ولكان المسيحيون يضربون أروع الأمثلة على التعفف وإنكار الذات والتضحية. وحينئذ يصبحون نورا للعالم. لقد أسلم العالم نفسه للشهوات والملذات، « شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة » التي تتحكم في جماهير الناس وتسيطر عليهم. أما أتباع المسيح فلهم دعوة أقدم: « اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجسا ». وفي نور كلمة الله يسوغ لنا أن نعلن أن التقديس الذي لا يكون من نتائج هذا الإقلاع التام عن كل ممارسات العالم ومسراته الخاطئة لا يمكن أن يكون تقديسا حقيقيا.

أما الذين يمثلون لهذه الشروط وهي: « اخرجوا من وسطهم واعتزلوا... ولا تمسوا نجسا » فالرب يقدم إليهم هذا الوعد: « فأقبلكم وأكون لكم أباً وأنتم تكونون لي بنين وبنات يقول الرب القادر على كل شيء » (٢ كورنثوس ٦: ١٧، ١٨). إنه امتياز وواجب على كل مسيحي أن يكون له اختبار غني ووفير في أمور الله. قال يسوع: « أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة » (يوحنا ٨: ١٢). « أما سبيل الصديقين فكنور مشرق يتزايد وينير إلى النهار الكامل » (أمثال ٤: ١٨). إن كل خطوة من خطوات الإيمان والطاعة تُدخل النفس إلى ارتباط أقرب وأوثق بنور العالم الذي « ليس فيه ظلمة البتة ». إن أشعة شمس البر المتألقة تشرق على عبيد الله، وعليهم هم أن يعكسوا أشعة نوره. فكما تخبرنا النجوم أن هنالك في السماء نورا عظيما تستنير هي وتنير بنوره، كذلك يجب على المسيحيين أن يجعلوا الأمر واضحا وجليا إنه يوجد إله على عرش الكون تستحق صفاته أن يمجدها الناس ويتمثلوا بها. إن مراحمه وطهارة صفاته وقداستها ستبدو جلية واضحة في حياة شهوده.

أولاد الله

يعدد بولس في رسالته إلى كولوسي البركات الممنوحة لأولاد الله. فيقول: « لَمْ نَزَلْ مُصَلِّينَ وَطَالِبِينَ لِأَجْلِكُمْ أَنْ تَمْتَلِئُوا مِنْ مَعْرِفَةِ مَسِيحَتِهِ، فِي كُلِّ حِكْمَةٍ وَفَهُمْ رُوحِي لَتَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلرَّبِّ، فِي كُلِّ رُضَى، مُثْمِرِينَ فِي كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَنَامِينَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ، مُتَّقَوِينَ بِكُلِّ قُوَّةٍ بِحَسَبِ قُدْرَةِ مَجْدِهِ، لِكُلِّ صَبْرٍ وَطُولِ أَنَاةٍ بِفَرَحٍ » (كولوسي ١: ٩-١١).

ومرة أخرى يكتب عن اشتياقه إلى أن يدرك الإخوة في أفسس سمو امتياز المسيحي. فهو يكشف لهم في أروع لغة شاملة عن القوة والمعرفة العجيبتين اللتين يمكنهم امتلاكهما كأبناء العلي وبناته. لقد كان من حقهم أن يتأيدوا « بالقوة بروحه في الإنسان الباطن » وأن يكونوا متأصلين ومتأسسين في المحبة، وأن يدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو ويعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة. لكن صلاة الرسول تصل إلى ذروة الامتياز عندما يطلب « أن تمتلئوا إلى كل ملء الله » (أفسس ٣: ١٦-١٩).

هنا تُعلن أعلى الأشياء التي نستطيع أن ندركها وننالها ونبليها بالإيمان بوعود أبينا السماوي عندما تتمم مطالبه. إن لنا في استحقاقات المسيح دخولا إلى عرش القدرة الأزلي. فذاك « الَّذِي لَمْ يُشْفَقْ

عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لِأَجَلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لَا يَهْبُنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلُّ شَيْءٍ؟» (رومية ٨: ٣٢). لقد أعطى الآب لابنه الروح من دون كيل ولنا نحن أن نأخذ من ملئه. يقول يسوع: «فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارُ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلَادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الآبُ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ، يُعْطِي وَالرُّوحَ الْقُدُسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ؟» (لوقا ١١: ١٣). «إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئاً بِاسْمِي فَإِنِّي أَفْعَلُهُ.» «اطْلُبُوا تَأْخِذُوا لِيَكُونَ فَرْحَكُمْ كاملاً» (يوحنا ١٤: ١٤؛ ١٦: ٢٤).

وفي حين أن حياة المسيحي تمتاز بالوداعة ينبغي ألا تتسم بطابع الحزن وحط الإنسان من قدر نفسه. إنه لامتياز أن يحيا كل إنسان بحيث يرضى الله عنه ويباركه. فالآب السماوي لا يريد أن تقع تحت الديونة والظلمة. وليس من دلائل الوداعة الحق أن يسير الإنسان مطأطئ الرأس وقلبه ممتلئ بأفكار ذاتية. يمكننا أن نذهب إلى يسوع ونتطهر ونقف أمام الشريعة بلا عار أو حزن. «إذا لا شيء من الديونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رومية ٨: ١).

في المسيح يمكن لأبناء آدم الساقطين أن يصيروا «أبناء الله». «لَآنَ الْمُقَدَّسَ وَالْمُقَدَّسِينَ جَمِيعَهُمْ مِنْ وَاحِدٍ، فَلِهَذَا السَّبَبُ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَدْعُوهُمْ إِخْوَةً» (عبرانيين ٢: ١١). ينبغي أن تكون حياة المسيحي حياة الإيمان والنصرة والفرح في الرب. «كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ اللَّهِ يَغْلِبُ الْعَالَمَ. وَهَذِهِ هِيَ الْعَلْبَةُ الَّتِي تَغْلِبُ الْعَالَمَ: إِيْمَانُنَا» (١ يوحنا ٥: ٤). ونعمًا تكلم خادم الرب نحما حين قال: «فرح الرب هو قوتكم» (نحميا ٨: ١٠). وبولس يقول: «افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا»؛ «افرحوا كل حين. صلوا بلا انقطاع. اشكروا في كل شيء لأن هذه هي مشيئة الله في المسيح يسوع من جهتكم» (فيلبي ٤: ٤؛ ١ تسالونيكي ٥: ١٦-١٨).

هذه هي ثمار التجديد والتقديس كما هي واردة في الكتاب، ولكن نادرا ما تُشاهد ثمارها لأن مبادئ البر العظيمة المقدمة في شريعة الله تقابل من العالم المسيحي بعدم اكتراث وإهمال معيب. وهذا هو السبب الذي لأجله لا يظهر إلا القليل جدا من ذلك العمل العميق الباقي، عمل روح الله الذي كان طابعه الانتعاشات التي حدثت في السنين السالفة.

إننا نغير بالنظر والمشاهدة. وبما أن تلك الوصايا المقدسة التي فيها كشف الله للناس عن كمال صفاته وقداستها قد أهملت، بينما التعاليم والنظريات البشرية اجتذبت عقول الناس، فلا غرابة أن يتبع ذلك تدهور في التقوى الحيوية في الكنيسة. لقد قال الرب: «تَرْكُونِي أَنَا يَنْبُوعَ الْمِيَاهِ الْحَيَّةِ، لِيَنْقُرُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَبَارًا، أَبَارًا مُشَقَّقَةً لَا تَضْبُطُ مَاءً» (إرميا ٢: ١٣).

«طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ فِي مَشُورَةِ الْأَشْرَارِ... لَكِنْ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ مَسَرَّتُهُ، وَفِي نَامُوسِهِ يَلْهَجُ نَهَارًا وَلَيْلًا. فَيَكُونُ كَشَجَرَةٍ مَعْرُوسَةٍ عِنْدَ مَجَارِي الْمِيَاهِ، الَّتِي تُعْطِي ثَمَرَهَا فِي أَوَانِهِ، وَوَرَقُهَا لَا يَذْبُلُ. وَكُلُّ مَا يَصْنَعُهُ يَنْجَحُ» (مزمور ١: ١-٣). إننا عندما نعيد لشريعة الله كرامتها ونضعها في مركزها الشرعي اللائق بها ينتعش الإيمان القديم والتقوى القديمة بين المعترفين بأنهم شعب الله. «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: قِفُوا عَلَى الطَّرِيقِ وَانْظُرُوا، وَاسْأَلُوا عَنِ السَّبِيلِ الْقَدِيمَةِ: أَيْنَ هُوَ الطَّرِيقُ الصَّالِحُ؟ وَسِيرُوا فِيهِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنَفُوسِكُمْ» (إرميا ٦: ١٦).

٢٨ - الدينونة الاستقصائية (التحقيقية)

« كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ وُضِعَتْ عُرُوشٌ، وَجَلَسَ الْقَدِيمُ الْيَافِئَةُ. لِبَاسُهُ أَيْضُ كَالثَّلْجِ، وَشَعْرُ رَأْسِهِ كَالصُّوفِ النَّقِيِّ، وَعَرْشُهُ لَهَيْبُ نَارٍ، وَبَكَرَاتُهُ نَارٌ مُتَّقَدَةٌ. ١٠ نَهْرُ نَارٍ جَرَى وَخَرَجَ مِنْ قُدَّامِهِ. أَلُوفُ أَلُوفٍ تَخْدُمُهُ، وَرَبَوَاتُ رَبَوَاتٍ وَقُوفٌ قُدَّامَهُ. فَجَلَسَ الدِّينُ، وَفُتِحَتِ الْأَسْفَارُ » (دانيال ٧: ٩، ١٠).

لقد انكشفت لعيني النبي رؤيا اليوم العظيم المهيّب عندما تُعرض أمام عيني ديان كل الأرض أخلاق الناس وحياتهم لأجل فحصها فيجازي كل واحد « كما يكون عمله ». إن القديم الأيام هو الله الأب. يقول المرنم: « من قبل أن تولد الجبال أو أبدأت الأرض والمسكونة منذ الأزل إلى الأبد أنت الله » (مزمور ٩٠: ٢). إنه هو، مصدر وجود كل الكائنات ونبع كل شريعة، الذي سترأس في الدينونة. وسيكون حاضراً في تلك المحاكمة العظيمة « ربوات ربوات وألوف ألوف » من الملائكة كخدام وشهود.

« كُنْتُ أَرَى فِي رُؤْيِ اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الْيَافِئَةُ، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأَعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لَتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ وَالْأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانُ أَبَدِيٍّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لَا يَنْقَرُضُ » (دانيال ٧: ١٣، ١٤). إن مجيء المسيح الموصوف هنا ليس هو مجيئه الثاني إلى الأرض. فهو يأتي إلى القديم الأيام في السماء ليأخذ سلطاناً ومجداً وملكوته يعطاها في ختام عمله كوسيط. هذا المجيء، لا مجيئه الثاني إلى الأرض، هو الذي أنبئ عنه في النبوة ويحدث في نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم في عام ١٨٤٤. إن رئيس كهنتنا العظيم يدخل إلى قدس الأقداس تحف به ملائكة السماء، وهناك يظهر في حضرة الله ليقوم بآخر أعمال خدمته لأجل الإنسان: إنجاز عمل الدينونة الاستقصائية وصنع كفارة عن كل من يتبرهن استحقاقهم فوائدها.

في الخدمة الرمزية لم يكن من نصيب في خدمة يوم الكفارة إلا لمن أتى أمام الله معترفاً وتائباً وغُفرت خطاياهم بواسطة دم ذبيحة الخطيئة ونقلت إلى القدس. وكذلك في اليوم العظيم، يوم الكفارة النهائية والدينونة الاستقصائية، فالقضايا التي يُنظر فيها هي وحدها التي تخص المعتبرين شعب الله. أما دينونة الأشرار فمنفصلة، وهي عمل منفرد بذاته وتحدث في وقت متأخر بعد هذا. « لَأنَّهُ الْوَقْتُ لِابْتِدَاءِ الْقَضَاءِ مِنْ بَيْتِ اللَّهِ. فَإِنْ كَانَ أَوَّلًا مِنَّا، فَمَا هِيَ نِهَائَةُ الَّذِينَ لَا يُطِيعُونَ إِنْجِيلَ اللَّهِ؟ » (١ بطرس ٤: ١٧).

إن الأسفار الموجودة في السماء المسجل فيها أسماء الناس وأعمالهم هي التي ستقرر أحكام الدينونة. يقول دانيال النبي: « فَجَلَسَ الدِّينُ، وَفُتِحَتِ الْأَسْفَارُ ». والرأي إذ يصف المنظر نفسه يضيف هذا القول: « وَأَنْفُتِحَتْ أَسْفَارُ، وَأَنْفُتِحَ سَفَرٌ آخَرٌ هُوَ سِفَرُ الْحَيَاةِ، وَدِينِ الْأَمْوَاتِ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ » (رؤيا ٢٠: ١٢).

يحتوي سفر الحياة على أسماء كل من دخلوا خدمة الله. وقد أمر يسوع تلاميذه قائلاً: « افرحوا ... إن أسماءكم كتبت في السماوات » (لوقا ١٠: ٢٠). وبولس يتكلم عن زملائه الأمناء « الذين أسماءهم في سفر الحياة » (فيلبي ٤: ٣). وإذ نظر دانيال عبر السنين ورأى « زمان ضيق لم يكن منذ كانت أمة » أعلن أن شعب الله سينجى، « كل من يوجد مكتوباً في السفر ». والرأي يقول أن الذين سيدخلون مدينة الله سيكونون « المكتوبين في سفر حياة الخروف » (دانيال ١٢: ١؛ رؤيا ٢١: ٢٧) وحدهم من دون سواهم.

وقد كُتب أمام الله « سفر تذكرة » وسُجلت فيه الأعمال الصالحة التي هي من عمل « الذين اتقوا الرب والمفكرين في اسمه » (ملاخي ٣: ١٦). إن كلام الإيمان الذي نطقوا به وأعمال المحبة التي قاموا بها مسجلة في أسفار السماء. ويشير نحميا إلى ذلك عندما يقول: « اذكرني يا الهي ... ولا تمح حسناتي التي عملتها نحو بيت إلهي » (نحميا ١٣: ١٤). ففي سفر تذكرة الله يُخلد كل عمل من أعمال البر. وفيه يدون بكل أمانة كل تجربة يقاومها المؤمن وكل شر ينتصر عليه وكل كلمة تعبر عن الرأفة والرحمة. كما يسجل فيه أيضاً كل أعمال التضحية وكل ألم وحزن احتمله عبيد الرب لأجل المسيح. وصاحب المزامير يقول: « تيهاني راقبت اجعل أنت دموعي في زقك. أما هي في سفرك » (مزمو ٥٦: ٨).

وكذلك يوجد سجل بخطايا الناس. « لَأَنَّ اللَّهَ يُحْضِرُ كُلَّ عَمَلٍ إِلَى الدَّيْنُونَةِ، عَلَى كُلِّ خَفِيٍّ، إِنْ كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ». « كُلُّ كَلِمَةٍ بَطَّالَةٍ يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ سَوْفَ يُعْطَوْنَ عَنْهَا حَسَابًا يَوْمَ الدِّينِ ». والمخلص يقول « بِكَلَامِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلَامِكَ تُدَانُ » (جامعة ١٢: ١٤؛ متى ١٢: ٣٦، ٣٧). وتظهر نوايا الإنسان الخفية وبواعثه في السجل الذي لا يخطئ لأن الله « سَيُنِيرُ خَفَايَا الظَّلَامِ وَيُظْهِرُ آرَاءَ الْقُلُوبِ » (١ كورنثوس ٤: ٥): « هَا قَدْ كُتِبَ أَمَامِي ... آثَامُكُمْ وَأَثَامُ آبَائِكُمْ مَعًا قَالَ الرَّبُّ » (إشعياء ٦٥: ٦، ٧). لا بد أن يمر عمل كل إنسان أمام عين الله الفاحصة ويسجل أما في خانة الأمانة وأما في خانة الخيانة. وأمام كل اسم يكتب في أسفار السماء كل كلمة بطالة وكل عمل أناني وكل واجب لم يتم وكل خطيئة سرية وكل تصنع ماهر بدقة عظيمة ومخيفة. والإنذارات المرسلّة من السماء والتي أهملت واللحظات التي ضاعت والفرص التي لم يحسن الناس استخدامها والتأثيرات التي حدثت أن للخير أو للشر بنتائجها البعيدة المدى، كل ذلك يدونه الملاك المسجل.

مقياس الدينونة

إن شريعة الله هي المقياس الذي بموجبه تقاس وتمتحن أخلاق الناس وحياتهم في يوم الدين. يقول الحكيم: « اتق الله واحفظ وصاياه لأن هذا هو [واجب] الإنسان كله. لأن الله يحضر كل عمل إلى الدينونة » (جامعة ١٢: ١٣، ١٤). ويعقوب الرسول يوصي إخوته قائلاً: « هَكَذَا تَكَلَّمُوا وَهَكَذَا أَفْعَلُوا كَعَتِيدِينَ أَنْ تُحَاكَمُوا بِنَامُوسِ الْحُرِّيَّةِ » (يعقوب ٢: ١٢).

سيكون للذين، في يوم الدينونة، « حُسِبُوا أَهْلًا » نصيب في قيامة الأبرار. فلقد قال يسوع: « الَّذِينَ حُسِبُوا أَهْلًا لِلْحُصُولِ عَلَى ذَلِكَ الدَّهْرِ وَالْقِيَامَةِ مِنَ الْأَمْوَاتِ ... لَأَنَّهُمْ مِثْلُ الْمَلَائِكَةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ

الله، إذ هُمُ أُنْبَاءُ الْقِيَامَةِ « (لوقا ٢٠: ٣٥، ٣٦). ثم هو يعلن أيضاً قائلاً: « فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ » (يوحنا ٥: ٢٩). ولن يقوم الأموات الأبرار إلا بعدما تتم الدينونة التي فيها يحسبون أهلاً « لِقِيَامَةِ الْحَيَاةِ ». ولهذا فهم لن يكونوا حاضرين بأشخاصهم في المحكمة عندما تفحص أسفارهم ويحكم في قضاياهم.

وس يظهر يسوع كشفيهم لهم ليتراجع لأجلهم أمام الله. « وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الْآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ » (١ يوحنا ٢: ١). « لَأَنَّ الْمَسِيحَ لَمْ يَدْخُلْ إِلَى أَقْدَاسِ مَصْنُوعَةٍ بِيَدِ أَشْبَاهِ الْحَقِيقَةِ، بَلْ إِلَى السَّمَاءِ عَيْنَهَا، لِيُظْهَرَ الْآنَ أَمَامَ وَجْهِ اللَّهِ لِأَجْلِنَا »، « فَمَنْ ثَمَّ يَقْدَرُ أَنْ يَخْلَصَ أَيْضاً إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللَّهِ إِذْ هُوَ حَيٌّ فِي كُلِّ حِينٍ لِيُشْفَعَ فِيهِمْ » (عبرانيين ٩: ٢٤؛ ٧: ٢٥).

فتح الأسفار

وعندما تفتح الأسفار في الدينونة تستعرض أمام الله حياة كل من قد آمنوا بيسوع. فإذ يبدأ شفيعنا بحياة من قد عاشوا أولاً على الأرض فهو يستعرض قضايا كل جيل بالتتابع ويختتم ذلك بالأحياء. كل اسم يذكر وكل قضية تفحص بتدقيق. فتقبل بعض الأسماء وترفض أسماء أخرى. ومتى وجد في الأسفار خطايا البعض باقية إذ لم يتوبوا عنها ولم تغفر فأسماءهم تمحى من سفر الحياة. وكل ما كتب لهم من أعمال صالحة في سفر تذكرة الله يمحي. لقد أعلن الله قائلاً لموسى: « مَنْ أَخْطَأَ إِلَيَّ أَمْحُوهُ مِنْ كِتَابِي » (خروج ٣٢: ٣٣). والنبي حزقيال يقول: « وَإِذَا رَجَعَ الْبَارُّ عَنْ بَرِّهِ وَعَمَلَ إِثْمًا وَفَعَلَ مِثْلَ كُلِّ الرَّجَاسَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا الشَّرِيرُ، أَفِيحْيَا؟ كُلُّ بَرِّهِ الَّذِي عَمِلَهُ لَا يُذَكَّرُ » (حزقيال ١٨: ٢٤).

فكل من قد تابوا عن الخطيئة توبة صادقة وبالإيمان صار لهم الحق في دم المسيح كذبيحتهم الكفارية كُتِبَ أَمَامَ أَسْمَائِهِمْ فِي أَسْفَارِ السَّمَاءِ الْغُفْرَانِ إِذْ قَدْ صَارُوا شُرَكَاءَ فِي بَرِّ الْمَسِيحِ وَوُجِدَ إِنْ صِفَاتِهِمْ عَلَى وَفَاقٍ مَعَ شَرِيعَةِ اللَّهِ. هؤلاء تَمْحَى خَطَايَاهُمْ وَيُحْسَبُونَ أَهْلًا لِلْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ. والرب يعلن على لسان إشعياء النبي قائلاً: « أَنَا أَنَا هُوَ الْمَاحِي دُنُوبِكَ لِأَجْلِ نَفْسِي، وَخَطَايَاكَ لَا أَدْكُرُهَا » (إشعياء ٤٣: ٢٥). ولقد قال يسوع: « مَنْ يَغْلِبْ فَذَلِكَ سَيَلْبَسُ ثِيَابًا بَيْضًا، وَلَنْ أَمْحُو اسْمَهُ مِنْ سَفَرِ الْحَيَاةِ، وَسَأُعْتَرِفُ بِاسْمِهِ أَمَامَ أَبِي وَأَمَامَ مَلَائِكَتِهِ »، « فَكُلُّ مَنْ يَعْتَرِفُ بِي قُدَّامَ النَّاسِ أَعْتَرِفُ أَنَا أَيْضاً بِهِ قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، وَلَكِنْ مَنْ يَنْكُرُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أُنْكِرُهُ أَنَا أَيْضاً قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ » (رؤيا ٣: ٥؛ متى ١٠: ٣٢، ٣٣).

إن أعظم اهتمام بيديه الناس بأحكام المحاكم الأرضية إنما يمثل، على نحو باهت، الاهتمام الذي يبدو في محاكم السماء عندما تستعرض الأسماء المكتوبة في سفر الحياة أمام ديان كل الأرض. وسيقدم الوسيط الإلهي التماساً بأن كل من قد انتصروا بالإيمان بدمه تغفر لهم معاصيهم ليعودوا إلى وطنهم في جنة عدن، ويكللون كمن هم وارثون معه « الْحُكْمُ الْأَوَّلُ » (مicha ٤: ٨). إن الشيطان إذ بذل جهوده ليخدع جنسنا ويجربنا كان يفكر في إحباط الخطة الإلهية في خلق الإنسان ولكن ها المسيح الآن يسأل أن تنفذ هذه الخطة كما لو لم يكن الإنسان قط أخطأ قط أو سقط. إنه لا يسأل الغفران والتبرير التام الشامل لشعبه فحسب، بل أيضاً أن يشاركوه في مجده ويجلسوا معه في

عرشه.

يتوسل لأجل رعايا نعمته

وفيما يسوع يتوسل لأجل رعايا نعمته يشكوهم الشيطان أمام الله كعصاة ومتعدين. لقد حاول المخادع الأعظم أن يسوقهم إلى الشكوك ويجعلهم يخسرون ثقتهم في الله ويحيدون عن محبته وينقضون شريعته. والآن ها هو يشير إلى سجل حياتهم والنقائص البادية في أخلاقهم وعدم مشابھتهم للمسيح، مما جلب العار على فاديتهم، وإلى كل الخطايا التي قد جربهم ليرتكبوها، وبسبب هذا كله فهو يدعي أنهم رعاياه.

لا يتحل يسوع عذرا لخطاياهم لكنه يظهر توبتهم وإيمانهم، وإذ يطالب بحقهم في الغفران يرفع يديه المثقوبتين أمام الآب والملائكة القديسين قائلا: « اني أعرفهم بأسمائهم. لقد نقشتهم على كفي » « دَبَّاحُ اللَّهِ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ. الْقَلْبُ الْمُنْكَسِرُ وَالْمُنْسَحِقُ يَا إِلَهَ لَا تَحْتَقِرْهُ » (مزور ٥١: ١٧). ثم يعلن قائلا للمشتكي على شعبه. « لِيَتَّهَرَكِ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَتَّهَرَكِ الرَّبُّ الَّذِي اخْتَارَ أُورُشَلِيمَ! أَفَلَيْسَ هَذَا شُعْلَةً مُنْتَشِلَةً مِنَ النَّارِ؟ » (زكريا ٣: ٢). إن المسيح سيُلبس عبده الأمانة ثوب بره ليحضرهم أمام أبيه « كَنِيْسَةً مَجِيدَةً، لَا دَنَسَ فِيهَا وَلَا غَضَنَ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ » (أفسس ٥: ٢٧). وستظل أسماءهم مكتوبة في سفر الحياة، وقد قيل عنهم: « سَيَمْشُونَ مَعِيَ فِي ثِيَابٍ بَيَضٍ لِأَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ » (رؤيا ٣: ٤).

وهكذا سيتحقق إتمام وعد العهد الجديد كاملاً « لِأَنِّي أَصْفَحُ عَنْ إِثْمِهِمْ، وَلَا أَذْكُرُ خَطِيئَتَهُمْ بَعْدُ »، « فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَفِي ذَلِكَ الزَّمَانِ يَقُولُ الرَّبُّ يُطْلَبُ إِثْمُ إِسْرَائِيلَ فَلَا يَكُونُ وَخَطِيئَةُ يَهُودَا فَلَا تُوْجَدُ » (إرميا ٣١: ٣٤؛ ٥٠: ٢٠). « فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ غَضَنُ الرَّبِّ بَهَاءً وَمَجْدًا، وَثَمَرُ الْأَرْضِ فَخْرًا وَزِينَةً لِلنَّاجِينَ مِنْ إِسْرَائِيلَ. وَيَكُونُ أَنَّ الَّذِي يَبْقَى فِي صِهْيُونَ وَالَّذِي يُتْرَكُ فِي أُورُشَلِيمَ، يُسَمَّى قُدُّوسًا. كُلُّ مَنْ كَتَبَ لِلْحَيَاةِ فِي أُورُشَلِيمَ » (إشعيا ٤: ٣).

محو الخطايا

لا بد أن يتم عمل الدينونة الاستقصائية ومحو الخطايا قبل مجيء الرب ثانية. وبما أن الأموات سيدانون مما هو مكتوب في الأسفار فإنه من المستحيل أن تمحى خطايا الناس إلا بعد الدينونة التي فيها تفحص قضاياهم. لكن بطرس الرسول يعلن بكل وضوح أن خطايا المؤمنين ستمحى عندما « عندما تَأْتِي أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ وَيُرْسِلُ يَسُوعُ الْمَسِيحَ » (أعمال ٣: ١٩، ٢٠). وفي نهاية الدينونة الاستقصائية سيأتي المسيح وأجرته معه ليجازي كل واحد كما يكون عمله.

في الخدمة الرمزية كان رئيس الكهنة بعدما يكفر عن إِسْرَائِيلَ يخرج وبيارك الجماعة. فكَذَلِكَ الْمَسِيحُ فِي نَهَايَةِ عَمَلِهِ كَوْسِيطٍ سَيُظْهِرُ « بَلَا خَطِيئَةٍ لِلْخَلَّاصِ » (عبرانيين ٩: ٢٨) ليبارك شعبه المنتظر بالحياة الأبدية. وكما أن الكاهن وهو يزيل الخطايا ويظهر منها القدس كان يعترف بها على رأس تيس عزازيل كذلك المسيح سيضع كل هذه الخطايا على الشيطان الذي هو أصل الخطيئة والمحرض عليها. ثم إن تيس عزازيل وهو حامل خطايا إِسْرَائِيلَ كان يرسل بعيدا إلى أرض مقفرة

(لاويين ٦: ٢٢). فكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ إِذْ يَحْمِلُ كُلَّ الْخَطَايَا الَّتِي جَعَلَ شَعْبُ اللَّهِ يَرْتَكِبُونَهَا سَيُظَلُّ مَحْبُوساً فِي الْأَرْضِ أَلْفَ سَنَةٍ وَالَّتِي تَكُونُ آنَذَاكَ مَقْفَرَةً وَخَرِبَةً بِلَا سَاكِنٍ، وَأَخِيرًا سَيَقَعُ عَلَيْهِ قِصَاصُ الْخَطِيئَةِ الْكَامِلِ فِي النَّارِ الَّتِي سَتَلْشِي الْأَشْرَارَ. وَهَكَذَا سَيُصَلُّ تَدْبِيرُ الْفِدَاءِ الْعَظِيمِ إِلَى إِتِمَامِهِ الْكَامِلِ فِي اسْتِئْصَالِ الْخَطِيئَةِ النَّهَائِي وَخِلَاصِ كُلِّ مَنْ يَرْغَبُونَ فِي الْإِبْتِعَادِ عَنِ الشَّرِّ.

في الزمن المحدد

وفي الزمن المحدد للدينونة — أي نهاية الـ ٢٣٠٠ يوم في عام ١٨٤٤ — بدأت عملية الفحص والتحقيق والاستقصاء ومحو الخطايا. وكل من قد اتخذوا لأنفسهم اسم المسيح لا بد أن يمروا في امتحانها الفاحص. وسيُدان الأحياء والأموات «مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ». والخطايا التي لم يَتُبْ عنها مرتكبوها ولا تركوها لن تغفر أو تَمْحَى مِنَ الْأَسْفَارِ بَلْ سَتَقْفُ شَاهِدَةٌ ضِدَّ الْخَاطِئِ فِي يَوْمِ اللَّهِ. ربما يكون هذا قد ارتكب أعماله الشريرة في نور النهار أو في دجى الليل ولكنها ظاهرة ومكشوفة أمام عيني ذاك الذي معه أمرنا. فملائكة الله رأوا كل خطيئة وسجلوها في الأسفار التي لا تخطئ. قد تُخْفَى الْخَطِيئَةُ أَوْ يَنْكُرُهَا مَرْتَكِبُهَا وَتُسْتَرَّ عَنْ عَيْنِي الْأَبِّ أَوْ الْأُمِّ أَوْ الزَّوْجَةِ أَوْ الْأَوْلَادِ أَوْ الرِّفَاقِ، وَرَبَّمَا لَا يَشْتَبِهُ أَحَدٌ أَقْلَ اشْتِبَاهٍ فِي مَرْتَكِبِ الشَّرِّ وَلَا يَعْرِفُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ وَلَكِنَّهُ مَكْشُوفٌ لَدَى أَجْنَادِ السَّمَاءِ. إِنَّ أَشَدَّ اللَّيَالِي حُلُوكَةً وَالتَّكْتُمِ الشَّدِيدِ وَالحِيلِ الْخَادِعَةِ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَكْفِي لِيُخْفِيَ فِكْرًا وَاحِدًا شَرِيرًا عَنْ عِلْمِ الْإِلَهِ السَّرْمَدِيِّ. فَعِنْدَ اللَّهِ سَجَلٌ دَقِيقٌ لِكُلِّ بَيَانٍ غَيْرِ عَادِلٍ وَلِكُلِّ مَعَامَلَةٍ ظَالِمَةٍ. لَا يَخْدَعُهُ التَّظَاهَرُ بِالتَّقْوَى وَلَا يَخْطِئُ فِي تَقْدِيرِ الْخُلُقِ. قَدْ يَنْخَدِعُ النَّاسُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْفَاسِدِيِّ الْقُلُوبِ لَكِنْ عَيْنِي اللَّهُ تَخْتَرِقَانِ كُلَّ الْحِجَابِ وَالْأَقْنَعَةِ وَتَكْتَشِفَانِ أَعْمَاقَ الْحَيَاةِ. يَا لَهُ مَنْ فِكْرٌ مَهِيْبٌ! فَإِذَا تَمَرَّ الْأَيَّامُ أَحَدُهَا فِي أَثَرِ الْآخِرِ عَابِرَةً إِلَى الْأَبَدِيَّةِ فَهِيَ تَحْمِلُ أَثْقَالَ سَجَلَاتِهَا لَتَدُونَ فِي أَسْفَارِ السَّمَاءِ. فَالْكَلَامُ الَّذِي قِيلَ وَالْأَعْمَالُ الَّتِي أُنْجِزَتْ لَا يُمْكِنُ اسْتِرْدَادُهَا. لَقَدْ سَجَلُ الْمَلَائِكَةُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كِلَيْهِمَا. إِنَّ أَقْوَى الْغَزَاةِ الْفَاتِحِينَ الَّذِينَ عَاشُوا عَلَى الْأَرْضِ لَا يُمْكِنُهُ اسْتِرْجَاعُ مَا سُجِّلَ عَلَيْهِ حَتَّى فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ. فَأَعْمَالُنَا وَأَقْوَالُنَا وَحَتَّى بَوَاعِثُنَا الْخَفِيَّةُ لَهَا وَزَنُهَا فِي تَقْرِيرِ مَصِيرِنَا الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُنَا أَوْ شَقَاؤُنَا. وَمَعَ أَنَّنَا قَدْ نَسَاهَا فَإِنَّهَا تَحْمِلُ شَهَادَتَهَا إِمَّا لِتَبْرِيرِنَا وَإِمَّا لِإِدَانَتِنَا. وَمِثْلَمَا تَنْطَبِعُ تَقَاطِيعُ الْوَجْهِ بِدَقَّةٍ لَا تَخْطِئُ عَلَى لَوْحَةِ الْفَنَانِ الْمَصْقُولَةِ كَذَلِكَ يُرْسَمُ الْخُلُقُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ فِي أَسْفَارِ السَّمَاءِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا أَقَلُّ مَا يَحْسُ الْإِنْسَانُ بِالْجُزْءِ مِنْ ذَلِكَ السَّجَلِ الَّذِي سَتُطَّلَعُ عَلَيْهِ الْخَلَائِقُ السَّمَاوِيَّةُ! وَلَوْ أُمْكِنَ أَنْ يَزَاحَ السَّتَارُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْعَالَمِ الْمَنْظُورِ وَالْعَالَمِ غَيْرِ الْمَنْظُورِ وَيَرَى بَنُو الْإِنْسَانِ مَلَكَكَ يَسْجَلُ عَلَيْهِمْ كُلُّ كَلِمَةٍ وَكُلِّ عَمَلٍ، وَأَنْهُمْ لَا يَدْرُونَ سِيَوَاجَهُونَ بِمَا قَدْ سَجَلُ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى فِي يَوْمِ الدِّينِ، فَمَا أَكْثَرَ الْكَلَامَ الَّذِي يَمْتَنِعُ النَّاسُ عَنِ النُّطْقِ بِهِ مِثْلَمَا يَفْعَلُونَ يَوْمِيًا، وَمَا أَكْثَرَ الْأَعْمَالِ الَّتِي كَانَ أَصْحَابُهَا يَكْفُونَ عَنْ عَمَلِهَا.

وفي الدينونة سيُفحص استخدام كل وزنة. كيف استخدمنا وشغلنا رأس المال الذي أقرضتنا إياه السماء. وهل الرب في مجيئه سيأخذ ما له مع ربا؟ هل أحسنّا استخدام القوى المودعة بين أيدينا وقلوبنا وعقولنا لمجد الله وخير العالم؟ وكيف استخدمنا أوقاتنا وأقلامنا وأصواتنا وأموالنا وتأثيرنا؟

وماذا فعلنا لأجل المسيح في أشخاص الفقراء والمجربين واليتيم والأرملة؟ لقد ائتمنا الله على كلمته المقدسة فماذا فعلنا بالنور والحق اللذين أعطيا لنا لجعل الناس يطلعون على الخلاص؟ لا قيمة لمجرد الاعتراف بالإيمان بالمسيح، إنما المحبة التي تبرهن عليها الأعمال هي وحدها الأصيلية. فالمحبة وحدها هي في نظر السماء ذات قيمة، وكل ما نفعله مدفوعين بها، مهما بدا صغيرا في تقدير الناس، يقبله الله ويكافئ عليه.

تبدو أنانية الناس الخفية ظاهرة في أسفار السماء. ففيها سجل الواجبات التي لم يتممها تجاه بني جنسهم، وكذلك نسيان مطالب المخلص. وفيها أيضاً سيرون كم مرة أعطي للشيطان الوقت والفكر والقوة التي هي من حق المسيح. إنه سجل مبك ومحزن ذاك الذي يحمله الملائكة إلى السماء. فالخلائق العاقلة والمعتفون بأنهم أتباع المسيح ينشغلون بإحراز ممتلكات العالم أو بالتمتع بالمرات الأرضية. والمال والوقت والقوة تقدم على مذبج التباهي وإطلاق العنان للأهواء. ولكن ما أقل الدقائق التي تكرر للصلاة وتفتيش الكتب وتذلل النفس والاعتراف بالخطيئة.

يخترع الشيطان مكاييد لا حصر لها ليشغل عقولنا ويصرفها عن التأمل في العمل نفسه الذي ينبغي أن نعرفه معرفة جيدة. فالمخادع الأعظم يبغض الحقائق العظيمة التي تكشف لنا عن الذبيحة الكفارية والوسيط القدير. وهو يعلم أنه بالنسبة إليه كل شيء يتوقف على صرف عقول الناس عن يسوع وحقه.

طريق القداسة

ينبغي للذين يريدون أن يشتركوا في بركات وساطة المخلص ألا يسمحوا لأي شيء بأن يتدخل في قيامهم بالواجب في تكميل القداسة بخوف الله. فالساعات الثمينة بدلا من صرفها في الملذات أو العناية بالمظاهر أو جمع المال ينبغي أن تقضي في درس كلمة الحق بروح الغيرة والصلاة. وينبغي لشعب الله أن يفهموا موضوع القدس والدينونة الاستقصائية فهما واضحا. فالجميع يحتاجون إلى أن يعرفوا لأنفسهم مركز رئيس كهنتهم العظيم وعمله، وإلا فسوف يستحيل عليهم أن يدربوا إيمانهم، الذي هو جوهر في هذا الوقت، أو أن يملأوا المركز الذي يقصد الله أن يملأوه. فلكل فرد نفس وله أن يخلصها أو يخسرها. ولكل واحد قضية معلقة في محكمة الله، وعلى كل واحد أن يقف أمام الديان العظيم وجها لوجه. إذا فكم هو مهم جدا أن يتأمل كل واحد ويفكر كثيرا في ذلك المنظر الخطير عندما تبدأ الدينونة وتفتح الأسفار وعندما يقوم كل إنسان مع دانيال لقرعته في نهاية الأيام.

وعلى كل من قد حصلوا على النور في هذه المواضيع أن يشهدوا بالحقائق العظيمة التي سلمهم الله إياها. إن القدس في السماء هو المركز الفعلي لعمل المسيح من أجل الناس. وهو يهم كل نفس حية على الأرض ويكشف لأنظار الناس عن تدبير الفداء ويأتي بنا إلى نهاية الزمن نفسها ويعلن لنا النتيجة الظاهرة للصراع بين البر والخطيئة. إنه لأمر في غاية الأهمية أن يفحص الجميع هذه المواضيع فحفا جيدا كاملاً حتى يكونوا قادرين على أن يجابوا فردياً عن سبب الرجاء الذي فيهم.

شفاعة المسيح

إن شفاعة المسيح في القدس الأعلى لأجل الإنسان أمر جوهري جدا لتدبير الخلاص كما كان موته على الصليب. فبموته بدأ ذلك العمل الذي بعد قيامته صعد ليكملة في السماء. وينبغي لنا أن ندخل بالإيمان إلى داخل الحجاب: « حَيْثُ دَخَلَ يَسُوعُ كَسَابِقُ لَأَجْلِنَا » (عبرانيين ٦: ٢٠). فنور صليب جلجثة ينعكس على ذلك المكان، وفيه نحصل على إدراك أوضح لأسرار الفداء. وخلاص الإنسان قد أكمل بعدما دفعت السماء كلفة باهظة غير محدودة. والذبيحة التي قُدمت كافية لسد كل مطالب الشريعة التي انتهكت على أوسع مدى. لقد فتح يسوع الطريق إلى عرش أبيه، وبواسطته تُقدَّم أمام الله كل الرغبات المخلصة التي تجيش في قلب كل من يأتون إليه بإيمان.

« مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لَا يَنْجَحْ، وَمَنْ يُقَرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرْحَمَ » (أمثال ٢٨: ١٣). لو عرف الذين يكتمون أخطاءهم وينتحلون لها الأعذار ورأوا كم يفرح الشيطان بهم وكيف يعير المسيح والملائكة القديسين بمسلك هؤلاء الناس لكانوا أسرعوا في الاعتراف بخطاياهم وطرحها بعيدا عنهم. فعن طريق النقائص الأخلاقية يحاول الشيطان أن يسيطر على كل العقل، وهو يعلم أنه سينجح لو تعلق المرء بها. لذلك يعمل الشيطان دائما على تضليل تابعي المسيح بمغالطته المميته القائلة أنه يستحيل عليهم أن ينتصروا. لكن يسوع يتوسل لأجلهم بحق يديه المثقوبتين وجسده المسحوق، ويعلن لكل من يرغب في أتباعه قائلا: « تَكْفِيكَ نِعْمَتِي » (٢ كورنثوس ١٢: ٩). « اَحْمَلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لِأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنَفْسِكُمْ. لِأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحَمْلِي خَفِيفٌ » (متى ١١: ٢٩، ٣٠). فلا يعتبرن أحدنا أن نقائصه تستعصى على العلاج، فالله سيعطي إيماننا ونعمة للانتصار عليها.

إننا الآن عايشون في يوم الكفارة العظيم. في أثناء الخدمة الرمزية، لما كان رئيس الكهنة يقوم بعملية التكفير عن إسرائيل، كان يُطلب من الجميع أن يذلوا أنفسهم بالتوبة عن الخطيئة والاتضاع أمام الرب لئلا يُقطعوا من بين الشعب. وكذلك كل من يرغبون في أن تبقى أسماؤهم في سفر الحياة، عليهم الآن في الأيام القليلة الباقية من أيام الامتحان أن يذلوا أنفسهم أمام الله بالحزن على الخطيئة والتوبة الصادقة. ينبغي لهم أن يفحصوا قلوبهم فحسا عميقا بكل أمانة. إن تلك الروح المستخفة المستهترة التي انغمس فيها كثيرون من المعترفين بالمسيح ينبغي طرحها بعيدا. فثمة حرب جادة صارمة أمام كل من يرغبون في قهر ميولهم الشريرة التي تحاول السيطرة عليهم. وعملية الاستعداد هي عمل فردي، فلسنا نخلص كجماعات. وطهارة إنسان لا تعوّض عن نقص آخر. فمع أن كل الأمم ستقف أمام الله للدينونة فهو سيمتحن قضية كل فرد بكل دقة واختبار فاحص كما لو لم يكن إنسان آخر عائشا على الأرض. ينبغي أن يمتحن كل إنسان ويوجد بلا دنس أو غضن أو شيء من مثل ذلك.

إن المشاهد المتصلة بعمل الكفارة الختامي خطيرة ومقدسة. والمصالح المشتملة عليه مهمة جدا. والدينونة جارية الآن في المقدس السماوي. وقد ظل هذا العمل متقدما سنين طويلة. وستمر تلك الدينونة سريعا إلى قضايا الأحياء، وليس من يعرف مقدار تلك السرعة. وفي محضر الله الرهيب ستراجع حياتنا. وفي هذا الوقت أكثر من كل وقت آخر يليق بكل نفس أن تلتفت إلى إنذار المخلص القائل: « اسْهَرُوا وَصَلُّوا، لَأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَكُونُ الْوَقْتُ » (مرقس ١٣: ٣٣). « فَإِنِّي إِن لَمْ تَسْهَرْ، أَقْدِمُ عَلَيْكَ كَلِصًّا، وَلَا تَعْلَمُ آيَةً سَاعَةً أَقْدِمُ عَلَيْكَ » (رؤيا ٣: ٣).

تقرير مصير الجميع

وعندما ينتهي عمل دينونة الفحص سيكون قد تقرر مصير الجميع للحياة أو للموت. وتنتهي فرصة الاختبار قبل ظهور الرب في سحب السماء بوقت قصير. والمسيح إذ سبق ونظر إلى ذلك الوقت في الرؤيا أعلن قائلا: « مَنْ يَظْلَمُ فَلْيَظْلَمْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَسْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ بَارٌّ فَلْيَتَبَرَّرْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ مُقَدَّسٌ فَلْيَتَقَدَّسْ بَعْدُ، وَهَآ أَنَا آتِي سَرِيعًا وَأُجَرِّتِي مَعِيَ لِأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ » (رؤيا ٢٢: ١١، ١٢).

سيظل الأبرار والأشرار عائشين على الأرض في حالة الجسد الفاني، والناس سيغرسون ويبنون ويأكلون ويشربون. غير شاعرين كلهم أن الحكم الذي لا يُرد قد نُطق به في المقدس السماوي. قبل الطوفان وبعدما دخل نوح الفلك أغلقه الرب عليه وأبقى الفجار خارجا، ولكن لمدى سبعة أيام إذ لم يكن الناس يعلمون أنه قد قضي عليهم بالهلاك ظلوا سائرين في عدم الاكتراث وحياة حب الملذات وكانوا يسخرون بنذر الدينونة الوشيكة الوقوع. وقد قال المخلص: « كَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الْإِنْسَانِ » (متى ٢٤: ٣٩). فتلک الساعة الحاسمة التي فيها سيتقرر مصير كل إنسان وسحب عرض الرحمة المقدمة للأئمة، تلك الساعة ستأتي بسكون كلص في منتصف الليل لا يلاحظها أحد.

« اسْهَرُوا إِذَا ... لِئَلَّا يَأْتِيَ بَغْتَةً فَيَجِدَكُمْ نِيَامًا! » (مزمور ١٣: ٣٥، ٣٦). إن الذين يملون من السهر فيرتدون إلى جواذب العالم ستكون حالتهم خطرة جدا. فعندما يكون رجل الأعمال مشغولا وهو يركض في طلب الربح، ومحب السرور واللذة يسعى في طلب ملذاته لينغمس فيها، والفتاة المتأنقة ترتب زينتها — قد يحدث أنه في تلك الساعة ينطق ديان كل الأرض بحكمه: "وَزِنْتُ بِالْمَوَازِينِ فَوُجِدْتُ نَاقِصًا" (دانيال ٥: ٢٧).

٢٩ - أصل الشر

إنَّ أصل الخطيئة وسبب وجودها هما مصدر ارتباك لعقول الكثيرين. إنهم يرون عمل الشر بعواقبه المرعبة، وهي الشقاء والخراب، فيتساءلون كيف يمكن أن يوجد كل هذا تحت سيادة ذاك الذي هو كلي الحكمة والقدرة والمحبة. هنا سر لا يجدون له إيضاحاً. وفي حال عدم التأكد والشك هذين، يعمون عن الحقائق المعلنة بوضوح في كلمة الله التي هي جوهرية للخلاص. ثمة أولئك الذين في تساؤلهم عن وجود الخطيئة يريدون ويحاولون التغلغل في أعماق ما لم يعلنه الله قط، ولذلك لا يجدون حلاً لمشاكلهم، وعلى غرار المدفوعين بدافع الميل إلى الشك والمماحكة يتمسكون بهذا كعذر لرفض الكلمة المقدسة؛ ولكن ثمة آخرون ممن يخفقون في فهم مشكلة الشر العظيمة فهما مرضيا من حقيقة كون التقليد والتحريف قد لُفّا بالغموض تعليم الكتاب المقدس عن صفات الله وطبيعة حكمه ومبادئ معاملته للخطيئة.

من المستحيل علينا أن نوضح أصل الخطيئة بحيث نقدم سبباً لوجودها. ومع ذلك يمكن فهم أصل الخطيئة واتجاهها النهائي فهما كافياً لإعلان عدالة الله وإحسانه في تعامله مع الشر. لا يوجد في الكتاب تعليم أوضح من أن الله لم يكن مسؤولاً على الإطلاق عن دخول الخطيئة، وأن النعمة الإلهية لم تسحب اعتبارياً، وأنه لم يُسجَل نقص في حكم الله أفسح في المجال لظهور العصيان. الخطيئة دخيلة ولا يمكن تعليل وجودها، وهي سر لا مبرر له. فتبريرها هو دفاع عنها. ولو وجد عذر لها أو سبب لوجودها لما اعتُبرت خطيئة. إن تعريفنا الوحيد للخطيئة هو ذاك المقدم في شريعة الله وهو أنها «التعدي» على الشريعة. إنها نتيجة مبدأ يحارب شريعة المحبة العظيمة التي هي أساس حكم الله.

قبل دخول الشر كان يسود السلام والفرح أرجاء المسكونة. كان الجميع في حالة توافق تام مع إرادة الخالق. كانت المحبة لله سائدة، ومحبة كل واحد للآخر كانت غير مغرضة، فالمسيح الكلمة ابن الله الوحيد كان واحداً مع الآب السرمدي — واحداً في الطبيعة والصفات والقصد — وكان هو الكائن الوحيد في الكون الذي استطاع أن يطلع على كل مشورات الله ومقاصده. وبالمسيح عمل الآب في خلق الكائنات السماوية. «فيه خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ... سَوَاءٌ كَانَ عُرْشاً أَمْ سَيَادَاتٍ أَمْ رِيَاسَاتٍ أَمْ سَلَاطِينَ» (كولوسي ١: ١٦) وللمسيح المعادل للآب قدم كل سكان السماء ولأههم. ولأن ناموس المحبة هو أساس حكم الله فقد كانت سعادة كل الخلائق متوقفة على وفاقهم التام مع مبادئ البر العظيمة. فالله يرغب أن كل خلائقه يقدمون إليه خدمة المحبة والولاء الذي ينبع من التقدير الواعي لصفاته. هو لا يسر باغتصاب الولاء، وهو يوفر للجميع حرية الإرادة لكي يؤدوا له الخدمة الطوعية.

لوسيفر، الكروب الأول

ولكن وجد كائن اختار أن يفسد هذه الحرية. وقد بدأت الخطيئة بالذي إذ لم يَقْهَ إلا المسيح خالقه، حصل على كرامة عظيمة من الله، وكان في أسمى مراكز السلطان والمجد بين ساكني

السماء. إن لوسيفر قبل سقوطه كان هو أول كروب مظلل وكان مقدسا بلا عيب: « هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: أَنْتَ خَاتَمُ الْكَمَالِ، مَلَأَنُ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ. كُنْتَ فِي عَدْنِ جَنَّةِ اللَّهِ. كُلُّ حَجَرٍ كَرِيمٍ سَتَارَتِكَ، عَقِيقٌ أَحْمَرٌ وَيَاقُوتٌ أَصْفَرٌ وَعَقِيقٌ أَيْضٌ وَزَبَرْجَدٌ وَجَرَجٌ وَيَشْبٌ وَيَاقُوتٌ أَرْزَقُ وَبَهْرَمَانٌ وَزَمْرَدٌ وَدَهَبٌ. أَنْشَأُوا فِيكَ صَنْعَةَ صَيْعَةِ الْفُصُوصِ وَتَرْصِيعَهَا يَوْمَ خُلِقْتَ. أَنْتَ الْكُرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلَّلُ، وَأَقَمْتُكَ عَلَى جَبَلِ اللَّهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتَ. بَيْنَ حَجَارَةِ النَّارِ تَمْشِيَتْ. أَنْتَ كَامِلٌ فِي طَرْقِكَ مِنْ يَوْمٍ خُلِقْتَ حَتَّى وَجَدَ فِيكَ إِثْمٌ » (حزقيال ٢٨: ١٢-١٥).

كان يمكن للوسيفر أن يظل متمتعا برضى الله ومحبويا ومكرما من كل أجناد الملائكة، ممارسا سلطاته النبيلة ليبارك بها الآخرين ويمجد صانعه. لكن النبي يقول: « قَدْ ارْتَفَعَ قَلْبُكَ لِبَهْجَتِكَ. أَفْسَدْتَ حَكْمَتَكَ لِأَجْلِ بَهَائِكَ » (حزقيال ٢٨: ١٧). وشيئا فشيئا صار لوسيفر يحتضن رغبة لتمجيد نفسه: « مَنْ أَجَلَ أَنْتَ جَعَلْتَ قَلْبَكَ كَقَلْبِ الْآلِهَةِ »، « وَأَنْتَ قُلْتَ... أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللَّهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الْجَمْعِ... أَصْعَدُ فَوْقَ مَرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ » (حزقيال ٢٨: ٦؛ إشعياء ١٤: ١٣، ١٤). فبدلاً من أن يجعل الله هو الأعظم والأسمى في عواطف خلائقه وولائهم حاول لوسيفر أن يظفر بخدمتهم وولائهم لنفسه. وإذا كان يصبو إلى الكرامة التي قد منحها الآب السرمدى لابنه طلب رئيس الملائكة هذا أن يحصل على السلطان الذي كان من حق المسيح وحده أن يستخدمه.

لقد ابتهج كل سكان السماء وتهللوا بأن يعكسوا مجد الخالق ويذيعوا تساييحه. وإذا كان الله يتمجد هكذا، كان الجميع ينعمون بالسلام والفرح. لكن نعمة ناشرة أفسدت التناسق والانسجام بين السماويين. فخدمة الذات وتعظيمها، التي تناقض تدبير الخالق، أيقظت التشاؤم بالشر في العقول التي كان مجد الله هو أسمى مطلب لها. لقد توسلت مجالس السماويين إلى لوسيفر. واستعرض ابن الله أمامه عظمة الخالق وصلاحه وعدله، وطبيعة شريعته المقدسة غير المتغيرة. إن الله نفسه هو الذي أقر نظام السماء، فإذا خرج لوسيفر على ذلك النظام فسيهين صانعه ويجلب على نفسه الدمار. لكن الإنذار المقدم بمحبة ورحمة لا متناهييتين لم يثر في نفسه سوى روح المقاومة. وقد سمح لوسيفر بأن تتفشى روح الحسد للمسيح، وبذلك صار أشد إصرارا.

هذا وأن افتخاره بمجده غذى شوقه إلى السيادة. فالكرامات السامية التي أوتيها لوسيفر لم تقدر كهبة من الله ولم يُقدَّم لأجلها شكر إلى الخالق. لقد افتخر ببهائه ورفعته وطاق إلى أن يكون مساويا لله. كان جند السماء يحبونه ويوقرونه وكان الملائكة يسرون بتنفيذ أوامره وكان هو متسرلا بالحكمة والمجد أكثر من جميعهم. ومع هذا فإن ابن الله كان هو الملك المعترف به في السماء وواحدا في القدرة والسلطان مع الآب. وفي كل مشورات الله كان المسيح شريكا، في حين لم يُسمح للوسيفر بأن يطلع على مقاصد الله. وقد تساءل هذا الملاك العظيم قائلا: « لماذا تكون السيادة للمسيح؟ ولماذا يكرم هكذا ويتفوق على لوسيفر؟ »

تدمير بين الملائكة

فإذ ترك مكانه في محضر الله المباشر خرج لينشر روح التذمر بين الملائكة. كان يعمل بسرية عجيبة، وقد أخفى إلى حين غرضه الحقيقي تحت مظهر التوقير لله محاولاً أن يثير عدم الرضى عن الشرائع التي تحكم الخلائق السماوية، موعزاً إليهم أنها تفرض عليهم روادع لا ضرورة لها. ولما كانت طبائع الملائكة مقدسة أصراً هو على وجوب أن يطيعوا ما تمليه عليهم إرادتهم. وقد حاول أن يخلق فيهم عطفاً على نفسه إذ صور لهم أن الله قد عامله بالظلم حين منح المسيح كرامة سامية. وادعى أنه إذ يصبو إلى سلطان أعظم فهو لا يستهدف تعظيم نفسه إنما هو يريد أن يضمن الحرية لكل ساكني السماء حتى بهذه الوسيلة يبلغوا حالة وجود أسمى.

رحمة الله العظيمة

لكنّ الله في رحمته العظيمة احتمل لوسيفر وصبر عليه طويلاً. فلم يحطّه عن مركزه السامي حالما داخله روح التذمر ولا حتى عندما بدأ يتشدد بادعاءاته الكاذبة أمام الملائكة المخلصين. فلقد أبقى في السماء طويلاً. وقُدّم له الغفران مرة بعد الأخرى على شرط التوبة والخضوع. ومثل هذه المساعي التي لا يمكن أن تبتكرها سوى المحبة غير المحدودة والحكمة الإلهية كان القصد منها إقناعه بخطئه. إن روح التذمر لم يسبق أن عرفتھا السماء. ولم يكن لوسيفر نفسه يعرف في البدء إلى أين كان منساقاً كما لم يدرك طبيعة مشاعره على حقيقتها. ولكن بعد أن تبرهن أنه لا يوجد مبرر لتبرمه اقتنع لوسيفر بخطئه، وأن مطالب الله عادلة، وأن عليه أن يعترف أمام كل سكان السماء بعدالتها، فلو فعل هذا لأنقذ نفسه وأنقذ كثيرين من الملائكة. لم يكن إلى ذلك الحين قد طرح عنه الولاء لله كلية، ومع أنه قد ترك مركزه كالكروب المظلل فلو أنه كان راغباً في الرجوع إلى الله معترفاً بحكمة الخالق وقانعاً بأن يشغل المركز المعين له في تدبير الله العظيم لكان قد تثبت في وظيفته. لكنّ كبريائه منعه من الخضوع. وبكل إصرار دافع عن مسلكه وقال أنه ليس بحاجة إلى التوبة وسلم نفسه تماماً ليخوض غمار الصراع العظيم ضد صانعه.

وقد اتجهت كل قوى عقله الجبار الآن إلى عمل الخداع ليظفر بعطف الملائكة الذين كانوا تحت إمرته. وحتى حقيقة كون المسيح قد سبق فأنذره ونصحه أفسدت بحيث تخدم نواياه الخائنة. وقد صوّر الشيطان للملائكة الذين كانوا يحبونه ويثقون به أكثر من غيرهم أنه قد حُكم عليه ظلماً وأن مركزه لم يُحترم وأن حرّيته ستُغفل ويُستغنى عنها. ثم انتقل من تحريف أقوال المسيح إلى المراوغة والكذب الصريح المباشر إذ اتهم ابن الله بأنه يقصد إذلاله أمام ساكني السماء. وقد حاول أيضاً أن يربك الملائكة الأمناء بضربه على وتر كاذب فاتهم الذين لم ينجح في إغوائهم وجذبهم إلى طريقه بعدم الاكتراث لمصالح الخلائق السماوية. والعمل نفسه الذي كان يقوم هو به ألقى تبعته على الذين ظلوا أمناء لله. ولكي يدعم اتهامه الله بأنه قد ظلمه لجأ إلى تحريف أقوال الخالق وتشويه أعماله. لقد كانت سياسته أن يربك الملائكة بحجج مأكرة بخصوص مقاصد الله. وكل ما كان بسيطا لفّه هو في ستار من الغموض، وبتحريفه الماكر ألقى ظلال الشك على أبسط أقوال الرب. وكان مركزه السامي ذو الارتباط الوثيق بتدبيرات الله قد أضفى قوة أعظم على ما صورته فأغوي كثيرين على الانضمام إليه

في التمرد على سلطان السماء.

أضاليل الشيطان

والله في حكمته سمح للشيطان بالتقدم في عمله، وقد نضج روح النفور فصار ثورة ناشطة. كان من الضروري أن يكتمل نمو خطته تماما حتى يرى الجميع حقيقة طبيعتها واتجاهها. فلوسيفر الكروب المنبسط كان قد ارتفع إلى مركز سام وقد أحبته الخلائق السماوية حبا عظيما وكان تأثيره عليهم عظيما وقويا. وحكم الله لم يشمل سكان السماء وحدهم بل كل العوالم التي قد خلقها، وقد ظن الشيطان أنه لو استطاع أن يُشرك ملائكة السماء معه في العصيان فسيكون قادرا أن يُشرك معه في ذلك سكان العوالم الأخرى. إنه بكل دهاء عرض نظريته إلى المشكلة مستخدما المغالطة والاحتيال للوصول إلى أهدافه. وكانت قوته على الخداع عظيمة جدا، وامتاز بتكرهه في رداء الكذب. وحتى الملائكة المخلصون لم يدركوا كنه خلقه على حقيقته ولا رأوا في أي اتجاه كان عمله سائرا.

كان الشيطان قد أُكرم إكراما عظيما وكان يتستر ويتخفى في كل أعماله حتى صار من الصعب عليه أن يكشف للملائكة طبيعة عمله على حقيقتها. ولم تكن الخطيئة تظهر كما هي شريرة إلى أن اكتمل نموها. لم يكن للخطيئة مكان قبل ذلك في عالم الله، ولم يكن للخلائق المقدسة إدراك لطبيعتها وخبثها، كما لم يمكنهم أن يدركوا العواقب المرعبة التي ستنتج عن طرح شريعة الله جانبا. وقد أخفى الشيطان عمله في البداء تحت اعتراف مموه بولائه لله. وادعى أنه إنما يعمل على زيادة كرامة الله وتوطيد دعائم حكمه وضمان الخير لكل سكان السماء. وإذا كان يرسخ روح التذمر في أذهان الملائكة الذين تحت امرته كان يحاول بكل دهاء أن يوهمهم بأنه يحاول إزالة أسباب التبرم. وعندما أصر على وجوب إجراء تعديلات في نظام حكم الله وشرائعه كان ذلك بحجة كونها لازمة لحفظ التوافق والانسجام في السماء.

لم يلجأ الله في تعامله مع الخطيئة إلا إلى البر والحق. أما الشيطان فكان يمكنه استخدام ما لم يستطع الله أن يستخدمه، أي المداينة والخداع. لقد حاول تزييف كلمة الله وشوّه خطته في الحكم أمام الملائكة مدعيا أن الله لم يكن عادلا في فرض شرائع وقوانين على سكان السماء، وأنه إذ كان يطلب من خلائقه الخضوع والطاعة إنما كان يطلب تمجيد نفسه فحسب. ولذلك ينبغي أن يثبت بالدليل أمام كل سكان السماء وكذلك جميع سكان العوالم كلها أن حكم الله عادل وناموسه كامل. فالشيطان قد أوهم من حوله أنه هو نفسه كان يعمل ما فيه خير الكون وسعادته، والصفة الحقيقية للمغتصب وغرضه الحقيقي ينبغي أن يفهمه الجميع. وينبغي أن يعطى وقتا فيه يُظهر نفسه بأعماله الشريرة.

افتضاح أضاليل الشيطان

ألقي الشيطان تبعة النزاع الذي أحدثه في السماء على شريعة الله وحكمه. وأعلن أن كل الشر هو نتيجة سياسة الله وحكمه. وادعى أنه كان يهدف إلى إجراء تعديلات على وصايا الرب. ولذلك غدا من اللازم أن يُظهر طبيعة ادعاءاته ويُري نتائج التعديلات المقترحة في شريعة الله. فلا بد أن يدينه

عمله نفسه. وكان الشيطان قد ادعى من البدء أنه ليس متمردا ولا عاصيا، فكان يجب أن ترى المسكونة كلها ذلك المخادع بعد إزاحة القناع عنه.

لم تُهلك حكمة الله اللامتناهية الشيطان حتى بعدما تقرر أنه لا يستطيع أن يبقى في السماء. ذلك أن خدمة المحبة هي وحدها المقبولة لدى الله، وولاء خلائقه ينبغي أن يرتكز على الاقتناع بعدالته ورحمته وإحسانه. إن سكان السماء والعوالم الأخرى إذ لم يكونوا مستعدين بعد لإدراك طبيعة الخطيئة أو عواقبها لم يكونوا يستطيعون أن يفهموا حينئذ عدالة الله ورحمته في إهلاك الشيطان. فلو كان قد مُحي من الوجود في الحال لكانوا هم يخدمون الله مدفوعين بدافع الخوف لا بدافع المحبة. ولما أمكن ملاشاة تأثير ذلك المخادع تماما واستئصال روح التمرد كلية. وكان لا بد من أن يصل الشر إلى حالة النضوج. فلأجل خير المسكونة كلها مدى أجيال التاريخ كان لا بد للشيطان من أن ينشر مبادئه حتى يمكن للخلائق أن ترى اتهاماته التي وجهها إلى حكم الله على حقيقتها لكي تكون عدالة الله ورحمته وثبات شريعته فوق متناول كل شك أو تساؤل.

كان لا بد أن يكون تمرد الشيطان درسا لكل المسكونة في الدهور التالية وشهادة دائمة على طبيعة الخطيئة ونتائجها المريعة. فنتيجة حكم الشيطان وتأثيره على الناس والملائكة ستُرى النتائج المحتومة لطرح سلطان الله جانبا. وهي ستشهد أن سعادة كل الخلائق التي قد صنعها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود حكم الله وشريعته. وهكذا سيكون تاريخ اختبار هذا العصيان المرعب حارسا دائما للأجناد السماويين يحفظهم من أن ينخدعوا بالنسبة إلى طبيعة العصيان ويجنبهم ارتكاب الخطيئة ويقيهم شر قصاصها.

يجاهر بازدرائه بالشرية

وقد ظل ذلك المغتصب العظيم يبرر نفسه حتى نهاية ذلك الصراع الذي حدث في السماء. وعندما أعلن أنه هو وكل مؤيديه لا بد أن يُطردوا من موطن السعادة جاهر حينئذ رئيس العصاة ذاك بازدرائه شريعة الخالق بكل جرأة. وقد ردد ادعاءاته بأن الملائكة ليسوا بحاجة إلى مَنْ يسيطر عليهم بل ينبغي تركهم ليفعلوا ما يريدون لأنهم دائما يفعلون الصواب. وقد شهِرَ بوصايا الله قائلا إنها تحد من حريتهم وأعلن أنه يقصد أن يلاشي الشريعة، فإذ يتحرر أجناد السماء من هذا الرادع يمكنهم أن يدخلوا إلى حالة وجود أسمى وأمجد.

وقد أجمع الشيطان وجنوده على أن يلقوا تبعة تمردهم كلها على المسيح، وأعلنوا أنهم ما كانوا ليتمردوا لولا التوبيخ الذي وجه إليهم. وهكذا إذ ظل رئيس العصاة ومؤيدوه عنيدون ومُتحدِّين في خيانتهم، وهم يحاولون عبثا أن يسقطوا حكومة الله، وعلى رغم تجديفهم كانوا يدعون أنهم ضحايا السلطة التعسفية، طردوا أخيرا من السماء.

هذه الروح نفسها التي أوعزت بالتمرد في السماء لا تزال توحى بالعصيان على الأرض. لقد ظل الشيطان يعامل الناس وفق السياسة ذاتها التي اتبعها مع الملائكة. وروحه تملك الآن على أبناء المعصية. فهم مثله يحاولون أن يهدموا روادع شريعة الله ويعدون الناس بالحرية عن طريق التعدي

على وصايا الرب. هذا، وإن توبيخ الخطيئة ما زال يثير روح العداء والمقاومة. فعندما تمس رسائل الإنذار التي يرسلها الله ضمائر الناس فالشيطان يجعلهم يبررون أنفسهم ويطلبون عطف الآخرين ورضاهم على طريق الخطيئة الذي هم فيه سائرون. وبدلاً من تقويم سلوكهم وإصلاح أخطائهم يثيرون الغضب على من يوبخهم كما لو كان هو سبب المتاعب الوحيد. فمنذ أيام هايل البار إلى يومنا هذا نجد هذه الروح نفسها سائدة ضد من يجرؤون على إدانة الخطيئة.

ومثلما شوّه الشيطان صفات الله في السماء إذ جعله يبدو صارماً ومستبداً أغوى الناس على ارتكاب الخطيئة. ولما بلغ هذا الحد من النجاح أعلن أن نواهي الله غير العادلة هي التي أدت إلى سقوط الإنسان مثلما ساقته هو إلى العصيان.

لكنَّ الإله السرمدي نفسه أعلن عن صفاته قائلاً: « الرَّبُّ إِلَهُ رَحِيمٌ وَرَوْوْفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ. حَافِظُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْوَفِّ. غَافِرُ الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيئَةِ. وَلَكِنَّهُ لَنْ يُبْرِيَ إِبْرَاءً » (خروج ٣٤: ٦، ٧).

إن الله بطرده الشيطان من السماء أعلن عدله وأبقى على كرامة عرشه. ولكن عندما أخطأ الإنسان بانصياعه إلى إغواءات هذه الروح المرتدة قدم الله البرهان على محبته إذ بذل ابنه الوحيد ليموت لأجل جنسنا الساقط. ففي الكفارة انكشفت صفات الله. إن حجة الصليب القوية تعلن لكل المسكونة أن طريق الخطيئة الذي قد اختاره لوسيفر لم تكن تبعته لتقع على حكم الله.

وفي النضال بين المسيح والشيطان في أثناء خدمة المخلص على الأرض فضحت صفات المخادع العظيم. ولم يكن هنالك شيء أفعل في اقتلاع الشيطان من عواطف ملائكة السماء وكل المسكونة الأمانة من الحرب القاسية التي شنها على فادي العالم. إن تجديفه الجريء عندما طلب من المسيح أن يسجد له، وجرأته المتغترسة إذ حملة إلى الجبل العالي وإلى جناح الهيكل، ونيته الخبيثة التي فضحت عندما ألح عليه أن يطرح نفسه إلى أسفل من ذلك العلو الشاهق، وحقده الذي لا يهجع الذي جعله يتعقبه من مكان إلى مكان، إثارة قلوب الكهنة والشعب ضده حتى رفضوا محبته وأخيراً صرخوا ضده قائلين: « اضْلَبْهُ! اضْلَبْهُ! »، كل هذا أثار دهشة المسكونة وحنقها.

إن الشيطان هو الذي أوغز إلى العالم بأن يرفض المسيح. لقد بذل سلطان الشر قصارى جهده وقوته ودهائه لإهلاك يسوع، لأنه رأى أن رحمة المخلص ومحبته وحنانه وأحشاء رأفته كانت تصور للعالم صفات الله. وقد قاوم الشيطان كل مطلب قدمه ابن الله واستخدم الناس وسائل في يده ليملأ حياة المخلص بالآلام والأحزان. والمغالطات والأكاذيب التي حاول بواسطتها أن يعطل عمل يسوع، والعداوة التي أظهرها عن طريق أبناء المعصية واتهاماته القاسية لذاك الذي كانت حياته حياة الصلاح الذي لا يُبارى، كل ذلك كان باعته الانتقام المتأصل في نفسه. فنيان الحسد والخبث المحتبسة والكراهية وحب الانتقام اندلعت ألسنتها عند صليب جلجثة ضد ابن الله بينما كان السماويون يشخصون إلى هذا المنظر في رعب صامت.

وعندما أكملت الذبيحة العظيمة صعد المسيح إلى الأعالي وقد رفض قبول تمجيد الملائكة حتى قدم هذا الطلب: « أَيُّهَا الْآبُ أُرِيدُ أَنْ هُوَّلَاءِ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا » (يوحنا ١٧:

٢٤). فحينئذ بمحبة وسلطان لا يعبر عنهما خرج الجواب من عرش الآب يقول: « لتسجد له كل ملائكة الله » (عبرانيين ١: ٦). لم تكن في حياة يسوع أي لطخة. لقد انتهى اتضاعه وكملت ذبيحته وأعطى له اسم فوق كل اسم.

أما الآن فهي إثم الشيطان يبدو بلا عذر. لقد ظهر في صفته الحقيقية ككاذب وقاتل. وقد ظهر رؤي أن الروح نفسها التي بها تسلط على بني الإنسان الذين كانوا تحت سيطرته كان يريد أن يظهرها لو سُمح له بالتسلط على سكان السماء. لقد ادعى أن التعدي على شريعة الله سيجيء بالحرية والرفعة ولكن وُجد أن من نتائج العبودية والانحطاط.

وظهرت اتهامات الشيطان الكاذبة ضد صفات الله وحكمه على حقيقتها. لقد اتهم الله بأنه إنما يطلب مجد نفسه فقط حين يطلب من خلّائقه أن يقدموا إليه الخضوع والطاعة، كما أعلن أنه في حين فرض الخالق على الجميع أن ينكروا ذواتهم فإنه هو نفسه لم يمارس إنكار الذات ولم يُقدم أي تضحية. وقد ظهر الآن أنه في سبيل خلاص الجنس الساقط الخاطئ أقدم حاكم الكون على أعظم تضحية يمكن للمحبة أن تقوم بها: « إِنَّ اللَّهَ كَانَ فِي الْمَسِيحِ مُصَالِحًا الْعَالَمَ لِنَفْسِهِ » (٢ كورنثوس ٥: ١٩). كما ظهر أيضاً أنه في حين فتح لوسيفر الباب لدخول الخطيئة بتلهفه على الكرامة والسيادة فإن المسيح لكي يبيد الخطيئة وضع نفسه وأطاع حتى الموت.

لأجل الإنسان

لقد اظهر الله مقتته مبادئ العصيان ولقد رأت السماء كلها إعلان عدله في إدانة الشيطان وفي فداء الإنسان. كان لوسيفر قد أعلن أنه إذا كانت شريعة الله لا تتغير وقصاص التعدي عليها لا يمكن أن يغتفر أو يبطل فلا بد للمتعدي أن يُحرم إلى الأبد من رضى الخالق. وقد ادعى أن الجنس الخاطئ هم بعيدون عن تناول الفداء ولذلك فقد صاروا فرائسه شرعا. لكن موت المسيح كان حجة لا تُدحض في صالح الإنسان. لذا وقع قصاص الشريعة على ذلك الذي كان معادلا لله، وكان للإنسان مطلق الحرية لقبول بر المسيح وبحياة التوبة والتذلل ينتصر كما قد انتصر ابن الله على قوة الشيطان. وهكذا نرى أن الله بار ويبرر كل من هو من الإيمان بيسوع.

لكن مجيء المسيح إلى العالم ليتألم ويموت لم يكن لمجرد إتمام الفداء. فلقد أتى « ليعظم الشريعة ويكرمها ». ليس فقط لكي يعتبر سكان هذا العالم الشر كما يجب أن يعتبروه وإنما ليعلن لسكان العوالم جميعا في كل المسكونة إن شريعة الله لا تتغير. فلو أمكن أن تغفل مطالبها لما مسّت الحاجة إلى أن يسلم ابن الله حياته للتكفير عن التعدي عليها. فموت المسيح برهان على ثباتها وعدم تغييرها. وتلك الذبيحة التي قد أوجبتها المحبة غير المحدودة على الآب والابن لأجل فداء الخطاة تعلن لكل المسكونة أن العدل والرحمة هما أساس شريعة الله وحكمه، وهو ما لم يكن يكفي لعمل شيء أقل من تدبير الكفارة هذا.

وعندما تُنفذ الدينونة أخيراً سيُرى أنه لا يوجد سبب للخطيئة وعندما يقدم ديان كل الأرض هذا السؤال إلى الشيطان قائلا: « لماذا عصيت عليّ وسلبتني رعايا ملكوتي؟ » فلن يكون هنالك عذر

لمبتدع الشر. سَيُسَدُّ كل فم ولن يستطيع أجناد العصيان الكلام.
إن صليب جلجثة، فضلا عن كونه يعلن ثبات الشريعة، يعلن أيضاً أن أجرة الخطيئة موت. ففي صرخة المخلص وهو يسلم الروح « قد أكمل » دق جرس موت الشيطان. فذلك الصراع الهائل الذي كان محتدماً أمداً طويلاً بُتَّ فيه حينئذ وصار استئصال الشر نهائياً أمراً مؤكداً. لقد اجتاز ابن الله في باب القبر « لكي يُبَيِّدَ بِالْمَوْتِ ذَلِكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ » (عبرانيين ٢: ١٤). إن شوق لوسيفر إلى تمجيد نفسه جعله يقول: « أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللَّهِ... أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ ». لكن الله يعلن قائلاً له: « وَأُصَيِّرُكَ رَمَاداً عَلَى الْأَرْضِ... وَلَا تَوْجِدَ بَعْدَ إِلَى الْأَبَدِ » (إشعياء ١٤: ١٣، ١٤؛ حزقيال ٢٨: ١٨، ١٩). فعندما « يَأْتِي الْيَوْمُ الْمُتَقَدُّ كَالْتَّنُورِ، وَكُلُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَكُلُّ فَاعِلِي الشَّرِّ يَكُونُونَ قَشّاً، وَيُحْرَقُهُمُ الْيَوْمُ الْآتِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، فَلَا يَبْقَى لَهُمْ أَصْلٌ وَلَا فَرْعٌ » (ملاخي ٤: ١).
وسيكون كل سكان المسكونة شهوداً على طبيعة الخطيئة وعواقبها. ثم إن استئصالها النهائي الكامل الذي قد يسبب للملائكة الخوف ويهين الله في بادئ الأمر سيزكي محبته ويوطد كرامته أمام خلائق الكون الذين يسرون بعمل إرادته والذين شريعته في قلوبهم. ولن يعود الشر للظهور في ما بعد. وكلمة الله تقول: « لَا يَقُومُ الضَّيْقُ مَرَّتَيْنِ » (ناحوم ١: ٩). وشريعة الله التي ذمها الشيطان قائلاً عنها أنها نير عبودية ستكرم على أنها ناموس الحرية. والخليقة الممحصاة المزكاة لن ترتد ثانية عن ولائها لذلك الذي قد ظهرت صفاته على أنها المحبة التي لا يُسَبَّرُ غورها والحكمة غير المحدودة أمام عيون الجميع.

٣٠ - العداوة بين الإنسان والشیطان

« وَأَضَعُ عَدَاوَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتَ تَسْحَقِينَ عَقْبَهُ » (تكوين ٣: ١٥). إن حكم الله الصادر ضد الشيطان بعد سقوط الإنسان كان أيضاً نبوة تمتد عبر كل الأجيال إلى انقضاء الدهر وترمز إلى الصراع العظيم الذي ستشتبك فيه كل أجناس البشر التي ستعيش على الأرض.

يصرّح الله قائلاً: « وَأَضَعُ عَدَاوَةً ». هذه العداوة لا يرحب بها الناس عادة. فعندما تعدى الإنسان على شريعة الله صارت طبيعته شريرة. ولم يعد هنالك نفور أو خلاف بينه وبين الشيطان بل ساد بينهما الوفاق والوئام. وفي العادة لا يوجد أي عداة بين الإنسان الخاطئ ومبتدع الخطيئة. فلقد صار كل منهما شريراً بسبب الارتداد. والمُرتد لا يجد أبداً راحة إلا إذا حصل على العطف والمعاوضة بإغواء الآخرين على التمثيل به. ولهذا السبب يتحد الملائكة الساقطون والناس الأشرار في عشرة يائسة. ولو لم يتدخل الله على نحو خاص لكان الشيطان قد تحالف مع الإنسان لمحاربة السماء ولكانت الأسرة البشرية كلها تُجمع على مقاومة الله بدلا من أن تُضمر العداء للشيطان.

جرب الشيطان الإنسان لكي يخطئ كما سبق له أن جعل الملائكة يتمرّدون حتى يظفر بالتعاون في محاربته السماء. ولم يقم خلاف بينه وبين الملائكة الساقطين في ما يختص بكراهيتهم للمسيح، ففي حين أنه كان يوجد شقاق في كل الأمور الأخرى اتحدوا اتحاداً وثيقاً مع الشيطان في مقاومة حاكم الكون. ولكن عندما سمع الشيطان بأنه ستكون هنالك عداوة بينه وبين المرأة وبين نسله ونسلها علم أن مساعيه لإفساد الطبيعة البشرية ستتوقف، وانه بوسيلة ما سيكون الإنسان قادراً على مقاومة سلطانه.

وقد اضطربت نار العداء في قلب الشيطان ضد الجنس البشري لأنهم بواسطة المسيح صاروا موضوع محبة الله ورحمته. انه يرغب في عرقلة تدبير الله لأجل فداء الإنسان وإلقاء العار والهوان على الله بكونه يشوه وينجس عمل يديه، وكان يريد أن يسبب الحزن لسكان السماء وان يملأ الأرض شقاءً وخراباً. وهو يشير إلى هذا كله كنتيجة عمل الله في خلقه الإنسان.

إن النعمة التي يفرسها المسيح في النفس هي التي تخلق في الإنسان عداوة ضد الشيطان. وبدون هذه النعمة المجددة والقوة المغيرة يرغب الإنسان في أن يظل أسيراً للشيطان وعبدًا له على استعداد دائم لتنفيذ أوامره. ولكن المبدأ الجديد الذي خُلِق في النفس يخلق صراعاً في الميادين التي كان فيها سلام من قبل. والقوة التي يمنحها المسيح تعين الإنسان على مقاومة الطاغية المغتصب. فأَيُّ إنسان يظهر أنه يبغض الخطيئة بدلا من أن يحبها، وأي من يقاوم ويغلب تلك الأهواء التي قد تسلطت على قلبه يُظهر فعالية المبدأ الذي هو من فوق أولاً وآخرًا.

غضب الشيطان

ظهر العداء المستحكم بين روح المسيح وروح الشيطان بشكل مدهش جدا في استقبال العالم يسوع. فما دعا اليهود إلى رفض المسيح لم يكن ما بدا عليه من الافتقار إلى غنى العالم والفخامة

والجلال. لقد رأوا أنه يملك سلطانا هو أكثر من أن يعوض عن افتقاره إلى تلك الميزات الظاهرية. لكن طهارة المسيح وقداسته أثارتا عليه عداوة الأشرار. فحياة إنكار الذات التي عاشها وتكريسه المنزه عن كل خطيئة كانا توبيخا دائما للشعب الشهواني المتكبر. هذا ما أثار العداء ضد ابن الله. لقد تحالف ضده الشيطان والملائكة الأشرار مع الناس الأشرار. تأمرت كل قوى الارتداد ضد بطل الحق.

هذا العداء نفسه الذي ظهر ضد المسيح يظهر ضد تابعيه، فأى إنسان يرى الخطيئة في شناعتها، وبالقوة التي تأتيه من فوق يقاوم التجربة، يثير على نفسه غضب الشيطان ورعاياه. إن كراهية الناس لمبادئ الحق الطاهرة، والتعبير والاضطهاد للذين يحلان بمناصريه، ستظل باقية طالما بقيت الخطيئة والخطأة. وتابعو المسيح لا يمكن التوفيق بينهم وبين عبيد الشيطان. فعثرة الصليب لم تبطل بعد. « جَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهُدُونَ » (٢ تيموثاوس ٣: ١٢). إن أعوان الشيطان هم دائبون أبداً تحت توجيهاته في توطيد سيادته وبناء ملكوته لمقاومة حكم الله. ولهذه الغاية يحاولون إغراء أتباع المسيح وإغواءهم حتى يبعدوهم عن ولائهم له. وهم، كزعيمهم، يسيئون فهم الكتب المقدسة ويحرفونها للوصول إلى أهدافهم. وكما حاول الشيطان أن يوقع العار بالمسيح كذلك يحاول أعوانه أن يعيبوا في حق شعب الله. « الروح التي أماتت المسيح تحرض الأشرار على إهلاك تلاميذه. كل هذا كان مرموزا اليه في النبوة الأولى القائلة: « وَأَضْعُ عَدَاوَةَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا ». وستظل الحال كذلك إلى انقضاء الدهر.

يحشد الشيطان كل جيوشه ويلقي بكل قوته في المعركة. ولكن لماذا لا يواجه مقاومة أعظم؟ ولماذا يتغلب النعاس وعدم المبالاة على جنود المسيح؟ السبب هو أن صلتهم الحقيقية بالمسيح ضئيلة جدا، كما انهم خالون من روح الله إلى حد كبير. والخطيئة في نظرهم ليست منفرة ولا كريهة كما كانت في نظر سيدهم. وهم لا يواجهونها كما قد فعل المسيح بكل مقاومة وإصرار. وهم غير متحقيقين من شر الخطيئة وشناعتها العظيمة ولا يرون صفات سلطان الظلمة ولا قوته. إن عداوة المسيحيين للشيطان وأعماله ضئيلة وذلك بسبب جهلهم العظيم لقوته وخبثه وبسبب اتساع مدى حربه ضد المسيح وكنيسته. إن كثيرين ينخدعون هنا. إنهم لا يدرون أن عدوهم قائد عظيم وجبار يسيطر على عقول الملائكة الأشرار وأنه بخطته الناضجة المدروسة وتحركاته الماكرة يحارب المسيح ليمنعه من تخليص النفوس. فبين المعترفين بالمسيحية وحتى بين خدام الإنجيل قلما يشير أحد إلى الشيطان إلا في عبارات من المنبر بالصدفة، فهم يغفلون البراهين على نشاطه الدائم ونجاحه، ويهملون الإنذارات العديدة عن مكروهه ودهائه، ويبدو أنهم يتجاهلون وجوده.

عدو يقظ

وفي حين أن الناس يتجاهلون مكاييد هذا العدو اليقظ فإنه يتعقبهم في كل لحظة. يقحم وجوده في كل مصالح العائلة وفي كل شوارع مدننا وفي الكنائس وفي مجالس الأمم وفي دور القضاء فيربك ويخدع ويموّه. وفي كل مكان يهلك أرواح الرجال والنساء والأطفال وأجسادهم ويشتت شمل العائلات ويبذر بذار البغضاء والتنافس والمنازعات والفتن وجرائم القتل. ويبدو أن المسيحيين في

أرجاء العالم يعتبرون أن الله هو الذي قد حكم بكل هذه المآسي ولا بد من حدوثها. يحاول الشيطان دائماً أن ينتصر على شعب الله بهدمه الحواجز التي تفصل بينهم وبين العالم. لقد أغوي إسرائيل قديماً لارتكاب الخطيئة عندما تجرأوا على الاندماج بين عشراء وثنيين كان الله قد حرم عليهم الاختلاط بهم. وبالطريقة نفسها يضل إسرائيل العصر الحاضر: «إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢ كورنثوس ٤: ٤). كل من ليسوا أتباعاً أمناء للمسيح هم عبيد للشيطان. ففي القلب غير المتجدد توجد محبة للخطيئة والميل إلى احتضانها والتساهل معها. أما في القلب المتجدد فتوجد كراهية للخطيئة ومقاومتها بكل إصرار. فعندما يختار المسيحيون معايشة الأشرار وغير المؤمنين فهم يعرضون أنفسهم للتجربة. والشيطان يتخفى بعيداً من الأنظار ويسدل ستاراً على عيون الناس خلسة. ولا يمكنهم أن يروا أن في صحبة أولئك الأشرار ضرراً، وإذا يشاكلون العالم طول الوقت في أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم إنما يزيد عما هم شدة يوماً بعد يوم.

إن مشكلة العالم في عاداته تجعل الكنيسة شبيهة بالعالم ولا تهدي العالم إلى الكنيسة. وتعود الخطيئة والتآلف معها لا بد أن يقللا من النفور منها وكراهيتها. فمن يختار معايشة عبيد الشيطان سرعان ما يتلاشى خوفه من سيدهم. وإذا كنا ونحن نقوم بواجباتنا نجرب كما قد جرب دانيال وهو في بلاط الملك فلنا أن نتحقق من أن الله سيحرسنا، أما إذا ألقينا بأنفسنا في التجربة فسنسقط عاجلاً أو أجلاً.

يعمل المجرّب غالباً بنجاح منقطع النظير عبر الذين قلما يُشتبه في أنهم تحت سيطرته. فذوو المواهب والثقافة يعجب بهم الناس ويكرمونهم، كما لو أن هذه الصفات تكفر عن عدم وجود خوف الله في قلوبهم أو تؤهلهم للظفر برضاه. إن المواهب والثقافة في حد ذاتها هي هبات من الله، ولكن إذا احتلت هذه الأمور مكان التقوى وبدلاً من أن تقرب النفس إلى الله تبعدها عنه فإنها تمشي حينئذ لعنة وشركاً. هنالك رأي سائد بين كثيرين وهو أن كل ما يبدو لطفاً أو كياسة أو أناقة لا بد أن يكون، نوعاً ما، خاصاً بالمسيح. لا توجد غلطة أضخم من هذه. فهذه الصفات ينبغي أن تجلّ خلق كل مسيحي لأن لها تأثيراً كبيراً في صالح الدين الحقيقي ولكن ينبغي تكريسها لله وإلا فهي أيضاً تصبح قوة في جانب الشر. كثيراً ما يكون هنالك إنسان مهذب في عقله وممتاز في عاداته ولا يتدنّى ليعمل ما يعتبره الجميع عملاً نجساً وفاسداً، ومع ذلك فهو آلة مصقولة في يد الشيطان. إن الصفة الغادرة الغاشة لتأثيره ومثاله تجعله عدواً لعمل المسيح وملكوته أخطر من الجهلة وغير المثقفين.

استطاع سليمان بالصلاة الحارة والاعتماد على الله أن يحصل على الحكمة التي أثارت دهشة العالم وإعجابه. ولكن عندما ارتد عن مصدر قوته وتقدم مستنداً إلى نفسه سقط فريسة التجربة. وحينئذ فتلك المواهب العجيبة التي منحت لذاك الذي كان أحكم الملوك جعلت منه أداة أشد فتكاً في يد عدو النفوس.

في حين يحاول الشيطان بلا انقطاع أن يُظلم عقول المسيحيين حتى تغيب عنهم الحقيقة عليهم ألا ينسوا أن «مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلَاطِينِ، مَعَ وُلَاةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةٍ

هَذَا الدَّهْرُ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ « (أفسس ٦: ١٢). فَإِنَّ الْإِنْذَارَ الْإِلَهِيَّ يَدْوِي عِبرِ
الْأَجْيَالِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا قَائِلًا: « أَصْحُوا وَاسْهَرُوا. لِأَنَّ إِبْلِيسَ خَصْمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ
يَبْتَلِعُهُ هُوَ » (١ بطرس ٥: ٨). « الْبُسُوا سِلَاحَ اللَّهِ الْكَامِلَ لِكَيْ تَقْدِرُوا أَنْ تَثْبُتُوا ضِدَّ مَكَايِدِ إِبْلِيسَ »
(أفسس ٦: ١١).

فمنذ عهد آدم إلى يومنا الحاضر يبذل عدونا العظيم الجبار قصارى جهده ليضايق ويظلم ويهلك.
وهو الآن يتأهب للقيام بحملته الأخيرة ضد الكنيسة. وكل من يريدون اتباع يسوع لا بد لهم من منازلة
هذا العدو الذي لا يرحم. وكلما كان المسيحي أقرب تمثلا بالمثال الإلهي ازداد تأكدا انه سيصير
هدفا لهجمات الشيطان. وكل من هم دائبون باجتهاد في عمل الله ويحاولون أن يكشفوا مخادعات
الشرير ويقدموا المسيح إلى الناس سيكونون قادرين على مشاركة بولس شهادته التي يقول فيها أنه
يخدم الرب بكل تواضع ودموع كثيرة وتجارب.

لقد هاجم الشيطان المسيح بأعنف تجاربه وأشدّها مكرا وخبثا لكنه انهزم وارتد بعد كل معركة.
ولقد حارب السيد في تلك المعارك لأجلنا، وانتصاراته تجعل انتصارنا أمرا ممكنا. والمسيح سيمنح
القوة لكل طالبيها. ولن ينهزم أحد أمام الشيطان ما لم يرض هو بالهزيمة. فليس للمجرب قوة بها
يسيطر على الإرادة أو يرغم النفس على ارتكاب الخطيئة. قد يضايق النفس لكنه لا يستطيع أن يلوثها.
وقد يسبب للقلب حزنا لكنه لا يستطيع أن يفسده قسرا. إن حقيقة كون المسيح قد انتصر ينبغي أن
تلهم اتباعه الشجاعة لكي يحاربوا بكل قوة وشدة بأس وهم ينازلون الخطيئة والشيطان.

٣١ - قوة الأرواح الشريرة

إن ارتباط العالم المنظور بالعالم غير المنظور، وخدمة ملائكة الله وقوة الأرواح الشريرة، كل هذا معلن بكل وضوح في الكتب المقدسة ومتداخل ومحبوك في التاريخ البشري. يزداد الميل إلى عدم التصديق بوجود الأرواح الشريرة، في حين أن الملائكة القديسين الذين يخدمون « الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرْتُوا الْخَلَاصَ! » (عبرانيين ١: ١٤) يعتبرهم الكثيرون أرواح الأموات. لكن الكتب المقدسة فضلاً عن كونها تعلم بوجود الملائكة، الأبرار منهم والأشرار، تقدم برهاناً لا يتطرق إليه الشك على أن هذه ليست أرواح الأموات متحررة من الأجساد.

لقد كانت الملائكة موجودين قبل خلق الإنسان لأنه عندما وُضعت أساسات الأرض « تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعًا، وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللَّهِ؟ » (أيوب ٣٨: ٧). وبعد سقوط الإنسان أُرسلت الملائكة لحراسة شجرة الحياة، وكان هذا قبل أن مات أي الإنسان. إن الملائكة هم أسمى من الناس في طبيعتهم لأن المرمن يقول عن الإنسان: « وَتَنْقُصُهُ قَلِيلًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ » (مزمور ٨: ٥).

والكتاب يخبرنا عن عدد الخلائق السماويين وقوتهم ومجدهم وعن علاقتهم وارتباطهم بحكم الله وعن صلتهم بعمل الفداء. « أَلَرَّبُ فِي السَّمَاوَاتِ ثَبَتَ كُرْسِيِّهِ، وَمَمْلَكَتُهُ عَلَى الْكُلِّ تَسُودُ ». ثم هوذا النبي يقول: « وسمعت صوت ملائكة كثيرين حول العرش » وهم ينتظرون في مقصورة ملك الملوك — « مَلَائِكَتُهُ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً », « خُدَامُهُ الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ », « وَسَمِعْتُ صَوْتَ كَلَامِهِ » (مزمور ١٠٣: ١٩-٢١؛ رؤيا ٥: ١١). لقد رأى النبي دانيال ربوات وألوف ألوف من الرسل السماويين. والرسول بولس يعلن عنهم أنهم « ربوات هم محفل ملائكة » (دانيال ٧: ١٠؛ عبرانيين ١٢: ٢٢). وكُرسِلَ الله لهم يخرجون « كمنظر البرق » (حزقيال ١: ١٤). يكاد نورهم يخطف الأبصار وهم يسرعون في طيرانهم. فالملاك الذي ظهر عند قبر المخلص، وكان منظره « كالبرق ولباسه أبيض كالثلج », أخاف الحراس فارتعدوا « وصاروا كأموات » (متى ٢٨: ٣، ٤). والعاهل الأشوري المتعجرف سنحاريب عندما غير الله وجَدَفَ عليه وهدد شعبه بالهلاك « كَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنَّ مَلَكَ الرَّبِّ خَرَجَ وَضَرَبَ مِنْ جَيْشِ أَشُورَ مِئَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَةَ وَثَمَانِينَ أَلْفًا » « أَبَادَ كُلَّ جَبَّارٍ بِأَسٍ وَرَئِيسٍ وَقَائِدٍ » من جيشه. « فَرَجَعَ بَخْزِي الْوُجْهِ إِلَى أَرْضِهِ » (٢ ملوك ١٩: ٣٥؛ ٢ أخبار ٣٢: ٢١).

يُرْسَلُ الْمَلَائِكَةُ فِي مَأْمُورِيَاتِ الرَّحْمَةِ إِلَى أَوْلَادِ اللَّهِ. فقد ذهبوا إلى إبراهيم وقدموا إليه وعودا بالبركة، وإلى أبواب سدوم لإنقاذ لوط البار حتى لا يهلك بالنار. وأُرسل ملاك إلى إيليا عندما كان موشكا على الموت من فرط الإعياء والجوع في البرية، وإلى إيليش أرسلت مركبات نار وخيل لتحيط بالمدينة الصغيرة التي كان أعداؤه قد حبسوه فيها، وإلى دانيال عندما طلب الحكمة الإلهية في بلاط ملك وثني وعندما طرح في الجب ليكون فريسة الأسود، وإلى بطرس وهو محكوم عليه بالموت حين كان سجيناً في سجن هيرودس، وإلى السجينين اللذين كانا في فيليبي، وإلى بولس ورفاقه في إِبَّانَ العاصفة الهائلة التي ثارت عليهم في تلك الليلة وهم في عرض البحر، وإلى كرنيليوس ليفتح ذهنه فيقبل الإنجيل وإلى بطرس ليزوده برسالة الخلاص لذلك الأممي الغريب — وهكذا في كل العصور خدم الملائكة القديسون شعب الله.

حراسة الملائكة

ويوجد ملاك معين لحراسة كل تابع للمسيح. فهؤلاء الحراس السماويون يصدون عن الأبرار سهام الشرير. وهذا ما اعترف به الشيطان نفسه حين قال: « هَلْ مَجَانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ اللَّهَ أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ » (أيوب ١: ٩، ١٠). وترد الوسيلة التي بها يحرس الله شعبه في كلمات المرنم: « مَلَاكُ الرَّبِّ حَالٌ حَوْلَ خَائِفِيهِ، وَيُنَجِّيهِمْ » (مزمور ٣٤: ٧). والمخلص في معرض كلامه عمن آمنوا به قال: « أَنْظُرُوا، لَا تَحْتَقِرُوا أَحَدَ هَؤُلَاءِ الصِّغَارِ، لِأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَائِكَتَهُمْ فِي السَّمَاوَاتِ كُلِّ حِينٍ يَنْظُرُونَ وَجْهَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ » (متى ١٨: ١٠). فالملائكة المعينون لخدمة أولاد الله لهم حق دخول محضره في كل وقت.

وهكذا إذ يتعرض شعب الله لقوة الشيطان الخادعة وخبث سلطان الظلمة الذي لا يكل ولا ينعس، ويصارعون كل قوات الشر، لهم أن يتأكدوا من حراسة ملائكة السماء الدائمة. وهذا التأكيد لا يُعطى من دون حاجة اليه. فاذا كان الله قد وعد شعبه بالنعمة والحماية فذلك بسبب وجود قوات الشر الجبارة التي عليهم أن ينازلوها، قوات كثيرة وعنيدة لا تكل ولا يمكن لاحد أن يأمن على نفسه إذا لم يتحفظ من خبثها وقوتها.

إن الأرواح الشريرة التي خلقت في البدء بلا خطية كانت على قدم المساواة مع الخلائق المقدسة الذين هم الآن رسل الله، في طبيعتهم وقوتهم ومجدهم. ولكن لأنهم سقطوا إذ أخطأوا فقد تعاهدوا معا على إهانة الله وإهلاك بني الإنسان. وإذا اتحدوا مع الشيطان في العصيان وطردوا مثله من السماء فقد تعاونوا معه مدى كل العصور المتعاقبة في حربه ضد سلطان الله. والكتاب يخبرنا عن تحالفهم وحكمهم وأنظمتهم المتعددة وذكاؤهم ودهائهم ونواياهم السيئة ضد سلامة الناس وسعادتهم.

ويذكر تاريخ العهد القديم وجودهم ووسيلتهم في معرض بعض الحوادث، ولكن في وقت وجود المسيح على الأرض أظهرت الأرواح الشريرة قوتها بطريقة مذهشة جدا. كان المسيح قد أتى ليبدأ في تنفيذ التدبير الخلاصي لأجل فداء الإنسان فأصر الشيطان على إثبات حقه في السيطرة على العالم. لقد نجح في توطيد دعائم الوثنية في كل أقطار الأرض عدا ارض فلسطين. وقد أتى المسيح إلى ذلك القطر الوحيد الذي لم يكن قد خضع تماما لسلطان المجرب لكي يشرق على الشعب نور السماء. وهنا كانت سلطتان تتنازعان السيادة. كان يسوع باسطا ذراعي محبته وهو يدعو اليه كل من يريد أن يجد فيه الغفران والسلام. وقد رأى أجناد الظلام أنهم لم يُعطوا السيادة المطلقة، وأدركوا أنه لو نجحت رسالة المسيح فسينقضي سلطانهم ويزول. فثار الشيطان واهتاج كما لو كان أسدا مقيداً، وفي تحديه أعلن سلطانه على أجساد الناس ونفوسهم.

وجود الشياطين وعملهم

يبين العهد الجديد بكل جلاء حقيقة كون الناس قد سيطرت عليهم الشياطين. والأشخاص الذين ابتلوا بتلك البلوى لم يكونوا يقاسون فقط أمراضا لأسباب طبيعية. وقد كان المسيح يدرك إدراكا

كاملاً مَنْ كان يتعامل معه واعترف بوجود الأرواح الشريرة وفاعليتها.

والحادثة التي يذكرها الكتاب عن شفاء المجنونين في جدرّة تقدم لنا مثلاً مدهشاً عن عدد الشياطين وقوتهم وخبثهم كما تقدم لنا برهاناً رائعاً على قدرة المسيح ورحمته. إنَّ ذينك المجنونين البائسين إذ ابعدا عنهما كل رادع وهما يتلويان والزبد يخرج من أفواههما وهما ثائران كانا يملآن الجو بصرخاتهما. كانا يقسوان على نفسيهما ويعرضان حياة كل من يقترب منهما للخطر. إن جسميهما الداميين المشوهين وأفكارهما المشتتة قدمت صورة يهتز لها قلب سلطان الظلمة طرباً. وقد أعلن أحد الشياطين التي كانت مسيطرة على ذينك الرجلين المعذبين قائلاً: « اسْمِي لَجُونُ، لَأَنَّا كَثِيرُونَ » (مرقس ٥: ٩) إن كلمة « لجئون » كانت عند الجيش الروماني تعني فرقة من الجنود يتراوح عدد رجالها ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف رجل. إن جيوش الشيطان تصطف هي أيضاً في فرق. والفرقة الواحدة التي كانت هذه الشياطين تنتمي إليها لم يكن عددها يقل عن لجئون.

وبأمر يسوع خرجت تلك الأرواح الشريرة من ذينك الرجلين المعذبين تاركة إياهما عاقلين وجالسين عند قدمي المخلص، وقد أخضعا وعاد إليهما ذكاؤهما ورقتهما. ولكن الشياطين سُمح لها بأن تكتسح قطيعاً من الخنازير إلى البحر. وقد رجحت هذه الخسارة في نظر سكان كورة الجدرين على كل البركات التي قد منحها المسيح. فتوسلوا إلى هذا الشافي الإلهي بأن ينصرف من تخومهم. وقد كانت هذه هي النتيجة التي كان الشيطان يقصد أن يصل إليها. فإذ ألقى تبعة هذه الخسارة على يسوع أثار مخاوف الشعب الأنانية وحال بينهم وبين الاستماع إلى أقواله. إن الشيطان يشتكي ضد المسيحيين دائماً على أنهم علة الخسارة والحظ الشيء والآلام، بدلاً من أن يجعل اللوم يقع على مصدره الأصلي: عليه هو نفسه وعلى أعوانه.

لكن مقاصد المسيح لم تتعطل. فقد سُمح للأرواح الشريرة أن تغرق قطع الخنازير توبيخاً لأولئك اليهود الذين كانوا يربون تلك الحيوانات النجسة طمعاً في الربح. فلو لم يردع المسيح الشياطين لكانوا قد أغرقوا في البحر ليس الخنازير وحدها بل أيضاً رعاتها وأصحابها. إن الإبقاء على رعاة الخنازير وأصحابها كان مرجعه فقط إلى قدرته التي استخدمها في إنقاذهم رحمة بهم. وزد على ذلك فإنه قد سُمح بوقوع هذه الحادثة حتى يشهد التلاميذ قوة الشيطان القاسية على الإنسان والحيوان. وقد رغب المخلص في أن يكون تابعوه على علم بالعدو الذي عليهم أن ينازلوه حتى لا يخدعهم بمكايدهم ثم يهزمهم، كما كان يريد أن يرى شعب تلك الكورة قدرته على تحطيم عبودية الشيطان وإطلاق أسراه أحراراً. ومع أن يسوع نفسه قد رحل فإن ذينك الرجلين اللذين خلصا بكيفية معجزة بقيا ليعلنا عن رحمة من قد أحسن إليهما.

وتوجد في الكتاب المقدس حوادث مسجلة من أمثال هذه الحادثة. فقد كانت ابنة المرأة الفينيقية السورية معذبة من روح شرير لكن يسوع أخرجه منها بكلمة (مرقس ٧: ٢٦-٣٠). وفي متى ١٢: ٢٢ أخبرنا البشير عن « مجنون أعمى وأخرس ». وكان هنالك شاب به روح أخرس « وَكَثِيرًا مَا أَلْقَاهُ فِي النَّارِ وَفِي الْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ » (مرقس ٩: ١٧-٢٧). والرجل المجنون الذي إذ كان يعذبه « رُوحُ شَيْطَانٍ نَجِسٍ » (لوقا ٤: ٣٣-٣٦) أزعج العابدين في مجمع كفرناحوم في سكون يوم السبت. كل هؤلاء

شفاهم المخلص الرحيم. وفي كل حالة من هذه الحالات تقريبا كان المسيح يخاطب الشيطان ككائن عاقل أمرا إياه أن يخرج من الإنسان ولا يعود يعذبه. فإذ رأى العابدون في مجمع كفرناحوم قدرة المسيح العظيمة « وَقَعَتْ دَهْشَةٌ عَلَى الْجَمِيعِ، وَكَانُوا يُخَاطَبُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: « مَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ؟ لَأَنَّهُ سُلْطَانٌ وَقُوَّةٌ يَأْمُرُ الْأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتَخْرُجُ! » (لوقا ٤: ٣٦).

عادة ما يوصف المسكونون بالشياطين بأنهم يقاسون آلاماً شديدة. لكن لهذه القاعدة شواذا. فبعض الناس كانوا يرحبون بالتأثير الشيطاني طمعا في امتلاك قوة فائقة. هؤلاء لم يكونوا بطبيعة الحال في حالة حرب مع الشياطين. فمن هذه الفئة كان الذين بهم روح عرافة، مثل سيمون الساحر وعليم الساحر والفتاة التي تبعت بولس وسيلا في فيلبلي.

لا أحد معرضاً لتأثير الأرواح الشريرة أكثر من الذين على رغم شهادة الكتب المقدسة الصريحة الوافية ينكرون وجود الشيطان وملائكته وتأثيرهم. وطالما نجهل مكائدهم نوفر لهم ميزة لا تُصدَّق. وكثيرون يعملون بمقترحاتهم في حين يظنون أنهم إنما يتبعون ما تمليه عليهم حكمتهم. هذا هو السبب الذي يجعل الشيطان مع اقتراب نهاية الزمن الذي فيه يعمل بأعظم قوة ليضل الناس ويهلكهم، يذيع في كل مكان الاعتقاد بأن ليس له وجود. فسياسته تبنى على كونه يخفي نفسه وطريقة عمله.

لا شيء يخافه ذلك المضل العظيم أكثر من إطلاعنا على حيله. فلكي يخفي صفته الحقيقية ونواياه جعل الناس يصورونه على أنه لا يثير انفعالا أعظم من السخرية أو الاحتقار. إنه يسر جداً عندما يصوّر ككائن مضحك أو كرية أو مشوه، نصفه حيوان ونصفه الآخر إنسان. وهو يسر عندما يسمع اسمه يستعمل في معرض اللهو أو السخرية على أفواه الذين يظنون أنفسهم على درجة كبيرة من الذكاء والدراية.

فلكونه قد تنكر بدهاء ومهارة كاملين يُثار هذا السؤال: « هل لمثل ذلك المخلوق وجود حقا؟ » من أدلة نجاحه إن النظريات التي تكذب أوضح الشهادات الكتابية تجد قبولا وتسليما في العالم الديني. ولأن الشيطان يستطيع بكل سرعة وسهولة أن يتحكم في عقول الذين لا يدرون عن تأثيره شيئا فإن كلمة الله تقدم إلينا أمثلة كثيرة عن عمله المؤذي الخبيث وتكشف عن قواته الخفية، وهكذا تجعلنا نتيقظ ونتحفظ من هجماته.

كان يمكن أن تخيفنا حقا قوة الشيطان وجنوده وحقدهم وخبثهم لو لم يكن في وسعنا أن نجد الحماية والخلاص في قدرة فادينا الفائقة. إننا بكل حرص نوصد أبواب بيوتنا بالمزالج والأقفال لحفظ ممتلكاتنا وأرواحنا من الناس الأشرار، ولكننا قلما نفكر في الملائكة الأشرار الذين يحاولون دائما الوصول إلينا ولا حيلة لنا في دفعهم عنا بقوتنا الذاتية. إن نسمح لهم بالدخول يشوشوا عقولنا ويربكوها ويصيبوا أجسامنا بالاضطراب والعذاب ويتلفوا أملنا وحياتنا. فمسرتهم الوحيدة هي في جلب الشقاء والهلاك للناس. إن الذين يقاومون مطالب الله ويسلمون لتجارب الشيطان هم في حالة مخيفة، إلى أن يسلمهم الله لسلطان الأرواح الشريرة. أما الذين يتبعون المسيح فهم أبدا في سلام وأمان تحت حراسته ورعايته. فالملائكة المقتدرون قوة يرسلون من السماء لحفظهم. والشرير لا

يمكنه أن يشق لنفسه طريقا في وسط صفوف الحراس الذين قد أقامهم الله حول شعبه.

٣٢ - مكاييد العدو

إن الصراع الهائل بين المسيح والشیطان والذي دارت رحاه وسار قدما مدة تقرب من ستة آلاف سنة صار قريبا من نهايته، والشرير يضاعف جهوده ليقضي على عمل المسيح لأجل الإنسان ويقيّد النفوس بمكاييده. إن غرضه الذي يريد أن يحققه هو أن يبقى الناس في الظلمة وصلابة القلب حتى تنقضي مدة وساطة المخلص ولا تبقى بعد ذلك ذبيحة عن الخطيئة.

عندما لا يُبذل مجهود جدي خاص لمقاومة سلطان الشيطان، وعندما يسود في الكنيسة وفي العالم الإهمال وعدم المبالاة فهو لا يهتم كثيرا لأنه لا خطر عليه من خسارة الذين قد استأسرهم وهم يسيرون في ركابه مكبلين بالأغلال وخاضعين لإرادته. ولكن عندما يبدأ الناس بالالتفات إلى الأمور الأبدية وتساءل النفوس قائلة: « مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ لِكَيْ أَخْلُصَ؟ » عند ذلك ينبري إلى ساحة القتال محاولا أن يستخدم قوته ضد قوة المسيح ويوقف تأثيرَ الرُّوحِ الْقُدُسِ.

وَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ يعلن أنه عندما جاء الملائكة ذات مرة ليمثلوا أمام الرب جاء الشيطان أيضاً في وسطهم (أيوب ١: ٦) لا ليسجد أمام الملك السرمدي بل ليقدم غاياته الخبيثة ضد الأبرار. وعندما يجتمع الناس ليعبدوا الله يحيى هو في وسطهم لهذا الغرض نفسه ويعمل بخفاء طالبا السيطرة على أفكار العابدين. وكالقائد المحنك يرسم خطته مقدما. وإذ يرى رسول الله وهو يفتش الكتب يأخذ هو مذكرة بالموضوع الذي سيعرض على الشعب وحينئذ يستخدم كل دهائه ومكره لكي يسيطر على الظروف بحيث لا تصل الرسالة إلى الذين يغرب بهم في ذلك الموضوع بالذات. والشخص الذي هو أحوج الناس إلى الإنذار تُلزِمُه الظروف بأن يخرج ليشترك في صفقة تجارية تقتضي حضوره، أو بوسيلة أخرى يُمنع من سماع الأقوال التي كان يمكن أن تكون بالنسبة له رائحة حياة لحياة.

ثم إن الشيطان يرى عبيد الرب وإذا هم مثقلو القلوب بسبب الظلام الروحي الذي يكتنف الناس. وهو يسمع صلواتهم الحارة في طلب النعمة والقوة الإلهيتين للقضاء على سحر عدم الاكتراث والإهمال والكسل. حينئذ يحبك هو مؤامراته بغيرة مجددة. فهو يجرب الناس لينغمسوا في شهوة الطعام أو أي صورة من صور إرضاء شهوات النفس، وهكذا يخدر إحساسهم بحيث لا يستطيعون سماع الحقائق نفسها التي هم في أمس الحاجة إلى سماعها وتعلمها.

والشيطان يعرف جيدا أن كل من يستطيع أن يسوقهم إلى إهمال الصلاة وتفتيش الكتب سينهزمون أمام هجماته. لذلك هو يبتكر كل حيلة ممكنة ليشغل العقل. وقد وُجد في كل العصور فئة من الناس يعترفون بالتقوى، الذين بدلا من التقدم لمعرفة الحق يجعلون ديانتهم منحصرة في البحث عن خطأ في أخلاق الذين يخالفونهم الرأي أو عن ضلال في عقيدتهم. هؤلاء هم أعظم معاصدي الشيطان إن المشتكين على الأخوة ليسوا قليلين، وهم يكونون دائما نشيطين عندما يرون الله يعمل وعندما يقدم إليه عبيده ولاءهم الحقيقي. انهم يصبغون أقوال الذين يحبون الحق وأعمالهم بصبغة كاذبة، ويصورون أعظم خدام المسيح حرارة وغيرة وإنكارا للذات على أنهم مخدوعون أو خادعون. فعملهم هو تشويه البواعث على كل عمل حقيقي ونبيل ونشر الوشايات وإثارة الشبهات في عقول البسطاء، وبكل طريقة ممكنة يسعون لجعل كل ما هو طاهر وعادل، يبدو وكأنه فاسد ومضلل.

ولكن لا حاجة بأحد إلى أن ينخدع بهؤلاء. فقد يظهروا سريعا أبناء من هم، وأي مثال يتبعون، وعمل من يقومون به. « مَنْ ثَمَارَهُمْ تَعْرِفُونَهُمْ » (متى ٧: ١٦). إن تصرفهم يشبه تصرف الشيطان الواشي الذي يوغر الصدور: « الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَتَا » (رؤيا ١٢: ١٠).

الحق يُقدّس

للمضل العظيم أعوان كثيرون على تمام الأهبة لتقديم كل أنواع الضلالات لاصطياد النفوس، وهي معدة بحيث تناسب الأذواق والكفاءات المختلفة للذين يريد أن يهلكهم. وخطته هي أن يضم إلى الكنيسة عناصر غير مخلصه ولا متجددة تشجع على الشك وعدم الإيمان، وان يعرقل من يرغبون في أن يروا عمل الله متقدما وفي المضي به إلى الأمام. فكثيرون ممن لا يوجد عندهم إيمان حقيقي بالله أو بكلمته يقبلون بعض مبادئ الحق وينجحون في الامتحان ويُعتبرون مسيحيين، وبذلك يكونون قادرين على تقديم ضلالتهم كتعاليم كتابية.

إن الرأي القائل بأن ما يعتقدونه الناس ليس أمرا عظيم الأهمية هو رأي من أنجح مكاييد الشيطان. فهو يعرف أن الحق الذي يقبله الإنسان حبا به يقدّس نفس من يقبله، ولذلك يحاول الشيطان دائما أن يستبدل الحق بنظريات وخرافات كاذبة وبإنجيل آخر. لقد ناضل عبيد الله منذ البدء ضد المعلمين الكذبة ليس فقط لمجرد كونهم قوما أشرارا بل لأنهم يغرسون في أذهان الناس الضلالات والأكاذيب المهلكة للنفس. فإيليا وإرميا وبولس قاوموا بكل شجاعة أولئك الذين كانوا يُحوّلون الناس عن كلمة الله. وذلك التساهل الذي يعتبر العقيدة الدينية السليمة عديمة الأهمية لم يجد قبولا لدى هؤلاء القديسين المدافعين عن الحق

إن التفسير الخيالي الغامض للكتاب والنظريات الكثيرة المتضاربة الخاصة بالعقيدة الموجودة في العالم المسيحي هي من صنع خصمنا العظيم لكي يربك العقول فلا تميز الحق. ثم إن النفور والشقاق الكائن بين الكنائس في العالم المسيحي يعزى إلى حد كبير إلى عادة تحريف الكتاب السائدة لدعم نظرية محبوبة. فإن كثيرين بدلا من أن يدرسوا كلمة الله باهتمام وبقلوب متواضعة ليحصلوا على معرفة مشيئته يحاولون اكتشاف شيء شاذ أو جديد.

فلكي يدعم البعض العقائد المغلوطة أو الممارسات التي لا صلة لها بالمسيحية يتشبثون بفصل من الكتاب منفصل عن سياقه وربما يقتبسون نصف آية للبرهان على صدق رأيهم، في حين أن باقي الآية قد تبرهن على عكس ذلك. فبدهاء الحية يحصّنون أنفسهم خلف ألفاظ مفككة يفسّرونها لتلائم رغباتهم الجسدية. وهكذا يحرف كثيرون كلمة الله في إصرار وعناد. وهناك آخرون لهم خيال وتصور شيطان يتمسكون بصور الكتاب المقدّس ورموزه ويفسّرونها بحيث تناسب أوهامهم، مع التفات قليل إلى شهادة الكتاب الذي هو مفسر نفسه، وحينئذ يقدمون أوهامهم على أنها تعاليم الكتاب.

الكتاب، المرشد الوحيد

وكلما شرعنا في درس الكلمة من دون روح الصلاة والاتضاع والاستعداد للتعلم فإن أبسط فصول الكتاب وأشدّها تعقيدا على السواء تُحرّف عن معناها الصحيح. إن الرؤساء البابويين يختارون

الفصول الكتابية التي تخدم أغراضهم ويفسرونها لتناسبهم ثم يقدمونها إلى الشعب، في حين أنهم ينكرون عليهم حقهم في درس الكتاب وفهم حقائقه لأنفسهم. ينبغي أن يعطى الكتاب كله للشعب كما هو على بساطته. وخير لهم ألا يتلقوا تعاليم كتابية أو إرشادات إطلاقاً من أن يحرف تعليم الكتاب بهذه الطريقة المخجلة.

لقد قُصد بالكتاب أن يكون مرشداً لكل من يرغبون في معرفة إرادة جابلهم. ولقد أعطى الله الناس كلمة النبوة الثابتة. أتى الملائكة بل حتى المسيح نفسه لإفهام دانيال ويوحنا ما لا بد أن يكون قريباً. فتلك الأمور المهمة المختصة بخلصنا لم تكن لتترك في حال الخفاء والغموض. وهي لم تعلن على نحو يربك الطالبين والباحثين الأمانة عن الحق أو يضلهم. وقد قال الرب على لسان حبقوق النبي: « أَكْتُبِ الرُّؤْيَا وَانْقُشْهَا عَلَى الْأَلْوَا حِ لِكَيَّ يَرْكُضَ قَارِئُهَا » (حبقوق ٢: ٢). إن كلمة الله واضحة لكل من يدرسونها بقلوب مصلية. فكل نفس أمانة بالحق تأتي إلى نور الحق، « نُورٌ قَدْ زُرِعَ لِلصِّدِّيقِ » (مزمور ٩٧: ١١). ولا يمكن لكنيسة أن تتقدم في القداسة ما لم يبحث أعضاؤها عن الحق بكل غيرة كمن يبحثون عن كنوز مخبوءة.

صرخة التساهل

إن الناس إذ ينطقون بكلمة التساهل يتعامون عن مكايد العدو في حين انه طول الوقت يعمل بكل مثابرة لإتمام غرضه. وإذ ينجح في إبدال الكتاب المقدس بالنظريات البشرية يُلقى بشريعة الله جانبا وترزح الكنائس تحت عبودية الخطيئة في حين أنهم يدعون أنهم أحرار.

لقد صار البحث العلمي لعنة لكثيرين. إن الله سمح أن ينسكب فيض من النور على العالم في الاستكشافات في العلوم والفنون. ولكن حتى أعظم العقول الجبارة إن لم تكن كلمة الله مرشداً لهم في بحثهم فسيرتبكون في محاولاتهم أن يفحصوا العلاقات بين العلم والوحي الإلهي.

إن المعرفة البشرية للأشياء المادية والروحية هي معرفة جزئية ناقصة، ولذلك يعجز كثيرون عن التوفيق بين آرائهم العلمية وحقائق الكتاب. وكثيرون يقبلون النظريات والآراء المحضة كحقائق علمية ويظنون أن كلمة الله يجب أن تُختبر بتعاليم « العلم الكاذب الاسم » (١ تيموثاوس ٦: ٢٠) إن الخالق وأعماله فوق إدراكهم. ولكونهم لا يستطيعون إيضاح هذه الأمور بالقوانين الطبيعية فهم يعتبرون تاريخ الكتاب مما لا يُركن اليه. والذين يشكّون في وثوق سجلات العهدين القديم والجديد وثباتها يتقدمون في غالب الأحيان خطوة جريئة أخرى فيشكّون في وجود الله وينسبون قوته غير المحدودة إلى الطبيعة. فحيث قد أفلتوا المرساة من أيديهم يُتركون ليصطدموا بصخور الإلحاد.

وهكذا يضل كثيرون عن الإيمان وينخدعون بأكاذيب الشيطان. لقد حاول الناس أن يكونوا أحكم من خالقهم، وقد حاولت الفلسفة البشرية أن تكتشف وتفسر أسراراً لن يمكن اكتشافها أو إعلانها مدى دهور الأبد. ولو بحث الناس وفهموا ما قد أعلنه الله عن نفسه ومقاصده لحصلوا على رؤيا عظيمة لمجد الله وجلاله وقدرته بحيث يتحققون من حقارتهم ويقنعون بما قد أعلن لهم ولأولادهم. إنها طرفة من طرف مخادعات الشيطان كونه يجعل عقول الناس تبحث وتخمن ما لم يعلنه الله وما

يقصد أن يبقية طي الخفاء فلا يدركه أحد. على هذا النحو سقط لوسيفر من مركزه الذي كان له في السماء. لقد صار متبرما لأنه لم يُستأمن على كل أسرار مقاصد الله واستخف تماما بما قد أعلن له عن عمله في المركز السامي الذي عُين فيه. وإذ أثار التذمر نفسه في نفوس الملائكة الذين تحت إمرته تسبب بسقوطهم. والآن هو يحاول أن يرسخ الروح نفسها في أذهان الناس وان يجعلهم يستخفون بأوامر الله الصريحة.

عمل الضلال المُسر

إن الذين لا يرغبون في قبول حقائق الكتاب الواضحة المؤثرة يبحثون دوما عن الخرافات المسرة التي تهدئ ضمائرهم. وكلما كانت التعاليم المقدمة أقل روحانية وإنكارا للذات وإذلالا للنفس قبلها الناس بسرور. هؤلاء الناس يحطون من قدر القوى العقلية في سبيل خدمة شهواتهم الجسدية. وإذ يدفعهم غرورهم إلى اعتبار أنفسهم أحكم من أن يفتشوا الكتب بنفوس منسحقة وبالصلوات الحارة في طلب الإرشاد الإلهي لا يجدون ترسا يقيهم من الضلال. والشيطان على استعداد لأن يمنح القلب مشتهاه وهو يلصق أكاذيبه في موضع الحق. لقد بسطت البابوية سلطانها على عقول الناس بهذه الطريقة، وإذ يرفض البروتستانت الحق لأنه يتطلب حمل الصليب فهم يسيرون في الطريق نفسه. فكل من يهملون كلمة الله ليدرسوا آداب اللياقة والسياسة حتى لا يكونوا على خلاف مع العالم سيُتركون ليقبلوا الهرطقة اللعينة بدلا من الحق الديني. والذين بمحض اختيارهم يرفضون الحق سيقبلون كل أشكال الضلال التي تخطر على البال. ومن ينظر برعب إلى أحد الضلالات سيقبل ضلالا آخر بسرعة. إن بولس الرسول، وهو يتكلم عن فئة من الناس الذين « لم يقبلوا معرفة الحق حتى يخلصوا »، يعلن قائلا: « وَلَاجِلْ هَذَا سَيُرْسَلُ إِلَيْهِمُ اللَّهُ عَمَلُ الضَّلَالِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ، لَكِي يُدَانَ جَمِيعُ الَّذِينَ لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ، بَلْ سُرُّوا بِالْإِثْمِ » (٢ تسالونيكي ٢: ١٠-١٢). فحيال هذا الإنذار ينبغي لنا أن نسهر ونكون على حذر بالنسبة إلى التعاليم التي نقبلها.

أخطاء خطيرة

من بين أنجح الوسائل التي يستخدمها المخادع الأكبر التعاليم المضلة والعجائب الكاذبة التي يقدمها من يعتقدون بمناجاة الأرواح. فإذ يتنكر في شبه ملاك نور فهو يلقي شبابه في الأماكن التي قلما يشتبه بها. ولو درس الناس كتاب الله بصلاة حارة حتى يفهموه لما كانوا يُتركون في الظلام لقبول التعاليم الكاذبة. ولكن إذ يرفضون الحق يسقطون فريسة الضلال.

وهناك ضلالة خطيرة أخرى وهي العقيدة التي تنكر ألوهية المسيح إذ تدّعي أنه لم يكن له وجود قبل مجيئه إلى العالم. هذه النظرية يقبلها بكل رضى فئة كبيرة من الناس الذين يعترفون بإيمانهم بالكتاب. ومع ذلك فهذه العقيدة تناقض مناقضة صريحة أبسط التصريحات التي نطق بها مخلصنا عن علاقته بالآب، وصفاته الإلهية ووجوده من قبل. ولا يمكن قبول هذه العقيدة ما لم يحرف الناس الكتب المقدسة تحريفا غير مباح. وفضلا عن كونها تحط من إدراك الإنسان لعمل الفداء فإنها أيضاً تقوض الإيمان بالكتاب كإعلان من الله. وفي حين أن هذا يجعلها أشد خطرا فهو يجعلها صعبة

المواجهة. فاذا كان الناس يرفضون شهادة الكتاب الموحى به عن لاهوت المسيح فعبثا نجادلهم في ذلك لأنه لا يمكن لأي حجة أن تقنعهم مهما تكن قوة إقناعها عظيمة. « الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة، ولا يقدر أن يعرفه لأنه إنما يحكم فيه روحياً » (١ كورنثوس ٢: ١٤). وكل من يعتنقون هذه الضلالة لا يستطيعون إدراك صفات المسيح أو رسالته إدراكا حقيقيا، ولا يعرفون تدبير الله العظيم لفداء الإنسان.

ثم هنالك ضلالة أخرى مكررة وخبيثة وهي الاعتقاد السريع الانتشار بأن الشيطان لا وجود له ككائن شخصي، وأن الاسم الذي قد أطلقه عليه الكتاب إنما ذكر فقط لتصوير أفكار الناس ورغائبهم الشريرة.

والتعليم الذي يرن صداه في كل مكان من المنابر الشهيرة والقائل أن المجيء الثاني للمسيح هو مجيئه لكل فرد في ساعة الموت، إنما هو مكيدة لتحويل أفكار الناس عن مجيئه بنفسه على سحاب السماء. لقد ظل الشيطان يقول عدة سنين: « ها هو في المخادع » (متى ٢٤: ٢٣-٢٦). وقد هلكت نفوس كثيرة بسبب هذه الضلالة.

ثم إن الحكمة البشرية تعلم أن الصلاة ليست أمرا جوهريا. ورجال العلم يدعون أنه لا يمكن أن تكون هنالك إجابة حقيقية للصلاة، وأن ذلك يكون خرقا للنواميس، وأنه معجزة، والمعجزات لا وجود لها. ويقولون أن الكون تحكمه نواميس ثابتة والله نفسه لا يفعل شيئا مناقضا لهذه النواميس. وهكذا يصورون الله على أنه محكوم ومرتبب بنواميسه، كما لو أن عمل النواميس الإلهية يحرم على الله التمتع بالحرية الإلهية. مثل هذا التعليم مضاد لشهادة الكتاب. أفلم يصنع المسيح وتلاميذه معجزات؟ إن ذلك المخلص الرحيم نفسه حي اليوم وهو يرغب في الاستماع إلى صلاة الإيمان كما كان حين كان يسير بين الناس بهيئة منظورة. إن الطبيعي يتعاون مع ما هو فوق الطبيعة. إنه جزء من تدبير الله أن يمنحنا، إجابة لصلوات الإيمان، ما لم يكن ليمنحنا إياه لو لم نطلبه.

مستندات أهل العالم

وكثيرة هي التعاليم المغلوطة والآراء الوهمية التي تتفشى في الكنائس في العالم المسيحي. ويستحيل علينا أن نقدر النتائج الوبيلة المضرة لإزالة أحد المعالم المثبتة في كلمة الله. أما الغالبية العظمى فيظنون يطرحون جانبا واحدا بعد الآخر من مبادئ الحق حتى يصيروا ملحدين بالفعل. قادت أخطاء اللاهوت الرائج شعبيا نفوسا كثيرة إلى الشك ممن كان ممكنا أن تؤمن بالكتب المقدسة لولا هذه الأخطاء. ذلك أنه يستحيل على المؤمن أن يتقبل عقائد تنتهك حسه بالعدالة والرحمة وحب الخير؛ ولأن عقائد كهذه صُورت على أنها تمثل الكتاب المقدس فقد رفضت هذه النفوس تقبله ككلمة الله.

وهذا هو الغرض الذي يسعى الشيطان لتحقيقه. فلا شيء يرغب في تدميره أكثر من الثقة بالله وبكلمته. يقف الشيطان في طليعة جيش المتشككين العظيم ويبدل قصاراه في إغراء النفوس للانضمام إلى صفوفه. لقد صار الشك أمرا مألوفا ومتمشيا مع موضة العصر. فثمة فئة كبيرة من

الناس ينظرون إلى كلمة الله نظرة الشك للسبب نفسه الذي من أجله يشكون في مبدعها: لأنها توبخ الخطيئة وتدينها. فالذين لا يرغبون في إطاعة متطلباتها يحاولون أن يهدموا سلطانها. إنهم يقرأون الكتاب أو يصغون إلى تعاليمه كما هي مقدمة من المنبر المقدس لمجرد البحث عن غلطة في الكتاب أو في العظة. وكثيرون يصيرون ملحدين لكي يجدوا تبريرا أو عذرا لإهمال واجبهم. وآخرون يعتقدون مبادئ تشكيكية بسبب الكبرياء أو البلادة. فإذا يفرطون في حب الراحة بحيث لا يُبرزون أنفسهم بإنجاز أي عمل خليق بالكرامة ويتطلب بذل المجهود وإنكار الذات فهم يهدفون إلى الاشتهار بحكمة سامية بانتقادهم الكتاب المقدس. ثمة شيء كثير يعجز العقل المحدود غير المستنير بالحكمة الإلهية عن أن يدركه، وهكذا يجدون مجالا للانتقاد. ويوجد الكثيرون ممن يبدو أنهم يحسون أن الفضيلة هي في الوقوف إلى جانب عدم الإيمان والشكوك والإلحاد. ولكن تحت مظهر الإخلاص سيُرى أن مثل أولئك الناس مدفوعون بدافع الثقة بالنفس والكبرياء. كثيرون يسرون لو وجدوا في الكتاب المقدس شيئا يربك عقول الآخرين ويحيرهم. بعض الناس في بادئ الأمر ينتقدون ويتحاجون على الجانب المخطئ لمجرد حب الجدل. وهم لا يفتنونه إلى أنهم يوقعون أنفسهم في فخ الصياد. ولكن بما أنهم جاهدوا بعدم الإيمان فهم يحسون أنه ينبغي أن يثبتوا على موقفهم. وهكذا يتحدثون مع الأشرار ويغلقون أبواب الفردوس بينما هم في خارجه.

أساس متين

لقد أعطى الله في كلمته البرهان الكافي على صفاتها الإلهية. فالحقائق العظيمة الخاصة بفدائنا مقدمة فيها بكل وضوح. وبمساعدة الروح القدس، التي وُعد بها كل من يطلبونها بإخلاص، يستطيع كل إنسان أن يفهم هذه الحقائق لنفسه. لقد منح الله الإنسان أساسا راسخا يمكن أن يضع عليه إيمانه.

ومع ذلك فعقول الناس محدودة قاصرة عن أن تدرك إدراكا كاملاً تدابير الله غير المحدودة ومقاصده. اننا لا نستطيع بالبحث والاستقصاء أن نجد الله. وينبغي ألا نحاول أن نرفع بأيدينا الوقحة الستار الذي يخفي الله جلاله خلفه. إن الرسول يهتف قائلا: « مَا أَبْعَدَ أَحْكَامُهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقُهُ عَنِ الْاسْتِقْصَاءِ! » (رومية ١١: ٣٣). ففي وسعنا أن ندرك معاملاته معنا والبواعث التي تدفعه إلى ذلك بحيث يمكننا أن نرى محبته ورحمته اللامحدودتين والمرتبطينتين بالقدرة غير المتناهية. إن أبانا السماوي يدبر كل شيء بحكمة وعدل وعلينا ألا نتذمر أو نشك بل أن نسجد أمام الله في خضوع واحترام. إنه سيعلم لنا مقاصده بقدر ما هو من صالحنا أن نعرفه، ولكن أكثر من هذا علينا أن نثق بيد الله القدير وقلبه المفعم بالمحبة.

وفي حين أن الله أعطى البرهان الكافي للإيمان فهو لن يلغي كل عذر لعدم الإيمان. فكل من يبحث عن تعاليق يعلقون عليها شكوكهم سيجدونها. والذين يرفضون قبول كلمة الله وإطاعتها إلى أن يُزال كل اعتراض ولا يعود بعد مجال للشك فلن يأتوا إلى النور.

إن الشك في الله هو النتاج الطبيعي للقلب غير المتجدد الذي هو عداوة لله. أما الإيمان فهو ما

يلهمه وَالرُّوحُ الْقُدُسُ، وهو سيزهر وينمو على قدر ما يتغذى. ولا يستطيع إنسان أن يصير قويا في الإيمان من دون أن يبذل جهدا وعزما. إن عدم الإيمان يتقوى على قدر ما يجد تشجيعا، وإذا كان الناس بدلا من التعويل على البراهين التي أعطاها لهم الله لإسناد إيمانهم يعمدون إلى التساؤل والمماحكة فسيجدون أن شكوكهم تزداد رسوخا على الدوام.

لكن الذين يشكون في مواعيد الله ولا يثقون بيقين نعمته إنما يهينونه، وهم بدلا من أن يجتذبوا الآخرين إلى المسيح فهم يبعدونهم عنه. إنهم أشجار عقيمة تنشر ظلالها القاتمة في كل مكان وتحجب نور الشمس عن النباتات الأخرى وتجعلها تذوي وتموت تحت ظلها القارس البارد. وسيظهر عمل أولئك الناس مدى الحياة شهادة ضدهم تبقى على الدوام. إنهم يزرعون بذار الشك والإلحاد الذي سينتج حصادا لا ينضب.

ليس أمام الذين يرغبون بكل إخلاص أن يتحرروا من الشكوك غير طريق واحد يسلكونه. فبدلا من التساؤل والمماحكة في ما لا يفهمونه ليلتفتوا إلى النور الذي قد أشرق عليهم وحينئذ سيحصلون على نور أعظم. عليهم القيام بكل واجب اتضح أمام أفهامهم وحينئذ سيكونون قادرين على فهم الواجبات التي يشكون فيها الآن وعلى القيام بها.

يستطيع الشيطان أن يقدم تقليدا للحق قريب الشبه به جدا بحيث يخدع الذين يرغبون في أن ينخدعوا والذين لا يرغبون في إنكار الذات والتضحية اللذين يطلبهما الحق. ولكن يستحيل عليه أن يُبقي تحت سيطرته نفسا واحدة ترغب مخلصا في معرفة الحق مهما تكن الكلفة. إن المسيح هو الحق وهو « النور الحقيقي الذي يُبهر كل إنسان آتيا إلى العالم » (يوحنا ١: ٩). وروح الحق قد أرسل ليرشد الناس إلى جميع الحق. وقد أعلن بناء على سلطان ابن الله هذا الوعد: « اطلبوا تجدوا » « إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم » (متى ٧: ٧؛ يوحنا ٧: ١٧).

لا يعرف أتباع المسيح إلا القليل عن المؤامرات التي يحيكها الشيطان وجنوده ضدهم. لكن الساكن في السماوات سيسيطر على كل هذه المؤامرات لإتمام مقاصده العميقة. إن الرب يسمح أن يجتاز شعبه في بلوى التجربة المحرقة لا لأنه يسر بوقوع الضيق أو البلوى عليهم بل لأن هذه العملية لازمة وجوهرية لنصرتهم النهائية. إنه لم يستطع، بما يتفق مع مجده، أن يقيهم من التجربة لأن غاية التجربة هي أعدادهم لمقاومة كل مغريات الشر.

ولكن لا الناس الأشرار ولا الشياطين يستطيعون تعطيل عمل الله أو حجب وجهه عن شعبه إذا كانوا بقلوب خاضعة منسحقة يعترفون بخطاياهم ويتركونها، وبالإيمان يتمسكون بمواعيده ويطالبونه بها. فكل تجربة وكل تأثير معاكس سواء في السر أو العلانية يمكن مقاومته بنجاح « لا بالقُدرة ولا بالقُوَّة، بل بروحي قال ربُّ الجنود » (زكريا ٤: ٦).

قوة المهلك

« عَيَّنِي الرَّبُّ عَلَى الْأَبْرَارِ، وَأُذِنِيهِ إِلَى طَلِبَتِهِمْ... فَمَنْ يُؤْذِيكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُتَمَثِّلِينَ بِالْخَيْرِ؟ » (١ بطرس ٣: ١٢، ١٣). إن بلعام عندما بهره الوعد بمكافآت غنية سخية حاول استخدام عرافته ضد العبرانيين،

وإذ قدم محرقات إلى الرب حاول أن يستنزل لعنة على شعبه، لكنّ روح الله منع الشر الذي تاق بلعام إلى النطق به فأرغم على أن يصرخ قائلاً: « كيف ألعن من لم يلعنه الله وكيف أشتّم من لم يشتمه الرب؟ » « لتمت نفسي موت الأبرار ولتكن آخرتي كآخرتهم ». وعندما قُدمت المحرقة مرة أخرى أعلن ذلك النبي الشرير قائلاً: « إني قد أمرت أن أبارك فإنه قد بارك فلا أردّه. لم يبصر إثما في يعقوب ولا رأى تعباً في إِسْرَائِيل. الرب إلهه معه وهتاف ملك فيه ». « انه ليس عيافة على يعقوب ولا عرافة على إِسْرَائِيل. في الوقت يقال عن يعقوب وعن إِسْرَائِيل ما فعل الله ». وللمرة الثالثة أقيمت المذابح وحاول بلعام مرة أخرى أن يستنزل لعنة. ولكن من بين شفّتي ذلك النبي الكارهتين أعلن روح الله نجاح مختاريه ووبخ جهالة أعدائهم وخبثهم فقال: « مباركك مبارك ولاعنك ملعون » (سفر العدد ٢٣: ٨، ١٠، ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤: ٩).

كان العبرانيون مخلصين في ولائهم لله في ذلك الوقت، وطالما كانوا مطيعين شريعته لم يكن في استطاع قوة في الأرض أو في الجحيم أن تقوى عليهم لكنّ بلعام الذي لم يُسمح له أن ينطق باللعنة على شعب الله نجح أخيراً في صبها عليهم عن طريق إغرائهم بارتكاب الخطيئة. فلما تعدوا وصايا الله انفصلوا حينئذ عنه وتركوا ليقاسوا قوة المهلك.

يعلم الشيطان جيداً أن أضعف نفس تثبت في المسيح هي أكثر من ند لجنود الظلمة، وأنه لو أظهر نفسه جهاراً سيجابه ويقاوم. ولذلك هو يحاول أن يستدرج جنود الصليب بعيداً عن معاقلهم وحصونهم بينما يكمن لهم مع جنوده وهو على استعداد لإهلاك كل من يجرؤ على الاقتراب من أرضه. ونحن يمكننا بالاتكال المتواضع على الله وإطاعة وصاياه أن نكون في أمان.

لن يكون أي إنسان في أمان يوماً واحداً أو ساعة واحدة من دون صلاة. وينبغي لنا على الخصوص أن نتوسل إلى الرب في طلب الحكمة لفهم كلامه. ففي كلمة الله تُعلن مكاييد المجرب ووسائل مقاومتها بنجاح. إن الشيطان خبير في اقتباس الآيات الكتابية وهو يقدم تفسيره الخاص للفصول التي يؤمل أننا سنعثر فيها. فعلينا أن ندرس الكتاب بقلب متواضع ولا نغفل عن الاعتماد على الله. ففي حين يجب علينا أن نكون على حذر دائماً من مكاييد الشيطان علينا أن نصلي دائماً بإيمان قائلين: « لا تدخلنا في تجربة ».

٣٣ - الخدعة الأولى العظيمة

منذ بدء تاريخ الإنسان شرع الشيطان يبذل محاولاته لخدع جنسنا. فذاك الذي حرّض ساكني السماء على الثورة أراد أن يجعل سكان الأرض يشتركون معه في حربه ضد حكم الله وسلطانه. لقد كان آدم وحواء في منتهى السعادة وهما يطيعان شريعة الله، وكانت هذه الحقيقة شهادة دائمة ضد الادعاء الذي أشاعه الشيطان في السماء، والقائل بأن شريعة الله ظالمة وصارمة وهي تتعارض مع خير خلائقه. فضلا عن هذا فإن الشيطان ثار حسده وهو يرى ذلك البيت الجميل الذي قد أعد لذينك الزوجين البارين، فعقد العزم على إسقاطهما، حتى إذا فصل بينهما وبين الله وأخضعهما لسلطانه يمكنه أن يمتلك الأرض، وفيها يوطد مملكته، ومنها يقاوم حكم الله العلي.

ولو كان الشيطان قد أظهر نفسه على حقيقتها لطرده في الحال لأن آدم وحواء كانا قد أنذرا بالخطر من هذا العدو الخطر، لكنه كان يحيك مؤامراته في الظلام مخفيا نواياه ليتم غرضه ويصل إلى هدفه بطريقة فعالة. وإذا اتخذ الحية وسيلة ومطية له، وكانت آنذاك مخلوقة ساحرة في منظرها، تقدم من حواء فقال: « أَحَقَّا قَالَ اللَّهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟ » (تكوين ٣: ١). ولو كَفَّتِ حواء عن الدخول في جدال مع المجرب لسلمت منه، ولكنها خَاطرتَ بنفسها بمناقشته فسقطت فريسة مكايده. وهكذا ينهزم كثيرون. فهم يشكون ويجادلون في مطالب الله وبدلا من إطاعة الأوامر الإلهية يقبلون النظريات البشرية التي تختفي تحتها مكاييد الشيطان.

« فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: « مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللَّهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ لئَلَّا تَمُوتَا ». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: « لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ » (تكوين ٣: ٢-٥). لقد أعلن الشيطان انهما سيكونان كالله، أكثر حكمة وتأهلا لحالة وجود اسمى. وقد خضعت حواء للتجربة وبواسطة تأثيرها سقط آدم في الخطيئة. قبل أقوال الحية أن الله لم يكن يعني ما قال. شكّا في خالقهما وتصورا أنه يحد من حريتهما وانهما قد يحصلان على حكمة عظيمة ورفعة وسمو لو تعديا شريعته.

ولكن ما المعنى الذي اكتشفه آدم بعد سقوطه للقول: « يوم تأكل منه موتا تموت؟ » هل وجده يعني أنه سيدخل حالة وجود أسمى كما قد جعله الشيطان يعتقد؟ فلو كان الأمر كذلك لكان في التعدي والعصيان خير عظيم ولتبرهن أن الشيطان محسن للجنس البشري. لكن آدم لم يجد أن هذا هو معنى قول الله. وقد أعلن الرب لآدم أنه لا بد أن يعود إلى الأرض التي منها أخذ قصاصا له على خطيئته. « لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ » (تكوين ٣: ١٩). وقد تبرهن صدق قول الشيطان « تنفتح أعينكما » بهذا المعنى فقط. فبعدما عصى آدم وحواء الله انفتحت أعينهما ليريا جهالتهما ويفطنا إلى غبائهما. لقد عرفا الشر وذاقا مرارة ثمار العصيان.

وفي وسط جنة عدن كانت توجد شجرة الحياة التي في ثمارها قوة على إطالة العمر. فلو ظل آدم مطيعا لله لكان قد بقي ينعم بالوصول بكل حرية إلى هذه الشجرة وكان يحيا إلى الأبد. ولكن عندما أخطأ حُرِّمَ عليه الأكل من شجرة الحياة فصار عرضة للموت. إن قول الله: « إِنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ » يشير إلى القضاء على الحياة قضاء مبرما.

إن الخلود الذي كان الإنسان قد وُعد به لقاء الطاعة أضاعه بعصيانته. ولم يكن آدم يستطيع أن ينقل إلى ذريته شيئا لم يكن هو يمتلكه، ولم يكن هنالك رجاء لجنسنا الساقط لولا أن الله جعل الخلود في متناول أيدينا إذ بذل ابنه لأجلنا. ففي حين « اجتاز الموت إلى جميع الناس، إذ أخطأ الجميع » فإن المسيح « أثار الحياة والخلود بواسطة الإنجيل » (رومية ٥: ١٢؛ ٢ تيموثاوس ١: ١٠). ولا يمكن الحصول على الخلود إلا بواسطة المسيح وحده. وقد قال يسوع: « الذي يؤمن بالأبن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالأبن لن يرى حياة » (يوحنا ٣: ٣٦). ويمكن لكل إنسان أن يحصل على هذه البركة التي لا تقدر بثمن إذا تمم الشروط. كل « أما الذين صبر في العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء » فسيحصلون على « الحياة الأبدية » (رومية ٢: ٧).

والشخص الوحيد الذي وعد آدم بالحياة مع العصيان هو المخادع العظيم. إن إعلان الحية لحواء في جنة عدن — « لن تموتا » — كان أول عظة القيت عن خلود النفس. لكن هذا الإعلان الذي يستند إلى سلطان الشيطان لا سواه تردد صداه المنابر في كل العالم المسيحي وغالبية بني الإنسان يقبلونه بالسرعة نفسها التي قبله بها أبوانا الأولان. وإن حكم الله القائل: « أَلنَفْسُ الَّتِي تَخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ » (حزقيال ١٨: ٢٠) صار يعني أن النفس التي تخطئ لن تموت بل تحيا إلى الأبد. ولا يسعنا ألا أن ندهش من الولع الغريب الذي يجعل الناس سذجا جدا بالنسبة إلى أقوال الشيطان وعديمي الإيمان جدا في ما يختص بأقوال الله.

ولو سُمح للإنسان بعد سقوطه بالتناول من ثمر شجرة الحياة لكان يحيا إلى الأبد، وهكذا كانت الخطية تبقى خالدة إلى الأبد. لكن الكروبيم ولهيب السيف المتقلب حرسا « طريق شجرة الحياة » (تكوين ٣: ٢٤). ولم يسمح لأي واحد من بني آدم بتجاوز ذلك السياج ليتناول من الثمرة الواهبة الحياة. ولذلك فلا خاطئ خالداً.

لكن الشيطان أمر ملائكته بعد السقوط أن يذلوا جهدا خاصا في تلقين الناس عقيدة خلود النفس، وإذ أغري الناس بقبول هذه الضلالة كان عليهم أن يجعلوهم يستنتجون أن الخاطئ سيحيا في شقاء أبدي. والآن فيها سلطان الظلمة وهو يعمل عبر أعوانه يصور الله طاغية محبا للانتقام، ويعلن أنه تعالى يطرح في أعماق الجحيم جميع الذين لا يرضونه ويجعلهم يحسون بشدة وطأة غضبه مدى أجيال الأبد، وفيما هم يقاسون أهوال العذاب الذي لا يوصف ويتلوون في النار الأبدية فإن خالقهم يشرف عليهم من عليائه بلذة ورضى وسرور.

الشيطان يسيء تمثيل الله

وهكذا يخلع العدو الأعظم (رئيس الشياطين) صفاته على خالق البشر والمحسن اليهم. إن القسوة هي من صفات الشيطان. لكن الله محبة، وقد كان كل ما خلقه طاهرا ومقدسا وجميلا إلى أن دخلت الخطيئة إلى العالم بفعل العاصي الأول الأكبر. والشيطان نفسه هو العدو الذي يُجرب الإنسان ليرتكب الخطيئة، وحينئذ يهلكه لو استطاع ذلك، وعندما يتمكن من فريسته فهو يتهج بسبب الهلاك الذي قد صنعه. ولو سُمح له فهو سيأخذ جنسنا كله في شبكته. فلولا تدخل قدرة الله لما

نجا ابن أو ابنة من أولاد آدم.

يحاول الشيطان اليوم أن ينتصر على الناس كما قد انتصر على أبينا من قبل بزعة ثقتهم بخالقهم ودفعهم إلى الشك في حكمته في الحكم وفي عدالة شرائعه. ويصور الشيطان وأعدائه، الله، على نحو أسوأ حتى منهم هم أنفسهم لكي يبرروا خبثهم وتمردهم. ويحاول المخادع العظيم أن يلقي قسوته المريعة وتبعة شر صفاته على أبينا السماوي لكي يبدو هو كمن قد ظلم ظلما صارخا عندما طُرد من السماء لأنه رفض الخضوع لمثل ذلك الحاكم الظالم. وهو يعرض أمام العالم الحرية التي يمكنهم أن ينعموا بها تحت سلطانه الهادي، على نقيض العبودية التي تفرضها أوامر الرب الصارمة. وهكذا ينجح في خداع النفوس وأبعادها عن الولاء لله.

تعليم شائع

وكم هو ممقوت، لكل من يحس بالمحبة والرحمة، وحتى لشعورنا بالعدالة، اعتقادنا أن الأموات الأشرار سيعذبون بالنار والكبريت في لهيب الجحيم إلى الأبد، وأنهم لأجل الخطايا التي ارتكبوها مدى حياتهم القصيرة على الأرض سيقاسون أهوال العذاب مدى أجيال أبدية الله. ومع ذلك فقد لقن الناس هذه العقيدة التي انتشرت إلى مدى بعيد ولا تزال مثبتة في عقائد العالم المسيحي. وقد قال أحد دكاترة اللاهوت العلماء: «إن منظر عذابات الجحيم سيزيد من غبطة القديسين إلى الأبد. فعندما يرون غيرهم ممن لهم طبيعتهم نفسها وولّدوا في ظروف شبيهة بظروفهم وقد غمرهم ذلك البؤس، أما هم فقد امتازوا عن أولئك التعساء، فهذا سيجعلهم يحسون بعظمة سعادتهم». وقد نطق آخر بهذا القول: «عندما يُنقذ حكم الطرد والرفض على آنية الغضب فإن دخان عذابهم سيصعد إلى الأبد أمام عيون أواني الرحمة الذين بدلا من مشاطرة أولئك الأشقياء في شقائهم سيقولون: آمين، هلولوا! حمدا للرب!». «.

أين يوجد هذا التعليم على صفحات كلمة الله؟ وهل المفتدون في السماء سيكونون مجردين من عواطف الرأفة والرحمة وحتى المشاعر البشرية التي يشترك فيها جميع بني الإنسان؟ وهل هذه ستُستبدل بعدم اكتراث الرواقيين أو قسوة المتوحشين؟ كلا، أبدا، فهذا ليس ما يعلم به كتاب الله. فأولئك الذين يقدمون الآراء المعبر عنها في الاقتباسات السابقة قد يكونون قوما علماء ومخلصين لكنهم مخدوعون بمغالطات الشيطان. فهو يجعلهم يسيئون فهم التعبيرات القوية الواردة في الكتاب إذ يصبغ لغة الكتاب بصبغة المرارة والخبث التي هي من خصائصه ولكن لا صلة لها بخالقنا، فهو الذي قال: «حَيُّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لَا أَسْرُ بِمَوْتِ الشَّرِّيرِ، بَلْ بَأَنَّ يَرْجِعَ الشَّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا. ارْجِعُوا، ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ الرَّدِيئَةِ! فَلَمَّاذَا تَمُوتُونَ» (حزقيال ٣٣: ١١).

أي كسب يناله الله لو أننا سلمنا بأنه يسر بمشاهدة خلائقه يعذبون عذابا أبديا، وأنه ينتعش وهو يسمع آهات خلائقه وصرخاتهم ولعناتهم وهم يتعذبون محبوسين في نار الجحيم؟ وهل يمكن أن تكون هذه الصرخات المفزعة نغمات موسيقية في أذني المحبة السرمدية؟ وقد قيل أن إيقاع الشقاء الأبدي على العالم الشرير سيبرهن على كراهية الله للخطيئة كشر مدمر لسلام الكون ونظامه. يا لهذا

من تجديف مخيف! كما لو أن كراهية الله للخطيئة هي سبب دوامها. لأنه بناء على تعاليم هؤلاء اللاهوتيين فالعذابات التي لا تنقطع بلا رجاء في الرحمة مستقبلا تصيب أولئك الضحايا الأشفياء بالجنون، وإذ يعبرون عن اهتياجهم وغضبهم باللعنات والتجديف يزدون على مدى أجيال الأبد من أحمال ذنوبهم أثقالا فوق أفعال. إن مجد الله لا يتحقق بالاستمرار في تكويم الخطايا مدى أجيال الأبد.

شر ينجم عن الهرطقة

ليس في مقدور العقل البشري أن يقدر الشر العظيم الذي حدث بسبب ضلالة العذاب الأبدي. إن دين الكتاب المقدس، المفعم بالحب والصلاح والفائض بالرحمة، يكتنفه ظلام الخرافات ويحاط بالرعب. وعندما نتأمل في أي من الألوان الخادعة التي صور بها الشيطان صفات الله فهل نستغرب إذا كان الناس يخشون من الخالق الرحيم ويهربون جانبه ويرتعبون منه بل يبغضونه؟ إن الآراء المربعة عن الله، التي تفهم من التعاليم التي تلقى من على المنابر في كل أنحاء العالم، قد خلقت آفا بل ملايين من المتشككين والملحدين.

إن نظرية العذاب الأبدي هي إحدى العقائد الكاذبة التي منها تتكون خمر رجس بابل التي تجعل كل الأمم تشرب منها (رؤيا ١٤ : ٨ ؛ ١٧ : ٢). إن كون خدام المسيح قد قبلوا هذه الضلالة وجأهروا بها من المنابر المقدسة هو سر يعسر فهمه. لقد أخذوها عن روما كما قد أخذوا السبت الزائف. نحن لا نكر أن الذين قد علّموا بها هم عظماء ونبلاء، لكنّ النور الخاص بهذا الموضوع لم يصل إليهم كما قد وصل إلينا. لقد كانوا مسؤولين عن النور الذي أشرق في أيامهم من دون سواه، أما نحن فمسؤولون عن النور الذي ينير في أيامنا. فإذا ارتدنا عن شهادة كلمة الله وقبلنا التعاليم الكاذبة لأن آباءنا علّموا بها فإننا نقع تحت الدينونة التي نطق بها الرب ضد بابل إذ نحن نشرب من خمر رجاساتها.

ينساق فريق كبير ممن تثيرهم وتنفرهم عقيدة العذاب الأبدي إلى الضلالة المضادة لها. فهم يرون أن الكتاب المقدس يصور الله ككائن محب رحيم، ولذلك فلا يمكنهم أن يعتقدوا أن الله سيحبس خلائقَه في نيران الجحيم المتقدمة إلى الأبد. ولكن لكونهم يعتقدون أن النفس خالدة بالطبع، فهم لا يرون بديلا سوى أن يستنتجوا أن كل بني الإنسان سيخلصون أخيراً. وكثيرون يعتبرون أن التهديدات المذكورة في الكتاب قُصد بها إخافة الناس لتسوقهم إلى الطاعة ولم يكن المقصود تنفيذها حرفياً. وهكذا يمكن للخاطئ أن يعيش في المسرات النفسانية مزدرياً بمطالب الله ومع ذلك ينتظر أن يتلقاه الله في النهاية بالرضى والقبول. مثل هذا التعليم الذي يتجرأ على رحمة الله ويتجاهل عدالته في الوقت نفسه يسر القلب البشري ويشجع الأشرار على السير في طريق الإثم.

ولكي نبرهن كيف يحرف المعتقدون عقيدة الخلاص العام كلمة الله لتأييد عقائدهم المهلكة لنفوسهم يلزمنا فقط أن نقبس أقوالهم. ففي حفل تأبين شاب غير متدين كان قد قُتل في حادث في التو والساعة اختار أحد معتنقي عقيدة الخلاص العام هذه الآية الواردة عن داود: « تَعَزَّى عَنْ أَمْنُون حَيْثُ إِنَّهُ مَاتَ » (٢ صموئيل ١٣ : ٣٩).

قال الخطيب: « كثيرا ما أسأل هذا السؤال: ما هو مصير أولئك الذين يتركون العالم وهم في

خطاياهم ويموتون ربما وهم في حالة السكر ومخمورون، ويموتون وأيديهم ملوثة بدماء ضحايا جرائمهم، ولم يغسلوا ثيابهم، أو يموتون كما قد مات هذا الشاب الذي لم يقدم اعترافاً ولا مرة واحدة أو تمتع باختبار ديني؟ إننا مكتفون بما ورد في الكتاب فجوابه فيه حل للمشكلة الخطيرة. لقد كان أمنون شريراً جداً ولم يتب عن خطاياه وكان قد سكر، وهو في حالة السكر قُتل. وكان داود نبياً لله، ولا بد أن يكون قد عرف ما إذا كان سيصيب أمنون خير أو شر في العالم الآتي. فماذا كانت خلجات قلبه؟ « تَعَزَّى عَنْ أَمُنُونَ حَيْثُ إِنَّهُ مَاتَ » (٢ صموئيل ١٣: ٣٩).

قال الخطيب: « كثيراً ما أسأل هذا السؤال: ما هو مصير أولئك الذين يتركون العالم وهم في خطاياهم ويموتون ربما وهم في حالة السكر ومخمورون، ويموتون وأيديهم ملوثة بدماء ضحايا جرائمهم، ولم يغسلوا ثيابهم، أو يموتون كما قد مات هذا الشاب الذي لم يقدم اعترافاً ولا مرة واحدة أو تمتع باختبار ديني؟ إننا مكتفون بما ورد في الكتاب فجوابه فيه حل للمشكلة الخطيرة. لقد كان أمنون شريراً جداً ولم يتب عن خطاياه وكان قد سكر، وهو في حالة السكر قُتل. وكان داود نبياً لله، ولا بد أن يكون قد عرف ما إذا كان سيصيب أمنون خير أو شر في العالم الآتي. فماذا كانت خلجات قلبه؟ » وكان داود يتوق إلى الخروج إلى أبشالوم لأنه تعزى عن أمنون حيث أنه مات » (٢ صموئيل ١٣: ٣٩).

« وما هي النتيجة التي نخرج بها من هذا الكلام؟ ألا نفهم من هذا أن العذاب اللانهائي لم يكن ضمن عقيدته الدينية؟ وهكذا نحن ندرك وهنا نكتشف حجة ظافرة لتأييد نظرية الطهارة والسلام النهائيين الشاملين، تلك النظرية الأعظم سرورا ونورا وتسامحا وحباً وإحساناً. لقد تعزى حيث أن ابنه مات. ولماذا هذا؟ لأنه أمكنه بعين النبوة أن يرى ما سيحدث فيما بعد، يرى المستقبل المجيد، ويرى ذلك الابن بعيداً عن متناول كل التجارب ومتحرراً من العبودية ومطهراً من مفاسد الخطيئة، وبعدما صار مقدساً ومستتيراً بالكفاية سُمح له بالانضمام إلى محفل الأرواح الصاعدة المتهللة. كان عزاءه الوحيد أنه إذ نُقل ابنه الحبيب من حال الخطيئة والألم تُسكب أسمى أشواق وَالرُّوحُ الْقُدُسُ على نفسه المكتنفة بالظلام حيث ينكشف لعقله حكمة السماء وفرط السرور العذب الذي للمحبة الخالدة، وهكذا يؤهل بطبيعته المقدسة ليتمتع براحة الميراث السماوي وعشرة الأبرار.

« ونحن بهذه الأفكار نريد أن يفهم عنا أننا نعتقد أن خلاص السماء لا يتوقف على أي شيء نفعله في هذه الحياة، لا على تغيير حالي في القلب ولا على عقيدة حالية أو اعتراف حالي بالدين ».

وهكذا نحن نسمع أحد المدعوين خدام المسيح يردد الأكذوبة نفسها التي نطقت بها الحية في عدن حين قالت: « لَنْ تَمُوتَا! »، « يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتَحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ ». وهو يعلن أن أنجس الخطاة، سواء كان قاتلاً أو لصاً أو زانياً، سيكون بعد الموت مستعداً للدخول إلى السعادة الأبدية.

ولكن من أين يستنبط هذا المحرف لأقوال الله استنتاجاته هذه؟ من عبارة واحدة نطق بها داود معبراً بها عن خضوعه لتدبيرات العناية الإلهية: « كان داود يتوق إلى الخروج إلى أبشالوم لأنه تعزى عن أمنون حيث أنه مات ». فبما أن شدة حزنه كانت قد خفت بمرور الوقت اتجهت أفكاره من ابنه الميت إلى ابنه الحي الذي قد نفى نفسه خوفاً من قصاص جريمته العادل. (ولكن المحرف يعتبر أن)

هذا هو البرهان على أن امنون، الذي كان قد ارتكب الفحشاء مع أخته والذي كان مخموراً، نُقل حال موته إلى مواطن الغبطة والسعادة حيث يتطهر ويؤهل لمعاشرة الملائكة الأطهار! هذه خرافة مُسرّة حقا كفيفة بأن تشبع القلب البشري. وهذه هي عقيدة الشيطان نفسها، وهي تنجز عمله بكل نجاح. فهل نستغرب أنه مع وجود هذا التعليم يكثر الشر ويتفاقم؟

إن الطريق الذي يسلك فيه هذا المعلم المحتكر الكاذب هو مثال لما يفعله كثيرون غيره. فبعض أقوال الكتاب تُفصل عن قرينتها التي في حالات كثيرة تبرهن على أن المعنى هو على عكس ما قد فُسر به تماما، ومثل هذه الفصول المفككة تُحرّف وتُستخدم كبرهان لإثبات تعاليم لا أساس لها في كلمة الله. إن الشهادة المقتبسة على أن امنون الذي كان سكرانا هو في السماء إنما هي إشارة تُناقض، على خط مستقيم، التصريح الكتابي المؤكد القائل بأن السكيرين لا يرثون ملكوت الله (١ كورنثوس ٦: ١٠). وبهذه الطريقة يحوّل المتشككون وغير المؤمنين والملحدون حق الله إلى كذب. وقد انخدع كثيرون بمغالطاتهم وهزروا ليناموا في مهد الطمأنينة الشهوانية.

فلو كان حقا أن أرواح كثيرين من الناس تنتقل إلى السماء مباشرة في ساعة الموت لكان لنا أن نشتهي الموت ونفضله على الحياة. لقد ساق هذا الاعتقاد كثيرين من الناس إلى القضاء على حياتهم بالانتحار. فعندما تغمرهم الضيقات والمتاعب والارتباك والخيبة فإنه يبدو أمرا سهلا أن يفصموا ربط الحياة الواهنة ويصعدوا إلى السعادة في دنيا الأبد.

برهان ناصع

لقد قدم الله في كتابه البرهان الناصع الحاسم على أنه لا بد أن يعاقب كل من يتعدون شريعته. فأولئك الذين يخدعون أنفسهم بالقول أن الله أرحم من أن ينفذ عدالته في الخاطئ عليهم فقط أن ينظروا إلى صليب جلجثة. إن موت ابن الله الذي بلا عيب هو شهادة صريحة على أن « أَجْرَةُ الْخَطِيئَةِ هِيَ الْمَوْتُ »، وأن كل انتهاك لشريعة الله لا بد أن يوقع بالخاطئ الجزاء العادل. إن المسيح الذي بلا خطيئة صار خطيئة لأجل الإنسان. لقد حمل جرم الخطيئة واحتجاب وجه الآب عنه حتى لقد انسحق قلبه وازهقت روحه. وقد قُدمت كل هذه التضحية لكي يُفتدى الخطاة. ولم تكن هنالك طريقة أخرى يتحرر بها الإنسان من قصاص الخطيئة. فكل نفس ترفض الاستفادة من الكفارة التي قد أعدت بهذه الكلفة العظيمة لا بد من أن يتحمل صاحبها بنفسه جريمة التعدي وقصاصه.

لنتأمل مليا في ما يعلم به الكتاب أيضاً عن الأشرار وغير التائبين الذين يحاول الذين يعتقدون بالخلاص لجميع الناس أخيرا أن يجعلوهم في السماء كالملائكة القديسين المغبوطين.

« أَنَا أُعْطِيَ الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَانًّا » (رؤيا ٢١: ٦). هذا الوعد مقدم إلى العطاش وحدهم. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِيَ إِلَّا لِمَنْ يَحْسُونُ بِحَاجَتِهِمْ إِلَى مَاءِ الْحَيَاةِ وَيَطْلُبُونَهُ حَتَّى لَوْ خَسِرُوا كُلَّ مَا عَدَاهُ. « مَنْ يَعْطِبُ يَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُونُ لَهُ إِلَهًا وَهُوَ يَكُونُ لِي ابْنًا » (رؤيا ٢١: ٧). هنا أيضاً يحدد الرب الشروط. فَلِكِي نَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْنَا أَوْلَا أَنْ نَقَاوِمَ الْخَطِيئَةَ وَنَنْتَصِرَ عَلَيْهَا.

إعلان صفات الله

ثم إن الرب يعلن على لسان إشعياء النبي قائلا: « قُولُوا لِلصِّدِّيقِ خَيْرًا! », « وَيَلِّ الشَّرِيرِ. شَرًّا! لَأَنَّ مُجَازَاةَ يَدَيْهِ تُعْمَلُ بِهِ » (إشعياء ٣: ١١، ١٠). والحكيم يقول: « الْخَاطِئُ وَإِنْ عَمِلَ شَرًّا مِثْلَ مِثْرَةٍ وَطَالَتْ أَيَّامُهُ، إِلَّا أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ يَكُونُ خَيْرٌ لِلْمُتَّقِينَ اللَّهُ الَّذِينَ يَخَافُونَ قُدَّامَهُ. وَلَا يَكُونُ خَيْرٌ لِلشَّرِيرِ » (جامعة ٨: ١٢، ١٣). وبولس يشهد بأن الخاطئ يذخر لنفسه « غَضَبًا فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتَعْلَانِ دَيْنُونَةِ اللَّهِ الْعَادِلَةِ، الَّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ », « شِدَّةً وَضِيقًا، عَلَى كُلِّ نَفْسٍ إِنْسَانٍ يَفْعَلُ الشَّرَّ » (رومية ٢: ٥، ٦، ٩).

« كُلُّ زَانٍ أَوْ نَجَسٍ أَوْ طَمَاعٍ الَّذِي هُوَ عَابِدٌ لِلْأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُ مِيرَاثٌ فِي مَلَكُوتِ الْمَسِيحِ وَاللَّهُ » (أفسس ٥: ٥). « اتَّبِعُوا السَّلَامَ مَعَ الْجَمِيعِ، وَالْقِدَاسَةَ الَّتِي بَدُونَهَا لَنْ يَرَى أَحَدُ الرَّبِّ » (عبرانيين ١٢: ١٤). « طُوبَى لِلَّذِينَ يَصْنَعُونَ وَصَايَاهُ لِكَيْ يَكُونَ سُلْطَانُهُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْحَيَاةِ، وَيَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ إِلَى الْمَدِينَةِ، لَأَنَّ خَارِجًا الْكِلَابَ وَالسَّحَرَةَ وَالزُّنَاةَ وَالْقَتْلَةَ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانِ، وَكُلَّ مَنْ يَحِبُّ وَيَصْنَعُ كَذِبًا » (رؤيا ٢٢: ١٤، ١٥).

لقد أعطى الله الناس إعلانا عن صفاته وطريقته في معاملة الخطيئة: « الرَّبُّ إِلَهُ رَحِيمٌ وَرَوْوْفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ. حَافِظُ الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَوْفِ. غَافِرُ الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَلَكِنَّهُ لَنْ يُبْرِيءَ إِبْرَاءً » (خروج ٣٤: ٦ و٧). « يَهْلِكُ جَمِيعُ الْأَشْرَارِ ». « أَمَّا الْأَشْرَارُ فَيُبَادُونَ جَمِيعًا. عَقَبُ الْأَشْرَارِ يَنْقَطِعُ » (مزمو ١٤٥: ٢٠؛ ٣٧: ٣٨). إن قوة حكم الله وسلطانه سيستخدمان في قمع كل عصيان، ومع ذلك فكل مظاهر عدالة الله في توقيع الجزاء متوافقة تماما مع صفات الله كالإله الرحيم والمحسن والطويل الأناة.

لا يرغب الله إرادة أي إنسان أو اختياره ولا يُسر بطاعة العبيد. فهو يرغب في أن الذين هم صنعة يديه يحبونه لأنه يستحق أن يُحب. وهو يريد لهم أن يطيعوه لأن عندهم تقديرا ذكيا واعيا لحكمته وعدله وإحسانه وحبه. وكل من يدركون هذه الصفات سيحبونه لأن إعجابهم بصفاته يجذبهم نحوه. إن مبادئ الرفق والرحمة والمحبة التي علّم بها مخلصنا وقدم عنها أمثالا وكان هو مثالنا فيها إنما هي نسخة عن إرادة الله وصفاته. لقد أعلن المسيح انه لم يعلم إلا ما قبله من أبيه. ومبادئ حكم الله متوافقة تمام مع وصية المسيح القائلة: « أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ ». والله يوقع أحكام عدله على الأشرار لأجل خير المسكونة، بل حتى لأجل خير الذين يوقع عليهم أحكامه. فهو يريد أن يسعدهم إذا كان ذلك لا يتعارض مع شرائع حكمه وعدالة صفاته. وهو يحيطهم بدلائل محبته ويمنحهم معرفة شريعته ويسير وراءهم ليقدم اليهم هبات رحمته، ولكنهم يزدرون بمحبته ويستخفون بشريعته ويحتقرون رحمته. ومع انهم دائما يتقبلون هباته فإنهم يهينون الواهب. وهم يبغضون الله لأنهم يعلمون انه يمقت خطاياهم. والرب يحتمل فسادهم ويصبر على ذلك طويلا. لكن الساعة الحاسمة ستجيء أخيرا عندما يتقرر مصيرهم. فهل سيقبل أولئك العصاة ويبقيهم إلى جانبه؟ وهل يرغمهم على عمل إرادته؟

إن الذين اختاروا الشيطان قائدا لهم فسيطر عليهم بقوته هم غير مستعدين للمثول في حضرة الله. فالكبرياء والمخاتلة والفجور والخلاعة والقسوة أصبحت ثابتة في أخلاقهم. فهل يستطيعون دخول السماء ليعيشوا إلى الأبد مع الذين قد ازدروا بهم وابتغضوهم وهم على الأرض؟ إن الكذاب لا يمكنه

أن يستسيغ الصدق أو يرضى به، والوداعة لن تشبع نفس من يعظم نفسه أو يسلك بالكبرياء، والطهارة غير مقبولة لدى الإنسان الفاسد، والمحبة الزهية لا تبدو جذابة للرجل الأناني. أي نبع للتمتع يمكن أن تقدمه السماء إلى أولئك الناس المشغولين في مصالحهم الأرضية الأنانية؟

هل يمكن للذين قضوا حياتهم في التمرد على الله أن ينتقلوا فجأة إلى السماء ويشاهدوا الحالة السامية، حالة الكمال المقدسة الدائمة هناك — حيث كل نفس ممتلئة محبة وكل وجه مشرق بأنوار الفرح، وحيث أنغام الموسيقى العذبة المفرحة تُسمع في تمجيد الله والحمل، وحيث أنهار النور الدائمة الجريان تفيض على المفتدين من وجه الجالس على العرش — فهل يمكن للذين قلوبهم مفعمة بالكراهية لله وللحق والقداسة أن يندمجوا بين جموع السماويين ويشاركوهم في ترديد أناشيد الحمد؟ وهل يستطيعون احتمال مجد الله والخروف؟ كلا مطلقا، فلقد قدمت إليهم سنو الاختبار لعلمهم يشكلون أخلاقهم لتكون كأخلاق السماويين. ولكنهم لم يدربوا عقولهم قط على حب الطهارة ولا تعلموا لغة السماء. والآن قد مضى الوقت. إن حياة العصيان لله التي عاشوها لم تؤهلهم للسماء. إن طهارتها وقداستها وسلامها تعذبهم، ومجد الله هو نار آكلة لهم. انهم يتوقون للهروب من ذلك المكان المقدس. يرحبون بالهلاك ليستطيعوا الاختباء من وجه ذاك الذي قد مات لكي يفتديهم. فمصير الأشرار يقرره اختيارهم نفسه. إنهم يطردون أنفسهم من السماء بمحض اختيارهم وهذا عدل ورحمة من الله.

رحمة الله

على غرار مياه الطوفان ستعلن نيران ذلك اليوم العظيم حكم الله بأن الأشرار لا يمكن إصلاحهم. فلا يوجد عندهم ميل إلى الخضوع لسلطان الله. لقد تدربت إرادتهم على التمرد والثورة، وعندما تنقضي الحياة سيكون قد مضى الوقت لتحويل مجرى تفكيرهم نحو الاتجاه المعاكس، سيكون قد مضى الوقت للرجوع من العصيان إلى الطاعة ومن الكراهية إلى المحبة.

إن الله إذ أبقى على حياة قايين القاتل قدم إلى العالم مثالا لما كان يمكن أن ينتج لو سُمح للخاطئ أن يعيش ليظل سائرا في طريق الإثم الجامح. وبتأثير تعليم قايين ومثاله انساقت جماهير من نسله في طريق الخطيئة حتى أن « شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ »، « كُلُّ تَصَوُّرِ أَفْكَارٍ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شَرِيرٌ كُلُّ يَوْمٍ » « فَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللَّهِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْمًا » (تكوين ٦: ٥، ١١).

إن الله رحمة منه بالعالم محا كل سكانه الأشرار في أيام نوح. ورحمة منه أيضا أهلك سكان سدوم الفاسدين. وبسبب قوة الشيطان الخادعة يظفر فعلة الإثم بالعطف والإعجاب، ولذلك فهم على الدوام يطوِّحون بالآخرين في طريق العصيان والتمرد. هذا ما حدث في أيام قايين ونوح وفي أيام إبراهيم ولوط، وهذا ما يحدث في أيامنا هذه. والله رحمة منه بالعالم سيهلك من يرفضون رحمته.

أجرة الخطيئة

« أَجْرَةُ الْخَطِيئَةِ هِيَ مَوْتُ، وَأَمَّا هَبَةُ اللَّهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا » (رومية ٦: ٢٣). ففي حين أن الحياة هي ميراث الأبرار فالموت هو نصيب الأشرار. لقد أعلن موسى قائلا لإِسْرَائِيل: « قَدْ

جَعَلْتُ الْيَوْمَ قَدَامَكَ الْحَيَاةَ وَالْخَيْرَ، وَالْمَوْتَ وَالشَّرَّ» (تثنية ٣٠: ١٥). إن الموت المشار إليه في هذه الآية ليس هو الموت الذي حكم به على آدم لأن كل بني الإنسان يقاسون قصاص تعديده، ولكنه « الموت الثاني » الذي وضع على نقيض الحياة الأبدية.

وقد كان من نتائج خطيئة آدم أن الموت اجتاز إلى الجنس البشري كله. فالجميع ينحدرون إلى الهاوية على السواء. وعبر تدبير الخلاص سيخرج الجميع من قبورهم. « أَنَّهُ سَوْفَ تَكُونُ قِيَامَةٌ لِلأَمْوَاتِ، الْأَبْرَارِ وَالْأَثَمَةِ »، « لِأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ، هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ » (أعمال ٢٤: ١٥؛ ١ كورنثوس ١٥: ٢٢). ولكن سيكون هنالك فرق بين الذين سيخرجون من قبورهم من الفريقين: « يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ، ٢٩ فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ، وَالَّذِينَ عَمَلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ » (يوحنا ٥: ٢٨، ٢٩). فالذين « حَسَبُوا أَهْلًا » لقيامة الحياة هم « مَبَارَكُونَ وَمَقْدَسُونَ »، « هَؤُلَاءِ لَيْسَ لِلْمَوْتِ الثَّانِي سُلْطَانٌ عَلَيْهِمْ » (رؤيا ٢٠: ٦). أما الذين لم يحصلوا على الغفران بواسطة التوبة والإيمان فلا بد أن ينالوا قصاص تعدياتهم: « أَجْرَةُ الْخَطِيئَةِ ». وهم يقاسون قصاصا يختلف في مدته وشدته « حسب أعمالهم »، ولكن أخيرا سينتهي أمرهم بالموت الثاني. وحيث أنه يستحيل على الله في حالة التوافق بين العدل والرحمة أن يخلص الشرير من خطاياه فسيحرمه من الوجود الذي قد خسره بسبب عصيانه والذي قد برهن هو على عدم استحقاقه إياه. وقد كتب كاتب ملهم يقول: « بَعْدَ قَلِيلٍ لَا يَكُونُ الشَّرِيرُ. تَطَّلَعُ فِي مَكَانِهِ فَلَا يَكُونُ » (مزمور ٣٧: ١٠) وهنالك آخر يعلن قائلا: « وَيَكُونُونَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا » (عوبديا ١٦). فإذ يكونون مجليين بالعار يهبطون يائسين إلى أعماق النسيان الأبدي.

نهاية الخطيئة

وهكذا تنتهي الخطيئة بكل ما نجم عنها من ويل وهلاك ودمار. يقول كاتب المزامير: « أَهْلَكْتَ الشَّرِيرَ. مَحَوْتَ أَسْمَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ. أَلْعَدُوَّ تَمَّ خَرَابُهُ إِلَى الْأَبَدِ » (مزمور ٩: ٥، ٦). ويوحنا في رؤياه إذ نظر إلى الأمام نحو المصير الأبدي سمع تسيحة شكر لا يعكرها أو يفسدها أي تنافر في الأصوات. فكل خليفة في السماء والأرض سُمعت وهي تنسب المجد إلى الله (رؤيا ٥: ١٣). وحينئذ لن تكون هناك نفوس هالكة لتجذف على الله وهي تتلوى من هول العذاب الذي لا ينتهي، ولن تكون في الجحيم أرواح شقية تختلط صرخاتها بأغاني المخلصين.

وعلى أساس ضلالة خلود النفس الطبيعي ترتكز عقيدة الوعي عند الموت، وهي عقيدة مناقضة لتعاليم الكتاب وما يمليه العقل ومشاعرنا البشرية، مثل عقيدة العذاب الأبدي. وطبقا للاعتقاد الشائع يكون المفتدون في السماء على علم بكل ما يحدث على الأرض، وعلى الخصوص ما له علاقة بحياة أصدقائهم الذين قد تركوهم خلفهم. ولكن كيف يمكن أن يكون نبع سعادة وفرح للأَمْوَاتِ كونهم يعلمون بضيقات الأحياء ومتاعبهم، وكونهم يشاهدون الخطايا التي يرتكبها أحبائهم ويرونهم يقاسون الآلام والأحزان والخيبة والعذاب في حياتهم؟ وما مقدار ما يتمتع به في السماء من سعادة أولئك الذين كانوا يحومون حول أصدقائهم على الأرض؟ كم هو اعتقاد ممقوت أن يظن الإنسان أنه حالما

تنطلق النسمة من الجسد تُحبس نفسُ الخاطيء في نيران الجحيم! وما أعمق هوة العذاب التي ينحدر إليها أولئك الذين يرون أصدقاءهم ينحدرون إلى الهاوية وهم غير مستعدين ليدخلوا إلى أبدية الويل والخطيئة! ان كثيرين قد ساقهم هذا الفكر المدمر إلى الجنون.

ولكن ما الذي يقوله الكتاب عن هذه الأمور؟ أعلن داود أن الإنسان يكون عديم الشعور عند موته إذ يقول: « تَخْرُجُ رُوحُهُ فَيَعُودُ إِلَى تَرَابِهِ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَفْسُهُ تَهْلِكُ أَفْكَارُهُ » (مزمور ١٤٦: ٤). وهذا هو ما يشهد به أيضاً سليمان فيقول: « لَأَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ سَيَمُوتُونَ، أَمَّا الْمَوْتَى فَلَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً »، « وَمَحَبَّتَهُمْ وَبُغْضَتَهُمْ وَحَسَدَهُمْ هَلَكَتْ مِنْذُ زَمَانٍ، وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ بَعْدَ إِلَى الْأَبَدِ، فِي كُلِّ مَا عَمَلَ تَحْتَ الشَّمْسِ »، « لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ وَلَا اخْتِرَاعٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ وَلَا حِكْمَةٍ فِي الْهَآوِيَةِ الَّتِي أَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَيْهَا » (جامعة ٩: ١٠، ١٦، ١٧).

عندما أُضيفت إلى حياة الملك حزقيا خمس عشرة سنة إجابة لصلاته قدم هذا الملك الشاكر ضريبة حمد وتسبيح لله لأجل رحمته العظيمة. وفي أغنيته هذه يخبرنا عن سبب ذلك الفرح فيقول: « لَأَنَّ الْهَآوِيَةَ لَا تَحْمَدُكَ. الْمَوْتُ لَا يُسَبِّحُكَ. لَا يَرْجُو الْهَابِطُونَ إِلَى الْجُبِّ أَمَاتَتِكَ. الْحَيُّ الْحَيُّ هُوَ يَحْمَدُكَ كَمَا أَنَا الْيَوْمَ » (إشعيا ٣٨: ١٨، ١٩). إن علم اللاهوت المألوف يصور الأبرار الموتى كمن هم في السماء وقد دخلوا إلى السعادة وهم يسبحون الله بالسنة خالدة، ولكن حزقيا لم يمكنه أن يرى في الموت مثل هذا الانتظار المجيد. وشهادة المرنم تتفق مع كلامه إذ تقول: « لَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي الْهَآوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟ »، « لَيْسَ الْأَمْوَاتُ يُسَبِّحُونَ الرَّبَّ، وَلَا مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى أَرْضِ السُّكُوتِ » (مزمور ٦: ٥؛ ١١٥: ١٧).

صوت الرسل

وفي يوم الخميس أعلن بطرس عن رئيس الآباء داود: « إِنَّهُ مَاتَ وَدُفِنَ، وَقَبْرُهُ عِنْدَنَا حَتَّى هَذَا الْيَوْمِ »، « لَأَنَّ دَاوُدَ لَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاوَاتِ » (أعمال ٢: ٢٩، ٣٤) إن حقيقة كون داود باقٍ في القبر إلى يوم القيامة هي برهان على كون الأبرار لا يذهبون إلى السماء عند الموت. إنما فقط بواسطة القيامة وبفضل حقيقة أن المسيح قد قام يمكن لداود أن يجلس أخيراً عن يمين الله. وقد قال بولس: « لَأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لَا يَقُومُونَ، فَلَا يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ. وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلٌ إِيْمَانُكُمْ. أَنْتُمْ بَعْدُ فِي خَطَايَاكُمْ! إِذَا الَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضاً هَلَكُوا! » (١ كورنثوس ١٥: ١٦-١٨). فإذا كان الأبرار قد ذهبوا تَوّاً إِلَى السَّمَاءِ لمدة أربعة آلاف سنة حال موتهم فكيف أمكن لبولس أن يقول أنه إذا لم تكن قيامة « فَالَّذِينَ رَقَدُوا فِي الْمَسِيحِ أَيْضاً هَلَكُوا » إذا فلم تكن ثمة ضرورة للقيامة.

إن تندل الشهيد وهو يشير إلى حالة الموتى أعلن قائلاً: « إِنِّي اعْتَرَفَ جَهَاراً أَنِّي غَيْرُ مُقْتَنِعٍ أَنَّهُمْ الْآنَ فِي مَلَأِ الْمَجْدِ الَّذِي يَوْجَدُ فِيهِ الْمَسِيحُ أَوْ الْمَجْدُ الَّذِي فِيهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُخْتَارُونَ. وَلَيْسَ هُوَ مِنْ مَوَادِّ إِيْمَانِي. لَأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَأَنَا لَا أَرَى إِلَّا أَنَّ الْكَرَازَةَ بِقِيَامَةِ الْجَسَدِ هِيَ كَرَازَةٌ بَاطِلَةٌ » (٣٥٤). إنها حقيقة لا تنكر أن رجاء الخلود في السعادة عند الموت قد أدى إلى تفشي إهمال عقيدة القيامة في الكتاب. وقد أبدى الدكتور آدم كلارك ملاحظة حول هذا الانحراف فقال: « يبدو أن

عقيدة القيامة كان المسيحيون الأولون يظنون أن لها قيمة وأهمية أعظم مما هي الآن! وكيف هذا؟ لقد كان الرسل يشددون عليها باستمرار وكانوا يحثون شعب الله على الاجتهاد والطاعة والفرح عن طريقها. لكنّ تابعيهم في هذه الأيام قلما يذكرونها! هكذا كرز الرسل وهكذا آمن المسيحيون الأولون، وهكذا نحن نكرز وهكذا يؤمن سامعوننا. ولا توجد في الكتاب عقيدة زاد التشديد عليها أكثر من هذه، ولا يوجد تعليم في نظام كرازتنا الحاضر يعامل بإهمال أكثر من هذا التعليم! « (٣٥٥).

وقد ظل الحال هكذا إلى أن كاد حق القيامة يخفى ويغيب عن أنظار العالم المسيحي. إن كاتبنا دينيا مشهورا وهو يعلق على قول بولس الوارد في ١ تسالونيكي ٤: ١٣-١٨ قال: « لكل أغراض العزاء العملية نجد أن عقيدة خلود الأبرار المبارك تتخذ بالنسبة إلينا عقيدة المجيء الثاني للرب المشكوك فيها. ففي موتنا يجيء الرب لأجلنا. وهذا ما يجب أن ننتظره ونسهر لأجله. لقد انتقل الأموات إلى المجد من قبل. وهم لا ينتظرون البوق لأجل محاكمتهم وسعادتهم ».

كلمات عزاء وتشجيع

لكنّ يسوع إذ كان موشكا أن يترك تلاميذه لم يقل لهم أنهم سيأتون إليه سريعا. فقد قال لهم: « أنا أمضي لأعدّ لكم مكانا، وإن مَضَيْتُ وَأَعَدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا أَتِي أَيْضًا وَأَخْذُكُمْ إِلَيَّ » (يوحنا ١٤: ٢، ٣). ثم إن بولس يخبرنا فوق ذلك أن « الرَّبَّ نَفْسَهُ يَهْتَفِ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلَائِكَةٍ وَبُوقِ اللَّهِ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَمْوَاتِ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلًا. ثُمَّ نَحْنُ الْأَحْيَاءُ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي السُّحْبِ لِمُلَاقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ ». ثم يضيف قائلا: « لذلك عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِهَذَا الْكَلَامِ » (١ تسالونيكي ٤: ١٦-١٨). ما أبعد الفرق الشاسع بين أقوال العزاء هذه وبين تلك الأقوال السالفة الذكر التي نطق بها ذلك الخادم الذي كان يعتنق عقيدة الخلاص العام! إن ذلك الخادم عزى الأصدقاء الحزاني بأن أكد لهم أنه مهما كان الشخص الذي مات خاطئا وشريرا فعندما أسلم حياته في هذا العالم قبل من السماء واستقبلته الملائكة. لقد وجه بولس أنظار إخوته إلى مجيء الرب في المستقبل عندما تتحطم قيود القبر ويقوم « الأموات في المسيح » للحياة الأبدية.

ولكن قبل دخول الناس منازل السعداء لا بد من فحص قضاياهم ولا بد من ان تمر أخلاقهم وأعمالهم أمام عين الله الفاحصة. وسيدان الجميع كما هو مكتوب في الأسفار وسيجازى كل واحد بحسب أعماله. هذه الدينونة لا تتم عند الموت. لاحظوا ما يقوله بولس: « لِأَنَّهُ أَقَامَ يَوْمًا هُوَ فِيهِ مُرْمَعٌ أَنْ يَدِينَ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ، بِرَجُلٍ قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّمًا لِلْجَمِيعِ إِيمَانًا إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الْأَمْوَاتِ » (أعمال ١٧: ٣١). هنا يبين الرسول بكل وضوح أنه قد تعين وقت، كان مستقبلا حينئذ لدينونة العالم.

ويهوذا يشير إلى ذلك الوقت نفسه إذ يقول: « وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَمْ يَحْفَظُوا رِيَاسَتَهُمْ، بَلْ تَرَكَوْا مَسْكَنَهُمْ حَفَظَهُمْ إِلَى دَيْنُونَةِ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِقُيُودِ أَبَدِيَّةٍ تَحْتَ الظَّلَامِ ». ثم يقتبس أقوال أخنوخ فيقول: « هُوَذَا قَدْ جَاءَ الرَّبُّ فِي رَبَّوَاتٍ قَدِيسِيَّهٍ، لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ » (يهوذا ٦، ١٤، ١٥). ويوحنا يعلن أنه قد رأى « الْأَمْوَاتِ صِغَارًا وَكِبَارًا وَأَقْفِينِ أَمَامَ اللَّهِ، وَأَنْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ... وَدِينَ الْأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ

مَكْتُوبٌ فِي الْأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ» (رؤيا ٢٠: ١٢).

ولكن إذا كان الأموات قد قاموا وهم يتمتعون بسعادة السماء أو يتلون من أهوال نيران الجحيم فما الداعي لإقامة الدينونة في المستقبل؟ إن تعاليم كلمة الله عن هذه الأمور المهمة ليست غامضة ولا متناقضة، ويمكن للأذهان العادية أن تفهمها. ولكن أي عقل مخلص يمكنه أن يرى حكمة أو عدلا في النظرية المألوفة؟ فهل الأبرار بعد فحص قضاياهم في الدينونة سيحصلون على هذا الثناء القائل: «نعمًا أيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ... أُدْخِلْ إِلَى فَرْحِ سَيِّدِكَ» في الوقت الذي يكونون فيه ساكنين في محضره ربما منذ أجيال طويلة؟ وهل الأشرار يستدعون من موضع العذاب ليسمعوا الحكم عليهم من ديّان كل الأرض إذ يقول لهم: «اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلَاعِينُ إِلَى النَّارِ الْأَبَدِيَّةِ؟» (متى ٢٥: ٢١، ٤١). يا لها من سُخْرية جسيمة! ويا لها من تهمة معيبة ضد حكمة الله وعدالته!

إن نظرية خلود النفس كانت إحدى تلك العقائد المغلوطة التي إذ أخذتها روما عن الوثنية أدخلتها في دين العالم المسيحي. لقد اعتبرها مارتن لوثر ضمن «الخرافات الفظيعة التي تكوّن جزءا من كومة أحكام روما البابوية» (٣٥٦). وإذا كان ذلك المصلح يعلق على ما قاله سليمان في سفر الجامعة من أن الأموات لا يعلمون شيئا قال: «يوجد مكان آخر يبرهن أن الموتى لا شعور عندهم» ثم قال: «لا يوجد هناك واجب أو علم أو معرفة أو حكمة. إن سليمان يحكم بأن الأموات نيام ولا يحسون بشيء أبدا. لأن الأموات يرقدون هناك غير حاسبين حسابا للأيام أو السنين، ولكن عندما يوقظون سيبدو وكأنهم لم يناموا أكثر من لحظة واحدة» (٣٥٧).

وليس في أي موضع في الكتب المقدسة تصريح بأن الأبرار يذهبون إلى ثوابهم أو الأشرار إلى عقابهم عند الموت. فلا أحد من الآباء أو الأنبياء ترك مثل ذلك اليقين. ولا المسيح أو رسله قدموا أي تصريح في هذا الشأن. والكتاب يعلمنا بكل وضوح أن الأموات لا يذهبون تَوًّا إلى السماء. وهو يصورهم على أنهم راقدون إلى يوم القيامة. (١ تسالونيكي ٤: ١٤؛ أيوب ١٤: ١٠-١٢). ففي اليوم نفسه الذي فيه ينقسم حبل الفضة وينسحق كوز الذهب (جامعة ١٢: ٦) تهلك أفكار الإنسان. وأولئك الذين ينزلون إلى الهاوية هم في حالة السكوت. إنهم لم يعودوا يعرفون شيئا مما يُعْمَل تحت الشمس (أيوب ١٤: ٢١). ما أعظمها من راحة مباركة للأبرار المتعيين! فالزمن طال أو قصر يشبه في تقديرهم لحظة عابرة، إنهم ينامون ثم يستيقظون على صوت بوق الله إلى خلود مجيد: «فإنه سَيَبُوقُ، فَيَقَامُ الْأَمْوَاتُ عَدِيمِي فَسَادٍ، وَنَحْنُ نَتَّعَيَّرُ... وَمَتَى لَبَسَ هَذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ، وَلَبَسَ هَذَا الْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ، فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ: «ابْتُلَعْ الْمَوْتُ إِلَى غَلَبَةٍ» (١ كورنثوس ١٥: ٥٢-٥٤). فإذ يُدْعَوْنَ لِيَسْتَيْقِظُوا مِنْ نَوْمِهِمُ الْعَمِيقِ سَيَبْدَأُ تَفْكِيرُهُمْ مِنْ حَيْثُ كَفُوا عَنِ التَّفْكِيرِ. لقد كانت آخر الأحاسيس هي شوكة الموت، وآخر فكر كان هو أنهم قد سقطوا تحت سلطان الهاوية. فعندما يخرجون من القبر فأول فكر مبهج لهم سيرن صدها في صيحة الانتصار القائلة: «أَيْنَ شَوْكُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلَبَتُكَ يَا هَاوِيَةٌ؟» (١ كورنثوس ١٥: ٥٥).

٣٤ - مناجاة الأرواح

إن خدمة الملائكة القديسين كما هي مقدمة في الكتب المقدسة هي حق معز وثمانين جدا لكل أتباع المسيح. إلا أن تعليم الكتاب المقدس عن هذا الموضوع قد أفسدته وحرفته التعاليم المغلوطة لللاهوت المألوف. إن تعليم الخلود الطبيعي للنفس، الذي أخذ أولا عن الفلسفة الوثنية وفي ظلمة الارتداد العظيم أدخل إلى العقيدة المسيحية قد احتل مكان الحق الذي علم به الكتاب بكل وضوح والقائل أن « الموتى لا يعلمون شيئا ». فجماهير كثيرة من الناس بدأوا يعتقدون أن أرواح الموتى هي « الأرواح الخادمة المرسله للخدمة لأجل العتيديين أن يرثوا الخلاص ». وهذا على رغم شهادة الكتاب لوجود ملائكة السماء وارتباطهم بالتاريخ البشري قبل موت أي إنسان.

إن عقيدة وعي الإنسان بعد الموت وعلى الخصوص الاعتقاد القائل أن أرواح الموتى تعود لتخدم الأحياء قد مهد الطريق أمام عقيدة مناجاة الأرواح العصرية. فإذا كان يُسمح للموتى بأن يمثلوا أمام الله والملائكة القديسين ويمتازوا بمعرفة تفوق كثيرا ما كان لهم من قبل فلماذا إذا لا يعودون إلى الأرض لإنارة الأحياء وتعليمهم؟ وإذا كانت أرواح الموتى، كما يعلم رجال اللاهوت المشهورون، تحوم حول أصدقائهم على الأرض فلماذا لا يسمح لها بالاتصال بهم لتحذره من الشر أو تعزيزهم في أحزانهم؟ وكيف يستطيع الذين يعتقدون بإحساس الإنسان عند الموت أن يرفضوا ما يأتيهم على أنه نور الهي إذ يصل إليهم بواسطة الأرواح الممجدة؟ هنا قناة تعتبر مقدسة، لكن الشيطان يستعملها كوسيلة لإتمام أغراضه. فالملائكة الساقطون الذين ينفذون أمره يبدو كأنهم رسل قادمون من عالم الأرواح. ففي حين أنهم يدعون وجود اتصال بين الأحياء والموتى فإن سلطان الشر يستخدم تأثيره الساحر على عقولهم.

إن للشيطان سلطانا أن يُظهر للناس أشباه أصدقائهم الراحلين. وإن التزييف أو التقليد كامل الإتيان، فالنظرة المألوفة والكلام والنعمة التي ينطق بها تنسخ وتمثل بدقة عجيبة. وكثيرون يتعزون بيقين كون أحبائهم متمتعون بسعادة السماء، ومن دون أن يشكوا في وجود خطر يصغون إلى « أرواح مضلة وتعاليم شياطين ».

ومتى وصلوا إلى الاعتقاد بأن الموتى يعودون بالفعل للاتصال بهم فالشيطان يجعل الذين نزلوا إلى قبورهم وهم غير مستعدين — يجعلهم يظهرون فيدعون بأنهم سعداء في السماء وان لهم مراكز سامية هناك، وهكذا ينتشر تعليم الضلالة أن لا فرق بين الأبرار والأشرار. إن أولئك المدّعين القادمين من عالم الأرواح ينطقون أحيانا بإنذارات وتحذيرات يتبرهن أنها صحيحة. فمتى وثق بهم مشاهدوهم فهم حينئذ يقدمون تعاليم تقوض الإيمان بالكتاب على نحو مباشر. فإذا يتظاهرون بأنهم يهتمون اهتماما عميقا بخير أصدقائهم الذين على الأرض يدسّون في عقولهم أخطر الضلالات. وحقيقة كونهم يعلنون بعض الحقائق ويستطيعون أحيانا إنباءهم بحوادث عديدة، فهذا يضيف على تصريحاتهم مظهر الوثوق واليقين. وكثيرون من الناس يقبلون تعاليمهم الكاذبة بسرعة ويصدقونها بثقة كما لو كانت هي أقدم حقائق الكتاب. وهكذا يلقي الناس بشريعة الله جانبا ويزدرون بروح النعمة ويحسبون دم العهد دنسا. إن الأرواح تنكر ألوهية المسيح بل تجعل الخالق نفسه في مستواها.

وهكذا تحت قناع جديد لم يزل العاصي الأكبر يشهر حربه ضد الله، تلك الحرب التي بدأت في السماء وظلت على الأرض رداً من الزمن يقرب من ستة آلاف سنة.

مظاهر قوة فوق الطبيعة

يحاول كثيرون أن يعللوا ظهور الأرواح فينسبونه إلى الخداع وخفة اليد من جانب الوسطاء. ولكن مع حقيقة كون نتائج الاحتيال هذه كثيراً ما صورت على أنها ظهورات حقيقية، لوحظت أيضاً بعض مظاهر قوة فائقة الطبيعة. إن صوت القرع الغامض العجيب الذي بدئ به في عملية مناجاة الأرواح الحديثة لم يكن نتيجة احتيال أو دهاء بشري، بل كان عمل الملائكة الأشرار المباشرين الذين ادخلوا ضلالة من انجح الضلالات لإهلاك النفوس. إن كثيرين سيؤخذون في الشرك بسبب الاعتقاد أن مناجاة الأرواح هي مجرد خدعة بشرية، فمتى وقفوا وجهاً لوجه أمام ظهورات لم يسعهم إلا أن يعتبروها مظاهر خارقة فسينخدعون وسينتهون إلى الاعتقاد أنها قوة الله العظيمة.

هؤلاء الناس يغفلون شهادة الكتاب المقدس عن العجائب التي صنعها الشيطان وأعوانه. فبمساعدة الشيطان استطاع سحرة فرعون أن يزيفوا عمل الله. وها هو بولس يعلن إنه قبل المجيء الثاني للمسيح ستكون هنالك مظاهر مماثلة لقوة الشيطان. فسيسبق عمل الرب « عَمَلُ الشَّيْطَانِ، بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ، وَبِكُلِّ خَدِيعَةِ الْإِثْمِ » (٢ تسالونيكي ٢: ٩، ١٠). والرسول يوحنا وهو يصف قوة صنع المعجزات التي ستظهر في الأيام الأخيرة يعلن قائلاً: « وَيَصْنَعُ آيَاتٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّى إِنَّهُ يَجْعَلُ نَارًا تَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ قُدَّامَ النَّاسِ، وَيُضِلُّ السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ بِالْآيَاتِ الَّتِي أُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَهَا » (رؤيا ١٣: ١٣، ١٤). فالذي أنبأ به هنا ليس هو مجرد احتيال. فالناس ينخدعون بالآيات التي يستطيع أعوان الشيطان أن يصنعوها لا بما يتظاهرون بعمله.

سلطان الظلمة

إن سلطان الظلمة الذي قد ظل طويلاً يستخدم قوى عقله الجبار في عمل التضليل يكتف تجاربه بكل مهارة مع الناس من كل الطبقات والحالات. فرجال العلم والثقافة والتهديب يقدم إليهم ضلالة مناجاة الأرواح في مظاهرها العقلية والعلمية المهذبة، وهكذا ينجح في إيقاع كثيرين في أشراكه إن الحكمة التي تمنحها مناجاة الأرواح يصفها يعقوب الرسول قائلاً: إنها ليست « نازلةً مِنْ فَوْقٍ، بَلْ هِيَ أَرْضِيَّةٌ نَفْسَانِيَّةٌ شَيْطَانِيَّةٌ » (يعقوب ٣: ١٥). ومع ذلك فإن المخادع العظيم يحاول أن يخفي هذا ويستتره عن الناس طالما يخدم التستر أغراضه على أحسن وجه. فذاك الذي أمكنه أن يبدو متسربلاً بثياب أحد السرافيم السماويين البهية اللامعة أمام المسيح في برية التجربة يأتي إلى الناس بمظهر جذاب جداً كملاك نور. إنه يناشد العقل بتقديم مواضيع تسمو بالذهن، وهو يبهج المخيلة بمناظر مذهلة ويحث العواطف بتصويراته المنطقية البليغة للمحبة والإحسان. وهو يثير الخيال إلى نزوات عالية جاعلاً الناس يفتخرون بحكمتهم إذ أنهم في أعماق قلوبهم يحتقرون الإله السرمدي. فذلك الكائن القوي الذي استطاع أن يأخذ فادي العالم إلى جبل عظيم الارتفاع ويريه جميع ممالك الأرض ومجدها سيقدم تجاربه إلى الناس على نحو يفسد حواس كل من هم غير محتمين بقدرة الله.

يغوي الشيطان الناس الآن كما قد أغوى حواء في عدن بتملقاته، بإشعال الرغبة في الحصول على المعرفة المحرمة، وبإثارة الطموح نحو تعظيم الذات. إن احتضان الشيطان لهذه الشرور هو الذي تسبب في سقوطه وهو يهدف عن طريقها إلى إهلاك الناس. وقد أعلن قائلاً: « تَكُونَان كَاللَّهِ عَارَفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ » (تكوين ٣: ٥). إن مناجاة الأرواح تعلّم أن « الإنسان هو خليقة التقدم، وأنه قُدِّرَ له مَنْدَ ولادته أن يتقدم حتى إلى الأبدية نحو الألوهية ». ثم يقولون أيضاً: "كل عقل سيحكم نفسه وليس آخر «، والحكم سيكون صائباً لأنه حكم الذات ... إن العرش هو في داخلك ». وقد قال معلم روحاني إذ استيقظ « الوعي الروحي » في داخله: « إن بني جنشي كانوا جميعاً أنصاف آلهة غير ساقطين ». كما يعلن آخر قائلاً: « أي كائن عادل كامل فهو المسيح ».

وهكذا ففي موضع برّ الإله السرمدى وكماله الذي هو موضوع العبادة الحقيقي، وفي موضع برّ شريعته الكامل الذي هو نموذج الإدراك البشري وضع الشيطان طبيعة الإنسان نفسه، الشريرة المخطئة، كالموضوع الوحيد للعبادة والسجود والقانون الوحيد للحكم أو نموذج الخلق. هذا هو التقدم إلى أسفل لا إلى أعلى.

تغيير بالرؤية

إن قانون الطبيعة العقلية والروحية كليهما أن الإنسان يتغير بالرؤية. والعقل يكتيف نفسه بالتدريج مع المواضيع التي يُسمح له بالتأمل فيها. وهو يصير مشاكلاً لما يعتاد أن يحبه ويوقره. والإنسان لن يستطيع أن يرتفع أو يسمو فوق النموذج الذي اتخذه لنفسه للطهارة أو الصلاح أو الحق. فإذا كانت الذات هي مثله الأعلى فلن يبلغ إلى ما هو أسمى من ذلك. بل سينحدر بالحري إلى الدرك الأسفل. لكنّ نعمة الله وحدها هي التي تستطيع أن تسمو بالإنسان. إما إذا ترك وشأنه فلا بد من أن ينحدر إلى الدرك الأسفل.

تقدم عقيدة مناجاة الأرواح نفسها إلى المنغمس في الملذات ومحب المسرات والشهوات، متخفية تحت قناع أقل احتيالا ودهاء من ذاك الذي تغشي ذاتها به أمام من هم أكثر تهذيباً وثقافة، وفي أشكالها الأكثر سماجة يجدون ما يتفق مع ميلهم. إن الشيطان يدرس كل دليل على الضعف في الطبيعة البشرية ويلاحظ الخطايا التي يميل كل فرد إلى ارتكابها، وحينئذ يحرص على توفير الفرص لإشباع ذلك الميل إلى الشر. وهو يجرب الناس للإفراط في ما هو مشروع في ذاته، وبذلك يُضعف قواهم الجسمانية والعقلية والأدبية. لقد أهلك وما زال يهلك آلاف من الناس بواسطة الانغماس في الشهوات، وهكذا يجعل كل طبيعة الإنسان بهيمية. ولكي يتمم عمله يعلن عبر الأرواح أن « المعرفة الحقيقية تجعل الإنسان في وضع أرفع من كل الشرائع »، وأن « ما يكون هو صواب » وأن « الله لا يدين » وأن « كل الخطايا التي ترتكب هي بريئة ». وعندما ينساق الناس إلى الاعتقاد أن الرغبة هي أسمى قانون، وأن الحرية هي الإباحية وأن الإنسان مسؤول أمام نفسه فقط فمن ذا الذي يستغرب عندما يتكاثر الفساد والانحطاط في كل مكان؟ إن جماهير كثيرة من الناس يتقبلون بكل شغف التعاليم التي تترك لهم حرية إطاعة إحياءات قلوبهم الشهوانية. فحبل التعفف وضبط النفس يلقي

على عنق الشهوة، وتخضع قوى العقل والنفس للنوازع الحيوانية، وهكذا يطرب الشيطان ويفرح عندما يوقع في شباكه آفا ممن يعترفون بأنهم أتباع المسيح. ولكن لا حاجة بأحد إلى أن ينخدع بالادعاءات الكاذبة التي يتشدد بها المتصلون بالأرواح. لقد أعطى الله العالم نورا كافيا به يستطيع الناس أن يكتشفوا الشرك. وكما قد برهنا من قبل نقول الآن أن النظرية التي هي أساس مناجاة الأرواح هي في حال حرب مع أبسط أقوال الكتاب. فالكتاب يعلن أن الموتى لا يعلمون شيئا وأن أفكارهم قد هلكت وأن لا نصيب لهم في كل ما عمل تحت الشمس، وأنهم لا يعلمون شيئا عن أفراح الذين كانوا أعز الناس عليهم على الأرض، ولا عن أحزانهم.

الاتصال الممنوع

وأكثر من هذا فقد نهى الله نهيا صريحا عن كل ادعاء بالاتصال بأرواح الراحلين. وقد كان في أيام العبرانيين فريق من الناس يدعون أن لهم اتصالا بالموتى كما يدعي المتصلون بالأرواح اليوم. لكن «أرواح العرافة»، كما كان يُدعى القادمون من العوالم الأخرى، يصفها الكتاب بـ «أرواح شياطين» (قارن ما ورد في سفر العدد ١: ٢٥-٣؛ مزمور ١٠٦: ٢٨؛ ١ كورنثوس ١٠: ٢٠؛ رؤيا ١٦: ١٤). إن عمل التعاطي مع أرواح العرافة حكم عليه بأنه رجس أمام الرب وقد نهى عنه نهيا علنيا قاطعا تحت قصاص الموت (لاويين ١٩: ٣١؛ ٢٠: ٢٧) واسم العرافة أو السحر نفسه يقابل اليوم بكل ازدراء. والادعاء بأن الناس يمكنهم أن يتصلوا بالأرواح الشريرة يعتبر خرافة من خرافات العصور المظلمة. لكن مناجاة الأرواح التي يبلغ عدد معتنقيها مئات الألوف بل الملايين والتي شقت لنفسها طريقا في الأوساط العلمية وغزت الكنائس ووجدت قبولا من الهيئات التشريعية وحتى في بلاط الملوك، هذه الخدعة الهائلة إن هي إلا انتعاش في زي جديد للعرافة المحكوم عليها والمنهي عنها منذ القدم. وإذا لم يكن هناك بيّنة أخرى على الصفة الحقيقية لمناجاة الأرواح فيكفي المسيحي أن يعلم أن الأرواح لا تفرق بين البرّ والخطيئة وبين أنبل رسل المسيح وأطهرهم وأنجس عبدة الشيطان. فإذا يصورون أرذل الناس على أنهم في السماء ولهم فيها مكانة رفيعة فالشيطان يقول للعالم: «مهما كنتم أشرارا جدا وسواء أكنتم تؤمنون بالله والكتاب أم كنتم تكذبونهما فذلك ليس بالأمر الخطير. عيشوا كما يحلو لكم فالسماء هي موطنكم». إن المعلمين الروحانيين يعلنون في الواقع قائلين: «كُلُّ مَنْ يَفْعَلُ الشَّرَّ فَهُوَ صَالِحٌ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَهُوَ يُسَرُّ بِهِمْ». أَوْ: «أَيْنَ إِلَهُ الْعَدْلِ؟» (ملاخي ٢: ١٧). وقد قالت كلمة الله: «وَيْلٌ لِلْقَائِلِينَ لِلشَّرِّ خَيْرًا وَلِلْخَيْرِ شَرًّا، الْجَاعِلِينَ الظَّلَامَ نُورًا وَالنُّورَ ظَلَامًا» (إشعياء ٥: ٢٠).

يصور الرسل الذين تقلدهم هذه الأرواح الكاذبة كمناقضين لما قد كتبوه بوحى وَالرُّوحِ الْقُدُسِ حين كانوا عائشين على الأرض، وناكرين أن مصدر الكتاب هو الله، وهكذا يقوضون أساس الرجاء المسيحي ويطفئون النور الذي يكشف عن طريق السماء. ويوعز الشيطان إلى العالم بأن الكتاب المقدس مجرد أوهام، أو على الأقل لا يصلح للجنس البشري إلا في أيام طفولته الأولى، أما الآن فيجب أن يستخف به أو يلقي به جانبا كما لو كان شيئا مهملا. وفي مكان كلمة الله يعرض الشيطان

الظهورات الروحانية، وهي سبيل للتعبير تحت سيطرته الكاملة، بها يستطيع أن يجعل العالم يعتقد بما يريد هو. فيضع في الظل الكتاب الذي سيدينه وتابعيه وأعوانه، محققا بذلك رغبته. وهو يجعل مخلص العالم لا يزيد عن إنسان عادي. وكما أن جنود الرومان الذين كانوا يحرسون قبر يسوع نشروا الخبر الكاذب الذي لقنهم إياه الكهنة والشيوخ ليكذبوا نبأ قيامته كذلك يحاول من يؤمنون بالإعلانات الروحانية أن يجعلوا الأمر يبدو كما لو أنه لا يوجد شيء عجائبي في ظروف حياة مخلصنا. فبعدها يحاولون بهذه الطريقة أن يضعوا يسوع في المؤخرة يوجهون أنظار الناس إلى معجزاتهم هم ويعلمون أنها تفوق معجزات المسيح بمراحل.

مناجاة الأرواح تغيير شكلها

نعم، إن مناجاة الأرواح تغيير الآن شكلها، وإذ تخفي بعضا من معالمها غير المقبولة تبدو في هيئة مسيحية. لكن تصريحاتها من المنبر والمنصة والصحف ظلت أمام الجماهير سنين طويلة، وفي هذه كلها انكشفت صفتها الحقيقية للجميع، وهذه التعاليم لا يمكن إخفاؤها أو إنكارها. وحتى في شكلها الحاضر هي أبعد من أن تكون محتملة أو متسامحا معها بالقياس إلى ماضيها، بل هي أشد خطرا لكونها أعظم خبثا وخداعا. ففي حين أنها كانت في البدء تشهر بالمسيح وبالكتاب المقدس فهي الآن تعترف بقبول الاثنين، لكن الكتاب يُفسر بطريقة تسر القلب غير المتجدد وترضيه في حين أن حقائقه الخطيرة الحيوية صارت عديمة التأثير. فالمحبة تعتبر أعظم صفات الله لكنها تنحط لتصبح عواطف ضعيفة لا تفرق كثيرا بين الخير والشر. ثم إن عدل الله، وشجبه للخطية، ومطالب شريعته المقدسة كلها تُقصى بعيدا عن الأنظار. والشعب يتعلم أن الوصايا العشر رسالة ميتة. والخرافات المسرة التي تخب الألباب تأسر المشاعر وتجعل الناس يرفضون الكتاب كأساس لإيمانهم. وفي الواقع يُنكر المسيح كما من قبل، لكن الشيطان قد أعمى أذهان الناس وعيونهم بحيث لا يفتن أحد إلى الخدعة.

قليلون هم الذين لديهم أي إدراك عادل لقوة بدعة مناجاة الأرواح الخادعة وخطر الوقوع تحت تأثيرها. وكثيرون يقتربون منها لمجرد إشباع فضولهم. إنهم لا يؤمنون بها إيمانا حقيقيا وهم يمتثلون فرعا ورعيا لمجرد فكرة إخضاع أنفسهم لسيطرة الروح. لكنهم يجازفون بالدخول إلى الأرض الحرام. وهنا يستخدم المهلك الجبار قوته وسلطانه معهم على رغم إرادتهم. فلو أمكن استمالتهم مرة لإخضاع عقولهم لتوجيهه، فهو سيأسرهم ويستحيل عليهم بقوتهم الذاتية أن يتخلصوا من الخدع المغرية الساحرة. ولا شيء غير قدرة الله التي تمنح إجابة لصلاة الإيمان الحارة يستطيع أن ينقذ هذه النفوس التي علقت في الفخ.

إن كل من لهم نوازع خاطئة في أخلاقهم أو يحتضنون خطيئة معروفة في إصرار يرحبون بتجارب الشيطان. فهم يفصلون أنفسهم عن الله ورعاية ملائكته وحراستهم. وإذ يقدم إليهم الشرير ضلالاته فلكونهم مجردين من كل وسائل الدفاع يسقطون بين يديه غنيمة باردة. والذين يضعون أنفسهم هكذا تحت سلطانه قلما يعرفون إلى أين ينتهي بهم المطاف. فإذا يسقطهم المجرب سقوتا كاملا فهو

يستخدمهم آلات في يده لتضليل الآخرين وإيقاعهم في الهلاك.

« إلى الشريعة وإلى الشهادة »

يقول إشعياء النبي: « وَإِذَا قَالُوا لَكُمْ: « اطلُّوا إلى أصحاب التَّوابع وَالْعَرَّافِينَ الْمُشَقِّقِينَ وَالْهَامِسِينَ ». « أَلَا يَسْأَلُ شَعْبُ إِلَهِهِ؟ أَيْسَأَلُ الْمَوْتَى لِأَجْلِ الْأَحْيَاءِ؟ » إلى الشَّريَّةِ وَإِلَى الشَّهَادَةِ. إِنْ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ فَلَيْسَ لَهُمْ فَجْرٌ! » (إشعياء ٨: ١٩، ٢٠). فلو كان النَّاسُ رَاغِبِينَ فِي قَبُولِ الْحَقِّ الْمُبِينِ بِكُلِّ وَضُوحٍ فِي الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ عَنْ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ وَحَالَةِ الْمَوْتِ لَرَأَوْا فِي ادِّعَاءَاتِ بَدْعَةِ مَنَاجَاةِ الْأَرْوَاحِ وَإِعْلَانَاتِهَا عَمَلَ الشَّيْطَانِ بِقُوَّةِ وَبَيَّاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ. وَلَكِنْ بَدَلًا مِنَ التَّسْلِيمِ بِالْحَرِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَقْبُولَةٌ جَدًّا لَدَى الْقَلْبِ الشَّهْوَانِيِّ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَنْفَضُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْخَطَايَا الَّتِي يَحْبُونَهَا فَإِنَّ جَمَاهِيرَ كَثِيرَةٍ مِنَ النَّاسِ يَغْمَضُونَ عَيْنَهُمْ كَيْ لَا يَرَوْا النُّورَ، وَيَتَقَدَّمُونَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْأَمَامِ غَيْرَ مُكْتَرِثِينَ لِلْإِنْذَارَاتِ، فِي حِينٍ أَنْ الشَّيْطَانِ يَنْسِجُ شِرَاكِهِ حَوْلَهُمْ وَهَكَذَا يَصِيرُونَ فَرِيسَةً لَهُ: « لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا. وَلِأَجْلِ هَذَا سَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ اللَّهُ عَمَلُ الضَّلَالِ، حَتَّى يُصَدِّقُوا الْكَذِبَ » (٢ تسالونيكي ٢: ١٠، ١١).

إِنَّ الَّذِينَ يَقَاوِمُونَ تَعَالِيمَ عَقِيدَةِ مَنَاجَاةِ الْأَرْوَاحِ لَا يَهَاجِمُونَ النَّاسَ وَحَدَّهُمْ بَلْ يَهَاجِمُونَ الشَّيْطَانِ وَمَلَائِكَتَهُ. لَقَدْ اشْتَبَكُوا فِي حَرْبٍ مَعَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلَاطِينِ وَأَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوَاتِ. وَلَنْ يَتَخَلَّى الشَّيْطَانُ عَنْ مَوْقِعِ قَدَمٍ مِنْ أَرْضِهِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ قُوَّةُ رَسْلِ السَّمَاءِ تَصَدِّهِ وَتَطْرُدُهُ. وَيَنْبَغِي لِشَعْبِ اللَّهِ أَنْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى مَنَازِلَتِهِ كَمَا قَدْ فَعَلَ الْمَخْلُصُ، بِقَوْلِهِمْ « مَكْتُوبٌ ». وَالشَّيْطَانُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْتَبِسَ الْآيَاتِ الْكِتَابِيَّةَ الْآنَ كَمَا فِي أَيَّامِ الْمَسِيحِ، وَهُوَ سَيَحْرِفُ تَعَالِيمَ الْكِتَابِ لِيَدْعِمَ بِهَا ضَلَالَاتِهِ. فَالَّذِينَ يَرِيدُونَ الثَّبَاتَ وَالصَّمُودَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْخَطِرِ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَفْهَمُوا شَهَادَةَ الْكِتَابِ لِأَنْفُسِهِمْ. سَيُوجَّهُ كَثِيرُونَ بِأَرْوَاحِ الشَّيَاطِينِ وَهِيَ تَقْلُدُ أَقْرَبَاءَهُمْ أَوْ أَصْدِقَاءَهُمْ الْأَحْبَاءَ وَتَنْطِقُ بِأَخْطَرِ الضَّلَالَاتِ. هَؤُلَاءِ الزُّوَارِ سَيُلْجَأُونَ إِلَى أَرْقِ عَوَاطِفِنَا وَيَصْنَعُونَ عَجَائِبَ لِدَعْمِ ادِّعَاءَاتِهِمْ. فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَّهَبَ لِلصَّمُودِ أَمَامَهُمْ بِقُوَّةِ الْحَقِّ الْكِتَابِيِّ الْقَائِلِ أَنَّ الْمَوْتَى لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَأَنَّ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ هَكَذَا مَا هُمْ إِلَّا أَرْوَاحُ شَيَاطِينٍ.

إِنَّ أَمَامَنَا الْآنَ « سَاعَةُ التَّجَرُّبَةِ الْعَتِيدَةِ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ لِتُجَرَّبَ السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ » (رؤيا ١٠: ٣). فَكُلُّ الَّذِينَ لَيْسَ إِيْمَانُهُمْ ثَابِتًا وَلَا مُؤَسَّسًا عَلَى كَلِمَةِ اللَّهِ سَيَنْخَدَعُونَ وَيُغْلِبُونَ. فَالشَّيْطَانُ يَعْمَلُ « بِكُلِّ خَدِيعَةِ الْإِثْمِ » لِكَيْ يَسِيطَرَ عَلَى بَنِي الْإِنْسَانِ وَسَيَزِيدُ مَخَاتِلَاتِهِ بِاسْتِمْرَارٍ. وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِلَ إِلَى غَرَضِهِ إِلَّا إِذَا خَضَعَ النَّاسُ لِتِجَارِبِهِ بِمَحْضِ اخْتِيَارِهِمْ. فَالَّذِينَ بِكُلِّ غَيْرَةٍ يَطْلُبُونَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَيَجْتَهِدُونَ فِي تَطْهِيرِ أَنْفُسِهِمْ بِالطَّاعَةِ، وَهَكَذَا يَفْعَلُونَ مَا فِي مَقْدُورِهِمْ لِلتَّهَبِ لِلصَّرَاعِ، سَيَجِدُونَ فِي إِلَهِ الْحَقِّ حَصْنًا قَوِيًّا وَمَلَاذًا أَمِينًا. « لِأَنَّكَ حَفَظْتَ كَلِمَةَ صَبْرِي » (رؤيا ١٠: ٣). هَذَا مَا وَعَدَ بِهِ الْمَخْلُصُ. إِنَّهُ يَسْرِعُ بِإِرْسَالِ كُلِّ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ السَّمَاءِ لِحِرَاسَةِ شَعْبِهِ وَلَا يَتْرَكُ نَفْسًا وَاحِدَةً مَتَكَلِّةً عَلَيْهِ تَنْهَزُ أَمَامَ الشَّيْطَانِ.

يَرِينَا النَّبِيُّ إِشْعِيَاءُ الْخَدْعَةَ الْمُخِيفَةَ الَّتِي سَتَأْتِي عَلَى الْأَشْرَارِ فَتَجْعَلُهُمْ يَحْسِبُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي أَمَانٍ

من أحكام الله وعقوباته. فيقولون: « قَدْ عَقَدْنَا عَهْدًا مَعَ الْمَوْتِ، وَصَنَعْنَا مِيثَاقًا مَعَ الْهَآوِيَةِ. السَّوْطُ الْجَارِفُ إِذَا عَبَرَ لَا يَأْتِينَا، لِأَنَّا جَعَلْنَا الْكَذِبَ مَلْجَأًا، وَبِالْغَشِّ اسْتَتَرْنَا » (إشعيا ٢٨: ١٥). ويشمل هذا الوصف أيضاً أولئك الذين في قساوتهم وعنادهم وصلابة قلوبهم يعززون أنفسهم بيقين كاذب بأنه لن يكون هنالك قصاص يقع على الخاطيء، وان كل بني الإنسان مهما بلغ فسادهم سيُمجَّدون في السماء ويكونون كملائكة الله. لكن الذين عقدوا عهدا مع الموت وصنعوا ميثاقا مع الهاوية بكل إصرار وقوة يرفضون الحقائق التي أعدتها السماء لتكون حصنا للأبرار في يوم الضيق ويقبلون ملجأ الأكاذيب الذي يقدمه إليهم الشيطان بدلا منه، أي ادعاءات مناجاة الأرواح الكاذبة.

إنَّ عمى الناس في عصرنا هذا هو أمر مدهش يعجز المرء عن التعبير عنه. فآلاف الناس يرفضون كلمة الله كأنها غير جديرة بالتصديق. وبثقة ولهفة يقبلون مخادعات الشيطان. والمتشككون والساخرون يذمون تعصب من يحاربون لأجل إيمان الأنبياء والرسل ويسخرون من الإعلانات الخطيرة التي في كتاب الله عن المسيح وتدير الخلاص والجزاء العادل الذي سيحل بكل من يرفضون الحق. إنهم يتصنعون الإشفاق العظيم على العقول الضيقة الضعيفة المتعلقة بالخرافات إلى حد الاعتراف بمطالب الله وإطاعة مقتضيات الشريعة. ويظهرون يقينا عظيما كما لو أنهم حقا قد عقدوا عهدا مع الموت وصنعوا ميثاقا مع الهاوية، كما لو كانوا قد أقاموا حاجزا لا يمكن تخطيه أو اختراقه بينهم وبين انتقام الله. ولا شيء يمكن أن يثير مخاوفهم. لقد سلموا للمجرب تسليماً كاملاً واتحدوا معه اتحادا وثيقا، وقد تشربوا روحه تماما وبكل إتقان بحيث لم تبق فيهم قوة ولا ميل عندهم للتخلص من أشراكه.

لقد ظل الشيطان يتأهب طويلاً لصراعه الأخير لتضليل العالم. وكان أساس عمله التأكيد الذي قدمه إلى حواء: « لَنْ تَمُوتَا »، « يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ » (تكوين ٣: ٤، ٥). وشيئا فشيئا أعد الطريق لقمّة مخاتلاته في نشر مناجاة الأرواح. إنه لم يصل بعد إلى تحقيق أغراضه كاملة لكنه سيصل إلى ذلك في الوقت الباقي. والنبى يقول: « رَأَيْتُ مَنْ فَمُ التَّيْنِ، وَمَنْ فَمُ الْوَحْشِ، وَمَنْ فَمُ النَّبِيِّ الْكَذَّابِ، ثَلَاثَةَ أَرْوَاحٍ نَجَسَتْ شَبَهَ ضَفَادِعَ، فَإِنَّهُمْ أَرْوَاحُ شَيَاطِينَ صَانِعَةٌ آيَاتٍ، تَخْرُجُ عَلَى مُلُوكِ الْعَالَمِ وَكُلِّ الْمَسْكُونَةِ، لِتَجْمَعَهُمْ لِقِتَالِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، يَوْمَ اللَّهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » (رؤيا ١٦: ١٣، ١٤). وباستثناء المحفوظين بقوة الله وبالإيمان بكلمته فالعالم كله سينساق وينحاز إلى صفوف هذا الضلال. والناس يركنون بسرعة إلى طمأنينة كاذبة ليوقظهم غضب الله الذي ينسكب عليهم.

يقول الرب الاله: « وَأَجْعَلُ الْحَقَّ خَيْطًا وَالْعَدْلَ مِطْمَارًا، فَيَخْطِفُ الْبَرْدُ مَلْجَأَ الْكَذِبِ، وَيَجْرِفُ الْمَاءُ السَّتَارَةَ. وَيَمْحَى عَهْدُكُمْ مَعَ الْمَوْتِ، وَلَا يَثْبُتُ مِيثَاقُكُمْ مَعَ الْهَآوِيَةِ. السَّوْطُ الْجَارِفُ إِذَا عَبَرَ تَكُونُونَ لَهُ لِدُوسٍ » (إشعيا ٢٨: ١٧، ١٨).

٣٥ - حرية الضمير في خطر

يقابل البروتستانتُ في هذه الأيام الكنيسة الكاثوليكية برضى وقبول أعظم مما في السنين الماضية. ففي البلدان ذات الأكثرية البروتستانتية، حيث يلجأ البابويون إلى الطرق السلمية والحبية لكي يكون لهم النفوذ، ثمة جانب كبير من عدم الاكتراث بالنسبة إلى العقائد التي تفصل الكنائس المصلحة عن النظم البابوية، ورأي يرسخ في الأذهان وهو أننا لا نختلف عن الفريق الآخر اختلافاً حيوياً كما كان يظن، وأن قليلاً من الإذعان من جانبنا سيجعلنا في حالة تفاهم أفضل مع روما. جاء على البروتستانت وقت كانوا فيه يقدرون حرية الضمير تقديراً عظيماً، تلك الحرية التي قد اشتروها بثمن غال جداً. لقد علموا أولادهم أن يمقتوا البابوية، وكانوا يعتقدون أن محاولة الاتفاق مع روما إنما هي خيانة لله. ولكن ما أبعد الفرق الآن بين هذا والمشاعر والعواطف التي يعبر عنها!

أما المدافعون عن البابوية فيعلنون أن الكنيسة قد أساءت إليها. والمسيحيون في العالم البروتستانتي يميلون إلى قبول هذا التصريح. وكثيرون يلحون قائلين أنه ليس من الإنصاف الحكم على كنيسة اليوم بالرجاسات والسخافات التي اتصف بها حكمها في عصور الجهالة والظلام. وهم يعتقدون عن قسوتها الرهيبة كنتيجة وحشية العصور السالفة ويقولون أن تأثير المدنية الحديثة قد غير من أفكارها ومشاعرها.

فهل نشي هؤلاء الناس ادعاء العصمة الذي ظل هذا السلطان المتعجرف يتشدد به لمدى ثمانمائة سنة؟ وبدلاً من التخلي عن هذا الادعاء فقد تثبت في القرن التاسع عشر بتأكيد أعظم مما سبق. وبما أن روما تصرح بأن الكنيسة « لم تخطئ » وأنها، بشهادة الكتاب، لن تخطئ أبداً (٢٥٨) فكيف يمكنها أن تنبذ المبادئ التي اختطت لها الطريق في العصور السالفة؟

لن تنتحي الكنيسة البابوية أبداً عن ادعائها العصمة. وكل ما فعلته باضطهادها الذين رفضوا تعاليمها تعتبره عين الصواب. فهل لن تكرر هذه الأفعال نفسها لو أُتيحت لها الفرصة؟ فلو أزيلت الروادع التي تفرضها الحكومات الدنيوية وعادت روما إلى قوتها وسلطانها السابقين فسرعان ما ينتعش طغيانها وتكرر اضطهاداتها.

يتحدث كاتب مشهور عن موقف الحكومة البابوية حيال حرية الضمير والمخاطر التي تتهدد الولايات المتحدة بنوع خاص من نجاح سياستها فيقول: « كثيرون يميلون إلى أن ينسبوا أي خوف من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى التعصب أو الطياشة. مثل هؤلاء لا يرون شيئاً في صفات الكاثوليكية واتجاهاتها معادياً لدساتيرنا وتشريعاتنا الحرة، ولا يرون ما ينذر بالشؤم من نموها وتقدمها. إذاً فلنقارن أولاً بين بعض مبادئ حكومتنا الأساسية ومبادئ الكنيسة الكاثوليكية.

يكفل دستور الولايات المتحدة حرية الضمير، ولا شيء أعز ولا أثبت من ذلك. ويعلق البابا بيوس التاسع في براءته المؤرخة في ١٥ آب (أغسطس) من عام ١٨٥٤ قائلاً: « إن التعاليم السخيفة المخطئة والهذيان الذي به يدافعون عن حرية الضمير إنما هي ضلالة وبيلة وهي ضربة أخطر من كل ما عداها في أية دولة ». وهذا البابا نفسه في براءته الصادرة في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٦٤، لعن « أولئك الذين يؤكدون حرية الضمير وحرية العبادة الدينية » وكذلك « كل من يصرحون بأن

الكنيسة ينبغي ألا تلجأ إلى القسوة والعنف».

« لا تدل نعمة روما السلمية في الولايات المتحدة على تغيير القلب. إنها تُظهر التسامح في الأماكن التي تكون فيها عاجزة لا حول لها ولا قوة. والأسقف أكونر يقول: « إن الحرية الدينية تُحتمل فقط إلى الوقت الذي فيه يمكن تنفيذ القهر والإرغام من دون أن يكون هنالك خطر على العالم الكاثوليكي » ... وقال رئيس أساقفة سانت لويس مرة: « إن الهرطقة وعدم الإيمان جريمتان، وفي الممالك المسيحية كما في إيطاليا وإسبانيا مثلاً حيث الشعب كله كاثوليكي وحيث الدين الكاثوليكي هو جزء جوهري من قانون البلاد تعاقب تلك الجريمتان كغيرهما من الجرائم ».

« وكُلُّ كردينال ورئيس أساقفة وأسقف في الكنيسة الكاثوليكية يحلف يمين الولاء للبابا، وفي تلك اليمين المقدسة ترد هذه العبارة: 'إني سأضطهد وأقاوم بكل قوتي الهرطقة والمنشقين والعصاة على سيدنا الذي يدعى البابا وخلفائه' » (٣٥٩).

نحن لا ننكر أنه يوجد مسيحيون حقيقيون في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. فإن آلاف من الناس في تلك الكنيسة يخدمون الله بحسب أفضل نور معطى لهم. غير أنه لا يسمح لهم بقراءة كلمة الله ولذلك لا يميزون الحق. وهم لم يروا قط الفرق بين الخدمة القلبية الحية وروتين الممارسات والطقوس. إن الله ينظر إلى هذه النفوس بإشفاق ورقة عظيمين إذ أنها قد نشأت على إيمان لا يشبع النفس بل يغمر بها ويخدعها. وهو سيجعل أشعة النور تخترق الظلمات الكثيفة التي تكتنفهم. وهو سيعلم لهم الحق كما هو في يسوع، وكثيرون منهم سينضمون إلى شعب الله.

لكن الكاثوليكية كنظام ليست متوافقة الآن مع إنجيل المسيح كما كان الأمر في أي حقبة من تاريخها الماضي. والكنائس البروتستانتية هي في ظلام دامس وإلا لكانت تميز علامات الأزمنة. والكنيسة الكاثوليكية بعيدة المدى وواسعة الأفق في خططها وفي أساليب عملها. إنها تستخدم كل حيلة في سبيل نشر نفوذها ومضاعفة سلطانها استعداداً لحرب رهيبة في إصرار شديد لاسترداد سيادتها على العالم والعودة إلى الاضطهاد وإبطال كل ما قد عملته البروتستانتية وهدمه. والكاثوليكية تستعيد ميادينها وأراضيها في كل مكان. انظروا إلى تزايد عدد كنائسها وأمكنة اجتماعاتها في الممالك البروتستانتية. انظروا إلى شهرة كلياتها ومعاهد لاهوتها في الولايات المتحدة حيث يعضدها البروتستانت على أوسع مدى. ثم انظروا أيضاً إلى نمو الأنظمة الطقسية في إنكلترا وكثرة الارتداد إلى صفوف الكاثوليك. هذه الأمور يجب أن توقظ الجزع والخوف في قلوب كل من يقدر أن يبادئ الإنجيل النقية.

تواطؤ وتراض

لقد هادن البروتستانت البابوية وناصروها. قبلوا بتسويات وقدموا تنازلات فوجئ البابويون أنفسهم برؤيتها وعجزوا عن فهمها. فالناس يغمضون عيونهم من دون معرفة الصفة الحقيقية للكاثوليكية والمخاطر التي يُخشى منها بسبب سيادتها. فعليهم أن يستيقظوا لمقاومة زحف هذا العدو الأشد خطراً على الحرية المدنية والدينية.

يظن كثير من البروتستانت أن الدين الكاثوليكي غير جذاب وأن العبادة فيه كئيبة والطقوس تمارس على وتيرة رتيبة خرقاء. ولكنهم مخطئون في هذا. ففي حين أن الكاثوليكية مبنية على الخداع فهي ليست حيلة فظة سمجة. إن الخدمة الدينية في الكنيسة الكاثوليكية هي طقس مؤثر جدا. فعرضها الجميل وطقوسها المهيبة تخلق وتسحر الناس وتسكت صوت العقل والضمير. والكنائس الفخمة والاحتفالات الفاخرة والمذابح الذهبية والهياكل المزينة بالجواهر والزخارف الغالية النادرة والتماثيل الرائعة كلها تؤثر في نفوس محبي الجمال. والأذن تؤسر كذلك. فالموسيقى لا تبارى ونغمات الارغن العذبة العميقة التي تمتزج بترانيم الجوقات المتعددة الأصوات العذبة والتي ترتفع في أجواء القباب العالية ومماشي الكاتدرائيات الفخمة لا بد أنها تملأ العقل بالهيبة والوقار

هذا الجمال الخارجي والفخامة والطقوس التي تسخر من أشواق النفس التي أسقمته الخطيئة إنما هي برهان على الفساد الداخلي. فدين المسيح في غير حاجة إلى مثل هذه المغريات للترويج له. ففي النور الذي ينبثق من الصليب تبدو المسيحية الحقيقية طاهرة وجميلة جدا بحيث انه لا توجد زينات خارجية ترفع من قيمتها الحقيقية. إن الزينة المقدسة التي هي زينة الروح الوديع الهادئ هي قدام الله كثيرة الثمن.

ليس أسلوب الإنسان المتأنق في كلامه دليلا أكيدا على سمو تفكيره وطهارته. فكثيرا ما يوجد الفكر الغني السامي والذوق المذهب الرقيق المتأنق في العقول الأرضية الشهوانية. وكثيرا ما يستخدمها الشيطان ليسوق الناس إلى نسيان حاجات النفس الضرورية حتى تغيب عنها الأبدية وحياة الخلود لينصرف الناس عن معيّنهم السرمدي ويعيشوا لهذا العالم وحده.

إن الديانة السطحية تجذب القلب غير المتجدد. والفخامة والرسميات التي تُرى في العبادة الكاثوليكية لها قوة مضللة ساحرة ينخدع بها كثيرون ويبدأون في النظر إلى الكنيسة الكاثوليكية على أنها باب السماء نفسه. وليس من برهان ضد تأثيرها غير أولئك الذين قد ثبتوا أقدامهم على أساس الحق وتجددت قلوبهم بقوة روح الله. وإن آلفاً ممن لا توجد عندهم معرفة اختبارية للمسيح سيقبلون صورة التقوى من دون قوتها. مثل هذا الدين هو ما تشاق اليه جماهير غفيرة من الناس.

اجازة لفعل الشر

ادعاء الكنيسة بحقها في الغفران يجعل الكاثوليك يظنون أن لهم الحرية في أن يخطئوا، وفريضة الاعتراف التي من دونها لا يمكنها أن تمنح الغفران تقود أيضاً إلى إباحة ارتكاب الشر. إن من يجثو أمام إنسان ساقط وبالاعتراف يكشف له عن مكنونات قلبه وأفكاره إنما يحقر رجولته ويحط من شأن كل قوة نبيلة في نفسه. وإذا كشف عن خطايا حياته للكهنة — الذي هو إنسان خاطئ مذنب، وغالبا ما تكون قد أفسدته الخمر والخلاعة — فإن مقياس أخلاقه ينخفض ويكون من نتائج ذلك أنه يتنجس. وينحط مفهومه إلى شبه البشرية الساقطة لأن الكاهن هو في نظره ممثل الله. فهذا الاعتراف المذل من إنسان لإنسان هو النبع الخفي الذي انبعث منه وفاض كثير من الشر الذي ينحس العالم ويعده للهلاك النهائي. ومع ذلك فإن من يحب الانغماس في الخطيئة يفضل الاعتراف لإنسان ساقط من أن

يكشف خفايا قلبه ونفسه لله. إنه أمر مقبول أكثر للطبيعة البشرية أن يقدم الإنسان تكفيرا من أن يترك خطايا. ويسهل على المرء أن يميت الجسد بالمسوح والأشواك والأغلال المزعجة ولا يسهل عليه أن يصلب شهوات الجسد. إن النير الذي يرغب القلب الجسداني أن يحمله لهو نير ثقیل ومع ذلك فهو يفضل على الانحناء تحت نير المسيح.

مشابهة مذهشة

توجد مشابهة مذهشة بين كنيسة روما والكنيسة اليهودية في أيام المجيء الأول للمسيح. ففي حين كان اليهود يدوسون في الخفاء على كل مبادئ شريعة الله كانوا في الظاهر مدققين جدا في حفظ وصاياها وكانوا يثقلونها بفروض وتقاليد جعلت إطاعتها أمرا مؤلما وثقيلًا. وكما كان اليهود يعترفون بأنهم يوقرون الشريعة فكذلك يدعي الكاثوليك أنهم يكرمون الصليب. فهم يرفعون رمز آلام المسيح هذا عاليا في حين أنهم في حياتهم ينكرون ذاك الذي يرمز اليه.

يقيم البابويون الصلبان فوق كنائسهم وعلى مذابحهم وثيابهم. وفي كل مكان ترى علامات الصليب مكرّمة ومرفوعة حسب الظاهر. لكن تعاليم المسيح تدفن تحت أكوام من التقاليد العديمة المعنى والتفسير الكاذبة والفرائض الصارمة. وتنطبق أقوال المخلص عن اليهود المتعصبين بقوة أعظم على قادة كنيسة روما: « إِنَّهُمْ يَحْزُمُونَ أَحْمَالًا ثَقِيلَةً عَسْرَةَ الْحَمْلِ وَيَضَعُونَهَا عَلَى أَكْتَافِ النَّاسِ، وَهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُحَرِّكُوهَا بِأَصْبَعِهِمْ » (متى ٢٣: ٤). إِنَّ النُّفُوسَ الْمَسْتَقِيمَةَ تَظَلُ دَائِمًا فِي رَعْبٍ مُسْتَمِرٍّ إِذْ تَخْشَى غَضَبَ اللَّهِ وَسَخَطَهُ بَيْنَمَا كَثِيرُونَ مِنْ أَحْبَارِ الْكَنِيسَةِ يَعِيشُونَ حَيَاةَ التَّعَمُّ وَالْمَلَذَاتِ الشَّهَوَانِيَةِ.

إن عبادة التماثيل وذخائر القديسين والتوسل إلى القديسين وتمجيد البابا كلها من حيل الشيطان لكي يجتذب أفكار الناس بعيدا عن الله وابنه. ولكي يتم هلاكهم يسعى إلى تحويل انتباههم بعيدا عن ذاك الذي فيه من دون سواه يجدون الخلاص. إنه سيوجههم إلى أي شخص آخر يمكن أن يُستعاض به عن ذاك الذي قال: « تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ » (متى ١١: ٢٨).

يحاول الشيطان دائما تشويه صفات الله وطبيعة الخطيئة والنتائج الحقيقية المستهدفة للخطر في الصراع الهائل. وتقلل مغالطاته من التزام حفظ شريعة الله وتبيح للناس ارتكاب الخطيئة. وهو في الوقت نفسه يجعلهم يفكرون أفكارا كاذبة عن الله بحيث يخافونه ويبغضونه بدلا من أن يحبوه. فالقسوة التي هي غريزية فيه ينسبها إلى الخالق، وهي تُجسَّم في النظم الدينية ويُعبَّر عنها في طرق العبادة. وهكذا تعمى أذهان الناس، ويبقيهم الشيطان تحت سيادته ويستخدمهم وسائل في يده لمحاربة الله. إن الأمم الوثنية بتصوراتهم الفاسدة لصفات الله انساقوا إلى الاعتقاد بلزوم تقديم الذبائح البشرية للحصول على رضى الله، وما كان أرهب ضروب القسوة التي ارتكبت في أثناء ممارسة الطقوس الوثنية المختلفة!

لجأت كنيسة روما الكاثوليكية، التي ضمت الطقوس الوثنية إلى الطقوس المسيحية وتشبهت

بالوثنية في تشويه صفات الله، لجأت إلى ضروب ليست أقل قسوة أو إثارة مما كان يمارسه الوثنيون. ففي أيام سيادة روما تعددت أساليب تعذيب الناس وإرغامهم على قبول تعاليمها. منها الأعمدة التي كان يربط إليها من يُحرقون لرفضهم قبول ادعاءاتها وإجابة مطالبها. ومنها أيضاً مذابح قتل كثيرة شديدة الهول. ولن تعرف هذه الفظائع حتى تنكشف في يوم الدين إن أحبار الكنيسة تعلموا من الشيطان، معلمهم، كيف يبتكرون وسائل لإيقاع أقسى التعذيبات الممكنة من دون أن يقضوا على حياة ضحاياهم. وفي حالات كثيرة كانت تلك العملية الجهنمية تتكرر إلى اقصى حدود الاحتمال البشري، إلى أن استسلمت الطبيعة في صراعها وكان المعذبون يرحبون بالموت كراحتهم العذبة المشتهاة.

تدريب الكنيسة

كان هذا هو مصير خصوم روما. أما مشايعوها وأتباعها فكان من ضروب تدريبهم وترويضهم الجلد والتجويع إلى حد الموت وضروب القسوة المختلفة على الجسد في مختلف أشكالها المحزنة للقلب التي يمكن تصورها. فلكي يظفر التائبون برضى السماء كانوا ينتهكون شرائع الله بانتهاك نواميس الطبيعة. لقد تعلموا أن يفصموا الأواصر التي كانت قد تكونت لتبارك الإنسان وتسعده في ارض غربته. إن المقابر الملحقة بالكنائس تحتضن ملايين الضحايا الذين قضوا حياتهم في محاولات فاشلة لإخضاع عواطفهم الطبيعية وكبت كل فكر وإحساس بالعطف على بني جنسهم على اعتبار أنه مغيظ لله.

وإذا كنا نرغب في إدراك قسوة الشيطان المتعمدة التي أظهرها مدى مئات السنين ليس فقط نحو من لم يسبق لهم أن سمعوا عن الله بل أيضاً في كل أنحاء العالم المسيحي فعلينا فقط أن نطلع على تاريخ الكنيسة البابوية. فمن خلال نظام الخداع الهائل هذا يحقق سلطان الشر أغراضه لجلب العار على الله والشقاء على الإنسان. وإذا نرى كيف ينجح في التنكر وإنجاز عمله بواسطة قادة الكنيسة يمكننا أن ندرك إدراكاً أكمل لماذا هو ينفر من الكتاب المقدس هذا النفور العظيم. فلو قرأ الناس هذا الكتاب لأعلن لهم رحمة الله ومحبته وأنه لا يحملهم أيّاً من تلك الأحمال الثقيلة، بل كل ما يطلبه منهم هو القلب المنكسر والمنسحق والروح المتواضعة المطيعة.

قلب المخلص المحب

والمسيح لا يقدم نفسه مثلاً للناس، الرجال منهم أو النساء، ليحبسوا أنفسهم في الأديرة فيصيروا أهلاً للسماء. وهو لم يعلم أبداً أن المحبة والعطف ينبغي كبتهما. لقد كان قلب المخلص يفيض بالحب. وكلما كان الإنسان أقرب إلى الكمال الأخلاقي صارت مشاعره أشد حساسية وزادت حدة شعوره بالخطيئة وتعمق عطفه على المجرمين. إن البابا يدعي أنه نائب المسيح، ولكن كيف تستطيع أخلاقه أن تحتل المقارنة بصفات مخلصنا؟ فهل سُمع عن المسيح انه قد القى بإنسان في السجن أو طرحه على آلة التعذيب لأنه لم يقدم إليه الولاء كملك السماء؟ وهل سمعه أحد يحكم بالموت على من لم يقبلوه؟ وعندما أهانه شعب قرية من قرى السامريين امتلاً يوحنا الرسول غضبا وسأله قائلاً: »

يَارَبُّ، أَتُرِيدُ أَنْ نَقُولَ أَنْ نَنْزَلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُفْنِنُهُمْ، كَمَا فَعَلَ إِبِلِيَّا أَيْضًا؟» فنظر المسيح إلى تلميذه في إشفاق ووبخ روحه الجافية بقوله: «لَأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتْ لِيُهْلِكَ أَنْفُسَ النَّاسِ، بَلْ لِيُخَلِّصَ». فَمَضَوْا إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى» (لوقا ٩: ٥٤، ٥٦). فما أبعد الفرق بين هذه الروح التي أظهرها المسيح وذاك الذي يعتبر بأنه خليفته!

أما الآن فإن كنيسة روما تقدم إلى العالم جبهة حسنة وجميلة إذ تحاول باعتذاراتها أن تغطي أعمال الوحشية والقسوة التي ارتكبتها. لقد تسربت بثوب يشبه ثوب المسيح ولكنها هي هي لم تتغير. فكل مبدأ من مبادئ البابوية التي كانت في العصور السالفة، لا تزال باقية إلى اليوم. والتعاليم التي ابتكرت في أظلم العصور ما زالوا متمسكين بها. فلا يخدع أحد نفسه إن البابوية التي يميل البروتستانت اليوم إلى إكرامها هي التي حكمت على العالم في أيام الإصلاح عندما وقف رجال الله مخاطرين بحياتهم ليفضحوا آثامها. إن لها الكبرياء والادعاء المتعجرف نفسيهما اللذين دفعاهما إلى الاستبداد بالملوك والأمراء وإلى الادعاء بامتيازات إلهية. وروحها ليس أقل قسوة أو طغيانا الآن مما كانت عندما سحقته الحرية البشرية وذبحت قديشي العلي.

إن البابوية هي كما قد أنبأت عنها النبوات أنها ستكون، الارتداد في الأيام الأخيرة (٢ تسالونيكي ٢: ٤، ٣). ويُعتبر جزءاً من سياستها انتحال الصفة التي تخدم أغراضها أجل خدمة. وتحت مظهر الحرباء السريع التلون تخفي سم الحية الأكيد المفعول الذي لا يتغير. إنها تعلن قائلة: «ينبغي ألا يبقى الإيمان محفوظاً عند الهرطقة أو من يهتمون بالهرطقة» (٣٦٠). فهل هذه القوة أو هذا السلطان الذي قد كتب تاريخه لمدى ألف عام بدم القديسين يُعترف به الآن على أنه جزء من كنيسة المسيح؟

تغيير في البروتستانتية

إن التصريح الذي أدلت به بعض البلدان البروتستانتية بأن الاختلاف بينها وبين الكاثوليكية أقل الآن مما كان قبلاً لم يكن بلا سبب. فلقد حدث تغيير ولكنه لم يتناول البابوية. وفي الواقع تشبه الكاثوليكية إلى حد كبير الكثير من الطوائف البروتستانتية المعاصرة بعدما انحطت البروتستانتية كثيراً جداً عما كانت في أيام المصلحين.

فإذ كانت الكنائس البروتستانتية تطلب ودَّ العالم، فقد أعمت المحبة الكاذبة عيون شعوبها. إنهم لا يرون إلا إنه من الصواب أن يعتقدوا بالخير في كل شر، والنتيجة المحتومة هي أنهم في النهاية سيعتقدون بالشر في كل خير. فبدلاً من أن يقفوا للدفاع عن الإيمان المسلّم مرة للقديسين تراهم الآن كما لو كانوا يعتذرون إلى روما عن موقف الجفاء الذي اتخذوه منها ويطلبون الصفح عن تصلبهم. إن فريقاً كبيراً من الناس، حتى من الذين لا ينظرون إلى كنيسة روما بعين الرضا، لا يتوجسون خوفاً من خطر جسيم من قوتها ونفوذها. وكثيرون يدافعون عنها قائلين أن الظلمة العقلية والأخلاقية التي كانت سائدة في العصور الوسطى أعانت على نشر تعاليمها وخرافاتنا وظلمها، وأن الذكاء والمعرفة المتزايدة في العصر الحديث وانتشار المعرفة وزيادة التساهل في أمور الدين تحرّم انتعاش التعصب والطغيان. إن مجرد التفكير في أن مثل هذه الحالة ستوجد في هذا العصر المستنير هو أمر يسخر

منه الناس. نحن لا ننكر أن نوراً ثقافياً وأدبياً ودينياً عظيماً يشرق على هذا الجيل. فمن كلمة الله المقدسة المفتوحة أشرق على العالم نور من السماء. ولكن لنذكر أنه كلما زاد النور المعطى كلما زادت ظلمة الذين يحورونه ويرفضونه.

درس الكتاب بروح الصلاة

ولو درس البروتستانت الكتاب بروح الصلاة لرأوا الصفة الحقيقية للبابوية وَلَجَعَلَهُمْ ذلك يمقتونها وينبذونها. لكن كثيرين هم حكماء في غرورهم بحيث لا يحسون بحاجتهم إلى طلب وجه الله بتذل ليرشداهم إلى الحق. ومع أنهم يفاخرون بالنور الذي عندهم فإنهم لا يعرفون الكتب ولا قوة الله. ينبغي لهم أن يجدوا وسيلة لتهدئة ضمائرهم ولذلك يطلبون الوسيلة الأقل روحانية والتي ليس فيها إذلال كبير لهم. فما يرغبون فيه هو وسيلة بها ينسون الله وتظهر للناس كأنها تذكرهم به. والبابوية تصلح تماماً لسد حاجة أمثال هؤلاء الناس جميعاً. فهي معدة لفريقين من بني الإنسان يشملان العالم كله تقريباً: أولئك الذين يريدون أن يخلصوا باستحقاقهم وأولئك الذين يريدون أن يخلصوا في خطاياهم. هنا سر قوة البابوية.

جاءت على البابوية أيام كانت فيها الظلمة العقلية العظيمة عاملة على تقدمها ونجاحها. وسيظهر مع ذلك أن أيام الاستنارة العقلية العظيمة تعمل أيضاً بالقدر نفسه على نجاحها. ففي العصور السالفة عندما كان الناس محرومين من كلمة الله ومن معرفة الحق كانوا معصوبي الأعين، وقد وقع آلاف منهم في الشرك إذ لم يروا الفخاخ والشباك المنصوبة لأرجلهم. أما في هذا العصر فيوجد كثيرون ممن قد بهرهم لمعان نور الآراء البشرية، « العلم الكاذب الاسم »، فلا يرون الشبكة، ويسقطون فيها بسرعة كما لو كانت عيونهم معصوبة. لقد قصد الله أن يعتبر الإنسان القوى العقلية هبة مقدمة إليه من جابله وأن تستخدم في خدمة الحق والبر، ولكن متى احتضن الناس الكبرياء والطموح واعتبروا آراءهم ونظرياتهم أرفع من كلمة الله فحينئذ يكون الذكاء أبلغ ضرراً من الجهل. وهكذا فالعلم الكاذب في هذه الأيام، الذي يقوِّض إيمان الناس بالكتاب، سيبرهن على نجاحه في تمهيد الطريق لقبول البابوية بطقوسها المسرة كما قد نجح في حجب المعرفة والنور عن الناس في فتح الطريق لتعظيم البابوية في عصور الظلام.

في الحركات الجارية في الولايات المتحدة في هذه الأيام، لكي تظفر مؤسسات الكنيسة وممارساتها بمعاوضة الدولة، نرى البروتستانت سائرين في أثر خطوات البابويين. بل أكثر من هذا فإنهم يفتحون الباب على مصراعيه لتسترد البابوية في أمريكا البروتستانتية، السيادة التي كانت قد خسرتها في العالم القديم. والذي يضيف على هذه الحركة أهمية أعظم هو حقيقة كون الغرض الأهم الذي فكروا فيه هو إرغام الشعب على حفظ يوم الأحد، وهذه عادة صدرت أصلاً من روما التي تعتبرها سمة ورمزاً لسلطانها. إنها روح البابوية، أي روح الامتثال للعادات العالمية وإكرام تقاليد الناس أكثر من وصايا الله، ما يتسرب الآن إلى الكنائس البروتستانتية ويسوقهم إلى تعظيم يوم الأحد نفسه، الأمر الذي سبقتهم البابوية إلى عمله.

القوة الزمنية تسند الكنيسة

إذا أراد القارئ أن يفهم ويعرف العوامل التي ستستخدم في الصراع الوشيك الوقوع فما عليه إلا أن يتتبع تاريخ الوسائل التي قد استخدمتها كنيسة روما للغرض نفسه في العصور السالفة. ولو أراد أن يعرف كيف سيتعامل البابويون والبروتستانت متحدين معاً مع من يخالفون أو يرفضون تعاليمهم فليُنظر إلى الروح التي أظهرتها روما نحو السبت والمدافعين عنه. إن المنشورات الملكية والمجامع العامة وفرائض الكنيسة التي يعضدها السلطان الديوي كانت هي الخطوات التي بواسطتها وصل العيد الوثني إلى مركز الكرامة في العالم المسيحي. فأول إجراء عام لفرض حفظ يوم الأحد كان القانون الذي أصدره قسطنطين في عام ٣٢١ للميلاد (انظر التذييل) وطلب فيه من سكان المدن أن يستريحوا في « يوم الشمس الوقور »، إلا أنه سمح للفلاحين بأن يواصلوا ممارسة أعمالهم الزراعية. فمع أنه كان في الواقع قانوناً وثنيا فقد فرضه الإمبراطور عقب قبوله المسيحية قبولاً اسمياً.

عقيدة تلاقي رواجاً

إنَّ المنشور الملكي إذ لم يبرهن على أنه بديل كاف للسلطة الإلهية فإن أوسابيوس، الذي كان أسقفاً يطلب رضى الأمراء وكان صديق قسطنطين الخاص ومتملقه أيضاً، تقدم بادعاء كون المسيح قد أبدل السبت بالأحد. ولكن لم تقدم شهادة واحدة من الكتاب المقدس واحدة كبرهان على صدق العقيدة الجديدة. ثم إن أوسابيوس نفسه يعترف سهواً بكذب ادعائه ويشير إلى المتسببين الأصليين في التغيير، فيقول: « كل الأشياء التي يقتضي الواجب عملها في يوم السبت قد حولناها إلى يوم الرب » (٣٦١). لكن حجة يوم الأحد، مع أنها على غير أساس، جرأت الناس على أن يطأوا سبت الرب تحت أقدامهم. فكل من كانوا يرغبون في الكرامة العالمية قبلوا العيد الشائع.

فلما ثبتت البابوية قدمها استمر تمجيد يوم الأحد. وقد ظل الناس مشغولين بعض الوقت بأعمالهم الزراعية عندما لم يذهبوا إلى الكنيسة، وظل يوم السبت معتبراً يوم الراحة. ولكن حدث تغيير تدريجي، فالذين كانوا يشغلون وظائف مقدسة حُرِّم عليهم أن يصدروا حكماً في أي خصومة مدنية يوم الأحد. وبعد ذلك بقليل أمر كل الناس من جميع الطبقات أن يكفوا عن مزاوله عملهم العادي وإلا فُرضت غرامة على الأحرار والجلد على العبيد. وبعد ذلك صدر أمر بحرمان الأغنياء الذين ينتهكون كرامة يوم الأحد من نصف أملاكهم، وأخيراً إذا ظلوا مصرين على عنادهم ينبغي بيعهم كعبيد. أما الطبقات الدنيا فكان عقابهم هو النفي مدى الحياة.

وفي هذا أيضاً استندوا إلى العجائب، ومنها أن أحد الفلاحين كان مزمعا أن يحرق حقله يوم الأحد، وفيما كان ينظف محراثه بقطعة حديد لصقت بكفه وظلت عالقة بيده سنتين كاملتين، « الأمر الذي زاد من آلامه وخزيه » (٣٦٢).

وبعد ذلك أصدر البابا توجيهاته بأن يُنذر كاهن الأبرشية من يدنسون يوم الأحد ويطلب منهم الذهاب إلى الكنيسة لتلاوة صلواتهم لئلا تحل كوارث عظيمة بهم وبجيرانهم. وإن مجمعا إكليريكيا

قدم حجة استخدمت منذ ذلك الحين على نطاق واسع، حتى بواسطة البروتستانت، تقول إنه لكون بعض الأشخاص قد صُنعوا بالبرق وهم يشتغلون يوم الأحد فلا بد أن يكون هو يوم الرب. وقد قال الأساقفة: « يظهر أن غضب الله كان عظيماً عليهم جداً بسبب إهمالهم هذا اليوم ». وقد قدم طلب يقول أن الكهنة والخدام والملوك والأمراء وكل الناس الأمناء « عليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم واهتمامهم حتى تعود إلى هذا اليوم كرامته، ولأجل كرامة المسيحية يجب حفظه بكل خشوع وورع في الأيام المقبلة » (٣٦٣).

لا سلطان كتابياً

وإذ تبين أن أحكام المجامع لا تكفي استُعين بالسلطات الدنيوية على إصدار منشور يوقع الرعب في قلوب الشعب ويرغمهم على الامتناع عن العمل يوم الأحد. ففي مجمع عقد في روما أثبتت القرارات السالفة على نحو رسمي حازم. وقد أدمجت أيضاً ضمن القانون الإكليريكي – الحق القانوني – ونفذتها السلطات المدنية في كل أنحاء العالم المسيحي تقريباً (٣٦٤).

ولكن عدم وجود سلطان كتابي يأمر بحفظ يوم الأحد تسبب في كثير من الحيرة والارتباك. وقد تساءل الشعب عن حق معلمهم الذي يخولهم أن يلحقوا جانباً إعلان الرب القاطع الذي يقول: « أما اليوم السابع ففيه سبت للرب الهك » لكي يكرموا يوم الشمس ويحفظوه. فلكي يُسدَّ النقص في الشهادة الكتابية كان لا بد من إيجاد وسائل أخرى. وكان أحد الناس الغيورين على انتصار يوم الأحد قد زار كنائس إنكلترا في أواخر القرن الثاني عشر فقاومه شهود الحق الأمناء، وقد كانت جهوده عبثاً بحيث رحل عن تلك البلاد بعض الوقت، وكان يفكر في بعض الوسائل لفرض تعاليمه على الناس. وعندما عاد تلاشت الحاجة وكللت أعماله بعد ذلك بنجاح أعظم: فقد أحضر معه سفراً يدل على أنه من الله نفسه، فيه الأمر المطلوب لحفظ يوم الأحد مع تهديدات رهيبة ليرعب بها العصاة. فهذه الوثيقة الثمينة – التي هي تقليد دنيء كالوصية التي تؤيدها – قيل أنها سقطت من السماء ووجدت في أورشليم على مذبح القديس سمعان في جلجثة. لكن الحقيقة هي أن قصر البابا في روما كان هو المصدر الذي خرجت منه. إن الاحتيال والتزوير لأجل نجاح قوة الكنيسة وتقديمها وازدهارها أُعتبراً في كل العصور مشروعين في نظر السلطة البابوية.

وقد نهى ذلك السفر عن العمل من الساعة التاسعة أي الثالثة بعد ظهر يوم السبت إلى شروق شمس يوم الاثنين، وأعلن أن سلطانه قد ثبت بمعجزات كثيرة. وأُشيع أن الناس الذين اشتغلوا أكثر من الساعة المحددة ضُربوا بالفالج. وإن طحانا حاول أن يطحن حنطته فرأى بدلاً من الدقيق سيلاً من الدم يخرج من الطاحون، ثم وقفت عجلة الطاحون برغم قوة اندفاع الماء الذي يديرها. وإن امرأة وضعت عجينا في الفرن ليصير خبزاً فلما أخرجه وجدته عجينا كما كان على رغم شدة حرارة النار في الفرن. ثم إن امرأة أخرى كان معها عجين لتخبزه في الساعة التاسعة، لكنها وضعت جانباً إلى يوم الاثنين فوجدته في اليوم التالي مصنوعاً في هيئة أرغفة ومخبوزاً بقوة الله. وإن رجلاً خبز خبزاً بعد الساعة التاسعة في يوم السبت لما كسر رغيفاً منه في اليوم التالي وجد دماً يخرج منه، بمثل هذه

الخزعبلات والاختلافات السخيفة حاول المدافعون عن يوم الأحد أن يثبتوا قدسيته (٣٦٥). وفي اسكوتلانده كما في إنكلترا أمكن حفظ يوم الأحد على نحو أفعل بكونهم ضموا إليه جزءا من يوم السبت القديم. لكنَّ اختلافا حصل حول بداية اليوم المقدس. وقد صدر منشور من قبل ملك اسكوتلانده يقول: « يوم السبت من الساعة الثانية عشرة ظهرا ينبغي اعتباره مقدسا »، وكان يجب ألا يزال أي إنسان عملا عالميا من تلك الساعة إلى صباح يوم الاثنين (٣٦٦). ولكن على رغم كل المحاولات لتقديس يوم الأحد اعترف البابويون أنفسهم جهارا بالسلطان الإلهي ليوم السبت وبأن البشر هم الذين سنوا قانونا بإبداله بالأحد. ففي القرن السادس عشر أعلن مجمع بابوي قائلاً بكل وضوح: « ليذكر المسيحيون أن اليوم السابع يوم قدسه الله وقد قبله وحفظه لا اليهود وحدهم بل أيضاً جميع الذين يقولون أنهم يعبدون الله، مع أننا نحن المسيحيين قد أبدلنا سبتهم بيوم الرب » (٣٦٧). وكل الذين كانوا يعشون بشريعة الله لم يكونوا يجهلون صفة عملهم. لقد تعمدوا أن يجعلوا أنفسهم فوق الله.

مثال مدهش

وقد قُدم إلينا مثال مدهش عن سياسة روما تجاه مَنْ خالفوها في اضطهادها الدامي الطويل الأمد للولدنسيين الذين كان بعض منهم يقصدون السبت. وقد قاسى غيرهم مثل تلك الآلام بسبب ولائهم للوصية الرابعة. إن تاريخ أثيوبيا (الحبشة) له معناه الخاص وأهميته العظيمة. ففي وسط قتام العصور المظلمة الحالك أغفل المسيحيون العائشون في أواسط أفريقيا وغابوا عن أنظار العالم الذي نسيهم، ولمدى قرون طويلة ظلوا ينعمون بالحرية في ممارسة إيمانهم. ولكن أخيراً علمت روما بوجودهم وسرعان ما تحالفت على إمبراطور الحبشة ليعترف بالبابا على أنه نائب المسيح. وقد تلت ذلك تصريحات أخرى. فقد صدر مرسوم يحرم حفظ يوم السبت تحت أقسى العقوبات (٣٦٨). ولكن سرعان ما صار طغيان البابا نيراً مرأً وثقيلاً حتى عول الأحباش على كسره عن أعناقهم. فبعد صراع رهيب نفوا البابويين من أرضهم واستعادوا عقيدتهم القديمة. وقد تهللت الكنائس بحريتها ولم ينسوا قط الدرس الذي تعلموه عن مخاتلات سلطان روما وتعصبها واستبدادها. وقد قنعوا بالبقاء في داخل دائرهم مجهولين من باقي العالم المسيحي.

لقد كانت كنائس أفريقيا تحفظ السبت كما كانت تفعل الكنيسة البابوية قبلما ارتدت تماماً. ففي حين كانوا يحفظون السبت إطاعة لوصية الله امتنعوا عن مزاوله أعمالهم في يوم الأحد تمشياً مع عادة الكنيسة. فلما اشتد ساعد كنيسة روما وقويت شوكتها داست على سبت الله لترفع من شأن يومها. لكنَّ كنائس أفريقيا التي ظلت في الظل قرابة ألف سنة لم تشاركها في هذا الارتداد، فلما خضعت تلك الكنائس لسيادة روما أرغمت على إلقاء السبت الحقيقي جانباً وتمجيد السبت الزائف وحفظه، ولكن ما إن استعادت استقلالها حتى عادت إلى إطاعة الوصية الرابعة (انظر التذييل).

تعلن سجلات الماضي هذه بكل جلاء عداء روما للسبت الحقيقي والمدافعين عنه والوسائل التي تستخدمها لتكرم القانون الذي هو من ابتكارها. إن كلمة الله تعلن أن هذه المشاهد ستكرر عندما

تجتمع كلمة الكاثوليك والبروتستانت لتعظيم يوم الأحد وإكرامه.

الوحش بقرني خروف

تعلن النبوة المذكورة في رؤيا ١٣ أن القوة التي يرمز إليها الوحش الذي له قرنان شبه خروف ستجعل « الأرض والساكنين فيها » يسجدون للبابوية، المرموز إليها هناك بالوحش الذي هو « شبه نمر ». والوحش الذي له القرنان أيضاً سيقول « للساكنين على الأرض أن يصنعوا صورة للوحش ». وزد على ذلك فإنه سيأمر الجميع « الصغار والكبار، والأغنياء والفقراء، والأحرار والعبيد » أن يقبلوا سمة الوحش (رؤيا ١٣: ١١-١٦). لقد تبرهن أن الولايات المتحدة هي القوة المرموز إليها بالوحش الذي له قرنان شبه خروف وأن هذه النبوة ستتم عندما ترغم الولايات المتحدة الناس على حفظ يوم الأحد الذي تدعي روما أنه اعتراف خاص بسيادتها. لكن الولايات المتحدة لن تكون هي الوحيدة في تقديم ولائها إلى البابوية. فنفوذ روما في الممالك التي كانت قبلاً تعترف بسيادتها لم يبطل بعد. والنبوة تنبئ بأنها ستسترد سلطانها. « ورأيت واحداً من رؤوسه كأنه مذبح للموت، وجرحه المميت قد شفي. وتعجبت كل الأرض وراء الوحش » (رؤيا ١٣: ٣). إن إيقاع هذا الجرح المميت بالوحش يشير إلى سقوط البابوية في عام ١٧٩٨. وبعد هذا يقول النبي: « وجرحه المميت قد شفي. وتعجبت كل الأرض وراء الوحش ». وبولس يعلن بكل وضوح أن « إنسان الخطيئة » سيقى إلى المجيء الثاني (٢ تسالونيكي ٢: ٣-٨). وسيظل قائماً بأعمال الخداع وينشرها إلى انقضاء الدهر. والرأي يعلن مشيراً أيضاً إلى البابوية قائلاً: « فسيسجد له جميع الساكنين على الأرض، الذين ليست أسماءهم مكتوبة... في سفر حياة الخروف » (رؤيا ١٣: ٨). ففي الدنيا القديمة والدنيا الجديدة ستقبل البابوية السجود في الإكرام الذي يكتنه الناس لشريعة يوم الأحد التي تستند استناداً كلياً إلى سلطة كنيسة روما.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر قدم تلاميذ النبوة في الولايات المتحدة هذه الشهادة إلى العالم. ونحن نرى في الأحداث الجارية اليوم تقدماً سريعاً نحو إتمام هذه النبوة. فلدى المعلمين البروتستانت ادعاء السلطة الإلهية نفسه لحفظ يوم الأحد والنقص ذاته في البرهان الكتابي كما هي الحال مع القادة البابويين الذين قد اخترعوا قصة المعجزات لتشغل مكان أمر الله. إن التصريح بأن ضربات الله تحل بالناس جزاء تدينهم لكرامة يوم الأحد سيتكرر. وقد بدئ بالتشديد عليها من فوق المنابر. وتوجد حركة لإرغام الناس على حفظ يوم الأحد وهي سريعة الانتشار.

إن كنيسة روما عجيبة في مكرها ودهائها. فهي تستطيع أن تقر ما سيكون. وتنتظر وقتها إذ ترى أن الكنائس البروتستانتية تقدم إليها الولاء بقبولها سبتاً زائفاً وأنها تتأهب لفرضه بذات الوسائل التي استخدمتها هي نفسها في الأيام السالفة. والذين يرفضون نور الحق سيستعينون بهذا السلطان الذي يدعي لنفسه العصمة ليمجدوا قانوناً صدر منه. وما أسرع ما تخف إلى معونة البروتستانت في هذا العمل، إذ ليس من الصعب أن يخمن الإنسان ذلك. من يفهم أفضل من الرؤساء البابويين كيف يتعامل مع من يعصون أوامر الكنيسة؟

تكوّن كنيسة روما الكاثوليكية بكل فروعها الممتدة في أنحاء العالم نظاما واحدا متسعا تحت سيادة الكرسي البابوي، والقصد منه خدمة مصالحه. ويتعلم ملايين المنتمين إليها في كل قطر على سطح الأرض أن يعتبروا أنفسهم مرتبطين بالولاء للبابا. وأيا تكن قوميتهم أو حكومتهم فإنه يطلب منهم أن يعتبروا سلطة الكنيسة فوق كل سلطة أخرى. ومع إنهم يُقسمون يمين الولاء للدولة، فإن وراء هذا، يوجد النذر بالطاعة لروما الذي يحلهم من كل عهد آخر يضر بمصالحها.

والتاريخ خير شاهد على محاولاتها الماكرة الثابتة للتدخل في شؤون الأمم، فمتى وجدت موطنًا لقدمها تناصر أهدافها وتروج لها حتى ولو كان في ذلك القضاء على الأمراء والشعب. ففي عام ١٢٠٤ استكتب البابا أنوسنت الثالث، بطرس ملك الأراغون هذا التعهد التالي غير العادي وهو يقول: « أنا بطرس ملك الأراغون أقر وأتعهد أن أظل أمينًا ومطيعًا لسيدي البابا أنوسنت ولخلفائه الكاثوليك وكنيسة روما وبكل أمانة أجعل مملكتي مطيعة له وأدافع عن الإيمان الكاثوليكي وأقمع كل انحراف نحو الهرطقة » (٣٦٩). هذا يتفق مع الادعاءات الخاصة بسلطان بابا روما في « أن له الحق الشرعي في خلع الأباطرة » و « أنه يستطيع أن يحل الرعايا من ولائهم لحكامهم الأشرار » (٣٧٠).

وليتذكر الجميع أن روما تفخر بأنها لا تتغير أبدًا. إن مبادئ غريغوريوس السابع وأنوسنت الثالث لا تزال هي مبادئ الكنيسة الرومانية. ولو كان لها السلطان لكانت تضعها في موضع التنفيذ الآن بالنشاط والعزم نفسيهما اللذين كانا لها في القرون السالفة. والبروتستانت لا يعلمون ما هم صانعون عندما يقترحون قبول مساعدة روما في أمر تمجيد يوم الأحد وحفظه. ففيما يكونون منكبين على إتمام غرضهم تهدف روما إلى إعادة تثبيت سلطانها لتسترد سيادتها الضائعة. فلو ثبت في الولايات المتحدة المبدأ القائل أن الكنيسة يمكنها أن تستخدم أو تسيطر على سلطان الدولة، وأن الممارسات الدينية يجب أن يساق الناس إليها بقوة القانون الديني، وبالاختصار لو أن سلطة الكنيسة والدولة تتحكم في ضمائر الشعب فلا بد من أن يتحقق انتصار روما في تلك البلاد.

إن كلمة الله قدمت الإنذار بالخطر المحدق، فإذا لم يلتفت إلى هذا الإنذار فسيعلم العالم البروتستانت ما هي أغراض روما الحقيقية ولكن بعد فوات الأوان للنجاة من الشرك. إنها تتقوى ويشد ساعدها بكل هدوء. وتعاليمها تُقحم نفوذها في دور التشريع وفي الكنائس وفي قلوب الناس. إنها تقيم مبانيها الهائلة الشامخة التي في مخابئها السرية ستتكرر اضطهاداتها السابقة. إنها تشدد قواها خفية وفي غير شبهة لتتمم غاياتها عندما يأتي الوقت الذي فيه تضرب ضربتها. كل ما تصبو إليه هو المركز الممتاز وهذا قد أعطي لها الآن. وبعد قليل سنرى ونحس بما هو غرض العنصر الكاثوليكي. فأى من يؤمن بكلمة الله ويطيعها هو بذلك يجلب على نفسه العار والاضطهاد.

٣٦ - المعركة المقبلة

لقد كان قصد الشيطان منذ بدء الصراع الهائل في السماء أن يهدم شريعة الله. فلكي يحقق هذا، شرع في العصيان على الخالق، ومع إنه طُرد من السماء فقد واصل الحرب نفسها على الأرض. ولقد جعل خداع الناس وسوقهم إلى التعدي على شريعة الله الهدف الذي لم يحد عنه. وسواء تم له هذا بطرح الشريعة بجملتها جانبا أو برفض إحدى وصاياها فالنتيجة أخيرا واحدة. فمن عثر في « واحدة » يظهر احتقاره للشريعة كلها، وتأثيره ومثاله هما إلى جانب التعدي، وهكذا يصير « مجرما في الكل » (يعقوب ٢: ١٠).

إن الشيطان في محاولته أن يلقي الاحتقار على وصايا الله أفسد تعاليم الكتاب وحرّفها، وهكذا اندست الضلالات في إيمان آلاف ممن يعترفون بإيمانهم بالكتب المقدسة. والحرب الأخيرة العظيمة بين الحق والضلال إنما هي النضال الأخير للصراع الطويل الأمد حول شريعة الله. وإننا الآن داخلون هذه المعركة بين وصايا الناس ووصايا الله، بين ديانة الكتاب وديانة الخرافات والتقاليد.

إن الأعوان الذين سيّحدون ضد الحق والبرّ في هذا النضال دائبون في عملهم الآن بكل نشاط. وكلمة الله المقدسة التي سُلّمت إلينا بهذا الأثمن الغالي من الآلام والدماء قلّ من يقدرها قدرها. والكتاب المقدّس هو في متناول أيدي الجميع، ولكن قليلون هم الذين يقبلونه حقا كمرشد للحياة. فقد تفسّى الإلحاد بدرجة مريعة مفزعة ليس في العالم وحده بل أيضاً في الكنيسة. وكثيرون بلغوا حد إنكار العقائد التي هي ذات الأعمدة التي يرتكز عليها الإيمان المسيحي. فحقائق الخلق العظيمة كما قد أوردتها الكتب الملهمون، وسقوط الإنسان، والكفارة، وثبات شريعة الله ودوامها قد رفضها الناس عمليا سواء جملة أو جزئيا، رفضها جمع كبير ممن يعترفون بالمسيح في العالم المسيحي إن آلافا من الناس الذين يفخرون بحكمتهم واستقلالهم يعتبرون دليلا من دلائل الضعف كونهم يضعون ثقتهم التامة في الكتاب ويحسبونه برهانا على المواهب الفذة والعلم الغزير، فهم يثيرون اعتراضات تافهة على الكتاب المقدّس ويحرفونه ويشوهون حقائقه الشديدة الأهمية. وكثيرون من الخدام يعلمون شعبهم، وكثيرون من الأساتذة يعلمون تلاميذهم أن شريعة الله قد تغيرت أو نُسخت. والذين يعتبرون مطالبيها ثابتة وإنه ينبغي إطاعتها طاعة حرفية يُظن أنهم يستحقون السخرية أو الاحتقار.

فالناس إذ يرفضون الحق إنما يرفضون معطيه ومبدعه. وإذ يدوسون على شريعة الله فهم ينكرون سلطان المشترع. من السهل أن نصوغ صنما من العقائد الكاذبة والنظريات الخاطئة مثلما ننحت صنما من الخشب أو الحجر. إن الشيطان بتشويهِه صفات الله يسوق الناس إلى أن يتصوروه في صفة كاذبة. فبالنسبة إلى كثيرين صارت الفلسفة صنما متربعا في مكان الرب، بينما الذين يعبدون الله الحي كما هو معلن في كلمته وفي المسيح وفي أعمال الخلق قليلون. وآلاف من الناس يؤلهون الطبيعة في حين إنهم ينكرون إله الطبيعة. الوثنية موجودة اليوم في العالم المسيحي كما قد وجدت بين الإسرائيليين قديما في أيام إيليا، وإن يكن في هيئة مختلفة. وإله الكثيرين ممّن يجاهرون بحكمتهم، والفلاسفة، والشعراء والساسة ورجال الصحافة — الإله الذي تتعبد له الأوساط العصرية المثقفة في كثير من الكليات والجامعات، بل حتى في بعض معاهد اللاهوت — هو أفضل قليلا من

بعل، إله الشمس الذي كان يتعبد له الفينيقيون.

أساس كل حكم

لا ضلالة يقبلها المسيحيون تستطيع أن توجه ضرباتها الجريئة ضد سلطان السماء وتناقض مباشرة أحكام العقل وتتمخض عن نتائج وبيلة أكثر من العقيدة العصرية التي قد رسخت قدمها بسرعة والقاتلة بأن شريعة الله ما عادت ملزمة للناس. لكل دولة شرائعها التي تأمر بالإكرام والطاعة، ولا يمكن لحكومة أن يكون لها وجود من دونها، فهل يُعقل أن خالق السماوات والأرض لا تكون لديه شريعة بها يحكم الخلائق التي صنعها؟ هب أن الخدام المشهورين يعلمون جهاراً بأن الشرائع التي تحكم بلادهم وتنصون حقوق المواطنين ليست ملزمة للناس وإنها قيدت حريات الشعب فينبغي ألا تطاع، فكمن من الوقت يظل الناس متسامحين معهم ويسمحون لهم بالبقاء في منابرهم؟ ولكن هل الاستخفاف بقوانين الدول والأمم إهانة أعظم من الدوس على الوصايا الإلهية التي هي أساس كل حكومة؟ قد يكون أكثر مناسبة أن تلغي الأمم قوانينها وتسمح لشعوبها بأن يفعلوا ما يحلو لهم من أن يلغي حاكم الكون شريعته ويترك العالم من دون قانون يدين المذنب أو يبرر المطيع. فهل نريد أن نعرف نتيجة إبطال شريعة الله؟ لقد أجريت هذه التجربة، فكانت المشاهد التي حدثت في فرنسا مرعبة عندما صار الإلحاد هو القوة الحاكمة. حينئذ اتضح للعالم أن طرح الروادع التي قد فرضها الله جانبا معناه قبول حكم أقسى الطغاة. فعندما يلقي مقياس البر جانبا يفسح المجال لسلطان الشر ليوطد سلطانه في الأرض.

وأيما يرفض الناس وصايا الله لا تعود الخطيئة تبدو خاطئة ولا البر مقبولا. وأولئك الذين يرفضون الخضوع لحكم الله ليسوا أهلا لحكم أنفسهم إطلاقا. وعن طريق تعاليمهم الوبيلة تتأصل روح التمرد في قلوب الصغار والشباب الذين هم بطبعهم متبرمون بكل سيادة تفرض عليهم، وينتج من ذلك أن تصير حالة المجتمع حالة تمرد وتهور. إن جماهير الناس فيما هم يسخرون من سلامة نية من يطيعون مطالب الله إنما يقبلون ضلالات الشيطان بتلهف. إنهم يطلقون لشهواتهم العنان ويرتكبون الخطايا التي أوقعت الدينونة على الوثنيين.

يحصدون الزوبعة

إن الذين يعلمون الناس الاستخفاف والاستهانة بوصايا الله يبذرون بذار العصيان ليحصدوا ثماره نفسها. فإذا طرح الناس جانبا كل الروادع التي تفرضها شريعة الله فلا بد أن يستخفوا بالقوانين الإنسانية. وبما أن الله ينهي عن أعمال الخيانة والطمع والكذب والغش فالناس يوشكون أن يدوسوا وصاياه كأنها حائل بينهم وبين النجاح العالمي. لكن نتائج إهمال هذه الوصايا ستكون عكس ما كانوا يقدرونه. فإذا لم تكن الشريعة ملزمة فلماذا يخشى الناس التعدي والعصيان؟ لا يعود أحد يأمن على أملاكه، والناس يغتصبون أملاك جيرانهم. وأقوى الناس يصير أغناهم. والحياة نفسها لا تعود لها حرمة. وعهد الزواج لا يعود يقف حصنا مقدسا يحمي العائلة. والرجل المقتدر يمكنه إذا أراد أن يغتصب زوجة قريبه بالقوة. والوصية الخامسة يمكن أيضاً طرحها جانبا مع الرابعة. والأولاد لا يعودون

يتورعون عن اغتيال آبائهم إذا كانوا بذلك يحصلون على رغبات قلوبهم الفاسدة. والعالم المتمدن يمشي قبيلة من اللصوص والسفاحين، وينتفي من الأرض السلام والراحة والسعادة. إن التعليم القائل بأن الناس قد أعتقوا من إطاعة مطالب الله قد أضعف قوة الالتزام الأدبي فاكتمحت العالم سيول الإثم. فالتمرد والإسراف والفساد قد غمرتنا كسيول عنيفة جارفة. فالشيطان يعمل في العائلة، ورايته ترفرف حتى في البيوت التي تدّعي المسيحية. هناك الحسد والظنون الرديئة والرياء والنفور والمنافسة والخصومات وخيانة الأمانات المقدسة والانغماس في الشهوات. فكل نظام المبادئ والتعاليم الدينية، الذي ينبغي أن يكون أساس الحياة الاجتماعية ودعامتها، يبدو أنه قد صار كتلة مترنحة توشك أن تنهار وتصير حطاما. إن أخط المجرمين عندما يلقي بهم في السجن لأجل جرائمهم تُرسل إليهم الهدايا ويعاملون باللفظ والرعاية كما لو كانوا قد حصلوا على رفعة يُحسدون عليها وتضفى على أخلاقهم وجرائمهم شهرة عظيمة. والصحافة تنشر التفاصيل المنقّرة للرديلة، وهكذا تدرب الآخرين على ممارسة الاحتيال والسرقة وجرائم القتل، والشيطان يبتهج لنجاح خطته الجهنمية. إن سحر الرديلة وحياة البطر والخلاعة، وتقشي الدعارة والسكر على نحو مرعب وحياة الإثم في كل أشكاله ينبغي أن توقظ كل من يخافون الله حتى يسألوا عما يجب عمله لإيقاف تيار الشر.

النتيجة الطبيعية

وقد فسدت دور العدل والقضاء. فالحكام يعملون بدافع حب الكسب وحب الملذات الشهوانية. ثم إن الإفراط في شرب الخمر قد أظلم عقول كثيرين حتى كاد أن يسيطر الشيطان عليهم سيطرة تامة. والمحامون قد فسدوا وهم يقبلون الرشوة ويُغرر بهم. والسكر والعريضة والغضب والحسد والخيانة من كل نوع تُرى بين الذين يسنون القوانين وينفذونها: « الْعَدْلُ يَقِفُ بَعِيدًا. لَأَنَّ الصِّدْقَ سَقَطَ فِي الشَّارِعِ، وَالْأَسْتَقَامَةُ لَا تَسْتَطِيعُ الدُّخُولَ » (إشعياء ٥٩: ١٤).

إن الإثم والظلم الروحي للذين سادا تحت سيادة روما كانا النتيجة الطبيعية لكبت الكتاب المقدس وإبطاله، ولكن أين السبب في انتشار الإلحاد ورفض شريعة الله وما ينتج عن ذلك من فساد تحت النور الكامل الوهاج في عصر الحرية الدينية؟ الآن إذ يعجز الشيطان عن إبقاء العالم تحت سيادته بإبعاد الكتاب المقدس يلجأ إلى وسائل أخرى لإتمام ذلك الغرض نفسه. فملاشاة الإيمان بالكتاب تخدم غرضه تماما كملاشاة الكتاب نفسه. وإذ يرسخ الاعتقاد بأن شريعة الله ليست ملزمة يسوق الناس إلى التعدي بقوة فعالة كما لو كانوا يجهلون الله تماما ولا يعرفون وصاياه. والآن كما في العصور السالفة استخدم الكنيسة في تعزيد خطته وأغراضه. فالتنظيمات الدينية في هذا العصر قد رفضت الإصغاء إلى الحقائق غير الشعبية المبيّنة في الكتاب، وإذ جادلوا فيها فقد قدموا تفسيرات واتخذوا مواقف كان من آثارها بذر بذار الشكوك والإلحاد. وإذ تعلقوا بالضلالة البابوية الخاصة بخلود النفس الطبيعي ووعي المرء عند الموت رفضوا الحصن الوحيد ضد خدعة مناجاة الأرواح. وعقيدة العذاب الأبدي قادت كثيرين إلى الشك في الكتاب. وإذ طلبوا من الناس بحفظ الوصية الرابعة وجدوا أن اليوم السابع مفروض على الشعب، فلكي يحرروا أنفسهم من واجب لا

يرغبون في إتمامه كانت الوسيلة الوحيدة لذلك أن يعلن كثيرون من المعلمين المشهورين أن شريعة الله ما عادت ملزمة. وهكذا القوا عنهم الشريعة والسبت معا. وإذ ينتشر عمل إصلاح السبت فإن رفض الشريعة الإلهية هذا لتجنب مطالب الوصية الرابعة سيصير عاما تقريبا. إن تعاليم القادة الدينيين قد فتحت الطريق للإلحاد ولمناجاة الأرواح واحتقار شريعة الله المقدسة، وعلى رؤوس هؤلاء القادة تستقر مسؤولية مخيفة عن الإثم المتفشي في العالم المسيحي.

ومع ذلك فإن هذا الفريق من الناس قد أبرزوا الادعاء بأن الفساد السريع الانتشار إنما يُعزى بالأكثر إلى انتهاك قدسية « السبت المسيحي » المزعوم، وبأن التشدد في حفظ يوم الأحد كفيل بأن يحدث تحسنا كبيرا في آداب المجتمع. هذا الادعاء شائع بالأكثر في أمريكا حيث كُرز في أماكن كثيرة بعقيدة السبت الحقيقي. وهنا نجد أن عمل الاعتدال (الامتناع عن المسكرات والمخدرات)، الذي هو من أشهر وأهم الإصلاحات الأدبية، مرتبط في كثير من الأحيان بحركة يوم الأحد. والمدافعون عن يوم الأحد يصورون أنفسهم كمن يعملون على ترقية أسمى مصالح المجتمع، والذين يرفضون الانضمام إليهم يُشهر بهم على أنهم أعداء الاعتدال والإصلاح. يَبْدُ أن ارتباط حركة لترسيخ الضلالة بعمل حسن في حد ذاته، ليس حجة تبرّر الضلالة. فقد نخفي السم بطعام صحي لكننا لا نغير طبيعته أو مفعوله. بالعكس، فهو سيكون أشد خطرا إذ المرجح أن يتناوله الإنسان في غفلة من أمره. إن من بين مكاييد الشيطان كونه يمزج بالضلال قدرا كافيا من الحق يجعله مقبولا ومستساغا. قد يدافع دعاة حركة يوم الأحد عن إصلاحات يحتاج إليها الشعب وعن مبادئ تتفق وتعاليم الكتاب، لكن اقترانها بمبدأ مناقض لشريعة الله يُبعد عنهم عبيده. فليس ما يبرر طرحهم وصية الله ليعتقوا وصايا الناس.

عبر الضالّتين العظيمتين، وهما خلود النفس وتقديس يوم الأحد، سيوقع الشيطان الناس تحت سلطان مخادعته. وفيما ترسي الضلالة الأولى أسس مناجاة الأرواح تربطهم الضلالة الثانية بعجلة روما. وسيكون البروتستانت في الولايات المتحدة هم أول من يمدون أيديهم عبر الهوة ليمسكوا بيد مناجاة الأرواح. وسيمدون أيديهم عبر الهوة لمصافحة السلطة الكاثوليكية، وتحت تأثير هذا الاتحاد الثلاثي ستسير هذه البلاد (الولايات المتحدة) في إثر خطوات روما وهي تدوس على حقوق الضمير. وبما أن مناجاة الأرواح تقلد المسيحية الاسمية اليوم بحيث تكاد تشبهها تماما فإن لها قوة أعظم على التفرير بالنفوس واصطيادها في أشراكها. والشيطان نفسه يهتدي حسب الطريقة الشائعة اليوم. وسيظهر في شبه ملاك نور. وعن طريق وسيلة مناجاة الأرواح ستجري آيات، فالمرضى سيُشفون وستجرى عجائب لا مجال لإنكارها. وإذ تعترف الأرواح بالإيمان بالكتاب المقدس وتبدي احترامها لقوانين الكنيسة فإن عملها سيُقبل على إنه إظهار لقدرة الله.

يصعب على المرء أن يتبين الآن الخط الفاصل بين المعترفين بالمسيحية والأشرار. فأعضاء الكنائس يحبون ما يحبه العالم، وهم على أتم استعداد للاندماج بأهله، والشيطان مصمم على أن يضم الفريقين في هيئة واحدة، وهكذا يقوّي دعوته بجرفه الجميع مع معتنقي مناجاة الأرواح. والبابويون الذين يفخرون بالمعجزات على أنها العلامة الأكيدة للكنيسة الحقيقية سرعان ما سينخدعون بهذه القوة صانعة المعجزات، والبروتستانت بعدما يلقون عنهم ترس الحق سينخدعون

هم أيضاً. فالبابويون والبروتستانت وأهل العلم سيقبلون جميعهم صورة التقوى من دون قوتها. وسيرون في هذا الاتحاد حركة جليلة عظيمة لهداية العالم وابتداء حكم الألف سنة الذي ظلوا ينتظرونه طويلاً.

بواسطة مناجاة الأرواح سيبدو الشيطان محسناً للجنس البشري، يشفي أمراض الناس ويتظاهر بتقديم نظام جديد سام إلى العقيدة الدينية، ولكنه في الوقت نفسه يقوم بعمله المهلك المدمر. فتجربه تودي بجماهير كثيرة من الناس إلى الهلاك. إن عدم الاعتدال يخلع العقل عن عرشه، والانغماس في الشهوات والخصومات وسفك الدماء تأتي في إثر ذلك. والشيطان يتجهج بالحروب لأنها تثير أشد شهوات النفس، وحينئذ تكتسح إلى الأبدية ضحاياها الذين قد انحدروا إلى أعماق هاوية الرذيلة وسفك الدماء. وغرضه هو إثارة الدول لتحارب بعضها بعضاً، لأنه بهذه الوسيلة يُحوّل أفكار الناس عن الاستعداد للوقوف ثابتين في يوم الله.

السيطرة على العناصر

ثم إن الشيطان يعمل أيضاً من خلال العناصر ليجمع حصاده من النفوس غير المتأهبة. لقد درس أسرار معامل الطبيعة، وهو يبذل كل ما في قدرته ليسيّط على العناصر بقدر ما يسمح له به الله. فعندما سُمح له بأن يُبلي أيوب، سرعان ما اكتسح قطعانه ومواشيه وعبيده وبيوته وأولاده في بلاء متتابعة. إن الله هو الذي يحمي خلائقه ويسيج حولهم حتى لا يهلكهم المهلك. لكن العالم المسيحي برهن على احتقاره شريعة الرب، والرب سيفعل ما أعلن أنه سيفعله: يمنع بركاته عن الأرض ويرفع رعايته الحافظة بعيداً عن يتمرّدون على شريعته ويعلمون غيرهم ويرغمونهم على ذلك التمرد. ثم إن للشيطان سلطاناً على كل من لا يحرسهم الله حراسة خاصة. وهو سيرضى عن البعض وينجحهم لكي يعضد مكائده، وسيوقع المتاعب والآلام بآخرين ويُقنع الناس بأن الله هو من يفعل ذلك.

فإذ يُظهر الشيطان نفسه لبني الإنسان كالطبيب العظيم الذي يستطيع إبراء كل أسقامهم فهو سيأتي بالأمراض والكوارث إلى أن تصير المدن العظيمة العامرة بالناس خراباً يباباً. وحتى الآن هو يعمل. ففي الكوارث والفواجع التي تحدث في البحار وعلى اليابسة وفي الحرائق الهائلة والأعاصير العظيمة والمطر والبرد المخيف والزوابع والسيول والعواصف وأمواج المد والزلازل في كل مكان وبآلاف الأشكال، في هذه كلها يستخدم الشيطان قوته وسلطانه. إنه يكتسح المحاصيل الناضجة للحصاد فتجيء في أذيال ذلك المجاعات والضيق والكروب. وهو يطلق في الجو روائح عفنة قاتلة فيهلك آلاف الناس بالوباء. وهذه الكوارث ستصير أكثر وأكثر في وتيرة حدوثها وفي شدة النوائب التي ستحدثها. وسيحل الهلاك بالإنسان والحيوان: « نَاحَتْ ذُبَلَتِ الْأَرْضُ ». « حَزَنَ مُرْتَفَعُو شَعْبِ الْأَرْضِ. وَالْأَرْضُ تَدْتَسِتُ تَحْتَ سُكَّانِهَا لِأَنَّهُمْ تَعَدَّوْا الشَّرَائِعَ، غَيَّرُوا الْفَرِيضَةَ، نَكَثُوا الْعَهْدَ الْأَبَدِيَّ » (إشعياء ٢٤: ٥).

وحينئذ سيقنع ذلك المخادع الأعظم الناس بأن من يخدمون الله هم مسببو كل هذه الشرور. والناس الذين قد أثاروا غضب السماء سيوقعون تبعة متاعبهم ومصائبهم على الذين طاعتهم لوصايا

الله هي توبيخ دائم لشُرور أولئك العصاة. وسيُعلن أن الناس يغيظون الله بتعديهم شريعة يوم الأحد، وأن هذه الخطيئة قد جلبت كل تلك المصائب التي لن تكف حتى يعود الناس إلى حفظ يوم الأحد وينفذون ذلك بكل دقة، وأن الذين يطالبون بحفظ الوصية الرابعة وبذلك يقوضون إكرام يوم الأحد ويدنسونه هم مكذرو الشعب، إذ يمنعونهم من استرداد رضى الله ونجاحهم المادي. وهكذا فتلك التهمة التي وقعت في القديم على خادم الله ستتكرر على الأسس نفسها التي بُني عليها الاتهام الأول، « وَلَمَّا رَأَى أَخَابُ إِيلِيَّا قَالَ لَهُ أَخَابُ: « أَنْتَ هُوَ مُكَدِّرُ إِسْرَائِيلَ؟ » فَقَالَ: « لَمْ أَكْذُرْ إِسْرَائِيلَ، بَلْ أَنْتَ وَبَيْتُ أَبِيكَ بَتَرَكَكُمْ وَصَايَا الرَّبِّ وَبَسِيرَكَ وَرَاءَ الْبُعْلِيمِ » (١ ملوك ١٨: ١٧، ١٨). وإذ تثير التهم الكاذبة غضب الناس فسيتخذون ضد سفراء الله إجراء كثير الشبه بذاك الذي اتخذهُ إِسْرَائِيلَ المرتد ضد إيليا.

القوة الصانعة المعجزات

إن القوة صانعة المعجزات التي تظهر عن طريق مناجاة الأرواح سيبدو تأثيرها ضد الذين يختارون إطاعة الله أكثر من الناس. والاتصالات بالأرواح ستعلن أن الله قد أرسلها لإقناع رافضي يوم الأحد بخطئهم وضلالهم، مؤكدة لهم أن قوانين البلاد ينبغي إطاعتها كما لو كانت هي شريعة الله. وستندب شر العالم العظيم وتدعم شهادة معلمي الدين بأن انحطاط الأخلاق سببه تدنيس يوم الأحد. وسيثور غضب عظيم ضد كل من يرفضون قبول شهادتهم.

إن سياسة الشيطان في حربه الأخيرة هذه ضد شعب الله هي السياسة نفسها التي اتخذها عند بدء الصراع الهائل في السماء. لقد ادعى إنه إنما يحاول توطيد حكم الله بينما هو في الخفاء يبذل كل جهد لتقويضه. العمل ذاته الذي كان يحاول إنجازه اتهم به الملائكة الأمناء. وسياسة الخداع إياها هي الطابع الذي يتميز به تاريخ كنيسة روما. لقد اعترفت بأنها تقوم بدور نائب السماء، في حين أنها كانت تحاول أن ترفع نفسها فوق الله وأن تغير شريعته. وتحت حكم روما اتهم الذين ذاقوا الموت لأجل ولائهم للإنجيل بأنهم فاعلو شر متحالفون مع الشيطان، وقد استخدمت كل الوسائل للإحاق العار بهم لكي يظهروا أمام عيون الشعب وحتى أمام أنفسهم أنهم شر المجرمين. وهكذا ستكون الحال الآن. ففيما يحاول الشيطان إهلاك الذين يكرمون شريعة الله سيجعلهم يُتهمون بأنهم يكسرون الشريعة ويهينون الله ويجلبون الضربات على العالم.

إن الله لا يرغم الإرادة أو الضمير على عمل شيء. لكن الشيطان يدأب دائما في الإرغام بواسطة القسوة لكي يسيطر على الذين لا يستطيع أن يخدعهم بغير ذلك. فعن طريق الخوف أو العنف يحاول التحكم في الضمير ليظفر بالولاء لنفسه. فلكي يتم له هذا يقوم بعمله عن طريق السلطات الدينية والدنيوية إذ يحرضهم على تنفيذ الشرائع البشرية متحدين في ذلك شريعة الله.

إن من يكرمون السبت كما هو وارد في الكتاب المقدس سيعيرون كأعداء للقانون والنظام، وكمَن يهدمون الروادع الأدبية للمجتمع ويسببون الفوضى والفساد، وينزلون دينونة الله على الأرض. وسيُعتبر تحفظهم المنبعث من ضمير حي عنادا وصلابة رأي واحتقارا للسلطات. وسيتهمون بإضمار الكراهية

للحكومة. والخدام الذين ينكرون حق شريعة الله سيقدمون من على المنبر نصائح تحت الشعب على إطاعة السلطات كترتيب إلهي. وفي دور التشريع ودور القضاء ستشوه أخلاق حافظي الوصية ويدانون. وستفسر أقوالهم تفسيراً كاذباً، وستُنعت بواعثهم بأسوأ النعوت.

وإذ ترفض الكنائس البروتستانتية الحجة الكتابية الواضحة في الدفاع عن شريعة الله فسيتوقعون إلى إسكات الذين لا يمكنهم هدم إيمانهم بالكتاب. ومع أنهم يتعاملون عن الحقيقة فإنهم الآن يتخذون إجراء يؤدي إلى اضطهاد أولئك الذين بسلامة نية يرفضون عمل ما يعمل به باقي الناس في العالم المسيحي الذين يعترفون بمطالب السبت البابوي.

سيتحد أحبار الكنيسة والدولة معا في إرشاء كل الطبقات أو إقناعها وإرغامها على إكرام يوم الأحد. والافتقار إلى سلطة إلهية ستقوم مقامها التشريعات الجائرة. والفساد السياسي يلاشي محبة الحق والعدل والاعتبار للحق، وحتى في أمريكا الحرة لكي يحصل الحكام والمشرعون على رضى الجمهور يخضعون لمطلب الجماهير بإصدار تشريع يلزم الناس حفظ يوم الأحد. ولن تُحترم بعد الآن حرية الضمير التي كلفت أصحابها تضحيات هائلة. وفي الصراع الوشيك الوقوع سنرى كلمات النبي ممثلة أمامنا إذ يقول: « فَغَضِبَ التَّنِينُ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَذَهَبَ لِيَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ بَاقِي نَسْلِهَا الَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا اللَّهِ، وَعِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ » (رؤيا ١٢: ١٧).

٣٧ - أَلِكِتَابِ الْمُقَدَّسِ خَيْرَ حَافِظِ

« إِلَى الشَّرِيعَةِ وَإِلَى الشَّهَادَةِ. إِنْ لَمْ يَقُولُوا مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ فَلَيْسَ لَهُمْ فَجْرٌ! » (إشعياء ٨: ٢٠). يُوجِّهُ شَعْبَ اللَّهِ إِلَى الْكِتَابِ كَحَافِظٍ لَهُمْ مِنْ تَأْثِيرِ الْمُعَلِّمِينَ الْكَذِبَةِ وَقُوَّةِ أَرْوَاحِ الظُّلْمَةِ الْمُضِلَّةِ. وَيُسْتَخْدِمُ الشَّيْطَانُ كُلَّ حِيلَةٍ مُمَكِّنَةٍ لِيَحُولَ بَيْنَ النَّاسِ وَحُصُولِهِمْ عَلَى مَعْرِفَةِ الْكِتَابِ، لِأَنَّ أَقْوَالَ الصَّرِيحَةِ تَفْضَحُ مَخَاتَلَتَهُ. وَفِي كُلِّ انْتِعَاشٍ لِعَمَلِ اللَّهِ يَنْهَضُ سُلْطَانُ الشَّرِّ لِيَبْذُلَ جَهْدًا أَعْظَمَ وَنَشَاطًا أَوْفَرَ. وَهُوَ الْآنَ يَبْذُلُ قِصَارَى جَهْدِهِ لِحَرْبٍ أَخِيرَةٍ يَثِيرُهَا ضِدَّ الْمَسِيحِ وَتَابِعِيهِ. وَالْخُدْعَةُ الْأَخِيرَةُ سَتُظْهِرُ أَمَامَنَا عَنْ قَرِيبٍ. فَالْمَسِيحُ الدِّجَالُ سَيَمَارِسُ أَعْمَالَهُ الْعَجِيبَةَ أَمَامَ أَنْظَارِنَا. وَسَيَكُونُ تَقْلِيدُهُ دَقِيقًا جَدًّا بِحَيْثُ يَشْبَهُ الْحَقِيقِي، وَهَكَذَا يَسْتَحِيلُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ إِلَّا بِوَسْطَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ. فَبِوَسْطَةِ شَهَادَتِهِ يَنْبَغِي فَحْصَ كُلِّ بَيَانٍ وَكُلِّ مَعْجَزَةٍ.

سَيَتَعَرَّضُ الَّذِينَ يَحَاوِلُونَ إِطَاعَةَ كُلِّ وَصَايَا اللَّهِ لِلْمَقَاوِمَةِ وَالسَّخَرِيَّةِ. لَكِنْهُمْ يَسْتَطِيعُونَ الثَّبَاتَ فِي اللَّهِ وَحْدَهُ. وَلَكِي يَحْتَمِلُوا التَّجَرِبَةَ الْمُقْبِلَةَ عَلَيْهِمْ يَجِبُ أَنْ يَفْهَمُوا إِرَادَةَ اللَّهِ كَمَا هِيَ مُعْلَنَةٌ فِي كَلِمَتِهِ، وَيَسْتَطِيعُونَ إِكْرَامَهُ فَقَطْ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ عِنْدَهُمْ إِدْرَاكٌ صَحِيحٌ لَصِفَاتِهِ وَحُكْمِهِ وَمَقَاصِدِهِ وَيَعْمَلُونَ طَبَقًا لَهَا. وَلَيْسَ غَيْرُ الَّذِينَ قَدْ حَصَّنُوا عُقُولَهُمْ بِحَقَائِقِ الْكِتَابِ يَثْبُتُونَ فِي هَذَا الصَّرَاعِ الْأَخِيرِ الْعَظِيمِ. هَذَا الْاِخْتِبَارُ الْفَاحِصُ سَيَمُتَرُّ بِهِ كُلُّ نَفْسٍ: هَلْ أَطِيعَ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ؟ السَّاعَةُ الْحَاسِمَةُ قَرِيبَةٌ الْآنَ. فَهَلْ أَقْدَامُنَا رَاسِخَةٌ عَلَى صَخْرَةٍ كَلِمَةُ اللَّهِ الثَّابِتَةِ؟ وَهَلْ نَحْنُ مُتَأَهِّبُونَ لِأَنَّ نَقْفَ ثَابِتَيْنِ دَفَاعًا عَنْ وَصَايَا اللَّهِ وَإِيمَانِ يَسُوعَ؟

أَوْضَحَ الْمَخْلُصُ لِتَلَامِيذِهِ قَبْلَ صَلْبِهِ أَنَّهُ سَيُقْتَلُ وَيَقُومُ ثَانِيَةً مِنَ الْقَبْرِ، وَكَانَ الْمَلَائِكَةُ حَاضِرِينَ لِيَرْسُخُوا هَذِهِ الْأَقْوَالَ فِي عُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ. لَكِنَّ التَّلَامِيذَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ الْخَلَاصَ الزَّمَنِيَّ مِنْ نِيرِ الرُّومَانِ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا احْتِمَالَ فِكْرَةِ كَوْنِ ذَلِكَ الَّذِي قَدْ تَرَكَّزَتْ فِيهِ كُلُّ آمَالِهِمْ يَنْبَغِي أَنْ يَقَاسِيَ مَوْتَاشِينَا. وَالْأَقْوَالَ الَّتِي كَانُوا فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَذْكُرُوهَا غَابَتْ عَنْ أَذْهَانِهِمْ، وَعِنْدَمَا جَاءَ وَقْتُ التَّجَرِبَةِ وَجَدْتَهُمْ عَلَى غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ. إِنْ مَوْتُ يَسُوعَ قَدْ حَطَمَ آمَالَهُمْ بِالْتِمَامِ كَمَا لَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَبَقَ فَأَنْذَرَهُمْ. كَذَلِكَ فِي النُّبُوءَاتِ نَجَدُ الْمُسْتَقْبَلَ وَاضِحًا أَمَامَنَا بِكُلِّ جَلَاءٍ كَمَا كَانَ وَاضِحًا أَمَامَ التَّلَامِيذِ بِوَسْطَةِ أَقْوَالِ الْمَسِيحِ. فَالْحَوَادِثُ الْمُتَّصِلَةُ بِانْتِهَاءِ زَمَنِ النِّعْمَةِ وَعَمَلِ الاسْتِعْدَادِ لَزَمَانَ الضِّيقِ مَعْرُوضَةٌ بِوَضُوحٍ. لَكِنْ جَمَاهِيرُ مِنَ النَّاسِ لَا يَدْرِكُونَ مِنْ هَذِهِ الْحَقَائِقِ الْمَهْمَةِ أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أُعْلِنَتْ. فَالشَّيْطَانُ يَنْتَظِرُ لِيَخْتَطِفَ بَعِيدًا كُلَّ تَأْثِيرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ حُكَمَاءَ بِشَأْنِ الْخَلَاصِ، وَسَيَجِدُهُمْ زَمَانَ الضِّيقِ غَيْرَ مُسْتَعْدِينَ.

عِنْدَمَا يَرْسِلُ اللَّهُ إِلَى الْعَالَمِ إِنْذَارَاتٍ مَهْمَةً جَدًّا بِحَيْثُ تُصَوَّرُ عَلَى أَنَّهَا مُعْلَنَةٌ بِوَسْطَةِ الْمَلَائِكَةِ الْقَدِيسِينَ وَهُمْ طَائِرُونَ فِي وَسْطِ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ مُوَهَّوبٍ بِقُوَّةِ التَّفَكِيرِ وَالتَّعْقُلِ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الرِّسَالَةِ وَيَعِيشَهَا. إِنْ الضَّرْبَاتُ الْمُخِيفَةُ الْمُقْضِي بِهَا ضِدَّ عِبَادَةِ الْوَحْشِ وَصُورَتِهِ (رُؤْيَا ١٤:

٩-١١) ينبغي أن تقود الكل لدرس النبوات باجتهاد ليتعلموا ما هي سمة الوحش وكيف يمكنهم تجنب قبولها. لكن جموع الناس يحولون آذانهم عن سماع الحق فيميلون إلى الخرافات. فالرسول بولس وهو ينظر إلى الأمام، إلى الأيام الأخيرة يعلن قائلا: «لأنه سيكون وقت لا يحتملون فيه التعليم الصحيح» (٢ تيموثاوس ٤: ٣). وها قد جاء ذلك الوقت. فجماهير الناس لا يريدون الحق الكتابي لأنه يتدخل في رغبات القلب الخاطئ المحب للعالم، والشيطان يقدم إليهم المخاتلات والمخادعات التي يحبونها.

شعب الكتاب

لكن الله سيكون له على الأرض شعب يحفظون الكتاب المقدس والكتاب المقدس وحده، كمقياس لكل التعاليم وأساس كل الإصلاحات. فلا آراء العلماء أو استنتاجات العلم ولا عقائد الجامعات الكنسية أو قراراتها، التي هي كثيرة ومختلفة بنسبة الكنائس التي تمثلها، وصوت الأغلبية — كل هذه لا ينبغي اعتبارها، منفردة أو مجتمعة، برهانا في جانب أي فقرة من العقيدة الدينية أو ضدها. فقبل قبول أي تعليم أو وصية ينبغي أن نسأل ما إذا كان مستندا إلى قول الرب أم لا. وهل هو يتفق مع: «هكذا قال الرب».

يحاول الشيطان دائما أن يوجه الأنظار إلى الإنسان بدلا من توجيهها إلى الله. ويجعل الناس يتطلعون إلى الأساقفة والرعاة وأساتذة اللاهوت كمرشدين لهم بدلا من أن يفتشوا الكتب ليعرفوا واجبهام نحو أنفسهم. وحينئذ إذ يسيطر على عقول هؤلاء القادة يمكنه أن يؤثر في الجماهير حسب إرادته.

عندما جاء المسيح ليتكلم بكلام الحياة سمعه عامة الشعب بسرور، وكثيرون حتى من الكهنة والرؤساء آمنوا به. لكن رؤيس الكهنة وقادة الأمة عقدوا العزم على إدانته ورفض تعاليمه. ومع أنهم أخفقوا في كل محاولاتهم في أن يجدوا شكاية ضده، ولم يسعهم إلا أن يحسوا بتأثير القوة الإلهية والحكمة المصاحبة لأقواله، فقد حبسوا أنفسهم في نطاق التعصب ورفضوا انصاع البراهين على كونه مسيا لئلا يضطروا إلى أن يصيروا له تلاميذ. كان خصوم يسوع هؤلاء قوما تعلم الشعب منذ نعومة أظفارهم أن يكرموهم، واعتادوا الانحناء أمام سلطانهم بكل ثقة. وقد تساءل الناس قائلين: «كيف لا يؤمن رؤساؤنا وكتبتنا العلماء بيسوع؟ أما كان هؤلاء القوم الأتقياء يقبلونه لو كان هو المسيح؟» إن نفوذ مثل هؤلاء المعلمين هو الذي قاد الأمة اليهودية إلى رفض فاديهما.

وتلك الروح التي حرّضت أولئك الكهنة والرؤساء لا يزال يظهرها كثيرون ممن يدعون التقوى والقداسة. إنهم يرفضون فحص شهادة الكتاب المقدس الخاصة بالحقائق المتعلقة بهذه الأيام. يشيرون إلى كثرة عددهم ووفرة غناهم وذيوع شهرتهم، وينظرون بازدراء إلى دعاة الحق ومناصريه على أنهم قليلو العدد فقراء غير معروفين ويعتقدون عقيدة تفصل بينهم وبين العالم.

تمجيد السلطة البشرية

وقد سبق المسيح فرأى أن ادعاء السلطان غير اللائق الذي يتمسك به الكهنة والفريسيون لن ينتهي

بشتات اليهود. لقد كانت له بصيرة النبي فرأى عمل تعظيم السلطة البشرية للسيطرة على الضمائر، الأمر الذي كان لعنة رهيبة للكنيسة في كل العصور. وإن الولايات المخيفة التي نطق بها ضد الكتب والفريسيين، وإنذاراته التي وجهها إلى الشعب كي لا يتبعوا أولئك القادة العميان، إنما سجلت لإنذار الأجيال المقبلة.

تحتفظ كنيسة روما للإكليروس بحق تفسير الكتاب المقدس. فعلى أساس كون الإكليروس هم وحدهم أكفاء لشرح كلمة الله من دون غيرهم من الناس فقد حُرِّم عامة الشعب من هذا الحق. ومع أن الإصلاح قدم الكتاب إلى الجميع فإن المبدأ نفسه الذي سارت عليه روما يمنع جموعاً غفيرة في الكنائس البروتستانتية من تفتيش الكتاب لأنفسهم. لقد تعلموا أن يقبلوا تعاليمها كما قد فسرتها الكنيسة، ويوجد آلاف ممن لا يجرؤون على قبول شيء يناقض عقيدتهم أو تعليم كنيستهم الثابت، مهما كان ذلك الشيء واضحاً في الكتاب.

وعلى رغم كون الكتاب مملوءاً بإنذارات ضد المعلمين الكذبة فإن كثيرين مستعدون هكذا لأن يستودعوا حفظ أرواحهم بين أيدي رجال الإكليروس. ويوجد اليوم آلاف من المعترفين بالدين ممن لا يمكنهم أن يقدموا سبباً واحداً عن إيمانهم الذي يعتنقونه أكثر من قولهم أن هذا هو ما قد تعلموه من رؤسائهم الدينيين. إنهم يمرون بتعاليم المخلص مرور الكرام حتى يكادون لا يلاحظونها، ويضعون ثقتهم التامة في الخدام. ولكن هل الخدام معصومون؟ وكيف نستأمنهم على إرشاد نفوسنا ما لم نعلم من كلمة الله أنهم حاملوا مشعل النور؟ إن انعدام الشجاعة الأدبية بحيث لا يميل الإنسان عن الطريق المألوف الذي يسير فيه العالم يجعل كثيرين يسيرون في أثر خطوات العلماء، وبنفورهم من الفحص والاستقصاء بأنفسهم ولأنفسهم يصيرون مكبلين بسلاسل الضلال بلا أمل في الحرية. إنهم يرون أن الحق الخاص بهذا العصر مكشوف للعيان بكل وضوح في الكتاب ويحسنون بقوة الروح القدس مرافقاً لإعلانه، إلا أنهم يسمحون لمقاومة الإكليروس بأن تبعدهم عن النور. ومع أن عقولهم وضمائرهم مقتنعة فإن هذه النفوس المخدوعة لا تجرؤ على أن تفكر تفكيراً يخالف ما يقوله الخادم، وحكمهم الشخصي وصالحهم الأبدي يُضَحَّى بهما على مذبح عدم الإيمان والكبرياء والتعصب الذي يتمسك به شخص آخر.

خيوط المحبة الحريية

كثيرة هي الطرق التي يعمل الشيطان بواسطتها من خلال المؤثرات البشرية في تعمية أسراه. انه يستحوذ على جماهير كثيرة لنفسه إذ يربطهم بخيوط حريرية، خيوط المحبة لمن هم أعداء صليب المسيح. وسواء كان هذا الارتباط ارتباط الآباء أو الأبناء أو الأزواج أو ارتباطاً اجتماعياً فالتأثير هو لا يتغير، فمقاومو الحق يستخدمون سلطانهم في السيطرة على الضمير، والنفوس الممسكة تحت سلطتهم ليست لديها الشجاعة الكافية أو الاستقلال لإطاعة اقتناعها بالواجب. إن حق الله ومجده لا ينفصلان، ونحن يستحيل علينا، والكتاب في متناول أيدينا، أن نكرم الله بالآراء المغلوطة. كثيرون يدعون قائلين أنه لا يهم ما الذي يعتقد الإنسان إذا كانت حياته حياة مستقيمة.

لكنّ العقيدة هي التي تشكل الحياة. فاذا كان النور والحق في متناول أيدينا ونحن نهمل الاستفادة من ميزات استماعه ورؤيته فإننا في الواقع نرفضه، ونحن نختار الظلمة ونفضلها على النور.

« توجد طريق تظهر للإنسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت » (أمثال ١٦: ٢٥) ليس الجهل عذرا عن الضلال أو الخطيئة، فيما كل الفرص ماثلة أمام الإنسان لمعرفة إرادة الله. ها رجل مسافر يأتي إلى مكان به طرق متشعبة كثيرة وتوجد على جانب الطريق لافتة تشير إلى نهاية كل طريق. فإذا هو أغفل تلك اللافتة واتخذ أي طريق يترأى له أنه صواب، فقد يكون مخلصا تمام الإخلاص ولكن من المرجح أن يجد نفسه سائرا في طريق مخطئ غير الذي يريده.

الواجب الأول والأهم

لقد أعطانا الله كلمته لتتعرف إلى تعاليمها ونعرف لأنفسنا ماذا يطلبه الله منا. عندما جاء الناموسي إلى يسوع وطرح عليه هذا السؤال: « ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟ » وجّهه المخلص إلى الكتاب قائلا له: « ما هو مكتوب في الناموس كيف تقرأ؟ » إن الجهل ليس عذرا يركن اليه الصغار أو الكبار ولا يعفيهم من القصاص الذي يستوجبه التعدي على شريعة الله، لأن بين أيديهم عرضا أميناً لتلك الشريعة ومبادئها ومطالبها. لا يكفي أن تكون نوايا الإنسان صالحة، ولا يكفي أن نفعل ما نظنه صوابا ولا ما يقول الخادم عنه أنه صواب. إن خلاص نفس الإنسان مهدد بالخطر وعليه أن يفتش الكتب لنفسه. مهما تكن اقتناعاته قوية ومهما يكن واثقا من أن الخادم يعرف الحق، فهذا لا يصلح أساسا يبنى عليه ثقته. إن لديه خارطة تشير إلى كل علامة من علامات الطريق في سياحته إلى السماء، وينبغي ألا يُخمن من جهة أي شيء.

إن أول واجب واعظمه على كل كائن عاقل هو أن يتعلم من الكتاب ما هو الحق ثم يسير في النور ويشجع الآخرين على التمثل به. علينا أن ندرس الكتاب باجتهاد يوما بعد يوم فنزن كل فكر ونقارن بين آية وأخرى. وبمساعدة الله نكون آراءنا لأنفسنا إذ أن علينا أن نجيب عن أنفسنا أمام الله.

إن الحقائق المعلنة جلياً في الكتاب قد أحاطها العلماء بالشكوك والظلمات، فلكونهم يدعون ادعاءات عظيمة بأنهم علماء وحكماء فهم يعلمون الناس بأن للكتاب معنى غامضاً خفياً روحياً لا يظهر في لغته الحالية. هؤلاء القوم معلمون كذبة. فلمثل تلك الفئة من الناس قال يسوع: « لا تعرفون الكتاب ولا قوة الله؟ » (مرقس ١٢: ٢٤). إن لغة الكتاب ينبغي شرحها طبقاً لمعناها الواضح ما لم يكن هنالك رمز أو استعارة. لقد أعطى المسيح هذا الوعد: « إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم » (يوحنا ٧: ١٧). فلو أخذ الناس الكتاب كما يُقرأ ولم يكن هنالك معلمون كذبة يضلّون عقولهم ويربكونها لأمكن إنجاز عمل يُفرح قلوب الملائكة ويضم إلى حظيرة المسيح آلافاً فوق آلاف ممن يهيمون الآن في تيه الضلال.

وعلى أن نبذل كل قوى عقولنا في درس الكتاب المقدس. علينا أن نفهم وندرك مقاصد الله على قدر ما يستطيع بشر أن يفعل. ومع ذلك فلا ننسى أن مرونة الطفل وخضوعه هما الروح الحقيقية لكل من يتعلم. ولا يمكن التغلب على معضلات الكتاب بالوسائل نفسها المستخدمة في مكافحة

المشكلات الفلسفية. ينبغي ألا نشرع في دراسة الكتاب المقدس بروح الاعتماد على الذات التي بها يدخل كثيرون إلى ميدان العلم، بل بالاعتماد على الله في روح الصلاة وبرغبة مخلص في معرفة مشيئته. علينا أن نأتي بروح متواضعة قابلة للتعليم لنحصل على المعرفة من ذاك الذي اسمه أهيه العظيم، وإلا فالملائكة الأشرار سيطمسون أذهاننا ويقسّون قلوبنا حتى لا نتأثر بالحق.

كثيرا ما يكون هنالك فصل من الكتاب يقول عنه العلماء أنه غامض أو يمرون به مروراً سريعاً إذ يعتبرونه عديم الأهمية ولكنه يكون مملوءاً بالعزاء والتعليم لمن قد تعلم في مدرسة المسيح. ومن بين الأسباب التي لأجلها لا يمكن لكثير من رجال اللاهوت إدراك أوضح لكلمة الله، هو أنهم يغمضون عيونهم عن الحقائق التي لا يرغبون في ممارستها عملياً. إن إدراك حق الكتاب لا يتوقف بالأكثر على قوة الذهن الذي يستخدم في البحث كما على توحيد القصد وبساطته، والرغبة والشوق الحار في طلب البر.

« يعلمكم كل شيء »

ينبغي ألا ندرس الكتاب من دون صلاة. فالروح القدس وحده هو الذي يستطيع أن يجعلنا نشعر بأهمية تلك الأشياء التي يسهل فهمها أو يمنعنا من تحريف الحقائق التي يصعب علينا إدراكها. إن عمل ملائكة السماء هو إعداد القلب بحيث يفهم كلمة الله لكي يسحر جمالها قلوبنا فتتحدّر بإنذاراتها أو نحيا ونتعش ونتقوى بمواعيدها. وعلينا أن نتخذ صلاة المرمن لأنفسنا فنقول: « اكشف (يا رب) عن عيني فأرى عجائب من شريعتك » (مزمور ١١٩: ١٨). فالتجارب في غالب الأحيان تبدو كأنها لا تُغلب لأن المجرب بسبب إهماله الصلاة ودرس الكتاب لا يستطيع أن يذكر مواعيد الله بسرعة ليقابل الشيطان بسلاح الكتاب. لكن الملائكة يعسكرون حول الذين يرغبون في تعلم أمور الله، وفي وقت الحرج والحاجة العظمى يُسعفون ذاكرتهم بالحقائق ذاتها التي يحتاجون إليها. وهكذا « عِنْدَمَا يَأْتِي الْعَدُوُّ كَنَهْرٍ فَتَفْخُهُ الرَّبُّ تَدْفَعُهُ » (إشعياء ٥٩: ١٩).

وقد وعد يسوع تلاميذه قائلاً: « وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الْآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيَذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ » (يوحنا ١٤: ٢٦). ولكن ينبغي قبل ذلك أن ندخر تعاليم المسيح في أذهاننا حتى يذكرنا بها روح الله في وقت الخطر. وقد قال داود: « خَبَأْتُ كَلَامَكَ فِي قَلْبِي لِكَيْلَا أُخْطِيَ إِلَيْكَ » (مزمور ١١٩: ١١).

على كل من يقدر أن يصلحهم الأبدية أن يكونوا يقظين وساهرين ضد غارات الإلحاد. إن أعمدة الحق نفسها ستُهاجم ويستحيل علينا أن نكون بعيدين عن متناول تهكمات الإلحاد العصري ومغالطاته وتعاليمه المخاتلة والوبيلة. والشيطان يكيّف تجاربه بحيث تناسب كل الطبقات. فهو يهاجم الأميين بنكتة أو سخرية، بينما هو يواجه المثقفين باعتراضات علمية وحجج فلسفية، والغرض منها جميعاً إثارة الشكوك أو احتقار الكتاب. بل حتى الشباب القليلو الاختبار يتجرأون على دس الشكوك في مبادئ المسيحية الأساسية. وإلحاد الشباب هذا مع أنه ضحل فله تأثيره. وكثيرون من الشباب ينقادون إلى السخرية بإيمان آبائهم والازدراء بروح النعمة (عبرانيين ١٠: ٢٩). وكثيرا ما يحدث أن

إنسانا كان يُرجى أن تكون حياته مكرّمة وممجّدة لله وبركة للعالم ضربتها ريح الإلحاد الفاسدة المحرقة. وكل من يركنون إلى أحكام العقول البشرية المتفاخرة ويتصورون أنهم يستطيعون شرح أسرار الله والوصول إلى الحق من دون الاستعانة بحكمة الله تعلق أرجلهم في أشراك الشيطان.

إننا اليوم عائشون في أخطر فترة من فترات تاريخ العالم. ومصير الأرض بمن يعيشون عليها والذين يتكاثرون كل يوم، موشك أن يتقرر. وتتوقف سعادتنا العتيدة وكذلك خلاص النفوس الأخرى على سلوكنا وتصرفنا الحالي. فنحن في حاجة إلى الاسترشاد بروح الحق. وعلى كل تابع للمسيح أن يسأل بكل غيرة قائلا: « ماذا تريد يا رب أن أفعل؟ » علينا أن نتضع أمام الرب بالصوم والصلاة وأن نلهج بكلمته دائما وعلى الخصوص نتأمل في مشاهد الدينونة. علينا الآن أن نطلب اختبارا عميقا حيا لأمر الله. لم يبق لدينا وقت نضيعه ولا برهة واحدة. فالحوادث ذات الخطورة الحيوية تحدث حولنا. ونحن في أرض الشيطان المسحورة. فلا تناموا يا حراس الله، فالعدو كامن قريبا منكم يتربص بكم، فاذا تراخيتم أو نمتم في أي لحظة فهو على أهبة الانقضاض عليكم لافتراسكم.

كثيرون مخدوعون في ما يختص بحالتهم الحقيقية أمام الله. انهم يهنتون أنفسهم على الأخطاء التي لا يرتكبونها، ولكنهم ينسون إحصاء الأعمال الصالحة والنبيلة التي يطلبها الله منهم، ولكنهم أهملوا القيام بها. فلا يكفي أن يكونوا أشجارا في جنة الله بل عليهم أن يحققوا انتظاراته في الإتيان بثمر. وهو يعتبرهم مسؤولين عن إخفاقهم في إتمام كل الصلاح الذي كان يمكنهم أن يفعلوه بواسطة نعمته التي تقويهم. ففي أسفار السماء مسجل ضدهم أنهم معطلون ومبطلون للأرض. ومع ذلك فحتى حالة هذه الفئة من الناس ليست ميؤوسا منها. إن قلب المحبة المتأني الصبور لا يزال يتوسل إلى الذين قد استهانوا برحمته وأساءوا استخدام نعمته، « لذلك يقول: « اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ وَقُمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَسْلُكُونَ بِالتَّدْقِيقِ... مُفْتَدِينَ الْوَقْتَ لِأَنَّ الْأَيَّامَ سَرِيرَةٌ » (أفسس ٥: ١٤-١٦).

عندما يأتي وقت الامتحان فأولئك الذين جعلوا كلمة الله دستور حياتهم سيظهرون. في الصيف لا يرى فرق ظاهر بين الأشجار الدائمة الاخضرار وغيرها من الأشجار، ولكن عندما تجيء زوابع الشتاء وبرده تبقى الأشجار الدائمة الاخضرار بلا تغيير بينما الأشجار الأخرى تتجرد من أوراقها. وهكذا المعترف بالمسيحية الكاذب القلب قد لا يمكن تمييزه الآن من المسيحي الحقيقي ولكن في وقت قريب سيظهر الفرق. فلو استيقظت المقاومة وساد التعصب واشتعلت نيران الاضطهاد فإن الفاترين والمرائين سيترنحون ويتنازلون عن عقيدتهم، لكن المسيحي الأمين سيظل ثابتا كالصخر وسيبقى إيمانه ويلمع رجاؤه أكثر مما في أيام النجاح.

يقول المرنم: « شهادتك هي لهجي ». « مِنْ وَصَايَاكَ أَنْقَطْنُ، لِذَلِكَ أَبْعَضْتُ كُلَّ طَرِيقِ كَذِبٍ » (مزمو ١١٩: ٩٩، ١٠٤).

« طُوبَى لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يَجِدُ الْحِكْمَةَ، وَلِلرَّجُلِ الَّذِي يَنَالُ الْفَهْمَ »، « فَإِنَّهُ يَكُونُ كَشَجَرَةٍ مَغْرُوسَةٍ عَلَى مِيَاهٍ، وَعَلَى نَهْرٍ تَمُدُّ أَصُولَهَا، وَلَا تَرَى إِذَا جَاءَ الْحَرُّ، وَيَكُونُ وَرَقُهَا أَخْضَرَ، وَفِي سَنَةِ الْقَحْطِ لَا تَخَافُ، وَلَا تَكْفُ عَنِ الْإِثْمَارِ » (أمثال ٣: ١٣؛ إرميا ١٧: ٨).

٣٨ - الإنذار الأخير

« ثُمَّ بَعْدَ هَذَا رَأَيْتُ مَلَكَآ آخَرَ نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ، لَهُ سُلْطَانٌ عَظِيمٌ. وَاسْتَنَارَتِ الْأَرْضُ مِنْ بَهَائِهِ. وَصَرَخَ بِشِدَّةٍ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: « سَقَطْتُ! سَقَطْتُ بَابِلُ الْعَظِيمَةِ! وَصَارَتْ مَسْكَنًا لَشَيَاطِينَ، وَمَحَرَسًا لِكُلِّ رُوحٍ نَجَسٍ، وَمَحَرَسًا لِكُلِّ طَائِرٍ نَجَسٍ وَمَمْقُوتٍ » « ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتًا آخَرَ مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: « أَخْرِجُوا مِنْهَا يَا شَعْبِي لِئَلَّا تَشْتَرِكُوا فِي خَطَايَاهَا، وَلِئَلَّا تَأْخُذُوا مِنْ ضَرْبَاتِهَا » (رُؤْيَا ١٨: ١، ٢، ٤).

تشير هذه الآيات إلى زمن آت فيه يتكرر الإعلان عن سقوط بابل كما نطق به الملاك الثاني المذكور في (رُؤْيَا ١٤: ٨). إنما هذه المرة يضيف هذا الملاك ذكر المفاسد والنجاسات التي قد دخلت في كل النظم التي تتكون منها بابل، منذ أن قُدمت تلك الرسالة أولاً في صيف عام ١٨٤٤. وهنا وصف مخيف للعالم الديني. ففي كل مرة يرفض الناس الحق ستصير عقولهم اشد ظلاما وقلوبهم أشد صلابة وعنادا حتى يتحصنوا في وقاحة الحادية. ففي تحديدهم الإنذارات التي قدمها إليهم الله سيظلون على عنادهم في الدوس على احدى الوصايا العشر حتى ينتهي بهم الأمر إلى اضطهاد من يقدرسونها. إن المسيح يُستخف به بسبب الاحتقار الذي يقع على كلمته وشعبه. فإذا تقبل الكنائس تعاليم مناجاة الأرواح فإن الرادع الموضوع على القلب الجسدي يُزال ويصير الاعتراف بالديانة قناعا يخفي تحته أخط الآثام. والاعتقاد في ظهور الأرواح يُفسح المجال أمام الأرواح المضلة وتعاليم الشياطين، وهكذا يترك تأثير الملائكة الأشرار ليعمل عمله المدمر في الكنائس.

أما بابل فإذا تبدو أمام أنظارنا في هذه النبوة يُعلن عنها أن « خَطَايَاهَا لَحَقَّتْ السَّمَاءَ، وَتَذَكَّرَ اللَّهُ آثَامَهَا » (رُؤْيَا ١٨: ٥). لقد ملأت مكيال إثمها والهلاك موشك أن ينصب عليها. لكن الله لا يزال له شعب في بابل، وقبلما يفتقدها بضرباته لا بد أن يُدعى هؤلاء الأمناء للخروج « لِئَلَّا تَشْتَرِكُوا فِي خَطَايَاهَا، وَلِئَلَّا تَأْخُذُوا مِنْ ضَرْبَاتِهَا ». من هنا الحركة المرموز إليها بنزول الملاك من السماء منيراً الأرض من بهائه صارخا بشدة بصوت عظيم معلنا عن خطايا بابل. وقد ارتبطت برسالاته هذه الدعوة القائلة: « اخرجوا منها يا شعبي ». هذه الإعلانات بارتباطها برسالة الملاك الثالث تكون آخر إنذار يقدم إلى سكان الأرض.

ومخيفة هي الحالة التي ستكون فيها الأرض. فإذا تتحد قواتها معا لمحاربة وصايا الله ستصدر أمرا عاليا بأن الجميع « الصُّغَارَ وَالْكِبَارَ، وَالْأَغْنِيَاءَ وَالْفُقَرَاءَ، وَالْأَحْرَارَ وَالْعَبِيدَ » (رُؤْيَا ١٣: ١٦) يمثلون لعادات الكنيسة بحفظ السبت الزائف. وكل الذين يرفضون الامتثال ستوقع بهم عقوبات مدنية وسيُعلن أخيرا أنهم مستحقون الموت. ومن الناحية الأخرى فإن شريعة الله التي تفرض يوم راحة الخالق تأمر بالطاعة وتتوعد بالغضب كل من يتعدون وصاياها.

فإذا توضع هذه النتيجة جلية واضحة أمام الناس فكل من يمتن شريعة الله ليطيع تشريعا بشريا يقبل سمة الوحش ويقبل الولاء للسلطان الذي يختاره ليطيعه من دون الله. إن الإنذار الآتي من السماء هو هذا: « إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَسْجُدُ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ، وَيَقْبَلُ سَمَتَهُ عَلَى جَبْهَتِهِ أَوْ عَلَى يَدِهِ، فَهُوَ أَيْضًا سَيَشْرَبُ مِنْ خَمَرِ غَضَبِ اللَّهِ، الْمَصْبُوبِ صَرَفًا فِي كَأْسِ غَضَبِهِ » (رُؤْيَا ١٤: ٩، ١٠).

ولكن لن يقاسي أحد أهوال غضب الله إلى أن يمس الحق عقله وضميره ثم يرفضه. فثمة كثيرون ممن لم تُنح لهم الحقائق الخاصة بهذا العصر، فعهد الوصية الرابعة لم يوضع أبداً أمامهم في نوره الحقيقي. وذاك المطلع على كل قلب ومختبر كل وازع لن يترك إنساناً يرغب في معرفة الحق ينخدع في ما يختص بنتائج الصراع. والأمر لن يُفرض على الناس من دون تبصر. فكل واحد سيعطى النور الكافي ليتخذ قراره عن فهم وتبصر.

محك الولاء

سيكون السبب الاختبار العظيم للولاء لأنه نقطة الحق المختلف والمتنازع عليها بوجه خاص. فعندما يتضح الاختبار الأخير لدى الناس ويقولون كلمتهم حينئذ يوضع حد فاصل بين من يعبدون الله ومن لا يعبدونه. ففي حين أن حفظ السبب الزائف إطاعة لشريعة الدولة خلافاً لما تأمر به الوصية الرابعة هو مجاهرة بالولاء لسلطان مضاد لسلطان الله فإن حفظ السبب الحقيقي إطاعة لشريعة الله هو برهان الولاء للخالق. وفي حين أن فريقاً، بقبوله رمز الخضوع للسلطات الأرضية، يقبل سمة الوحش، فالفريق الآخر إذ يختار علامة الولاء لسلطان الله يقبل ختم الله.

إن الذين قدموا حقائق رسالة الملاك الثالث في ما مضى، كثيراً اعتُبروا مثيري فتن وقلقل. وتنبؤاتهم بأن التعصب الديني سيسود في الولايات المتحدة وأن الكنيسة والدولة ستتحدان معا في اضطهاد الذين يحفظون وصايا الله حُكم عليها بأنها سخيصة وبلا أساس. وقد أعلن بكل ثقة أن تلك البلاد لا يمكن أن تكون غير ما هي، أي حامية الحرية الدينية. ولكن إذ أثبتت مشكلة فرض حفظ يوم الأحد أوشكت الحادثة التي ظلت طويلاً مشكوكاً فيها وغير قابلة للتصديق أن تحصل، والرسالة الثالثة ستحدث تأثيراً لم يكن يُظن حدوثه من قبل.

في كل عصر أرسل الله خدامه لتوبيخ الخطيئة في العالم وفي الكنيسة. لكن الناس يرغبون في أن يُقال لهم الكلام الناعم، أما الكلام النقي غير المدهون أو المصقول فهو غير مقبول. إن كثيرين من المصلحين إذ شرعوا في عملهم قرروا أن يمارسوا حكمة عظيمة وضبط نفس في مهاجمة خطايا الكنيسة والأمة. وقد كانوا يرجون، بفضل مثال حياتهم المسيحية النقية، أن يرجعوا الناس إلى تعاليم الكتاب. لكن روح الله حل عليهم كما قد حل على إيليا إذ حركه لأن يوبخ خطايا ملك شرير وشعب مرتد، ولذلك لم يستطيعوا الكف عن الكرازة بأقوال الكتاب الصريحة والتعاليم التي كانوا ينفرون من تقديمها. لقد دفعوا دفعا إلى إعلان الحق والخطر الذي يهدد النفوس، وذلك بكل غيرة. ونطقوا بالكلام الذي أعطاهم إياه الرب من دون خوف من العواقب، وكان الناس مرغمين على الإصغاء إلى الإنذار.

إعلان الرسالة بقوة

وهكذا ستعلن رسالة الملاك الثالث. فعندما يجيء وقت إعلانها بأعظم قوة فالرب سيستخدم وسائل متواضعة إذ يرشد عقول الذين يكرسون ذواتهم لخدمته. وأولئك العمال سيؤهلون بالأحرى بمسحة روحه أكثر مما بتدريب معاهد العلم. فرجال الإيمان والصلاة سيجدون أنفسهم مدفوعين

للخروج بغيرة مقدسة معلنين الكلام الذي يعطيهم الله إياه. إن خطايا بابل ستتكشف. والنتائج المخيفة لإرغام الناس على ممارسة فرائض الكنيسة بواسطة القوة المدنية، والتهافت على مناجاة الأرواح، وتقدم السلطان البابوي المستتر والسريع في الوقت نفسه — كل هذا سيكون سافرا. بهذه الإنذارات الخطيرة سيوقظ الناس. وآلاف فوق آلاف ممن لم يسبق لهم أن سمعوا كلاما كهذا سيسمعون في ذهول أن بابل هي الكنيسة التي سقطت بفعل ضلالاتها وخطاياها ورفضها الحق المرسل إليها من السماء. فإذا يعود الناس إلى معلمهم السابقين يسألونهم في لهفة قائلين: هل هذه الأمور هكذا؟ فالخدام يقدمون إليهم خرافات ويتنبأون لهم بالناعمات لكي يسكنوا مخاوفهم ويهدنوا ضمائرهم التي استيقظت. ولكن بما أن كثيرين سيرفضون الاكتفاء بمجرد سلطان الناس ويطلبون توضيحا كتابيا صريحا كالقول « هكذا قال الرب » فالخدام المشهورون كالفرسيين قديما سيستشيطنون غضبا عندما يُشك في سلطانهم ويشجبون الرسالة قائلين أنها من الشيطان ويثيرون جماهير الناس المحبين للخطيئة ليشتموا أولئك الذين يذيعونها ويضطهدوهم.

عندما يمتد الصراع

وعندما يمتد الصراع إلى ميادين جديدة وتوجه أذهان الناس إلى شريعة الله المداسة تحت الأقدام فالشيطان يكون منهمكا. إن القوة المصاحبة للرسالة ستصيب مقاومتها بالجنون. والإكليروس سيبدلون جهودا فوق الطبيعة لو استطاعوا ليمنعوا النور حتى لا يشرق على قطعانهم. وبكل وسيلة تحت سلطانهم سيحاولون إخماد المباحثة في هذه المسائل الحيوية. والكنيسة تلجأ إلى ذراع القوة المدنية، وفي هذا العمل سيتحد البابويون والبروتستانت. وإذا تشتت حركة إرغام الناس على حفظ يوم الأحد وتريد جرأة وإصرارا فسيُستنجد بالقانون ضد حافظي الوصية. وسيتوعدونهم بالغرامات والسجن والبعض منهم ستعرض عليهم وظائف ذات نفوذ وغير ذلك من المكافآت والميزات لإغرائهم بنبد عقيدتهم. لكن جوابهم الثابت سيكون هكذا: « برهنوا لنا على خطئنا من كلمة الله » — وهذه هي الحجة نفسها التي قدمها لوثر عندما كان في ظروف مماثلة. وأولئك الذين يُستدعون للمثول أمام المحاكم يؤيدون الحق ويزكونه ترقية قوية، وبعض من يسمعونهم سيقررون حفظ كل وصايا الله، وهكذا سينكشف النور أمام آلاف من الناس الذين لولا ذلك لما كانوا يعرفون شيئا عن تلك الحقائق. ستعامل إطاعة كلمة الله في إخلاص كما لو كانت تمردا وعصيانا. فإذا يعمي الشيطان أذهان الآباء سيلجأون إلى الفظاظاة والقسوة في معاملة أولادهم المؤمنين، والسيد أو السيدة سيضطهدون خدامهم أو عبيدهم حافظي الوصية. وستُستبعد المحبة، والأولاد يُحرمون من الميراث ويُطردون من البيت. وسيتم كلام بولس حرفيا إذ قال: « جَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهُدُونَ » (٢ تيموثاوس ٣: ١٢). وإذا يرفض المدافعون عن الحق تكريم يوم الأحد فالبعض منهم سيلقى بهم في السجون، والبعض الآخر سيرسلون إلى المنفى، والبعض سيعاملون معاملة العبيد. كل هذا يعتبر الآن أمرا مستحيل الوقوع في نظر الحكمة البشرية، ولكن إذ ينسحب روح الله الرادع من بين الناس ويصيرون تحت سيطرة الشيطان الذي يبغض وصايا الله فستحدث تطورات غريبة. إن

القلب يمكن أن يكون قاسياً جداً عندما يُطرد منه خوف الله ومحبه.

وإذ تقترب العاصفة فإن فريقاً كبيراً ممن قد اعترفوا بإيمانهم برسالة الملك الثالث ولكنهم لم يتقدسوا بالطاعة للحق يتركون مركزهم وينضمون إلى صفوف المقاومة. فإذا يتحدثون مع العالم ويشتركون في روحه فهم يرون بالمنظار نفسه تقريباً، وعندما يجيء الامتحان يكونون مستعدين لاختيار الجانب السهل الشائع المشهور. وأصحاب المواهب والخطابة المسرة الذين كانوا قبلاً يبتهجون بالحق يستخدمون قواهم في خداع النفوس وتضليلها. ويصيرون ألد أعداء إخوتهم السابقين. وعندما يؤتى بحافضي السبت أمام المحاكم ليجاوبوا عن إيمانهم فإن هؤلاء المرتدين يكونون افعل الوسائل في يد الشيطان لتشويه أخلاقهم والدس ضدّهم واتهامهم، وبواسطة البلاغات الكاذبة والدسائس يثيرون الحكام ضدّهم.

في وقت الاضطهاد هذا سيُمتحن إيمان عبيد الرب. لقد قدموا الإنذار بكل أمانة ناظرين إلى الرب وكلمته فقط. ولأن روح الله يرف على قلوبهم فإنه ارغمهم على الكلام، وإذ حرصتهم الغيرة المقدسة وبدافع قوي الهي في نفوسهم شرعوا في القيام بواجباتهم من دون أن يحسبوا بفقر حساباً لعواقب مخاطبة الناس بكلمة الله التي سلمهم إياها. ولم يتدبروا أمر مصالحهم المادية ولا ضنوا بسمعتهم أو حياتهم. ومع ذلك فعندما تهب عليهم عاصفة المقاومة والعار ويستولي الرعب على البعض منهم سيكونون على أهبة الصراخ قائلين: «لو كنا قد علمنا من قبل عواقب كلامنا لكننا قد صمتنا». لقد أهدت بهم المتاعب والمشقات. والشيطان يهاجمهم بتجاربه العنيفة. ويبدو أن العمل الذي شرعوا فيه هو فوق طاقتهم ولا يستطيعون إنجازه وأنهم مهددون بالهلاك. وقد زایلهم الحماس الذي كان قد أنعشهم، ومع ذلك فهم لا يستطيعون أن يتراجعوا. وحينئذ إذ يحسون بعجزهم التأم يهرعون إلى الرب القدير في طلب القوة. وهم يذكرون أن الكلام الذي نطقوا به لم يكن كلامهم بل كلام ذاك الذي أمرهم بتبليغ الإنذار. لقد وضع الله الحق في قلوبهم فلم يستطيعوا الإحجام عن إذاعته.

إن هذه المحن نفسها قد اختبرها رجال الله السابقون في العصور السالفة. فويكلف وهس ولوثر وتندل وباكستر ووسلي ألحوا بوجوب وضع كل التعاليم تحت اختبار الكتاب، وأعلنوا عن استعدادهم لنبد كل ما يدينه كتاب الله. وقد ثارت اضطهادات قاسية لا تلين ضد هؤلاء الناس ومع ذلك لم يكفوا عن إعلان الحق. لقد مرت الكنيسة في تاريخها بمراحل مختلفة تميزت كل منها بإبراز حقيقة خاصة تتوافق واحتياجات شعب الله آنذاك. وكل حق جديد شق لنفسه طريقاً ضد العداوة والمقاومة، وكل من قد تباركوا بنوره جُربوا وامتحنوا. فالرب يعطي حقاً خاصاً للشعب في ظرف طارئ. فمن يجرؤ على رفض إذاعته؟ إنه يأمر عبيده أن يقدموا آخر دعوات الرحمة إلى العالم. وهم لا يستطيعون البقاء صامتين ما لم يكن هنالك خطر على أرواحهم. إن سفراء المسيح لا شأن لهم بالعواقب. فعليهم القيام بواجبهم تاركين النتائج في يد الله.

تفاقم المقاومة

وإذ تتفاقم المقاومة وتشتد فإن عبيد الله يرتبون مرة أخرى عندما يتراءى لهم أنهم هم الذين

أحدثوا الأزمة. لكن ضمائرهم وكلمة الله تؤكد لهم أنهم سائرون في طريق الصواب، ومع التجارب تبقى كما هي فإنهم يتشددون لاحتمالها. والنضال يقترب إليهم أكثر ويزيد عنفا وشدة لكن إيمانهم وشجاعتهم يزيدان بنسبة تلك الحالة الطارئة. وشهادتهم هي هذه: «إننا لا نجرؤ على العبث بكلمة الله بتقسيم كلمته وشريعته المقدسة فنعتبر جزءا منه جوهريا والجزء الآخر غير جوهرى لكي نظفر برضى العالم. إن الرب الذي نخدمه قادر على أن ينقذنا. لقد غلب المسيح سلاطين الأرض فهل نخشى من عالم منهزم من قبل؟».

ليس الاضطهاد في أشكاله المختلفة إلا تطورا لمبدأ سيظل باقيا ما دام الشيطان باقيا وطالما توجد للمسيحية قوة حيوية. ولا يستطيع إنسان أن يخدم الله من دون أن يسجل على نفسه مقاومة قوات الظلمة. فالملائكة الأشرار سيهاجمونه إذ يفزعهم الفكر بأن تأثيره سينزع الفريسة من أيديهم. والناس الأشرار إذ يوبخهم مثاله سيتحدون مع الشياطين في محاولة إبعاده عن الله بالتجارب المغرية. فعندما لا ينجح هؤلاء فحينئذ ستستخدم قوة قاهرة لإرغام الضمير.

يسوع، شفيع الإنسان

ولكن طالما كان يسوع هو شفيع الإنسان في القدس السماوي فإن تأثير الروح القدس الرادع سيحس به الحكام والناس. وهو لا يزال يسيطر على قوانين البلاد إلى حد ما. ولولا هذه القوانين لأُست حالة العالم أشر مما هي الآن. ففي حين أن كثيرين من الحكام هم آلات فعالة في يد الشيطان فإن لله أيضاً وسائله ورجاله العاملين بين قادة الأمة. والعدو يرف فوق عبيده لكي يقترحوا إجراءات من شأنها أن تعيق عمل الله كثيرا، لكن الساسة الذين يخافون الرب يؤثر عليهم الملائكة القديسون لمقاومة مثل تلك المقترحات بحجج لا تُرد. وهكذا سيوقف رجال قليلون تيار الشر الجارف عند حده. وستُردع مقاومة أعداء الحق حتى تتم رسالة الملاك الثالث عملها. ومتى قُدم الإنذار الأخير فسيستعري انتباه هؤلاء القادة الذين يعمل الرب بواسطتهم الآن وبعض منهم سيقبلونه وسيقفون إلى جانب شعب الله في أثناء وقت الضيق.

والملاك الذي سيشارك في إذاعة رسالة الملاك الثالث ستستتير كل الأرض ببهائه. وقد أنبئ هنا بعمل يشمل العالم كله بقوة غير عادية. إن حركة المجيء التي حدثت في الأعوام ١٨٤٠-١٨٤٤ كانت إظهارا مجيدا لقدرة الله، فقد حُمِلت رسالة الملاك الأول إلى كل مراكز المرسلين في العالم، وفي بعض البلدان حدث أعظم اهتمام ديني شوهد في أي بلد منذ عهد الإصلاح في القرن السادس عشر. لكن هذه الحركات ستفوقها الحركة العظيمة التي ستحدث نتيجة لإنذار الملاك الثالث الأخير. وسيكون هذا العمل شبيها بما حدث في يوم الخمسين. فكما أُعطي «المطر المبكر» ليظهر البذار الثمين وينبت بانسكاب الروح القدس عند بدء ظهور الإنجيل، فكذلك سيعطى «المطر المتأخر» في النهاية لأجل نضج الحصاد، «لَنَعْرِفَ فَلَنَتَّبِعَ لَنَعْرِفَ الرَّبَّ. خُرُوجُهُ يَقِينٌ كَالْفَجْرِ. يَأْتِي إِلَيْنَا كَالْمَطَرِ. كَمَا طَرَّ مُتَأَخِّرٌ يَسْقِي الْأَرْضَ» (هوشع ٦: ٣). «وَيَا بَنِي صِهْيُونَ، ابْتَهِجُوا وَافْرَحُوا بِالرَّبِّ إِلَهُكُمْ، لِأَنَّهُ يُعْطِيكُمْ الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ عَلَى حَقِّهِ، وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مَطَرًا مُبَكِّرًا وَمَتَأَخِّرًا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ» (يوئيل

٢: ٢٣). « يَقُولُ اللَّهُ: وَيَكُونُ فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ أَنِّي أَسْكُبُ مِنْ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ »، « وَيَكُونُ كُلُّ مَنْ يَدْعُو بِاسْمِ الرَّبِّ يَخْلُصُ » (أَعْمَال ٢: ١٧، ٢١).

لن تظهر بشارة الإنجيل العظيمة في ختامها قدرة الله على نحو أقل مما اظهرته في بدايتها. والنبوات التي تمت عند انسكاب المطر المبكر في بدء عصر الإنجيل ستنتم أيضاً في انسكاب المطر المتأخر في نهايته. هنا « أوقات الفرج » التي كان الرسول بطرس ينتظرها في مستقبل الأيام عندما قال: « فَتُوبُوا وَارْجِعُوا لِتُمَحَى خَطَايَاكُمْ، لِكَيْ تَأْتِيَ أَوْقَاتُ الْفَرَجِ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ. وَيُرْسِلَ يَسُوعُ الْمَسِيحَ » (أَعْمَال ٣: ١٩، ٢٠).

إنَّ عبيد الله بوجههم المشرقة والمتألقة بنور التكريس المقدس سيسرعون من مكان إلى مكان ليزيعوا رسالة السماء. ففي كل الأرض ستقدم الإنذار آلاف الأصوات. وستجرى عجائب فيشفى المرضى، والآيات والعجائب ستتبع المؤمنين. ثم إن الشيطان سيعمل أيضاً بآيات كاذبة حتى ينزل نارا من السماء أمام عيون الناس (رؤيا ١٣: ١٣). وهكذا سيؤتى سكان الأرض ليقفوا موقفهم. ثم إن الرسالة لا تُحمل بالحجة بقدر ما تحمل بإقناع روح الله العميق في القلب. لقد قُدمت الحجج. والقي البذار والآن هو سينبت ويحمل ثمرا. إن المنشورات التي قد وزعها الكارزون قد ظهر تأثيرها، ومع ذلك فكثيرون ممن قد تأثرت عقولهم مُنعوا من إدراك الحق كاملاً ومن تقديم الطاعة. أما الآن فهي أشعة النور تخترق كل مكان، والحق يُرى بكل وضوحه، وأولاد الله المؤمنون يفصمون الربط التي كانت تقيدهم. فصلات القرابة العائلية والكنسية تعجز الآن عن إبقائهم إذ أن الحق أثمر من كل ما عداه. وعلى رغم كل القوات المتحدة ضد الحق فإن عدداً غفيراً يتخذون موقفهم إلى جانب الرب.

٣٩ - زمان الضيق

« وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَقُومُ مِيخَائِيلُ الرَّئِيسُ الْعَظِيمُ الْقَائِمُ لِبَنِي شَعْبِكَ، وَيَكُونُ زَمَانُ ضَيْقٍ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ. وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يُنْجَى شَعْبُكَ، كُلُّ مَنْ يُوجَدُ مَكْتُوبًا فِي السِّفْرِ » (دانيال ١٢: ١).

عندما تنتهي رسالة الملاك الثالث لا تعود الرحمة تتوسل لأجل سكان الأرض الأئمة. أما شعب الله فقد انجزوا عملهم. لقد نزل عليهم « المطر المتأخر » « أوقات الفرج من وجه الرب »، وهم يُعدون لساعة التجربة المقبلة عليهم. والملائكة يسرعون في سيرهم هنا وهناك في السماء. وإن ملاكا عائدا من الأرض يعلن أن عمله قد كمل وقد جيء بالامتحان النهائي على الأرض وكل من قد برهنوا على ولائهم لوصايا الله قبلوا « ختم الله الحي ». حينئذ يكف يسوع عن شفاعته في القدس السماوي. ثم يرفع يديه وبصوت عظيم يقول: « قد تم »، وكل الأجناد السماويين يخلعون أكاليهم عندما يعلن إعلانه المقدس قائلا: « مَنْ يَظْلَمُ فَلْيَظْلَمْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ نَجِسٌ فَلْيَتَنَجَسْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ بَارٌّ فَلْيَتَبَرَّرْ بَعْدُ. وَمَنْ هُوَ مُقَدَّسٌ فَلْيَتَقَدَّسْ بَعْدُ » (رؤيا ٢٢: ١١). لقد حُكِمَ في كل قضية للحياة أو للموت. لقد صنع المسيح كفارة عن شعبه ومحا خطاياهم، وقد اكتمل عدد رعاياه. « المملكة والسلطان وعظمة المملكة تحت كل السماء » مزمنة أن تُعطى لورثة الخلاص وسيملك يسوع كملك الملوك ورب الأرباب.

وعندما يترك القدس يكتنف الظلام ساكني الأرض. وفي ذلك الوقت المخيف ينبغي للأبرار أن يعيشوا أمام إله قدوس من دون شفيع. ويُرفع الرادع الذي كان موضوعاً على الأشرار ويكون للشيطان السيادة الكاملة على الذين اختاروا أخيراً عدم الطاعة. لقد انتهت إمهال الله. ورفض العالم رحمته وازدري بحبه وداس على شريعته، وتخطى الأشرار حد امتحانهم. ولكونهم قاوموا روح الله بكل إصرار فقد انسحب من بينهم أخيراً. وإذ يكونون محرومين من حماية النعمة الإلهية فلن يكون هنالك ما يقيهم شر غارات الشرير. وحينئذ يوقع الشيطان كل سكان الأرض في ضيقة نهائية عظيمة. وإذ يكف ملائكة الله عن صد رياح شهوات الناس العنيفة وغضبهم الشديد فكل عناصر الخصومة والنزاع ستنتلق. وسيكتنف العالم كله خراب اشد هولاً من ذاك الذي حل بأورشليم في القديم.

إن ملاكاً واحداً أهلك كل أبكار المصريين وملاً البلاد بالنوح والعويل. وعندما أسخط داود الله لما أحصى الشعب فإن ملاكاً واحداً أحدث ذلك الهلاك الرهيب الذي به عوقبت خطيئته. والقوة المدمرة نفسها التي سيستخدمها الملائكة القديسون عندما يأمر الله سيستخدمها الملائكة الأشرار عندما يسمح الرب بذلك. توجد الآن قوى على تمام الأهبة، إنما هي تنتظر فقط الإذن من الله لتنشر الدمار في كل مكان.

إن الذين يكرمون شريعة الله قد اتهموا بإيقاع الدينونة على العالم، وسيُعتبرون مسببي الاهتزازات والانتفاضات الهائلة التي تحدث في الطبيعة والخصومات وسفك الدماء بين الناس التي قد ملأت الأرض بالويل والشقاء. والسلطان المصاحب لآخر إنذار قد أهاج الأشرار. وأشعل غضبهم ضد كل من قد قبلوا الرسالة، والشيطان سيثير روح الكراهية والاضطهاد إلى حدود أشد بعدا.

انسحاب حضور الله

عندما انسحب حضور الله من الأمة اليهودية تاركا إياها أخيرا فالكهنة والشعب لم يعرفوا ذلك. ومع أنهم كانوا تحت سلطان الشيطان وقد تحكمت فيهم أُرهب الأهواء وأخبثها فقد ظلوا يعتبرون أنفسهم مختاري الله. وظلت الخدمة في الهيكل كما كانت. وكانت الذبائح تقدم على مذابحهم المنجسة، وكان الكهنة كل يوم يبتهلون في طلب البركة على شعب مجرم أراق دم ابن الله الحبيب. وكان الشعب يطلب قتل خدامه ورسله. وهكذا عندما يُنطق بحكم القدس الذي لا يُرد ويتقرر مصير العالم إلى الأبد فسكان الأرض لن يعرفوا ذلك. وطقوس الديانة سيظل يمارسها ذلك الشعب الذي قد انسحب من بينه روح الله نهائيا، والغيرة الشيطانية التي سيضررها في قلوبهم سلطان الشر لإتمام أغراضه الخبيثة ستتخذ مظهر الغيرة لله.

وبما أن السبب قد صار هو نقطة النزاع في كل العالم المسيحي، وقد اتحدت السلطات الدينية والديوية معا على إرغام الناس على حفظ يوم الأحد، فإن الرفض الثابت الذي تبديه أقلية صغيرة للخضوع للأمر العام سيجعلهم عرضة وهدفا للعنات الجميع وشتائمهم. وسيلج الناس على عدم التساهل مع تلك الفئة القليلة التي تقف ضد تشريع الكنيسة وقانون الدولة، وإنه خير لهم أن يتألموا من أن تنساق أمم كاملة إلى الارتباك والعصيان. إن هذه الحجة نفسها قدمها رؤساء الشعب منذ ١٨٠٠ سنة حين قال قيافا الماكر: « خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلَا تَهْلِكَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا! » (يوحنا ١١: ٥٠). وهي ستبدو قاطعة فيصدر أخيرا منشور ضد الذين يقَدسون سبب الوصية الرابعة يتهمهم بأنهم يستحقون أقصى عقوبة، وبعد وقت تعطى للشعب الحرية لقتلهم. إن الكاثوليكية في العالم القديم والبروتستانتية المرتدة في العالم الجديد ستتخذان إجراء مماثلا حيال مَنْ يحفظون كل وصايا الله.

وستكتنف شعب الله حينئذ مشاهد البلايا والضيقات تلك التي يصفها النبي بأنها وقت ضيق يعقوب. فيقول إرميا: « هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: صَوْتُ ارْتِعَادٍ سَمِعْنَا. خَوْفٌ وَلَا سَلَامٌ... تَحَوَّلَ كُلُّ وَجْهِ إِلَى صُفْرَةٍ؟ آه! لَأَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَظِيمٌ وَلَيْسَ مِثْلُهُ. وَهُوَ وَقْتُ ضَيْقٍ عَلَى يَعْقُوبَ، وَلَكِنَّهُ سَيَخْلَصُ مِنْهُ » (إرميا ٣٠: ٥-٧).

يعقوب يرتعد من الخوف

إن الليلة التي قضاها يعقوب في الكرب والعذاب عندما صار في الصلاة في طلب الخلاص من يد عيسو (تكوين ٣٢: ٢٤-٣٠). إنما ترمز إلى اختبار شعب الله في وقت الضيق. فبسبب خداعه الذي لجأ إليه ليظفر ببركة أبيه التي كان المقصود بها عيسو، هرب يعقوب طالبا النجاة إذ كان خائفا من تهديدات أخيه له بالموت. وبعدما بقي متغربا سنين كثيرة خرج امتثالا لأمر الله ليعود بزوجاته وأولاده وقطعانه ومواشيه إلى أرض ميلاده. وعندما وصل إلى تخوم البلاد امتلأ قلبه رعبا وهلعا عندما بلغته انباء قدوم عيسو إليه على رأس فرقة من المحاربين، وكان بلا شك قادما ليثأر لنفسه. وأما الجماعة التي كان يعقوب على رأسها فلم تكن مسلحة ولا تملك وسائل دفاع، فبدا أعضاؤها كأنهم

موشكون أن يسقطوا غنيمة عاجزة للقسوة والقتل. وقد أضيف إلى حمل الجزع والخوف حمل آخر ساحق هو لوم يعقوب نفسه لأن خطيئته هي التي أوقعته في هذا الخطر. فكان رجاؤه الوحيد في رحمة الله، وينبغي أن تكون الصلاة ملاذه الوحيد. ومع ذلك فمن جانبه كان لا يهمل عمل شيء من شأنه أن يكفر عن ظلمه لأخيه لكي يُحوّل بعيدا عنه الخطر الذي يتهدده. وهكذا يجب على أتباع المسيح عندما يقتربون من وقت الضيق أن يبذلوا كل ما في وسعهم حتى يضعوا أنفسهم في نور لائق أمام الشعب لكي يجردوا التعصب من سلاحه ويبعدوا عن أنفسهم الخطر الذي يتهدد حرية الضمير.

وحده مع الله

فبعدما أجاز يعقوب عائلته بعيدا حتى لا يشهدوا كربه بقي وحده ليتشفع أمام الله. إنه يعترف بخطيئته، وبكل شكر يعترف برحمة الله نحوه، بينما هو بكل تذلل يطالب بعهد الله مع آبائه ووعوده له هو بالذات في ليلة الرؤيا التي رآها في بيت إيل وفي أرض غربته. وقد حلت ساعة الأزمة في حياته. فكل شيء معرض للخطر. ففي الظلمة والوحدة يظل مصليا متذلا أمام الله. وفجأة توضع يد على كتفه. فيظن أن عدوا ينوي اغتياله وبكل قوته اليائسة يصارع مهاجمه. وعندما يطلع الفجر يستخدم ذلك الغريب قوته التي تفوق قوة البشر. ويبدو أن قبضته شلت قوى الرجل القوي يعقوب الذي يسقط عاجزا باكيا متوسلا على عنق خصمه الغامض ويعرف حينئذ أن ذاك الذي كان في صراع معه إنما هو ملاك العهد. ومع أنه كان عاجزا ويحس بأقصى الآلام فإنه لا يتراجع ولا يتنحى عن غرضه. وقد طال تحمله للحيرة والندامة والضيق لأجل خطيئته، أما الآن فلا بد له من الحصول على يقين الغفران. ويبدو على الزائر الإلهي إنه موشك أن يرحل لكن يعقوب يتعلق به متوسلا في طلب البركة. قال له ملاك العهد: « أطلقني لأنه قد طلع الفجر » لكن ذلك الشيخ يصرخ قائلا: « لا أطلقك إن لم تباركني » أي ثقة هذه وأي ثبات ومواظبة نراها متمثلة أمامنا! فلو كان هذا ادعاء وقحا فخورا لكان يعقوب قد هلك في الحال، لكن يقينه كان يقين إنسان يعترف بضعفه وعدم استحقاقه ومع ذلك يثق برحمة الله، حافظ العهد.

« جَاهِدَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ وَعَلَبَ » (هوشع ١٢: ٤). فبواسطة التذلل والتوبة وتسليم الذات انتصر هذا الإنسان الفاني المذنب الخاطيء في جهاده مع جلال السماء. بيده المرتعشة تمسك بمواعيد الله فلم يستطع قلب المحبة غير المحدودة أن يصد توسل هذا الإنسان الخاطيء. وكبرهان على انتصاره وتشجيعا للآخرين على التمثل به تغير اسمه الذي كان يذكر بخطيئته واستبدل باسم صار تذكارا لانتصاره. وحقيقة كون يعقوب قد انتصر في جهاده مع الله كان ضمانا لانتصاره مع الناس فما عاد يخشى مواجهة غضب أخيه لأن الرب كان حصنه.

لقد اشتكى الشيطان على يعقوب أمام ملائكة الله مدعيا لنفسه الحق في إهلاكه بسبب خطيئته. وقد حرّض عيسو على التقدم لمحاربته، وفي أثناء تلك الليلة التي قضاها ذلك الرجل الشيخ في المصارعة والمجاهدة حاول الشيطان أن يهاجمه بالشعور بذنبه لكي يجعله يخور ويفلت يده من التشبث بالله. وكاد يعقوب يسقط في اليأس ولكنه علم أنه إن لم يحصل على معونة سماوية فهو لا

محالة هالك. لقد اعترف بخطيئته العظيمة بكل إخلاص وتوسل في طلب رحمة الله. ولم يرد أن يتحول عن غرضه بل تمسك بالملاك بكل قوته وقدم طلبته بصرخات الألم الحارة والعذاب النفسي إلى أن غلب.

الشيطان عدو شعب الله

وكما أوعز الشيطان إلى عيسو أن يخرج لمحاربة يعقوب كذلك سيثير الأشرار لإهلاك شعب الله في زمان الضيق. وكما اشتكى على يعقوب سيقدم اتهاماته ضد شعب الله. انه يعتبر سكان العالم رعايا له، لكن الشريعة القليلة التي تحفظ وصايا الله يقاومون سلطانه. فلو أمكنه أن يمحوهم من على وجه الأرض لكان انتصاره كاملاً. ولكنه يرى أن الملائكة القديسين يحرسونهم ويستنتج من ذلك أن خطاياهم قد غفرت ولكنه لا يعلم أن قضاياهم قد بُتَّ فيها في القدس السماوي. إن لديه معرفة دقيقة بالخطايا التي قد جربهم ليرتكبوها فيستعرض هذه الخطايا أمام الله في نور مبالغ فيه جداً، وهو يصور هذا الشعب على أنه يستحق الطرد بعيداً عن رضى الله مثله هو تماماً، ويعلن أن الله لا يكون عادلاً إذا غفر خطاياهم وفي الوقت نفسه يهلكه هو وملائكته. وهو يدعي أنهم فريسته ويطلب تسليمهم اليه ليهلكهم.

وكما يتهم الشيطان شعب الله بسبب خطاياهم فالرب يسمح له بأن يجربهم إلى أقصى الحدود. وستُمتحن ثقتهم بالله وإيمانهم وثباتهم بكل دقة. وإذ يراجعون الماضي تضعف آمالهم لأنهم مدى حياتهم لا يرون إلا قليلاً من الخير. ويشعرون شعوراً كاملاً بضعفهم وعدم استحقاقهم. والشيطان يحاول أن يربطهم بالفكر أن قضيتهم ميؤوس منها وأن لوثات نجاستهم لا يمكن أن تمحى. وهكذا يحاول أن يلاشي إيمانهم حتى يخضعوا لتجاربه وينفضوا أيديهم من الولاء لله.

ومع أن شعب الله سيكونون محاطين بأعداء قد عقدوا العزم على إهلاكهم فإن العذاب الذي يتألمون منه ليس هو الخوف من اضطهادهم لأجل الحق بل الخشية من أن لا يكونوا قد اعترفوا بكل خطيئة اقترفوها والإخفاق بسبب خطأ فيهم في التأكد من وعد المخلص القائل: « سَأَحْفَظُكَ مِنْ سَاعَةِ التَّجَرُّبَةِ الْعَتِيدَةِ أَنْ تَأْتِيَ عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ لِتُجَرَّبَ السَّاكِنِينَ عَلَى الْأَرْضِ » (رؤيا ٣: ١٠). فلو أمكنهم الحصول على يقين الغفران لما انكمشوا أمام العذاب أو الموت، أما اذا برهنوا على عدم استحقاقهم وخسروا حياتهم بسبب نقص أخلاقهم فاسم الله القدوس سيلحقه العار بسببهم.

إنهم من كل جانب يسمعون بمؤامرات الخيانة ويرون أعمال العصيان الناشطة، وفي أعماق نفوسهم توجد رغبة حارة وشوق قلبي شديد إلى انتهاء الارتداد العظيم ووضع حد لشراً الأشرار. ولكن فيما هم يجاهدون مع الله حتى يوقف عمل العصيان فإنهم يحسون إحساساً جارحاً إذ يلومون أنفسهم لأنه لا قوة عندهم تكفي للمقاومة وصد تيار الشر القوي. وهم يحسون أنهم لو استخدموا كل قواهم في خدمة المسيح وتقدموا من قوة إلى قوة لكانت كل قوات الشيطان تمشي أضعف من أن تنتصر عليهم.

إنهم يذللون أنفسهم أمام الله ويشيرون إلى توبتهم الماضية عن خطاياهم الكثيرة، متوسلين إلى

المخلص أن يتم لهم هذا الوعد: « يَتَمَسَّكَ بِحَصْنِي فَيَصْنَعُ صُلْحًا مَعِي. صُلْحًا يَصْنَعُ مَعِي » (إشعياء ٢٧: ٥). إن إيمانهم لا يضعف لأنهم لم يَتَلَقُوا إجابة سريعة لصلواتهم. ومع أن ذلك التَّأخِير يوقعهم تحت طائلة الجزع الشديد والرعب والضييق فإنهم لا يكفون عن تقديم توسلاتهم. إنهم يتمسكون بقوة الله كما قد تمسك يعقوب بالملاك، ولسان حال نفوسهم هو هذا: « لَا أَطْلُقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي ».

محو الخطايا

ولو لم يكن يعقوب قد سبق فتاب عن خطيئته في الحصول على البكورية بالمخاتلة لما سمع الله صلاته وبرحمته صان حياته. وكذلك في وقت الضيق لو كانت قد بقيت عليهم خطايا لم يعترفوا بها وهم معذبون بالخوف والآلام لكانوا ينجون ويرتبون، ولكن اليأس يقضي على إيمانهم ولما بقيت عندهم ثقة بها يتقدمون إلى الله في طلب النجاة. ولكن في حين أنهم يشعرون شعورا عميقا بعدم استحقاقهم فلا تبقى في قلوبهم خطايا مستترة ليكشفوا عنها. لقد دينت خطاياهم من قبل ومُحِيت، ولا يمكن أن تذكر بعد.

يجعل الشيطان كثيرين يعتقدون أن الله سيتغاضى عن عدم أمانتهم في شؤون الحياة الصغرى، لكنَّ الرب يبرهن في معاملته ليعقوب أنه لا يمكن أن يقر الشر أو يتسامح معه. وكل من يحاولون الاعتذار عن خطاياهم أو إخفاءها ويتركونها مسجلة في أسفار السماء من دون أن يعترفوا بها أو تغفر سينهزمون أمام الشيطان. وكلما كان ادعاؤهم معظما ومركزهم محترما كان تصرفهم مغيفا ومكدرا لله وكان انتصار العدو العظيم موكدا. والذين يؤخرون الاستعداد ليوم الله لا يمكنهم الاستعداد في زمان الضيق أو أي زمن يأتي بعده. إن حالة أمثال هؤلاء هي حالة ميؤوس منها.

إنَّ المعترفين بالمسيحية الذين يتقدمون إلى ذلك الصراع الهائل وهم غير مستعدين ففي يأسهم سيعترفون بخطاياهم بكلمات مؤلمة ملتبهة في حين يبتهج الأشرار بالضيق الذي يحل بهم. هذه الاعترافات شبيهة باعتراف عيسو أو يهوذا. فالذين يقدمونها يندبون ليس جرم الخطيئة بل قصاصها. فهم لا يشعرون بانسحاق حقيقي أو كراهة للشر. إنهم يعترفون بخطيئتهم خوفاً من القصاص، ولكن عندما يكف العقاب يعودون إلى تحديهم للسماء كما كانت الحال مع فرعون قديما.

ثم إن تاريخ يعقوب هو أيضاً ضمان لحقيقة كون الله لن يطرح بعيدا أولئك الذين قد غرر بهم وجربوا وسقطوا في الخطيئة ولكنهم رجعوا إليه بتوبة صادقة. ففي حين أن الشيطان يحاول إهلاك هذه الفئة من الناس فالله سيرسل ملائكته لتعزيبتهم وحراستهم في وقت الخطر. إن الشيطان يقوم بهجمات بكل عنف وإصرار. وضلالته مرعبة، ولكن عين الرب هي على شعبه وأذنه تصغي إلى صرخاتهم. ضيقهم عظيم ويبدو كأن لهب الأتون موشكة أن تلتهمهم، ولكنَّ المحصن سيخرجهم كالذهب المصفى بالنار. ولن تتغير محبة الله لأولاده عندما يجوزون في أقسى التجارب بل تظل كما كانت في وقتها ورقتها أيام الصفاء والنجاح. ولكن ينبغي أن يوضعوا في أتون النار حتى يحترق تعلقهم بما هو أرضي ويمكنهم أن يعكسوا صورة المسيح في كمال بهائها.

الإيمان الثابت

يتطلب وقت الضيق والألم اللذين ينتظراننا إيماناً يتحمل الكلل والتأخير والجوع، ولا يهن ويضعف حتى ولو جُرّب بكل شدة وصرامة. وتمنح فترة الاختبار للجميع ليتأهبوا لذلك الوقت. لقد غلب يعقوب بسبب مواظبته وتصميمه. ونصرته برهان على اقتدار الصلاة التي تقدّم بلجاجة. وكل من يريدون التمسك بمواعيد الله كما قد فعل هو ويكونون حارين وجادين ومداومين على الصلاة مثله سينجحون كما قد نجح. أما الذين لا يرغبون في إنكار الذات أو المكافحة والمجاهدة أمام الله، أو الصلاة وقتاً طويلاً وبكل غيرة وحرارة في طلب بركته، فلن ينالوها. المجاهدة مع الله — ما أقل من يعرفون ما هي! ما أقل الذين قد انجذبت نفوسهم نحو الله في شدة لهفتهم حتى وصلت كل قواهم إلى أقصى حدودها. عندما تكتسح المصلي أمواج اليأس الذي لا يمكن التعبير عنه فما أقل من يتعلقون بمواعيد الله بإيمان لا يكل ولا يسلم.

إن الذين يمارسون إيماناً قليلاً الآن هم في أعظم خطر من السقوط تحت سلطان خدع الشيطان والأمر بإرغام الضمير. وحتى لو صمدوا للامتحان فسيغمرهم كَرْبٌ وألمٌ عظيمان في زمان الضيق لأنهم لم يتعودوا الاتكال على الرب. ودروس الإيمان التي أهملوها سيضطرون إلى تعلمها تحت الضغط المخيف الناتج من خور العزيمة والخوف.

علينا الآن أن نتعرّف بالله ونكتشف مواعيده. إن الملائكة يسجلون كل صلاة حارة مخلصة. وحرى بنا أن نستغني عن المسرات الأنانية من أن نهمل الشركة مع الله. فأعظم فقر وأعظم إنكار للذات مع رضى الله واستحسانه أفضل من الغنى والكرامة والراحة والصدقة من دون رضاه. علينا أن نقضي وقتاً في الصلاة. إننا إذا كنا نسمح لعقولنا بأن تنشغل في المسرات العالمية والمصالح الدنيوية فقد يعطينا الرب وقتاً لينزع من قلوبنا أصنام الذهب أو البيوت أو الأراضي الخصبة.

قد لا يُغوى الشباب على ارتكاب الخطيئة إذا كانوا يرفضون السير في طريق غير ذلك الذي يمكنهم فيه أن يسألوا بركة الله. إذا كان الرسل الذين يحملون الإنذار الأخير الخطير إلى العالم يصلّون طلباً لبركة الله ليس بطريقة باردة فاترة متكاسلة، بل بحرارة وإيمان كما قد فعل يعقوب فسيجدون أماكن كثيرة فيها يمكنهم أن يقولوا: « نَظَرْتُ اللَّهَ وَجْهًا لَوَجْهٍ، وَنُجِّيتُ نَفْسِي » (تكوين ٣٢: ٣٠). وسيُعتبرون في نظر السماء كأمرأء إذ جاهدوا مع الله والناس وقدرُوا.

« زمان الضيق الذي لم يكن مثله » قادم علينا سريعاً وسنحتاج إلى اختبار لا نملكه الآن ويتكاسل كثيرون في الحصول عليه. والواقع في غالب الأحيان هو أن توقع حدوث الضيق أعظم منه في حقيقته، ولكن هذا لا يصدق على الأزمنة التي أماننا. فأجلى عرض لا يمكنه تصوير جسامة التجربة كما يجب. ففي وقت التجربة تلك، على كل إنسان أن يمثل بنفسه أمام الله. « وَفِي وَسْطِهَا نُوحٌ وَدَانِيَالُ وَأَيُّوبُ، فَحَيَّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنَّهُمْ لَا يُخَلِّصُونَ ابْنًا وَلَا ابْنَةً. إِنَّمَا يُخَلِّصُونَ أَنْفُسَهُمْ بِرَّهِمْ » (حزقيال ١٤: ٢٠).

كاملون في المسيح

فالآن حين يقدم رئيس كهنتنا العظيم الكفارة عنا ينبغي إن نجتهد لنكون كاملين في المسيح. إن مخلصنا لم يسلم لقوة التجربة ولو بمجرد الفكر. والشيطان يجد في قلوب الناس بعض نقاط الضعف التي يمكنه أن يجد فيها موضعاً لقدمه، إذ يحتضن الإنسان شهوة خاطئة يستطيع بواسطتها أن يزيد من قوة تجاربه. لكن المسيح أعلن قائلاً عن نفسه: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء» (يوحنا ١٤: ٣٠). فلم يستطع الشيطان أن يجد في ابن الله شيئاً يجعله قادراً على إحراز النصر. لقد حفظ وصايا أبيه ولم توجد فيه خطيئة يمكن للشيطان استخدامها لصالحه. هذه هي الحالة التي ينبغي أن يكون عليها الذين سيثبتون في زمان الضيق.

علينا ونحن في هذه الحياة أن نبعد عنا الخطيئة، وذلك من خلال الإيمان بدم المسيح المكفر. إن مخلصنا العزيز يدعونا لأن نتحد به فيرتبط ضعفنا بقدرته وجهلنا بحكمته وعدم استحقاقنا باستحقاقاته. وعناية الله هي المدرسة التي علينا أن نتعلم فيها وداعة يسوع وتواضعه. والرب يضع نصب عيوننا دائماً ليس الطريق الذي نختاره، الطريق السهل علينا والمسرع لنا، بل أهداف الحياة الحقيقية. إن الأمر بين أيدينا في أن نتعاون مع القوات التي تستخدمها السماء في عملية جعل أخلاقنا على مثال النموذج الإلهي. وكل الذين يهملون هذا العمل أو يؤخرونه يجلبون على أنفسهم أروهاب المخاطر.

لقد سمع يوحنا الرسول في رؤياه صوتاً عظيماً في السماء يقول: «وَيْلٌ لِّسَاكِنِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ، لِأَنَّ إِبْلِيسَ نَزَلَ إِلَيْكُمْ وَبِهِ غَضَبٌ عَظِيمٌ! عَالِماً أَنَّ لَهُ زَمَانًا قَلِيلاً» (رؤيا ١٢: ١٢). إن المشاهد التي استوجبت صدور هذه الصرخة من الصوت السماوي هي مشاهد مخيفة، فغضب الشيطان يزيد بنسبة قصر مدته، وسيصل عمله الخداع المهلك إلى أقصى حدوده في زمان الضيق.

وستظهر في السماوات مناظر مخيفة فائقة الطبيعة كعلامة وبرهان على قوة الشياطين الصانعة الآيات. وستخرج أرواح الشياطين إلى ملوك الأرض وإلى العالم كله لتثبتهم في الخداع وتشدد عليهم في الاتحاد مع الشيطان في معركته الأخيرة ضد حكم السماء. وبواسطة هذه القوات سيغوى الحكام ورعاياهم على السواء. وسيقوم أشخاص يدعون أنهم المسيح نفسه وينتحلون الحق في الألقاب والعبادة التي هي من حق فادي العالم وحده. وسيصنعون معجزات شفاء عجيبة، وسيدعون أنهم تلقوا إعلانات من السماء مناقضة لشهادة الكتاب.

أعظم حادث

وآخر فصل من فصول رواية الخداع هو أن الشيطان نفسه سيظهر في شكل المسيح. لقد اعترفت الكنيسة طويلاً بأنها تنتظر مجيء المخلص كنهاية آمالها. فالآن سيجعل المخادع العظيم الأمر يبدو كما لو أن المسيح قد جاء. ففي جهات مختلفة من العالم سيظهر الشيطان نفسه بين الناس ككائن مهيب ينبعث منه نور يبهز الأبصار يشبه الوصف الذي أورده يوحنا في سفر الرؤيا عن ابن الله (رؤيا ١٣: ١٥). والمجد الذي يحيط بالشيطان لن يفوقه مجد مما قد رآته عين بشر. وسيدوي في الهواء

هتاف الانتصار قائلاً: « قد أتى المسيح! قد أتى المسيح! » والناس سينطرحون ساجدين أمامه في حين يرفع هو يديه مباركا إياهم كما قد بارك المسيح تلاميذه حين كان على الأرض. صوته رقيق ومنخفض ومع ذلك فهو مليء بالألحان. وبنغمات رقيقة شفوقة يقدم بعضاً من الحقائق الجميلة السماوية نفسها التي نطق بها المخلص، فهو يشفي أمراض الناس، وبما أنه قد اتخذ صفة المسيح وهيبته يدعي أنه قد أبدل السبت بالأحد ويأمر الجميع بتقديس اليوم الذي باركه. ثم يعلن أن كل من يصرون على تقديس اليوم السابع يجدفون على اسمه برفضهم الإصغاء إلى ملائكته الذين أرسلهم إليهم بالنور والحق. هذا هو الخداع القوي الذي يكاد يكون مسيطراً. وكأهل السامرة الذين قد خدعهم سيمون الساحر فجماهير الناس من الأدنياء إلى العظماء يلتفتون إلى أعمال السحر هذه قائلين هذا هو « قوة الله العظيمة » (أعمال ٨: ١٠).

لكن شعب الله لن يمكن تضليلهم. إن تعاليم هذا المسيح الكذاب ليست متوافقة مع تعاليم الكتاب. إن البركة يُنطق بها على عابدي الوحش وصورته وهم الجماعة نفسها الذين يعلن الكتاب أن غضب الله سينصب صرفاً عليهم.

وأكثر من هذا فإن الشيطان لا يُسمح له بتزييف كيفية مجيء المسيح. لقد حذر المخلص شعبه من الضلال في هذا الأمر وبكل وضوح أنبأهم بكيفية مجيئه الثاني إذ يقول: « لَأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَّاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ، حَتَّى يُضِلُّوا لَوْ أَمَكَنَّ الْمُخْتَارِينَ أَيْضاً ... فَإِنْ قَالُوا لَكُمْ: هَا هُوَ فِي الْبَرِّيَّةِ! فَلَا تَخْرُجُوا. هَا هُوَ فِي الْمَخَارِعِ! فَلَا تُصَدِّقُوا. لَأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْبَرَقَ يَخْرُجُ مِنَ الْمَشَارِقِ وَيَطْهَرُ إِلَى الْمَغَارِبِ، هَكَذَا يَكُونُ أَيْضاً مَجِيءُ ابْنِ الْإِنْسَانِ » (متى ٢٤: ٢٤-٢٧، ٣١، ٣٥: ٣١؛ رؤيا ١: ٧؛ ١٧: ١٦، ١٧). هذا المجيء لا يمكن تزييفه. فسيعرفه الجميع وسيراه العالم كله.

الحماية من الضلالة

وحدهم الذين درسوا بجدّ الكتاب المقدّس وقبلوا محبة الحق هم الذين سيحصلون على الحماية من الضلالة القوية التي ستأسر العالم كله. فبواسطة شهادة الكتاب سيكتشف هؤلاء الناس المخادع في تنكره. وستجيء على الجميع أزمّة امتحان صعبة. فإذ تغربلهم التجربة سيُعرف المسيحي الحقيقي. فهل شعب الله مبنيون بكل ثبات على كلمته بحيث لا يخضعون ولا يسلمون لبرهان حواسهم؟ وهل في مثل هذه الحالة المتأزمة يتمسكون بالكتاب ولا شيء سواه؟ إن الشيطان سيحاول لو أمكنه أن يحول بينهم وبين الحصول على استعداد للثبات في ذلك اليوم. وسيرتب الأمور بحيث يطوّق طريقهم ويُرَبِّكهم بكنوز الأرض ويجعلهم يحملون عبئاً ثقيلاً متعباً حتى تثقل قلوبهم بهموم هذه الحياة ويُقدّم عليهم ذلك اليوم كلص.

وإذ يصدر الأمر مختلف حكام العالم المسيحي ضد حافظي الوصية بحرمانهم من حماية الحكومة وتركهم تحت رحمة الذين يقصدون إهلاكهم، فإن شعب الله سيهربون من المدن والقرى ويجمعون معا في جماعات ويسكنون في الأماكن الموحشة المنعزلة. وكثيرون سيجدون لهم ملجأ في حصون الجبال. وكالمسيحيين الذين كانوا يعيشون في أودية بيدمونت سيجعل هؤلاء أيضاً من مرتفعات

الأرض أماكن مقدسة لهم وسيشكرون الله على « حصون الصخور » (إشعياء ٣٣: ١٦). لكن كثيرين من كل الأمم ومن كل الطبقات، العظماء والأدنياء والأغنياء والفقراء والسود والبيض، سيقعون في أشد عبودية قاسية ظالمة. وسيقضي أحياء الله أياما مضنية مكبلين بالقيود محبوسين في السجون ومحكوما عليهم بالقتل، والبعض منهم سيتركون على ما يبدو ليموتوا جوعا في سجون مظلمة كريهة. لا أذن بشرية تصغي إلى آنيهم ولا يد بشرية تمتد بالعون لهم.

هل ينسى الرب شعبه؟

فهل ينسى الرب شعبه في ساعة المحنة القاسية هذه؟ وهل نشي نوحا الأمين عندما افتقد بالدينونة العالم قبل الطوفان؟ هل نشي لوطا عندما نزلت النار من السماء لتحرق مدن السهل؟ وهل نشي يوسف وهو محاط بالوثنيين في مصر؟ وهل نشي إيليا عندما هددته إيزابل بقسم أن يكون مصيره كمصير أنبياء البعل؟ وهل نشي إرميا عندما ألقى في الجب المظلم الموحش في بيت سجنه؟ وهل نشي الفتية الثلاثة في أتون النار؟ أو دانيال في جب الأسود؟

« وَقَالَتْ صَهِيُونُ: « قَدْ تَرَكَنِي الرَّبُّ، وَسَيِّدِي نَسِينِي ». « هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةُ رَضِيعَهَا فَلَا تَرْحَمَ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هَؤُلَاءِ يَنْسِينَ، وَأَنَا لَا أَنْسَاكَ. هُوَذَا عَلَى كَفِّي نَقَشْتُكَ » (إشعياء ٤٩: ١٤-١٦). لقد قال رب الجنود: « مَنْ يَمَسُّكُمْ يَمَسُّ حِدَقَةَ عَيْنِهِ » (زكريا ٢: ٨).

ومع أن الأعداء قد يطرحونهم في السجن فإن أسوار السجن لا يمكنها أن تقطع صلة أرواحهم بالمسيح. إن ذاك الذي يرى كل ضعف فيهم والعليم بكل تجاربهم هو فوق كل سلاطين الأرض. والملائكة سيوزرونهم في غرف سجنهم الموحشة مقدمين إليهم نورا وسلاما من السماء. وسيكون السجن كالقصر لأن الأغنياء في الإيمان حاليون فيه، وجدران السجن المظلمة سينيرها نور سماوي كما حدث عندما كان بولس وسيلا يصليان ويسبحان الله في نصف الليل في سجن فيلبّي.

ضربات الله

وستقع ضربات الله على الذين يحاولون مضايقة شعبه وإهلاكهم. إن صبره الطويل الأمد على الأشرار يجري الناس على الإمعان في العصيان، ومع ذلك فإن قصاصهم أكيد ومرعب لأنه تأجل وقتا طويلا « لَأَنَّهُ كَمَا فِي جَبَلِ فَرَاصِيمَ يَقُومُ الرَّبُّ، وَكَمَا فِي الْوُطَاءِ عِنْدَ جَبْعُونَ يَسْخَطُ لِيَفْعَلَ فَعْلَهُ، فَعْلَهُ الْغَرِيبَ، وَلِيَعْمَلَ عَمَلَهُ، عَمَلَهُ الْغَرِيبَ » (إشعياء ٢٨: ٢١). إنَّ عَمَلَ الْقَصَاصِ هُوَ فِي نَظَرِ إِلَهِنَا الرَّحِيمِ عَمَلٌ غَرِيبٌ. « حَيُّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لَا أُسَرُّ بِمَوْتِ الشَّرِيرِ » (حزقيال ٣٣: ١١).

الرب « إِلَهٌ رَحِيمٌ وَرَوْوْفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الْإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ... غَافِرُ الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيئَةِ »، ومع ذلك فهو « لَنْ يَبْرَأَ إِبْرَاءً »، « الرَّبُّ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَعَظِيمُ الْقُدْرَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَبْرَأُ الْبَتَّةَ » (خروج ٣٤: ٦، ٧؛ ناحوم ١: ٣). وسيزكي الرب سلطان شريعته المدوسة بالأقدام برهبته وبره. فصرامة القصاص الذي ينتظر العصاة يمكن الحكم عليه من نفور الله في تنفيذ العدل. إن الأمة التي يصبر عليها طويلا والتي لن يضربها حتى تملأ مكياها إثمها في تقدير الله ستشرب أخيرا كأس الغضب غير الممزوج بالرحمة.

وعندما يكف المسيح عن الشفاعة في القدس ينسكب الغضب الصرف المهدد به أولئك الذين يسجدون للوحش ولصورته ويقبلون سمته (رؤيا ١٤: ٩، ١٠). فالضربات التي وقعت على مصر عندما كان الله مزمعا أن يخلص العبرانيين كانت شبيهة في نوعها بتلك الضربات الأشد هولا وشمولا التي ستصيب على العالم قبيل النجاة الأخيرة لشعب الله. يقول الرائي وهو يصف تلك الضربات المخيفة: "فَحَدَّثْتُ دَمَامُلُ خَبِيثَةً وَرَدِيَّةً عَلَى النَّاسِ الَّذِينَ بِهِمْ سَمَةُ الْوَحْشِ وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَصُورَتِهِ «وَالْبَحْرُ» صَارَ كَدَمٍ مَيِّتٍ. وَكُلُّ نَفْسٍ حَيَّةٍ مَاتَتْ فِي الْبَحْرِ». و «الأنهار ... يَتَابِعُ الْمِيَاهُ، فَصَارَتْ دَمًا»، ومع أن هذه العقوبات رهيبة فإن قضاء الله وعدله سيبقى مذكى بالتمام. إن ملاك الله يعلن قائلا: «عَادِلٌ أَنْتَ أَيُّهَا الْكَائِنُ... لَأَنَّكَ حَكَمْتَ هَكَذَا. لَأَنَّهُمْ سَفَكُوا دَمَ قَدِيسِينَ وَأَنْبِيَاءَ، فَأَعْطَيْتَهُمْ دَمًا لِيَشْرَبُوا. لَأَنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ!» (رؤيا ١٦: ٥-٦). فإذ حكموا بالموت على شعب الله فقد جلبوا دم أولئك الأبرار على أنفسهم كما لو كانوا قد سفكوه بأيديهم. وبمثل هذه الطريقة أعلن يسوع لليهود في عهده بأنهم مجرمون سفكوا دم كل القديسين منذ أيام هابيل لأن روح الأجرام نفسها كانت فيهم وكانوا يحاولون أن يعملوا ما عمله قتلة الأنبياء أنفسهم.

ضربة النار

وفي الضربة التالية أعطي للشمس السلطان «أَنْ تُحْرِقَ النَّاسَ بِنَارٍ، فَاحْتَرَقَ النَّاسُ احْتِرَاقًا عَظِيمًا» (رؤيا ١٦: ٨، ٩). وهذا ما يصف به الأنبياء حالة الأرض في هذا الوقت المخيف: "نَاحَتْ الْأَرْضُ... لِأَنَّهُ قَدْ تَلَفَ حَصِيدُ... كُلُّ أَشْجَارِ الْحَقْلِ يَبْسُتُ. إِنَّهُ قَدْ يَبْسَتْ الْبَهْجَةُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ». «عَقَنْتِ الْحُبُوبُ تَحْتَ مَدْرَهَا. خَلَّتِ الْأَهْرَاءُ... كَمْ تَتَنُّ الْبَهَائِمُ! هَامَتْ قُطْعَانُ الْبَقَرِ لِأَن لَيْسَ لَهَا مَرْعَى... جَدَاوَلَ الْمِيَاهُ قَدْ جَفَّتْ، وَالنَّارُ أَكَلَتْ مَرَاعِيَ الْبَرِّيَّةِ» «فَتَصِيرُ أَغَانِي الْقَصْرِ وَلاَوَلْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، الْجُثْتُ كَثِيرَةً يَطْرَحُونَهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِالسُّكُوتِ» (يوئيل ١: ١٠-١٢، ١٧-٢٠؛ عاموس ٨: ٣).

هذه الضربات لا تشمل العالم بأسره وإلا لكان كل سكان الأرض يبادون تماما. ومع ذلك فإنها ستكون أروع الضربات التي عرفها الناس. إن كل الضربات التي حلت بالناس قبل نهاية زمن النعمة كانت ممتزجة بالرحمة. فدم المسيح المتوسل قد حفظ الخاطئ من تحمل كل مكيال إثم، أما في الدينونة الأخيرة فسينصب الغضب الصرف أي غير الممزوج بالرحمة.

وفي ذلك اليوم سيرغب الناس في الاحتماء برحمة الله التي قد ازدروا بها طويلا: «هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، أُرْسِلُ جُوعًا فِي الْأَرْضِ، لَا جُوعًا لِلْخُبْزِ، وَلَا عَطَشًا لِلْمَاءِ، بَلْ لاسْتِمَاعِ كَلِمَاتِ الرَّبِّ. فَيَجُولُونَ مِنْ بَحْرٍ إِلَى بَحْرٍ، وَمِنْ الشِّمَالِ إِلَى الْمَشْرِقِ، يَتَطَوَّحُونَ لِيَطْلُبُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ فَلَا يَجِدُونَهَا» (عاموس ٨: ١١، ١٢).

يشبعون في زمن الجوع

لن يعفى شعب الله من الآلام، لكنهم إذ يكونون مضطهدين ومتضايقين يتحملون العوز ويتألمون لحاجتهم إلى الطعام فلن يتركوا ليهلكوا. فذلك الإله الذي اعتنى بإيليا لن ينسى أي واحد من أولاده

المضحين بأنفسهم، ذاك الذي يحصي شعور رؤوسهم لا بد أن يراهم وفي زمن الجوع يشبعون. وإذ يموت الأشرار جوعاً وبسبب الوباء فالملائكة سيحمون الأبرار ويسدون إغوازيهم. إن « السالك بالحق » يُقدم إليه هذا الوعد: « يُعْطَى خُبْرُهُ، وَمِيَاهُهُ مَأْمُونَةٌ ». « الْبَائِسُونَ وَالْمَسَاكِينُ طَالِبُونَ مَاءً وَلَا يُوجَدُ. لِسَانُهُمْ مِنَ الْعَطَشِ قَدْ يَبَسَ. أَنَا الرَّبُّ أَسْتَجِيبُ لَهُمْ. أَنَا إِلَهَ إِسْرَائِيلَ لَا أَتْرُكُهُمْ » (إشعياء ٣٣: ١٥، ١٦؛ ٤١: ١٧).

« فَمَعَ أَنَّهُ لَا يُزْهَرُ التَّيْنُ، وَلَا يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرْمِ. يَكْذِبُ عَمَلُ الرِّيتُونَةِ، وَالْحَقُولُ لَا تَصْنَعُ طَعَامًا. يَنْقَطِعُ الْعَنَمُ مِنَ الْحَظِيرَةِ، وَلَا بَقَرٌ فِي الْمَذَاوِدِ، فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ وَأَفْرَحُ بِإِلَهِ خَلَاصِي » (حبقوق ٣: ١٨، ١٧).

« الرَّبُّ حَافِظُكَ. الرَّبُّ ظِلٌّ لَكَ عَنْ يَدِكَ الْيُمْنَى. لَا تَضْرِبُكَ الشَّمْسُ فِي النَّهَارِ، وَلَا الْقَمَرُ فِي اللَّيْلِ. الرَّبُّ يَحْفَظُكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ. يَحْفَظُ نَفْسَكَ » « يُجِيبُكَ مِنْ فَخِّ الصَّيَادِ وَمِنْ الْوَيْلِ الْخَطِرِ. بِخَوَافِهِ يُظَلِّلُكَ، وَتَحْتَ أَجْنَحَتِهِ تَحْتَمِي. تُرْسٌ وَمَجَنُّ حَقٍّ. لَا تَخْشَى مِنْ خَوْفِ اللَّيْلِ، وَلَا مِنْ سَهْمٍ يَطِيرُ فِي النَّهَارِ، وَلَا مِنْ وَبَاٍ يَسْلُكُ فِي الدَّجَى، وَلَا مِنْ هَلَاكِ يُفْسِدُ فِي الظَّهِيرَةِ. يَسْقُطُ عَنْ جَانِبِكَ أَلْفٌ، وَرِبَوَاتٌ عَنْ يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لَا يَقْرُبُ. إِنَّمَا بَعَيْنَيْكَ تَنْظُرُ وَتَرَى مَجَازَاةَ الْأَشْرَارِ. لَأَنَّكَ قُلْتَ: « أَنْتَ يَا رَبُّ مَلْجَايَ ». جَعَلْتَ الْعَلِيِّ مَسْكَنَكَ، لَا يَلَاقِيكَ شَرٌّ، وَلَا تَدْنُو ضَرْبَةٌ مِنْ خِيَمَتِكَ » (مزمو ١٢١: ٥-٧؛ ٩١: ٣-١٠).

ومع ذلك فمن وجهة النظر البشرية سيظهر أن شعب الله لا بد من أن يختموا شهادتهم بدمهم سريعاً كما فعل الشهداء من قبلهم. وهم أنفسهم يبتدئون يخافون لئلا يكون الرب قد تركهم ليسقطوا بأيدي أعدائهم. إنه وقت عذاب مخيف وكرب شديد. وهم يصرخون إلى الله نهاراً وليلاً في طلب النجاة. أما الأشرار فسيتهللون ويبتهجون، وسينطقون بأقوال السخرية فيصيحون قائلين: « أين الآن إيمانكم؟ ولماذا لا ينقذك الله من أيدينا إن كنتم شعبه حقاً؟ ». لكن أولئك المنتظرين يذكرون يسوع وهو يموت على صليب جلجثة عندما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يصرخون في سخرية قائلين: « خَلِّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلْ الْآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَنُؤْمِنَ بِهِ! » (متى ٢٧: ٤٢). وهم جميعاً يجاهدون مع الله كييعقوب. وجوههم تتم عن الصراع المحتدم في داخلهم وبان عليها الاصفرار، ومع ذلك فهم لا يكفون عن توسلاتهم الجادة الغيورة.

الحُرَّاسُ السَّمَاوِيُّونَ

ولو أعطيت للناس عيون أهل السماء لرأوا جماعات من الملائكة المقتدرين قوة حاليين حول الذين قد حفظوا كلمة صبر المسيح. لقد شهد الملائكة ضيقهم وألمهم برقة وعطف وسمعوا صلواتهم. وهم ينتظرون أمراً من قائدهم ليختطفوهم من الخطر. ولكن عليهم أن ينتظروا قليلاً أيضاً. على شعب الله أن يشربوا الكأس ويصطبغوا بالصبغة. إن التأخير نفسه مع أنه مؤلم جداً لهم هو أفضل جواب على توسلاتهم. وإذا حاولوا أن ينتظروا الرب بثقة ليعمل فإن الرب يقودهم إلى ممارسة الإيمان والرجاء والصبر التي لم يمارسوها إلا قليلاً جداً في خلال اختبارهم الديني. ولكن لأجل المختارين يقصر زمان

الضيق. « أَفَلَا يُنْصَفُ اللَّهُ مُخْتَارِيهِ، الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ نَهَارًا وَلَيْلاً... أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يُنْصَفُهُمْ سَرِيعًا! » (لوقا ١٨: ٧، ٨). إِنَّ النِّهَايَةَ سَتَأْتِي بِأَسْرَعٍ مِمَّا يَتَوَقَّعُ النَّاسُ. وَالْحِنِطَةُ سَتُجْمَعُ وَتَحْرَمُ حَزْمًا لَتَوْضَعَ فِي مَخْزَنِ اللَّهِ، أَمَّا الزَّوَانُ فَيَحْرَمُ كَوْقُودَ لِنَارِ الْهَلَاكِ.

إِنَّ الْحِرَاسَ السَّمَاوِيِّينَ إِذْ هُمْ أَمْنَاءٌ عَلَى الْوَدَائِعِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ يَسْتَمِرُّونَ فِي عَمَلِهِمْ. وَمَعَ أَنَّهُ قَدْ صَدَرَ قَرَارٌ عَامٌّ يَحْدُدُ الْوَقْتَ الَّذِي فِيهِ يُمْكِنُ تَنْفِيزُ حُكْمِ الْمَوْتِ فِي حَافِظِي الْوَصِيَّةِ، فَفِي بَعْضِ الْحَالَاتِ سَيَنْتَظِرُ أَعْدَاؤُهُمُ الْأَمْرَ وَقَبْلَ الْوَقْتِ الْمَحْدَدِ سَيَحَاوِلُونَ قَتْلَهُمْ. وَلَكِنْ لَنْ يَسْتَطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يَجْتَازَ بَيْنَ الْحِرَاسِ الْأَشَدِّاءِ الْحَالِينَ حَوْلَ كُلِّ نَفْسٍ أَمِينَةٍ. وَبَعْضُ مَنْ أَوْلَتْكَ الْأَمْنَاءُ سَيَهَاجِمُونَ فِي أَثْنَاءِ فِرَارِهِمْ مِنَ الْمَدَنِ وَالْقُرَى، لَكِنَّ السِّيُوفَ الْمَشْرَعَةَ ضَدَّهُمْ تَنْكَسِرُ وَتَسْقُطُ عَاجِزَةً كَالْعُودِ الْيَابِسِ. وَآخَرُونَ سَيُدَافِعُ عَنْهُمْ مَلَائِكَةُ فِي هَيْئَةِ رِجَالٍ حَرْبٍ.

لَقَدْ عَمِلَ اللَّهُ فِي كُلِّ الْعُصُورِ بِوِاسْطَةِ الْمَلَائِكَةِ الْقَدِيسِينَ فِي إِغَاثَةِ شَعْبِهِ وَإِنْقَازِهِمْ. إِنَّ الْكَائِنَاتِ السَّمَاوِيَّةَ قَدْ لَعِبَتْ دَوْرًا حَيَوِيًّا هَامًا فِي حَيَاةِ النَّاسِ وَشُؤْنِهِمْ. لَقَدْ ظَهَرُوا مُتَسَرِّبِلِينَ بِثِيَابٍ نَوْرَانِيَّةٍ كَالْبَرْقِ، كَمَا قَدْ أَتَوْا لِابْسِينَ ثِيَابٍ عَابِرِي الطَّرِيقِ. وَالْمَلَائِكَةُ قَدْ ظَهَرُوا لِرِجَالِ اللَّهِ فِي هَيْئَةٍ بَشَرِيَّةٍ. لَقَدْ جَلَسُوا يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أَشْجَارِ الْبَلُوطِ فِي وَقْتِ حَرِّ النَّهَارِ كَمَا لَوْ كَانُوا مُتَعَبِينَ، وَقَبِلُوا كَرَمَ الضِّيَافَةِ مِنْ بَيْوتِ النَّاسِ، وَقَامُوا بِدَوْرِ الْمُرْشِدِينَ لِلْمَسَافِرِينَ عِنْدَمَا دَاهَمَهُمُ الظَّلَامُ، وَبِأَيْدِيهِمْ أَشْعَلُوا نَارَ الْمَذْبَحِ، وَفَتَحُوا أَبْوَابَ السَّجْنِ وَأَطْلَقُوا عِبِيدَ اللَّهِ أَحْرَارًا. وَإِذْ كَانُوا مُتَسَرِّبِلِينَ بِأَبْهَةِ السَّمَاءِ أَتَوْا لِيُدْحَرَجُوا الْحَجَرُ عَنْ قَبْرِ الْمَخْلُصِ.

المَلَائِكَةُ يَتَكَلَّمُونَ

وَكَثِيرًا مَا يُرَى الْمَلَائِكَةُ فِي مُجْتَمَعَاتِ الْأَبْرَارِ فِي هَيْئَةِ الْبَشَرِ، وَهُمْ يَزُورُونَ مُحَافِلَ الْأَشْرَارِ كَمَا ذَهَبُوا إِلَى سُدُومَ لِكَيْ يَسْجُلُوا أَعْمَالَ أَهْلِهَا وَيَقْرَرُوا مَا إِذَا كَانُوا قَدْ تَخَطَّوْا صَبْرَ اللَّهِ وَاحْتِمَالَهُ. وَالرَّبُّ يَسِرُ بِالرَّحْمَةِ؛ فَلَأَجْلِ الْقَلِيلِينَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ حَقًّا فَهُوَ يُوَقِّفُ الْكَوَارِثَ عِنْدَ حَدِّهَا لِيُطِيلَ مَدَّةَ سَلَامِ الْجُمُوعِ وَاطْمَئِنَّانِهِمْ. إِنَّ مَنْ يَخْطِئُونَ إِلَى اللَّهِ قَلَمَا يَتَحَقَّقُونَ أَنَّهُمْ مَدِينُونَ بِحَيَاتِهِمْ لِلْأَقْلِيَّةِ الْأَمِينَةِ الَّذِينَ يَتَسَلَوْنَ هُمْ بِظُلْمِهِمْ وَالسَّخَرِيَّةِ بِهِمْ.

وَمَعَ أَنْ رُؤَسَاءَ هَذَا الْعَالَمِ لَا يَعْلَمُونَ فِيهِ أَغْلَبَ الْأَحْيَانِ يَتَكَلَّمُ الْمَلَائِكَةُ فِي مَجَالِسِهِمْ. لَقَدْ رَأَاهُمُ الْبَشَرُ بَعِيُونَهُمْ، وَبِأَذَانِهِمْ أَصْغَوْا إِلَى مَرَاغَاتِهِمْ، وَبَشَفَاهَهُمْ عَارِضُوا مَقْتَرِحَاتِهِمْ وَسَخَرُوا مِنْ مَشُورَاتِهِمْ، وَبِأَيْدِيهِمْ قَابَلُوهُمْ بِالْاِعْتِدَاءَاتِ وَالشَّتَائِمِ وَالْإِهَانَاتِ. وَفِي قَاعَةِ الْمَجْلِسِ وَفِي دَارِ الْقَضَاءِ بَرَهَنَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ السَّمَاوِيِّينَ عَلَى مَعْرِفَتِهِمُ الدَّقِيقَةَ لِلتَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ كَمَا بَرَهَنُوا عَلَى أَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّرَافَعِ فِي قَضَايَا الْمَظْلُومِينَ مِنْ أَكْفَاءِ الْمَحَامِينَ وَأَفْصَحَهُمْ. لَقَدْ هَزَمُوا النُّوَايَا وَأَوْقَفُوا الشُّرُورَ الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَعْيِقَ عَمَلَ اللَّهِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ وَأَنْ تَسَبِّبَ آلَمًا هَائِلَةً لَشَعْبِهِ. وَفِي سَاعَةِ الضِّيْقِ وَالشَّدَةِ فَإِنَّ «مَلَكَ الرَّبِّ حَالَ حَوْلَ خَائِفِيهِ، وَيُنَجِّيهِمْ» (مزمور ٣٤: ٧).

يَنْتَظِرُ شَعْبُ اللَّهِ عِلَامَاتَ مُجِيءِ مَلِيكَهِمْ بِشَوْقٍ حَارٍّ. وَعِنْدَمَا يَسْأَلُ الْحِرَاسُ: «مَا مِنَ اللَّيْلِ؟» يَجِيءُ الْجَوَابُ فِي غَيْرِ تَلَعُّثٍ قَائِلًا: «أَتَى صَبَاحٌ وَأَيْضًا لَيْلٌ» (إشعياء ٢١: ٨، ١٢). إِنَّ النُّورَ يَسْطَعُ

على السحاب فوق قمم الجبال. وسيكون ظهور مجده سريعاً. إنّ « شمس البر » مزعم أن يشرق. والصباح والليل كلاهما قريب: بدء النهار الأبدي للأبرار وقدم الليل الأبدي على الأشرار. وإذ يلح المجاهدون في تقديم توسلاتهم أمام الله فالحجاب الفاصل بينهم وبين اللامنظور يكاد يُرفع. والسموات تتألق ببزوغ فجر النهار الأبدي وتقع على الآذان هذه الكلمات كأغاني الملائكة العذبة قائلة: « أثبتوا على ولائكم فالعون آت ». ثم إن المسيح المنتصر القدير يرفع أمام عيون جنوده المتعبين إكليل مجد أبدي ثم يُسمع صوته آتياً من الأبواب المفتوحة قائلاً: « ها أنا معكم. لا تخافوا. أنا عالم بكل أحزانكم وقد حملت أوجاعكم وهمومكم. إنكم لا تحاربون أعداء غير مدربين. لقد خضت المعركة لأجلكم وباسمي يعظم انتصاركم ».

إن المخلص العزيز سيرسل إلينا العون في الساعة نفسها التي نكون في حاجة إليه. والطريق إلى السماء قد تقدس بوقع خطواته. فكل الأشواك التي تجرح أقدامنا قد جرحته. وكل صليب نُدعى إلى حمله حمله هو قبلنا. يسمح الرب بالمحاربات لكي يُعَدَّ النفس للسلام. فزمان الضيق هو محنة مخيفة لشعب الله لكنه وقت فيه ينظر كل مؤمن حقيقي إلى فوق ويمكنه بالإيمان أن يرى قوس الوعد محيطة به.

« وَمَقْدِيوُ الرَّبِّ يَرْجِعُونَ وَيَأْتُونَ إِلَى صِهْيُونَ بِالتَّرْتِيمِ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ فَرْحٌ أَبَدِيٌّ. ابْتَهَاجٌ وَفَرْحٌ يَدْرُكَانِهِمْ. يَهْرُبُ الْحُزْنُ وَالتَّنْهَدُ. أَنَا أَنَا هُوَ مَعْرِيكُمْ. مَنْ أَنْتَ حَتَّى تَخَافِي مِنْ إِنْسَانٍ يَمُوتُ، وَمَنْ ابْنُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يُجْعَلُ كَالْعُشْبِ؟ وَتَنْسَى الرَّبَّ صَانِعَكَ ... وَتَفْرَعُ دَائِماً كُلَّ يَوْمٍ مِنْ غَضَبِ الْمُضَاقِ عِنْدَمَا هَيَّأَ لِلْإِهْلَاكِ. وَأَيْنَ غَضَبُ الْمُضَاقِ؟ سَرِيعاً يُطْلَقُ الْمُنْحَنِي، وَلَا يَمُوتُ فِي الْجُبِّ وَلَا يَعْدُمُ خُبْرُهُ. وَأَنَا الرَّبُّ إِلَهُكَ مُرْعِجُ الْبَحْرِ فَتَعَجُّ لُجْجُهُ. رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ. وَقَدْ جَعَلْتُ أَقْوَالِي فِي فَمِكَ، وَبَظِلِّ يَدَي سَتَرْتُكَ » (إشعياء ٥١: ١١-١٦).

« لَذَلِكَ اسْمَعِي هَذَا آيَتَهَا الْبَائِسَةُ وَالسَّكْرَى وَلَيْسَ بِالْخَمْرِ. هَكَذَا قَالَ سَيِّدُكَ الرَّبُّ، وَإِلَهُكَ الَّذِي يُحَاكِمُ لَشَعْبِهِ: « هَآنَذَا قَدْ أَخَذْتُ مِنْ يَدِكَ كَأْسَ التَّرْتُّحِ، ثَقُلَ كَأْسُ غَضَبِي. لَا تَعُودِينَ تَشْرَبِينَهَا فِي مَا بَعْدُ. وَأَضَعُهَا فِي يَدِ مُعَذِّبِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِنَفْسِكَ: انْحَنِي لِنَعْبَرِ. فَوَضَعْتَ كَالْأَرْضِ ظَهْرَكَ وَكَالزَّرْقَاقِ لِلْعَابَرِينَ » (إشعياء ٥١: ٢١-٢٣).

تَثَبَّتْ عين الله وهي تتطلع عبر الأجيال على الأزمة التي سيواجهها شعبه عندما تصطف ضدهم القوات الأرضية، ومثل أسير غريب سيخافون من الموت جوعاً أو اغتيالاً. لكن القدوس الذي قد شق بحر سواف أمام العبرانيين سيظهر قدرته العظيمة ويرد سبيهم، « وَيَكُونُونَ لِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَنَا صَانِعٌ خَاصَّةً (جواهري) وَأُشْفِقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُشْفِقُ الْإِنْسَانُ عَلَى ابْنِهِ الَّذِي يَخْدُمُهُ » (ملاخي ٣: ١٧). فلو سفكت دماء شهود المسيح الأمناء في هذا الوقت فلن تكون كدماء الشهداء بذارا تلقى ليجمع منها حصاد لله. فولاءهم لن يكون شهادة لإقناع الآخرين بالحق، لأن القلب القاسي قد صدَّ أمواج الرحمة فما عادت تتوالى مرة أخرى. فلو ترك الأبرار حينئذ ليسقطوا فريسة لأعدائهم فسيكون ذلك انتصاراً لسلطان الظلمة. والمرنم يقول: « لَأنَّهُ يُحِبُّنِي فِي مَظَلَّتِهِ فِي يَوْمِ الشَّرِّ. يَسْتَرُنِي بِسِتْرِ خِيَمَتِهِ » (مزمو ٢٧: ٥). لقد قال المسيح: « هَلُمَّ يَا شَعْبِي ادْخُلْ مَخَادِعَكَ، وَأَغْلِقْ أَبْوَابَكَ

خَلَقَكَ. اخْتَبَيْ نَحْوَ لَحِيظَةٍ حَتَّى يَعْبُرَ الْعَصَبُ. لَأَنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ لِيُعَاقِبَ إِيَّاهُمْ سُكَّانَ
الْأَرْضِ « (إِشَعْيَاء ٢٦ : ٢٠ ، ٢١). وستكون نِجاةٌ مِجيدةٌ تِلْكَ الَّتِي سَتَكُونُ مِنْ نَصِيبِ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ،
بصبرٍ، مِجِيءَ الرَّبِّ، وَالَّذِينَ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةٌ فِي سَفَرِ الْحَيَاةِ.

٤٠ - نجاة شعب الله

عندما تُسحب حماية القوانين البشرية من الذين يكرّمون شريعة الله فستوجد في بلدان مختلفة وفي الوقت نفسه حركة ترمي إلى إهلاكهم. وإذا يقترب الوقت المعين الذي حدده ذلك المرسوم، فالناس سيتآمرون على استئصال تلك الطائفة المكروهة والقضاء عليها. وسيقرر ضربهم ضربة حاسمة في ليلة واحدة تُسكت نهائيا صوت الانشقاق والتوبيخ.

أما شعب الله — الذين يكون بعض منهم في السجون والبعض الآخر مختبئين في مخابئ سرية منعزلة في الغابات والجبال — فسيواصلون التوسل في طلب الحماية الإلهية، بينما توجد في كل حي فرق من الرجال المسلحين مسوقين بقوة أجناد الملائكة الأشرار، مستعدون للقتل والاغتيال. فالآن في ساعة الحاجة القصوى سيتدخل إله يعقوب لنجاة مختاريه. يقول الرب: « تَكُونُ لَكُمْ أُغْنِيَّةٌ كَلِيلَةٌ تَقْدِيسَ عِيدٍ، وَفَرَحٌ قَلْبٍ كَالسَّائِرِ... لِيَأْتِيَ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ، إِلَى صَخْرٍ إِسْرَائِيلَ. وَيَسْمَعِ الرَّبُّ جَلَالَ صَوْتِهِ، وَيُرِي نَزُولَ ذِرَاعِهِ بِهِجَانٍ غَضَبٍ وَلَهِيْبٍ نَارٍ آكَلَةٍ، نَوْءٍ وَسَيْلٍ وَحِجَارَةٍ بَرْدٍ » (إشعياء ٣٠: ٢٩).

فبهتافات الانتصار والاستهزاء واللعنات توشك جموع من الناس الأشرار أن ينقضوا على فريستهم، وإذا بظلمة داجية أشد من ظلمة الليل تسقط على الأرض. وحينئذ يمتد في السماوات قوس قزح يسطع بمجد من عرش الله ويبدو كأنه يحيط بكل جماعة مصلية. وحينئذ تتوقف تلك الجموع الغاضبة فجأة. وصرخاتهم الساخرة تتلاشى، ويُنسى أولئك الذين كانوا سبب هياجهم الإجرامي. وبهواجس مخيفة يشخصون إلى رمز عهد الله ويتوقون إلى الاحتماء بعيدا من نوره ولمعانه الباهر.

ثم يسمع شعب الله صوتا رائقا وصافيا وموسيقيا قائلا لهم: « انظروا فوق ». فإذا يرون بأنظارهم إلى السماء يرون قوس العهد. وإذا بالسحب السود الغاضبة التي كانت تغطي جلد السماء تنقشع، ومثل استفانوس يثبتون أنظارهم إلى السماء فيرون مجد الله وابن الإنسان جالسا على عرشه. وفي هيئته الإلهية يميزون سمات اتضاعه، ومن بين شفّيته يسمعون الطلب الذي قدمه أمام أبيه والملائكة القديسين القائل: « أُرِيدُ أَنْ هُوَلاءِ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا » (يوحنا ١٧: ٢٤). ومرة أخرى يُسمع صوت موسيقى منتصر يقول: « ها هم آتون! ها هم آتون! قديسون وأمناء وبلا عيب. لقد حفظوا كلمة صبري، فسيمشون بين الملائكة ». وحينئذ ستتهافت هتاف الانتصار تلك الشفاه الشاحبة المرتعشة، شفاه الذين قد ثبتوا على إيمانهم،

يكون الليل قد انتصف حينما يظهر الله قدرته لخلاص شعبه. والشمس تظهر مشرقة في قوتها. وستتبع ذلك آيات ومعجزات في تلاحق سريع. وسينظر الأشرار إلى ذلك المشهد برعب وذ هول، في حين ينظر الأبرار بفرح مقدس إلى دلائل نجاتهم. وكل شيء في الطبيعة يبدو خارجا على مألوف نظامه. فالأنهار تكف عن الجريان، ثم تظهر سحب ثقيلة سود ويصدم بعضها بعضا. وفي وسط السماوات الغاضبة توجد رقعة واحدة صافية يظهر منها مجد يجل عن الوصف، ومنها يأتي صوت الله كصوت مياه كثيرة قائلا: « قد تم » (رؤيا ١٦: ١٧).

السموات والأرض تهتزان

ذلك الصوت يهز السموات والأرض. وتحدث زلزلة عظيمة « وَحَدَّثَتْ زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ، لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُهَا مُنْذُ صَارَ النَّاسُ عَلَى الْأَرْضِ، زَلْزَلَةٌ بِمَقْدَارِهَا عَظِيمَةٌ هَكَذَا » (رؤيا ١٦: ١٧، ١٨). ويبدو كأن الجلد يُفْتَحُ وَيُغْلَقُ، وكأن المجد الخارج من عرش الله يسطع من خلاله. والجبال تهتز كالقصبه أمام الريح، والصخور الوعرة تتبعثر في كل مكان. ويُسمع زئير كما لو كان زئير عاصفة مقبلة. والبحر يثور ويهتاج. وتُسمع صرخة إعصار كصوت شيطان ساع للإهلاك. والأرض تلهث وتتمدد كأمواج البحر وينشق سطحها وتبدو أساساتها كأنها تنهار. وسلاسل الجبال تغوص. والجزائر المأهولة بالسكان وموانئ البحر الشبيهة بسدوم في شرها تبتلعها المياه الغاضبة. لقد ذُكرت بابل العظيمة أمام الله « لِيُعْطِيَهَا كَأْسَ خَمْرٍ سَخَطَ غَضَبِهِ ». وحجارة برد عظيمة كل واحد « نَحْوُ ثَقْلٍ وَزْنُهُ » تقوم بعملية التخریب (رؤيا ١٦: ١٩، ٢١). وأعظم المدن الفاخرة تنهدم. وقصور الأمراء التي أغدق عظماء الأرض ثرواتهم عليها لكي يمجدوا أنفسهم تتحطم وتصير أنقاضا أمام عيونهم. وأبواب السجون تنفتح بعنف فيُطلق سراح شعب الله الذين حُبِسوا فيها لأجل إيمانهم.

والقبور تنفتح: « وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الْأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، هَؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَهَؤُلَاءِ إِلَى الْعَارِ لِلْأَزْدَرَاءِ الْأَبْدِيِّ » (دانيال ١٢: ٢). وكل الذين ماتوا على إيمان رسالة الملاك الثالث سيخرجون من قبورهم ممجدين ليسمعوا عهد سلام الله مع الذين قد حفظوا شريعته. وكذلك « الذين طعنوه » (رؤيا ١: ٧) والذين سخرُوا بالمسيح وهزأُوا بعذاباته وأقسى المقاومين لحقه وشعبه يقيمون ليروه في مجده ويروا الكرامة التي يضعها على المخلصين والطائعين.

ثم إن الغيوم الكثيفة كانت لا تزال تنتشر في السماء، ومع ذلك فالشمس تشرق بين حين وآخر وتبدو كأنها عين الرب الغاضب المنتقم. وتلمع في السماء بروق مخيفة تلف الأرض في رداء من النار. وستُسمع أصوات غامضة ومخيفة أعلى من صوت هدير الرعد معلنة دينونة الأشرار. والأصوات التي تُقال لا يفهمها الجميع، لكن المعلمين الكذبة يفهمونها جيدا. فالذين كانوا منذ قليل متهورين وفخورين ومتحدين ومبتهجين بسبب قسوتهم على من قد حفظوا وصية الله يغمرهم الآن الرعب ويرتجفون من هول الخوف. وتُسمع أصوات عويلهم وولولتهم فوق أصوات عناصر الطبيعة. وستعترف الشياطين بالوهية المسيح وترتعب أمام قدرته في حين أن الناس يتوسلون في طلب الرحمة ويتذللون في رعبهم الدنيء.

يوم الرب

إن الأنبياء القدماء إذ رأوا في الرؤيا يوم الله قالوا: « وَلَوْ لَوْ لَأَنَّ يَوْمَ الرَّبِّ قَرِيبٌ، قَادِمٌ كَخَرَابٍ مِنَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » (إشعيا ١٣: ٦). « أُدْخِلْ إِلَى الصَّخْرَةِ وَاخْتَبِئْ فِي التُّرَابِ مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمَنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ. تَوَضَّعْ عَيْنًا تَشَامُخُ الْإِنْسَانِ، وَتُخَفَّضْ رَفْعُهُ النَّاسِ، وَيَسْمُو الرَّبُّ وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ. فَإِنَّ لِرَبِّ الْجُنُودِ يَوْمًا عَلَى كُلِّ مُتَعَظِّمٍ وَعَالٍ، وَعَلَى كُلِّ مُرْتَفِعٍ فَيُوضَعُ ». « فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَطْرَحُ الْإِنْسَانُ أَوْتَانَهُ الْفُضِيَّةَ وَأَوْتَانَهُ الذَّهَبِيَّةَ، الَّتِي عَمِلُوهَا لَهُ لِلسُّجُودِ، لِلْجُرْدَانِ وَالْخَفَافِيشِ، لِيَدْخُلَ فِي نَقْرِ

الصُّخُورَ وَفِي شُقُوقِ الْمَعَاقِلِ، مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمِنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ لِيَرْعَبَ الْأَرْضَ « (إشعياء ٢: ١٠-١٢، ٢٠، ٢١).

ومن خلال فجوة بين السحاب يتألق نور نجم يزيد لمعان نوره أربعة أضعاف بالمقارنة مع الظلمة، وهو يخاطب الأمناء بكلام الرجاء والفرح. أما المتعدون على شريعة الله فهو يوجه إليهم كلام القسوة والغضب. والذين قد ضحوا بكل شيء في سبيل المسيح هم الآن في أمان إذ هم مستورون في ستر خيمة الرب. لقد اختبروا فأثبتوا أمام العالم وأمام محتقري الحق ولأهم لذلك الذي قد مات لأجلهم. إن تغييرا عجيبا قد حدث للذين قد تمسكوا باستقامتهم في مواجهة الموت نفسه. وقد نجوا فجأة من الطغيان القاتم المرعب الذي أوقعه بهم بشر استحالوا إلى شياطين. ووجهوهم التي كانت منذ عهد قريب شاحبة وجزعة ومنهوكة صارت الآن متأججة بالدهشة والإيمان والمحبة. ثم ترتفع أصواتهم وهم يرددون أنشودة الانتصار قائلين « أَللهُ لَنَا مَلَجًا وَقُوَّةً. عَوْنًا فِي الضِّيقَاتِ وَجَدَ شَدِيدًا. لِذَلِكَ لَا نَخْشَى وَلَوْ تَرَحَّرَتِ الْأَرْضُ، وَلَوْ انْقَلَبَتِ الْجِبَالُ إِلَى قَلْبِ الْبَحَارِ. تَعِجُ وَتَجِيشُ مِيَاهُهَا. تَتَزَعَرُ الْجِبَالُ بِطُمُوءِهَا » (مزمو ٤٦: ١-٣).

وعندما ترتفع إلى الله كلمات الثقة المقدسة هذه تتراجع السحب وتُرى السماوات الصافية تلمع فيها النجوم التي هي مجيدة جدا بالمقارنة مع الجلد الداكن الغاضب على كلا الجانبين. ثم إن بهاء المدينة السماوية يشع من الأبواب المفتوحة. حينئذ تُرى في السماء يد ممسكة بلوحين من حجر أحدهما منطبق على الآخر. وقد قال النبي: « وَتُخْبِرُ السَّمَاوَاتُ بَعْدْلَهُ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّيَّانُ » (مزمو ٥٠: ٦). فتلك الشريعة المقدسة، برّ الله الذي قد أعلن من سيناء كمرشد للحياة من وسط الرعد والنار، تُعلن الآن للناس كقانون الدينونة. تفتح تلك اليد اللوحين فتُرى الوصايا العشر وكأنها مكتوبة بقلم من نار. والكلام واضح بحيث يستطيع كل واحد أن يقرأه. فتستيقظ الذاكرة وتُكتسح ظلمة الخرافات والهرطقات من كل العقول وتُقدم أمام عيون الجميع كلمات الله العشر مختصرة وشاملة وجازمة فيراها كل سكان الأرض.

ويستحيل علينا أن نصف الرعب واليأس اللذين سيستوليان على الذين قد داسوا على مطالب الله المقدسة. لقد أعطاهم الرب شريعته وكان يمكنهم أن يقيسوا أخلاقهم عليها ويعرفوا نقائصهم عندما كانت لديهم فرصة للتوبة والإصلاح. ولكنهم في سبيل الظفر برضى العالم ألقوا بتلك الوصايا جانبا وعلموا الآخرين التعدي عليها. لقد حاولوا إرغام شعب الله على تدنيس سبته. أما الآن فالشريعة التي قد ازدروا بها تدينهم. وبدقة مخيفة يرون أنهم بلا عذر. لقد اختاروا السيد الذي أرادوا أن يخدموه ويعبدوه: « فَتَعُوذُونَ وَتَمَيِّزُونَ بَيْنَ الصَّدِيقِ وَالشَّرِيرِ، بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَمَنْ لَا يَعْبُدُهُ » (ملاخي ٣: ١٨).

نتائج عدم الأمانة

ويتكوّن لدى أعداء شريعة الله، من الخدام إلى الأصاغر، رأي جديد عن الحق والواجب. وسيرون في وقت متأخر جدا أن سبت الوصية الرابعة هو ختم الله الحي. ويرون في وقت متأخر جدا الصفة

الحقيقية لسبتهم الزائف والأساس الرملي الذي كانوا يبنون عليه. ويرون أنهم إنما كانوا يحاربون الله. لقد ساقهم معلمو الدين إلى الهلاك مع أنهم كانوا يقرون بأنهم يرشدونهم إلى أبواب الفردوس. وإلى أن يجيء يوم الحساب الأخير لن يُعرف مقدار هول المسؤولية التي تقع على عاتق من يحتلون وظيفة مقدسة وهول النتائج المترتبة على عدم أمانتهم. إنما في الأبدية فقط يمكننا أن نقدر تقديرا صائبا خسارة نفس واحدة. وستكون دينونة مخيفة على ذلك الإنسان الذي سيقول له الله: اذهب عني أيها العبد الشرير.

يُسمع صوت الله من السماء معلنا اليوم والساعة التي يأتي فيها يسوع ويسلم شعبه العهد الأبدي. وكهزيم أعلى الرعود سيرن صدى كلامه في كل أنحاء الأرض. وشعب الله سيقفون مصغيين وأنظارهم مثبتة في السماء، ووجوههم مستنيرة بمجده وهي تلمع كما كان وجه موسى يلمع عند نزوله من جبل سيناء. ولا يستطيع الأشرار أن ينظروا إليهم. وعندما ينطق بالبركة على من قد أكرموا الله بحفظ سبته مقدسا يُسمع صوت هتاف انتصار عظيم.

وسرعان ما تظهر في الشرق سحابة صغيرة سوداء بقدر نصف كف إنسان. وهي السحابة التي تحيط بالمخلص وتبدو من بُعد كأنها مستترة في الظلام. وشعب الله يعرفون أن هذه هي علامة ابن الإنسان. فينظرون إليها في صمت مقدس وهي تقترب من الأرض وتزيد نورا ومجدا حتى تصبح سحابة عظيمة بيضاء ويكون أسفلها مجيدا كنار آكلة ومن فوقها قوس قزح الوعد، وفوقها يسوع كفاتح عظيم، فليس هو الآن « رَجُلٌ أَوْجَاعٌ » ليشرب كأس العار والألم المرير، إنه يأتي كمنتصر في السماء وعلى الأرض ليدفن الأحياء والأموات، « أَمِينَا وَصَادِقًا »، « يَحْكُمُ وَيُحَارِبُ بِالْعَدْلِ »، « وَالْأَجْنَادُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ كَانُوا يَتَّبِعُونَهُ » (رؤيا ١٩: ١١، ١٤). فيحف به جمع كبير من الملائكة القديسين وهم ينشدون أناشيد الفرح السماوي ويكتنفونه في الطريق. ويبدو كأن جلد السماء قد غص بجموع لا تحصى من الخلائق النورانية: « ربوات ربوات وألوف ألوف » ولا يستطيع قلم إنسان أن يصور ذلك المشهد، ولا يمكن لعقل بشري أن يدرك بهاءه وروعته: « جَلَالُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالْأَرْضُ امْتَلَأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. وَكَانَ لَمَعَانُ كَالنُّورِ » (حقوق ٣: ٣، ٤). وإذ تقترب السحابة الحية شيئا فشيئا فكل عين ترى رئيس الحياة. الآن لا إكليل شوك يشوه ذلك الرأس المقدس بل إكليل مجد على جبينه القدسي. ووجهه يسطع بنور أشد لمعانا من نور الشمس وهي تضيء في قوتها. « وَلَهُ عَلَى تَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: « مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ » (رؤيا ١٩: ١٦).

وأمام حضرته « تحول كل وجه إلى صفرة » وكل من رفضوا رحمة الله يسقط عليهم رعب يأس أبدى. « قَلْبٌ ذَائِبٌ وَارْتِخَاءٌ رُكْبٍ ... وَأَوْجُهُ جَمِيعُهُمْ تَجْمَعُ حُمْرَةً » (إرميا ٣٠: ٦؛ ناحوم ٢: ١٠). وسيصرخ الأبرار قائلين برعب: « مَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ؟ » ويتوقف الملائكة عن التسبيح وتكون هناك فترة صمت رهيب. ثم يُسمع صوت يسوع وهو يقول: « تَكْفِيكُمْ نِعْمَتِي ». وحينئذ تلمع وجوه الأبرار بالنور ويملاً الفرح كل قلب. وحينئذ يعزف الملائكة نغمة أعلى وترنمون ثانية وهم يقتربون من الأرض.

ظهور ملك الملوك

ينزل ملك الملوك على السحاب وحوله لهيب نار، حينئذ تلتف السماوات كدرج وترتعد الأرض قدامه، وكل الجبال والجزائر تتزحزح من مواضعها. « يَأْتِي إِلَهُنَا وَلَا يَصْمُتُ. نَارٌ قُدَّامَهُ تَأْكُلُ، وَحَوْلُهُ عَاصِفٌ جَدًّا. يَدْعُو السَّمَاوَاتِ مِنْ فَوْقُ، وَالْأَرْضَ إِلَى مَدَائِنَةِ شَعْبِهِ » (مزمو ٥٠: ٣، ٤).

« وَمُلُوكُ الْأَرْضِ وَالْعُظَمَاءُ وَالْأَغْنِيَاءُ وَالْأَمْرَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ وَكُلُّ عَبْدٍ وَكُلُّ حُرٍّ، أَخْفَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَغَايِرِ وَفِي صُخُورِ الْجِبَالِ، وَهُمْ يَقُولُونَ لِلْجِبَالِ وَالصُّخُورِ: « اسْقُطِي عَلَيْنَا وَأَخْفِينَا عَنْ وَجْهِ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَعَنْ غَضَبِ الْخُرُوفِ، لَأَنَّهُ قَدْ جَاءَ يَوْمٌ غَضِبَ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ؟ » (رؤيا ٦: ١٧-١٥).

لقد انقطع المزاح الساخر. وشفاه الكذب قد صمتت. وصليل الأسلحة وضجيج الحرب و « سلاح المُتَسَلِّحِ فِي الْوُغَى وَكُلُّ رِذَاءٍ مُدْخَرَجٍ فِي الدِّمَاءِ » (إشعيا ٩: ٥). ولا يُسمع الآن صوت آخر غير صوت الصلاة وصوت البكاء والنوح. وَتُسْتَفْجِرُ هَذِهِ الصَّرَخَةُ مِنَ الشِّفَاهِ الَّتِي كَانَتْ تَسْخَرُ مِنْذُ قَلِيلٍ، « لَأَنَّهُ قَدْ جَاءَ يَوْمٌ غَضِبَ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ؟ » (رؤيا ٦: ١٧). وسيطلب الأشرار أن يدفنوا تحت صخور الجبال مفضلين ذلك على مقابلة وجه ذاك الذي قد ازدروا به ورفضوه.

إنهم يعرفون ذلك الصوت الذي يخترق آذان الموتى. فكم مرة دعاهم ذلك الصوت إلى التوبة بنغماته الرقيقة. وكم مرة سُمع في توسلات مؤثرة من فم الصديق والأخ والفادي. فالذين رفضوا نعمته لن يسمعوا سوى ذلك الصوت المملوء دينونة المثل استنكاراً، ذلك الصوت الذي طالما توسل اليهم من قبل قائلاً: « ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمْ الرَّدِيئَةِ! فَلَمَّاذَا تَمُوتُونَ » (حزقيال ٣٣: ١١). آه، يا لبيته كان بالنسبة لهم صوت شخص غريب! يقول يسوع: « لَأَنِّي دَعَوْتُ فَأَبَيْتُمْ، وَمَدَدْتُ يَدِي وَلَيْسَ مِنْ يُبَالِي، بَلْ رَفَضْتُمْ كُلَّ مَشُورَتِي، وَلَمْ تَرْضَوْا تَوْبِيخِي » (أمثال ١: ٢٤، ٢٥). ذلك الصوت يوقظ فيهم ذكريات يودون من كل قلوبهم أن يلاشوها، فهي إنذارات رُذِلَتْ ودعوات رُفِضَتْ وامتيازات احتُقرت.

هناك الذين قد سخروا بالمسيح في حالة اتضاعه. فبقوة مروعة تعود إلى أذهانهم ذكريات أقوال المسيح المتألم عندما استحلفه رئيس الكهنة فأعلن قائلاً له بكل وقار: « مِنَ الْآنَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ، وَآتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ » (متى ٢٦: ٦٤). وَالْآنَ هَا هُمْ يَرُونَهُ فِي مَجْدِهِ وَسَيَرُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ.

والذين سخروا بتصريحه بأنه ابن الله سيكون الآن. فها هيرودس المتعجرف الذي استهزأ بلقب المخلص الملوكي وأمر عساكره الهازئين بأن يتوجهوا ملكاً. وها الرجال أنفسهم الذين بأيدي الإثم ألبسوه الرداء الأرجواني ووضعوا إكليلاً من شوك على جبينه المقدس، وفي يده المستسلمة وضعوا قسبة زائفة، وكانوا يجثون قدامه في استهزاء تجديفي. فالرجال الذين ضربوا رئيس الحياة ولطموه وبصقوا عليه يريدون الآن أن يحولوا وجوههم عن نظراته الفاحصة ويحاولون الهرب من مجد حضوره القاهر. والذين ثقبوا يديه ورجليه بالمسامير والجندي الذي طعن جنبه يشاهدون هذه السمات برعب وحرزن.

وها الكهنة والشيوخ يذكرون أحداث جلجثة بدقائقها المخيفة. وبرعب وارتجاف يذكرون كيف انهم

وهم يهزون رؤوسهم بتشامخ شيطاني صرخوا قائلين: « خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكٌ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الْآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَتُؤْمِنَ بِهِ! قَدْ اتَّكَلْنَا عَلَى اللَّهِ، فَلْيُنْقِذْهُ الْآنَ إِنْ أَرَادَهُ! » (متى ٢٧: ٤٢، ٤٣).

وبكل وضوح ذكروا مثل المخلص الذي أورده عن الكرامين الذين رفضوا أن يقدموا إلى سيدهم من ثمر الكرم والذين أهانوا عبده وقتلوا ابنه. ثم هم يذكرون أيضاً الحكم الذي قد نطقوا به بأفواههم. قالوا: « أولئك الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ (صاحب الكرم) هَلَاكًا رَدِيًّا ». ففي خطيئة أولئك الرجال الخونة وقصاصهم يرى الكهنة والشيوخ تصرفهم وقصاصهم ودينوتهم العادلة نفسها. أما الآن فإن صرخة عذاب مميت تصدر من أفواههم أعلى من تلك التي نطقوا بها أمام بيلاطس حين قالوا: « اصْلُبْهُ! اصْلُبْهُ! » والتي رددت صداها شوارع أورشليم، فترتفع صرخات العويل المخيف قائلة: « إنه ابن الله! إنه مسيا الحقيقي! » ويحاولون الهروب من حضرة ملك الملوك. وفي كهوف الأرض العميقة التي قد انشقت بفعل العناصر المتحاربة يحاولون الاختباء، ولكن عبثاً.

الرب يدعو قديسيه

في حياة كل مَنْ يرفضون الحق لحظات يستيقظ فيها الضمير، وتستعرض الذاكرة تلك الذكرى المعذبة للنفس، ذكرى تلك الحياة التي لعب فيها النفاق دوراً كبيراً. فتتزعج من الندامة غير المجدية. ولكن ما هذه كلها إذا قيست بحسرة ذلك اليوم « إِذَا جَاءَ خَوْفُكُمْ كَعَاصِفَةٍ » وعندما « أَتَتْ بَلِيَّتُكُمْ كَالرَّوْبَعَةِ » (أمثال ١: ٢٧). إن الذين كانوا يتمنون لو أنهم أهلكوا المسيح وشعبه الأمانة يرون الآن المجد الذي يستقر عليهم. وفي غمرة رعبهم يسمعون أصوات القديسين وهم يترنمون ويهتفون هتاف الفرح قائلين: « هُوَذَا هَذَا إِلَهُنَا. انْتَظَرْنَاهُ فَخَلَّصَنَا » (إشعياء ٢٥: ٩).

وفيما الأرض تترنج، وفي وسط وميض البروق وهدير الرعود، يدعو ابن الله بصوته القديسين الراقدين ليخرجوا من قبورهم. إنه ينظر إلى قبور الأبرار، وحينئذٍ إذ يرفع يديه نحو السماء يصرخ قائلاً: « استيقظوا استيقظوا وقوموا يا سكان التراب! » وفي طول الأرض وعرضها سيسمع الأموات ذلك الصوت. والسامعون يحيون وستهتز الأرض كلها من دوس أقدام ذلك الجيش العظيم جداً من كل أمة وقبيلة ولسان وشعب. وسيخرجون من بيت سجن الموت متسربلين بمجد لا يردل صارخين وقائلين: « أَيْنَ شَوْكُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلْبَتُكَ يَا هَاوِيَّةُ؟ » (١ كورنثوس ١٥: ٥٥). ثم يشترك الأبرار الأحياء مع القديسين المقامين في هتاف انتصار عال وطويل وبهيج.

وسيخرج الجميع من قبورهم وستكون لأجسامهم القامة نفسها كما كانت عند دخولهم القبر. وأدم الذي يقف في وسط ذلك الجمع العظيم سيكون فارح الطول وهيئته هيئة الجلال، ولكنه سيكون أدنى قليلاً في القامة من ابن الله. وسيكون الفرق كبيراً ملحوظاً بينه وبين من عاشوا في العصور الأخيرة. وفي هذا الاعتبار الواحد سيبرهن الانحطاط العظيم لجنسنا. لكن الجميع يقومون في حداثة شبابهم ونشاطهم الأبديين. لقد خلق الإنسان في البدء على صورة الله ليس فقط في الصفات بل في الهيئة ومعالم الوجه. لكن الخطيئة شوّهت وكادت تمحو صورة الله، غير أن المسيح قد جاء ليعيد إلينا ما

قد خسرناه. وهو سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (فيلبي ٣: ٢١). فالجسم الفاني الفاسد المجرد من الجمال والذي قد أفسدته الخطيئة مرة يصير كاملاً وجميلاً وخالداً. وكل العيوب والتشوهات ستترك في القبر. وإذ تُعاد إلى المفتدين شجرة الحياة في عدن بعدما حُرِّموا منها وخسروها طويلاً فإنهم « يَنْشَأُونَ » (ملاخي ٤: ٢) إلى ملء قامة جنسنا في حالته الأصلية. وآخر ما يتبقى من آثار لعنة الخطيئة سيُرفع، وسيبدو أتباع المسيح الأماناء في « بهاء الرب الهنا » في الذهن والنفس والجسد، ويعكسون صورة سيدهم الحقيقية. فإيا له من فداء مجيد طال الحديث عنه وتمناه شعب الله طويلاً وتأملوا فيه بانتظارات متلهفة، ولكن لم يفهم فهما كاملاً!

يتغيرون في لحظة

والأحياء الأبرار يتغيرون « في لَحْظَةٍ في طَرْفَةِ عَيْنٍ ». لقد تمجدوا لدى سماعهم صوت الله، أما الآن فقد صاروا خالدين، ومع القديسين المقامين يُخطفون لملاقاة الرب في الهواء. إن الملائكة « فَيَجْمَعُونَ مُخْتَارِيهِ مِنَ الْأَرْبَعِ الرِّيَاحِ، مِنْ أَقْصَاءِ السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَائِهَا »، والأولاد الصغار سيحملهم الملائكة القديسون إلى أذرع أمهاتهم. والأصدقاء الذين قد فُرِّقَ الموت بينهم طويلاً يجتمعون معا ولن يفترقوا فيما بعد، وبأناشيد الفرح يرتفعون معا إلى مدينة الله.

وعلى كل جانب من جوانب مركبة السحاب أجنحة وتحتها عجلات حية، وإذ تصعد المركبة إلى السماء تصرخ العجلات قائلة: « قَدُّوسٌ »، والأجنحة إذ تتحرك تصرخ قائلة « قَدُّوسٌ ». وحاشية الملائكة سيهتفون قائلين « قَدُّوسٌ قَدُّوسٌ قَدُّوسٌ الرب الإله القدير ». والمفتدون يهتفون قائلين « هلوليا » عندما تصعد المركبة إلى أورشليم الجديدة.

وقبل الدخول إلى مدينة الله يمنح المخلص أتباعه رموز الانتصار ويلبسهم أوسمة منزلتهم الملكية. وتلك الصفوف المتألقة بالنور ترتفع في هيئة ميدان فسيح ويلتقون حول مليكهم الذي يرتفع جسمه في جلال سام فوق القديسين والملائكة ووجهه يشرق عليهم يملؤه الحب الرؤوف. وبين جموع المفتدين التي لا تحصى تتجه كل الأنظار إليه وكل عين ستري مجده هو الذي « كَانَ مَنَظَرُهُ كَذَا مُفْسِداً أَكْثَرَ مِنَ الرَّجُلِ، وَصُورَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَنِي آدَمَ » (إشعياء ٥٢: ١٤). وعلى رؤوس المنتصرين سيضع يسوع أكاليل المجد بيده اليمنى. ولكل واحد إكليله مكتوباً عليه « اسمه الجديد » (رؤيا ٢: ١٧) وهذه الكتابة « قدس للرب ». وستعطى لكل المفتدين سعف النخل فيمسكونها بأيديهم كما يمسكون بالقيثارات اللامعة. وحينئذٍ إذ يعزف الملائكة القادة النغمة المطلوبة فكل يد تلامس أوتار القيثارة لمساة ماهرة مدربة، فتستيقظ النغمات الموسيقية العذبة ويهتز كل قلب طرباً وفرحاً لا يُنطق به ويرتفع كل صوت مسبحاً تسبيحة الشكر قائلاً: « الَّذِي أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمِهِ، وَجَعَلَنَا مُلُوكًا وَكَهَنَةً لِلَّهِ أَبِيهِ، لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ » (رؤيا ١: ٥، ٦).

وأمام جموع المفتدين تُرى المدينة المقدسة. فيفتح يسوع الأبواب اللؤلؤية على سعتها فتدخل كل الأمم التي قد حفظت الحق. وهناك يرون فردوس الله، البيت الذي كان يعيش فيه آدم وهو في حالة البر. وحينئذٍ يُسمع ذلك الصوت الذي هو أقوى وأعمق من أي موسيقى سمعتها أذن إنسان، قائلاً:

« لقد انتهت حربكم »، « تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رَثُوا الْمُلُكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مِنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ ». وحينئذ تجاب طلبة المخلص لأجل تلاميذه حين صلى قائلاً: « أُرِيدُ أَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي يَكُونُوا مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا ». « وَيُوقِفُكُمْ أَمَامَ مَجْدِهِ بِلَا عَيْبٍ فِي الْإِبْتِهَاجِ » (يهودا ٢٤). والمسيح يقدم إلى الآب مقتنى دمه معلنا وقائلاً: « ها أنا والأولاد الذين أعطيتنيهم ». « الذين أعطيتني حفظتهم ». آه ما أعجب معجزات المحبة الفادية! وما أعظم الفرح، فرح تلك الساعة التي فيها عندما ينظر الآب السرمدى إلى المفتدين يرى صورته، وعندما ينتهي تشويش الخطيئة ونزاعها يعود الإنسان مرة أخرى إلى الاتفاق والانسجام مع الله!

وبمحبة لا توصف يرحب يسوع بعبيده الأمانة للدخول إلى « فرح سيدهم ». ففرح المخلص ينحصر في كونه يرى في ملكوت المجد النفوس التي قد خلصت بقوة آلامه واتضاعه. وسيشاركه المفتدون في فرحه إذ يرون بين أولئك المغبوطيين أولئك الذين قد ربحوا للمسيح عن طريق صلواتهم وجهودهم وتضحيات محبتهم. وإذا اجتمعون حول العرش العظيم الأبيض تمتلئ قلوبهم بفرح لا يُنطق به عندما يرون الذين قد ربحوهم للمسيح ويرون أن واحداً قد ربح آخرين وهؤلاء ربحوا آخرين والجميع وصلوا إلى ميناء الراحة وموطن السلام حيث يطرحون تيجانهم عند رجلي يسوع ويسبحونه مدى أجيال الأبدية اللانهائية.

آدم الأول وآدم الثاني يلتقيان

وإذ يُرْحَبُ بالمفدين في مدينة الله تُسمع في الجو صرخة تمجيد فرحة. إن آدم الأول وآدم الثاني مزمان أن يتلاقيا. فابن الله واقف باسطة ذراعيه لاستقبال أبي البشر، المخلوق الذي قد جبله فأخطأ إلى صانعه وبسبب خطيئته يحمل المخلص في جسمه آثار الصليب. فإذا يرى آدم آثار المسامير القاسية لا يرتمي في حضن سيده ولكنه في اتضاع وتذلل وانكسار يرتمي عند قدميه صارخاً: « مُسْتَحَقُّ مُسْتَحَقُّ هُوَ الْخَرُوفُ الْمَذْبُوحُ! ». لكن المخلص يقيمه بكل رقة ويأمره بأن ينظر مرة أخرى إلى بيته في جنة عدن الذي كان قد نُفِيَ منه كل تلك الحقبة الطويلة من الزمن.

إن آدم بعدما طُرد من عدن امتلأت حياته على الأرض بالآلام والمتاعب. فكل ورقة يابسة وكل ضحية وكل ضربة وقعت على وجه الطبيعة الجميل وكل لطخة أصابت طهارة الإنسان كانت مذكراً جديداً له بخطيئته. وقد كانت مرارة حزنه شديدة ورهيبة وهو يرى الإثم يستشري ويتفاقم، وجواباً على إنذاراته جعل الناس يعيرونه بأنه هو سبب الخطيئة. فبوداعة وصبر احتمل قصاص تعديه قرابة ألف سنة. فتاب عن خطيئته بكل أمانة واتكال على استحقاقات المخلص الموعود به، ثم مات على رجاء القيامة. لقد افتدى ابن الله الإنسان من الفشل والسقوط، والآن فمن خلال الكفارة أعيد إلى آدم سلطانه الأول.

وإذا كان محمولا على أجنحة الفرح رأى الأشجار التي كان قبلاً يسر بها، الأشجار نفسها التي كان يجمع أثمارها بنفسه في أيام طهارته وفرحه. إنه يرى أشجار الكرم التي غرسها والأزهار نفسها التي كان يُسر بالعناية بها. ويستوعب عقله المنظر على حقيقته ويدرك أن هذه حقا هي عدن وقد أعيدت

إليه، وهي الآن أجمل مما كانت عندما طُرد منها. وها المخلص يأخذه إلى حيث توجد شجرة الحياة ويقطف من ثمارها المجيدة ويأمره بالأكل منها. فينظر آدم حواليه فيرى كثيرين من عائلته وقد افتدوا وهم واقفون في فردوس الله. ثم يطرح إكليله المتألق عند قدمي يسوع ويقع على صدر الفادي ويعانقه ثم يلمس أوتار قيثارته الذهبية فتدوي أرجاء السماء بأصوات أغنية الانتصار القائلة: « مستحق مستحق هو الخروف قد ذبح وعاش! »، فيشارك أفراد أسرة آدم في الأغنية ويطرحون أكاليهم عند قدمي المخلص وهم ينحنون أمامه ساجدين متعبدين ممجدين.

هذا الاتحاد من جديد يراه الملائكة الذين بكوا عندما سقط آدم وفرحوا عندما صعد يسوع إلى السماء بعد قيامته، إذ فتح باب القبر لكل من يؤمنون باسمه. والآن ها هم يرون عمل الفداء وقد أكمل فيشاركون في أنشودة الحمد بأصواتهم العذبة.

المئة والأربعة والأربعون ألفا

وعلى البحر البلوري أمام العرش، ذلك البحر من زجاج كأنه مختلط بنار والمتألق بمجد الله، يجتمع جمهور « الغالبيين على الوحش وصورته وعلى سمته وعدد اسمه ». ومع الخروف فوق جبل صهيون « معهم قيثارات الله » يقف المئة والأربعة والأربعون ألفا الذين قد افتدوا من بين الناس ويُسمع صوت كصوت مياه كثيرة وكصوت رعد عظيم. « كصوت ضاربين بالقيثارة يضربون بقيثاراتهم »، وهم يترنمون « ترنيمة جديدة » أمام العرش، ترنيمة لا يستطيع أحد أن يتعلمها إلا المئة والأربعة والأربعون ألفا. وهي ترنيمة موسى والخروف، ترنيمة النجاة. وليس غير المئة والأربعة والأربعون ألفا يستطيع أن يتعلم تلك الترنيمة لأنها ترنيمة اختبارهم، وهو اختبار لم يكن لجماعة أخرى سواهم، « هؤلاء هم الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْخُرُوفَ حَيْثُمَا ذَهَبَ ». هؤلاء إذ قد نُقلوا من الأرض من بين الأحياء فإنهم يحسبون « بأكورة لله وللخروف » (رؤيا ١٥: ٢، ٣؛ ١٤: ١-٥). « هؤلاء هم الَّذِينَ أَتَوْا مِنَ الضَّيْقَةِ الْعَظِيمَةِ ». لقد مروا في وقت ضيق لم يكن مثله منذ كانت أمة. واحتملوا آلام وقت ضيق يعقوب. وثبتوا من دون شفيع في أثناء انصباب ضربات الله الأخيرة. لكنهم نجوا لأنهم غَسَلُوا ثِيَابَهُمْ وَبَيَّضُوا ثِيَابَهُمْ فِي دَمِ الْخُرُوفِ. « وَفِي أَفْوَاهِهِمْ لَمْ يُوَجَدْ غُشٌّ، لِأَنَّهُمْ بَلَ عَيْبٌ قَدَامَ عَرْشِ اللَّهِ » (رؤيا ١٤: ٥). « من أجل ذلك هم أمام عرش الله، وَيَخْدُمُونَهُ نَهَارًا وَلَيْلًا فِي هَيْكَلِهِ، وَالْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ يَحُلُّ فَوْقَهُمْ ». لقد رأوا الأرض وقد ضربت بالجوع والوباء، والشمس وهي تحرق الناس بحرارتها العظيمة، وهم أنفسهم قد احتملوا الألم والجوع والعطش. لكنهم « لَنْ يَجُوعُوا بَعْدُ، وَلَنْ يَعْطَشُوا بَعْدُ، وَلَا تَقَعُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسُ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْحَرِّ، لَأَنَّ الْخُرُوفَ الَّذِي فِي وَسْطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ، وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ، وَيَمَسَحُ اللَّهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ » (رؤيا ٧: ١٤-١٧).

في كل العصور تعلم مختارو المخلص وتدربوا في مدرسة التجربة. لقد ساروا في طرق ضيقة على الأرض وتنفقوا في أتون الألم والتجربة. فلأجل يسوع احتملوا المقاومات والكراهية والوشايات. وقد اتبعوه في الحروب الحامية. احتملوا إنكار الذات والخيبة المريرة. وباختبارهم المؤلم تعلموا شر الخطيئة وسلطانها وجرمها وشقاءها. وهم ينظرون إليها بنفور واشمئزاز. إن إحساسهم بالتضحية

العظيمة المقدمة كعلاج للخطيئة يجعلهم يتضعون في أعين أنفسهم وتمتلئ قلوبهم بالشكر والتسبيح وهو ما لا يقدره أولئك الذين لم يسقطوا أبداً. إنهم يحبون كثيراً لأنه قد غُفر لهم كثير. وإذا صاروا شركاء المسيح في آلامه فقد صاروا أهلاً لمشاركته في مجده.

أتى ورثة الله من المساكن الحقيرة والمخابئ والسجون ومن آلات الإعدام ومن الجبال والبراري ومن شقوق الأرض وكهوف البحار. عندما كانوا على الأرض كانوا « مُعْتَازِينَ مَكْرُوبِينَ مُذَلِّينَ ». وقد نزل ملايين منهم إلى الهاوية مجلّلين بالعار لأنهم بكل ثبات رفضوا الخضوع لمطالب الشيطان الخادعة. حكمت عليهم المحاكم البشرية بأنهم أحط المجرمين، أما الآن فإن « الله هو الديان » (مزمو ٥٠: ٦). والآن قد عكست أحكام الأرض، « يَنْزِعُ عَارَ شَعْبِهِ » (إشعيا ٢٥: ٨). « ويسمونهم شعباً مقدساً مفدي الرب ». لقد قرر أن « يعطيهم جَمَلاً عَوْضاً عَنِ الرَّمَادِ، وَدُهْنَ فَرَحٍ عَوْضاً عَنِ النَّوْحِ، وَرَدَاءَ تَسْبِيحٍ عَوْضاً عَنِ الرُّوحِ الْيَائِسَةِ » (إشعيا ٦٢: ١٢؛ ٦١: ٣). لم يعودوا واهنين أو معذنين أو مشتتين أو مضطهدين. ومن الآن سيكونون مع الرب إلى الأبد. إنهم يقفون أمام العرش متسربلين بحلل أغلى من كل ما لبسه أكرم أهل الأرض. وعلى رؤوسهم أكاليل أمجد من كل ما كُِّل به الملوك الأرضيون. لقد انتهت إلى الأبد أيام الألم والبكاء. وملك المجد قد مسح الدموع عن كل الوجوه، وقد أزيلت كل مسببات الحزن. وفيما هم يلوحون بسعوف النخل يترنمون بترنيمة الحمد وهي صافية عذبة منسجمة متناسقة، وكل صوت يلتقط اللحن إلى أن ترتفع التسبيحة وتعلو في جو السماء إذ يقولون: « الْخَلَاصُ لِإِلَهِنَا الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخُرُوفِ ». فيجيب كل سكان السماء قائلين: « آمين! الْبَرَكَةُ وَالْمَجْدُ وَالْحِكْمَةُ وَالشُّكْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ لِإِلَهِنَا إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ. آمين! » (رؤيا ٧: ١٠، ١٢).

إننا في هذه الحياة نستطيع فقط أن نبدأ في إدراك موضوع الفداء العجيب. ويمكننا بأفهامنا القاصرة أن نتأمل بكل جد في العار والمجد والحياة والموت والعدل والرحمة التي تلتقي في الصليب، ولكن مع كل إجهادنا لقوى عقولنا لا نستطيع إدراك معناه إدراكاً كاملاً. فطول المحبة الفادية وعرضها وعمقها وعلوها لا يمكننا إدراكها إلا إدراكاً غامضاً. وتدبير الفداء لن يفهم فهماً كاملاً حتى عندما يرى المفتدون كما يُرون ويعرفون كما يُعرفون، ولكن مدى دهور الأبد سينكشف أمام الذهن المندهش المبتهج نور جديد على الدوام. ومع أن أحزان الأرض وآلامها وتجاربها قد انتهت وأزيلت أسبابها فإن شعب الله سيكون عندهم إدراك واضح واعي للكلفة التي دُفعت ثمناً لخلاصهم.

سيكون صليب المسيح نبع العلم وأغنية الحمد للمفتدين مدى الأبدية. ففي شخص المسيح الممجد سيرون أيضاً المسيح المصلوب. ولن يُنسى أبداً أن ذاك الذي بقدرته خلق العوالم التي لا تحصى ويدعمها في عالم الفضاء الواسع، وحبیب الله وجلال السماء، الذي يسر الكروبيم والساووفيم، المتألقون بالضياء بأن يسجدوا له، اتضع وأخلى نفسه ليرفع الإنسان الخاطئ الساقط، وحمل جرم الخطيئة وعارها، واحتجاب وجه أبيه عنه إلى أن كسرت قلبه ويلات العالم الهالك وسحقت حياته على صليب جلجلة. فكون خالق كل العوالم والحكم في مصائر الجميع، طرح عنه مجده ويضع نفسه مدفوعاً إلى ذلك بدافع المحبة للإنسان، هذا سيكون مبعث اندهاش المسكونة وتمجيدها إياه أبد الدهر. وإذا ينظر شعوب المخلصين إلى فاديهم ويرون مجد الآب السرمدى يشرق

من وجهه، وإذ يرون عرشه الذي هو من الأزل وإلى الأبد ويعرفون أنه لن يكون لملكه انقضاء، سيهتفون ويغنون أغنية الفرحة المذهلة للعقل قائلين: « مستحق مستحق هو الخروف الذي ذُبح واشترانا لله بدمه الكريم الثمين »

يفسر سر الصليب جميع الأسرار الأخرى. وفي النور المنبعث من جلجثة تبدو صفات الله، التي كانت قبلاً تملأ قلوبنا خوفاً ورهبة، جميلة وجذابة. فالرحمة واللفظ والمحبة الأبوية تُرى ممتزجة بالقداسة والعدل والقدرة. وفيما نرى جلال عرشه مرتفعاً وعالياً فإننا نتبين صفاته في إعلاناته الرحيمة ونذكر، كما لم نذكر من قبل، معنى هذا اللقب الباقي إلى الأبد « أبانا ».

وسيرى أن ذاك الذي هو غير محدود في الحكمة لم يستطع أن يبتكر خطة لأجل خلاصنا إلا ذبيحة ابنه. وإن التعويض عن هذه الذبيحة هو فرح تعمير الأرض بخلائق مفداة مقدسة سعيدة وخالدة. وإن نتائج حرب المخلص ضد قوات الظلمة هي للمفتدين، الفرحة الذي يؤول إلى تمجيد الله مدى الأجيال الأبدية. وقيمة النفس عظيمة هكذا حتى أن الآب يرضى بالثمن الذي دفع، والمسيح نفسه إذ يرى ثمار ذبيحته العظيمة سيكتفي ويشبع.

٤١ - خراب الأرض

« لَأَنَّ خَطَايَاهَا لَحَقَّتْ السَّمَاءَ، وَتَذَكَّرَ اللَّهُ آثَامَهَا... فِي الْكَأْسِ الَّتِي مَرَجَتْ فِيهَا امْرُجُوا لَهَا ضَعْفًا. بِقَدَرِ مَا مَجَّدَتْ نَفْسَهَا وَتَنَعَّمَتْ، بِقَدَرِ ذَلِكَ أَعْطَوْهَا عَذَابًا وَحَزْنًا. لِأَنَّهَا تَقُولُ فِي قَلْبِهَا: أَنَا جَالِسَةٌ مَلَكَةً، وَلَسْتُ أَرْمَلَةً، وَلَكِنْ أَرَى حَزْنًا. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ سَتَأْتِي ضَرْبَاتُهَا: مَوْتُ وَحَزْنٌ وَجُوعٌ، وَتَحْتَرِقُ بِالنَّارِ، لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الَّذِي يَدِينُهَا قَوِيٌّ، وَسَيَبْكِي وَيَبْكِي عَلَيْهَا مُلُوكُ الْأَرْضِ، الَّذِينَ زَنَوْا وَتَنَعَّمُوا مَعَهَا... قَائِلِينَ: وَيْلٌ! وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ بَابِلُ! الْمَدِينَةُ الْقَوِيَّةُ! لِأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ جَاءَتْ دَيْنُونَتُكَ » (رُؤْيَا ١٨: ٥-١٠).

« تَجَارِ الْأَرْضُ » الَّذِينَ قَدْ « اسْتَعْنَوْا مِنْ وَفْرَةٍ نَعِيمِهَا » « سَيَقْفُونَ مِنْ بَعِيدٍ، مِنْ أَجْلِ خَوْفِ عَذَابِهَا، يَبْكُونَ وَيَنُوحُونَ، وَيَقُولُونَ: وَيْلٌ! وَيْلٌ! الْمَدِينَةُ الْعَظِيمَةُ الْمُتَسَرِّبِلَةُ بَيْرٌ وَأَرْجُوانٌ وَقَرْمَزٌ، وَالْمُتَحَلِّبَةُ بِذَهَبٍ وَحَجَرٍ كَرِيمٍ وَلَوْلُؤٍ! لِأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ خَرَبَ غِنَى مِثْلُ هَذَا » (رُؤْيَا ١٨: ١١، ٣ و ١٥-١٧).

مثل هذه هي الضربات التي ستسقط على بابل في يوم افتقاد غضب الله. لقد ملأت مكيال إثمها وقد أتى وقتها ونضجت للهلاك.

وعندما يَرِدُ صوت الله سبي شعبه ستكون يقظة مخيفة للذين قد خسروا كل شيء في معركة الحياة العظيمة. ففي أثناء زمن النعمة أعمتهم مخادعات الشيطان وبرروا مسلكهم وهم سائرون في الخطيئة. فالأغنياء تفاخروا بتفوقهم على مَنْ كانوا أقل منهم في الغنى، لكنهم كانوا قد حصلوا على ثروتهم بانتهاك شريعة الله. لقد أهملوا إطعام الجياع وتقدير كساء للعراة والسلوك بالعدل ومحبة الرحمة. وحاولوا تعظيم أنفسهم والظفر بولاء بني جنسهم. أما الآن فقد تجردوا من كل ما جعلهم عظماء وتركوا معدمين وليس من يدافع عنهم. انهم ينظرون برعب إلى الهلاك الذي حاق بالأوثان التي قد آثروها على صانعهم. لقد باعوا نفوسهم بغنى الأرض وتنعماتها ولم يطلبوا أن يكونوا أغنياء في ما هو لله. والنتيجة هي أن حياتهم كانت فشلا ومسراتهم استحالت الآن إلى مرارة وكنوزهم صارت فسادا. وأرباحهم التي جمعوها مدى الحياة اكتُسحت في لحظة. والأغنياء ينوحون على الدمار الذي يحل ببيوتهم الفخمة العظيمة وتبديد ذهبهم وفضتهم. لكن بكاءهم ونوحهم سيسكنه الخوف من أنهم هم أنفسهم سيهلكون مع أوثانهم.

تمتلئ قلوب الأشرار حسرة ليس بسبب إهمالهم الأثيم تجاه الله وبني جنسهم بل لأن الله قد انتصر. إنهم يحزنون بسبب ما صارت إليه الأمور لكنهم لا يتوبون عن آثامهم. ولا يدعون وسيلة من دون أن يستخدموها لينتصروا إن أمكن.

ينظر العالم إلى الجماعة نفسها التي كان الناس يسخرون منها ويهزأون بها ويحاولون استئصالها وهي تعبر في وسط البواء والعاصفة والزلزلة من دون أن يصاب أحد أفرادها بأذى. فذاك الذي هو

نار آكلة لمن يعصون شريعته هو بالنسبة إلى شعبه حصن أمين.

يتمردون على الله

والخادم الذي ضحى بالحق للظفر برضى الناس يكتشف الآن صفة تعاليمه وأثرها. ويبدو أن العين التي ترى وتعرف كل شيء كانت تراقبه وهو يقف في منبره أو يذرع الشوارع أو يختلط بالناس في مشاهد الحياة المختلفة. فكل انفعال في النفس، وكل سطر كتب، وكل كلمة قيلت، وكل عمل ساق الناس إلى أن يستريحوا في ملجأ الأكاذيب، كل ذلك كان بمثابة إلقاء البذار، والآن ففي كل نفس شقية هالكة حوله يرى الحصاد.

لقد قال الرب: « يشفون كسر بنت شعبي على عثم قائلين سلام سلام ولا سلام »، « لَأَنْكَنْ أَحْزَنْتَن قَلْبَ الصَّدِيقِ كَذِبًا وَأَنَا لَمْ أُحْزَنْهُ، وَشَدَّدْتُ أَيْدِيَ الشَّرِيرِ حَتَّى لَا يَرْجِعَ عَنْ طَرِيقِهِ الرَّدِيئَةِ فَيَحْيَا » (إِرميا ٨: ١١؛ حزقيال ١٣: ٢٢).

« وَيَلُ للِرُعَاةِ الَّذِينَ يُهْلِكُونَ وَيُبَدِّدُونَ غَنَمَ رَعِيَّتِي، يَقُولُ الرَّبُّ!... هَآنَذَا أُعَاقِبُكُمْ عَلَى شَرِّ أَعْمَالِكُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ » « وَلَوْلُوا أَيُّهَا الرُّعَاةُ وَاصْرُخُوا، وَتَمَرَّغُوا يَا رُؤَسَاءَ الْغَنَمِ، لَأَنَّ أَيَّامَكُمْ قَدْ كَمَلَتْ لِلذَّبْحِ. وَأَبَدُّكُمْ... وَيَبِيدُ الْمَنَاصُ عَنْ الرُّعَاةِ، وَالنَّجَاةُ عَنْ رُؤَسَاءِ الْغَنَمِ » (إِرميا ٢٣: ١، ٢؛ ٢٥: ٣٤، ٣٥).

ويرى الخدام والشعب انهم لم يحتفظوا بعلاقتهم الصائبة بالله بل تمردوا على معطي كل شريعة عادلة بارة. وقد نشأ عن طرح الوصايا الإلهية جانبا ظهور آلاف من منابع الشر والنزاع والخصومات والكراهية والإثم حتى لقد أمست الأرض ميدان حرب عظيمة واسعة النطاق وبؤرة للإثم. هذا هو المنظر الذي يبدو الآن لعيون من قد رفضوا الحق واختاروا الضلال واحتضنوه. ولا تستطيع لغة أن تصف الشوق الذي يحس به العصاة والخونة للحصول على ما قد خسروه إلى الأبد: الحياة الأبدية. والناس الذين عبدهم العالم لأجل مواهبهم وفصاحتهم يرون هذه الأشياء على حقيقتها الآن. ويتحققون من طبيعة ما قد خسروه بعصيانهم وينطرحون تحت أقدام الذين قد احتقروا ولاءهم وسخروا بخلاصهم ويعترفون بأن الله قد أحبهم.

وسيرى الناس أنه قد غرر بهم، ويتهم أحدهم الآخر بأنه هو الذي قاده إلى الهلاك، ولكنهم يتفقون جميعا على توجيه أمر الإدانة واللوم إلى الخدام. فالرعاة غير الأمناء قد تنبأوا لهم بالناعمات وجعلوا سامعيهم يستهينون بشريعة الله ويضطهدون الذين أرادوا أن يحفظوها مقدسة. فهؤلاء المعلمون، في يأسهم الآن، يعترفون أمام العالم بأن عملهم كان عمل الخداع فتمتلئ قلوب جماهير الناس بثورة غضب واحتياج ويصرخون قائلين: « لقد هلكنا! وأنتم علة هلاكنا »، ثم يهجمون على الرعاة الكذبة. والناس أنفسهم الذين أعجبوا بهم قبل أعظم إعجاب سيقذفونهم بأرهب اللعنات. والأيدي ذاتها التي كللتهم من قبل بإكليل الفخر ستمتد الآن لإهلاكهم. والسيوف التي كانت معدة لقتل شعب الله تُستخدم الآن لإهلاك أعدائهم. وفي كل مكان توجد الحروب وسفك الدماء.

« بَلَعَ الصَّحْبُجُ إِلَى أَطْرَافِ الْأَرْضِ، لَأَنَّ لِلرَّبِّ خُصُومَةً مَعَ الشُّعُوبِ. هُوَ يُحَاكِمُ كُلَّ ذِي جَسَدٍ. يَدْفَعُ الْأَشْرَارَ لِلسَّيْفِ، يَقُولُ الرَّبُّ » (إِرميا ٢٥: ٣١). فعلى مدى ستة آلاف سنة ظل الصراع العظيم

محتدماً: ابن الله ورسله السماويون كانوا في حالة حرب مع قوة الشرير لكي يندروا وينيروا ويخلصوا بني الإنسان. والآن قد تقرر قرار الجميع واتحد الأشرار اتحاداً كاملاً مع الشيطان في حربه ضد الله. والآن جاء الوقت الذي فيه يزكي الله سلطان شريعته المدوسة بالأقدام. والآن لم يعد الصراع قاصراً على الشيطان بل صار صراعاً مع الناس. إِنَّ « لِلرَّبِّ خُصُومَةً مَعَ الشُّعُوبِ »، « يَدْفَعُ الْأَشْرَارَ لِلسَّيْفِ ».

وإن سمة النجاة قد وُضعت على جباه « الَّذِينَ يَتُّنُونَ وَيَتَهَدُّونَ عَلَى كُلِّ الرَّجَاسَاتِ الْمَصْنُوعَةِ ». والآن فيها ملاك الموت يخرج ويرمز إليه في رؤياً حزقيال بالرجال الذين بأيديهم عدتهم الساحقة والذين صدر إليهم الأمر: « الشَّيْخُ وَالشَّابُّ وَالْعَذْرَاءُ وَالطِّفْلُ وَالنِّسَاءُ، اقْتُلُوا لِلْهَلَاكِ. وَلَا تَقْرُبُوا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ، وَابْتَدُّوا مِنْ مَقْدَسِي ». والنبي يقول: « فَأَبْتَدُّوا بِالرِّجَالِ الشُّيُوخَ الَّذِينَ أَمَامَ الْبَيْتِ » (حزقيال ٩: ١-٦). إن عملية الهلاك تبدأ بالذين اعترفوا بانهم حراس الشعب الروحيون. فالحراس الكذبة هم أول الهالكين. ولا يوجد من يشفق أو يبقي عليهم. فالرجال والنساء والعذارى والأطفال يهلكون معاً.

« لِأَنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ لِيُعَاقِبَ إِنْثَمَ سُكَّانِ الْأَرْضِ فِيهِمْ، فَتَكْشِفُ الْأَرْضُ دِمَاءَهَا وَلَا تَغْطِي قَتْلَاهَا فِي مَا بَعْدُ » (إشعياء ٢٦: ٢١). « وَهَذِهِ تَكُونُ الضَّرْبَةُ الَّتِي يَضْرِبُ بِهَا الرَّبُّ كُلَّ الشُّعُوبِ الَّذِينَ تَجَنَّدُوا عَلَى أُورُشَلِيمَ. لَحْمُهُمْ يَذُوبُ وَهُمْ وَاقِفُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَعَيُونُهُمْ تَذُوبُ فِي أَوْقَابِهَا، وَلِسَانُهُمْ يَذُوبُ فِي فَمِهِمْ. وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ اضْطِرَاباً عَظِيماً مِنَ الرَّبِّ يَحْدُثُ فِيهِمْ، فَيَمْسِكُ الرَّجُلُ بِيَدِ قَرِيْبِهِ وَتَعْلُو يَدُهُ عَلَى يَدِ قَرِيْبِهِ » (زكريا ١٤: ١٢، ١٣). ففي الحرب الجنونية التي فيها تتصارع أهواؤهم العنيفة، وفي انسكاب غضب الله الصرف الرهيب يسقط سكان الأرض الأشرار من الكهنة والحكام والشعب والأغنياء والفقراء والعالي والدون، « وَتَكُونُ قَتْلَى الرَّبِّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ أَقْصَاءِ الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ الْأَرْضِ. لَا يُنْدَبُونَ وَلَا يُضْمَنُونَ وَلَا يُدْفَنُونَ » (إرميا ٢٥: ٣٣).

عند مجيء المسيح يَمْحَى الأشرار عن وجه كل الأرض فيبيدهم بنفخة فمه ويهلكهم ببهاء مجده. وسيأخذ المسيح خاصته إلى مدينة الله، وتُفْرغ الأرض من سكانها. « هُوَذَا الرَّبُّ يُخْلِي الْأَرْضَ وَيُفْرِغُهَا وَيَقْلِبُ وَجْهَهَا وَيُبَدِّلُ سُكَّانَهَا »، « تُفْرَغُ الْأَرْضُ إِفْرَاقاً وَتُنْهَبُ نَهْباً، لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْقَوْلِ »، « لَأَنَّهُمْ تَعَدَّوْا الشَّرَائِعَ، غَيَّرُوا الْفَرِيضَةَ، نَكَثُوا الْعَهْدَ الْأَبَدِيَّ. لِذَلِكَ لَعْنَةُ الْأَرْضِ وَعَوَقِبَ السَّاكِنُونَ فِيهَا. لِذَلِكَ احْتَرَقَ سُكَّانُ الْأَرْضِ » (إشعياء ٢٤: ١، ٣، ٥، ٦).

وتبدو الأرض كلها كقفر خرب. فخرائب المدن والقرى التي دمرتها الزلزلة، والأشجار المقتلعة، والصخور الخشنة التي قذفها البحر أو اقتلعت من الأرض نفسها تتبعثر على سطحها، بينما توجد كهوف واسعة تبين الأماكن التي فيها اقتلعت الجبال من أساساتها.

طرد الشيطان

والآن تقع الحادثة التي ترمز إليها آخر الخدمات المقدسة في يوم الكفارة. فبعدما كملت الخدمة في قدس الأقداس وُرفعت خطايا إسرائيل من القدس بفاعلية دم ذبيحة الخطيئة حينئذ قدم تيس

عزازيل حيا أمام الرب، وفي محضر الجماعة يقر رئيس الكهنة عليه « بَكْلَ دُنُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكُلَّ سَيِّئَاتِهِمْ مَعَ كُلِّ خَطَايَاهُمْ، وَيَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِ التَّيْسِ » (لاويين ١٦: ٢١). وبهذه الطريقة ذاتها عندما يكمل عمل الكفارة في القدس السماوي توضع في محضر الله وملائكة السماء وجموع المفتدين خطايا شعب الله على الشيطان ويُعلن أنه مجرم في كل الشر الذي ساقهم إلى ارتكابه. وكما أرسل تيس عزازيل إلى أرض مقفرة فالشيطان سيُطرد كذلك إلى الأرض الخربة التي هي بركة مقفرة وموحشة.

ينبئ الرائي بطرد الشيطان وحالة التشويش والخراب التي ستحل بالأرض، ويعلن أن هذه الحالة ستظل ألف سنة. وبعدها يعرض مشاهد مجيء الرب ثانية وهلاك الأشرار يستمر في سرد النبوة فيقول: « وَرَأَيْتُ مَلَكَ نَازِلًا مِنَ السَّمَاءِ مَعَهُ مِفْتَاحُ الْهَآوِيَةِ، وَسَلْسَلَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى يَدِهِ. فَقَبَضَ عَلَى التَّيْنِ، الْحَيَّةِ الْقَدِيمَةِ، الَّذِي هُوَ إِبْلِيسُ وَالشَّيْطَانُ، وَقَيَّدَهُ أَلْفَ سَنَةٍ، وَطَرَحَهُ فِي الْهَآوِيَةِ وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ لِكَيْ لَا يُضِلَّ الْأُمَّمَ فِي مَا بَعْدُ، حَتَّى تَتِمَّ الْأَلْفُ السَّنَةِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ لَا بَدَّ أَنْ يَحِلَّ زَمَانًا يَسِيرًا » (رؤيا ٢٠: ١-٣).

ويتضح من آيات أخرى أن عبارة « الهاوية » ترمز إلى الأرض في حالة التشويش والظلام. وفي ما يختص بحالة الأرض « في البدء » فإن الكتاب يقول أنها « خَرِبَةٌ وَخَالِيَةٌ، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ ». (إن الكلمة المترجمة هنا « غمر » هي الكلمة نفسها المترجمة في (رؤيا ٢٠: ١-٣) إلى كلمة « الهاوية » — (تكوين ١: ٢). فالنبوة تعلمنا أن الأرض ستعود إلى حالتها الأولى جزئيا على الأقل. وإرميا النبي إذ استشف يوم الله العظيم أعلن قائلا: « نَظَرْتُ إِلَى الْأَرْضِ وَإِذَا هِيَ خَرِبَةٌ وَخَالِيَةٌ، وَإِلَى السَّمَاوَاتِ فَلَا نُورَ لَهَا. نَظَرْتُ إِلَى الْجِبَالِ وَإِذَا هِيَ تَرْتَجِفُ، وَكُلُّ الْأَكَامِ تَقَلَّضَتْ. نَظَرْتُ وَإِذَا لَا إِنْسَانَ، وَكُلُّ طُيُورِ السَّمَاءِ هَرَبَتْ. نَظَرْتُ وَإِذَا الْبُسْتَانُ بَرِيَّةٌ، وَكُلُّ مَدْنِهَا نُقِضَتْ » (إرميا ٤: ٢٣-٢٦).

هنا سيكون موطن الشيطان مع ملائكته الأشرار مدة ألف سنة. وإذا يكون محصوراً في الأرض لن يمكنه الوصول إلى عوالم أخرى ليجرب ويزعج أولئك الذين لم يسقطوا قط. وبهذا المعنى يقال عنه أنه مقيد، إذ لم يبق أحد يمكنه أن يستخدم سلطانه ضده. لقد قُطع تماماً من عمل الخداع والخراب الذي ظل مدى قرون عديدة موضوع مسرته الأوحده.

والنبي إشعياء إذ يستبق الأحداث إلى زمن سقوط الشيطان يصيح قائلاً: « كَيْفَ سَقَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهْرَةٌ، بَنَتْ الصُّبْحَ؟ كَيْفَ قُطِعَتْ إِلَى الْأَرْضِ يَا قَاهِرَ الْأُمَمِ؟ وَأَنْتَ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللَّهِ... صِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ. لَكِنَّكَ انْحَدَرْتَ إِلَى الْهَآوِيَةِ، إِلَى أَسَافِلِ الْجُبِّ. الَّذِينَ يَرَوْنَكَ يَتَطَلَّعُونَ إِلَيْكَ، يَتَأَمَّلُونَ فِيكَ. أَهَذَا هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي زَلَزَلَ الْأَرْضَ وَزَعَزَعَ الْمَمَالِكَ، الَّذِي جَعَلَ الْعَالَمَ كَقَفَرٍ، وَهَدَمَ مَدْنَهُ، الَّذِي لَمْ يُطْلَقْ أَسْرَاهُ؟ » (إشعياء ١٤: ١٢-١٧).

فعلى مدى ستة آلاف سنة كان عمل الشيطان بعصيانه كفيلاً بأن « يزلزل الأرض »، « جعل العالم كقفر وهدم مدنه »، « ولم يطلق أسراه ». كان يحبس شعب الله في سجنه وكان يريد إبقاءهم في الأسر إلى الأبد. لكن المسيح حطم قيوده وأطلق الأسرى أحراراً.

بل حتى الأشرار هم الآن بعيدون عن تناول سلطان الشيطان. فإذا ينفرد بملائكته الأشرار يبقى

حيث هو ليتحقق من أثر اللعنة التي قد جلبتها الخطيئة. « كل ملوك الأمم بأجمعهم اضطجعوا بالكرامة كل واحد في بيته (قبره). » وَأَمَّا أَنْتَ فَقَدْ طُرَحْتَ مِنْ قَبْرِكَ كَغُصْنٍ أَشْنَعٍ ... لَا تَتَّحِدُ بِهِمْ فِي الْقَبْرِ لِأَنَّكَ أَخَرَبْتَ أَرْضَكَ، قَتَلْتَ شَعْبَكَ » (إشعياء ١٤: ١٨-٢٠).

وخلال ألف سنة سيتجول الشيطان هنا وهناك في الأرض الخربة ليرى نتائج عصيانه ضد شريعة الله. وفي هذه المدة ستكون آلامه هائلة. انه منذ سقوطه كانت حياته حياة النشاط الدائم الذي لا يكل حائلا بينه وبين التفكير. أما الآن فقد جُرد من سلطانه وترك ليتأمل مليا في الدور الذي قد لعبه منذ عصى أولا على حكم السماء ولينظر بخوف ورعب إلى المستقبل المخيف الذي فيه يجب أن يتألم لأجل كل الشر الذي فعله ويعاقب على كل الخطايا التي جعل الناس يرتكبونها.

أما بالنسبة إلى شعب الله فإن أسر الشيطان سيكون لهم سبب فرح وابتهاج. يقول النبي: « وَيَكُونُ فِي يَوْمٍ يُرِيحُكَ الرَّبُّ مِنْ تَعَبِكَ وَمِنْ انْزَعَاكِ، وَمَنْ الْعُبُودِيَّةِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي اسْتَعْبَدْتَ بِهَا، أَنْتَ تَنْطِقُ بِهَذَا الْهَجْوِ عَلَى مَلِكٍ بَابِلَ (وهو هنا يرمز إلى الشيطان) وَتَقُولُ: كَيْفَ بَادَ الظَّالِمُ ... قَدْ كَسَرَ الرَّبُّ عَصَا الْأَشْرَارِ، قَضَيْبَ الْمُتَسَلِّطِينَ. الضَّارِبُ الشُّعُوبَ بِسَخَطٍ، ضَرْبَةً بِلَا فُتُورٍ. الْمُتَسَلِّطُ بِغَضَبٍ عَلَى الْأُمَمِ، بِاضْطِهَادٍ بِلَا إِمْسَاكِ » (إشعياء ١٤: ٣-٦).

وفي أثناء الألف السنة بين القيامة الأولى والثانية سيدان الأشرار. وبولس الرسول يشير إلى هذه الدينونة كحدث يعقب المجيء الثاني حين يقول: « إِذَا لَا تَحْكُمُوا فِي شَيْءٍ قَبْلَ الْوَقْتِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّبُّ الَّذِي سَيُنِيرُ خَفَايَا الظَّلَامِ وَيُبْطِهُرُ آرَاءَ الْقُلُوبِ » (١ كورنثوس ٤: ٥). ودانيال يعلن أنه عندما جاء القديم الأيام « أعطى الدين لقيديشي العلي » (دانيال ٧: ٢٢). وفي هذا الوقت يملك الأبرار كملوك وكهنة لله. وفي سفر الرؤيا يقول يوحنا: « وَرَأَيْتُ عُرُوشًا فَجَلَسُوا عَلَيْهَا، وَأَعْطُوا حُكْمًا » « سَيَكُونُونَ كَهَنَةً لِلَّهِ وَالْمَسِيحِ، وَسَيَمْلِكُونَ مَعَهُ أَلْفَ سَنَةٍ » (رؤيا ٢٠: ٤، ٦). وفي هذا الوقت كما قد أنبا بولس قائلا: « إِنْ الْقَدِيسِينَ سَيَدِينُونَ الْعَالَمَ » (١ كورنثوس ٦: ٢) فإذا يكونون متحدين مع المسيح سيدينون الأشرار إذ يقيسون أعمالهم على كتاب الشريعة، الكتاب المقدس، ويحكمون في كل قضية بموجب الأعمال التي عملوها وهم في الجسد. وحينئذ يكال للأشرار النصيب الذي يجب أن يقاسوه بحسب أعمالهم وهو مسجل أمام أسمائهم في سفر الموت.

والشيطان والملائكة الأشرار أيضا يدينهم المسيح وشعبه. يقول بولس: « أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّنَا سَنَدِينُ مَلَائِكَةً؟ ». (١ كورنثوس ٦: ٣). ويهوذا يعلن قائلا: « وَالْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ لَمْ يَحْفَظُوا رِيَاسَتَهُمْ، بَلْ تَرَكُوا مَسْكَنَهُمْ حَفَظَهُمْ إِلَى دَيْنُونَةِ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ بِقُيُودِ أَبَدِيَّةِ تَحْتَ الظَّلَامِ » (يهوذا ٦).

وفي نهاية الألف السنة تكون القيامة الثانية. وحينئذ يقام الأشرار من الأموات ليمثلوا أمام الله لأجل تنفيذ « الحكم المكتوب ». وهكذا بعدما وصف الرائي قيامة الأبرار يقول: « وَأَمَّا بَقِيَّةُ الْأَمْوَاتِ فَلَمْ تَعِشْ حَتَّى تَتِمَّ الْأَلْفُ السَّنَةِ. هَذِهِ هِيَ الْقِيَامَةُ الْأُولَى » (رؤيا ٢٠: ٥). وإشعياء يعلن قائلا عن الأشرار: « وَيُجْمَعُونَ جَمْعًا كَأَسَارَى فِي سِجْنٍ، وَيُعْلَقُ عَلَيْهِمْ فِي حَبْسٍ، ثُمَّ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ يَتَعَهَّدُونَ » (إشعياء ٢٤: ٢٢).

٤٢ - النصر النهائية

وفي ختام الألف السنة سيجيء المسيح إلى الأرض مرة أخرى. ويصحبه جموع المفتدين وتحف به حاشية من الملائكة. فإذ ينزل في جلال مرهب يأمر الموتى الأشرار بأن يقوموا ليدانوا ويحكم عليهم. فيخرجون وهم جمع كبير جدا بلا عدد كرملة البحر. فإذ ينزل الأشرار الذين كان لهم نصيب في القيامة الأولى! لقد كان الأبرار متسرلين بالشباب الخالد والجمال، أما الأشرار فيحملون في أجسامهم آثار المرض والموت.

وكل عين في ذلك الجمع العظيم تلتفت لتشاهد مجد ابن الله. وبصوت واحد يصرخ الأشرار قائلين: « مبارك الآتي باسم الرب ». ليست المحبة ليسوع هي التي تلهمهم هذا الكلام بل قوة الحق تنتزع الكلام من شفاههم الكارهة انتزاعا. فكما نزل الأشرار إلى قبورهم كذلك خرجوا بالعداوة للمسيح وبروح العصيان ذاتهما. ولن يُعطوا فرصة اختبار أخرى ليُصلحوا نقائص حياتهم الماضية. ولن يجديهم هذا فتيل. فحياتهم التي قضيت في العصيان لم تجعل قلوبهم أقل صلابة. ولو أعطوا زمن النعمة من جديد لكانوا يقضونه في التهرب من مطالب الله وإثارة العصيان ضده.

والمسيح ينزل على جبل الزيتون الذي من فوقه صعد إلى السماء بعد قيامته وحيث كرر الملاك الوعد بعودته. والنبى يقول: « يَأْتِي الرَّبُّ إِلَهِي وَجَمِيعُ الْقَدِيسِينَ مَعَكَ »، « وَتَقِفُ قَدَمَاهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ الَّذِي قُدَّامَ أُورُشَلِيمَ مِنَ الشَّرْقِ، فَيَنْشَقُّ جَبَلُ الزَّيْتُونِ مِنْ وَسْطِهِ... وَادِيًا عَظِيمًا جَدًّا »، « وَيَكُونُ الرَّبُّ مَلَكًا عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ الرَّبُّ وَحْدَهُ وَاسْمُهُ وَحْدَهُ » (زكريا ١٤: ٥، ٤، ٩). وإذ تنزل أورشليم الجديدة من السماء بيهاؤها الذي يخطف الأبصار فهي تستقر في الموضع الذي قد تطهر وأعد لاستقبالها، فيدخل إليها المسيح ومعه شعبه وملائكته ويحلون في تلك المدينة المقدسة.

أما الآن فالشيطان يتأهب لخوض معركة أخيرة عظيمة للسيادة. إنَّ سلطان الشر إذ كان مجردا من سلطانه ومنقطعا عن عمل الخداع كان شقيا ومغموما، ولكن إذ يقام الموتى الأشرار ويرى هو ذلك الجمع العظيم إلى جانبه تنتعش آماله ويصمم على عدم التسليم في ذلك الصراع الهائل. وحينئذ يصف كل جيوشه من الهالكين تحت رايته وبواسطتهم يحاول تنفيذ خطته. والأشرار هم أسرى الشيطان منذ رفضوا المسيح وقبلوا حكم ذلك القائد المتمرد. وهم على استعداد لقبول مقترحاته وتنفيذ أمره. ولكن تمشيا مع خداعه ومكره القديم فهو لا يعترف بأنه الشيطان. ويدعي أنه الملك والمالك الشرعي للعالم الذي اغتصب منه ميراثه ظلما. وهو يصور نفسه لرعاياه المخدوعين بأنه القادي ويؤكد لهم أن قوته هي التي أخرجتهم من قبورهم وأنه مزعم أن يخلصهم من أقسى طغيان. وإذ يكون المسيح قد انسحب منهم فإن الشيطان يجري آيات ليسند ادعاءاته. فيقوي الضعفاء ويلهم الجميع بروحه ونشاطه وقوته. ويقترح أن يتقدمهم لمحاربة معسكر القديسين للاستيلاء على مدينة الله. وبفرح شيطاني يشير إلى الملايين التي لا حصر لها الذين قد أقيموا من الأموات ويعلن أنه بصفته قائدا لهم هو قادر على قلب المدينة واستعادة عرشه ومملكته.

وبين ذلك الجمع الغفير توجد جماهير من الجنس الذي كان يعيش منذ عصور القدم قبل

الطوفان، رجال طوال القامة ذوو عقول جبارة خضعوا لسلطان الملائكة الساقطين فكسروا كل ذكائهم ومعرفتهم لتمجيد أنفسهم، رجال قادت أعمالهم الفنية العجيبة العالم إلى أن يعبد عبقريتهم ونبوغهم لكن قسوتهم ومخترعاتهم الشريرة التي نجست الأرض وشوهت صورة الله جعلته يمحوهم من على وجه الخليقة. يوجد ملوك وقواد قهروا الأمم، وجبابرة بأس لم يهزموا قط في معركة، رجال حرب متكبرون طامعون كانوا يُرعبون الممالك التي يقتربون منها. والموت لم يحدث تغييرا في هؤلاء القوم. فإذا يخرجون من قبورهم يستأنفون تفكيرهم السابق نفسه. والرغبة نفسها في الغزو والفتح تحفزهم مثلما كانت تفعل عندما سقطوا.

المعركة الأخيرة ضد الله

يتشاور الشيطان مع ملائكته ثم مع هؤلاء الملوك والفاثحين والجبابرة. وهم ينظرون إلى القوة والجيوش العديدة التي في صفهم فيعلنون أن الجيش الذي في داخل أسوار المدينة صغير بالمقابلة مع جيوشهم وأنه يمكن الانتصار عليه. ثم يرسمون خططهم للاستيلاء على غنى أورشليم الجديدة ومجدها. ففي الحال يبدأ الجميع في التأهب للقتال. ويشرع الرجال المهرة في صنع أسلحة القتال. والقواد الحربيون الذين اشتهروا بنجاحهم يصفون جموع رجال الحرب في جماعات وأقسام. وأخيراً يصدر الأمر بالانطلاق فيتقدم إلى الأمام ذلك الجمع الذي لا يحصى عديده، جيش لم يسبق للفاتحين الأرضيين أن عباؤه ولا تضارعه كل الجيوش في مختلف العصور مجتمعة معا منذ بدأت الحرب على الأرض. والشيطان الذي هو أعظم المحاربين يتقدم الجيش وملائكته يضمون قواتهم إليه لخوض هذه المعركة الأخيرة. والملوك الجبابرة هم ضمن حاشيته ويتبعهم جموع هائلة، وكل جماعة منها تحت قيادة قائدها الخاص. وبدقة حربية تتقدم تلك الصفوف المتماسكة إلى الأمام على سطح الأرض المشقق الوعر نحو مدينة الله. وبناء على أمر يسوع تغلق أبواب أورشليم الجديدة فتحاصر جيوش الشيطان المدينة ويستعدون للهجوم.

المسيح يظهر

ومرة أخرى يظهر المسيح أمام عيون أعدائه. وفوق المدينة على ارتفاع شاهق يوجد عرش عال ومرتفع على أساس من الذهب المصقول. وعلى هذا العرش يجلس ابن الله وحوله رعايا ملكوته. ولأمكن لأفصح لسان أن يصف قدرة المسيح وجلاله، ولا يمكن لقلم كاتب أن يصوره. إن مجد الله السرمدى يحيط بابنه وبهاء حضوره يملأ مدينة الله ويفيض خارج الأبواب ويملا الأرض كلها ببهائه. وأقرب الناس إلى العرش هم أولئك الذين كانوا قبلا متحمسين للشيطان، ولكن إذ كانوا كشعلات منتشلة من الحريق فقد اتبعوا مخلصهم في تكريس عميق قوي. ويولي هؤلاء أولئك الذين قد كملوا الصفات المسيحية واحتفظوا بها في وسط الكذب والإلحاد، أولئك الذين أكرموا شريعة الله في وقت اعتبرها العالم المسيحي باطلة، وملايين من كل الأجيال الذين استشهدوا لأجل إيمانهم. وخلف هؤلاء يوجد « جَمْعٌ كَثِيرٌ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّهُ، مِنْ كُلِّ الْأُمَمِ وَالْقَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ وَالْأَلْسِنَةِ، وَاقِفُونَ أَمَامَ الْعَرْشِ وَأَمَامَ الْخُرُوفِ، مُتَسَرِّبِلِينَ بَشِيَابٍ بَيَضٍ وَفِي أَيْدِيهِمْ سَعَفُ النَّخْلِ » (رؤيا ٧: ٩). لقد

انتهت حربهم وأحرزوا الانتصار. لقد أكملوا السعي وحصلوا على الجعالة. وسعف النخل التي في أيديهم هي رمز الانتصار، والثياب البيض هي رمز لبس المسيح الخالي من العيب الذي صار لهم الآن. ثم إن المفتردين ينشدون ترنيمة حمد تعلو ويرن صداها في كل أرجاء السماء فيقولون: « الْخَلَّاصُ لِإِلَهِنَا الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخُرُوفِ » (رؤيا ٧: ١٠). والملائكة والسرافيم يشتركون بأصواتهم في هذا التمجيد. وكما قد رأى المفتردون قوة الشيطان وخبثه، فقد رأوا كما لم يروا قبلا أنه لا توجد قوة غير قوة المسيح كان يمكن أن تمنحهم النصر. وفي كل ذلك الجمع المتألق بالنور لا يوجد أحد ينسب الخلاص إلى نفسه كما لو أنه قد انتصر بقوته وصلاحه. ولا يذكر شيء عما قد فعلوه أو قاسوه، لكن قرار كل أغنية ومطلع كل أنشودة هو: « الخلاص لإلهنا وللخروف ».

إصدار الحكم على العصاة

وفي محضر سكان الأرض والسماء المجتمعين يتوج ابن الله نهائيا. والآن وقد زُودَ الجلال والمجد الفائقين فإن ملك الملوك ينطق بحكمه ضد العصاة على سلطانه وينفذ عدله على من قد عصوا عليه وتعدوا شريعته وضايقوا شعبه وظلموه. يقول نبي الله: « ثُمَّ رَأَيْتُ عَرْشًا عَظِيمًا أَبْيَضَ، وَالْجَالِسَ عَلَيْهِ، الَّذِي مِنْ وَجْهِهِ هَرَبَتْ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُمَا مَوْضِعٌ! وَرَأَيْتُ الْأَمْوَاتَ صَغَارًا وَكِبَارًا وَأَقْفِينَ أَمَامَ اللَّهِ، وَأُنْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ، وَأُنْفَتَحَ سَفْرٌ آخَرٌ هُوَ سِفْرُ الْحَيَاةِ، وَدِينُ الْأَمْوَاتِ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ » (رؤيا ٢٠: ١١، ١٢).

وحالما تفتح الأسفار وتقع عين يسوع على الأشرار يشعرون بكل خطيئة ارتكبوها. ويرون المكان نفسه الذي فيه انحرفت أرجلهم بعيدا عن طريق الطهارة والقداسة، وإلى أي مدى ساقتهم الكبرياء والتمرد للتعدي على شريعة الله، والتجارب الخادعة التي شجعوها بانغماسهم في الخطيئة، والبركات التي جحدوها، ورسل الله الذين احتقروهم، والإنذارات التي رفضوها، وأمواج الرحمة التي صدوها بقلوبهم العنيدة القاسية غير التائبة، كل هذه تظهر واضحة كما لو كانت مكتوبة بحروف من نار.

الصليب فوق العرش

وفوق العرش يُرى الصليب واضحا، وتظهر مشاهد تجربة آدم وسقوطه كما على شاشة بيضاء فسيحة، والخطوات المتتابعة في تدبير الفداء العظيم. فميلاد المخلص الوضيع، وحياته في صباه التي قضاها في بساطة وطاعة، ومعموديته في الأردن، والصوم والتجربة في البرية، وخدمته الجهارية التي كشف فيها للناس عن ائمن بركات السماء، والأيام التي ازدحمت بأعمال المحبة والرحمة، والليالي التي كان يقضيها ساهرا ومصليا معتزلا في الجبال، والجزاء الذي ناله من مؤامرات الحسد والكراهية والخبث في مقابل الخير العظيم الذي نالوه على يديه، والعذاب الأليم المخيف الغامض في جثسيماني تحت الثقل العظيم لخطايا العالم كله، وتسليمه لأيدي الرعاع المجرمين القتلة، والحوادث المخيفة التي حدثت في ليلة الرعب تلك، — الأسير المستسلم وقد تركه تلاميذه الأحباء، وهو يساق بكل قسوة وعنف في شوارع أورشليم؛ ابن الله وهو يُقدَّم أمام حنَّان وسط الابتهاج

والتهلل ويُحاكَم في قصر رئيس الكهنة، وفي دار ولاية بيلاطس وأمام هيرودس الجبان القاسي، وقد سخرُوا به وأهانوه وعذبوه وحكم عليه بالموت، كل ذلك يَصوِّر بكل وضوح. والآن تعلن المشاهد النهائية أمام ذلك الجمع الحاشد: فالمتألم الصبور يسير في الطريق إلى جلجثة، ملك السماء يُعلق على الصليب، الكهنة المتعجرفون والرعاع يهزأون بآلام احتضاره، الظلمة غير الطبيعية تغطي الأرض التي تزلزلت والصخور التي تشققت والقبور التي تفتحت محددة اللحظة التي فيها أسلم فادي العالم روحه.

يبدو المنظر المخيف كما كان تماما، فالشيطان وملائكته ورعاياه لا يستطيعون الابتعاد عن الصورة التي تصور عملهم. فكل ممثل يذكر الدور الذي مثَّله: هيرودس الذي قتل أطفال بيت لحم الأبرياء لكي يُهلك ملك إسرائيل، وهيروديا السافلة التي يستقر على نفسها الآثمة دم يوحنا المعمدان، وبيلاطس الضعيف خادم الزمان، والجنود الساخرون، والكهنة والشيوخ والشعب المجنون الذي صرخ قائلا: « دَمُهُ عَلَيْنَا وَعَلَى أَوْلَادِنَا » ... الجميع يرون هول جريمتهم. وعبثا يحاولون الاختباء من جلال وجه الله الذي يكشف بهاء الشمس، بينما المفتدون يطرحون أكاليهم عند رجلي المخلص صارخين وقائلين: « لقد مات عني! ».

وبين جموع المفتدين يوجد رسل المسيح، بولس الشجاع وبطرس الغيور ويوحنا المحب والمحبوب وإخوتهم المخلصون، ومعهم الجمهور الكبير من الشهداء، بينما يوجد في خارج الأسوار مع كل ما هو دنس ورجس أولئك الذين قد اضطهدوهم وسجنوهم وقتلوهم. فهناك يوجد نيرون ذلك الوحش الذي اشتهر بالقسوة والرديلة وهو يرى فرح وتمجيد الذين قد عذبهم، فيما كان يجد سروره الشيطاني وهو يراهم يقاسون أرواح العذابات. وأمه هناك لتشهد نتيجة عملها ولترى كيف إن طابع خلقها الشرير قد انتقل إلى ابنها، والأهواء والشهوات التي تجرأ على السير فيها وتمميتها بقوة تأثيرها ومثالها قد آتت ثمارها في الجرائم التي جعلت العالم يرتعد من هولها.

وهناك يوجد كهنة وأساقفة بابويون ممن ادعوا أنهم سفراء المسيح ومع ذلك فقد لجأوا إلى آلات التعذيب والسجون والحرق بالنار ليتحكموا في ضمائر شعبه. وهناك الباباوات المتكبرون الذين رفعوا أنفسهم فوق الله وتجرأوا على تغيير شريعة العلي. فأبَاء الكنيسة الأدعياء أولئك عليهم حساب عسير يقدمونه إلى الله، وهم يشناقون إلى أن يُعفوا من ذلك، ويرون في وقت متأخر جدا أن الله العليم بكل شيء يغار على شريعته وأنه لا يبرر المذنب. وهم يعلمون الآن أن المسيح يقرن مصلحته بمصالح شعبه المتألمين ويحسون بقوة كلامه القائل: « بَمَا أَنْكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدٍ إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ، فَبِي فَعَلْتُمْ » (متى ٢٥: ٤٠).

إنَّ العالم الشرير كله يقف متهما أمام محكمة الله بتهمة الخيانة العظمى ضد حكم السماء. ولا يجدون من يترافع عنهم في قضيتهم، فهم بلا عذر وقد صدر ضدهم الحكم بالموت الأبدي. لقد اتضح للجميع الآن أن أجرة الخطيئة ليست الاستقلال النبيل والحياة الأبدية بل العبودية والدمار والموت. والأشرار يرون ما قد أضاعوه بحياة العصيان التي عاشوها. إن ثقل المجد الأبدي الاستثنائي قد احتُقر عندما قُدم إليهم، ولكن كم يبدو مرغوبا فيه الآن. تقول النفس الهالكة صارخة: « كان

يمكنني امتلاك كل هذا ولكنني أبعدت كل هذه الأشياء عني. آه يا له من جنون غريب! لقد استعصت عن السلام والسعادة والكرامة بالشقاء والعار واليأس». والجميع يرون أن طردهم من السماء عادل. ففي حياتهم أعلنوا قائلين: «لا نريد أن يسوع هذا يملك علينا».

لقد نظر الأشرار إلى تتويج ابن الله وكأنهم ذاهلون. إنهم يرون بين يديه لوحى الشريعة الإلهية، الوصايا التي قد احتقروها أو عصوها. ويشهدون الدهشة والفرح الغامر والتمجيد الذي يقدمه المخلصون. وإذا تكتسح موجة النعمات المطربة الجموع الذين خارج المدينة فالجميع يصرخون قائلين بصوت واحد: «عَظِيمَةٌ وَعَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهِ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ! عَادِلَةٌ وَحَقُّ هِيَ طُرُقُكَ يَا مَلِكَ الْقَدِيسِينَ!» (رؤيا ١٥: ٣)، وإذا يسقطون على وجوههم يقدمون السجود لرئيس الحياة.

هزيمة الشيطان في النهاية

ثم إن الشيطان يبدو وكأنه قد سُتِّ قواه عندما يرى مجد المسيح وجلاله. فذاك الذي كان قبلًا كروبا مظلا يذكر من أين سقط. إن الذي كان أحد السرافيم المتألقين بالنور و «ابن الصبح» كم تبدل وانحط! لقد طُرد إلى الأبد من المجلس الذي كان قبلًا مكرَّمًا فيه والآن يرى آخر غيره واقفا بالقرب من الآب سائرا مجده. لقد رأى الإكليلى يوضع على رأس المسيح بيد ملاك طويل القامة جليل المنظر، ويعرف أن المركز السامى الذى يشغله هذا الملاك كان يمكن أن يشغله هو.

ثم تستعيد الذاكرة وطن براءته وطهارته والسلام والقناعة للذين كانا من صفاته إلى أن انغمس في التبرم والتذمر ضد الله والحسد للمسيح. فاتهاماته وتمرده ومخاتلاته في الحصول على السيادة وعطف الملائكة وتعصيدهم، وإصراره العنيد في عدم محاولة الرجوع عندما كان يمكن لله أن يمنحه الغفران، كل هذه ظهرت أمامه بكل جلاء. ثم يستعرض أعماله بين الناس ونتائجها: عداوة الإنسان لأخيه الإنسان، وهلاك الحياة الرهيب وقيام الممالك وسقوطها وقلب العروش، وتوالى حوادث الشغب الطويلة والحروب والثورات. ثم يستعرض محاولاته المستمرة في مقاومة عمل المسيح وانحداره إلى أسفل وأسفل. وهو يرى أن مؤامراته الجهنمية كانت عاجزة عن إهلاك الذين وضعوا ثقتهم في يسوع. وإذا ينظر الشيطان إلى مملكته، ثمرة جهوده، لا يرى غير الفشل والخراب. لقد جعل جماهير من الناس يعتقدون أن مدينة الله ستكون غنيمة باردة ولكنه يعلم أن هذا كذب. ومرارا وتكرارا في سير الصراع الهائل انهزم وأرغم على التسليم. وهو يعرف تمام المعرفة قوة الإله السرمدى وجلاله.

افتضاح المضل الأكبر

لقد كان غرض المتمرد الأعظم دائما تبرير نفسه وإقامة البرهان على أن سياسة الله هي المسئولة عن العصيان. ولأجل هذه الغاية سخر كل قوى عقله الجبار. لقد عمل بترى ونظام وبنجاح مدعش إذ جعل جماهير كثيرة من الناس يقبلون تفسيره للصراع الهائل الذى ظل محتما هذا الأمد الطويل. فعلى امتداد آلاف السنين ظل رئيس التآمر هذا يلبس الباطل ثوب الحق. ولكن ها قد أتى الوقت الذى فيه يُهزم العصيان نهائيا ويكشف الستار عن تاريخ الشيطان وصفاته. إن المخادع الأعظم فى

محاولته الأخيرة أن يخلع المسيح عن عرشه ويهلك شعبه ويستولي على مدينة الله انكشف القناع عن وجهه تماما. والذين اتحدوا معه يرون فشل قضيته أخيرا فشلا تاما. وأتباع المسيح والملائكة الأمناء يرون مدى مكاييد الشيطان ضد حكم الله. وقد صار الشيطان موضوع كراهية الجميع واشمئزازهم. يرى الشيطان أن تمرده الذي أقدم عليه بمحض اختياره لا يؤهله للسماء. لقد درب قواه على محاربة الله. وطهارة السماء وسلامها وانسجامها ستكون سبب عذاب هائل له. لقد أسكتت الآن اتهاماته ضد رحمة الله وعدله. والعار الذي حاول أن يلصقه بالرب يستقر كله عليه. والآن فيها الشيطان ينحني معترفا بعدالة الحكم الذي صدر ضده.

« مَنْ لَا يَخَافُكَ يَا رَبُّ وَيُمَجِّدُ اسْمَكَ؟ لِأَنَّكَ وَحْدَكَ قُدُّوسٌ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ سَيَّائِثُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَكَ، لِأَنَّ أَحْكَامَكَ قَدْ أُظْهِرَتْ » (رؤيا ١٥: ٤). والآن قد اتضح كل شك أو تساؤل في ما يختص بالحق والضلال في الصراع الهائل الطويل الأمد. ونتائج العصيان وثمار طرح شريعة الله جانبا اتضحت أمام انظار كل الخلائق العاقلة. وعُرضت نتائج حكم الشيطان، على نقيض حكم الله، أمام المسكونة كلها. فأعمال الشيطان قد دانت. بينما حكمة الله وعدله وصلاحه قد تزكت تماما. وقد رؤي أن كل معاملاته في الصراع الهائل قد دُبرت بحيث تؤول إلى خير شعبه الأبدي وخير كل العوالم التي خلقها. « يَحْمَدُكَ يَا رَبُّ كُلُّ أَعْمَالِكَ، وَيُبَارِكُكَ أَتْقِيَاؤُكَ » (مزمو ١٤٥: ١٠). إن تاريخ الخطيئة سيظل إلى الأبد شاهدا على أن سعادة كل خلائق الله مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجود شريعته. ومع كل الحقائق الخاصة بالصراع الهائل الذي أماننا فكل المسكونة، المخلصون منهم والعصاة، يعلنون بفم واحد قائلين: « عَادِلَةٌ وَحَقٌّ هِيَ طُرُقُكَ يَا مَلِكَ الْقَدِيسِينَ ».

وأمام المسكونة عُرِضَتْ بكل وضوح الذبيحة العظيمة التي قدمها الآب والابن لأجل الإنسان. وقد أتت الساعة التي يتبوأ فيها المسيح مركزه الشرعي ويتمجد فوق الرياسات والسلطين وكل اسم يسمّى. إنه من أجل السرور الموضوع أمامه — لكي يأتي بأبناء كثيرين إلى المجد — احتمل الصليب مستهينا بالخزي. ومع أن الحزن والآلام والعار كانت عظيمة جدا فإن السرور والمجد أعظم. انه ينظر إلى المفتدين وقد تجددوا فصاروا في شبه صورته، وكل قلب يحمل الطابع الإلهي الكامل، وكل وجه يعكس صورة مليكه. إنه يرى فيهم نتيجة تعب نفسه فتطيب نفسه. وبصوت يصل إلى أسماع الجماهير المجتمعة من الأبرار والأشرار يعلن حينئذ قائلا: « هوذا مقتنى دمي! فلاجل هؤلاء تألمت ولأجلهم مت لكي يسكنوا في حضرتي مدى دهور الأبد ». وحينئذ ترتفع أنشودة الحمد من أفواه اللابسين الثياب البيض حول العرش قائلة: « مُسْتَحَقُّ هُوَ الْخُرُوفُ الْمَذْبُوحُ أَنْ يَأْخُذَ الْقُدْرَةَ وَالْغِنَى وَالْحِكْمَةَ وَالْقُوَّةَ وَالْكَرَامَةَ وَالْمَجْدَ وَالْبَرَكَاتَةَ » (رؤيا ٥: ١٢).

صراع أخير يائس

ولكن على الرغم من كون الشيطان قد أجبر على الاعتراف بعدالة الله والانحناء أمام سيادة المسيح فإن صفاته تبقى كما هي من دون تغيير. فروح العصيان ترتد عليه كسيل جارف. وإذ يمتلئ بالجنون يصمم على عدم الاستسلام في الصراع الهائل. لقد جاء الوقت الذي فيه يشتبك في صراع أخير

يأئس ضد ملك السماء. فيندفع في وسط رعاياه محاولاً أن يلهمهم بما يعتمل في صدره من ثورة واحتياج ويشيرهم للاشتباك في الحرب في الحال. ولكن من بين الملايين التي لا تحصى الذين قد أغواهم على العصيان لا يوجد الآن ولا واحد يعترف بسيادته. لقد انتهى سلطانه. والأشعار تملأهم ذات الكراهية التي تعتمل في قلب الشيطان تجاه الله. لكنهم يرون أن قضيتهم صارت ميؤوساً منها وانهم لا يستطيعون الانتصار على الرب. فيثور غضبهم ضد الشيطان وضد الذين كانوا أعوانه في الخداع، فبغضب إبليشي يرتدون عليهم.

يقول الرب: « من أجل أنك جعلت قلبك كقلب الآلهة، لذلك هأنذا أجلب عليك غرباء، عتاة الأمم، فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك ويدنسون جمالك. ينزلونك إلى الحفرة، فتموت موت القتل، » « أريدك أيها الكروب المظلل من بين حجارة النار... سأطرحك إلى الأرض، وأجعلك أمام الملوك لينظروا إليك... وأصيرك رماداً على الأرض أمام عيني كل من يراك... وتكون أهوالاً ولا توجد بعد إلى الأبد » (حزقيال ٢٨: ٦-٨ و ١٦-١٩).

« لأن كل سلاح المتسلح في الوعي وكل رداء مدحرج في الدماء، يكون للحريق، مأكلاً للنار، » « لأن للرب سخطاً على كل الأمم، وحمواً على كل جيشهم. قد حرّمهم، دفعهم إلى الذبح، » « يُمطر على الأشجار فحاًخاً، ناراً وكبريتاً، وريح السموم نصيب كأسهم » (إشعيا ٩: ٥؛ ٣٤: ٢؛ مزمور ١١: ٦). إن النار تنزل من عند الله من السماء، والأرض تتشقق والأسلحة المخفية في أعماقها تخرج. فتندفع من فجواتها نار محرقة ونفس الصخور تشتعل بالنار. لقد جاء اليوم المتقدم كالتنور. وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها (ملاخي ٤: ١؛ ٢ بطرس ٣: ١٠). وسطح الأرض يبدو كأنه كتلة واحدة ذائبة: بحيرة واسعة من النار تغلي. انه وقت الدينونة والهلاك للأشعار. « لأن للرب يوم انتقام، سنة جزاء من أجل دعوى صهيون » (إشعيا ٣٤: ٨).

إن الأشعار ينالون جزاءهم في الأرض (أمثال ١١: ٣١). « يكونون قشاً، ويحرقهم اليوم الآتي، قال رب الجنود » (ملاخي ٤: ١). فالبعض يهلكون كما في لحظة، بينما آخرون يتعذبون أياماً طويلة. والجميع سيعاقبون « حسب أعمالهم ». وحيث أن خطايا الأبرار قد وضعت على الشيطان فهو سيتألم لا لأجل عصيانه فحسب بل لأجل كل الخطايا التي جعل شعب الله يرتكبونها. وسيكون قصاصه ارهب بكثير من قصاص الذين قد أضلهم. فبعد هلاك كل من قد غرر بهم سيظل حياً وسيقاسي الأهوال. إن الأشعار يهلكون أصلاً وفرعاً في النار المطهرة؛ فالشيطان هو الأصل وأتباعه هم الفروع. لقد وقع قصاص التعدي على الناموس كاملاً، وقد أجيبت كل مطالب العدل، والسماء والأرض إذ تنظران ذلك تعلنان عدالة الرب.

إن عمل التخريب والهلاك الذي قام به الشيطان قد انتهى إلى الأبد. فخلال ستة آلاف سنة تمم الشيطان إرادته إذ ملأ الأرض شقاء، وسبب الأحزان لكل خلائق المسكونة. فكل الخليقة تنن وتتمخض من فرط الألم. أما الآن فإن خلائق الله سيتخلصون إلى الأبد من وجود الشيطان وتجاربه. « استراحات اطمأنت كل الأرض. هتفوا (الأبرار) ترنما » (إشعيا ١٤: ٧). وسترتفع هتافات حمد وانتصار من كل المسكونة الأمانة: « صوت جمع كثير، وكصوت مياه كثيرة، وكصوت رعود شديدة »

يُسمع قائلا: « هَلِّلُوهَا! فَإِنَّهُ قَدْ مَلَكَ الرَّبُّ إِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » (رؤيا ١٩: ٦).
 « وإذ تلتف الأرض في رداء من النار المهلكة يكون الأبرار ساكنين مطمئنين في المدينة المقدسة. وأولئك الذين كان لهم نصيب في القيامة الأولى ليس للموت الثاني سلطان عليهم. وفي حين أن الله هو نار آكلة للأشجار فهو لشعبه شمس ومجن » (رؤيا ٢٠: ٦؛ مزمور ٨٤: ١١).
 « ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لَأَنَّ السَّمَاءَ الْأُولَى وَالْأَرْضَ الْأُولَى مَضَتَا » (رؤيا ٢١: ١). إن النار التي تحرق الأشجار تطهر الأرض. وكل أثر من آثار اللعنة يمحي. ولن تكون هنالك نار جحيم أبدية لتذكر الأبرار المفديين بعواقب الخطيئة المخيفة.

مُذَكِّرٌ وَاحِدٌ

ولكن يبقى مذكر واحد، ذلك أن فادينا سيظل حاملا في جسده سمات صلبه. ففي رأسه الجريح وجنبه ويديه ورجليه توجد الآثار الوحيدة للعمل القاسي الذي قد أحدثته الخطيئة. إن النبي إذ يرى المسيح في مجده يقول: « وَكَانَ لَمَعَانُ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ اسْتَتَارُ قُدْرَتِهِ » (حقوق ٣: ٤). فذلك الجنب المطعون الذي سال منه أدم أَلْقَانِي الذي صالح الإنسان مع الله إنما هو مجد المخلص و « اسْتَتَارُ قُدْرَتِهِ ». إنه « العظيم للخلاص » عن طريق ذبيحة الفداء، ولذلك كان قادرا على تنفيذ عدالته في من قد ازدروا برحمة الله. وسمات اتضاعه هي أسمى كرامة له، ومدى دهور الأبد ستكون جروح جلجثة مبعث الحمد له وإعلانا لقدرته.

« وَأَنْتِ يَا بُرْجَ الْقَطِيعِ، أَكْمَةً بَنَتْ صِهْيُونَ إِلَيْكَ يَأْتِي. وَيَجِيءُ الْحُكْمُ الْأَوَّلُ » (ميخا ٤: ٨). لقد أتى الوقت الذي ظل القديسون يتطلعون إليه بشوق منذ سد لهيب السيف المتقلب طريق أبونا الأولين إلى عدن، وقت « فِدَاءِ الْمُقْتَنَى » (أفسس ١: ١٤). فالأرض التي أعطيت للإنسان أصلا على اعتبار أنها مملكته والتي أسلمها هو للشيطان وظلت مدى هذه الحقبة الطويلة تحت سيطرة هذا العدو الجبار أعيدت عبر تدبير الفداء العظيم. وقد استرجع كل ما قد أضاعته الخطيئة. « هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ... مُصَوِّرُ الْأَرْضِ وَصَانِعُهَا. هُوَ قَرَّرَهَا. لَمْ يَخْلُقْهَا بَاطِلًا. لِلسَّكَنِ صَوَّرَهَا » (إشعياء ٤٥: ١٨) إن غرض الله الأصلي من خلق الأرض قد تحقق إذ صارت موطن المفتدين الأبدية. « الصَّدِيقُونَ يَرْتَوُونَ الْأَرْضَ وَيَسْكُنُونَهَا إِلَى الْأَبَدِ » (مزمور ٣٧: ٢٩).

إن الخوف من جعل الميراث العتيق يبدو ماديا أكثر من اللازم جعل كثيرين يفسرون الحقائق التي تقودنا إلى اعتباره وطننا، تفسيراً روحياً يُفقد معناها. لقد أكد المسيح لتلاميذه أنه ماضٍ ليعد لهم منازل في بيت الآب. فالذين يقبلون تعاليم كلمة الله لن يجهلوا جهلا تاما ما يختص بالمسكن السماوي. ومع ذلك فإنه: « مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ » (١ كورنثوس ٢: ٩). إن لغة البشر قاصرة عن وصف مكافأة الأبرار. ولن يعرفها إلا مَنْ يرونها. ولا يمكن لعقل محدود قاصر أن يدرك مجد فردوس الله.

موطن المخلصين

يدعى ميراث المخلصين في الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ « وَطْنَا » (عبرانيين ١١: ١٤-١٦). فهناك يقود

الراعي السماوي قطيعه إلى ينابيع مياه حية. وشجرة الحياة تعطي كل شهر ثمرها وأوراق الشجرة لشفاء الأمم. ويوجد دائما أنهار جارية صافية ونقية كالبلور وعلى وجوانبها أشجار تلقي ظلالها الوارفة على الطرق المعدة لمفتدي الرب. وهناك ترتفع السهول الفسيحة فتصير تلالاً آية في الجمال وجبال الله تعلو بقممها الشامخة. وفي تلك السهول الهادئة التي بجوار الينابيع الحية يجد شعب الله، الذين ظلوا أمدا طويلا غرباء وتائهين، وطناً ومستقراً.

« وَيَسْكُنُ شَعْبِي فِي مَسْكَنَ السَّلَامِ، وَفِي مَسَاكِنَ مُطْمَئِنَّةٍ ». « لَا يَسْمَعُ بَعْدُ ظُلْمٌ فِي أَرْضِكَ، وَلَا خَرَابٌ أَوْ سَحَقٌ فِي تَحُومِكَ، بَلْ تُسَمِّينَ أَسْوَارَكَ: خَلَاصًا وَأَبْوَابَكَ: تَسْبِيحًا »، « وَيَبْنُونَ بُيُوتًا وَيَسْكُنُونَ فِيهَا، وَيَغْرِسُونَ كَرْوَمًا وَيَأْكُلُونَ أَثْمَارَهَا. لَا يَبْنُونَ وَآخِرُ يَسْكُنُ، وَلَا يَغْرِسُونَ وَآخِرُ يَأْكُلُ... يَسْتَعْمَلُ مُخْتَارِي عَمَلٍ أَيْدِيَهُمْ » (إشعياء ٣٢: ١٨؛ ٦٠: ١٨؛ ٦٥: ٢١، ٢٢).

هناك « تَفْرَحُ الْبَرِيَّةُ وَالْأَرْضُ الْيَابِسَةُ، وَيَبْتَهِجُ الْفَقْرُ وَيَزْهَرُ كَالنَّرْجِسِ »، « عَوَضًا عَنِ الشَّوْكِ يَنْبُتُ سَرَوْ، وَعَوَضًا عَنِ الْقَرِيسِ يَطْلُعُ آسٌ »، « فَيَسْكُنُ الذُّبُّ مَعَ الْخُرُوفِ، وَيَرْبُضُ النَّمْرُ مَعَ الْجَدْيِ، ... وَصَبْيٌ صَغِيرٌ يَسُوقُهَا »، « لَا يَسُوؤُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ فِي كُلِّ جَبَلٍ قُدْسِي » قال الرب (إشعياء ٣٥: ١؛ ٥٥: ١٣؛ ١١: ٦، ٩).

ليس للألم وجود في جو السماء. ولن تكون هناك دموع ولا مواكب جنازات ولا شارات حداد. « وَالْمَوْتُ لَا يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلَا يَكُونُ حُزْنٌ وَلَا صُرَاخٌ ... لِأَنَّ الْأُمُورَ الْأُولَى قَدْ مَضَتْ »، « وَلَا يَقُولُ سَاكِنٌ: 'أَنَا مَرَضْتُ'. الشَّعْبُ السَّاكِنُ فِيهَا مَغْفُورُ الْإِثْمِ » (رؤيا ٢١: ٤؛ إشعياء ٣٣: ٢٤).

وهناك أورشليم الجديدة عاصمة الأرض الجديدة المجيدة: « إِكْلِيلَ حَمَالٍ بِيَدِ الرَّبِّ، وَتَاجًا مَلِكِيًّا بِكَفِّ الْهَلِكِ ». « لَهَا مَجْدُ اللَّهِ، وَلَمَعَانُهَا شَبُهْ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرٍ يَشَبُّ بِلُورِيٍّ »، « وَتَمْشِي شُعُوبُ الْمُخَلَّصِينَ بِنُورِهَا، وَمَلُوكُ الْأَرْضِ يَجِيئُونَ بِمَجْدِهِمْ وَكَرَامَتِهِمْ إِلَيْهَا ». « فَابْتَهِجْ بِأُورُشَلِيمَ وَافْرَحْ بِشَعْبِي »، « هُوَذَا مَسْكَنُ اللَّهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا، وَاللَّهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهًا لَهُمْ » (إشعياء ٦٢: ٣؛ رؤيا ٢١: ١١ و ٢٤؛ إشعياء ٦٥: ١٩؛ رؤيا ٢١: ٣).

وفي مدينة الله « لَا يَكُونُ لَيْلٌ هُنَاكَ ». ولن يكون أحد في حاجة إلى الهجوع أو الراحة أو يرغب فيهما. ولن يشعر أحد بالضجر من عمل إرادة الله وتقديم الحمد لاسمه. وسنشعر دائما بنضارة الصباح ولن نخشى من انتهائها. « وَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى سَرَاخٍ أَوْ نُورِ شَمْسٍ، لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَهُ يُنِيرُ عَلَيْهِمْ » (رؤيا ٢٢: ٥). ويفوق نور الشمس، ضياء لا يبهر الأبصار أو يؤذيها ومع ذلك فهو يفوق نور منتصف النهار بما لا يقاس. ومجد الله والخروف يغمر المدينة المقدسة بنور لا يخبو. والمفتدون يسرون في مجد النهار الأبدي الذي لا شمس فيه.

« وَلَمْ أَرْ فِيهَا هَيْكَلًا، لِأَنَّ الرَّبَّ اللَّهَ الْقَادِرَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، هُوَ وَالْخُرُوفُ هَيْكَلُهَا » (رؤيا ٢١: ٢٢). ولشعب الله امتياز الشركة المباحة مع الآب والابن. « فَإِنَّا نَنْظُرُ الْآنَ فِي مَرَاةٍ، فِي لُغْزٍ » (١ كورنثوس ١٣: ١٢). إننا نرى انعكاسا لصورة الله كما في مرآة في أعمال الطبيعة وفي معاملاته مع الناس، ولكننا سنراه حينئذ وجها لوجه من دون أن يكون هناك حجاب يحجب الرؤية. إننا سنمثل في حضرته ونرى مجد وجهه.

انتصار محبة الله

وهناك سيعرف المفتدون كما قد عُرفوا (١ كورنثوس ١٣: ١٢). وستجد المحبة والعطف للذين غرسهما الله نفسه في القلب أصدق تدريب وأعذبه، والشركة الطاهرة مع الخلائق المقدسة والحياة الاجتماعية المتناسقة مع الملائكة المغبوطيين ومع الرجال الأمناء في كل العصور، الذين غسلوا ثيابهم وبيضوها في دم الخروف، والروابط المقدسة التي توحد بين « كُلُّ عَشِيرَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَعَلَى الْأَرْضِ » (أفسس ٣: ١٥).

هناك ستتأمل العقول الخالدة، بسرور لا يكل، في عجائب القوة الخالقة وفي أسرار المحبة الفادية. ولن يكون هناك عدو قاس مخادع ليحرب الناس لنسيان الله. وستنمو وتتطور كل قوى النفس وتزداد مهاراتها، وتحصيل المعرفة لن يُتعب العقل ولن يُرهق القوى. وهناك يمكن تنفيذ أجل المشاريع. وأسمى الرغائب تتحقق وأرفع المطامع تُنال، ومع ذلك تظهر ذرى ليلبغها الإنسان، وعجائب جديدة ليعجب بها، وحقائق جديدة عليه ليدركها، وأغراض جديدة تتطلب بذل قوى العقل والنفس والجسد.

وكل كنوز المسكونة ستكون مباحة لدراسة مفتدي الله. ولكونهم غير مقيدين بقيود الفناء فسيرتفعون إلى أعالي العوالم البعيدة، عوالم اختلجت قلوب أهلها بالحزن على شقاء بني الإنسان وترنمت بأغاني الفرحة عندما علمت بأنباء النفوس المفداة. فبفرح لا ينطق به يدخل أبناء الأرض فرح الخلائق غير الساقطين وحكمتهم. وهم يتقاسمون معهم كنوز المعرفة والعلم التي حصلوا عليها مدى أجيال بعد أجيال من التأمل في صنع الله. وبعيون صافية ينظرون إلى مجد الخليفة: الشموس والكواكب والأنظمة الكونية كل منها في مسارها المحيط بعرش الله. وعلى كل الأشياء من أصغرها إلى أعظمها مكتوب اسم الخالق، وفي كل شيء يظهر غنى قدرته.

وإذ تمر سنو الأبدية فستأتي بإعلانات أغنى وأمجد عن الله والمسيح. وكما تتجدد المعرفة ف كذلك ستتجدد المحبة والوقار والسعادة وتزيد أيضاً. وكلما عرف الناس أشياء أكثر عن الله زاد إعجابهم بصفاته. وإذ يكشف يسوع أمامهم غنى الفداء والأعمال العظيمة المدهشة في الصراع الهائل مع الشيطان فإن قلوب المفتدين تختلج بتعبد حار عميق، وبفرح مذهل للعقل يضربون على قيثاراتهم الذهبية فتتحد ربوات ربوات وألوف ألوف من الأصوات في إنشاد أغنية الحمد العظيمة.

« وَكُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الْأَرْضِ وَتَحْتَ الْأَرْضِ، وَمَا عَلَى الْبَحْرِ، كُلُّ مَا فِيهَا، سَمِعْتُهَا قَائِلَةً: « لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ وَلِلْخُرُوفِ الْبَرَكَاتُ وَالْكَرَامَةُ وَالْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى الْأَبَدِينَ » (رؤيا ٥: ١٣).

لقد انتهى الصراع العظيم. وما عاد للخطيئة أو للخطاة وجود. وقد صارت المسكونة كلها طاهرة. وفي عاطفة واحدة من الوفاق والفرح يشترك كل الخلائق. ومن ذاك الذي قد خلق الجميع تفيض الحياة والنور والبهجة في كل الأقاليم في الفضاء الذي لا حدود له. فمن أصغر ذرة إلى أعظم كوكب، من حي إلى جماد، بجمالها وكمالها — كلها تشهد شهادة واحدة قائلة: الله محبة

مذكرات عامة

صفحة ٥٠ — الألقاب: أعلن البابا أنوسنت الثالث، في فقرة جاءت ضمن القانون الكهنوتي الروماني، أن بابا روما هو « نائب على الأرض، لا نائب الإنسان فقط بل نائب الله نفسه ». وفي تعليق على هذا الفصل فسر هذا الكلام بالقول أن ذلك هو لأنه نائب المسيح الذي هو « إله حق وإنسان حق ». أما عن اللقب القائل « السيد الرب البابا » فانظر تعليقا على إسراف البابا يوحنا الثاني والعشرين. وفي طبعة صدرت في أنتورب عن الإسراف بتاريخ عام ١٥٨٤ ورد هذا القول: « سيدنا الرب البابا » في خانة ١٥٣. وفي طبعة صدرت في باريس بتاريخ عام ١٦١٢ توجد هذه الأقوال ذاتها في خانة ١٤٠. وفي عدة طبعات صدرت منذ عام ١٦١٢ حذفت كلمة « الله ».

صفحة ٥٢ — عبادة التماثيل: إن عبادة التماثيل... كانت إحدى مفاسد المسيحية التي زحفت إلى داخل الكنيسة خلسة، بدون أن يلاحظها أو يلتفت إليها أحد تقريبا. وهذه المفسدة لم تكشف عن نفسها في الحال كغيرها لأنها في هذه الحالة كانت تقابل بانتقاد صريح وتوبيخ صارم، ولكن إذ بدأت عملها تحت قناع جميل دخلت الممارسات الخاصة بها بالتدريج الواحدة في أثر الأخرى بحيث انحدرت الكنيسة إلى أعماق الوثنية، ليس فقط بدون مقاومة كافية بل أيضاً بدون اعتراض جازم. وبعد ذلك عند بذل مسعى لاستئصالها وجد أن الشر قد تأصل فيها بحيث لم يمكن إزالته... فينبغي تتبعه إلى ميل القلب البشري إلى الوثنية ونزوعه إلى عبادة المخلوق دون الخالق...

« لقد أدخلت التماثيل والصور إلى الكنيسة أولا لا لتعبد ولكن إما ليستعاض بها عن الكتب لتعليم من لم يكونوا يعرفون القراءة أو لتثير روح التعبد في الآخرين. أما إلى أي حد حققت هذا الغرض فأمر مشكوك فيه، ولكن حتى لو سلمنا بأن هذا كان الواقع إلى حين، فسرعان ما كف عن أن يكون كذلك، وقد وجد أن الصور والتماثيل التي أدخلت إلى الكنائس قد أظلمت عقول الجهلاء بدلا من أن تنيرها — وجعلت عبادة الساجدين منحطة بدلا من أن تسمو بها، حتى انه مع كون القصد منها هو توجيه عقول الناس إلى الله فقد كان من نتائجها تحويل العقول عنه إلى عبادة المخلوق ». (مقدمة كتاب المجمع السابع العام، والثاني بعد مجمع نيقية — صفحة ٣ — ٦)

وللحصول على بيان بإجراءات وقرارات مجمع نيس الثاني في عام ٧٨٧ م الذي دعي لإقرار عبادة التماثيل، ما كتبه بارونيوس في كتاب التواريخ الإكليريكية في عام ١٦١٢ في أنتورب المجلد التاسع صفحة ٣٩١-٤٠٧، وما كتبه مندهام في كتاب المجمع السابع العام، مجمع نيقية الثاني، وما كتبه ستلنجفليت في كتاب الدفاع عن الحديث الخاص بالوثنية التي تمارس بالكنيسة البابوية (في لندن عام ١٦٨٦)، وكتاب مكتبة مختارة عن آباء مجمع نيقية ومن أتوا بعدهم — السلسلة الثانية، نيويورك عام ١٩٠٠ المجلد الرابع عشر صفحة ٥٢١-٥٨٧، وكتاب تاريخ « مجامع الكنيسة من الوثائق الأصلية » لمؤلفه هيفل الكتاب الثامن عشر الفصل الأول فقرة ٣٣٢ و ٣٣٣ والفصل الثاني فقرة ٣٤٥-٣٥٢ —

(ت و ت كلارك الذي طبع في عام ١٨٩٦ المجلد الخامس صفحة ٢٦٠-٣٠٤ وصفحة ٣٤٢-٣٧٢)
صفحة ٥٢٣ — أمر قسطنطين: إن القانون الذي أصدره قسطنطين في اليوم السابع من آذار (مارس) عام ٣٢١ م عن يوم الراحة يقول:

« ليسترح كل القضاة وكل شعب المدن وكل التجار في يوم الشمس الموقر. أما العائشون في الأرياف فلهم كامل الحرية في مواصلة زرع حقولهم، حيث إنه يحدث مرارا كثيرة أن يكون هذا اليوم أنسب الأيام لزرع الحبوب أو غرس الكروم، لهذا فينبغي ألا يترك هذا الوقت الملائم يمر بلا عمل لئلا نخسر بركات السماء » (من كتاب تاريخ السبت والأحد لمؤلفه لويس صفحة ١٢٣ و ١٢٤) والكتاب الأصلي (في دستور يوستينيانوس) اقتبس منه الدكتور هشي في محاضراته في همبتون عن « يوم الأحد والدكتور فيليب شاف في كتابه الذي موضوعه تاريخ الكنيسة المسيحية المجلد الثالث. انظر أيضاً ما كتبه موشيم في قوانين التاريخ الإكليريكي ودائرة كتبه بيتر هيلين في تاريخ السبت الصادر في لندن في عام ١٦٣٦

صفحة ٥٧ — الكتابات المزورة: من بين الوثائق التي يعترف الجميع في الوقت الحاضر بانها تزويرات تعتبر هبة قسطنطين والأحكام البابوية المنسوبة كذبا إلى ايزودور ذات أهمية أساسية وفي اقتباس الحقائق الخاصة بهذا السؤال: « من الذي زور هبة قسطنطين ومتى كان ذلك؟ » يكتب جوسلين مدير كلية اللاهوت في سلبيس بباريس قائلا:

« مع أن هذه الوثيقة زائفة بلا جدال فمن الصعب الحكم في تاريخ اختلاقها. إن دي ماركا موراتوري وغيره من علماء النقاد يرون أنها كتبت في القرن الثامن قبلما اعتلى شرلمان العرش. وزد على ذلك فإن موراتوري يعتقد انه من المرجح أن تكون قد أقنعت ذلك الملك وبيبين بأن يكونا كريمين نحو الكرسي البابوي » — سلطان البابا في القرون الوسطى لمؤلفه مايثوكلي، كلية سان باتريك ماينوث، ومورفي وشركاه. بليتيمور عام ١٨٥٣ المجلد الأول صفحة ٣٢١

وعن تاريخ الأحكام البابوية المنسوبة كذبا إلى ايزودور — انظر ما كتبه موشيم في كتابه الذي عنوانه « قوانين التاريخ الإكليريكي ». وأما الدكتور موردوك المترجم إذ يشير في حاشية إلى ما قاله لأبيه فلوري المؤرخ الكاثوليكي العلامة في كتابه « التاريخ الإكليريكي » يقول عن هذه الأحكام: « لقد زحفت إلى النور قرب نهاية القرن الثامن ». وإذ يكتب فلوري قرب نهاية القرن السابع عشر يقول فوق ذلك أن هذه « الأحكام الكاذبة اعتبرت موثوقا بها قرابة ثمان مئة سنة، وبكل صعوبة أمكن هجرها والتخلص منها في القرن الأخير. نعم انه في الوقت الحاضر لا يكاد يوجد أحد، حتى ولو كان تعليمه في هذه الأمور قليلا ودينيا، ممن لا يعترفون بأن هذه الأحكام زائفة » — التاريخ الإكليريكي « ترجمة آدمة بلندن عام ١٧٣٢ » انظر أيضاً ما كتبه جيبون في كتابه « تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » الفصل ٤٩

صفحة ٥٧ — أحكام هلدبراند (جريجوري السابع): انظر ما كتبه بارونيوس في كتابه الذي عنوانه « التواريخ الإكليريكية » الذي طبع (في أنتورب عام ١٦٠٨ المجلد الحادي عشر صفحة ٤٧٩) ويمكن الحصول على نسخة من هذه الوصايا من جنيريلر، موجز من التاريخ الإكليريكي تأليف كنجهام. وقد

ترجم إلى الإنكليزية في كتاب لموشيم عنوانه « قوانين التاريخ الإكليريكي »

صفحة ٥٧ — المطهر: أن الدكتور جوزف فادي برونو يقدم هذا التعريف للمطهر: « المطهر هو حالة ألم بعد هذه الحياة فيها تحبس تلك النفوس التي رحلت عن هذه الحياة بعدما غفرت خطاياها المميتة فيما يختص بلوثة الخطية وجرحها، وفيما يختص بالألم الأبدي الذي تستحقه، ولكن بسبب تلك الخطايا بقي عليهم قصاص وقتي عليهم أن يعانوه لزمان ما كما يحدث أيضاً لتلك النفوس التي تترك هذا العالم مذنبه في بعض الخطايا البسيطة أو المغتفرة » — من كتاب العقيدة الكاثوليكية صفحة ١٩٦ (طبع في عام ١٨٨٤ بتصديق من أسقف نيويورك) انظر أيضاً ما كتبه هاجنباك في كتابه الذي عنوانه « موجز تاريخ العقائد » وكلاارك المجلد الأول صفحة ٢٣٤-٢٣٧ و ٤٠٥-٤٠٨ والمجلد الثاني صفحة ١٣٥-١٥٠ و ٣٠٨ و ٣٠٩، وما كتبه اليوت في كتابه الذي عنوانه « تصوير الكاثوليكية الرومانية » الكتاب الثاني الفصل ١٢، ودائرة المعارف الكاثوليكية تحت بند « المطهر »

صفحة ١٠٠ — صكوك الغفران: لكي تحصل على تاريخ مسهب لعقيدة صكوك الغفران انظر كتاب دائرة المعارف الكاثوليكية، تحت بند « صكوك الغفران » (الذي كتبه كنت من بيزوتر بلندن)، وما كتبه ألما في كتاب عنوانه « المصلحون قبل عهد الإصلاح » المجلد الأول. الكتاب الثاني الفصل الثاني، وما كتبه كريتون في كتاب عنوانه « تاريخ البابوية » المجلد الخامس صفحة ٥٦-٦٤ و ٦١، وما كتبه رانك في كتابه الذي عنوانه « تاريخ الإصلاح في ألمانيا » الكتاب الثاني الفصل الأول فقرة ١٣١ و ١٣٢ و ١٤٢-١٣٩ و ١٥٣-١٥٥ (الطبعة الثانية في لندن سنة ١٨٤٥ وترجمه أوسنن في المجلد الأول صفحة ٣٣١ و ٣٣٥ و ٣٣٧-٣٤٣)، وما كتبه اليوت في كتابه الذي عنوانه « تصوير الكاثوليكية الرومانية الكتاب الثاني الفصل ١٣، وما كتبه لي في كتابه الذي عنوانه « تاريخ الاعتراف السمعي وصكوك الغفران » وما كتبه فيشر في كتابه الذي عنوانه « الإصلاح » الفصل الرابع أما عن ثمار عقيدة صكوك الغفران في أثناء عهد الإصلاح، فانظر نبذة كتبها لي عنوانها « صكوك الغفران في إسبانيا » وطبعت ونشرت في كتاب عنوانه « أوراق الجمعية الأمريكية عن تاريخ الكنيسة » المجلد الأول صفحة ١٢٩-١٧١. ويقول الدكتور لي عن قيمة هذا النور الآتي من الجانب التاريخي، في الفصل الافتتاحي: « إن إسبانيا التي لم تكن تزعجها المجادلات التي وقعت بين لوثر والدكتور إك وسلفستر بربرياس ظلت سائرة باطمئنان في الطريق القديم المطروق وتقدم لنا الوثائق الرسمية التي لا جدال فيها والتي تجعلنا قادرين على فحص المسألة في نور التاريخ النقي »

صفحة ٥٨ — ذبيحة القديس: انظر ما كتبه الكاردينال وايزمان في كتابه الذي عنوان « حلول جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الحقيقيين في القربان المقدس المبارك مبرهنا عليه من الكتاب، ثم انظر أيضاً دائرة المعارف الكاثوليكية البند الذي عنوانه « القربان المقدس » (وقد كتبه بول من برسلو)، وانظر أيضاً الكتاب الذي عنوانه « قوانين وأحكام مجمع ترنت » الفصول ١-٨ الذي طبع في لندن في عام ١٨٥١ وترجمه بركلي في صفحة ٧٠-٧٩ وكتاب هاجنباك الذي عنوانه موجز تاريخ العقائد المجلد الأول صفحة ٢١٤-٢٢٣ و ٣٩٣-٣٩٨ والمجلد الثاني صفحة ٨٨-١١٤، وكتاب جون كلفن وعنوانه « القوانين » الكتاب الرابع الفصل ١٧ و ١٨، وما كتبه هوكر في كتابه الذي عنوانه « النظام

الإكليريكي «، وما كتبه أليوت في كتابه الذي عنوانه « تصوير الكاثوليكية الرومانية الكتاب الثاني الفصل ٤ و ٥

صفحة ٦٥ — ترجمات الولدنسيين للكتاب: عن الترجمات الولدنسية الأولى لأجزاء من الكتاب إلى لغة عامة الشعب انظر ما كتبه تاونلي في كتابه الذي عنوانه « شروح الأدب الكتابي » المجلد الأول الفصل العاشر فقرة ١ — ١٣، وما جاء في كتاب ثافيل الذي عنوانه « الكتاب في فرنسا » الذي طبع في باريس سنة ١٨٦٤ الفصل الثاني الفقرة ٣ و ٤ و ٨-١٠ و ١٣ و ٢١، وما كتبه يتنام في كتابه الذي عنوانه « رقابة كنيسة روما » المجلد الثاني الفصل الثاني

صفحة ٧٥ — منشور ضد الولدنسيين: إن جزءا كبيرا من نص النشرة البابوية التي أصدرها أنوسنت الثامن في عام ١٤٨٧ ضد الولدنسيين (التي توجد النسخة الأصلية منها في مكتبة جامعة كمبردج) يوجد في ترجمة إنكليزية في كتاب لدوالنج عنوانه « تاريخ البابوية » طبع في عام ١٨٧١ الكتاب السادس الفصل الخامس، الجزء ٦٢

صفحة ٨٣ — ويكلف: لكي تحصل على النص الأصلي للنشرات البابوية الصادرة ضد ويكلف مترجمة إلى الإنكليزية انظر ما كتبه فوكس في كتابه الذي عنوانه « أعمال وأنصاب »، برأت تاونسند الذي طبع في لندن عام ١٨٧٠ المجلد الثالث صفحة ٤-١٣، وانظر أيضاً ما كتبه لويس في كتابه الذي عنوانه « تاريخ ويكلف وحياته وآلامه » الذي طبع في عام ١٨٢٠ صفحة ٤٩-٥١ و ٣٠٣-٣١٤، وما كتبه لتشر في كتابه الذي عنوانه « جون ويكلف ومضطهدوه الإنجليز » الفصل الخامس الفقرة ٢ (الذي طبع في لندن عام ١٨٨٤ وترجمة لوريمر صفحة ١٦٢-١٦٤)، وما كتبه نياندر في كتابه الذي عنوانه: « التاريخ العام للديانة والكنيسة المسيحية » الفترة السادسة فقرة ٢

صفحة ٨٥ — العصمة: في عقيدة العصمة انظر ما جاء في دائرة المعارف الكاثوليكية المقال الوارد تحت عنوان « العصمة » الذي كتبه تيرنر، وما كتبه جورج سالمون في كتابه الذي عنوانه « عصمة الكنيسة »، وما كتبه أليوت في كتابه الذي عنوانه: صورة الكاثوليكية الرومانية الكتاب الأول الفصل الرابع، وما كتبه الكاردينال جيبونز في كتابه الذي عنوانه: « إيمان آبائنا » الطبعة ٤٩ عام ١٨٩٧ الفصل السابع

صفحة ١٠١ — مجمع كونستانس: عن دعوة البابا يوحنا الثالث والعشرين مجمع كونستانس للانعقاد بناء على التماس الإمبراطور سجموند انظر ما كتبه موشيم في كتابه الذي عنوانه « قوانين التاريخ الإكليريكي » الكتاب الثالث، وانظر كذلك ما كتبه داوونج في كتابه الذي عنوانه « تاريخ البابوية » الكتاب السادس الفصل الثاني الفقرة ١٣، وما كتبه باور في كتابه الذي عنوانه « تاريخ البابوات » طبعة لندن في عام ١٧٦٦ المجلد السابع صفحة ١٤١-١٤٣، وما كتبه نياندر في كتابه الذي عنوانه « التاريخ العام للدين المسيحي والكنيسة » الفترة السادسة فقرة ١ (عام ١٨٥٤-٥ مجلدات طبع وترجم بواسطة توري المجلد الخامس صفحة ٩٤-١٠١)

صفحة ٢١٨ — الجزويت: لكي تعرف بيانا عن أصل « جمعية يسوع » ومبادئها وأغراضها كما يلخصها أعضاء هذه الأخوية انظر كتابا عنوانه « عن الجزويت » طبعة القس جون جيرارد ونشر في

لندن عام ١٩٠٢ نشرته جمعية الحق الكاثوليكي. في هذا الكتاب نجد القول التالي « إن الباعث في كل نظام الجمعية هو روح الطاعة الكاملة. لقد كتب القديس أغناطيوس يقول: « ليقتنع كل واحد أن أولئك الذين يعيشون تحت الطاعة ينبغي أن يسمحوا لأنفسهم أن يتحركوا ويوجهوا بواسطة العناية الإلهية عن طريق رؤسائهم كما لو كانوا جسما مائتا — يسمح لنفسه بأن يحمل إلى أي مكان ويعامل بأي كيفية، أو كعكاز الرجل الشيخ الذي يخدم من يحمله في يده في أي طريق يسير فيه » « هذا الخضوع التام يشرفه الباعث عليه. ثم يمضي المؤسس في حديثه فيقول: « وينبغي أن يكون متأهبا وفرحا ومثابرا... إن الشخص المتدين المطيع يتمم بسرور ما قد حدده له رؤساؤه بفرح لأجل الخير العام وهو متأكد من انه بذلك يكون متمشيا حقا مع إرادة الله » هذا ما جاء في كتاب « عن الجزويت » صفحة ٦

ثم انظر أيضاً ما كتبه دوبيين في كتاب « موجز تاريخ الكنيسة » الفصل ٢٣ (طبعة لندن سنة ١٧١٢ المجلد الرابع صفحة ١٣٢-١٣٥) وموشيم في كتابه « قوانين التاريخ الإكليريكي » ودائرة المعارف البريطانية (الطبعة التاسعة) بند « الجزويت »، وما كتبه برواسين في كتابه « مبادئ الجزويت، مكونا من مجموعة مقتطفات من نفس مؤلفيهم (لندن ١٨٦٠-وقد ظهرت قبل ذلك طبعة أخرى في عام ١٨٣٩، وكارترايت في كتابه « الجزويت، دستورهم وتعليمهم » (لندن ١٨٧٦) وتونتون في كتابه « تاريخ الجزويت في إنكلترا عام ١٥٨٠-١٧٧٣ (لندن ١٩٠١)

صفحة ٢١٩ — محكمة التفتيش: انظر دائرة المعارف الكاثوليكية بند « محكمة التفتيش » (كتبه بلوتزر في ميونيخ ولي في كتاب « تاريخ محاكم التفتيش في القرون الوسطى، وما كتبه ليمبورسن في كتاب « تاريخ محكمة التفتيش المجلد الأول الكتاب الأول الفصل ٢٥ و ٢٧-٣١ (طبعة لندن في عام ١٧٣١ ترجمة شاندلر في المجلد الأول صفحة ١٣١-١٤٢ و ١٤٤-١٦١)، وما كتبه فون رانك في كتاب « تاريخ البابوات » الكتاب الثاني الفصل السادس

صفحة ٢٤٧ — أسباب الثورة الفرنسية. اذا أردت أن تعرف شيئا عن العواقب البعيدة لرفض أَلْكَتَابِ الْمُقَدَّسِ وديانة الكتاب الذي أقدم عليه شعب فرنسا انظر ما كتبه فون سبيل في كتاب « تاريخ الثورة الفرنسية » الكتاب الخامس الفصل الأول جزء ٣-٧، وما كتبه بكل في كتاب « تاريخ المدينة في إنكلترا » الفصل ٨ و ١٢ (طبعة نيويورك في عام ١٨٩٥ المجلد الأول صفحة ٣٦٤-٣٦٦ و ٣٦٩-٣٧١ و ٤٣٧ و ٥٤٠ و ٥٤١ و ٥٥٠)، « صحيفة بلا كوود » المجلد الرابع والثلاثون رقم ٢١٥ (نوفمبر ١٨٣٣ صفحة ٧٣٩)، وما كتبه لوريمر في كتاب « مختصر تاريخ الكنيسة البروتستانتية في فرنسا » الفصل الثامن جزء ٦ و ٧

صفحة ٢٤٩ — محاولات لكبت أَلْكَتَابِ الْمُقَدَّسِ وملاشاته: بالإشارة إلى المحاولات الطويلة الأمد التي بذلت في فرنسا لقمع الكتاب وكتبه — وعلى الخصوص الترجمات التي ظهرت في لغة عامة الشعب يقول جوس: « أن الأمر العالي الذي صدر في تولوز في عام ١٢٢٩ » الذي أقر « محكمة التفتيش ضد كل من يقرأون أَلْكَتَابِ الْمُقَدَّسِ باللغة الدارجة.. كان أمرا بالالتجاء إلى النار وسفك الدم والتدمير. إنه في فصوله الثالث والرابع والخامس والسادس يأمر بتدمير البيوت وأحقر أماكن

الاختباء وحتى الملاجئ والمخابئ التي تحت الأرض التي كان يلوذ بها أناس اتهموا بإحرازهم للكتاب المقدس، وأنه يجب مطاردتهم إلى الغابات وكهوف الأرض، وحتى الذين يتسترون عليهم يجب معاقبتهم بأقصى العقوبات. وكان من نتائج ذلك أن حرم الكتاب في كل مكان. وكأنما قد اختفى تحت الأرض ونزل إلى القبر». وهذه الأوامر «تبعثها مدى خمس مئة سنة عقوبات لا حصر لها، وفيها جرى دم القديسين كالماء» — جوس في كتاب عنوانه «قانون الكتب المقدسة»

وعن الجهود الخاصة التي بذلت لملاشاة الكتاب في إبان حكم الإرهاب، وفي أواخر عام ١٧٩٣ يقول الدكتور لوريمر: «أينما أمكن العثور على كتاب مقدس يمكن أن يقال انه اضطهد إلى الموت إلى حد أن عددا من المفسرين المحترمين يفسرون قتل الشاهدين الوارد ذكرهما في الأصحاح الحادي عشر من سفر الرؤيا على انه قمع بل وملاشاة العهدين القديم والجديد في فرنسا في تلك الحقبة» — لوريمر في كتاب عنوانه «مختصر تاريخي للكنيسة البروتستانتية في فرنسا»

انظر أيضاً ما كتبه فيشر في كتاب عنوانه «الإصلاح» وكذلك ما كتبه بيتافل في كتاب عنوانه «الكتاب المقدس في فرنسا» طبعة باريس عام ١٨٦٤، وما كتبه بوتنام في كتاب عنوانه «رقابة كنيسة روما» المجلد الأول الفصل الرابع (١٩٠٦)، والمجلد الثاني الفصل الثاني (صفحة ١٥-١٩) وأيضاً ما كتبه سميلز في كتاب عنوانه «الهيغونوت، مستعمراتهم وكنائسهم وصناعاتهم» الفصل ١، ٢، ٣، ١٨ وسميلز أيضاً في كتاب عنوانه «لالهجونوت في فرنسا بعد الثورة» — فصل ٢، ١٠، ١٢، وكذلك ما كتبه وايلي في كتاب عنوانه «تاريخ البروتستانتية» الكتاب الثاني والعشرون الفصل السادس

صفحة ٢٥٧ — حكم الإرهاب: عن مسؤولية القادة الضالين في الكنيسة والدولة وعلى الخصوص في الكنيسة عن مشاهد الثورة الفرنسية — انظر ما كتبه سلون في كتاب عنوانه «الثورة الفرنسية والإصلاح الديني» المقدمة والفصل الثاني، وما كتبه تشاف في كتاب عنوانه «أوراق الجمعية الأمريكية لتاريخ الكنيسة» المجلد الأول، وما كتبه سميلز في كتاب عنوانه «الهيغونوت في فرنسا بعد الثورة» الفصل ١٨، وما كتبه لوريمر في كتاب عنوانه «موجز تاريخ للكنيسة البروتستانتية في فرنسا» الفصل الثامن، وما كتبه جالتون في كتاب عنوانه «الكنيسة والدولة في فرنسا من سنة ١٣٠٠ إلى سنة ١٩٠٧» طبعة لندن ١٩٠٧ الفصل الثالث، وما كتبه السير ستيفن في كتاب عنوانه «

محاضرات عن تاريخ فرنسا، المحاضرة ١٦

صفحة ٢٦٠ — عامة الشعب والطبقات الممتازة: لكي تعرف شيئاً عن الأحوال الاجتماعية السائدة في فرنسا قبل عهد الثورة انظر ما كتبه فون هولست في كتاب عنوانه «محاضرات لويل عن الثورة الفرنسية» — المحاضرة الأولى، وأيضاً ما كتبه تاين في كتاب عنوانه «الحكم القديم» وما كتبه يونج في كتاب عنوانه «سيجات في فرنسا»

صفحة ٢٦٣ — الجزء: لكي تحصل على تفاصيل أكثر عن الصفة الجزائية للثورة الفرنسية انظر ما كتبه توماس جل في كتاب عنوانه «الدراما البابوية» الكتاب العاشر، وما كتبه دي بريسنييه في كتاب عنوانه «الكنيسة والثورة الفرنسية» الكتاب الثالث الفصل الأول

صفحة ٢٦٤ — فظائع حكم الإرهاب: انظر ما كتبه تايرز في كتاب عنوانه «تاريخ الثورة الفرنسية

طبعة نيويورك وترجمة شوبرل المجلد الثالث صفحة ٤٢-٤٤ و ٦٢-٧٤ و ١٠٦، وما كتبه مجنت في كتاب عنوانه « تاريخ الثورة الفرنسية » طبعة بون عام ١٨٩٤ الفصل التاسع، وما كتبه السير أرشيبالد أليسون في كتاب عنوانه « تاريخ أوروبا منذ بدء الثورة الفرنسية إلى إرجاع أسرة البوربون » المجلد الأول الفصل ١٤ (طبعة نيويورك عام ١٨٧٢ المجلد الأول صفحة ٢٩٣-٣١٢)

صفحة ٢٦٦ — نشر الكتب المقدسة: في عام ١٨٠٤ طبقا لما قاله المستر وليم كانتون من رجال جمعية التوراة البريطانية والأجنبية، قال: « كل الكتب المقدسة الموجودة في العالم سواء أكانت مخطوطة أو مطبوعة بما في ذلك كل ترجمة في كل بلد لم يتجاوز عددها أربعة ملايين نسخة... واللغات المختلفة التي بها كتبت هذه الملايين الأربعة كتبت بما في ذلك الكلام القديم مثل القوطي المويزو في ألفيلاس، والأنجلو سكسون في بيدي مدونة بحيث يبلغ عددها الخمسين.

ما هي جمعية التوراة؟

وبعد ذلك بمئة سنة عند أول يوبيل مئوي لها أمكن لجمعية التوراة البريطانية والأجنبية أن تقدم تقريراً عن جملة توزيعاتها للكتاب المقدس أو العهد الجديد أو أجزاء منه بواسطة تلك الجمعية وحدها فبلغ عددها ١٨٦.٦٨٠.١٠١ وفي ١٩١٠ زاد هذا المجموع حتى بلغ ٢٢٠.٠٠٠.٠٠٠ نسخة من حوالي أربع مئة لغة. وينبغي أن يضاف إلى هذا العدد الضخم ملايين النسخ الكتابية أو أجزاء منها في لغات كثيرة التي توزعها جمعيات التوراة الأخرى والوكالات التجارية المختلفة. وجمعية التوراة الأمريكية التي هي كبرى بنات جمعية التوراة البريطانية الأم في غضون الأربع وتسعين سنة الأولى من عملها أعلنت أنها قد وزعت ما جملته ١٨٢ و ٢٩٦ و ٧٨ نسخة. (انظر سجل جمعية التوراة عن يونيو سنة ١٩١٠). وطبقاً للتقديرات المتحفظة تطبع البيوت التجارية ما يقرب من ستة ملايين نسخة من الكتاب التي إذا أضيفت إلى ناتج ما توزعه جمعيات التوراة يجعل جملة ما يوزع سنوياً تقفز إلى ١٥ مليون نسخة ويزيد

ان عدد ترجمات الكتاب المقدس كله أو أجزاء منه المقدمة في النص كانت صحيحة عندما أعد الكتاب. والان يزيد عددها على الألف

صفحة ٢٦٦ — المرسلات الأجنبية: إن الدكتور فيشر في أحد الفصول عن « المرسلات المسيحية » من كتابه الذي عنوانه « تاريخ الكنيسة المسيحية » يلخص بداءات الحركة المرسلية التي في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر، فتحت الباب لدخول عهد مشرق للنشاط المرسلية، عهد هو في تاريخ المرسلات لا يقل شهرة إلا عن العصور المسيحية الأولى « وفي عام ١٧٩٢ « تأسست الجمعية المعمدانية وكان كاري واحداً من أوائل مرسلها. وقد أبحر كاري إلى الهند، وهناك بمساعدة غيره من أعضاء نفس الجمعية أسس مرسلية سيرامبور ». وفي عام ١٧٩٥ تأسست جمعية لندن التبشيرية وفي عام ١٧٩٩ تأسست « المنظمة التي صارت في عام ١٨١٢ جمعية الكنيسة التبشيرية ». وبعد ذلك بقليل تأسست الجمعية الوصلية التبشيرية « وفي حين كان النشاط التبشيري ينمو ويتقدم في بريطانيا العظمى فإن مسيحي أمريكا كانوا قد بدأوا يتحمسون بغيرة

مشابهة لتلك. ففي عام ١٨١٤ أسسوا الاتحاد الأمريكي للمرسلين المعمدانين. ثم إن ارونيرام جدسون الذي كان بين طليعة المرسلين للخروج من أمريكا أبحر إلى كلكتا في عام ١٨١٢ ووصل إلى بورما في عام ١٨١٣ في شهر يوليو. انظر ما كتبه فيشر في كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية ».

ثم إن الدكتور بيرسون يعلن في مقال نشر في مجلة الريفيو التبشيرية العالمية في عدد يناير من عام ١٩١٠ « انه منذ نصف قرن كانت الصين ومنشوريا واليابان وكوريا وتركيا وبلاد العرب وحتى قارة إفريقيا المترامية الأطراف — كانت نائمة. وفي عزلة وتباعد وانطواء على نفسها ومحبوسه. فأواسط آسيا لم يكن مكتشفاً نسبياً كما كان أواسط أفريقيا. وفي بلدان كثيرة كان احتلال الشيطان الطويل مما لا ينازعه فيه منازع ولم يكن من يزعم إمبراطوريته. وقد كانت الممالك البابوية متعصبة كما كانت وثنية. ففي إيطاليا وإسبانيا كان من يجرؤ على بيع كتاب مقدس يلقي في السجن وكذلك من يكرز بالإنجيل. لقد كانت فرنسا ملحدة بالفعل، وألمانياً تسلل إليها الدين العقلي. وكان الباب مغلقاً في وجه جانب كبير واسع من الحقل التبشيري. فكانت تلك البلاد ممتنعة على المبشرين إلى حد كبير أو صغير. أما الآن فالتطورات في كل مكان شهيرة وجوهرية... وذلك الذي معه مفاتيح الأبواب المغلقة بدأ يفتحها فبدأ في فتح كل البلدان لمرسل الصليب. وحتى في المدينة الدهرية حيث كان يلتزم من يزورها منذ نصف قرن أن يترك كتابه المقدس خارج أسوارها توجد كنائس بروتستانتية بالعشرات وتوجد حرية لنشر الكتاب المقدس »

صفحة ٣٠٤ — التواريخ النبوية: إن الحقائق التاريخية والواقعية المتصلة بالحقبات النبوية المذكورة في دانيال ٨ و ٩ والمشملة على براهين كثيرة تشير إشارة لا تخطئ إلى سنة ٤٥٧ ق. م على أنها الوقت الصحيح الذي به يبدأ حساب هذه الفترات، قد خطتها كثيرون من تلاميذ النبوة. انظر ما كتبه ستانلي ليدس في كتاب « نبوة العهد القديم » محاضرة ١٠ و ١١ (محاضرات وربورتون عن السنوات ١٨٧٦-١٨٨٠) و. جود في كتابه « النبوة التي تمت » العظة العاشرة المشتملة على مذكرة رقم (١) (محاضرات وربورتون عن السنوات ١٨٥٤-١٨٥٨) وكتاب توماس الذي عنوانه « تاريخ النبوة » طبعة لندن عام ١٨٤٨ صفحة ٢٦-١٠٦، وما كتبه أسحق نيوتن في كتاب عنوانه ملاحظات على نبوات دانيال ورؤيا يوحنا الفصل العاشر طبعة لندن ١٧٣٣ صفحة ١٢٨-١٤٣، وما كتبه أوربا سميث في كتاب عنوانه آراء عن دانيال والرؤيا الجزء الأول فصل ٨ و ٩. أما عن تاريخ الصلب فانظر ما كتبه هيلز في كتاب عنوانه تحليل التاريخ طبعة لندن الثانية عام ١٨٣٠ المجلد الأول صفحة ٩٤-١٠١ والمجلد الثالث صفحة ١٦٤-٢٥٨

صفحة ٣١٠ — سقوط الإمبراطورية العثمانية: لكي تحصل على مزيد من التفاصيل بالنسبة إلى التنبؤ عن سقوط الدولة العثمانية في غضون شهر آب (أغسطس) سنة ١٨٤٠ أنظر ما كتبه لتسن في كتابه الذي عنوانه « أرجحية مجيء المسيح الثاني حوالي سنة ١٨٤٣ م. » (الذي نشر في حزيران (يونيو) سنة ١٨٣٨) وما كتبه لتسن أيضاً في كتاب عنوانه « خطاب إلى الإكليروس » (الذي نشر في ربيع سنة ١٨٤٠، وطبع ثانية بتقرير تاريخي لدعم التقديرات المضبوطة السابقة عن المدة النبوية الممتدة إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية ونشر في عام ١٨٤١)، وكتاب « المجيء ترس ومراجعة »

المجلد الأول (١٨٤٤)، وما كتبه لوفبورو في كتاب عنوانه « حركة المجيء الثاني العظيمة » طبعة ١٩٠٥ صفحة ١٢٩-١٣٢، والمقال الذي كتبه لتسن في صحيفة « علامات الأزمنة »، و« مفسر النبوة » في أول آب (أغسطس) سنة ١٨٤٠ وانظر مقالا آخر في صحيفة « علامات الأزمنة » و « مفسر النبوة » في أول شباط (فبراير) سنة ١٨٤١

صفحة ٣١٥ — منع الكتاب عن الشعب: اذا أردت معرفة شيء عن موقف الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من نشر الكتاب المقدس في اللغات المعروفة للعلمانيين فانظر ما ورد في دائرة المعارف الكاثوليكية في بند « الكتاب المقدس »، وانظر أيضاً ما كتبه فيشر في كتاب عنوانه « الإصلاح » فصل ١٥ (طبعة سنة ١٨٧٣ صفحة ٥٣٠-٥٣٢) وما كتبه الكاردينال جيبونز في كتاب عنوانه « إيمان آبائنا » الفصل الثامن (الطبعة التاسعة والأربعين عام ١٨٩٧ صفحة ٩٨-١١٧)، وما كتبه داولنج في كتاب عنوانه « تاريخ البابوية » كتاب ٧ فصل ٢ وكتاب ٩ فصل ٣ (طبعة ١٨٧١ صفحة ٤٩١-٤٩٦ و ١٨٥٣-١٨٥٢) وما كتبه تنجيز في كتاب عنوانه « تاريخ مجمع ترنت — طبعة ثانية في أدنبره عام ١٨٥٣ وترجمة سكوت صفحة ١٠١-١١٠، وما كتبه بتنام في كتاب عنوانه « الكتب ومؤلفوها في العصور الوسطى — المجلد الأول الجزء الثاني الفصل الثاني

صفحة ٣٤٢ — ثياب الصعود: إن القصة القائلة أن المجيئين صنعوا ثيابا لكي يصعدوا بها لمُلاقاة الرب في الهوَاءِ كانت من اختراع الذين أرادوا تغيير تلك الحركة. وقد جهدوا في نشرها لكي يصدقها كثيرون، ولكن الأسئلة الحريصة التي وجهت إليهم برهنت على كذبها. ولمدى سنين طويلة قدمت جائزة كبيرة لمن يقدم البرهان على صدق هذه الحادثة أن كانت قد وقعت، ولكن لم يُقدّم أي برهان. ولم يكن أي واحد ممن أحبوا ظهور المخلص يجهل تعاليم الكتاب بحيث يظن أن الثياب التي من صنعه لازمة لتلك المناسبة. ولكن الثوب الوحيد الذي سيحتاجه القديسون ليقابلوا به الرب هو بر المسيح. انظر رؤيا ١٩: ٨

صفحة ٣٤٣ — تاريخ النبوة: إن الدكتور جورج بوسن أستاذ الآداب العبرية والشرقية بجامعة مدينة نيويورك أرسل كتابا إلى السيد ميلر نشر في مجلة بشير المجيء ويقرر علامات الأزمنة « في بوسطون في ٦ و ١٣ آذار (مارس) سنة ١٨٤٤ قدم اعترافات هامة في ذلك الكتاب متصلة بحسابه للأزمنة النبوية. فكتب يقول: « إنني أرى أنه لا اعتراض عليك ولا على أصدقائك لكونكم كرستم وقتا طويلا واهتماما كبيرا لدرس تاريخ النبوة وتعبتم كثيرا في تحديد بدءا ونهاية تواريخ فترات العظيمة. فاذا كانت هذه الفترات قد أوردتها الروح القدس قبلا في الأسفار النبوية فلا ريب أن الغرض منها هو أن تدرس وربما تفهم في النهاية. ولا يمكن أن يُتهم أي إنسان بالجهالة الجريئة لكونه بكل وقار يبذل جهدا في عمل هذا... أما حسابان اليوم بسنة في التعبير النبوي فأنا اعتقد أنك تتبع شرحا سليما جدا، كما أنك متحصن بهذه الشخصيات العظيمة مثل ميد والسير اسحق نيوتن وكري وسكوت وكيث وكثيرين من أمثالهم الذين وصلوا إلى نفس مادة استنتاجاتك في هذا الموضوع. فجميعهم يجمعون على أن الفترات الهامة التي ذكرها كل من دانيال ويوحنا تنتهي فعلاً في هذا الجيل من تاريخ العالم. وأنه يكون منطقاً غريباً كونك تتهم بالهرطقة لتمسكك بنفس الآراء التي نادى بها وكتب عنها أولئك الرجال

العظام». « إن النتائج التي قد وصلت إليها في حقل الاستقراء هذا لا تدهشني ولا تخرج عن جادة الصواب ولا تؤثر في مبادئ الحق والواجب العظيمة » « وأنا افهم أن غلطتك هي في ناحية أخرى بعيدة عن تواريخك » « لقد أخطأت كلية في فهم طبيعة الأحداث التي ستحدث عند نهاية هذه الفترات. هذا هو اهم ما في خطئك التفسيري »

صفحة ٣٩٧ — رسالة مثلثة: (رؤيا ١٤ : ٦ ، ٧) هذان العددان ينبئان عن إذاعة رسالة الملاك الأول. ثم يستمر النبي في كلامه فيقول: « ثم تبعه ملاك آخر قائلاً سقطت سقطت بابل... وتبعه الملاك الثالث ». إن كلمة « تبعه » المذكورة هنا معناها في التركيب كالذي في هذه الآية « يرافق ». إنَّ لديك وسكوت يقدمان الكلمة هكذا « أتباع واحد معناه السير وراءه أو معه » وروبنسون يقول « الاتباع معناه السير مع أي إنسان أو مصاحبته ». إنها نفس الكلمة المستعملة في (مرقس ٥ : ٢٤) حيث يقول « فذهب معه يسوع وتبعه جمع كثير وكانوا يزحمونه ». وهي تستعمل كذلك عن المفدين المئة والأربعة والأربعين ألفاً حيث يقال: « هؤلاء هم الذين يتبعون الخروف حيثما يذهب » (رؤيا ١٤ : ٤). وفي كلا هذين الموضعين فإن الفكر الذي يقصد الله أننا نفهمه هو السير معاً. وكذلك ما ورد في ١ كورنثوس ١٠ : ٤ حيث نقرأ عن بني إسرائيل انهم « كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم ». وكلمة « تابعتهم » مترجمة عن نفس الكلمة اليونانية والحاشية في الكتاب المقدس الإنكليزي بمعنى « سارت معهم ». نفهم من هذا أن الفكرة الواردة في رؤيا ١٤ : ٨ ، ٩ ليست تعني فقط أن الملاكين الثاني والثالث تبعوا الأول من ناحية الزمن بل أنهما سارا معه. فالرسائل الثلاث إن هي إلا رسالة واحدة مثلثة. وهي ثلاث فقط في ترتيب ظهورها. ولكن إذ ظهرت ذهبت معاً ولا انفصال بينها

صفحة ٤٠٦ — سيادة أساقفة روما: إن بعضاً من الظروف الهامة المتصلة بادعاء أساقفة روما أن لهم السيادة ملخصة في كتاب موشيم الذي عنوانه « قوانين التاريخ الإكليريكي »، انظر أيضاً ما كتبه فيشر في كتاب عنوانه « تاريخ الكنيسة المسيحية » (طبعة ١٨٩٠ صفحة ٥٦-٥٨)، وما كتبه جليزير في كتاب « موجز التاريخ الإكليريكي »، طبعة نيويورك سنة ١٨٣٦ وترجمها كنجهام، وما كتبه أندروز في كتابه الذي عنوانه « تاريخ السبت » — الطبعة الثالثة صفحة ٢٧٦-٢٧٩

صفحة ٥٢٦ — الكنيسة الحبشية: لكي تعرف شيئاً عن حفظ أهل الحبشة ليوم السبت المنصوص عنه في الكتاب أنظر ما كتبه دين ستانلي في كتابه « محاضرات في تاريخ الكنيسة الشرقية » — المحاضرة الأولى الجزء ١٥ (طبعة نيويورك سنة ١٨٦٢ صفحة ٩٦ و ٩٧)، وما كتبه ميشيل جديس في كتابه « تاريخ كنيسة إثيوبيا » صفحة ٨٧ و ٨٨ و ٣١١ و ٣١٢، وما كتبه جيبون في كتابه « تاريخ وانحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية » فصل ٤٧ أجزاء ٣٧-٣٩، وما كتبه صموئيل جوبات في « صحيفة ثلاث سنين إقامة في الحبشة » طبعة نيويورك عام ١٨٥٠ صفحة ٥٥-٥٨ و ٨٣ و ٩٣ و ٩٧ و ٩٨، وما كتبه لويس في كتاب « تاريخ نقدي للسبت والأحد في الكنيسة المسيحية » — طبعة ثانية صفحة ٢٠٨-٢١٥